موسوعة مصر القديمة (الجزء العاشر)

تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد «بيعنخي»

تأليف
سليم حسن



موسوعة مصر القديمة (الجزء العاشر)

سليم حسن

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٥٩٩٦
تدمك: ٦ ٧٩ ٦٤١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

المحتويات

تمهيد

روابط الوحدة بين مصر والسودان منذ عصر ما قبل التاريخ

إن الموقف المجيد الذي وقفته مصر أخيرًا بجانب بلاد السودان لتحريرها من نير الاستعمار الإنجليزي يعد أمرًا طبعيًّا إذا ما وقف المرء على ما كان ولا يزال بين القطرين من الروابط السلالية والثقافية والدينية والاجتماعية التي تضرب بأعراقها إلى عهود ما قبل التاريخ، أي منذ حوالي خمسة آلاف سنة أو يزيد.

والواقع أن البحوث العلمية والكشوف الأثرية الحديثة قد دلت دلالة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام على أن بلاد النوبة حتى الشلال الرابع كانت منذ عصر ما قبل التاريخ أمة واحدة من حيث السلالة والحياة الاجتماعية والمعتقدات الدينية. فقد أثبتت بحوث علماء علم الإنسان الذين فحصوا عن الجماجم البشرية في كلا القطرين أن كلًّا من المصري والسوداني ينسب إلى سلالة واحدة هي السلالة الحامِيَّة. وقد ظلت هذه السلالة نقية حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة حوالي ١٥٨٠ق.م. وذلك عندما أخذت السلالة الزنجية الجنوبية تختلط بالسلالة الحامِيَّة في الشمال بعض الشيء. كما دلت أحدث الكشوف التي عملت عندما أقيم الخزان عام ١٩٠٢ وعندما بدأت التعلية الأولى حوالي عام ١٩٠٧ على أن الحياة في كل من بلاد النوبة ومصر كانت موحدة في عصور ما قبل التاريخ، فقد وجد أن محتويات القبور وأشكالها في كلا البلدين من حيث الأواني المنزلية والمأكل والملبس وعادات الدفن واحدة وليس هناك أية فروق قط. وقد ظلت الأحوال على هذا المنوال حتى

جاء عهد الملك مينا (حوالي ٣٢٠٠ق.م.) وكان على يده توحيد بلاد القطر المصري وسار بقطره الموحد قدمًا نحو العلا، وهنا يلحظ للمرة الأولى من الآثار أن بلاد النوبة قد تخلفت عن ركب الحضارة المصرية فترة من الزمن، غير أنه لم يمض طويل زمن حتى أخذت مصر تستعيد علاقتها بالقطر الشقيق بلاد النوبة، وقد ظهرت بوادر هذه العلاقة ثانية منذ عهد الأسرة الثانية. فقد وجدت في مقابر بلاد النوبة من هذا العهد أشياء مصنوعة في مصر، كما وجدت في المقابر المصرية أدوات مصنوعة من مواد لا تأتي إلا من بلاد النوبة كالأبنوس والعاج، وهذا يدل على تبادل التجارة بين القطرين. وكان أول ملك مصري سار بحملة منظمة إلى بلاد النوبة هو الفرعون «سنفرو» أول ملوك الأسرة الرابعة وقد عاد منها بمغانم كثيرة. ومنذ ذلك العهد بدأت العلاقة بين القطرين تأخذ مظهرًا جديدًا، إذ بدأ المصريون يرسلون سلعهم دون عائق إلى الجنوب، كما أخذ ملوك مصر يستغلون محاجر الديوريت التي تقع في الصحراء على مسافة ٨٥ كيلو مترًا من بلدة «توشكى» الحالية.

وتدل شواهد الأحوال على أن الحدود الجنوبية في عهد الدولة القديمة (من حوالي عام ٣٢٠٠–٢٤٢٠ق.م.) كانت عند بلدة إلفنتين (أسوان الحالية). وقد عين لها حاكم خاص. والظاهر أن بلاد النوبة في تلك الفترة كان يحكمها عدة أمراء مستقلين، غير أن علاقتهم بمصر كانت على أحسن ما يكون من الود والمصافاة، يدل على ذلك استمرار قيام التجارة بين البلدين بلا انقطاع، فكانت مصر ترسل مقادير عظيمة من الحبوب إلى بلاد النوبة التي تقتصر الزراعة فيها على الأماكن الخصبة، كما كانت بلاد النوبة بدورها ترسل إلى مصر مقابل ذلك البخور والأبنوس والزيوت وسن الفيل والذهب وغير ذلك مما كانت تنتجه هذه البلاد في ذلك العهد. ولا غرابة إذن في أن نرى ملوك الأسرة السادسة المصريين قد أخذوا يهتمون ببلاد النوبة ومنتجاتها فأرسلوا إليها البعوث العدة لارتياد مجاهلها والكشف عن خيراتها، ونخص بالذكر من هذه البعوث تلك التي قام بها الكاشف العظيم «حرخوف» الذي يعد أول كاشف لمجاهل أفريقيا. والظاهر أنه أوغل في الجهات الجنوبية إلى مسافات بعيدة حتى أنه أحضر قزمًا إلى مليكه الفتى الفرعون بيبي الثاني ليرفه عنه وليقوم برقصات دينية خاصة تُؤَدَّى عند تأدية الشعائر. هذا وتدل الوثائق على أن «حرخوف» هذا قد تحالف مع الأمراء الذين كانوا يحكمون الأقاليم التي ارتادها. ويعد هذا أول حلف عقد بين مصر وشقيقتها بلاد النوبة. وتدل الوثائق على أن ملوك الأسرة السادسة قد أرسلوا القائد «وني» لقطع أحجار الجرانيت من المحاجر الواقعة وراء الحدود المصرية ولقطع الأشجار لبناء السفن التي كانت تصنع في بلاد النوبة

نفسها وتشحن فيها الأحجار اللازمة. وقد أسهم في ذلك أمراء بلاد النوبة عن طيب خاطر، وحضروا إلى الشلال الأوَّل ليقدموا ولاءهم للفرعون «بيبي» الأوَّل عندما زار هذه المنطقة، وفضلًا عن ذلك تُحَدِّثُنَا النقوش أن جيش القائد «وني» هذا كان يضم بين جنوده فرقة من الجنود النوبيين وقد ناضلوا معه لصدِّ قبائل البدو المجاورة للحدود. ومما يطيب ذكره هنا أن هؤلاء الجنود النوبيين كانوا قد وفدوا إلى مصر وانضموا إلى الجيش المصري من تلقاء أنفسهم طلبًا للرزق، وقد ظلوا منذ ذلك العهد يفِدون إلى مصر ويخدمون في الجيش المصري حتى الآن، وهم الذين يعرفون الآن باسم الهجانة.

وتدل الظواهر على أن الحدود المصرية قد امتدت حتى وصلت إلى الشلال الثاني في عهد الملك «بيبي الثاني» غير أنه في أواخر حكمه أخذ شمل البلاد المصرية يتفوق وتمزقت البلاد وأصبحت إقطاعات مستقلة؛ ومن ثَمَّ انقطعت العلاقات بين مصر وبلاد النوبة فترة وجيزة كانت فيها مصر مسرحًا للفتن والغزو الأسيوي، في حين أخذت بلاد النوبة تفيق من رقدتها وتخطو نحو الرقي، فكانت لها ثقافة خاصة إذ هبط عليها من الجنوب قوم من أهل السودان يقال إنهم وفدوا من جهة النيل الأزرق وعطبرة وتخطَّوْا في زحفهم أسوان وقد كوَّنوا لأنفسهم حضارة خاصة بهم يدل على مقدار نموِّها ما تركوه في مقابرهم من الآثار التي تختلف اختلافا بيِّنًا عن آثار بلاد النوبة في العصور السابقة، وهذه الثقافة رمز لها عند رجال الآثار بحرف «س» (C). وقد ظلت هذه الثقافة مزدهرة منذ العهد المتوسط الأوَّل، أي بعد الأسرة السادسة، حتى أوائل الأسرة الثانية عشرة عندما غزت مصر بلاد النوبة كَرَّةً أخرى.

والواقع أن العلاقات بين مصر وبلاد النوبة كانت غامضة وقتئذٍ ويقال إن قومًا من النوبيين غَزَوْا مصر نفسها، وقد ظلت الحال مبهمة في مصر حتى أخذت تنتعش ثانية من سباتها العميق، وتفيق من الثورات الاجتماعية التي مزقتها كل ممزق والتي أثارتها الحروب بين شمال مصر وجنوبها، وكان يقوم فيها الجنود النوبيون بدور الجنود المرتزقين.

ولما وُحِّدت البلاد ثانية في عهد الأسرة الحادية عشرة حوالي ٢١٤٠ق.م. أخذ ملوكها يعملون على إعادة علاقتهم ببلاد النوبة مرة أخرى.

وفي خلال الأسرة الثانية عشرة بدأت صفحة جديدة بين ملوك مصر وبلاد النوبة التي أصبحت منذ تلك الفترة مقسمة قسمين مميزين: الأول من أسوان حتى الشلال الثاني ويُسَمَّى إقليم واوات، والآخر من الشلال الثاني حتى مشارف الشلال الرابع ويُدْعَى بلاد

كوش، أي السودان. وتدل شواهد الأحوال على أن أم «أمنمحات الأول» مؤسس الأسرة الثانية عشرة، وموحد البلاد المصرية، كانت من أصل نوبي، ومن أجل هذا وجه عنايته بصورة خاصة إلى بلاد الجنوب وعمل على ضمها لمصر. والواقع أن الولايات الصغيرة المستقلة التي كانت تتألف منها بلاد النوبة وقتئذٍ أخذ أهلها يهددون الطرق التجارية التي بين مصر وبلاد النوبة بالسلب والنهب، وقد شجع على ذلك عدم اكتراث أمراء هذه البلاد بمصر فرأى أمنمحات الأول لكي يؤمِّن تجارة مصر مع الجنوب أن يفتح هذه البلاد ويضمها لتاج مصر فقام بحملة على بلاد كوش وفتحها وأمَّن طرق المواصلات بعض الشيء، وفي عهد أخلافه أقيمت المعاقل المزودة بالجنود في طول بلاد النوبة وعرضها، كما أُسِّسَ مستودع تجاري في بلدة «كرمة» القريبة من دنقلة وعُيِّنَ فيها حاكم خاص من عظماء رجالات مصر وقتئذٍ وهو «حبزافي» الذي لا يزال قبره قائمًا في جبل أسيوط حتى الآن، ويعد أكبر قبر عرف لأمير في الدولة الوسطى، هذا وقد أرسل ملوك مصر إلى كرمة الصناع وأصحاب الحرف فأنشئوا صناعات وثقافة جديدة تعد خليطًا من الثقافة المصرية والثقافة النوبية لتلائم أحوال البلاد.

وقد ازدهرت هذه الثقافة ونمت في كرمة حتى أصبحت هذه البلدة مركزًا هامًّا للتجارة بين الشمال والجنوب. والواقع أن أهل كوش قد تعلموا من المصريين صناعاتهم وحرفهم ومزجوها بحضارتهم وألفوا منها حضارة عظيمة تُدْعَى ثقافة كرمة. وقد أرسل «سنوسرت الأول» ابن «أمنمحات الأول» بعض الحملات لإخضاع القبائل المغيرة الخارجة عن النظام في تلك البلاد وبذلك وطد أركان ملكه في كل البلاد الجنوبية حتى الشلال الثاني الذي كان يعده الحد الفاصل الطبعي للبلاد المصرية، ومنذ ذلك العهد أخذت مصر تفيد من تجارتها مع بلاد «واوات» وكوش وبخاصة من تثمير مناجم الذهب التي أصبحت منذ ذلك العهد موردًا يفيض بالثروة على ملوك مصر، وقد ظل الأمن مستتبًّا والسلام سائدًا في ربوع بلاد النوبة وكوش حتى عهد الملك سنوسرت الثالث إذ نقض بعض القبائل النوبية العهود في زمنه وهددوا التجارة فسار إليهم بجيش من المصريين وقضى على الفتنة في مكمنها، ولم يلبث أهل كوش أن أخلدوا إلى السكينة وساد السلام بين البلدين وجعل «سنوسرت» الثالث الحد الفاصل بين ممتلكاته الأصلية وبين بلاد كوش الشلال الثاني عند قلعتي «سمنة» «وقمة» اللتين أقامهما لذلك وفي هذه البقعة تقع بلدة «صرص» التي تعد حدًّا فاصلًا بين مصر والسودان، ونصب «سنوسرت» هناك لوحته المشهورة التي يتحدث فيها للمصريين عن الكفاح عن الوطن والمحافظة على حدود البلاد فاستمِعْ إليه

وهو يقول: «لقد جعلت تخوم بلادي أبعد مما وصل إليه أجدادي، ولقد زدت في مساحة بلادي على ما ورثته، وإني ملك يقول وينفذ، وما يختلج في صدري تفعله يدي، وإني طموح إلى السيطرة وقوى لأحرز الفوز، ولست بالرجل الذي يرضى لُبُّهُ بالتقاعس عندما يُعْتَدَى عليه، أهاجم من يهاجمني حسبما تقتضيه الأحوال، وإن الرجل الذي يركن إلى الدعة بعد الهجوم عليه يقوي قلب العدو. والشجاعة هي مضاء العزيمة، والجبن هو التخاذل، وإن من يرتد وهو على الحدود جبان حقًّا، ولما كان الأسود يحكم بكلمة تخرج من الفم، فإن الجواب الحاسم يردعه، وعندما يكون الإنسان ماضي العزيمة في وجه العدو فإنه يولي الأدبار، أما إذا تخاذل أمامه فإنه يأخذ في مهاجمته». ثم يقول: «وكل ولد أنجبه ويحافظ على هذه الحدود التي وصل إليها جلالتي يكون ابني وولد جلالتي، أما من يَتَخَلَّى عنها ولا يحارب دفاعًا عن سلامتها فليس ابني ولم يولد من ظهري، والآن تأمل فإن جلالتي قد أمر بإقامة تمثال لي عند هذه الحدود التي وصل إليها جلالتي حتى تنبعث فيكم الشجاعة من أجلها فتحاربوا للمحافظة عليها».

وقد كان لسنوسرت الثالث منزلة عظيمة في نفوس المصريين بعامة، وفي نفوس الكوشيين بخاصة، حتى أنه أصبح مُؤَلَّهًا عند الكوشيين كما صار يعد ضمن آلهتهم في كل أزمان التاريخ القديم، وفضلًا عن ذلك كان موضع تقديس عند الملوك المصريين المحاربين العظماء الذين أتوا بعده أمثال تحتمس الثالث و«تهرقا» الكوشي المنبت. ولا غرابة في ذلك فقد كان مثلهم الأعلى في فنون الحرب.

وبعد سقوط الدولة الوسطى حوالي عام ١٧٣٠ق.م. عادت مصر إلى فترة من الفوضى والانحلال فاحتلها الهكسوس نحو قرن ونصف قرن من الزمان، وتدل الوثائق التي في متناولنا على أن الهكسوس قد مدوا حكمهم إلى بلاد كوش حتى كرمة مدة من الزمن انسحبوا بعدها إلى مصر السفلى وانحصر سلطانهم في بلاد الدلتا. وتدل الكشوف الحديثة على أن بلاد النوبة كانت في عهد الهكسوس الأخير مستقلة، وبعبارة أخرى كان وادي النيل في تلك الفترة مقسمًا ثلاثة أقسام: فكان الملك «كاموسي» آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة يحكم مصر الوسطى ومصر العليا، وكان يحكم بلاد النوبة في الجنوب حاكم مستقل، أما الدلتا فكانت في قبضة الهكسوس. والظاهر أن الكوشيين لم يكونوا معادين للمصريين إذ وُجِدَ في جيش التحرير الذي قام على رأسه «كاموسي» لطرد الهكسوس جنود من الكوشيين، ومن ثَمَّ نجد أن الصلات بين البلدين كانت متصلة، والظاهر أن حاكم بلاد النوبة لم يصغ إلى إغراء الهكسوس عندما طلبوا إليه التحالف على «كاموسي» الذي أراد أن يخلص البلاد جملة من حكم الهكسوس الطغاة، بل كان ضالعًا مع ملك طيبة كاموسي.

وقد تم طرد الهكسوس وإجلاؤهم عن البلاد كلية على يد الفاتح العظيم «أحمس الأوَّل» مؤسس الأسرة الثامنة عشرة حوالي عام ١٥٨٠ق.م. وقد حدث في خلال حرب «أحمس» مع الهكسوس أن انتقض عليه بعض الأمراء من بلاد كوش وزحفوا على البلاد المصرية فلحق بهم أحمس وهزمهم وأخذ بعد ذلك في بسط سلطانه على بلادهم، غير أن المناوشات كانت بين ملوك مصر وبعض الأمراء النوبيين قد استمرت حتى عهد الملك تحتمس الأول، وهو الذي هدأ الأحوال تمامًا في بلاد النوبة وقسمها خمسة أقسام على رأس كل قسم منها أمير وطني من النوبيين.

وكانت فتوحاته قد امتدت في الجنوب حتى الشلال الرابع الذي أصبح الحد الفاصل بين مصر والقبائل المجاورة من السود. وقد ظلت هذه الحدود موضع عناية الفراعنة حتى نهاية الأسرة الثانية والعشرين، وقد غمضت الصلات بعدها بين القطرين حتى ظهرت في صورة جديدة في عهد الأسرة الخامسة والعشرين حوالي ٧٥٠ق.م. أي عندما انتهز الكوشيون الفوضى السائدة في البلاد المصرية وغزوها واستولوا عليها ولقبوا أنفسهم فراعنة مصر.

ولا نزاع في أن بلاد كوش (أو السودان) كانت موضع عناية فراعنة مصر ورعايتهم في عهد الدولة الحديثة المصرية (١٥٨٠–١١٠٠ق.م.) فقد كان حاكم بلاد كوش في أول الأمر ابن الملك فعلًا، ثم أخذ هذا اللقب يطلق على كل حاكم يتولى شئون هذه البلاد، فكان يُسَمَّى «ابن الملك صاحب كوش». وقد كان نفوذه يمتد من المقاطعة الثالثة من مقاطعات الوجه القبلي حتى الشلال الرابع، أي من بلدة «إدفو» حتى مدينة «نباتا»، وهذا يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك أية فروق بين البلاد المصرية والبلاد الكوشية في نوع الحكم، بل كان المصري والنوبي سواسية في المعاملة، وذلك لأن ملوك مصر كانوا يَعتبرون الحد النهائي للبلاد المصرية من جهة الجنوب هو الشلال الرابع.

وقد كان نائب الملك بوصفه أعلى موظف في بلاد كوش هو المسئول قبل كل فرد عن توريد جزية إقليم بلاد النوبة. وهذه الجزية كان يتوقف عليها عظمة الفرعون وسلطانه ونفوذه، وكانت تعد أكبر مصدر للخزانة المصرية وبخاصة الذهب. ولا نزاع في أن هذه الجزية كانت تتطلب إدارة حازمة من ابن الملك حاكم كوش، وعلى الرغم من ذلك لم نجد من بين أبناء الملك الذين تولوا هذا المنصب الخطير من كان صاحب قدرة ممتازة في الإدارة، إذ كان كثير منهم يشغل وظائف خاصة في القصر الملكي مثل مدير الإصطبل الملكي أو سائق عربة الفرعون، وهذا يدل دلالة واضحة على أن ابن الملك صاحب كوش

كان ينتخب من المقربين لدى الفرعون، وذلك ليوثق العلاقة بين بلاد كوش وبين الأسرة المالكة. وتدل الوثائق التي لدينا على أنه كان حرًّا في وظيفته وأنه لم يكن مسئولًا أمام أحد غير الفرعون.

وعندما كانت جزية بلاد النوبة تحمل إلى مصر بوساطة موظف آخر يراقب توريدها للخزانة فلا يعني ذلك بأية حال أن نائب الملك كان تحت إدارة هذا الموظف أو أنه كان مسئولًا أمامه، فقد كان ابن الملك هو المسئول الوحيد أمام الملك وحسب. وتدل النقوش على أن هذه الجزية كانت تقدم للفرعون عادة في حفل عظيم يستعرض فيه كل مواد الجزية.

وكانت حكومة ابن الملك صاحب كوش تشمل طائفة من الموظفين استطاع بمعونتهم تأدية مهامٍّ وظيفته وتنفيذ سياسته على الوجه الأكمل. وأهم هؤلاء الموظفين قائد جيش الرماة في كوش، وكان يقود الجنود الذين في خدمة نائب الملك. وكان له كذلك وكيلان يقوم واحد منهما على إدارة بلاد «واوات» أما الآخر فكان يدير بلاد كوش. والمعروف وقتئذٍ أن إقليم واوات كان كما ذكرنا من قبل يمتد من أسوان حتى الشلال الثاني، والإقليم الآخر أي بلاد كوش، يمتد من الشلال الثاني حتى الشلال الرابع عند بلدة «كاراي» القريبة من «نباتا». وهذا آخر ما وصل إليه الفتح المصري على حسب المعلومات التي وصلت إلينا حتى الآن.

وكان يوجد فضلًا عن ثلاثة الموظفين الكبار الذين ذكرناهم هنا عدد عظيم من صغار الموظفين. وتدل الظواهر على إن الإدارة في هذه البلاد كانت تشبه كثيرًا في تأليفها الإدارة المصرية في تلك الفترة.

وعندما يريد الفرعون إنجاز عمل خاص في بلاد السودان يرسل رسولًا مجهزًا بسلطات خاصة منعًا من التصادم مع ولاة الأمور هناك، ومن ثَمَّ كان على الفرعون أن يزوده بخطاب من عنده لنائب كوش ليعاونه في قضاء مأموريته.

هذا وكان معظم رجال الإدارة في حكومة ابن الملك صاحب كوش من المصريين، كما كان من بينهم سودانيون قد تمصروا وتَسَمَّوْا بأسماء مصرية بحتة، ويلفت النظر أن بعض أبناء الملك حكام كوش كانوا من السودانيين أنفسهم، نذكر منهم على سبيل المثال ابن الملك «نحسي» (معنى كلمة نحسي الأسود) الذي كان يشغل هذه الوظيفة في عهد رعمسيس التاسع وهذا دليل على ما كان بين القطرين من حسن تفاهم وتقدير. على أنه من جهة أخرى كان يوجد بجانب نظام الوظائف هذه والإدارة الأمراء الكوشيون الذين

كانوا يسكنون في بقاع مختلفة من بلاد كوش، وهؤلاء كانوا يقومون بتمثيل دورهم في حكم البلاد، فمثلًا في عهد الملك توت عنخ آمون شاهدنا كيف أن أمير «معام» (عنيبة الحالية) والأمراء الآخرين من «واوات» قد ظهروا على رأس أتباعهم في بلاط الفرعون يقدمون فروض الطاعة والولاء. والواقع أن الدور الذي كان يلعبه هؤلاء الأمراء لم يعرف بعدُ على وجه التأكيد، غير أن مجرد وجودهم يدل على أن المصري كان يحرص على العلاقة الودية بينه وبين هؤلاء الأمراء. والظاهر أن الأمير الذي كان يدين بالولاء للفرعون يبقى في إمارته على شرط أن يقدم ما عليه من جزية. ولا نزاع في أن هؤلاء الأمراء كانوا بطبيعة الحال تحت سلطان ابن الملك حاكم كوش ونائبيه فيراقبونهم مراقبة حازمة. ولما كان كل أمير منهم يسعى للحصول على استقلاله السياسي بقدر المستطاع، فإنهم من أجل ذلك كانوا يقومون بالثورات في عهد الدولة الحديثة، ولكن ملوك مصر قد استعملوا وقتئذٍ سياسة ماكرة لإخضاع الحكام الثائرين، وذلك أن الفرعون كان يحضر من غزواته أولاد الأمير وإخوته — كما حدث في عهد تحتمس الثالث — ويضعهم في مكان أمين، وعند موت الأمير كان يولي الفرعون ابنه أو أخاه الذي كان في مصر مكانه، وكان الفرعون ينشئ هؤلاء الأولاد أو الإخوة تنشئة مصرية خالصة حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم عملوا على ما فيه خير مصر، ولكن هذه السياسية برهنت على فشلها في الأزمان القديمة، كما برهنت على خيبتها في الأزمان الحديثة عندما أراد الإنجليز تطبيقها في بلاد الهند. والواقع أن التعلم في مصر كان يقودهم إلى عكس ما ذهب إليه الفراعنة، ولكن من جهة أخرى نجد أن الفرعون كان يربي أطفال هؤلاء الأمراء مع أمراء البيت المالك، وكان كل واحد منهم يحمل لقب «غلام» (أو مملوك)، وكان هذا اللقب يبقى عالقًا بهم حتى وهم متقدمون في السن ومتقلدون أعظم وظائف الدولة. وقد وجدنا أن أحد أبناء الملك صاحب كوش وهو المسمى «وسرساتت» كان يلقب بالمملوك أو الغلام، وكان على ما يظهر نوبي الأصل، ومع ذلك نجد أنه قد تولى منصبًا من أعظم مناصب الدولة في عهد أمنحتب الثاني أي منصب ابن الملك صاحب كوش. وتدل النقوش التي في متناولنا الآن على أن هذا الحاكم كان صديقًا حميمًا للفرعون أمنحتب الثاني وأنه كان يرغب في محاباة صغار الموظفين من أهل كوش ووضعهم في المناصب العالية، وقد أرسل إليه الفرعون أمنحتب رسالة شخصية تعد إلى الآن الأولى من نوعها يذكره فيها بالحملات التي قاما بها سويًّا في بلاد آسيا وما غنمه «وسرساتت» من غنائم وما جلبه معه من جوارٍ وخادمات، وكذلك حذره أمنحتب في هذا الخطاب أن يستخدم صغار النوبيين في الوظائف الكبيرة إلا عند الضرورة القصوى.

ولا نزاع في أن تنشئة أولاد الأمراء الكوشيين في البلاط المصري مع من سيكونون رؤساءهم تدل على أن المصري لم يسلك مع أهل كوش مسلك سياسة الاستغلال والسلب والنهب بل كانت سياسة مهادنة ووئام. والواقع أن المصري لم يحاول قط أن يقضي على شخصية الكوشي إذ لم نجد أي فرعون أَجْلَى أسرة من أسر الأمراء الوطنيين عن موطنها الأصلي، مع أن ذلك كان من الأمور السهلة الهينة لدى الفراعنة؛ وقد كان من نتائج هذه السياسة المنطوية على التسامح أن وجدنا سكان بلاد كوش قد خطوا خطوات واسعة نحو التمصير، ولذلك كان معظم الموظفين الإداريين في كل مرافق الحكومة من أهل البلاد. والواقع أن المصري كان يكره الاغتراب ومن أجل ذلك كان لا يحب الهجرة إلى بلاد كوش، ومن ثَمَّ كان المصريون حتى كبار الموظفين منهم، لا يرغبون في أن يدفنوا في بلاد غير مصر، فكان الموظف بعد انتهاء مدة حكمه يعود ليدفن في موطنه الأصلي.

وعلى الرغم من يقظة حكام بلاد كوش وما كان بين القطرين من حسن تفاهم أقام الفراعنة بالقرب من النيل عدة حصون في بلاد النوبة في عهد الدولة الحديثة لحماية التجارة من غارات بدو الصحراء الذين حاربهم فراعنة الدولة الحديثة وأخضعوهم في عهد تحتمس الأول وتحتمس الثالث ورعمسيس الثاني وغيرهم.

والديانة التي سادت بلاد كوش في عهد الدولة الحديثة هي الديانة المصرية القديمة، ويدل على ما كان بين القطرين من ارتباط ديني وثيق أن بعض الآلهة الذين كانوا في الأصل آلهة كوشيين قد أصبحوا يعبدون في مصر أيضًا؛ فالإله «ددون» الذي كان معبودًا كوشيًّا أصبح يعبد في مصر كذلك منذ عهد الدولة القديمة، فأصبحت الديانة في كل من مصر وكوش ديانة مشتركة كما هي الحال الآن. والواقع أنه لم يكن هناك إله يعبد في مصر إلا كان يعبد في بلاد كوش، ومن ثَمَّ نرى أن الوحدة بين البلدين كانت تامة من نواحي السلالة والدين واللغة جميعًا.

وقد ساعد على توحيد الديانة في البلدين ما كان بينهما من اختلاط كبير، فقد كان النوبي منذ أقدم العهود ينزح إلى مصر ويعمل كادحًا بطرق مختلفة، على أن هذا النزوح وإن كان محدودًا في بادئ الأمر، غير أنه أخذ يعظم شيئًا فشيئًا حتى بلغ درجة عظيمة في نهاية الدولة الحديثة، إذ كان السودانيون يتدفقون على مصر ويعمل الرجال منهم في زرع الأرض وغسل الذهب، أما النساء فكُنَّ يعملن في الغزل والنسج وغير ذلك من الأمور المنزلية. يضاف إلى ذلك أن الفرعون كان يصطفي من النوبيين أفرادًا لخدمته الخاصة لا يلبثون أن يتقلدوا وظائف عالية في مرافق الدولة. وأكثر ما يستخدم فيه النوبي الجندية

والشرطة، ويرجع تاريخ ذلك إلى أواخر عهد الدولة القديمة. فقد كان ينخرط بوجه عام في فرق الرماة، كما كان يستعمل جنديًّا يحمل الدرع ويسوق العربة، ولم يكن بينه وبين المصري في غالب الأحيان في عهد الدولة الحديثة أي فرق في الملبس، وكان رئيس الشرطة من الكوشيين أنفسهم، هذا إلى أنه قد اندمج في الجيش المصري فرقة كوشية كاملة لها من الحقوق ما للفرق المصرية تقريبًا.

وكانت تحتل المرأة النوبية في تلك الفترة أحيانًا مكانة عظيمة عند عظماء القوم، كما تدل على ذلك نقوش بعض المقابر التي وصلت إلينا من عهد الأسرة الثامنة عشرة.

كما تدل النقوش على أن بلاد كوش كانت تلعب دورًا هامًّا في سياسة مصر الداخلية في عهد الدولة الحديثة فقد حدث في عهد الأسرة التاسعة عشرة أنه بعد موت الفرعون مرنبتاح بن رعمسيس الثاني خلفه سلسلة من الملوك الذين اغتصبوا عرش البلاد دون حق شرعي، وقد ظهرت بلاد كوش في ذلك العهد بوصفها عاملًا قويًّا في سياسة البلاد الداخلية بسبب ما حيك فيها من دسائس تدور حول تولى عرش مصر.

فنجد وقتئذ أن الملك «رعمسيس سبتاح» قد قام بنفسه برحلة إلى بلاد النوبة لينصب ابن الملك حاكم كوش بنفسه في وظيفته، غير أنه على ما يظهر لم يذهب في سفره إلى أكثر من «بهين» (وادي حلفة الحالية)، وهذا أمر لم يسبق له مثيل ويدل دلالة واضحة على ما كان لابن الملك نائب كوش، ولبلاد كوش نفسها من أهمة بالغة عند الفراعنة، فضلًا عن ذلك نعرف من جهة أخرى أن أحد أبناء الملك أصحاب كوش قد اعتلى عرش ملك مصر في هذه الفترة مما يدل على قوة بلاد كوش في توجيه سياسة الدولة الداخلية. ولدينا برهان قاطع على صدق هذا الرأي فقد دبرت في أواخر عهد الملك رعمسيس الثالث مؤامرة على قتله، دبرتها إحدى حظيات هذا الملك رغبة منها في أن تجعل ابنها الوارث للعرش بدلًا من ابن رعمسيس الشرعي الذي تولى الحكم فيما بعد باسم رعمسيس الرابع؛ والدور الذي لعبته بلاد كوش في هذه المؤامرة أن قائد الرماة هناك كانت له أخت في خدر رعمسيس الثالث وكانت في جانب المتآمرين على قتل الفرعون وكان المتفق عليه هو أنه إذا نجحت المؤامرة انضمت كوش للمغتصب للعرش وأعلنت الولاء له، غير أن المؤامرة قد كشف أمرها في النهاية على الرغم من أن الفرعون قد توفي بعد الاعتداء عليه بزمن قصير جدًّا.

وقد ظل الفراعنة في عهد الدولة الحديثة يهتمون بأمر السودان وأهله لدرجة أن «بانحسي» النوبي قد عين في عهد الملك رعمسيس الحادي عشر في وظيفة «ابن ملك» إرضاءً لأهل كوش، وقد لعب هذا النائب دورًا عظيمًا في حرب التحرير أو بعبارة أخرى، عصر النهضة التي قامت في مصر في تلك الفترة لإصلاح ما أفسده الفراعنة الضعفاء.

والواقع أن الذي كان يتولى وظيفة ابن الملك حاكم كوش في تلك الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة الحديثة كان في يده سلطان عظيم، ولذلك فإن «حريحور» عندما عين كاهنًا أكبر للبلاد وقائدًا للجيش ضم إليه وظيفة ابن الملك صاحب كوش وبذلك أمكنه بعد موت رعمسيس الحادي عشر أن يقفز إلى عرش الملك بيسر وسهولة وقد سلم لابنه بيعنخي هذه الوظيفة بعد إعلان نفسه فرعونًا على مصر، فكان بذلك آخر من قبض على زمام الأمور في بلاد كوش، ولم يتولَّ هذه الوظيفة بعد «بيعنخي» هذا إلا امرأة تُدْعَى «نسخنسو» وهي زوج الفرعون «بينوزم الثاني» أحد ملوك الأسرة الواحدة والعشرين، والظاهر أنه كان لقبًا فخريًّا إشباعًا لرغبة هذه الأميرة، ومنذ الانقلاب السياسي الذي حدث في أواخر الأسرة العشرين اعتنقت سياسة جديدة أصبحت بمقتضاها الإدارات الهامة متجمعة في يد الوارث للعرش بما في ذلك وظيفة ابن الملك صاحب كوش. وقد كان ذلك هو الحل المنطقي الوحيد لمجابهة المصاعب الداخلية التي سببتها دسائس طبقة الموظفين البيروقراطية وطبقة الكهنة الأغنياء في حكومة كل ميولها مع الحكم الديني. وقد كان هذا المبدأ سليمًا لدرجة أن ملوك الأسرة الثانية والعشرين التي أسسها «شيشنق» اللوبي الأصل قد استمروا في نفس السياسة التي أصبحت سياسة تقليدية وهي تهيئة أمراء البيت المالك المصري ليكونوا على رأس الإدارات الحكومية في مصر والسودان. غير أنه قد لوحظ عدم استعمال لقب ابن الملك صاحب كوش، ولكن ذلك لا يعني أن إدارة حكومة كوش لم تكن في يد أكبر أولاد حكام طيبة. ومن البدهي أن لقب ابن الملك صاحب كوش في نظر أي واحد من هؤلاء الملوك الذين كانوا فعلًا أولاد ملوك لم يكن له قيمة في نظره بجانب ولاية العهد وقيادة الجيش والكهانة العظمى التي يشغلها. وهكذا نرى مما سبق أن وظيفة ابن الملك حاكم كوش التي استمرت نحو أربعة قرون ونصف القرن، أي حتى حوالي عام ١١٠٠ ق.م، قد كانت همزة الوصل بين القطرين ولعب حاملوها دورًا هامًّا في توثيق عُرَى الوحدة السياسية والدينية والاجتماعية بين شَمَالِيِّ الوادي وجنوبه.

وأخيرًا يلحظ أن العلاقات بين كوش ومصر منذ عام ١١٠٠ إلى ٧٥٠ق.م. كانت غامضة. وكل ما نعلمه عن هذه الفترة لا يخرج عن الحدس والتخمين؛ ولكن المؤكد هو أنه كان هناك اتصال روحي بين البلدين، ولا أدل على ذلك من أنه عندما تحدثنا الآثار فجأة عن ملك كوشي يُدْعَى «كشتا» قد تولى عرش الملك في طيبة وحكم الوجه القبلي، نلحظ أنه كان يعتنق مذهب ديانة الإله آمون وهي الديانة التي كانت سائدة في مصر في تلك الفترة، وبذلك لم يجد صعوبة في جذب الشعب المصري إليه واستمالته، وقد دلت

البحوث الحديثة على أن «كشتا» هذا هو مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين في مصر، وأنه قد هبط إلى مصر من «نباتا» عاصمة ملكه الواقعة عند الشلال الرابع. وقد كشفت حديثًا جبَّانة ملوك الأسرة الخامسة والعشرين هذه في «الكورو» القريبة من نباتا، وبذلك ظهرت أمامنا صفحة كانت غامضة عن ملوك هذه الأسرة حتى زمن قريب جدًّا. وهذه الأسرة الكوشية كانت معاصرة للأسرة الثالثة والعشرين المصرية التي كان مقرها في الوجه البحري. وسنترك الكلام عن الأسرة الكوشية وحكمها لمصر جملة إلى الجزء التالي من هذه الموسوعة إن شاء الله.

وإني أتقدم هنا بعظيم شكري لصديقي الأستاذ محمد النجار المفتش بوزارة التربية والتعليم لما قام به من مراجعة أصول هذا الكتاب وقراءة تجاربه بعناية بالغة. كما أتقدم بوافر الشكر إلى السيد محمد زكي خليل مدير مطبعة جامعة القاهرة ومعاونيه لما بذلوه من جهد مشكور وعناية ملحوظة في إخراج هذا الكتاب.

وكذلك أقدم عظيم شكري للسيد أحمد عزت بجامعة إبراهيم لما بذله من مجهود عظيم في قراءة التجارب وعمل فهرس الأعلام والمصادر الإفرنجية بكل دقة وعناية، وفي الختام أشكر السيد الأستاذ الشاطر بصيلي بمعهد السودان كل الشكر على ملاحظاته عن الأسماء النوبية وقراءة بعض التجارب.

الفصل الأول

علاقة بلاد النوبة (كوش) بمصر منذ أقدم العصور حتى نهاية الفتح الكوشي

مقدِّمة في باكورة القرن العشرين قامت نهضة مباركة في البلاد المصرية لتحسين حال الفلاح وإسعاد أهل البلاد بعامة، وكان من مقتضياتها تعلية خزان أسوان في ١٩٠٧ وكان لا بُدَّ من عمل حفائر في الجهات الأثرية التي ينتظر أن تغمرها المياه بعد التعلية وراء الخزان أي في أراضي بلاد النوبة السفلى.

وقد دلت الحفائر التي عملت في بلاد النوبة في هذه الفترة على أن العلاقات الثقافية والتجارية بين هذه البلاد ومصر كانت متصلة الحلقات منذ عهد ما قبل التاريخ، ولا تزال البحوث التي تعمل حتى الآن تؤكد هذه الصلات الوثيقة بين القطرين. ويرجع الفضل في كشف النقاب عن هذه الثقافة للحفائر التي قام بها الأستاذ «ريزنر»)[١] حوالي عام ١٩٠٧م. أولا، ثم لحفائر جماعة الأثريين الذين قفوه في هذا المضمار ونخص بالذكر منهم الأثري «فرث»[٢] والأستاذ «جرفث»[٣] والعلامة «ينكر»[٤] وغيرهم ممن أسهموا في هذه الكشوف.

ولما كانت هذه الكشوف الأثرية قد دلت على علاقات بين البلدين يرجع عهدها إلى عصر ما قبل التاريخ حتى نهاية الأسرة الثانية عشرة وما بعدها فقد قسمها الأستاذ «ريزنر» على حسب ترتيبها التاريخي قسمين كبيرين بالنسبة لبلاد النوبة:

القسم الأول: ويشمل عصر ما قبل التاريخ النوبي ويحتوي على مجموعتين ثقافيتين مميزتين، رمز للأولى بحرفي (أ) A و(ب) B وقد اعتنق علماء الآثار جميعًا تلك الرموز التي وضعها الرموز التي وضعها «ريزنر». وهاتان المجموعتان يقابلان في التاريخ المصري عصر ما قبل التاريخ وعصر الأسرات الأول وعصر بناة الأهرام حتى بداية الأسرة السادسة.

القسم الثاني: ويشمل العصر النوبي المتوسط ويرمز له الأستاذ «ريزنر» بالمجموعة الثقافية (ج) C، وهذا ما يقابل في التاريخ المصري القديم العصر المتوسط الأول أي العهد الذي وقع بعد سقوط الدولة القديمة حتى قيام الدولة الوسطى، ثم الدولة الوسطى وعصر الهكسوس، وأخيرًا العصر المتوسط الثاني من التاريخ المصري الذي عاصر عهد الهكسوس.

هوامش

(١) راجع: Reisner, The Archaeological Survey of Nubia for 1907–1908, Cairo, 1910.

(٢) راجع: Firth, The Archaeological Survey of Nubia. Report for 1908–1909, Cairo, 1912

- Firth I.—Report for 1909–1910, Ib. 1915.
- Firth II.—Reporf for 1910–1911, Ib. 1927.
- Firth III.

(٣) راجع: Griffith, Oxford Excavations in Nubia; Annals of Archaeology, Liverpool, 1908 ff.

(٤) راجع: Junker, Bericht über die Grabungen der Akademie der Wissenschaften in Wien auf den Friedhöfen von Ermenne (Nubien) im Winter Ibid von El Kubaneih Nord. Winter 1910–1911. Ibid, von El Kubanieh–Süd. Winter 1910–1911. Ibid, von Toschke (Nubien) in Winter 1911.12.

الفصل الثاني

عصر ما قبل التاريخ في بلاد النوبة السفلى

المجموعة الثقافية (أ) A (وتؤرخ من حوالي ٤٠٠٠–٣٠٠٠ ق.م.)، والمجموعة (ب) B (من حوالي ٣٠٠٠–٢٤٠٠ق.م.).

دلت الكشوف الأثرية التي قامت في بلاد النوبة السفلى على أنه كانت توجد سلسلة مراكز للسكان يقع كل منها عند فم وادٍ أو خور من التي ألفت فيها رواسب النهر مساحات مختلفة الحجم صالحة للزراعة، وقد كان عماد هؤلاء السكان الذين يسكنون هذه المساحات في حياتهم هو الزراعة يؤازرها الصيد البري والمائي ونقل السلع من مكان لآخر. وقد بقيت حياة هذه الجماعات مستمرة ما بقيت الأرض صالحة للزراعة. وفي بعض الأحيان كانت تتكون طبقات جديدة من الغرين يرسبها النهر، كما كان النيل ينحسر عن طبقات أخرى فتصبح جافة قاحلة. ولقد دلت الحفائر التي عملت في هذه الجهات على أن مدافن كل جماعة من السكان قد استمرت ممثلة منذ عهد ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا على الرغم مما أصاب تلك المدافن من نهب وتعرية. أما عدد هذه الجماعات ومقدار ما كان عليه أهلها من سعادة فكان يختلف كثيرًا من عصر لعصر. وهذا الاختلاف يرجع أحيانًا إلى التغيرات التي كانت تحدث في منسوب النيل، وبعضه يرجع إلى الأحوال الإدارية والتجارية في البلاد فيلحظ مثلا أن ارتداد الزراعة من طبقات عليا إلى أخرى سفلي من الأرض بين عهد ما قبل الأسرات وعهد الدولة القديمة يرجع سببه إلى انخفاض في منسوب النيل العالي، في حين أن الزيادة العظيمة في عدد السكان في عهد الدولة الحديثة ثم في عهد البطالمة والرومان قد يرجع إلى إقامة المؤسسات الدينية

التي كانت تعتمد في تموينها على الضرائب التي تُجْبَى من نقل السلع من السودان إلى مصر وبالعكس، وهذه المؤسسات لا تزال آثارها باقية حتى الآن.

وقد دَلَّتْ نتائج الفحص عن الهياكل البشرية التي وجدت في أقدم الجبَّانات النوبية من عهد المجموعتين الثقافيتين (أ) A و(ب) B على أن أقدم سكان عثر عليهم كانوا موحدين[١] مع أقدم سكان ظهروا في مصر، أي مع القوم الذين يسمون مصريي عهد ما قبل الأسرات. فقد وجد أن هؤلاء القوم أنفسهم — بعد فحص هياكلهم الباقية — من نفس سلالة المصرين الذين سكنوا مصر قبل ظهور الأسرات المصرية، كما أن فخارهم وآلاتهم المصنوعة من الظران ومدخراتهم من المواد الغفل ومصنوعاتهم من المعدن وأوانيهم الحجرية وجلودهم المدبوغة ونسيجهم وحصيرهم وحليهم وتعاويذهم المصنوعة من الحجر والعاج والخزف المطلي كانت كلها مطابقة في مادتها وشكلها وصناعتها للأشياء التي وجدت من نفس العهد المصري. وبعبارة أخرى لم يكن مصريو عصر ما قبل التاريخ يحتلون وادي النيل من إقليم القاهرة حتى الشلال الأوَّل وحسب، بل كانوا يمتدون حتى منطقة الشلال الثاني على ما يظهر.[٢] وكانت الحيوانات الأليفة والبرية المعروفة للسلالة النوبية القديمة تشبه كثيرًا الحيوانات التي في عصر هؤلاء. ولا نزاع في أن الزراعة كانت شائعة في النوبة كما كانت في مصر، يضاف إلى ذلك أن التعامل الدائم بين القبائل القاطنة على امتداد النهر كان موجودًا، يدل على ذلك ما نجده من وحدة في أشكال ومادة وصناعة كل الأشياء التي كان يستعملها الأهلون وقتئذٍ، هذا إلى أن الأشياء التي وجدناها مصنوعة من مواد مستخرجة من مساحة واحدة فقط من الوادي كانت توجد بنفس الكثرة في سائر جهات الوادي الأخرى. مثال ذلك السكاكين المصنوعة من الظران. هذا وكانت طرق النقل هي السفن التي تجري في النيل منذ القدم.

وقد دل الفحص على أن سكان بلاد النوبة ومصر كانوا ينسبون إلى الجنس الحامي،[٣] وكذلك ثبتت نسبتهم على وجه التأكيد للوبيي شَمَالِيِّ أفريقية[٤] والأجناس الذين يقطنون في شَرْقِيِّهَا وهم سكان الصحراء الشرقية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وبلاد الصومال.

ولا نعرف حتى الآن إذا كان سكان وادي النيل قد نشئوا من طبيعة تربتهم الأصلية أو وفدوا إلى البلاد عن طريق الهجرة. وإذا كانوا من المهاجرين فرضًا فمن أي طريق أتوا إلى وادي النيل؟ ومن جهة أخرى لا نعرف إذا كان المصريون والنوبيون في الأصل ينسبون إلى ثقافة حامية مشتركة أو لا ينسبون، وذلك لأن كل الطبقة الأثرية التي بعد

شلال «أسوان» قد اختفت، غير أن الأستاذ «ينكر»[٥] يعتقد أن الوحدة التي توجد بين الأواني المصنوعة من الفخار، وكذلك تشابه العادات الجنازية مثل دفن الجسم مقرفصًا تعد من الثقافة الحامية. وعلى ذلك يظن أن مركز هذه الثقافة هو شمالِي بلاد أسوان، وأن هذا الجنس من الناس قد زحف في استعماره نحو الشمال حتى الوجه القبلي. ومع ذلك نجد أن الأستاذ «ينكر»[٦] لا يقطع برأي فيما إذا كان هؤلاء القوم هم أول جماعة وفدوا على وادي النيل أو أنه كان يوجد قبلهم سكان أصليون خضعوا للسكان الوافدين الجدد. وعلى أية حال فإن رأيه النهائي هو أن الثقافة الحامية هي أصل ثقافة الوجه القبلي. ومن جهة أخرى لا نعرف إذا كانت ثقافة «البداري» التي تؤرخ بحوالي ٤٠٠٠ق.م. وتقع في مصر الوسطى لها ارتباط بالثقافة النوبية أيضًا أو لا ترتبط بها. ولا مراء في أنه توجد علامات في الفخار الذي وجد في «البداري» وبخاصة أواني الفخار الأحمر المصقول ذي الفوهة السوداء، فإن هذه الأواني تمتاز بخفة الوزن كما يمتاز سطحها بتموجات، وقد وجدت مثيلاتها في الفخار النوبي الذي يرجع إلى عهد المجموعة الثقافية A الأولى والثانية، غير أن هذا التوافق يوجد بجانبه تخالف من نواحٍ كثيرة، فلا يعد برهانًا كافيًا لإثبات الرأي الذي اشترك فيه كل من «ينكر» والأستاذ «شارف»، وهو القائل بأن منطقة «البداري» الثقافية تمتد حتى بلاد النوبة القديمة، أي إن ثقافة البداري بنيت عليها ثقافة المجموعة A. هذا ويعتقد الأثري «برنتون» أن ثقافة البداري قد امتدت إلى بلاد النوبة حيث تطورت هناك كثيرًا وانحطت إلى درجة محسة[٧] إذ يقول: إن كثيرًا من الأمثلة المقابلة للأشياء التي ترجع إلى عهد ما قبل الأسرات المبكر المستخرجة من حفائر «البداري»، وبخاصة الصوان والمخارز المصنوعة من العظم وما أشبه ذلك قد وجدت في بلاد النوبة. وقد استمر استعمال الأواني الفخارية ذات السطح المموج في صور مختلفة إلى أزمان متأخرة (حتى الألْف الأولىق.م.). وأهم ما يلفت النظر بين هذه الأشياء أشكال الفخار المستعملة في كل من المنطقتين فنجد أن الكأس التي كانت أكثر الأشكال شيوعًا واستعمالًا في «البداري» كانت توجد كذلك بكثرة في بلاد النوبة حيث استمرت عدة قرون مستعملة في أنحاء هذه البلاد. وهذا التشابه في المواد المستعملة وهو الذي يَدَّعِي هؤلاء العلماء أنه جاء عن أصل ثقافة حامِيَّةٍ عتيقة لا يقدم لنا أي برهان على وجود أي اتِّصال ثقافي بين ثقافة «البداري» وثقافة بلاد النوبة القديمة في عصر ما قبل التاريخ.

ومن جهة أخرى نرى أن ثقافة «البداري» التي ترجع إلى حوالي ٤٠٠٠ق.م. قد أعقبتها أوَّل حضارة قامت في الوجه القبلي في مدينة «أمبوس» (نبتي) وموقعها الآن

البلدة المعروفة باسم «نقادة» وهي التي يطلق على حضارتها «ثقافة نقادة الأولى» غير أن هذه الثقافة الأخيرة لم تؤسس بدورها على غرار الحضارة النوبية. والغريب أنه لم يوجد لهذه الثقافة الأخيرة أثر في بلاد النوبة إلا في جَبَّانَةٍ واحدة وهي جَبَّانَةُ «بهان» الواقعة على مسافة قريبة جنوب شلال أسوان، أي في أقصى الحد الشمالي لبلاد النوبة. وبذلك يكون من الجائز وجود محطة في عهد «نقادة» الأوَّل يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل التاريخ، ويحتمل أنه قد أُقِيمَ فيها مستودع تجاري وكان لعمال هذا المستودع الجَبَّانَةُ رقم ١٧، وعلى أية حال فإن هذه الجبانة تشمل عددًا من المقابر يلفت ما عثر عليه فيها النظر، إذ يدل ما وجد فيها من أشياء على أنها تنتمي إلى حضارة «نقادة» الأولى، ونخص بالذكر من بينها أواني أسطوانية وسطها مفرطح وذات قاعدة مصنوعة من حجر البازلت أو البرشيا، وأواني من الفخار الأملس لها حافة عريضة سوداء (Black-topped)، وأواني حمراء مصقولة وأخرى سوداء مصقولة أيضًا وأطباقًا مدهونة باللون الأبيض[٨] وأطباقًا على هيئة المقمعة من أحجار ذات ألوان منوَّعة ومكاحل من الأردواز على شكل معين.[٩] وعلى أية حال فإن موقع «بهان» لا يعتبر دليلًا مقبولًا[١٠] على أن أوَّل ثقافة نوبية قد أسست في الوجه القبلي كما أسست في بلاد النوبة السفلي. هذا ويظن الأستاذ «ستيندورف» أنه في هذا العهد العتيق لم يكن أهالي النوبة من الأقوام المتحضرين بل كانوا لا يزالون يعيشون عيشة البدو الجائلين وكانوا رعاة أكثر منهم مزارعين، ومن أجل ذلك لم يكن لديهم ضرورة ملحة لتذوُّق عيشة الاستقرار الثقافية والاشتغال بالتجارة.

وكشفت أعمال الحفر للمرة الأولى في أديم بلاد النوبة عن عدد عظيم من المقابر تحتوي على أشياء ثقافية ترجع إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، وهذه الأشياء تنسب بلا شك إلى «ثقافة نقادة الثانية» التي نبعت من «ثقافة نقادة الأولى»[١١] وقد ظهر فيها عناصر جديدة كثيرة وبخاصة الفخار ذا المقابض المُمَوَّجَةِ. وهذا الفخار يضرب بأعراقه إلى فلسطين وسوريا اللتين نقل عنهما. وقد انتقل إلى بلاد النوبة عن طريق الحدود المصرية وقد وجد هذا الفخار مستعملًا في بلاد النوبة حتى الشلال الثاني في «جمي»[١٢] الواقعة على مسافة خمسة عشر ميلا جنوب «وادي حلفا».

وعلى ذلك نجد أنه قد أصبح لدينا في عصر ما قبل التاريخ ما يمكن أن نطلق عليه اسم «مصر الكبيرة» الموحدة من حيث الجنس والثقافة وتمتد من أول «وادي حلفا» حتى «الدلتا».

ولدينا بجانب المواد الثقافية المصرية البحتة التي انتقلت من مصر إلى بلاد النوبة مواد ثقافية أخرى من أصل نوبي لا توجد مثيلاتها في مصر، ونخص بالذكر من بين هذه أواني الفخار الدقيقة الصنع المصقولة ذات اللون الأحمر والتي يزين حافتها شريط ضيق أسود. وهذه الأواني تُعَدُّ نتاجًا خاصًّا ببلاد النوبة. وقد لاحظ الأستاذ «ينكر»[١٣] بحق أن هذه العلامة ليست المميز الرئيسي لهذا النوع من الفخار بل تعد المادة واللون والطلاء الأسود الداخلي وخفة وزن الفخار بوجه خاص هي الأسس القويمة التي تميز هذه الأواني عن الأواني المصرية. وقد اختلفت الآراء في أصل هذه الأواني ذات الحافة السوداء فيقول الأثري «فرث» إنها تقليد للأواني الفخارية ذات الشريط الأسود، ويعني بذلك أن صانع الفخار النوبي قد عمل تجربته الأولى من فخار مستورد من مصر. ويرى الأستاذ «ينكر»[١٤] أن هذه الأواني من صناعة مصرية نوبية مشتركة في عصر ما قبل التاريخ المبكر. وقد أخذت تتغير في مصر شيئًا فشيئًا ولكنها بقيت ثابتة في بلاد النوبة، ويوافق على هذا الرأي الأستاذ «ستيندورف» ويقول إن أقدم فخار مما له مقبض قد جلب إلى بلاد النوبة من مصر غير أنه لم يستعمل وحده باستمرار، إذ نجد منذ العصور القديمة أن الأواني الفخارية المهداة للمتوفى كانت تصنع في البلاد نفسها دون مشقة على أنها تقليد للأواني ذات الشريط الأسود، ولا نزاع في أنها كانت متأثرة بها ومأخوذة عنها.

بدء الخلاف في حضارة القطرين

وقد تم اتحاد البلاد المصرية سياسيًّا كما هو معلوم على يد «مينا»[١٥] حوالي عام ٣٢٠٠ق.م.، ومن ثَمَّ بدأ العصر التاريخي في الجزء الأسفل من النيل، وعندئذ نشأت مصر الحقيقية. وقد ولدت مصر ذات كيان جديد قوى لم يتغير مدة ألف سنة من الزمان. ومن ثَمَّ خُلِقَ في مصر فن جديد واخْتُرِعَتِ الكتابة المصرية، وبذلك خُتِمَ العصر البدائي المعروف بعصر الثقافة النحاسية الحجرية التي يميز بها عهد ما قبل التاريخ أو ما قبل الأسرات.

وهذا التطور العجيب الذي حدث في مصر في مدة قرن أو بضع عشرات من السنين لم تسهم فيه بلاد النوبة بنصيب ما، إذ لم يمتد الروح المصري الجديد الذي دب في أرض الكنانة إلى ما وراء الشلال الأول بعد «أسوان» بل ظلت تلك البلاد في سباتها العميق متخلفة عن ركب الحضارة، ومن أجل ذلك نجد هوَّة سحيقة بين الثقافة النوبية التي تنسب إلى العصر الحجري والثقافة التي ازدهرت في مصر الجديدة على يد «مينا». وهذه

الهوَّة قد ازداد عمقها ولم تُسَدَّ قط طَوال العصور التاريخية. وقد زاد في شُقَّةِ التباعُد في المدنية في البلدين ظهور العنصر الزنجي الجنوبي بكثرة مُحَسَّةٍ. وهؤلاء من جنس مختلف عن سكان بلاد النوبة وعن المصريين أنفسهم في الوقت ذاته. وسنتحدث فيما بعد عمَّا أسفرت عنه نتائج أعمال الحفر من الوجهة الثقافية والاجتماعية.

وتنقسم الثقافة A إلى عصرين مميزين: أحدهما قديم ويرجع إلى عصر ما قبل التاريخ أو ما قبل الأسرات، والآخر أحدث منه ويقابل العصر التاريخي المبكر الأسري، وهو يقابل عهد ملوك الأسرتين الأولى والثانية في التاريخ المصري.

المجموعة الثقافية A (رقم ١)

وجدت مقابر من عهد هذه المجموعة ومن المجموعة B وكثير غيرها من العصور التي تلتها وبخاصة المجموعة الثقافية C في الأماكن التالية من بلاد النوبة:

(١) «الكوبانية» وتقع شمال «أسوان» على الشاطئ الأيسر للنيل.[١٦]

(٢) وبلدة «رزق الله» الواقعة بالقرب من «دبود» في الجبانة رقم (٣٠).[١٧]

(٣) وكذلك في جبانة «مريس» و«مرقص» رقم ٤١ في مستعمرة قريبة تابعة لها.[١٨]

(٤) وفي بلدة «دهميت» في الجبانة الشرقية رقم ٤٣.[١٩]

(٥) وفي «جرف حسين» بالجبَّانتين رقم ٧٣ و٧٩.[٢٠]

(٦) وفي جبانات «دكة» ١٠١ إلى ١٠٣.[٢١] وتحتوي على أكثر من ست مئة مقبرة وتعد من أعظم المدافن النوبية من عهد ما قبل التاريخ حتى العهد النوبي المتوسط أي المجموعة الثقافية C. وأقدم مقابر هذه الجبانة تقع في مستعمرة عتيقة في الجنوب وتمتد منها الجبانة نحو الشمال، وقد أقيم على الجبانة الجنوبية التي في هذه الجهة مقابر جديدة.[٢٢]

(٧) وكذلك في «كوبان–العلاقي» في الجبانة رقم ١١١.[٢٣]

(٨) و وفي «السيالة» بالجبانة رقم ١٣٤.[٢٤]

وفي هذه الجبانات السالفة الذكر نجد أن القبر كان صغيرًا ومسطحًا وأن الجسم قد وضع فيه مضطجعًا ومقرفصًا على الجانب الأيسر والرأس متجه نحو الجنوب وكان في العادة يُغَطَّى الجسم بحصير، أو جلد حيوان.

أما الأثاث الذي وضع مع المُتَوَفَّ فيحتوي على أوانٍ من الفخار صناعتها مصرية نذكر منها القعاب الحمراء اللون المصقولة التي يحيط بها شريط أسود، والأواني ذات الحافة السوداء والفخار الأسود المصقول، والفخار ذا العروة المموجة والأطباق الصلبة ذات اللون الأحمر الداكن وهي التي يرسم عليها أشكال هندسية أو صور،[٢٥] هذا إلى أوانٍ من الحجر مخططة تشبه الأواني المصرية التي من عصر ما قبل التاريخ. وقد جيء من مصر بأوانٍ للكحل من الأردواز الأخضر بعضها مستطيل الشكل وبعضها شكله معين أو ممثلة في هيئة حيوانات أو بيضية الشكل برأس طائر، هذا إلى قلائد من الخرز،[٢٦] كما وجدت أطباق ورءوس مقامع كمثرية الشكل مصنوعة من أحجار مختلفة الألوان، وقد وجد كذلك مع المُتَوَفَّ سكاكين مصنوعة صنعًا جميلًا وأسلحة كالحراب ورءوس سهام مصنوعة من حجر الظران، ويلحظ هنا أن النحاس كان نادر الوجود في هذه المقابر.

المجموعة الثقافية A (رقم ٢) وتقابل في التاريخ المصري العصر الأسري المبكر

وجدت آثار لهذه المجموعة في غير الأماكن التي ذكرناها فيما سبق في جبانتي «السيالة» رقم ١٣٦ و١٣٧ وفيهما وجدت مدافن الأمراء النوبيين وقد قام بأعمال الحفر فيها الأثري «فرث».[٢٧] وفي «نجع وادي» بمركز «السيالة» بِالْجَبَّانَةِ رقم ١٤٢.[٢٨] وفي «السبوع» بِالْجَبَّانَةِ رقم ١٤٨[٢٩] وفي جبانة «عنيبة»[٣٠] وأخيرًا في «فرص».[٣١]

ويلاحظ في مقابر هذا العهد أن الْمُتَوَفَّ كان يُدْفَنُ في حفرة مكسُوَّة بالحجر الرملي كما كانت توجد أحيانًا مقابر على هيئة خلية النحل،[٣٢] ووجدت الجثة موضوعة نفس الوضع الذي وجدت عليه في مقابر مجموعة A (رقم ١) وكان يدفن في غالب الأحيان شخصان أو أكثر في قبر واحد.

أما الأثاث الذي كان يوضع مع جثة الْمُتَوَفَّ فيحتوى على أوانٍ من الفخار المصري كالتي وجدت في مقابر المجموعة A (رقم ١)، هذا إلى وجود فخار نوبي مصنوع في معامل محلية يضاف إلى ذلك أوانٍ من الفخار الأحمر المصقول ذات فوهة سوداء (Black-mouthed) وأشكال جديدة أخرى مثل الفخار المدبب من أسفل وعلى سطحه أشكال مطبوعة، وأوانٍ جميلة دقيقة السمك لونها أحمر.[٣٣] وأوان منٍ الحجر كالتي ذكرناها في المجموعة A (رقم ١) وأطباق للزينة من الأردواز المائل للخضرة ذي الشكل المستطيل، هذا إلى أوانٍ من هذا النوع لكل منها رأس طائر.[٣٤] أما الأشياء الجديدة التي

عثر عليها في مقابر هذا العصر فهي أطباق للزينة مستطيلة الشكل وبعضها على شكل معين مصنوعة من حجر الكوارتس الأبيض وأحجار أخرى صلبة، وكذلك عثر فيها على قلائد للزينة[٣٥] ومقامع كمثرية الشكل وآلات من النحاس كالمخراز والبلطة والمنقاش وهذه الأشياء قد وجدت بكمية تفوق التي وجدت في مقابر المجموعة A (رقم ١).[٣٦]

علاقة مصر ببلاد النوبة في العصر الطيني[٣٧]

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن المجموعة الثقافية B وهي التي تقابل «عصر الأهرام» أن نتحدث عن العلاقات السياسية والتجارية التي كانت بين مصر وبلاد النوبة في العهد الطيني؛ لنعرف مدى الاتصال بين البلدين في تلك الفترة التي أخذت فيها مصر في أسباب التطور، ووقفت فيها بلاد النوبة جامدة لم تتحرك في سبيل الحضارة والعمران.

لقد كان المظنون من الثقافة النوبية، وهي من نوع الثقافة المصرية في عصر ما قبل التاريخ، أن تسير بخُطًى واسعة مثلها ولكنها تأخرت عنها وقد وُجِدَتْ فعلًا كما ذكرنا في مجموعة A الثقافية في بلاد النوبة أوانٍ من الْفَخَّارِ والحجر مصرية الأصل مما يدل على تبادل التجارة بين البلدين. هذا وقد وجدت في مقابر مصرية معاصرة محاصيل تدل على اتصال التجارة بين البلدين. ففي بعض المقابر المقامة من اللبنات بـ«العرابة المدفونة» وجدت أشياء من خشب الأبنوس[٣٨] والمفهوم بوجه عام أن خشب الأبنوس من شجرة هندية الأصل (Diospyros)، ولكن برهن كل من الأثري «لوريه» و«بوريفاج» على أن هذا النوع من الشجر كان ينمو في السودان؛ وعلى ذلك كان يتجر فيه مع مصر.

ومن جهة أخرى وجد العاج بكثرة في مقابر هذا العهد وغيره من مقابر العصر الطيني، وهذا يدعونا إلى التساؤل عن سبب وجوده، والواقع أن الفيل كان ينتقل من مكان لآخر فمثلًا نعلم أن ملوك البطالمة كانوا يصطادون هذا الحيوان من الجهات الواقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر[٣٩] ويدل وجود عدد كبير من الآلات المصنوعة من سنِّ الفيل في عهد «ثقافة نقادة الأولى»، ووجود صور للفيل على الآثار المصرية في عصر ما قبل الأسرات وما بعده، على أن هذا الحيوان كان على الأقل موجودًا حتى الحدود المصرية،[٤٠] ويحتمل جدًّا أن اسم بلدة «إلفنتين» أبو)[٤١] فيه إشارة تدل على ذلك. وقد كتب الأستاذ «زيته» عن «إلفنتين» التي يكتب اسمها بصورة فيل أنها المكان الوحيد في وادي النيل السفلي الذي وجد فيه الإنسان الفيل. أما التفسير القديم الذي يقول إن «إلفنتين» قد سميت بهذا الاسم لتبادل تجارة سنِّ الفيل فيها فلا يؤخذ به.

وتدل شواهد الأحوال على أن الحدود بين مصر وبلاد النوبة السفلى من حيث الجنس لم تكن قط في كل العصور هي الشلال الأوَّل، بل كانت أبعد من ذلك شمالًا عند مضيق النيل الذي يشاهد عند بلدة «السلسلة» الحالية وكانت بلدة «إلفنتين» تعد دائمًا أرضًا مصرية تفصل بلاد النوبة عن مصر؛ ومن أجل ذلك كانت تسمى أقصى مقاطعة مصرية في الجنوب «تاستي» أي أرض النوبة.[٤٢] وليس لنا علم بالوقت الذي وسعت فيه للمرة الأولى مصر حدودها نحو الجنوب. ولكن الْمُحَقَّقَ أن هذا التوسع قد حدث في وقت مبكر إذ في عهد الأسرة الثالثة كانت توجد على ما يظهر بعض حصون في «إلفنتين» فقد وجد اسم الملك «حوني» على قطعة من الجرانيت يحتمل أنها من حصن قديم هناك. غير أن ذلك مجرد تخمين.[٤٣] ويقول «ينكر» من جهة أخرى إن تأسيس هذا الحصن كان في عصر ما قبل الأسرات[٤٤] مباشرة. وقد يكون ذلك فرضًا صحيحًا غير أنه ليس لدينا ما يؤيد هذا الفرض.

وجاء على لوحة للملك «عحا» عبارة «ضرب ستي» غير أننا لا نعرف إذا كان المقصود هنا بكلمة «ستى» هو بلاد النوبة أو مقاطعة «تاستي» أولى مقاطعات الوجه القبلي من الجنوب.

ونجد في قبر الملك «ودمو» أحد ملوك الأسرة الأولى «بالعرابة المدفونة» أنه استعمل فيه قطعًا من الجرانيت الأسود؛ مما يدل على أن «إلفنتين» كانت على ما يظن في يد المصريين لأن هذا الحجر كان يستخرج منها.[٤٥]

وفي عهد الأسرة الثانية نرى نشاطًا سياسيًّا مصريًّا خارج حدود مصر ضد بلاد «تاستي» يدل على ذلك لوحة النصر التي أقامها الملك «خع سخم» وقد عثر عليها في بلدة «هيراكنپوليس»[٤٦] (الكاب الحالية).[٤٧] ولكن ممَّا يؤسف له جد الأسف أن هذا الأثر قد وُجِدَ مُهَشَّمًا ولكن بقيت منه صورة العدو المقهور على أمره ظاهرة، وعلى رأسه العلامة الدالَّة على لفظة «ستي» أي النوبة. وقد ظن الأستاذ «نيوبري» أن أسطورة الإله «حور» التي وضعت في العصور المتأخرة في معبد «إدفو» توجد فيها نواة تاريخية وأنها تعكس أمامنا الحرب التي شنها هذا الملك على أعدائه النوبيين.[٤٨] ففي نقش «إدفو» هذا ذكر كيف أن الملك المؤله «حور أختي» عند عودته من حملة مظفرة على بلاد النوبة كشف عن مؤامرة ثورية في مصر، وبعد أن قضى على الثوار واقتفى أثرهم حتى «ثاروا» على الحدود الشمالية للدلتا، رجع إلى الجنوب وهزم البقية الباقية من الأعداء في بلاد «واوات» في «شاسحرت». وقد تناول الأستاذ «كيس» هذه الخرافة بالنقد مفندًا[٤٩] إياها، وقال

عنها إنها تشير إلى حرب متأخرة، هذا إلى أن اسم «شاسحرت» من عنصر طرازه متأخر وضعت في عصر حديث نسبيًّا،[50] فهذا المكان موقعه هام كما يدل على ذلك نقش في متحف «اللوفر»[51] من عهد الأسرة السادسة والعشرين؛ إذ جاء في هذا النقش أن الجنود المرتزِقة في عهد الملك «ابريز» (٥٨٨–٥٦٨ق.م.) قد هاجروا إليه وقد منعهم من ذلك المشرف على فتح باب الجنوب للبلاد الأجنبية.[52] ومن أجل هذا يجب ألَّا نجعل لما جاء في هذه الخرافة الدينية صلة بسياسة الملك «خع سخم».

هذا وقد نسب كل من «إمري» و«كروان» سقوط مجموعة A وهي التي وجدت آثارها في هذا الوقت في المقابر النوبية إلى الحروب التي شنها «خع سخم»[53] غير أنه يصعب البرهنة على صدق هذه النظرية.

ولدينا نقش آخر عثر عليه في «جزيرة سهيل» يرجع عهده لعصر البطالمة، جاء فيه أن الملك «زوسر» يهدى للإله «خنوم» رب «إلفنتين» إقليم «دودكاشوينوس»[54] النوبي. وحقيقة الأمر في ذلك أن كهنة الإله «خنوم» إله «إلفنتين» أرادوا أن يحموا حقوق هذا الإله القديمة من جور الإلهة «أزيس» التي أدخلت عبادتها حديثًا على شعائر القوم في معبد «الفيلة» (أنس الوجود)، وقد لعبت دورًا هامًّا في تاريخ مصر في هذا العهد، وكان لها مكانة عظيمة بقيت حتى نهاية العهد الوثني، فلجأ كهنة «خنوم» كما كانت الحال دائمًا إلى الخرافات القديمة لتجديد حقوقهم، وتمسحوا بملك قديم ذائع الصيت كان مُؤَلَّهًا، ولا تزال ذكرياته في أذهان القوم. ولا غرابة في أن انتخب هؤلاء الكهنة «زوسر» فإن وزيره «إمحتب» كان في الأزمان المتأخرة يعد إلهًا أو بطلًا من أبطال التاريخ المصري. وليس في الْتِجَاءِ كهنة «خنوم» إلى وثائق قديمة أي دليل على أن أرض «الدودكاشوينوس» كانت ملكًا للفرعون «زوسر» فعلًا وأنه كان مستوليًا عليها — كما ادَّعَى بعضهم ذلك — فإنه لم توجد لدينا أية وثيقة أصلية تدل على أن هذا الملك كان ذا نشاط سياسي في البلاد الواقعة جنوبي مصر أي في بلاد النوبة.

أما أول حملة رسمية تاريخية على بلاد النوبة فكانت في عهد الملك «سنفرو» أول ملوك الأسرة الرابعة وقد جاء ذكرها على حجر «بلرمو». وهذا الحجر الذي وجد ناقصًا يحتمل أنه نقش حوالي نهاية الدولة القديمة. وقد جاء فيه ذكر أسماء ملوك المصريين من أوّل الأسرة الأولى وما بعدها بالترتيب التاريخي، وكذلك الحوادث الهامة لكل سنة من حكمهم. ولما كانت الوثائق في عهد العصر المبكر تُؤَرَّخُ على حسب هذه الحوادث الهامة فإن مثل هذه القائمة كانت ضرورية للرجوع إليها. وقد وجدنا واحدة من سني الملك

«سنفرو» (حوالي ٢٩٠٠ق.م.) قد جاء فيها: سنة بناء الـ ... سفنًا طولها مئة ذراع من خشب مر، وتخريب أرض السود وإحضار ٧٠٠٠ أسير من الرجال والنساء و٢٠٠٠٠٠ رأس من الماشية الكبيرة والصغيرة،[٥٥] إلخ. ولكن في هذا الوقت كانت ثقافة مجموعة A في بلاد النوبة السفلى قد انقرضت وظهرت في مقابر الثقافة التي خلفتها، (أي ثقافة مجموعة B) علامات الفقر المدقع؛ ومن ثَمَّ يميل الإنسان إلى الاعتقاد بأن ثقافة مجموعة A قد لاقت ضربتها القاضية في هذه الحروب التي شنها «سنفرو».[٥٦] وهذه السياسة التي ظهر نشاطها في بلاد النوبة يحتمل أنها السبب الموضح لذكر إله النوبة «ددون» في متون الأهرام. ومما يجدر ذكره هنا أن الإله «ددون» هذا قد جاء ذكره في متون الأهرام بوصفه جالب البخور الذي يعد من محاصيل البلاد الجنوبية.[٥٧]

ثقافة المجموعة B في بلاد النوبة

بعد هذه اللمحة عن علاقات مصر ببلاد النوبة في العهد الطيني حتى أوائل الأسرة الرابعة نعود إلى التحدث عن ثقافة المجموعة B كما نستنبطها من مقابر بلاد النوبة.

وثقافة هذا العصر تقابل من حيث الزمن عصر بناة الأهرام حتى الأسرة السادسة، غير أنه لم يوجد فيها أي تأثير مصري بارز، فلم نجد في مقابر القوم أي نوع من الكتابة، هذا إلى أن الفخار الذي وجد في مصر في عصر الأسرة الثالثة لم ينقل إلى بلاد النوبة والواقع أن الحضارة النوبية لهذا العصر ليست إلا صورة منحطة من ثقافة المجموعة A التي على ما يظهر تختلف عنها.

وقد عثر على آثار لهذه الثقافة في جبانة «الشلال»[٥٨] رقم ٧ وفي خور «أمبوكول» بالجبانة رقم ١٤[٥٩] وفي «جرف حسين» بالجبانة رقم ٧٧ المقابر ١٠٠ إلخ. وهذه الجبانة هامة لأنها تبين لنا الانتقال من الثقافة A رقم (٢) إلى الثقافة A رقم (٣)[٦٠] هذا إلى مدافن صغيرة جدًّا عن المدافن السابقة كالتي في الجبانتين رقم ٤١[٦١] و٤٥.

ويلحظ أن مقابر هذا العصر كانت بيضية أو مستطيلة الشكل ذات أركان مستديرة والجسم فيها وُضِعَ مضطجعًا ومقرفصًا على جانبه الأيمن أو على الجانب الأيسر في اتجاهات غير منتظمة، وغالبًا ما نجد الجسم ملفوفًا في جلد ماعز أو في حصير. أما الأثاث الذي كان موضوعًا مع الجسم فكان في العادة يتألف من أوانٍ من الفخار، غير أنها لم تكن كثيرة العدد، وأهم نوع هو فخار سميك مصقول لونه أحمر وفخار ذو شريط أسود يشبه فخار ثقافة مجموعة A (١–٢)، غير أنه أكبر منه وأقبح شكلًا، هذا إلى

أطبقا ساذجة نصف مستديرة، ولم يوجد في مقابر هذا العهد أوانٍ من الحجر. وكذلك كان الخرز والكرنالين والأشياء المصنوعة من المحار أو الميناء الزرقاء نادرة الوجود. ولم يعثر بين الآلات النحاسية إلا على المخراز. أمَّا الأدوات المصنوعة من العظم مثل أطراف السهام والإبر ومقابض السكاكين والملاعق فكانت توجد بكثرة في مقابر هذه الثقافة.

علاقات مصر ببلاد النوبة في عهد ثقافة المجموعة B

وصلت بلاد النوبة في عهد ثقافة المجموعة B إلى درجة عظيمة من الفقر؛ ولذلك كان في استطاعة المصريين أن يرسلوا بضائعهم بدون عائق إلى الجنوب. وقد كان من جراء تهدئة الأحوال في بلاد النوبة السفلى تهدئة واسعة النطاق أن أخذ المصريون يستغلون محاجر الديوريت التي تقع على مسافة تتراوح ما بين ٦٥ إلى ٨٥ كيلو مترا في الصحراء في الشمال الغربي من بلدة «توشكى» فكانت الأحجار تجلب إلى «توشكى» هذه، ومن ثَمَّ ترسل إلى مصر على ظهر النيل، وقد عثر في هذه المحاجر على أسماء الملوك «خوفو» و«ددفرع» و«ساحورع» و«زدكارع» و«أسسي».[٦٢] وهذا المكان الذي كانت تقطع منه الأحجار يسمى في النقوش المصرية «حامت» ولا يبعد كثيرًا عن طريق واحة «النخيلة» و«دنقلة». وتدل شواهد الأحوال على أن ملوك الأسرة الرابعة كانوا يقطعون تماثيلهم من حجر الديوريت من هذه الجهة. ولا نزاع في أن استغلال هذه المحاجر الواقعة في صحراء بلاد النوبة وجلبها إلى «توشكى» ثم إلى مصر يدل على أن أهالي بلاد النوبة لم يكونوا محاربين، ولا غرابة فإن أهل النوبة الفقراء لم يكن لديهم القوة ليقفوا أمام المصريين الأقوياء، ولذلك كان من صالحهم أن يعيشوا في سلام ومهادنة مع مصر وأن يعملوا على تنمية العلاقات الودية بينهم وبين المصريين.

وهذا النشاط السلمي الذي كانت تسلكه مصر في بلاد النوبة السفلى تدل عليه النقوش التي عثر عليها في «توماس» في عهد الملوك «ساحورع» و«أسسي» و«تيتي» و«بيبي الأول».[٦٣] يضاف إلى ذلك أنه وجد اسم الملك «خوفو» في «جزيرة سهيل».[٦٤] هذا وقد نقش عدد عظيم من الموظفين أسماءهم وألقابهم على صخور «توماس»، وبعض هؤلاء الموظفين كانوا يعملون في عهد الأسرة السادسة، ومن المحتمل أنهم كانوا معروفين في «إلفنتين». وتلقي ألقاب هؤلاء الموظفين ضوءًا على ما كان لهم من نشاط في بلاد النوبة، فنجد بعضهم كان يحمل لقب «المشرف على السفينة» أو «كاتب السفينة» مما يدل على قيام السياحات في النيل من مصر إلى بلاد النوبة، هذا إلى أن عددًا كبيرًا من

هؤلاء الموظفين كان يحمل لقب «المشرف على التراجمة»، ولدينا اثنان من هؤلاء يحمل كل منهما لقب «المشرف على الجنود»، ومن المحتمل أن عملهما كان متصلًا بالنشاط الحربي في الصحراء.[٦٥]

وفي عهد الأسرة السادسة أسعفتنا النقوش الأثرية بمعلومات ثمينة تكشف لنا النقاب عن صفحة جديدة في تاريخ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة، وذلك أنه في هذا العهد أخذ الموظفون الذين قاموا ببعوث تجارية مع الجنوب يتحدثون عن رحلاتهم في الجنوب ويوضحون علاقة بلاد النوبة بمصر. ولا بد لنا عند التحدث عن المادة التي لدينا من هذا العهد أن نكون على بصيرة من أن حدود مصر بقيت حتى العهد الروماني عند «الشلال الأول» وأن المصري لم يبحث يومًا من الأيام — على قدر ما نعلم — وراء ضم الجزء الجنوبي من هذه النقطة إلى بلاده، ويبرهن على ذلك نقشان هامَّان خلفهما لنا الملك «مرنرع» أحد ملوك الأسرة السادسة في منطقة «الشلال». والنقش الأول حفر في الصخور الواقعة على الشاطئ الشرقي قبالة «جزيرة هيس» والثاني نقش على الصخور التي في الشارع القديم لمدينة «أسوان» المؤدي إلى «الفيلة».[٦٦] والنقشان موحدان في كلماتهما وهي: «ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مرنرع» محبوب «خنوم» رب «الشلال» السنة الخامسة الشهر الثاني من فصل الصيف اليوم الثامن والعشرون. لقد أتى الملك بنفسه وعاد وقد وقف على ظهر الجبل وقَبَّلَ أمراءُ «وأرثت» و«واوات» الأرضَ بين يديه ومدحوه كثيرًا».

وهذا النقش يدل صراحة على تفتيش للحدود الجنوبية التي أتى إليها من بعيد الأمراءُ الأجانب من مختلف أنحاء البلاد النوبية ليقدِّموا لجلالة الملك خضوعهم وولاءهم. ولا نزاع في أن هذا النقش خاص بالحدود، ومن المحتمل أنه كان من نوع النقش البالغ القصر الذي نقشه الملك «وناس» آخر ملوك الأسرة الخامسة في «إلفنتين» وقد جاء فيه: «حور-واز-تاوي» ملك الوجه القبلي والوجه البحري «وناس» سيد البلاد الأجنبية معطي الحياة والصحة إلى الأبد محبوب «خنوم» معطي الحياة أبديًّا».[٦٧]

ومما يدل كذلك على أن الحدود السياسية لمصر كانت بالقرب من «إلفنتين» أنه عندما أنشئت وظيفة «المشرف على الوجه القبلي» في النصف الثاني من الأسرة الخامسة كانت «إلفنتين» أو بعبارة أخرى المقاطعة الأولى من مقاطعات الوجه القبلي تعد الحد الجنوبي لنفوذ حامل هذه الوظيفة. ففي كل مرة ذكرت فيها على النقوش كانت تعتبر حدود الدولة منتهية عند الشلال.

وقد أخذت تظهر الأهمية البالغة لمراقبة الحدود عند «إلفنتين» في منتصف الأسرة السادسة، وذلك عندما ظهرت أمامنا وظيفة «حارس باب الجنوب» في ألقاب أمير المقاطعة فقد سمي «كار» في نقش عثر عليه في «إدفو» من عهد الملك «مرنرع الأوَّل»: «السمير الوحيد وكاتم السر الأوَّل لكل كلمة سرية تأتي من باب «إلفنتين» وكاتم السر لكل كلمة تأتي من الباب الضيق للبلاد الأجنبية، ومن البلاد الجنوبية».[٦٨] ومثل هذه الألقاب لم يكن يحملها أمراء الجزء الجنوبي من مصر وحدهم بل نجد كذلك أن حاكم مقاطعة (القصر والصياد) (Chenobsokion) المسمي «ثاوتي» في نقش له ببلدة «القصر والصياد»[٦٩] يحمل لقب «المشرف على الوجه القبلي» وينعت بلقب «الذي يملأ قلب الملك (أي ثقته) في الباب الضيق للجنوب وكاتم سر الباب الضيق للجنوب»؛ ممَّا يدل على أن هذه الوظيفة كانت عظيمة الخطر.

وكان الوزير «بيو» في «منف» في نهاية عهد الملك «بيبي الثاني» يلقب «المشرف على الباب الجنوبي والمشرف على الباب الشمالي لمصر»[٧٠] ومن مدلول هذه الألقاب نعلم أن الوظيفة التي نتحدث عنها الآن كان لها مكانة عظيمة في شمالي البلاد كما كان لها خطرها في الجنوب، وأن مراقبة الحدود الجنوبية كانت تلعب دورًا هامًّا في سياسة البلاد كما سيتضح ذلك جليًّا عند التحدث عن الحدود المصرية الجنوبية في عهد الدولة الوسطى.

وبهذه المناسبة عثر على قطعة بردي لها علاقة بمراقبة الحدود وجدت في نفس «إلفنتين»، غير أنها بكل أسف ممزقة ولم يمكن أن نستخلص منها نتيجة حاسمة.

والظاهر أنها خاصة بمنازعات قضائية وقد جاء فيها ما يأتي: «عندما سار النوبي نحو الشمال إلى المكان الذي كان فيه كبار الموظفين … لم تحضر إلى أي نسخة من القائمة (؟)» وعلى الرغم من عدم إمكاننا استخلاص نتيجة من هذه الورقة فإن الظواهر تدل على أن الكاتب المسئول عن مراقبة الحدود يأسف لعدم إرسال القائد المصري للنوبيين أية صورة من القائمة الخاصة بأسماء المهاجرين، على أنه من جهة أخرى يجوز أن المتن ليس له علاقة بالحدود.[٧١]

وتدل الأحوال على أن محط الحدود كان الوافد على مصر يراقب عنده، وكذلك يراقب ما يدخل من سلع إلى بلاد النوبة كما كان يعد المكان الرئيسي للتجارة الذاهبة إلى الجنوب، أما الإقليم الذي خلفه فكان يعتبر مسرحًا للتجارة. ولا نزاع في أن هذا هو السبب الطبعي الذي جعل أمراء «إلفنتين» يقيمون مقابرهم في هذه البلدة. ومن المحتمل

أن الأفراد الذين نقشوا كتابات على الصخور في هذه الجهة قد لعبوا دورًا رئيسيًّا في سياسة مصر الجنوبية في هذا الوقت.[٧٢] والسواد الأعظم من كبار رجالة القوم الذين قاموا بحملات إلى بلاد السودان كانوا من مواطني «إلفنتين» هذه. وسنورد هنا إتمامًا للفائدة ما يمكن إيراده من أسماء هؤلاء الموظفين:

(١) «نيسوخو»
(٢) «حرخوف»
(٣) «بيبي نخت»
(٤) «سبني»
(٥) «وني»
(٦) «خوي»[٧٣]
(٧) «ثيثي»[٧٤]
(٨) «نوفر»[٧٥] (؟)
(٩) «سابي»
(١٠) «أقب»
(١١) «تيتي عنخ»[٧٦]
(١٢) «أري» «والد حرخوف»
(١٣) «حابي»[٧٧]
(١٤) «عاوو»
(١٥) «حمنتحب»

ولدينا غير هؤلاء أسماء عدد من قواد السفن دُوِّنَتْ أسماؤهم على الآثار، فلدينا قائد سفينة يدعى «حنتي» ذكر اسمه على لوحة جنازية، وكذلك لدينا عدد من أسماء قواد السفن نقشت أسماؤهم على الصخور النوبية نخص بالذكر منهم «أحي» و«خنوم حتب» و«حني» وبعض أسماء لم يمكن قراءتها، وسنورد فيما يلي أعمال بعض هؤلاء الموظفين:

(١) «نيوسوخو»: عاش في عهد الملك «بيبي الأول» وقبره في «إلفنتين»[٧٨] ويحتمل كذلك أن النقش الذي وجد على صخر «توماس» من عمله. و«نيسوخو» هذا يحمل كذلك اسم «شماي» ويلقب السمير الوحيد وحامل خاتم الوجه البحري والكاهن المرتل والمبجل عند الإله العظيم. ونقش «توماس» يقص علينا أنه في عند «بيبي الأول» وأن هذا الفرعون أرسله ليخترق بلاد «أرثت» إلخ.

(٢) «حرخوف»: عاش في عهد كل من الملك «مرنرع» و«بيبي الثاني» وقبره في «إلفنتين» وهاك ترجمة نقوشه:

قربان[٧٩] يقدمه الملك لأنوبيس الذي على جبله والذي على رأس محرابه الذي في الواحة وسيد البلاد المشرقة (الجبانة)، لأجل أن يدفن «حرخوف» في الجبل الغربي (بعد) أن يصل إلى شيخوخة جميلة جدًّا بوصفه مبجلًا أمام الإله العظيم … الإله العظيم. الأمير الوراثي حاكم الجنوب وحامل خاتم ملك الوجه البحري والسمير الوحيد والكاهن المرتل والمشرف على التراجمة والمبجل عند الإله «بتاح سكر».

«حرخوف»

قربان يقدمه الملك و«أوزير» سيد «ددو» (بوصير) لأجل أن يسير (أي «حرخوف») في سلام على الطرق الجميلة للغرب، وهي التي سار عليها المبجلون، ولأجل أن يصعد نحو الإله رب السماء بوصفه مبجلًا أمام … الأمير الوراثي (والتشريفاتي) ونائب الملك في «نخن»، ورئيس الشعائر في نخب (الكاب الحالية) والسمير الوحيد والكاهن المرتل المبجل عند «أوزير».

«حرخوف»

قربان يقدمه الملك لأجل أن يحدث خروج الصوت من أجله في الْجَبَّانَةِ والكاهن المرتل يقوم بتأدية الشعائر في كل أعياد رأس السنة وعيد «تحوت» وفي كل الأيام … حامل خاتم ملك الوجه البحري والسمير الوحيد والكاهن المرتل والمشرف على التراجمة.

«حرخوف»

ترجمة حياته:

لقد أتيت اليوم من ضيعتي، ونزلت من مقاطعتي، وبنيت بيتي وأقمت له أبوابًا، وحفرت بحيرة وغرست أشجار (جميز) وقد مدحني الملك وقد عمل والدي وصية في صالحي لأني كنت ممتازًا … ومحبوبًا من والدي ممدوحًا

من والدتي ومحبوبًا من كل إخوتي وأعطيت الجوعان خبزًا وكسوت العريان وعبرت النهر بمن لا يملك قاربًا (في قاربي).

وأنتم يا أيها الأحياء الذين يسيرون على الأرض وسيمرون بالقرب من هذا القبر في أثناء انحداركم في النهر أو صعودكم إذا قلتم: ألفًا من الخبز وألفًا من جرار الجعة لأجل صاحب هذا القبر فإني سأتدخل من أجلكم في عالم الآخرة؛ لأني روح ممتاز مجهز وكاهن مرتل ذو فم مثقف.

على أن كل من سيدخل هذا القبر وهو نجس فإني سأقبض عليه كالطائر الجارح وسيحاكم على ذلك أمام الإله العظيم» (يقصد هنا المحاكمة أمام الإله «رع» أو أمام الإله «أوزير» الذي أصبح منذ نهاية الدولة القديمة إله الموتى الذي سيحاكم في عالم الآخرة).

وإني رجل يقول ما هو حسن ويعيد ما يحب (لا ينم)، ولم أقل قط ما هو خبيث لرجل قوى أو لأي إنسان لأني رغبت في أن تكون الأشياء طيبة من أجلي أمام الإله العظيم.

وإني لم (أفصل بين الأخوين) بطريقة تجعل الابن يحرم ميراث والده.

قربان يقدمه الملك و«أنوبيس» الذي على جبله والمشرف على الساحة المقدسة ليخرج الصوت بالقربان له في الجبانة لأجل المبجل عند «أنوبيس» رئيس جبله والمشرف على الساحة المقدسة …

الأمير الوراثي والسمير الوحيد والكاهن المرتل (والتشريفاتي)، نائب الملك في «نخن»، ومدير الملك في «نخب» وحامل الخاتم الملكي في الوجه البحري والسمير الوحيد والمرتل والمشرف على التراجمة، ورئيس الأسرار لكل الأوامر الخاصة بالحدود الجنوبية وصاحب الحظوة عند مليكه «حرخوف»، حامل خاتم الوجه البحري والسمير الوحيد والمرتل والمشرف على التراجمة الذي يحمل الضرائب المستحقة للزينة الملكية، والمشرف على كل البلاد الأجنبية الجنوبية، والذي ينشر الفزع من حور في البلاد الأجنبية والذي يفعل كل ما يرغب فيه سيده، وحامل خاتم الوجه البحري والسمير الوحيد والمرتل والمشرف على التراجمة المبجل عند «بتاح سكر».

«حرخوف» يقول:

الحملة الأولى إلى بلاد «يام»:

إن جلالة «مرنرع» سيدي قد أرسلني في الوقت نفسه مع والدي السمير الوحيد والمرتل «أري» إلى إقليم «يام» (مكان مجهول) لنكشف عن الطريق المؤدية إلى هذا الإقليم الأجنبي، وقد قمت بذلك في مدة سبعة أشهر وقد أحضرت كل الهدايا من هناك … وقد مدحت من أجل ذلك كثيرًا جدًّا.

الحملة الثانية:

لقد أرسلني جلالته مرة ثانية وكنت وحدي. وقد خرجت على طريق «إلفنتين»[٨٠] وانحدرت نحو «أرثت» و«مخر» و«ترس» و«أرثت» في ثمانية أشهر. وقد انحدرت حاملًا محاصيل هذا البلد الأجنبي بكميات عظيمة جدًّا. ولم يحدث مرة أن شيئًا مماثلًا قد حمل من هذه البلاد من قبل. وقد انحدرت من مخيم رئيس «سثو» و«أرثت» بعد أن اقتحمت مجاهل هذه البلاد الأجنبية.

ولم يشهد من قبل أن أي سمير مشرف على التراجمة قد فعل ذلك موغلًا في إقليم «يام» من قبل.

الحملة الثالثة إلى إقليم «يام»:

لقد أرسلني جلالته مرة ثالثة إلى بلاد «يام» فخرجت من (منف) متجهًا نحو العرابة المدفونة عن طريق إقليم الواحة (؟) وقد وجدت رئيس «يام» الذي كان ذاهبًا ضد بلاد تمحو (لوبيا) لمحاربتها؟ حتى حدود غرب السماء، وقد سرت معه خلفه حتى بلاد «لوبيا» (تمحو) وقد أخضعته إلى أن عبد كل آلهة مليكي. وبعد أن أخضعت رئيس «يام» انحدرت ثانية … حتى «أرثت»؛ وعند حدود «سثو» وجدت رؤساء «أرثت» و«سثو» و«واوات» … وعدت مع ثلاث مئة حمار محملة بالبخور والأبنوس وزيت حنكو وزيت ثاث وجلود الفهد وسن الفيل (؟) وكل محاصيل جميلة.

وعندما رأى رؤساء «أرثت» و«سثو» و«واوات» مقدار عظم جنود «يام» وقوتهم وهم الذين انحدروا معي نحو البلاط، بالإضافة إلى الجنود الذين كانوا قد أرسلوا معي فإن هؤلاء الرؤساء قد جلبوا إليَّ هدايا: ثيرانًا وماشيةً صغيرةً وقادوني بطريق جبال «أرثت» وكانت يقظتي بالغة أكثر من أي سمير ومشرف على التراجمة من الذين أرسلوا إلى «يام» قبلي، وعلى ذلك فإن الخادم «حرخوف» (يقصد نفسه) انحدر في النهر نحو البلاط وقد أرسل (أي الملك) إلى الأمير الوراثي والسمتر الوحيد والمشرف على حجرة المرطبات المزدوجة لاستقبالي ومعه السفن المحملة بنبيذ البلح (العرقي) والفطير والخبز والجعة. الأمير الوراثي وحامل خاتم الوجه البحري والسمير الوحيد والكاهن المرتل وحامل الخاتم الإلهي ورئيس أسرار كل الأوامر لحدود الجنوب.

المبجل «حر خوف»

خطاب الملك «بيبي الثاني» «لحرخوف»:

خُتِمَ بالملك نفسه في السنة الثانية للشهر الثالث من فصل الفيضان اليوم الخامس عشر. مرسوم ملكي للسمير الوحيد، الكاهن المرتِّل، ومدير التراجمة (القافلة) «حر خوف». لقد فهمت المقصود من خطابك هذا الذي أرسلته إلى الملك في القصر لِتُنَبِّئَهُ بأنك قد عدت سالمًا معافًى من بلاد «يام» بالجيش الذي كان معك. ولقد ذكرت في هذا الخطاب أنك أحضرت معك كل المنتجات العظيمة والطيبة التي منحتها «حتحور» سيدة «أماو» حضرة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نفر كارع» (بيبي الثاني) الذي يحيا أبديًّا ومخلدًا. وقد ذكرت في هذا الخطاب أنك أحضرت قزمًا (دنج) يرقص رقصًا مقدسًا من أرض الأرواح (تا أخو) مثل القزم الذي أحضره حامل خاتم المقدس «بَاوِرْدَد» من بلاد «بُنت» في عهد الملك «أسسي». وقد قلت لجلالتي: «لم يحدث قط من قبل أن واحدًا مثله قد أحضر ممن زاروا «يام». حقًّا إنك فعلت ما يحبه ويمدحه سيدك، حقًّا إنك تمضي النهار والليل في عمل ما يرغب سيدك فيه ويحب ويأمر به. وجلالته يرغب في أن يمنحك كثيرًا من الشرف العظيم حتى تصبح زينة لابن ابنك أبديًّا لدرجة أن كل إنسان سيقول عندما يسمع

ما فعلته لجلالتي: «هل هناك شيء مماثل لما عمل للسمير الوحيد «حرخوف» عندما عاد من بلاد «يام» وذلك بسبب اليقظة التي أظهرها لعمل ما يرغب فيه سيده، وما يحبه وما يأمر به.

عد حينئذٍ في الحال إلى البلاط منحدرًا في النهر واترك كل شيء آخر (؟) ولْتُحْضِرْ معك هذا القزم الذي جلبته معك من بلاد الأرواح حيًّا وسليمًا ومُعَافًى حتى يقوم بالرقص المقدس وليسري عن القلب وليسر فؤاد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نفر كارع» عاش أبديًّا.

واعمل عندما ينزل معك في السفينة على أن يكون رجالك اليقظون حوله من ناحيتي السفينة، واعمل على ألَّا يسقط في الماء، وعندما ينام في الليل يكون رجالك اليقظون نائمين حوله في حجرته وفتش عليه عشر مرات كل ليلة؛ لأن جلالتي يريد أن يرى هذا القزم أكثر من كل منتجات بلاد «بُنت» وكنوزها.

وإذا وصلت إلى البلاط وبصحبتك هذا القزم حيًّا سليمًا معافًى فإن جلالتي سيقوم بعمل أشياء عظيمة لك، تفوق التي عملت لحامل الخاتم الإلهي، «باوردد» في عهد الملك «أسسي» وذلك لرغبة قلب جلالتي في رؤية القزم، وقد أعطيت الأوامر حاكم إقليم البلاد الجديدة، السمير، مدير الكهنة ليأمر بإعداد المأكولات في كل قصر بيت المحراث (ضياع ملكية) وفي كل معبد دون استثناء.[٨١]

(٣) «**ببيي نخت**»: موظف كبير في عهد الملك «ببيي الثاني» يحمل ألقابًا عدة منها أنه كان السمير الوحيد، نائب الملك في «نخن» ورئيس عبادة «نخب» ومدير كل القوافل والمحترم من الإله العظيم «ببيي نخت» يقول:

كنت رجلًا يقول ما هو حسن، ويكرر ما يحب، ولم أقل قط شيئًا يسيء إلى رجل قوى ذمًّا في أي شخص، لأني كنت أرغب في أن تعرض الأشياء من جهتي حسنة في حضرة الإله العظيم. لقد أعطيت خبزًا للجائع وكسوت العريان ولم أقضِ قَطُّ بين أخوين بحيث يُحرَم ابنٌ متاعَ والده، ولقد كنت محبوبًا من والدي، ممدوحًا من والدتي ومحبوبًا من إخوتي ذكورًا وإناثًا. لقد أرسلني جلالة سيدي لأخرب بلاد «أرثت» فعملت ما مدحني عليه سيدي، ولقد ذبحت

منهم عددًا عظيمًا. ومن بينهم أولاد الرؤساء والضباط المتفوقين من المحاربين (؟) لأني كنت بطلًا على رأس جيش عظيم من الجنود الأقوياء. وقد سُرَّ قلب سيدي مني لكل البعوث التي وَكَّلَ أمرها لي.

وعقب ذلك أرسلني جلالة سيدي لتهدئة الأحوال في هذه الممالك. وقد قمت بذلك حتى إن سيدي أثنى عليَّ كثيرًا أكثر من أي إنسان آخر. ولقد أحضرت معي رَئِيسَيْ هاتين المملكتين سالمَيْن معافَيْن إلى البلاط، ومعهما ثيران وماعز حية إلى البلاط، وكذلك أحضرت أطفال الرئيسين وضابطي المحاربين الذين كانوا معهما».

(٤) «سبني»[٨٢]: من حكام «أسوان» في عهد الملك «بيبي الثاني» قد قام بحملة إلى بلاد النوبة لإحضار جثة والده «مخو» الذي سطت عليه قبائل السود وذبحوه، ونقوش «سبني» مهمشة في البداية غير أنه في إمكاننا أن نفهم منها المعنى المقصود جملة، ولم يكن «سبني» عند قيامه بهذه الحملة جاهلًا بأحوال هذه البلاد التي قتل فيها والده، بل يظهر أنه كان مدربًا على ارتيادها، وكان لا بد له من ذلك؛ لأن وظيفة قيادة القوافل على ما نعلم كانت وراثية في حكام هذه المنطقة كما شاهدنا ذلك في «حرخوف» ووالده، فكان الوالد يعلم ولده الأعمال التي كانت تَتَطَلَّبُهَا وظيفته.

قام «مخو» والد «سبني» برحلة ولكنه مات في خلالها في جهة ما في قلب مجاهل أفريقيا؛ فقام ابنه بالبحث عن جثة والده فكتب على مقبرته التي لا تزال إلى الآن ب«إلفنتين» مع قبر والده: «يقول الأمير حامل خاتم ملك الوجه البحري، مدير الجنوب، السمير الوحيد، الكاهن المرتل سبني»:

وعندئذ ذهب ضابط السفينة «أنتف» ومدير ... «بهكسي» ليحملوا الخبر، أن السمير الوحيد والكاهن المرتل «مخو» قد مات؛ وعندئذٍ صحبت معي جنودًا من ضيعتي ومئة حمار وأخذت كذلك عطورًا وشهدًا، وملابس وزينًا و ... لأقدمها هدايا في هذه الأقطار، وسرت نحو بلاد النحسي (السود) هذه ... وقد أرسلت أناسًا كانوا عند بوابة إلفنتين، وكتبت خطابات لأخبر الملك بأني سافرت لأحضر والدي من «واوات» و«أرثت» ولقد هدأت الأحوال في هذه الأقطار الأجنبية ... وفي الأقطار ... التي تُسَمَّى «عا» ثم «ثر» ثم حملت جثة هذا السمير الوحيد على ظهر حمار ثم أرسلته مع فصيلة من جنود

أوقافي. وصنعت له تابوتًا … وأحضرت معي. لأجل أن أنقله من هذه الأقطار الأجنبية. ولم أرسل قط إلى أية بلاد سود. للبلاط … وقد مُدِحْتُ كثيرًا على هذا العمل، ثم عدت نحو «واوات» و«وثك»، وأرسلت الشريف الملكي «أري»[٨٣] مع اثنين من ملاك الفلاحين من ضياعي طليعة ومعهما الروائح العطرية … وحاجز من العاج لأعلم … أني حملت جثة والدي وكل أنواع هدايا هذه الأقطار. ثم عدت لأضع والدي … أما من جهة «أري» الذي كان في البلاط فإنه أحضر أمرًا بتحنيط الأمير، حامل خاتم الوجه البحري، السمير الوحيد، الكاهن المرتل «مخو» وقد أحضر … مُحَنِّطِينَ، والكاهن المطهر الأعلى والتشريفي، والكاهن الأعلى للأوقاف الجنازية والبكائين وكل قربان بيت التحنيط. وأحضر زيت الشعائر الخاص ببيت التحنيط، والأشياء السرية لبيت التطهير المزدوج والخاصة ببيت السلاح وملابس من بيت المال، وكل الملحقات الجنازية أتت من البلاط كما كانت الحال في أمر الأمير «مرو». وعندما وصل «أري» أحضر معه مرسومًا ليثنى عليَّ على ما فعلته وقد ذكر في هذا المرسوم: «لقد فعلت لك كل الأشياء الممتازة تذكارًا لهذا العمل لأنك أحضرت والدك … ولم يحدث مثل هذا من قبل».

ودفنت والدي في هذا القبر من الجبانة، على أنه لم يدفن رجل في هذه الدرجة بالطريقة التي دفن بها. ثم نزلت في النهر نحو «منف» حاملًا معي منتجات هذه الأقطار الأجنبية وكذلك ما كان والدي قد جمعه … جيشي والنحسي (السود) … والخادم «سبني» قد أُثْنِيَ عليه في البلاط؛ ووجه الملك له مدحًا لأنه كان صاحب حظوة عظيمة عند الملك … وقد أعطيت صندوقًا من خشب الخروب يحتوى على عطور وزيوت، وكذلك منحت حقيبة من الكتان … وملابس. وكذلك أعطيت ذهب الجدارة، وكذلك تسلمت قرابين من اللحم والطيور … وعندما كانت تُقَرَّبُ الذبائح كان يذكر ما فعله لي سيدي.

وقد قيل للخادم «سبني» (أي له نفسه): لقد وصل مرسوم من القاضي الأعظم والوزير … بلدة «نخب» الكاهن الأعظم «أني» الذي كان وقتئذٍ في «برحتحور رسيت» قائلًا: «إنه يمكنني أن أحضر والدي في الحال ويمكنني أن أدفنه في قبره شمال «نخب». ولقد منحت ٣٠ أرورًا من الأرض في الشمال والجنوب وقفًا من الهرم المسمى «من عنخ نفر كارع» تقديرًا لي».

(٥) «وني» أو «أوني»[٨٤]: أحد كبار الموظفين الذي عاصر ملوكًا كثيرين ابتداء من الملك «تيتي» وقد دفن في «العرابة».[٨٥]

نقوش «وني»: الأمير الوراثي، مدير الوجه القبلي (والتشريفاتي) ونائب «نخن» والرئيس الأعظم «لنخب» (الكاب) والسمير الوحيد والمبجل عند «أوزير» أوَّل أهل الغرب «وني».

عندما كنت طفلًا ممنطقًا بالحزام في عهد جلالة الملك «تيتي» كانت وظيفتي هي مدير المخازن والمشرف على القصر الملكي وملاحظ المزارع؟؟ … والمرتل للقصر في عهد جلالة «بيبي». وقد رفعني جلالته إلى مرتبة سمير وحيد وكاهن مشرف على ضيعته الجنازية (أي هرمه).

تنصيبه قاضيًا:

وعندما كانت وظيفتي وهي … نصبني جلالته قاضي فم نخن (أي نائبًا عن نخن) وكان قلبه مفعمًا بي (أي يحبني) أكثر من أي خادم آخر. وقد سمعت الأحوال منفردًا مع الوزير عن كل الأشياء السرية وكنت أحقق باسم الملك فيما يتعلق بالخدر الملكي في محكمة الستة العظام العليا؛ وذلك لأني كنت ملء قلب جلالته أكثر من أي واحد من أشرافه، وأكثر من أي واحد من عظمائه، وأكثر من أي واحد من خدامه.

إقامة قبره بوساطة الملك:

لقد رجوت جلالة سيدي أن يحضر لي تابوتًا من حجر «طره» الأبيض، وقد سمح جلالته أن يقلع حامل خاتم ملك الوجه البحري مع طائفة من البحارة تحت إدارته لأجل أن يحضر لي هذا التابوت من «طره». وقد حضر به في سفينة كبيرة من سفن القصر ومعه غطاؤه واللوحة والصدغان والقاعدة، ولم يعمل قط مثل ذلك الخادم آخر؛ لأني كنت ممتازًا في قلب جلالته، ولأني كنت محببًا لقلب جلالته، ولأني كنت في قلب جلالته (يحبني).

تنصيب «وني» المشرف على مزارع البلاط:

وعندما كنت قاضي ونائب «نخن» (فم نخن) لقبني جلالته السمير الوحيد والمشرف على مزارعي القصر، وقد حللت بذلك محل أربعة المشرفين على مزارع القصر هناك. وقد عملت حتى نلت مديح جلالته، عندما كنت أجهز القصر، وعندما كنت أنظم طريق الملك، وعندما كنت أنسق المحاط، وقد عملت كل ذلك بطريقة جعلت جلالته يمدحني من أجل ذلك أكثر من أي شيء.

تعاليم صريحة ضد الملكة «ورت حتس»:

وبمناسبة قضيته في الخدر الملكي ضد الزوجة الملكية «ورت حتس» التي أقيمت سرًّا فإن جلالته جعلني أدخل لأجل أن أسمع القضية، وقد كنت وحدي دون أن يكون معي وزير أو شريف بل كنت وحدي. وقد كنت كاملًا ومحببًا لقلب جلالته؛ وذلك لأني كنت ملء قلب جلالته. وكنت أنا الذي أعمل كاتبًا، وكنت وحدي مع القاضي نائب «نخن»، وذلك لأني كنت أشغل وظيفة المشرف على مزارع القصر. ولم يحدث قط أن حقق واحد مثلي في قضية سرية في الخدر الملكي، ولكن جلالته جعلني أحققها لأني كنت ماهرًا في قلب جلالته أكثر من أي شريف آخر وأكثر من أي عظيم آخر وأكثر من أي خادم آخر.

الاستعداد لمحاربة أهل الرمال:

وقد شرع جلالته في القيام بحملة تأديبية على الأسيويين أسياد الرمال. وقد أَلَّفَ جلالتُه جيشًا من عشرات الآلاف العديدة من الرجال من كل الوجه القبلي من أول «إلفنتين» في الجنوب حتى «أطفيح» في الشمال ومن الوجه البحري، جندتهم إدارة الجيش المرتزِقة، وجميعهم في القلعة في داخل الحصون (؟) بين نوبي «أرثت» و«المزاوي» و«يام» و«واوات» و«كاو» وبلاد «تمحو» (لوبيا).

مسير الجيش تحت إمرة «وني»:

وقد أرسلني جلالته على رأس هذا الجيش في حين أن الأمراء الوراثيين وحاملي خاتم ملك الوجه البحري، والسمار الوحيدين أصحاب القصور العظيمة (أي الحصون) والرؤساء المشرفين على القلاع في الوجهين القبلي والبحري،

والسمار المشرفين على القوافل، والمشرفين على الكهنة خدام الإله للوجهين القبلي والبحري، والمشرفين على جيش الجنود المرتزِقة، وكان كل واحد منهم على رأس فرقة من المعاقل وإقطاعيات الوجهين القبلي والبحري التي كانوا يحكمونها، وكذلك «نحسيو» (السود) هذه الممالك الأجنبية، وكنت أنا الذي سهرت على نظامهم؛ وذلك بوصفي صاحب وظيفة المشرف على مزارعي قصر الملك[٨٦] وبسبب مكانتي لدرجة أنه لم يوضع فرد مكان قرينه، ولم يسرق من إنسان خبز أو حذاء في أثناء الطريق ولم يسرق نسيج من أي بلد ولم يغتصب ماعز من أي شخص.

وقد قدت هؤلاء الجنود عن طريق جزيرة الشمال وبوابة «إمحتب» وإقليم «سنفرو» وذلك بوصفي أني كنت في هذه الوظيفة … وقد استعرضت كل واحدة من هذه الفرق ولم يحدث قط أن خادمًا قد استعرض جنودًا من قبل.

عودة الجيش منتصرًا:

إن هذا الجيش قد عاد في سلام بعد أن حطم أرض أهل الرمال، وهذا الجيش قد عاد في سلام بعد أن محا معاقلهم، إن هذا الجيش قد عاد في سلام بعد أن اجْتُثَّتْ أشجار تينهم وكرومهم، إن هذا الجيش قد عاد في سلام بعد أن صَبَّ النيران في كل جنودهم. إن هذا الجيش قد عاد في سلام بعد أن ذبح كل جنودهم بعشرات الآلاف العدة، إن هذا الجيش قد عاد في سلام بعد أن ساق جنودًا عديدين من الأسرى. وقد مدحني من أجل ذلك أكثر من أي شيء.

إخضاع ثورة الأقوام المقهورين:

وقد أرسلني جلالته خمس مرات قائدًا لهذا الجيش لأجل أن أخرب بلاد سكان الرمال في كل مرة يثورون بفصائل من الجنود، وقد قمت بواجبي حتى إن الملك مدحني من أجل ذلك.

حملة بحرية وبرية على بلاد «أنف الغزال»:

وعندما قيل إن ثورة قامت لأمر من الأمور بين المتوحشين المجاورين لجهة «الكرمل» (بلاد «أنف الغزال») نزلت في سفن البحر مع فصائل من الجنود

ورَسَوْتُ خلف المرتفعات الجبلية في شمالي بلاد سكان الرمال. وعندما قيد هذا الجيش على المرتفعات ذهبت وقبضت (على العصاة) بأجمعهم وكل واحد من الثوار هزم.

«وني» يُنَصَّبُ حاكمًا على «الوجه القبلي»:

ولما كنت ضابطًا حاملًا للحذاء في القصر العظيم، فإن ملك الوجه القبلي والوجه البحري سيدي «مرنرع» قد نصبني أميرًا حاكمًا للجنوب من أول «إلفنتين» في الجنوب حتى «أطفيح» في الشمال لأني كنت كاملًا في قلب جلالته، بقدر ما كان قلب جلالته مبتهجًا بي، وبقدر ما كان قلب جلالته مفعمًا بي.

ولما كنت ضابطًا حامل الحذاء فإن جلالته مدحني من أجل يقظتي ومن أجل الحراسة التي قمت بها في القصر. وقد مدحني أكثر من أي شريف أو عظيم أو خادم.

ولم يُمْنَحْ قط هذه الوظيفة خادم من قبل. وقد عملت للملك بوصفي حاكمًا للجنوب بما يرضيه لدرجة أنه لم يوضع إنسان في مكان جاره، ولقد مارست كل عمل، وقد عملت حساب كل شيء حمل لحساب الخزانة في الوجه القبلي هذا مرتين، وكل ساعة عمل (سخرة) وضعت في الحساب لأجل البلاط في الوجه القبلي هذا مرتين. وقد ملأت وظيفة حاكم بصفة مثالية في الوجه القبلي، هذا وقد عملت كله لأجل أن أمدح من جلالته.

رحلة إلى محاجر «إبهات» في بلاد النوبة إلى محاجر «إلفنتين»:

وقد أرسلني جلالته إلى «إبهات» لأحضر تابوتًا (صندوق الحي)[٨٧] مع غطاء بالإضافة إلى هرم صغير ثمين وفاخر لأجل هرم «مرنرع» (الذي يسمى) «خع-نفر-مرنرع».

وبعد ذلك أرسلني جلالته إلى «إلفنتين» لأجل أن أحضر بابًا وهميًّا من الجرانيت بقاعدته وعارضتيه لأجل الحجرة العليا الخاصة بهرم «مرنرع» «خع-نفر- مرنرع».

وقد سحت نحو الشمال من هذا المكان حتى هرم «مرنرع» «خع-نفر-مرنرع» ومعي ست سفن نقل وخمس سفن جربها ثمانية أزواج

في حملة واحدة. ولم تعمل حملة واحدة قط إلى «إبهات» و«إلفنتين» دفعة واحدة في حكم أي ملك وقد تم كل شيء أمر به جلالته بأكمله كما أمرني به جلالته.

حملة إلى محاجر مرمر «حتنوب» في مصر الوسطى:

أرسلني جلالته إلى محاجر «حتنوب» لأحضر منها مائدة قربان عظيمة من المرمر. وقد انحدرت في النهر من أجل الملك مع هذه المائدة المقطوعة من محاجر «حتنوب» في سبعة عشر يومًا، وجعلتها تحمل في النهر (نحو الشمال) في سفينة نقل. والواقع أني صنعت لهذا الغرض سفينة نقل من الخشب السنط طولها خمسون ذراعًا وعرضها ثلاثون ذراعًا وقد ركبت في سبعة عشر يومًا في أثناء الشهر الثالث من فصل الصيف. وعلى الرغم من أنه لم يكن ماء في قعر النهر فإني رسوت سليمًا عند هرم «مرنرع» (المسمى): «خع-نفر-مرنرع». وقد أنجزت كل شيء بشخصي على حسب الأمر الذي أعطانيه جلالة سيدي.

الحملة الثانية إلى الشلال:

وقد أرسلني جلالته لتعميق خمس قنوات في الجنوب ولأجل أن أصنع ثلاث سفن واسعة وخمس سفن نقل مصنوعة من سنط بلاد «واوات» في حين أن زعماء بلاد «أرثت» و«واوات» و«يام» و«المزاوي» كانوا يوردون الخشب لهذا الغرض، وقد أنجزت كل ذلك في سنة واحدة (أي في بعث) وأنزلت (السفن) في الماء محملة بالجرانيت بكثرة لأجل هرم «مرنرع» المسمى «خع-نفر-مرنرع» («مرنرع» جميل عندما يظهر).

وفضلًا عن ذلك حققت اقتصادًا بذلك في الوقت لأجل القصر بفضل هذه القنوات الخمس في مجموعها (وكل ذلك بسبب احترامي وصفاتي الشخصية والتقديس الذي عندي لقوة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مرنرع» العائش إلى الأبد، أكثر من كل الآلهة؛ وذلك لأن كل شيء كان قد أنجز على حسب الأمر

الذي أعطانيه الملك. وإني أنا المحبوب من والده والممدوح من أمه وإخوته، أنا الأمير الوراثي حاكم الوجه القبلي المبجل عند «أوزير».[٨٨]

«وني»

ولا نزاع في أن وجود هؤلاء العظماء في «إلفنتين» قد أكسبها ثروة طائلة وأضفى عليها بهاء ورونقًا وعظمة حافظت عليها في كل عصور التاريخ، ولا تزال من أجل ذلك حتى يومنا هذا مهبط الزوار من كل أقطار العالم؛ لما فيها من آثار جميلة وجو ممتع في أثناء الشتاء.

وتدل شواهد الأحوال على أن هؤلاء العظماء كانوا يقومون بلا شك بهذه البعوث لحساب الحكومة التي كانت مسيطرة على كل شيء. ولكن مما يؤسف له أن النقوش التي تركها لنا هؤلاء الموظفون الكبار على نحو ما رأى القارئ لم تصف لنا رحلاتهم في الجنوب إلا باختصار وهذه هي الحال في كل كتابات الدولة القديمة، إذ لا تعبر عن الوقائع إلا باختصار في كل النقوش التي وصلت إلينا؛ ولذلك ينبغي علينا ألَّا ننتظر تفاصيل ضافية عن هذه البعوث كما يرى القارئ في المتون التي أوردناها خاصة بهؤلاء العظماء.

على أن أكبر صعوبة تعترضنا في تقدير هذه النقوش هي الصعوبة الجغرافية التي تصادفنا في تعرف أسماء البلدان التي وردت في بلاد النوبة، فقد أصبح من العسير علينا تحديد مواقع الأماكن التي ذكرت في هذه النقوش، فنرى أولًا أن سرد أسماء الأماكن الجنوبية الواحدة تلو الأخرى كما جاءت في النقوش المختلفة لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة حاسمة؛ وذلك لأننا نجد أن هذا الترتيب في النقوش المختلفة بل وفي النقش الواحد يتغير، فمثلًا نجد في نقوش «وني» أولًا أن البلاد «أرثت» و«المازوي» و«يام» و«واوات» ذكرت على هذا الترتيب وبعد ذلك نجد في النقش نفسه الترتيب التالي «أرثت» و«واوات» و«يام» ثم «المزاوي».

وكذلك نجد في القوائم المتأخرة مثل قائمة «الكرنك» التي يرجع عهدها لحكم «تحتمس الثالث» أن بعض الأسماء التي ذكرت في الدولة القديمة وحفظت لنا في هذه القائمة لا تقدم لنا مادة كافية لتحديد موقع هذه الأماكن. والواقع أن معظم هذه الأسماء غير معروف لنا كلية ولذلك لا يمكن تحديد موقعها. ولا يمكن أحدًا أن يصل إلى نتيجة

من ترتيب هذه الأسماء لأن هذا الترتيب يختلف في القوائم المتعددة التي جاءت في النقوش الأخرى المعاصرة.

ولكن إذا جمع الإنسان بين نقوش المقابر والنقوش التي على الصخور فإنه من المستطاع أن يحدد موقع بعض الأماكن بشيء قد يقرب من الحقيقة. ففي «توماس» حيث تخرج الطريق التي تنعطف عند منحنى النيل في كرسكو، وكذلك طريق القوافل التي تخرج من «واحة كركر» والتي ينتهي عند «واحة دنقلة» قد وجد الأثري «ويجول»[٨٩] عددًا عظيمًا من النقوش التي على الصخور من أزمان مختلفة، ومن عهد الدولة القديمة بخاصة. ففي إحداها يقول «نيسوخو» السالف الذكر: «لقد أرسلت لأفتح «أرثت» للملك «ببيي الأوَّل» العائش أبديًّا، المشرف على مزارع البيت والمشرف على التراجمة «نيسوخو» ومن ذلك يظهر أن أرض «أرثت» كانت بالقرب من «توماس»[٩٠] وكذلك بلاد «واوات» يمكن أن يحدد مكانها بهذه الكيفية، ولا شك في أن «واوات» في عهد الدولة القديمة كانت غير «واوات» في عهد الدولة الحديثة. فقد كانت في الأخيرة اسما عامًّا لكل بلاد النوبة السفلى، ولا يدل استعمالها في الدولة القديمة على ذلك، حيث كانت تقابل تمامًا الأسماء الأخرى الدالة على أنها جزء من بلاد النوبة، أما في الدولة الوسطى فلا نعلم على وجه التأكيد التوسع الذي أحرزته «واوات» وكل ما نعرفه أن «كرسكو» كانت ضمنها على ما يظهر. هذا ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن كلًّا من «ليونز» و«بركش» قد أشار إلى نقش لم نعثر عليه بعدُ للملك «أمنمحات الأول». وهو: «لقد أتينا لإخضاع «واوات».[٩١]

ونجد في نقوش «حرخوف» في رحلته الثانية أن «سثو» و«أرثت» كانتا متجاورتين، ويدل على ذلك أن «حرخوف» هذا قد جعل هذين البلدين تحت حكم أمير واحد كما رأينا ذلك في نقوش «حرخوف» التي ذكرت سالفًا، ويجب أن تكون «واوات» مجاورة لهذين البلدين؛ لأن «حرخوف» في رحلته الثالثة وجد نفس الأمير يحكم «أرثت» و«سثو» و«واوات»، والأخيرة أصبحت تحت حكم هذا الأمير فيما بعد، ولا يمكن أن تكن واقعة بين «سثو» و«أرثت»، وأخيرًا يجب أن تكون «يام» جنوب هذه البلاد لأن «حرخوف» اخترق «أرثت» و«سثو» و«واوات» عند عودته من رحلته إلى «يام». فإذا كانت «أرثت» على ما يظهر تقع عند «توماس» كما يحتمل أن «واوات» تقع عند «كرسكو» فإنه لا بد أن تقع «سثو» إما بين «توماس» و«كرسكو» أو جنوبي «توماس»، والرأي الأخير هو المرجح؛ وعلى ذلك تكون «يام» على مقربة من الشلال الثاني في الجنوب منه. هذا هو رأي الأستاذ «تورجني سيف زودربرج».[٩٢] ويميل الإنسان إلى جعل موقع «يام» في الجنوب؛

وذلك لأن وارداتها كانت لا تأتي على ما يظن إلا من بلاد في داخل أفريقية مثل خشب الأبنوس والعاج والبخور، ولكن من جهة أخرى لا نعلم إلى أي حد كانت هذه المحاصيل بعينها موجودة في الشمال في الأزمان القديمة. ومن المحتمل أن الأستاذ «ينكر» كان على حق عندما وحد هذه البلاد بالبقعة التي تسمى «المحس»،[93] هذا إلى أن توحيد الأثري «دراسي» «يام» بجبل «أمام» رأي يستحق التفكير.[94] ولكن بعد ذلك طلع علينا الأثري «جان يويوت» برأي آخر وهو أن «يام» هي نفس واحة دنقلة.[95]

ومن الأمور التي تناولها البحث كثيرًا موضوع إحضار «حرخوف» في رحلته الرابعة قزمًا للملك «مرنرع». وهذا الأمر قد أدى إلى الظن بأن «حرخوف» قد أوغل في رحلته نحو الجنوب حتى وصل إلى أواسط أفريقية موطن هؤلاء الأقزام.[96] وهذا الرأي لا يستند على مصادر أصلية تؤكد هذا الزعم. فلا بد من فحص هذا الموضوع هنا على ضوء الحقائق العلمية التي أوردها علماء الآثار في هذا الصدد.[97] ولا بد لنا من التفرقة بين الأقزام الذين ورد ذكرهم في النقوش المصرية، ونوع من الرجال يولد قميئًا من أصل مصري. ولكن اللغة المصرية القديمة قد عبرت عن نوعي هذين القزمين بكلمة واحدة وهي كلمة «دنج»[98] أو كما جاء ذلك في متون الأهرام بلفظة «داج».[99] وقوم الأقزام يسكنون الآن في منطقة معينة في داخل أفريقيا وقد كان أول من كشف عن موقع بلاد هؤلاء القوم هو العالم الرحالة «شفينفورت»، وهو إقليم تابع لملكة «المانجباتو» التي تقع في أعالي منابع النيل. وتنحصر مساكن كل الأقزام في الأحراج والغابات. وكانوا في الأصل منتشرين في أماكن أخرى، غير أنهم انحصروا الآن في تلك الغابات ثانية. وكذلك لدينا سكان آخرون قد تقهقروا أمام الفاتحين إلى الأماكن الجبلية التي يصعب السير فيها، مثل أهل جبال النوبا في «كردفان». ومن المحتمل أن انتشار جنس الأقزام كان عظيمًا في عهد الدولة القديمة، ويدل على ذلك أن مساكنهم فيما مضى قد امتدت نحو الشمال. أما المعلومات القائلة بأنهم أُحْضِرُوا من بلاد «بُنت»[100] فلا يستند على أساس، فقد كان من الممكن أن تذكر الطريق التي أحضروا منها إلى مصر. على أن بعد «كرمة» التي تعد أقصى نقطة تجارية في الجنوب في عهد الأسرة السادسة من أقصى نقطة في الشمال يسكنها الأقزام بحوالي ٢٠٠٠ كيلو مترًا يجعل من المستحيل وجود اتصال مباشر بين المكانين، كما أن القول بوجود ارتباط تجاري مع طول المسافة وصعوبة الاتصال مع السودان كان من الأمور المستحيلة وقتئذٍ. ومن جهة أخرى ينبغي علينا ألَّا نجعل بقعة إقامة الأقزام موغلة في الشمال وإلَّا لما عُدَّ إحضار واحد من هؤلاء القوم حينئذٍ حدثًا نادرًا في بابه من الأحداث التاريخية المشهورة.

والواقع أن الأقزام كانوا مطلوبين بكثرة في مصر؛ وذلك لأنهم كانوا يقومون بالرقص الإلهي. ومما يجدر ذكره هنا أن العبارة التي نترجمها بالرقص الإلهي في هذا الصدد ليست مفهومة على الوجه الأكمل. وذلك لأنه يمكن أن تعتبر كلمة «إلهي» عائدة على الملك، لأنه كان يُعَدُّ إلهًا عند المصريين، وعلى ذلك يكون الرقص الإلهي تسلية الملك.

ولكن القزم كان ينبغي في الوقت نفسه أن يستعمل في الرقص الديني الخاص بالشعائر، ولا أدل على ذلك من أننا نرى في متون الأهرام أن الملك نفسه كان يقوم بدور القزم[١٠١] إذ يقول المتن عن الملك: «إنه راقص الإله الذي يسر الإله أمام العرش العظيم» وكذلك تحدثنا الآثار عن «تيوس» (Teos) الشهير وهو قزم قزعة من عهد الملك «نقطانب» ٣١٨–٣٦١م أنه قد رقص في «كم» (؟) في يوم دفن العجل «أپيس أوزير».[١٠٢]

ومن المحتمل أنه يوجد في الأصل رقصة وطنية غريبة تدعى «إباو–نتر» يتقنها قصار القامة؛ لأنهم أَتَوْا من بلاد بعيدة تُعْتَبَرُ مقدَّسة، وتسمى كذلك «تا–نتر» الأرض الإلهية، وقد كان هذا المكان الخرافي هو الذي منه أتت خيرات النيل، كما كان يُعَدُّ منبع البخور. ورقص سكان هذا الإقليم ربما كان له أهمية خاصة. ونحن نرى كيف أن رقص الأقوام الأجانب في الشعائر الدينية له مكانة هامة مثل رقص «التمحو» (اللوبيين).[١٠٣] ورقص «نحسيو» (السود) الذي يلعب دورًا في عيد الإله «مين» إله الخصب والنماء.

ولدينا حالة هامَّة لم تَلْقَ الْتفاتًا حتى الآن. وذلك أن الأقزام كان لهم رقصة غريبة على ما يظهر. فقد دوَّن العالم «شفينفورت» في كتاب[١٠٤] له ما يأتي: «وإذا كانت رقصة السلاح الخاصة بقوم «نيام نيام» قد استرعت إعجابي وتقديري، فإن سروري كان لا حَدَّ له هذه المرة فإنه على الرغم من ضخامة كرشه (يقصد القزم) المتدلي، وعلى الرغم من قصر فخذيه الدقيقتين فإن «إديموكو» المتقدم في السن كان يؤدي حركاته بخفة ورشاقة، هذا إلى أن قفزاته وهيئته وحيويته كانت تتمثل في مُحَيَّاهُ مما كان يثير ضحك كل الحاضرين على الرغم منهم». والواقع أن مثل هذه الرقصة كانت محببة إلى قلوب المصريين في عهد الدولة القديمة. ويمكننا أن نفهم إذن كيف أن الحملات إلى بلاد السودان كانت ترسل للحصول على مثل هؤلاء الأقزام. هذا ولم تمنع غرابة حركات الأقزام اشتراكهم في إقامة الشعائر الدينية.

ويلاحظ أن الأقزام المحليين كانوا أحيانًا يُشَاهَدُونَ في الصور بوصفهم خدمًا، وكانت أجسامهم متناسبة الأعضاء؛ فنرى أن طول الذراعين والساقين متناسب مع الجذع، وكان عظم الرأس يتفق مع سائر الجسم، وقد كان نشاطه يمتد حتى النشاط الذي كان يقوم

به قزم من أقزام السودان، وعلى ذلك فإن الأقزام النادرين الذين نجدهم في الصور يمثلون الأقزام الحقيقيين لا بد أنهم كانوا يَتَّخِذُونَ مكانة أخرى بصرف النظر عن أنهم أنفسهم كانوا قليلي الوجود بالبلاط، والواقع أنهم كانوا لا يُسْتَخْدَمُونَ في بيوت العظماء، وهؤلاء لا يمكن أن نعُدهم غلمانًا صغارًا يقومون بالخدمة؛ إذ يعترض ذلك الفرض صورة الجسم ولباس الرأس، وفي هذه الحالة يجب أن يكون الممثل هنا رجلًا وُلِدَ قميئًا، كما نشاهد أمثال هؤلاء المخلوقات في كل أجناس العالم، وعلى ذلك يمكننا أن نستبعد كثيرًا من الصور التي أظهرهم فيها المُفْتَنُّ لأسباب خاصة؛ إذ هم في الواقع مخلوقات صغيرة متناسقة الأعضاء، فنجد مثلًا شخصًا قميئًا قد رسم بجوار محفة سيده وهو يقود حيوان السيد المحبب إليه.

وليس من الضروري أن يكون الأشخاص الذين يُرسمون بطريقة صغيرة من الأقزام، بل كان الْمَثَّالُونَ في كثير من الأحوال يرسمون أناسًا بصورة صغيرة نسبية بوصفهم حاملين سادتهم؛ فيكون رسم التابع متناسبًا مع صورة السيد المحمول في المحفة،[١٠٥] وقد لاحظ الرسام في تأليف هذه الصورة ما لاحظه في الصورة رقم ٤٤ في نفس المؤلف من مراعاة النسبة في الرسم، حيث نجد الابنة قد رُسِمَتْ بجانب والديها بصورة صغيرة جدًّا، ومع ذلك فإنه قد بقي لنا بعض حالات نشاهد فيها أقزامًا حقيقيين رُسِمُوا بصورة منظمة بوصفهم خدمًا، كما نشاهد ذلك في مقبرة «تي»،[١٠٦] وكذلك صورة القزم في كتاب «ولكنسون».[١٠٧]

وعلى أية حال فإن أمثلة الأقزام قليلة جدًّا، وفي معظم الحالات نجد القزم قد صُوِّرَ بهيئة قبيحة فَيُرْسَمُ جذعه ورأسه مثل جذع ورأس رجل عادي، ولكنَّ ذراعيه وساقيه قصيرة مشوهة بسبب نقص في الغدة.

الأعمال التي يقوم بها القزم: لم يكن استعمال القزم في البيت بأية حال مجرد لعبة أو صورة مضحكة يَتَسَلَّى بها أصحابه أو تابعًا يقوم بعمل تافه، بل كان على العكس من ذلك يقوم في البيت بكل الأعمال التي لا تتعارض مع تكوين جسمه، فلا يزاول الأعمال اليدوية الصعبة التي لا يمكنه القيام بها بحسب تكوينه، ولكنه يقوم بالأعمال الأخرى الخاصة بالبيت كما كانت الأعمال الدقيقة كلها من اختصاصه فنجده يقوم بعمل الغلام في البيت وحارس النسيج والصانع وحارس الماشية، كما نجده يقوم بوظيفة غلام الحجرة يحضر لسيده حاجاته الخاصة كالحذاء والعصا والمخدة والكرسي والمرآة إلخ.

وعلى أية حال فإن ذكر «حرخوف» في نفس المتن الذي وضعه هو بأن مواطنًا آخر قد أحضر قزمًا من بلاد «بُنت» لا يعني أن رحلات التجار المصريين قد وصلت إلى هذا الحد في الجنوب؛ وذلك لأن هؤلاء الأقزام كما شرحنا من قبلُ ليسوا من فصيلة الأقزام الحقيقيين، وإذا كان الأمر كذلك فإنَّا لا نعرف إلى أي بقعة شمالًا استوطن هؤلاء القوم في هذا العهد، إلا أنه من الجائز جدًّا أنهم جُلِبُوا بواسطة تجار الرقيق إلى المكان الذي كان يتقابلون فيه مع المصريين في بلاد النوبة.

هذا ولا يمكن أن نعتبر طول مدة الرحلتين الأخيرتين اللتين قام بهما «حرخوف» تشير إلى أن المصري قد أوغل في سياحته نحو الجنوب، وأن «يام» موقعها بعيد في الجنوب؛ وذلك لأننا لا نعرف مقدار سرعة سيره، ولم نعرف كذلك المدد التي كان يمكثها «حرخوف» في البلاد المختلفة التي جاب مجاهلها. وقد فحص الأستاذ «جاردنر» مواقع هذه الأماكن عند تحدثه عن «مجا» (مزا). فيقول: إن «مزا» أو «مجا» التي جاء ذكرها في النقوش هي بلاد يسكنها قوم من البدو الرُّحَّلِ ويحتمل أنها تقابل قبيلة «بجا»[١٠٨] الحالية. وتعد «المجا» أو «المزا» في عهد الدولة القديمة أحد الأقاليم النوبية المجاور بعضها لبعض التي منها «واوات» و«يام» و«أرثت»، وهذه هي التي جاء ذكرها عادة في المتون، وسكان هذه الأقاليم يوصفون بأنهم «النحسيو» وهي كلمة عامة تطلق على الذين من أصل نوبي وليسوا زنوجًا.[١٠٩] وفي الحملة التي قام بها «بيبي الأوَّل» على بدو «سيناء» نجد أن الجيش الذي كان يقوده «وني» لمحاربة بدو «سيناء» يحتوى على فيالق من الأقاليم أو القبائل السالفة الذكر.[١١٠] ونجد من بين الموظفين الذين خوطبوا في منشور مؤرخ بحكم هذا الملك رئيس[١١١] المترجمين «للمجا» و«يام» و«أرثت» مِمَّا يدل إلى حدٍّ ما على أنهم كانوا تحت سلطان القضاء المصري، وفي العهد التالي أي في حكم الملك «مرنرع» نجد أن رؤساء «المزا» و«أرثت» و«واوات» قد زاروا جوار «أسوان» ليقدموا خضوعهم للملك شخصيًّا كما ذكرنا من قبل، وهذه الحادثة يحتمل أنها كانت تتفق مع مساعدتهم للقائد «وني» ونجد كذلك هنا أن أمير «يام» قد قام بدوره في جر قطع خشب السنط للسفن التي استعملها في نقل الجرانيت لهرم الملك «مرنرع»،[١١٢] وإذا كان قول الأثري «ويجول»،[١١٣] كما ظن حقًّا، من أن هذا الخشب قد قطع من داخل هذه الأقاليم التي يحكمها هؤلاء الأمراء؛ فإن هذه الأقاليم لا يمكن أن تقع على مسافة بعيدة من مصر، والواقع أن الفكرة التي يستخلصها الإنسان من ذلك أن كل هذه الأقاليم كانت تنحصر في مساحة قدرها ٣٥٠ كيلو مترًا من النهر بين «الشلال الأوَّل» و«الشلال الثاني». ولدينا

بعض تفاصيل مؤكِّدة لهذا الرأي يمكن الإنسان أن يلمسها؛ فإقليم «واوات» كان معروفًا أنه امتد شمالًا حتى حصن «سنخت» (بجه). ولدينا نقش على الصخر في «كرسكو»[١١٤] مسجل فيه حملة قام بها «أمنمحات الأوَّل» ليهزم «واوات» وربما تكون الحملة في هذا الوقت قد وصلت إلى هذا الحد جنوبًا. وفي عهد الدولة الحديثة كانت تشمل كل بلاد النوبة السفلى.[١١٥] ولدينا نقش على الصخر للملك «بيبي الأوَّل»[١١٦] في «توماس» على مسافة ثلاثين كيلو مترًا في أعالي النهر من «كرسكو» يخلد ذكرى موظف قد أرسل إلى هذه الجهة ليقتحم مجاهل «أرثت» ومن ثَمَّ يمكن أن نستنبط أن «توماس» كانت في داخل هذا الإقليم. وعلى أية حال فإن أمير «أرثت» كان كذلك أمير «سثو» التي أشير إليها بأنها في أسفل «أرثت».[١١٧] وعلى ذلك يجوز أن «واوات» في عهد الأسرة السادسة لم تصل في امتدادها إلى أعالي النهر حتى «كرسكو». وكان أمير «إلفنتين» «حرخوف» قد أُرْسِلَ في عهد الملك «مرنرع» للكشف عن مجاهل «يام»[١١٨] وهي تقع بدهيًّا بعيدًا عن مصر أكثر من «سثو» و«أرثت» اللتين ذكرهما في نقوشه ولما لم يكن قد تكلم عن «مجا» (مزا) فإنه يظهر إذن أنها كانت تقع بعيدًا عن هذه الجهات، والبراهين التي تدل على موقع «مجا» (مزا) في هذا العهد المبكر تعوزنا، ولكن لا يُحْتَمَلُ أنها تقع جنوب الشلال الثاني وإن كان «ويجول»[١١٩] قد أخطأ بالتأكيد في قوله إنها تمتد شمالًا حتى «الدر» القريبة من «توماس» وعلى ذلك كان من الواجب أن يكون ضمنها «أرثت». وفي عهد الدولة الوسطى يصادفنا اسم الحصن «خسف مزاو» = «صد المزاوي» (فرص) وهذا يقدم لنا شاهدًا هامًّا على أنه عندما بني هذا الحصن — وذلك لم يكن قبل الدولة الوسطى — كانت هجمات «المزاوي» منتظرة في هذه النواحي.[١٢٠] وإذا لم يُعْتَبَرْ «المزاوي» في ذلك العهد من الأقوام المعتدين لكان الكلام السابق من لغو القول. وقائمة الحصون كما سنرى بعد تضع هذا الحصن بين «وادي حلفا» و«عنيبة» وقد قيل إن مكانها هو «سره الغرب» و«فرص». وعلى أية حال فإنه في عهد الأسرة الثالثة عشرة كان قوم «المزاوي» (المجاي) يسكنون خلف «الشلال الثاني» وذلك لأن ورقة «الرمسيوم» وهي التي أطلق عليها رسائل «سمنة»[١٢١] تسجل وصول عدد صغير من «المزاوي» إلى «سمنة» وهم الذين يرجعون بعد بيع سلعهم إلى المكان الذي أَتَوْا منه. والذي يهمنى الآن هو موقع بلاد «مزاو» (مجاو). وتدل البراهين التي أوردناها فيما سبق على أن هذه البلاد كانت في عهد ختام الأسرة السادسة تقع شمالِي الشلال الثاني، ومن المشكوك فيه كثيرًا أنها كانت تمتد وراء ذلك الإقليم المصري الصغير. ولا نزاع في أن ملوك مصر في عهد الدولة القديمة لم

يجندوا جنودًا من الجنوب الأقصى لبلاد النوبة العليا. وقد دوَّن الأستاذ «زيته» ملحوظة غريبة في بابها في كتابه الخاص باللعنات على أعداء مصر، وهي التي وجدت على قطع من الفخار جاء فيها «في الوقت الذي يجد فيه الإنسان سائر أعداء مصر من النوبيين وُصِفُوا بأنهم حكام كُلٌّ على مملكته الخاصة جاء ذكر حاكم «مزاوي» دون أي لقب «مزاي واح إب»[١٢٢] وقد يدل هذا على أنه عند تأريخ كتابة هذه المتون التي يرجع عهدها إلى قبل الأسرة الثانية عشرة كانت «مزا» أو «مجا» قد أصبحت لا تحدد بوصفها وحدة جغرافية، وإن كان قوم «المزاوي» لا يزالون يوجدون بوصفهم قبيلة منفصلة. وبعد الدولة القديمة لم نعد نسمع عن «أرثت» و«يام». ومن المحتمل أن شخصية بلاد «مزا» الأصلية قد أصبحت في النهاية مندمجة في بلاد «واوات» التي أصبحت مرادفة لبلاد النوبة السفلى. ولدينا وثيقة تشير إلى هذا الرأي وأعني بها ورقة «بولاق» التي تبحث في اليوميات الخاصة بمصاريف البلاط والأحداث التي جرت في «المدمود» في عهد أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة،[١٢٣] فقد جاء في هذه الورقة ذكر رئيسين من «المزاي» كانا قد أتيا ليقدما مع نساء وطفل وتابع ومترجم. وقد وصف أحد الرئيسين كما يأتي: رئيس المزاي للمزاي. والمقصود بكلمة «المزاي» الأولى النوبيون على وجه عام والمزاي الثانية هي قبيلة «المزاي» الخاصة. والظاهر أن كلمة «مزاي» بمعنى النوبيين قد ظهرت على ما يظن للمرة الأولى في العهد المتوسط الأوَّل في نقوش محاجر المرمر في «حتنوب»،[١٢٤] وكذلك في تعاليم «أمنمحات الأوَّل» حيث نجد الملك يلقن قوله: «لقد حملت «المزاي» أسرى وهزمت أهل «واوات»؛ وربما كان المقصود هنا البلدين اللذين تتألف منهما في الأصل بلاد النوبة السفلى.

وتدل ظواهر الأمور على أنه في عهد الدولة الوسطى وحتى فيما بعدها بقليل كان اسم «المزاوي»، «مزايو»، «مزاي» يراد به النوبيون في معنًى عام؛ وذلك لأنه كان يذكر وحده ليعني أي قوم من النوبة وما بعدها، فمثلًا في تحذيرات نبي نجد العبارة التالية: «والمزاي ملاطف مع المصري».[١٢٥] وربما كان المقصود من ذلك أنه كان على مصافاة مع تلك البلاد التي كانت نفسها ممزقة بالحروب الداخلية.

وبعد هذا العهد بنحو خمسة قرون كان الملك «كاموس» يستعمل جندًا من «المزاوي» في هجومه على الهكسوس،[١٢٦] ولكننا لا نعرف أن هؤلاء الجنود هم من الجنس النوبي الصافي.

وإذا كانت كلمة «مزاي» قد أصبحت تعبر عن النوبيين الذين زحفوا جنوبًا بعد موطنهم الأصلي فإنه من الطبيعي أن التعبير عنهم فيما بعدُ ينبغي أن يحمل معنًى

مقابلًا لاسم بلاد «مزا». ومن المحتمل أن الإشارات إلى أرض «مزا» منذ عهد الدولة الوسطى وما بعدها إمَّا أن تكون مجرد تعبير قديم محض كما نجد في قوائم البلاد التي فتحها ملوك الدولة الحديثة مثل «تحتمس الثالث»[١٢٧] و«سيتي الأوَّل»[١٢٨] وما بعده، أو أن الكلمة مستعملة في معنى مبهم لتدل على كل السودان بأوسع معانيه، غير أن هناك بعض اعتراض على ذلك.[١٢٩] فالظاهر أنه كانت لا توجد أرض تُدْعَى بلاد «مزا» بعد بداية الدولة الوسطى كما يقول «جاردنر»[١٣٠] وعلى أية حال فإنه من الحقائق الثابتة أننا لم نَعُدْ بعدُ نسمع إلا ذكر قوم «مزا» باطِّرَادٍ مستمر، وفي الوقت نفسه أخذ ذكر بلاد «مزاي» يَقِلُّ شيئًا فشيئًا في المتون.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن علماء الآثار الألمان أخذوا يتأثرون برأي الأستاذ «شيفر» في توحيد كلمة «مجا» أو «مزا» باسم قبيلة «بجا».[١٣١] وهذا التوحيد قد اعترف به «إدوارد مير»[١٣٢] والأستاذ «زيته»[١٣٣] والأستاذ «كيس».[١٣٤] والواقع أن الرأي الذي عَبَّرَ عنه كل من «برستد» و«جوتييه» مفضل على رأي الألمان؛ وذلك لأن كلًّا منهما يعد «المزاي» من أهل الجنوب (النوبيين) لا بَدْوًا من أهل الصحراء الغربية. والواقع أننا إذا استثنينا بعض أمثلة فيها شك ذكرها الأستاذ «جاردنر» عن بلاد «مزاي» فإننا قد لا نجد مثالًا واحدًا يعبر عن بلاد «المزاي» بمعناها الجغرافي الصحيح الذي يدل على النوبيين بعد الأسرة الثامنة عشرة، بل من هذا العهد وما بعده قد نجد أن كلمة «مزاي» تعني الشرطة أو ما يشبه ذلك.

رأينا فيما سبق أنه في كل من نقوش الدولة القديمة ولوحة «كارنرفون» الخاصة بأعمال الملك «كاموس» أن استعمال «مزاوي» النوبيين كان بوصفهم مساعدين للجيش المصري. وهذا الاستعمال كان من غير شك أكثر شيوعًا في الوقت الذي سبق الأسرة الثامنة عشرة مما تَكْشِفُ عنه المصادر التي في متناولنا؛ وذلك لأنه منذ نهاية هذا العهد كانت كلمة «مزاي» قد أصبحت كثيرة الاستعمال بمعنى شُرْطِيٍّ أو رَامٍ. ومن المحتمل أن أول أثر لهذا الاستعمال كان في عهد «سنوسرت الثالث» عندما ظهر «مزاي» في موظفي معبد «اللاهون»،[١٣٥] وكذلك لدينا مثال آخر وجد على لوحة خشنة النقش محفوظة الآن في متحف «جيميه» حيث تجد لقب «مزاو» قد مُنِحَهُ رجلان يحملان اسمين مصريين وهما «رس» و«بتاح ور».[١٣٦] وهذه اللوحة يمكن أن تنسب إلى عهد الأسرة الثالثة عشرة. وقد لوحظ أن أحد الرجلين كان لونه أحمر على حسب ما جاء في المتن الذي دوَّنَهُ «موريه»، ولكنه لم يذهب إلى أن المقصود به نوبي. ويقول «جاردنر» إنه لم يجد في

الأزمان التي خلفت الأسرة السابعة عشرة أي برهان ما غير اسم «مزاي» نفسه. واللقب «رئيس المزاي» يدل على رئيس الشرطة أو الجنود الذين كانوا يُسَمَّوْنَ بهذا الاسم، وكانوا يشملون رجالًا من أصل نوبي. ومن جهة أخرى لدينا حقائق عدة تدل على أن الضباط أو الرجال الذين وُصِفُوا بأنهم «مزاي» كانوا مصريين حقيقيين. ففي «تل العمارنة» نجد أن فرقة بأكملها قد رُسِمَتْ على جدران قبر ضابطها المسمى «محو».[١٣٧] و«محو» اسم مصري ولا يوجد في منظر رجاله ما يدل على أنهم من دم أجنبي. وفي «الكاب»[١٣٨] أن «مزاي» كان ابن أخت صاحب المقبرة، وليس لدينا ما يدعو إلى الشك في أن «نبأمون» صاحب المقبرة رقم ٩ في «طيبة» الذي بدأ حياته بحارًا وأصبح فيما بعدُ حامل عَلَمٍ، وختم مجاله في سلك التوظف بأن أصبح ضابط «مزاي» في غَرْبِيِّ «طيبة»[١٣٩] لم يكن مصريًّا، وهكذا من الأمثلة التي لا حصر لها. والواقع أن أسماء «مزاي» (الشرطي) في عهد الدولة الحديثة كله كانوا بوجه خاص مصرين مثل ضباطهم الذين كانوا يلقبون ضباط المزاي، وكان من أهم أعمالهم حراسة الجبانة وحراسة الحدود في كل أنحاء البلاد.

ولم نسمع عن «المزاي» إلا القليل بعد الأسرة العشرين.[١٤٠] وخلاصة القول أنه يمكن تلخيص نتائج هذا البحث الطويل في ثلاثة عهود مميزة في تاريخ التعبير «مزاو»، «مزاي».

(١) الأول من عهد الدولة القديمة عندما كانت كلمة «مزاي» تشير إلى إقليم صغير، ويحتمل أنه كان الإقليم الواقع شمالِي الشلال الثاني مباشرة.

(٢) الثاني من عهد الدولة الوسطى حتى عهد الأسرة السابعة عشرة عندما كان قوم «المزاي» لا يزالون نوبيين، ولكن الاسم أصبح عامًّا يشمل أناسًا يحتمل أنهم كانوا يعيشون بعد الشلال الثاني بمسافة كبيرة.

(٣) الثالث من عهد الأسرة الثامنة عشرة عندما كانت كلمة «مزاي» تستعمل بوصفها لقب وظيفةٍ وتعني رجال الشرطة ورُمَاةَ الصحراء، ويحتمل أنها قد فقدت في هذه الفترة كل علاقة فعلية مع بلاد النوبة والنوبيين.

ولدينا أسماء أماكن أخرى جاء ذكرها في متون الدولة القديمة مثل «ماخر» و«تررس» لم يمكن حتى الآن استنباط شيء عن حقيقة موقعها على وجه التأكيد.

طرق المواصلات بين مصر وبلاد النوبة

ذكرنا فيما سبق شيئًا عن الرحلات التي كان يقوم بها كبار رجال الدولة من «منف» عاصمة الملك وكذلك من «إلفنتين» إلى بلاد النوبة، وما كان بين البلدين من ارتباط تجاري، فكانت مصر في عهد الدولة القديمة تصنع سلعًا تحتاج إليها بلاد النوبة احتياجًا شديدًا، كما كانت الأرض الجنوبية تنتج كميات عظيمة من المواد الغفل — بالإضافة إلى تجارة العبيد الذين كانت مصر في حاجة إليهم. هذا ونعلم أن مصر كان يفصلها عن بلاد السودان ذلك الجزء المحدب الذي لا يأتي بثمار، وهو الإقليم الذي سُمِّيَ «كاش» أو «كوش» أو «أثيوبيا». فيما بعد، وكانت «كوش» نتيجة لذلك تعد أرض طرق تجارية، وقد كسبت أهميتها وقتئذٍ وإلى الأبد بما أوتيت من موقع جغرافي بوصفها حلقة الاتصال بين مصر وأواسط أفريقيا. ويمكن تتبع الطرق التي كانت تسير عليها التجارة في عهد الدولة القديمة من البيانات التي تركها لنا قُوَّادُ الحملات على جدران مقابرهم وعلى الصخور التي على ضفتي النيل. والظاهر أنها كانت نفس الطرق التي تُسْتَعْمَلُ حتى يومنا هذا. ففي عهد المهدي والخليفة التعايشي في السودان كانت التجارة قد قُضِيَ عليها تقريبًا. ومنذ عام ١٩٠٠م. فتحت حكومة السودان خطوط السكك الحديدية والبواخر النيلية؛ مما أنقص من تجارة القوافل، وبذلك تحول جزء عظيم من التجارة إلى طريق «بور سودان». ويلحظ أنه في القرن المنصرم من عصرنا كانت الطرق القديمة لا تزال مستعملة، وهي ثلاث طرق: الأولى طريق التجارة النيلية، والثاني الطريق التي تخترق الصحراء الشرقية، والثالث الطريق التي كانت تسير في الصحراء الغربية. وطبعي أن العامل الحاسم في صلاحية كل من هذه الطرق للسير عليه هو وجود الماء الذي يعد أهم عنصر للحياة في هذا الإقليم القاحل. هذا ولم يكن نهر النيل نفسه كله صالحًا للملاحة لما يعترضه من شلالات. وعلى أية حال كانت فيه مسافات صالحة لسير السفن منها مسافة طولها ثلاث مئة كيلو متر وتقع بين الشلال الأول والثاني، وكانت على ما يظن تستعمل للتجارة في عهد الدولة القديمة، وكانت متصلة بالنيل بقنوات عند الشلال الأول. هذا وتوجد مسافة أخرى صالحة للملاحة يبلغ طولها حوالي مئة كيلو متر وتقع بين «كوشه» و«دلقو». ثم المسافة الطويلة التي يبلغ طولها حوالي أربع مئة وخمسين كيلو مترًا في المنحنى العظيم الذي تقع فيه منطقة «دنقلة» الحالية، ولكن من جهة أخرى تكون الشلالات صالحة للملاحة في أثناء فصل الفيضان (أي مدة شهرين في السنة) ويمكن للسفن المحلية أن تقوم بالرحلة بين «دنقلة» و«حلفا» ثم تعود في تلك المدة.

ويتضح لنا من البيانات التي وصلت إلينا من عهد الدولة الحديثة أن الطرق النهرية كانت تستعمل سنويًّا لنقل الجزية التي كانت تُجْبَى من هذه الجهات كل عام.

وتدل النقوش التي تركها ملاحو السفن في عهد الدولة القديمة والدولة الوسطى على استعمال الطريق المائية حتى الشلال الثاني على الأقل. ومن المحتمل أن هذه الطريق كانت معروفة ومستعملة منذ أقدم العهود، وكانت الرحلة ذهابًا وإيابًا تستغرق في هذه الأحوال على الأقل مدة سنة فكان الرحالة يصعد في النيل في أثناء الفيضان ثم ينحدر راجعًا خلال الفيضان التالي. وتوجد على كل من شاطئ النهر طريق محاذية للنيل تتفرع عند المنحنيات التي في النهر لتخترق المسافة بطريق قصيرة تدعى «عقبة» في الصحراء، غير أن الرحالة يعود ثانية إلى النيل دائمًا لأجل أن يسير في محاذاة ماء النيل. والصحراوان اللتان تقعان خلف الوادي إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب تختلفان اختلافًا عظيمًا من حيث التركيب الجيولوجي ومن حيث السكان ونوع الطرق. ففي الصحراء الشرقية لا توجد واحات كبيرة ولكن توجد فيها أحواض عدة حيث يجتمع المطر الذي كان ينزل من وقت لآخر ويتجمع ويخزن في آبار، وهذه الصحراء الآن يسكنها من أول خط عرض قنا جنوبًا حتى منطقة الأمطار عدد قليل من البدو معظمهم من العبابدة والبشاريين، وفي الأزمان القديمة كان يقطنها كذلك قوم من البدو ربما كانوا من جنس مختلف.

وكان مورد حياة هؤلاء السكان هو قطعان الإبل والماشية الصغيرة والفحم البلدي وتجارة الملح وصيد السمك في البحر الأحمر، على أن هؤلاء البدو وما يملكون من إبل، ومن خبرة في معرفة بالآبار، قد تمكنوا بطبيعة الحال من احتكار كل طرق النقل في الصحراء، وطرق القوافل المعروفة هي:

(١) من النيل بطريق «قفط»-«قنا» أو الأقصر حتى موانئ البحر الأحمر وأهمها الآن «القصير»، وفي عهد الدولة القديمة «ساو» (الآن وادي «جاسوس») وهي ميناء بلاد «بُنت».[١٤١]

(٢) وطرق القوافل المؤدية إلى المحاجر والمناجم المختلفة في «حتنوب» وجبل «فطيرة» و«حمامات» (على طريق القصير) و«أم روس» و«وادي العلاقي» إلخ.

(٣) وأعظم الطرق التي في الشمال الجنوبي تخرج من عند النيل في «دراو» شمالِي «أسوان» وتمر بسلسلة آبار يوميًّا تقريبًا وبعد مسيرة مدة تتراوح ما بين ستة عشر يومًا إلى عشرين يومًا تصل إلى النيل فوق بداية منحنى «دنقلة» العظيم. وفي الأزمان

الحديثة تؤدي هذه الطريق إلى «شندي» و«سنار». ومن «شندي» تخرج طرق أخرى إلى «سواكن» أو «الحبشة» وتخترق الصحراء إلى «مروي» أو «كورتي» في مديرية «دنقلة»، ومن «سنار» كانت الطرق مفتوحة إلى «كردفان» و«دارفور» وغَرْبِيِّ أفريقيا أو إلى نقط تَجَمُّعِ مياه النيل الأزرق أو النيل الأبيض.

(٤) ويوازي تقريبًا طريق «دراو»-«سنار» الطريق المؤدية من «كرسكو» إلى «أبو حمد» وكانت في الواقع طريقًا مختصرًا في طريق النهر المحاذية لشريط انحناء «دنقلة» الكبير، وهذه الطريق تُقْطَعُ في ثمانية أيام وليس فيها إلا بئر واحدة في منتصفها تقريبًا.

وأهم الطرق للتجارة الكوشية الطريقان الشماليتان الجنوبيتان بطبيعة الحال فهما الوحيدتان الهامتان لها، ومن المحتمل أنهما اللتان كانتا تُسْتَعْمَلَانِ في الأزمان القديمة. والصحراء الغربية تمتاز بسلسلة الواحات التي تَمْتَدُّ بمحاذاة الوادي. ففي الأزمان الحديثة كانت طريق القوافل الذاهبة جنوبًا وهي «درب الأربعين» أو طريق «دارفور» تخرج من النيل عند «أسيوط» وتمر جنوبًا بالواحة الخارجة وبسلسلة من الواحات الصغيرة أو الآبار حتى واحة سليمة، ومن ثَمَّ تسير إلى «بئر السلطان» حتى «دارفور» وهذه الطريق الرئيسية يمكن الوصول إليها بطرق متقاطعة تؤدي إلى الصحراء من «جرجا» أو «سوهاج» و«أرمنت» أو «الأقصر» و«إدفو» وبوجه خاص من «أسوان». وطريق «أسوان» تتجه نحو الجنوب الغربي وتمر بِوَاحَتَيْ «كركر» و«دنقل»، و«بئر أبو نجيل» وتصل إلى «درب الأربعين» عند واحة «سليمة»، ومن واحة «سليمة» تؤدي طريق قصيرة إلى النيل ثانية عند «ساقية العبد» أو إلى جزيرة «ساي» على مسافة أربعين كيلو مترًا شمالِي «معبد صلب». وهناك طريق أخرى أطول تؤدي إلى رأس الشلال الثالث وهو إقليم دنقلة الجديدة (الأردي) وجزيرة «أرقو» ثم «كرمة».

وقد كانت طريق «أسوان» — «سليمة» — «ساى» أو «كرمة» في نظر مصريي الدولة القديمة عملية أكثر من طريق «درب الأربعين» إذ كانت تسمح باستعمال النهر حتى «أسوان» ومع ذلك كانت تمر بهم على كل القبائل التي اشتهرت بالنهب وبفرض الضرائب وهي التي كانت تسكن وادي مديرية «دنقلة» التي لم تبعُد كثيرًا عن الأسواق الجنوبية الرئيسية. أما التجار الجنوبيون الذين كانوا يسعَوْنَ للوصول إلى مصر ويرغبون في تَجَنُّبِ تَعَرُّضِ الموظفين المصريين لأموالهم وقبائل «واوات» الذين يقطنون شاطئ النهر فكانت طريق «الأربعين» أوفق لهم. والغرض من اتخاذ هذه الطرق الصحراوية الشاقة تَجَنُّبُ تتابع انقضاض القبائل والحكومات الصغيرة التي يقطن أهلها ساحل

النهر ومطالبة القوافل بالضريبة الحتمية على ما تحمل من سلع، وكان رئيس كل قبيلة يحدد ضريبته على كل حمولة أو كل شخص حسب إرادته، وكان يعلم أن تَأَخُّرَ القافلة من أحسن الأسلحة لديه لزيادة الضريبة، هذا إلى أن إلقاء القوافل عصا السير من أجل ذلك كان يُهِيِّئُ فرصًا لسرقة البضائع وسرقة دواب الحمل الخاصة بالقافلة. على أن نفس الطرق المفضلة لم تكن مأمونة بعيدة عن غارات سكان الصحراء الذين ينقضون من الجبال، غير أن قبائل الصحراء المتفرقة كانوا في الأزمان الحديثة ينحصرون في مجموعة أو مجموعتين وعلى ذلك فإن القافلة كانت تتقي هجماتهم بدفع الضريبة مرة أو مرتين بالمساومة من أول الطريق، وكان في إمكان القافلة بذلك أن تقطع الطريق من «أسوان» حتى «دنقلة» أو «بربر» دون أي عائق يقوم في وجهها. وعندما نفحص نقوش الدولة القديمة نجد أن من واجب قُوَّادِ القوافل وقتئذٍ أن يتعاملوا مع بلاد مثل هذه تنقصها الحكومة المركزية. يضاف إلى ذلك أن المصري القديم لم يكن لديه إبل، بل كان كل ما يستعمله في رحلاته هو الحمار الذي كان يجتاز به الصحراء وكان سيره فيها يتوقف على وجود الماء، ومن المعلوم أن قوافل الحمير القليلة التي كانت تقوم بالرحلات في الصحراء لا يمكن أن تسير أكثر من يومين. أما القوافل العادية التي تسير فيها الحمير والجمال معًا فيمكن أن تقطع مسافة طويلة في صحراء لا ماء فيها، لأن الجمال كانت تحمل الماء اللازم لقطع هذه المسافة.[١٤٢] هذا ولدينا صعوبة أخرى عندما نريد أن نحكم على هذه الرحلات الصحراوية وأعني بها علاقتها بالآبار المحفورة في الصحراء، فنجد حتى يومنا هذا آبارًا عدة تكون أحيانًا مملوءة بالماء وأحيانًا أخرى تكون ناضبة.

وعندما يفكر الإنسان في الأهمية العظمى لبئر واحد تتوقف عليها حياة القائمين برحلة طويلة ومقدار ما يتعرضون له إذا طمرتها الرمال — وكثيرًا ما يحدث ذلك — أصبح من الصعب عليه أن يحكم على إمكانيات التجارة بالسير على طرق مختلفة؛ ذلك إلى أن السطو على القوافل في الوديان التي كانت آبارها مُحَافَظًا عليها كان كثيرًا بلا شك.

ويمكن أن نلخص القول عن كيفية اختيار طرق التجارة القديمة فيما يأتي:

عندما تكون الحاصلات المطلوبة في بلاد النوبة السفلى ويصعب نقلها بسرعة مثل الأحجار اللازمة للتمثيل وغيرها، ومثل قِطَعِ الخشب الكبيرة اللازمة لبناء السفن وغيرها، فإن طريق النقل بالنيل كانت هي المستعملة في هذه الحالة. ولكن عندما يكون المطلوب نقل بضائع خفيفة الوزن تنقل على ظهور الحمير على الطريق المحاذية للنيل. وفي

هذه الحالة كان يتفادى الإنسان انحناءات النيل بإتباع الطريق القصيرة، أي باختراق الصحراء مباشرة، ثم العودة إلى الطريق المحاذية للنيل. وكانت الطريق المفضلة التي تربط البلاد التي خلف «الشلال الثاني» بالأراضي التي بعده هي طريق الصحراء المارة بواحات «كركر» و«دنقلة» و«سليمة» إذا لم يكن لدى المسافر أشياء يريد قضاءها في بلاد النوبة السفلى.

وتدل ظواهر الأمور، كما قلنا سابقًا، على أن التجارة كانت في هذه الأحوال احتكارًا للملوك، ولا أدل على ذلك من نظم الحكم في الدولة القديمة، فطالما ظلت الحكومة المركزية في «منف» قوية لا يفكر أحد في ارتكاب شيء يخالف القانون، وحتى في خلال عهد الملك «بيبي الثاني» الطويل الأمد (٩٧ سنة) عندما أخذ حكام الإقطاع ينفصلون شيئًا فشيئًا عن الحكومة المركزية فإن الحال بقيت كما هي عليه من حيث احتكار الملك للتجارة. وعلى الرغم من ذلك فإن ذكر هذه الحالة لم يرد في نقوش رؤساء البعوث قط، غير أن ذلك كان مفهومًا ضمنًا لأن هؤلاء المبعوثين كانوا دائمًا يتلقَّوْن تعليماتهم من الفرعون نفسه، كما كان هو الذي يعينهم للقيام بهذه البعوث، وهكذا كانت حال هذه التجارة عندما توجد حكومة مركزية قوية في عاصمة البلاد. وهذه الحال كانت كذلك سائدة في عهد «محمد علي» الذي قبض على زمام كل موارد التجارة بعد أن كانت في عهد المماليك في أيدي أشخاص مختلفين.

المعاملات التجارية

الواقع أننا لا نعرف إلا القليل عن المعاملات التجارية بين مصر وبلاد النوبة في هذا العهد، والظاهر أن هذه المعاملات في بادئ الأمر قد ظهرت عندما كانت الروابط السياسية تسير على سبيل الود والمصافاة، وكان قوامها المنفعة المتبادلة بين البلدين، فكان المصري يدفع للمواطن النوبي أجره على الأعمال التي يؤديها له، كما كان يشتري منه البضائع الغفل التي لم يجنها بنفسه، وعندما تَأَزَّمَتِ الأحوال السياسية بين القطرين فيما بعدُ، كان لزامًا على النوبي أن يدفع جزية تُدْعَى «تنجو» لمرور تجارته عند الحدود.

وليس لدينا في مقابر المجموعة الثقافية «ب B» الفقيرة من مواد التجارة إلا أشياء قليلة مستوردة من الصناعات التي كانت تتبادل بين مصر وبلاد النوبة في هذا العهد، فالأواني المصنوعة من الحجر كانت معدومة بالمرة، ولم يوجد الخرز ضمن محتويات أثاث المقابر إلا نادرًا وكان بسيطًا في صنعه مع أنه كان من الممكن وضع أشياء ثمينة

مع الموتى. ولم يذكر لنا المصري نفسه في نقوشه التي تركها لنا إلا ما جاء في فقرة واحدة في نقوش «سبني» التي تركها لنا عن رحلته التي قام بها لإحضار جثة والده، ولكن مما يُؤْسَفُ له أن الكلمة الحاسمة الهامة في هذا النقش وجدت مهمشة، وعلى ذلك فإن المعنى ليس مؤكدًا على الوجه الأكمل. وهاك ما وجد فيها: «قائد السفينة «أنتف» و ... ينادون: إن السمير الوحيد والمرتل «مخو» والد «سبني» قد مات وقد أخذت جنودًا من إقطاعيتي ومئة حمار معي محملة بزيت العطور والشهد والملابس وأشياء من الفخار المصقول وأوانيَ من المرمر لِأُرَفِّهَ بها عن أهل هذه الأرض الأجنبية (؟)». ولسنا على بينة تامة من أن هذه السلع التي حملها معه «سبني» كانت للاتِّجار فيها مع بلاد النوبة، ولكن شواهد الأحوال تدل على أنها كانت للتجارة، وعلى هذا فإن المتن الذي نتحدث عنه هنا له قيمة عظيمة جدًّا لأنه ذكر لنا محاصيل لم نجدها في هذا العصر في قبور بلاد النوبة مثل الملابس وزيت العطور والشهد.

ومن بين المحاصيل الطبعية الحبوب، وهذه كانت من الأشياء التي يرحب بها السكان الذين كانوا فقراء نسبيًّا، وبخاصة أنهم كانوا لا يميلون للزراعة في بلاد النوبة السفلى. ويتفق مع ذلك في عصرنا الحالي وصف «بورخارت» في رحلته التي قام بها في هذه الجهات في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.[١٤٣] فقد كان في مقدور هذا الرحالة أن يشتري حب الأهلين عندما كان يقود البعث الذي جاء على رأسه لارتياد مجاهل هذه البلاد بما كان قد جلبه معه من مصر من مقادير عظيمة من الحبوب إلى بلاد النوبة، حيث كان لا يزرع فيها إلا في الأماكن الخصبة على شاطئ النهر وهي قليلة. هذا ولم يوجد في المقابر التي عثر عليها من هذا العهد (الدولة القديمة) ما يدل على أنه كانت توجد تجارة في مثل هذه المادة كما كان في ذلك منتظرًا.

حاصلات بلاد النوبة

أما ما كان المصري يبحث عنه في بلاد النوبة بوجه خاص فهو المواد الغفل لا المحاصيل المصنوعة، وتأتي في المنزلة الأولى من هذه المواد التي لا توجد في مصر أو التي كانت توجد بقلة ولا تكفي حاجة البلاد.

وقد عدَّدَ لنا «حرخوف» عند التحدث عن رحلته الثالثة في مجاهل بلاد النوبة المحاصيل التي أحضرها من بلاد «يام» فيقول: «وعُدْتُ إلى مصر مع ثلاث مئة حمار

محملة بالبخور والأبنوس وزيت «حنكو» وزيت «ثاث» وجلود الفهد وسن الفيل (؟) وكل محاصيل جميلة».

وَتَسَلَّمَ من أمير «أرثت» و«سثو» و«واوات» ثيرانًا وماشية صغيرة وهذه على ما نظن لم تكن طعامًا لرجال البعث بل كانت تُحْمَلُ إلى مصر أيضًا؛ وذلك لأنه في حملة «بيبي-نخت» التأديبية التي قام بها في نفس هذا الإقليم قد أحضر غنيمة عظيمة لمصر أنواعًا من البقر («أوا» و«نزو»)[١٤٤] كما جلب مثل ذلك في الحملة التي قام بها «سنفرو» إلى هذه البلاد كما ذكرنا ذلك من قبل. هذا وقد أحضر «سبني» مثل هذه المحاصيل معه من بلاد النوبة.[١٤٥]

ومن المحتمل أن الأبنوس والعاج كانا يُجْلَبَانِ من بلاد النوبة في العهد الطيني إلى مصر وقد عُدَّتْ منذ ذلك العهد من المحاصيل التي كان لا ينقطع ورودها تقريبًا من بلاد النوبة، ومن المحتمل أن جلد الفهد كان يُجلب كذلك إلى مصر منذ العهود المبكرة، وإن كان لم يظهر استيراده بصورة محققة إلا في تلك الفترة، ولا نعلم من جهة أخرى إلى أي عهد وُجِدَ الفهد في مصر، ولكن على أية حال فإن الحيوانات المتوحشة كانت قد أَخَذَتْ في التقهقر إلى الغابات والأحراج بدرجة ما، ثم أخذت تختفي شيئًا فشيئًا في الجبال، والواقع أنه كلما كثرت الأراضي الزراعية في مصر أخذت هذه الحيوانات الضارية تختفي أمام المدنية إما في مناقع الدلتا حيث الأعشاب وإما في جنوب الوادي؛ ولذلك كان المصري يجلب السلع التي تؤخذ من هذه الحيوانات مثل جلد الفهد من الأراضي الجنوبية. وقد كان فهد جنوب مصر يُضْرَبُ به المثل في القوة والشراسة، وقد ورد ذكره بهذا الوصف في المتون الحربية والأدبية، هذا إلى أنه كان لا يزال يوجد كذلك بكثرة في عهد الدولتين الوسطى والحديثة.

الأحجار: وكانت تأتي إلى مصر كما ذكرنا من قبلُ أنواعٌ جميلة من الأحجار[١٤٦] التي كانت تقطع من محاجر بلاد النوبة ومن منطقة الشلال الأول، وهذه الأحجار كانت مرغوبًا فيها في عهد الأسرتين الرابعة والثالثة وبخاصة حجر الديوريت الذي كان يُسْتَخْرَجُ من محاجر الصحراء الواقعة في الشمال الغربي من بلدة «توشكى»، غير أننا لم نعثر إلى الآن على نقش يدل على أن ملوك الأسرة السادسة قد استعملوا أحجار هذه المحاجر، ومن المحتمل أنه لم تكن في عهدهم من الأحجار المحببة إليهم، أو كان من الصعب عليهم الحصول عليها في تلك الفترة التي كانت البلاد آخذة فيها نحو التدهور، وتدل شواهد الأحوال على أنهم استعملوا أحجارًا أخرى في هذا العهد.

وكانت الأحجار المتبلورة البركانية التي يمكن الحصول عليها بالقرب من الشلال الأول تُسْتَعْمَلُ في مصر في كل الأزمان.[١٤٧] وقد كشف عن نقوش من عهد «وناس» آخر ملوك الأسرة الخامسة وكذلك من عهد الأسرة السادسة تحدثنا عن استعمال هذه الأحجار. فقد كشف المؤلف عن مناظر في طريق الملك «وناس» مُثِّلَتْ فيها سفن تحمل بعض هذه الأحجار آتية من «أسوان» لتقام في أماكنها الخاصة بها في المعبد[١٤٨] وتشمل عمدًا نخلية الشكل وأبوابً من الجرانيت الأحمر وقطع الكرانيش التي كانت تُسْتَعْمَلُ في إقامة المعبد الجنازي، وقد كتب عليها: «أعمدة من الجرانيت أحضرت من أسوان»، ومن المدهش أن هذه المناظر تدل دلالة واضحة على أن هذه الأعمدة والكرانيش قد صنعت في «أسوان» ثم وضعت على زحافات وربطت ثم وضعت في السفن لتكون جاهزة لإقامتها في أماكنها بمجرد وصولها، أي إنه كان يوجد في «أسوان» مدارس صناعات لهذا الغرض، ولم يشهد التاريخ منظرًا مماثلًا من قبل أو من بعد، اللهم إلا ما جاء على مسلة «حتشبسوت» التي نقلت من «أسوان» ولم يكن قد تم نقشها.[١٤٩]

هذا ويقص علينا «وني» الذي عاش في عهد الملك «مرنرع» في نقوش لوحته التي عثر عليها في «العرابة المدفونة» عندما أرسله الفرعون للمرة الأولى نحو «أبهات» و«إلفنتين» أنه أحضر من «أبهات» تابوتًا بغطائه وقطعة هرمية صغيرة كما أحضر من «إلفنتين» أجزاء أبواب من الجرانيت، ولا نعلم شيئًا يذكر عن موقع «أبهات» هذه والظاهر أنها على حسب ما جاء في هذا المتن تقع في مكان ما عند الشلال الأول.[١٥٠]

وأول ما تصادفنا الأحجار المتبلورة في وادي النيل جنوب هذا المكان عند الشلال الثاني؛ وعلى ذلك فإن تابوت «مرنرع» الذي عثر عليه ثانية كان منحوتًا من حجر الجرانيت الأسود الذي يوجد عند الشلال الأول بكميات وفيرة. وقد ذهب الأستاذ «زيته» إلى أن موقع «أبهات» بجوار معبد أبو سمبل[١٥١] أي في المكان الذي يقع على النيل بالقرب من المحاجر الواقعة في الشمال الغربي من «توشكى» وعلى ذلك يكون تابوت الملك «مرنرع» على حسب نظرية «زيته» قد قطع من محاجر «توشكى». ويقول «زيته» إنه يجب البحث في هذه الجهة عن موقع «أبهات» غير أن نظرية «زيته» قد بنيت على أساس غير متين ولا تزال تتطلب التحقق من نوع الحجر وقرنه بالأحجار التي تستخرج من هذه الجهة.

الخشب: هذا وقد ذكر لنا «وني» في حملة أخرى قام بها بعد «الشلال» في فقرة من نقوشه أنه كان يجلب نوعًا من الخشب من بلاد النوبة إلى مصر. ولا غرابة في ذلك

فإن قلة نمو الخشب في مصر نفسها وكثرة استعماله في آن واحد جعلت الحاجة ملحة لجلبه من الخارج، وكان أحسن نوع يجلب منه هو خشب الأرز من بلاد «لبنان» هذا إلى أن الأنواع الأخرى التي لم تكن ذات قيمة كبيرة كالتي تزرع في مصر كانت تجلب من بلاد النوبة. ويَقُصُّ علينا «وني» في حملته الثانية إلى الشلال الوصف التالي: «أرسلني جلالته لأحفر خمس قنوات في الجنوب ولأضع ثلاث سفن واسعة الحجم وخمس سفن نقل مصنوعة من السنط المجلوب من «واوات» وقد جر أمراء «أرثت» و«واوات» و«يام» و«مجا» (مزا) الأخشاب اللازمة؛ وقد عملتها كلها في سنة واحدة وأنزلت (السفن) في الماء محملة بالجرانيت بكثرة لأجل الهرم المسمى «مرنرع» جميل عندما يظهر».[١٥٢] وليس من المهم في هذا المتن المساعدة الودية التي بذلها أمراء بلاد النوبة، بل المهم في موضوعنا أنه كان في بلاد النوبة السفلى خشب كافٍ لبناء سفن منه هناك لتعود في النيل محملة بالجرانيت اللازم لبناء هرم الملك «مرنرع». وهذه الحقائق من الأهمية بمكان للباحث في العلاقات الاقتصادية بين مصر وبلاد النوبة، والواقع أن هذا المتن لا يقفنا على أن بلاد النوبة كانت تُوَرِّدُ لمصر الأحجار الجرانيتية وحسب، بل كذلك نعرف منه طريقة النقل المباشرة إلى مكان استغلال الأحجار نفسها، وذلك لأنه كما كانت مصر فقيرة في الأخشاب فإن السفن الكثيرة التي تحمل هذه الأحجار كانت تصنع من خشب بلاد النوبة نفسها، ولذلك فإن رحلة «وني» هذه كانت متعددة الفوائد لمصر. والواقع أن هذا القائد قد غادر مصر بجيش صغير على ما يظهر من الجنود والعمال إلى المكان الذي أراد أن يستغله، وهناك بنى سفنَ نقلٍ بمساعدة الأهالي، وفي الوقت نفسه قطع الأحجار ونقلها إلى الشاطئ وأنزلها في سفنه المخصصة لذلك، ثم سارت في النهر مخترقة الشلال الأوَّل إلى المكان الذي بُنِيَ فيه الهرم. أما السفن فإنها بعد تفريغ شحنتها كانت تستعمل في مصر لأغراض أخرى ولا تستعمل ثانية لنفس الغرض إذ لم تُرْسَلْ كَرَّةً أخرى إلى بلاد النوبة بل كان يصنع غيرها جديدًا.

والظاهر أن هذه السفن لم تكن كثيرة العدد كما يدل على ذلك متن «وني». هذا بالإضافة إلى أن كل أهالي بلاد النوبة كانوا يساعدون في إحضار مواد بنائها، وقد يدل هذا على أن العلاقات كانت سليمة بين البلدين، ولو ظاهرًا، على أنه من المحتمل أن «وني» قد استحضر معه سفنه في الحملة الأولى من مصر ليرى إذا كان في الإمكان تنفيذ الفكرة التي نَفَّذَهَا في الحملة الثانية، وهي كما قلنا بناء السفن في بلاد النوبة نفسها.

وفي أيامنا هذه تدل ظواهر الأحوال على أنه لا يوجد خشب كثير في بلاد النوبة، ولكن يظهر أن الوقت الذي استعمرت فيه مصر هذه البلاد كانت أخشابها مزدهرة وفيرة.

وهذه الأخشاب لم تكن وفيرة في وادي النيل وحده بل كذلك في وديان الصحراء نفسها، ولا أدل على ذلك من أن وديان الصحراء كانت عامرة بالأخشاب حتى القرن المنصرم كما جاء في وصف للرحالة «بورخارت» للصحراء الغربية إذ يقول مثلًا في وصف وادي «أم جات» الواقعة بالقرب من وادي «العلاقي»: لم يصادفنا حتى الآن وادٍ مررنا به فيه أشجار السنط الكثيفة بهذه الدرجة[١٥٣] التي وجدناها في هذا الوادي.

هذا إلى ما وجدته «مس مري» من جَبَّانَاتٍ للثيران في جهات الصحراء في بقاع لا يمكن أن تُرَبَّى فيها الآن حيوانات. وهذا يدل على ما طرأ على وجه الصحراء من تغيير في أيامنا هذه.

وعلى ذلك فإنه عندما يفكر الإنسان في أن الوديان كانت ذات أشجار باسقة يانعة، فإنه ليس من المستحيل أنه كانت توجد في الصحراء الواقعة غربِي بلاد النوبة، أو في شمال السودان فيلة ترتع في الأدغال التي فيها.

ومع ذلك فإن خشب بلاد النوبة لم يَقُمْ بالدَّور الذي كان يقوم به خشب بلاد «لبنان» لأن خشب بلاد النوبة كان من النوع الرخيص الذي يوجد منه كثير في مصر، ومعظمه كان من خشب السنط. ولما كان خشب النوبة من النوع العادي الرخيص فإنه لم يُسْتَوْرَدْ بحالته الطبيعية إلى مصر بل كان يُصْنَعُ هناك كما حدَّثنا «وني» عن ذلك. فكان على عكس الخشب الذي يُسْتَوْرَدُ من لبنان.

الذهب: ومن الغريب أن الذهب الذي كان فيما بعدُ يُعَدُّ أهم مادة تُسْتَوْرَدُ من بلاد النوبة لم يأتِ ذكره في نقوش الدولة القديمة قط. ويمكن أن نفسر هذا بأن مناجم الذهب الواقعة بجوار مصر لم تكن غنية في محصولها ولم تُؤَسَّسْ تأسيسًا متينًا حتى إنها لم تكن كافية لتغطية نفقات البلاد.

وفي الدولة القديمة كان يُسْتَخْرَجُ الذهب من المناطق الشاسعة في مصر بين وادي النيل والبحر الأحمر وبخاصة في الصحراء الشرقية جنوبًا من طريق قنا — القصير إلى حدود السودان[١٥٤] في حين أن استخراج الذهب من السودان من «وادى العلاقي» وغيره لم يكن قد عُرِفَ عنه شيء أو على الأقل كان لا يُسْتَخْرَجُ منه إلا الشيء القليل.

هوامش

(١) والظاهر أن أول سكان وادي النيل قد سكنوا في سفح التلال وقد دخلوا مصر من الجنوب، راجع: The Cultures of Prehistoric Egypt, by Elise J. Baumgartel, p. 78.

(٢) راجع: Junker, (Kubanieh-Nord), II. F., 34.

(٣) راجع: Junker, The First Appearance of the Negroes in History, J. E. A., vol. 7.

(٤) راجع: Steindorff, Aniba I, p. 2: The Cultures of Prehistoric Egypt, p. 48.

(٥) راجع: The Cultures of Prehistoric Egypt, p. 78.

حيث تقول المؤلفة: إن السلالة الثانية من سكان «نقادة» قد أتوا من «آسيا» عن طريق «وادي حمامات» في حين أن السكان الذين كانوا موجودين قد وفدوا من الجنوب.

(٦) راجع: Kubanieh-Nord, II. F; 34.

(٧) راجع: Brunton, Badarian Civilisation, p. 40.

(٨) راجع: Reisner, Ibid, PI. 60a, b.

(٩) راجع: Reisner, Ibid, PI. 63a.

(١٠) راجع: Scharff, Vorgeschichte, p. 38-9.

(١١) تقول «إليز بومجارتل» إن السلالة الثانية من سكان «نقادة» قد غزوا وادي النيل وهم أسيويون وحضارتهم أرقى من حضارة قوم نقادة الأول. راجع: The Cultures of Prehistoric, etc., p. 50.

(١٢) J.E.A., Vol. 3, p. 219.

(١٣) راجع: Kubanieh. Süd, p. 54.

(١٤) راجع: Kubanieh. Süd, p. 59.

(١٥) يميل بعض المشتغلين بمسائل التأريخ إلى جعل بداية حكم مينا حوالي ٣٠٠٠ق.م.

(١٦) راجع: Junker, Kubanieh-süd, pp. 1-122.

(١٧) راجع: Reisner, p. 191 ff.

(١٨) راجع: Reisner, pp. 208-211, 215ff.

(١٩) راجع: Reisner, p. 246.

(٢٠) راجع: Firth, The Archaeological Survey of Nubia Report for 1908-1909, vol. I. p. 6 f, 99 ff.

(٢١) راجع: Ibid, pp. 101-103.

(٢٢) راجع: Firth, II, pp. 51-104.

(٢٣) راجع: Firth, III, p. 98 ff.

(٢٤) راجع: Firth, III, p. 192 ff.

(٢٥) راجع مصر القديمة جزء ثان ص ٨٣.

(٢٦) راجع: Reisner, The Archaeological Survey of Nubia Report for 1907-1908, pl. 67, 1-7, 10-13.

(٢٧) راجع: Firth, III, PP. 199, 204 ff

(٢٨) راجع: Firth, III, P. 213.

(٢٩) راجع: Firth, III, p. 220 ff.

(٣٠) راجع: Steindorff, Aniba I, p. 24 ff.

(٣١) راجع: Faras, Proto-Dynastic Settlement and Cemetery, p. 4 ff.

(٣٢) راجع: Firth, I, p. 197; III, p. 127.

(٣٣) راجع: Firth, I, pl. 46 a,b; II, Pl. 128 d; III, pl. 19 a,b.

(٣٤) راجع: firth, III, pl. 21. c.

(٣٥) راجع: Reisner, pl. 67, and 68a.

(٣٦) راجع: firth, III, pl, 226.

(٣٧) راجع: The Origin and Development of Trade and Cultural Relations of Ancient Egypt with Neighbouring Countries, Papers presented by the Soviet Delegation at the 23rd International, Congress of Orientalists (Egyptology by V. Avdief.), p. 25

حيث يقول: منذ العهد العتيق أو بعبارة أدق منذ عهد ما قبل الأسرات عندما ظهرت لأوَّل مرة مساكن الفالحين للأرض في وادي النيل، أخذ المِصريون يوطدون التجارة والعلاقات الثقافية مع الأقوام والقبائل المجاورة، يؤكد ذلك أنواع المواد المختلفة التي جلبت إلى مصر من البلاد المجاورة وبخاصة الذهب والعاج والنحاس وحجر

الأبسيديان؛ فقد تسلم المصريون الذهب من الصحراء الشرقية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر. وكانوا يجلبونه غالبًا من الجزء الجنوبي من هذا الإقليم الواقع جنوبِي طريق قفط — القصير. والواقع أن المركز الرئيسي على أية حال للذهب هو النوبة الواقعة على الحدود الجنوبية لمصر. وقد أرسل المصريون إلى بلاد الجنوب في أثناء طلبهم الذهب منذ الأزمان القديمة، وقد اجتهدوا أولًا في اختراق مجاهل هذه الأقاليم ثم عملوا على الاستيلاء عليها وفي الوقت نفسه عملوا على إيجاد روابط تجارية مع القبائل المتوطنة هناك. ومن الجائز أن هذا السبب نفسه هو الذي من أجله سميت العاصمة الجديدة لمصر العليا المدينة الذهبية (نبتي) ومن هذه العاصمة كانت تخرج الطرق التجارية ممتدة شرقًا وجنوبًا والواقع أنه هنا في المقاطعة الخامسة من مقاطعات الوجه القبلي قد عثر على أغنى مقابر عصر ما قبل الأسرات وعصر الأسرات المبكر. وتبرهن الكميات الكبيرة من أدوات الزينة المصنوعة صنعًا فاخرًا والقلائد الذهبية والأسوار ومقابض السكاكين الذهبية المحلاة بالصور والنقوش على مهارة صائغي هذا العهد. ولا غرابة إذن في أن الكلمة المصرية الدالة على «الذهب» كانت ت كتب بإشارة هيرغليفية تدل على قطعة من المجوهرات ويدل شكلها الظاهري على أنها قلادة محلاة بالخرز.

وقد أحضر المصريون العاج بكميات مماثلة من الأراضي الجنوبية. ففي العهد العتيق استعملوا العاج لصناعة مختلف الأشياء مثل الأساور والخواتم والملاعق ومقابض السكاكين والأمشاط، والقلائد والدبابيس وقطع الأثاث والأختام الأسطوانية، والآلات السحرية والتماثيل الصغيرة وأدوات الكتابة إلخ. وقد وجد كثير من هذه الأشياء في مقابر العهد العتيق ويوجد على تمثال للإله مين في قفط الممثل بعضو التذكير منتشرًا صورة فيل. وقد بقيت صناعة الحفر والعاج ممتازة الصنع حتى الأسرة الرابعة، ومنها تمثال الملك خوفو، وليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن أن الفيلة كانت في مصر القديمة كما زعم «برستد». ولا نزاع في أن سن الفيل كان يجلب من أقاليم جنوبية نائية، والمكان الذي كان يخزن فيه العاج هو المدينة الرئيسية للمقاطعة الأولى من مقاطعات الوجه القبلي، وكان موقعها على الحدود الجنوبية لمصر بجوار الجزيرة التي سميت لهذا السبب: جزيرة الفيلة. وتدل شواهد الأحوال على أن المصريين قد أحضروا من الأقاليم الجنوبية النعام وريشه وبيضه وقد عثر على صور نعام على أوانٍ من الطين من العهد العتيق.

(٣٨) راجع: Petrie Royal Tombs 1, 11, 22, 40: II, 22.

(٣٩) راجع: Kortenbeutal, Der Ag., Sud-und osthandel in der Politik der Ptolemäer und Römichen Kaiser Diss, Berlin 1931, p. 27, 36 ff.

(٤٠) راجع: Sethe, Urgeschichte, p. 125.

(٤١) كلمة «أبو» بالمصرية معناها الفيل وترسم بمخصص هذا الحيوان.

(٤٢) راجع كتاب أقسام مصر الجغرافية للمؤلف ص ٣٣ إلخ.

(٤٣) راجع: Borchardt, Altagyptische Festungen, etc., p. 41; A.Z., 46 p. 12 ff.

(٤٤) راجع: Kubanieh-Süd, p. 5.

(٤٥) راجع: Petrie, Royal Tombs, II, p. 9f.

(٤٦) راجع كتاب أقسام مصر الجغرافية للمؤلف ص ٣٩.

(٤٧) راجع: Quibell, Hierakonpolis, II, Pl. LVIII

(٤٨) راجع: Newberry, Ancient Egypt, (1922), p. 40 ff

(٤٩) راجع: Kees, Kultur und Urgesch., p. 345 ff

(٥٠) راجع: Dic. Geogr., V, p. 107.

(٥١) Louvre A. 90

(٥٢) Schafer, Kriegerauswanderungen Unter Psammetik und Soldneraufstand unter Apries. Lehmann Kornemann, Beitrage zur Alten Geschichte, IV, 152 ff, Leipzig, 1904.

(٥٣) Emry-Kirwan, The Excavation and Survey between Wadi Es.Subua and Adindan. p.2.

(٥٤) أي إقليم الاثني عشر ميلًا الواقعة خلف الشلال.

(٥٥) راجع: Urk. I., p. 236.

(٥٦) راجع: Emery-Kirwan, Ibid, p. 2.

(٥٧) راجع: Pyr., 1017, 1718,. A.Z., 50 p. 74.

(٥٨) راجع: Reisner; Ibid p. 33 ff.

(٥٩) راجع: Ibid, p. 141 ff.

(٦٠) راجع: Firth, I, p. 123ff.

(٦١) راجع: Reisner, p. 211 ff and 262 ff.

(٦٢) راجع: A, S., T. 33, p. 65 ff; T. 38, p. 369 ff and 678 ff.

(٦٣) راجع: Weigall, Report, pl. 57, 58.

(٦٤) راجع: A, S., II, p. 171.

(٦٥) راجع: P. S. B. A., 37, 117 ff; Bull. Inst. Fr,. 13, 141, ff.

(٦٦) راجع: Sethe, Urk., I, 110, III.

(٦٧) راجع: Urk., I, p. 69.

(٦٨) راجع: Urk., I, 253.4.

(٦٩) راجع: Urk., I, 257.

(٧٠) راجع: Kees, Beiträge zur Gesch. Des Vezirats im Alten Reich; p. 52.

(٧١) راجع: Hierat. Pap. Berlin, III, pl. VII

(٧٢) راجع: Weigall, Report, Pl. 57.

(٧٣) راجع نقوش «خوى» في Sethe, Urk., II. N. 29 p. 140 وهو حاكم مقاطعة «إلفنتين».

(٧٤) راجع نقوش «ثيثي» Sethe, Urk. I. No. 30. p. 141. وهو حاكم مقاطعة «إلفنتين». ويعلن في نقوشه أنه جمع محاصيل الأقاليم الجنوبية للملك وعاد بها وقبره قبالة «إلفنتين».

(٧٥) راجع قائمة هذه الأسماء في: Reisner, Kerma, V,; p., 537.

(٧٦) تيتي عنخ المسمى إمحتب Davies, Rock Tombs of Sheikh Said, p. 31.

(٧٧) حابي Ibid, p. 34.

(٧٨) راجع: De Morgan., Cat. I, p. 158 ff.; Eleph-Pap, 10533; Urk. I, p. 208.

(٧٩) راجع: Urkunden des Alten Reichs, p., 120 ff.

(٨٠) تدل شواهد الأحوال على أن «حرخوف» قد بدأ رحلته من عاصمة الملك متخذًا طريقه إلى إلفنتين، ومن ثَمَّ إلى الجهات التي كان يقصدها. وهذا هو الرأي المعقول إذ كان عليه أن يذهب أولًا إلى عاصمة الملك ليتجهز ويأخذ التعليمات من مليكه وأصحاب الشأن هناك.

(٨١) راجع: Urk., I, p. 120 ff.

(٨٢) راجع: Urkunden., Ibid., no. 28. p. 135.

(٨٣) الظاهر أن «أري» هذا هو والد «حرخوف» السالف الذكر.

(٨٤) راجع: Urkunden, I., p. 98 ff.

(٨٥) راجع مصر القديمة الجزء الأوَّل ص ٣٧٧.

(٨٦) هذا اللقب يذكرنا بوظيفة وكيل الخاصة الملكية فقد كان يشرف على مزارع الملك كلها وكان له نفوذ عظيم في مصالح الحكومة بعامة.

(٨٧) يقصد بالحي هنا الْمُتَوَفَّى؛ وذلك لأن المصري كان يمقت ذكر الموت.

(٨٨) راجع: Jaques Pierenne, Histoire des Institutions et du droit Privé de l'ancienne Egypte, Tom. III, p. 262; Sethe Unkunden, I, p. 98.

(٨٩) راجع: Weigall Report, Pl. 56 ff.

(٩٠) راجع: Ed. Meyer, Gesch. Alt., I, 2, p. 231; Weigall Report, p.9; Daressy, A. S.,20, p. 135 ff.

(٩١) راجع: A.Z., 20, p. 30.

(٩٢) راجع: Agypten und Nubien, p. 15 ff.

(٩٣) راجع: Junker, Ermenne, p. 39.

(٩٤) راجع: A. S., 20, p. 134.

(٩٥) راجع ما كتب في هذا الموضوع: Bulletion De L'Institut Francais D'archeologie Orientale Tome LII, p. 173 ff.

وهذا رأي فيه شك كبير.

(٩٦) راجع: Budge, The Egyptian Sudan, I, p. 52 ff.; Moret, L'Egypte Pharaonie, p. 164. Keunz, Bull–Inst., 17, pp. 128, 146 f.

(٩٧) راجع: Junker, Giza, V, p. 6; Hans Felix Wolf, Die Kultische Rolle des Zwerges c "in Altern Agypten Anthropos, 33, p. 447, Anm 3.

(٩٨) دنج = القزم وهذا يعبر عن الشيء الصغير، وربما كانت كلمة دانق التي لا تزال مستعملة في الموازين المصرية حتى الآن (حبة ودانق) على أصغر وزن مشتقة من هذا اللفظ.

(٩٩) راجع: Wb., 5, p. 470.

(١٠٠) راجع: Urk., l, p. 128 ff.

(١٠١) راجع: Sethe, Die Altaegyptischen Pyramidentexte, L.1189

(١٠٢) راجع: Spieglberg, A.Z. 64, p. 76 f.

(١٠٣) راجع: E. Brunner-Traut, Der Tanz lm Alters Agypten, p. 73 f.

(١٠٤) راجع: Schweinfurth,. lm Herzen von Afrika, p. 358.

(١٠٥) راجع: Junker, Giza, V. Fig. 20.

(١٠٦) راجع: Epron, Le Tombeau de Ti, Pls. 16, 18.

(١٠٧) راجع: Wilkinson, Manners and Customs, II, Fig. 481, p. 444.

(١٠٨) راجع: Gardiner, Onomastica, II, p. 73.

(١٠٩) راجع: Junker, J.E.A. VOI. VII, p. 121 ff.

(١١٠) راجع: Urk., I, p. 101.

(١١١) راجع: Urk., I, p. 209 ff.

(١١٢) راجع: Urk, I, p. 109.

(١١٣) راجع: Weigall, Antiquities of Lower Nubia, p. 5 ff.

(١١٤) راجع: A.Z. XX, p. 30.

(١١٥) راجع: Reisner, J.E.A., Vol. VI, p. 84.

(١١٦) راجع: Weigall, Ibid, Pls, 56, 58, p. 108; Urk., I, p. 208.

(١١٧) راجع: Urk., I, pp. 125-127.

(١١٨) راجع: Urk., I, p. 124. ff.

(١١٩) راجع: Weigall, Ibid, p. 9.

(١٢٠) راجع: Onomastica, II, p. 271.

(١٢١) راجع: J.E.A., Vol, XXXI, p. 3 ff.

(١٢٢) راجع: Sethe, Die Achtung feindlicher Fursten, p. 36. (in Abh, Berlin, 1926).

(١٢٣) راجع كتاب مصر القديمة الجزء الثالث ص ٣٨٨ إلخ.

(١٢٤) راجع: Anthes, Die Felseninschriften 16, pp. 6.7; J.E.A., 30. p. 61.

(١٢٥) راجع: Gardiner, Admonitions, 14, p.14.

(١٢٦) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ١٤١.

(١٢٧) راجع: Urk., IV, 799, 78.

(١٢٨) راجع: Die, Geogr., III, p. 65 f.

(١٢٩) راجع: Gardiner, Onomastica, II, 78.

(١٣٠) راجع: Ibid, II, 79.

(١٣١) راجع: Die Aethéopische Koniginschrift, etc, p. 136

(١٣٢) راجع: Ed. Meyer, Gesch., 165

(١٣٣) راجع: Urk., I. p. 36 f.

(١٣٤) راجع: Kees, Kulturgesch., p. 237.

(١٣٥) راجع: A.Z., XL, p. 114

(١٣٦) راجع: J.E.A., XXV, p. 24 f.

(١٣٧) راجع: Davies, El Amarna, IV, Pl. 17 ff.

(١٣٨) راجع: Pahere, Pl, 7.

(١٣٩) راجع: Davies Tombs of Two Officials, Pl. 17.

(١٤٠) راجع: Gardiner, Ibid, I, 88.

(١٤١) راجع مصر القديمة الجزء الثاني ص ٢٦٢ والجزء الرابع ص ٣٢٧.

(١٤٢) راجع: Seligman, Egypt and Negro Africa, p. 67 ff.

(١٤٣) راجع: Burckhardt, Travels in Nubia (London 1819), p. 181 f.

(١٤٤) راجع مصر القديمة الجزء الأول ص ٣٨٩.

(١٤٥) راجع مصر القديمة الجزء الأول ص٣٩١.

(١٤٦) راجع ما كتبه المؤلف عن الأحجار المختلفة ومصادرها في الجزء الثاني من مصر القديمة ص ١٤٤–١٨٠.

(١٤٧) راجع مصر القديمة الجزء الثاني ص ١٤٨ و Sethe, Die Bau und Denkmalsteine, p. 87 ff.

(١٤٨) راجع: A.S., 38. p. 519.

(١٤٩) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٣٣٨ إلخ.

(١٥٠) راجع: Lucas, Ancient Materials, p. 56.

(١٥١) راجع: Sethe, Die Bau und Denkmaisteine, p. 910.

(١٥٢) راجع: Boreux, Étude Nautique Egypt., p. 130 f.

(١٥٣) راجع: Burckhardt, Travels in Nubia, p. 184.

(١٥٤) راجع مصر القديمة — الجزء الثاني ص ١٩٠.

الفصل الثالث

العلاقات الودية بين مصر وبلاد النوبة في عهد الدولة القديمة

تدل النقوش التي يرجع عهدها إلى أوائل الأسرة السادسة وما قبلها مباشرة على أن العلاقات بين مصر وبلاد النوبة كانت ودية، ولا أدل على ذلك من نقوش الحدود التي ذكرناها فيما سبق من عهد الملك «مرنرع» هذا بالإضافة إلى المساعدة التي قَدَّمَهَا الرؤساء الوطنيون للقائد «وني» عندما ذهب لاستحضار الأحجار لهرم «مرنرع» من أسوان، فمن ذلك نرى أن مصر — إذا لم تبسط سيادتها المطلقة على هذه البلاد — لا يمكن أن تُؤَدَّى لها هذه المساعدة. والواقع أنه ليس لدينا معلومات تؤكد وجود هذه السيطرة المطلقة، فلا بد أن هؤلاء الأمراء كانوا يقومون بتقديم هذه الخدمات في مقابل أجر أو منفعة خاصة. على أننا نشاهد هذا التعاون بين مصر وبلاد النوبة في نفس نقوش «وني» في مناسبة أخرى، غير ما ذكرنا، وذلك أن الملك «بيبي الأوَّل» كان قد شرع في القيام بحملة على البدو وكان جيشه في هذه الحملة لا يقتصر على جنود رديف من المقاطعات المصرية المختلفة، بل كان يشمل فضلًا عن ذلك فرقًا من أهل النوبة من بلاد «أرثت» و«مجا» و«يام» و«واوات» ثم لوبيين. ولم يذكر في هذا المتن الذي ذكرنا ترجمته فيما سبق أسماء الأمراء المختلفين لبلاد النوبة، بل ذكر فقط كلمة «نحسيو» (= نوبي أسود) وعلى ذلك يميل الإنسان إلى التسليم بأنه لم توجد أية محالفة حربية بين مصر والبلاد النوبية هذه، بل كل ما حدث هو أن جنودًا نوبيين من هذه الجهات قد انضمُّوا إلى صفوف الجيش المصري، وهؤلاء كانوا قد جُذِبُوا إلى مصر في جماعات للخدمة كما هي الحال في أيامنا، إذ نجد كثيرًا من أهل بلاد النوبة يَفِدُون إلى مصر للخدمة فيها عند العظماء والأمراء. وعلى ذلك لم تكن هناك هجرة لقبائل بأسرها إلى مصر، ويدل على ذلك ما جاء في ورقة

«إلفنتين» السالفة الذكر من سفر نوبيين إلى الشمال وكذلك ذهاب جيش من قبيلة المجا (المزاوي) ومن أهالي «واوات».

ومما يثبت أن النوبيين الذين وفدوا على مصر في عهد الدولة القديمة وكذلك في عهد الدولة الحديثة فيما بعدُ كانوا يشتغلون شرطة ما جاء في نقوش منشور «دهشور» في عهد «بيبي الأوَّل» فقد قرر فيه أن سكان مدينة الهرم كانوا تحت حماية النحسيو (النوبيين) الآمنين من أي تَعَدٍّ. والظاهر أنهم كانوا مرتبطين معًا في جماعات معينة؛ وذلك لأننا نقرأ في نفس المنشور أنهم كانوا تحت إمرة المشرف على التراجمة (القوافل) والمشرف على «المزاوي» و«يام» و«أرثت».[١] والواقع أن أعمال الحفر لم تكشف عن جَبَّانَاتٍ نوبية خاصة بهم في مصر كما كانت الحال في العهد المتوسط الثاني الذي جاء على أعقاب سقوط الدولة الوسطى، ولكن يمكن تفسير ذلك بأن النوبيين كانوا عندما تنتهي مدة خدمتهم في مصر، يعودون إلى بلادهم ثانية كما هي الحال الآن إذ نشاهد أن العمال النوبيين عندما ينتهون من خدمتهم في مصر بتقدم السن يعودون إلى بلادهم لِيُدْفَنُوا في أرض الوطن. ولدينا من الدولة القديمة بعض مناظر تدل على ذلك.[٢] ومن الجائز أنه بوساطة هذه الهجرة التي بدأت على ما يظهر منذ زمن مبكر حدث اختلاط الدم النوبي بالدم المصري بالتزاوج بين أفراد البلدين، ومن الجائز كذلك ما يلحظ من أن لون «بيبي عنخ» الأسود الذي كان يسكن «إلفنتين» يرجع سببه إلى أن أمه كانت نوبية، وكذلك الرأس الأسود الذي وجده «ريزنر» في أثناء الحفر في منطقة «الأهرام» لأميرة يرجع سواده لاختلاط الدم النوبي بالدم المصري.[٣]

وليس لدينا آثار كثيرة تحدثنا عن العلاقات بين بلاد النوبة ومصر في عهد الأسرة السادسة ولكن يمكن أن نلحظ أنه في عهد «بيبي الثاني» قد حدثت بعض تغيُّرات في العلاقات الودية التي كانت سائدة في عهد الملك «مرنرع». ففي كتابات «حرخوف» نفهم من خلال رحلاته المختلفة بعض هذه التغيُّرات. ففي رحلته الأولى قام مع والده إلى بلاد «يام» لارتياد الطريق الموصلة إليها وقد استغرقت الرحلة سبعة أشهر وقد أحضر معه كل أنواع المحاصيل إلى أرض الوطن ولم يذكر لنا عن العلاقات بين مصر وسكان النوبة أية كلمة. وفي الرحلة الثانية ذهب بمفرده عن طريق «إلفنتين» إلى «أرثت» و«ماخر» و«ترس» ثم «أرثت» وقد استغرقت السياحة ثمانية أشهر ثم عاد بكل أنواع المحاصيل من هذه الجهات، ويذكر لنا أنه عاد من مكان بيت أمير «سثو» و«أرثت»، وبعد ذلك فتحت أمامه مجاهل هذه البلاد، فكان الهدف الذي يرمي إليه في رحلته في هذه المرة هو

كشف مجاهل هذه الأقاليم. ولكن في عودته تلاقى مع الأمير الذي كان يسيطر على إقليمي «ستو» و«أرثت». والظاهر أنه قد أَلَّفَ حلفًا نوبيًّا يحتمل أن غرضه كان مناوءة مصر، ومن المحتمل أن «حرخوف» قد لاقى بعض الصعاب مع أعضاء هذا الحلف، وربما كان هذا هو السبب الذي جعله يختار في رحلته التالية الطريق التي تخترق الواحات ويهجر طريق النهر، وفي رحلته الثالثة نجد إيضاحات بينة لهذه الصعوبات، فقد اتبع طريق الصحراء، ولكن مما يؤسف له أن اسم المكان الذي خرج منه وجد في النقوش مهشمًا. فيقص علينا أنه سار على طريق الواحات وساح إلى واحة «كركر» فواحة «دنقل» وبذلك تحاشى المرور من شمال بلاد النوبة، وبعد ذلك قام أمير «يام» الذي كان يقوم بحملة على بلاد «تمحو»،[٤] (أي اللوبيين) وقد تصافحا معًا. وفي عودته تقابل مع أمير البلاد «أرثت» و«ستو» و«واوات» معًا. ومن المحتمل أن ذلك يعني أن هذا الحلف قد وسع رقعة ممتلكاته. ومن المحتمل كذلك أن نفس هذا الأمير قد أخضع بلاد «واوات» أيضًا، وعلى أية حال فإن «حرخوف» كانت لديه أسباب وجيهة تجعله يتجنب الطريق التي تمر بهذه الجهة في سياحته الطويلة، ولكنه عند عودته وقف إلى جانبه أهل إقليم «يام» الذين كان قد اجتذبهم إلى جانبه، وهؤلاء كانوا خارج الحلف المشار إليه سابقًا، وربما كان لهم مصلحة مشتركة في ذلك مع مصر. وبذلك كان على «حرخوف» أن يتخذ الطريق المحاذية للنيل دون أي تردد. يضاف إلى ذلك أن قافلته كانت محملة بالمحاصيل المنوعة من بلاد «يام» فأجبره ذلك على ما يظهر على اتخاذ طريق أخرى، ويقص علينا «حرخوف» في أثناء مقابلته لأمير «أرثت» و«ستو» و«واوات» مقدار ما كان لديه من قوة ونفوذ فاستمع إليه وهو يقول: «وعندما رأى رؤساء «أرثت» إلخ. (انظر الترجمة المنشورة سالفًا). ويقول «ريزنر» عن هذه الرحلة:[٥] إن «حرخوف» في رحلته الثالثة كان بدهيًّا في الصحراء الغربية، ويقول إنه ابتدأ من مكان لم يمكن تحقيق قراءته في النقوش، وإنه كان ذاهبًا على طريق الصحراء وقد وجد أن صديقه حاكم «يام» قد ذهب إلى الأماكن النائية في الصحراء الغربية ليقوم بغزو بلاد «تمحو» (لوبيا). وقد ذهب «حرخوف» أو أرسل رسلًا للحاق بحاكم «يام» الذي يحتمل أنه يعادل الآن ملكًا صغيرًا من الملوك في عصرنا الحالي أو شيخ قبيلة فأحضره، والظاهر أنه أتم معه صفقات تجارية في «يام» (المتن هنا مهشم) أو في سوق في متناول «مك» «يام» (أي «ملك يام»). ولم يجسر «حرخوف» على الإيغال أكثر من ذلك دون حماية هذا «الملك» الذي لا بد أنه قد دفع له ثمنًا طيبًا على ذلك. وباقي البيانات عن هذه الرحلة والعودة مفيدة: «... قبل «أرثت» وخلف «ستو» وقد

وجدت حاكم «أرثت» و«سثو» و«واوات» (كامنين) عند رأس الطريق عندما كنت آتيًا ومعي ثلاث مئة حمار محملة بالبخور والأبنوس وزيت «حكنو» (أحد الزيوت الخمسة أو الستة المستخرجة من نباتات السودان، وزيت الخروع هو أهمها وهو الذي يعرف على الأرجح بحبوب «سسان»)، وجلود الفهود، هذا عدا أسنان فيلة كثيرة، وكل محصول طيب. وبعد أن رأى حاكم «أرثت» و«سثو» و«واوات» جنود «يام» العديدين وهم الذين كانوا آتين معي إلى البلاط بالإضافة إلى الجنود المصريين الذين أتوا معي فإن هذا الحاكم (أي حاكم «أرثت» و«سثو» و«واوات») أرسل ليعطيني ثيرانًا وماعزًا وأن يرشدنا إلى طريق جبل أرض «أرثت». وهذه الفقرة إذا تغاضينا عن قصرها وما جاء فيها من أسماء أعلام يمكن أن نعدها مأخوذة من البيان الذي وضعه «بورخارت» الرَّحَّالَةُ عن رحلته وعن قافلته التي ابتدأت من «دراو» وانتهت عند «بربر» عام سنة ١٨١٣م، فالوقت الذي أخذه تجار الدولة القديمة ليصلوا إلى بلاد أثيوبيا (كوش) كان نفس الوقت تقريبًا الذي تنفقه قوافل «سنار». ولا بد أن الأحوال السياسية في كلا العهدين كانت واحدة تقريبًا، وتميز بعدم وجود حكومة مركزية، وقد تغيرت الحال في كلا العهدين فيما بعد، ففي الأولى كان التغيير بفتح مصر لبلاد «كوش»، وفي الثانية بفتح «محمد علي» لبلاد السودان.

على أن ما يلفت النظر في كلام «ريزنر» هو قوله: «إن حاكم «يام» قد ذهب إلى الأماكن النائية في الصحراء ليقوم بغزوة على بلاد «تمحو» (لوبيا). والواقع أنه من المستحيل أن توجد بلاد «تمحو» بالإقليم الشمالِي الذي نسمع عنه بهذا الاسم فيما بعد، وأوفق نظرية وأكثرها جرأة في هذا الصدد هي أن نفرض أن عبارة أرض «تمحو» كانت تطبق على أي إقليم زحف عليه اللوبيون ذوو البشرة البيضاء. فمثلًا جنود أرض «تمحو» الذين ضمهم «وني» في جيشه يمكن أن يكونوا قد أتوا من «الواحة الخارجة»؛ وذلك لأنهم لم يُذْكَرُوا في الجزء الأول من الفقرة نفسها التي تتحدث عن الدلتا، ولكن ذُكِرُوا في وقت واحد مع عدد من القبائل النوبية، وعلى أية حال فإن ما يبعث أكثر على الحيرة الإشارة إلى هؤلاء اللوبيين في حياة «حرخوف» حيث يحدثنا كما هو مذكور فيما سبق أنه للمرة الثالثة قد أرسل إلى «يام» (التي تقع في مكان ما في الشمال من «وادي حلفا») «وقد وجد أن رئيس القبيلة قد رحل إلى بلاد «تمحو» ليضرب «التمحو» حتى الركن الغربي من السماء». والواقع أن قيام رحلة إلى الواحة الخارجة يعد مشروعًا غير ممكن تنفيذه بوساطة رئيس قبيلة صغيرة، هذا بالإضافة إلى أن «الواحة الخارجة» تقع

في الاتجاه الخاطئ من موطن «حرخوف» في «إلفنتين» كما أنها بعيدة جدًّا عن «يام» والفرض الطبعي هو أن «حرخوف» قد وصل فعلًا إلى «يام» وأنه بعد وصوله هناك وجد أن رئيس القبيلة قد ذهب لمحاربة اللوبيين الذين يُنْتَظَرُ أن يجدهم الإنسان بعيدًا جدًّا في الجنوب الغربي. ففي هذه الجهة لا يوجد إقليم صالح للسكن في هذه البقعة حتى يصل الإنسان إلى واحة «دنقل»، و«واحة سليمة» لا يمكن أن تعد إقليمًا صالحًا للسَّكْنَى، يضاف إلى ذلك أن واحة «دنقل» أقل احتمالًا من «الواحة الخارجة» لتكون هي أرض «تمحو» التي يقصدها هنا «حرخوف». ويقول «جاردنر» إن تفسير العبارة التي جاءت عن بلاد «تمحو» في نقوش «حرخوف» قد أعجزه[٦] كلية ثم يقول إن أرض «تمحو» التي غزاها «سنوسرت الأول» كما جاء في قصة «سنوهيت» كانت تقع بوضوح في الشمال الغربي من الدلتا، ومن المحتمل أنها كانت تمتد في هذه الناحية من جهة الغرب حتى «تريبوليتانيا» (إقليم طرابلس) «ولا بد أن نضع فيها كل قوم» التمحو «الذين ذكروا فيما بعد هنا».[٧]

على أنه من المحتمل أن المقصود من الطريق الأخيرة التي اتبعها وهي المختصرة هي الطريق الواقعة بين «توماس» و«المضيق» وأن الأمير قد أرشده إلى اقتفائها؛ وعلى ذلك كان من الواجب على «حرخوف» أن يكون على حذر حتى لا يقع في المصيبة التي وقع فيها من بعده المماليك الذين كان يطاردهم «محمد علي» في بلاد النوبة وكانوا قد وثقوا بقبيلة «العبابدة» ولم يكونوا على علم بنفس هذا المكان فأضلوهم السبيل في الصحراء وماتوا عطشًا وهم بجوار الآبار، فقد خبأها منهم «العبابدة» وباعوها لغيرهم.[٨]

والظاهر أن «حرخوف» كان كُلَّمَا أوغل في الجهات الجنوبية في رحلاته يقابل صعابًا كبيرة، وكذلك كانت تزداد معارضة القبائل الجنوبية له. وإذا كان الحلف السابق الذكر لم يكن متينًا، وأنه بعد موت قائده وشيخه قد انحلَّ فلا بد أن أعضاءه قد لَاقَوْا صعوبات ومناهضة من قبل مع مصر؛ وذلك لأن النوبي كان يركز معظم همه في رفع أسعار سلعه والضرائب التي كان يجبيها من القوافل إذ كانت مورده الوحيد لكسب عيشه.[٩]

هذا ويجد المطلع على تاريخ هذه الفترة صورة أخرى عن العلاقات التي كانت بين البلدين في المتن الذي تركه لنا العظيم «بيبي نخت»، غير أنه في هذه المرة لم يكن يقوم ببعث سلمي مثل بعوث «حرخوف» بل كان حربًا عوانًا على النوابيين لم نسمع من قبل بمثلها في النقوش التي قبل عهد «بيبي نخت»، ومن المحتمل أن ذلك يرجع إلى ظهور مقاومة مسلحة من جانب النوبيين للمصريين الذين أخذوا يستهينون بالأهالي بعد أن

اتَّضح لهم نجاح رحلات «حرخوف» وعودته بكثير من المحاصيل المحلية المرغوب فيها كثيرًا في مصر. وقصة «سبني» ووصفها لموت والده وحجز جثته في بلاد النوبة لها علاقة بتغيير الأحوال بين البلدين، وأن العداء منذ ذلك الوقت قد بدأ يظهر من جانب النوبيين للمصريين الذين أخذوا يناصبونهم العداء جهارًا، ولولا ذلك لما قُضِيَ على القافلة التي كان يرأسها والد «سبني» ولعاد أتباعه بجثته إلى مصر، ولم يكن هناك داع لإرسال حملة لهذا الغرض[١٠] ولا أدل على خيبة رحلة والد «سبني» خيبة تامة من أن البضائع التي كان قد جمعها هذا الأب قد حملتها أولًا قافلة ابنه إلى مصر، ولكن مما يُؤْسَفُ له جد الأسف أن المتن وجد مهشمًا عند النقطة التي بدأ فيها وصف الكارثة، ولذلك أصبحنا وليس في مقدورنا الحصول على أي تفصيل عن هذا الحادث، غير أنه من الجائز أن والد «سبني» قد انْقَضَّ عليه الأهالي وذبحوه. هذا وقد قَصَّ علينا كذلك «بيبي نخت» السالف الذكر السبب في قيامه برحلة للبحر الأحمر تشبه حوادثها قصة رحلة «سبني». وتلخص هذه القصة في أن أحد الضباط الذين أرسلوا في حملة إلى سواحل البحر الأحمر واسمه «عنخت نيني» كان يريد أوَّلًا بناء سفينة والسفر بها إلى بلاد «بُنت» التي كان يعتقد فيها المصريون أنها أرض الإله، وأن أصلهم يرجع إليها، وعندما كان «عنخت نيني» هذا منهمكًا في بناء سفينته عند ساحل البحر الأحمر غير مُلْتَفِتٍ إلى ما حوله انْقَضَّتْ عليه وعلى رجاله قوَّة من البدو وقَضَوْا عليه، وقد كان من الضروري معاقبة المعتدين على فَعلتهم هذه، ولكن كان أهم من ذلك إحضار جثة «عنخت نيني» إلى مصر؛ ولذلك أُرْسِلَ «بيبي نخت» ثانية للقيام بهذه المهمة.

هذا ولدينا بعض موظفين آخرين لهم علاقة ببلاد النوبة، غير أنهم لم يقوموا بدور هام إلا «ثني»[١١] فقد أرسله الملك لجمع الضرائب من بلاد النوبة وعاد بها مما يدل على أنه كانت هناك جزية تفرض على الأهلين.

على أن النشاط الذي ظهر في بلاد النوبة بصفة جدية، وكذلك إرسال الحملات التأديبية لم يستمر طويلًا؛ وذلك لأن الوهن والضعف وسوء الحكم كان قد أخذ يتفشى في داخلية البلاد التي مزقها الحكم الإقطاعي الذي تجلى بأبشع مظاهره في أواخر الأسرة السادسة ممَّا أدى إلى القضاء على كل نشاط سياسي خارج البلاد، سواء أكان ذلك في الشمال تجاه آسيا أم في الجنوب تجاه بلاد النوبة، وقد ظلت العلاقات بين مصر وهذه البلاد تكاد تكون معدومة فلم نجد إلا بعض إشارات في المتون التي من العصر المتوسط الأوَّل تدل على علاقات فاترة بين مصر وجنوب الوادي، غير أن الحفائر التي عملت في

بلاد النوبة في أوائل هذا القرن قد دلت على ظهور حالة جديدة في بلاد النوبة لم تشاركها فيها مصر.

ويجب ألا ننظر إلى الحملات التأديبية التي قام بها رجال البعوث في بلاد النوبة على أنها كانت بعوثًا تقوم على أسس حربية منظمة، كالتي أرسلها ملوك الأسرة الثانية عشرة فيما بعدُ، وذلك بقدر ما وصلت إليه معلوماتنا في هذا الصدد. وعلى ضوء الحفائر التي قامت في هذه الجهات. وقد ظن بعض المؤرخين أن هذه البعوث الحربية كان لها مراكز حربية في نفس بلاد النوبة فكان بها معاقل في «أكور» و«كوبان» و«عنيبة».[١٢] وقد استنبط ذلك «فرث» من المباني فقط دون أن يستند على أي متن من هذا العصر يشير إلى وجود هذه المعاقل في تلك الفترة، وبخاصة أن نقوش قُوَّادِ البعوث قد وُجِدَتْ خالية من أية إشارة تدل على وجود حصن واحد. وعلى أية حال فإن كل ما يمكن قوله حتى الآن في هذا الصدد هو أننا لا نعرف شيئًا على وجه التأكيد عن المباني المحصنة في هذا العهد ولا شكلها ولا الأماكن التي أقيمت فيها، ولعل الكشوف المقبلة تحدثنا عن بعض التفاصيل في هذا الموضوع، ولكن مما لا شك فيه أن مصر لم تكن قد أوغلت في تثبيت قدمها في بلاد النوبة، وأنها عندما بدأت في إيجاد مركز سياسي لها كانت قد أخذت هي في أسباب الوهن ودَبَّتْ فيها الفوضى الداخلية فلم تتقدم كثيرًا في هذا المضمار. بل على العكس تأخرت في ركب الحضارة وأخذت النوبة بدورها في تلك الفترة التي نسميها العصر المتوسط الأوَّل تخطو نحو الأمام في مدارج الحضارة مما سنفصل القول فيه فيما يلي كما اسْتُنْبِطَ من الحفائر الحديثة. وهذا العصر هو الذي يُطْلَقُ عليه مجموعة ثقافة C.

هوامش

(١) راجع: A.Z., 42, p. 7 ff; Urk., I, p. 209 ff.

(٢) راجع: Junker, Vorbericht, 1913: p. 22.;,Junker, Giza, II, p. 194; Junker, Kubanieh Nord, p. 14 ff.

(٣) راجع: Bull. Boston, M.F.A., 13, p. 32 ff., Fig. 9; cf Petrie, Ancient Egypt, 1916, p. 48.

(٤) راجع ما كتب عن «التمحو» في مصر القديمة الجزء السابع ص ٣٦ إلخ.

(٥) راجع: Reisner, Kerma, II, p. 540.

(٦) راجع: Gardiner, Onomastica, I, p. 116.

(٧) راجع: Ibid, p. 116.

(٨) راجع: Burckhardt, Travels in Nubia, (1819), p. 181. ff.

(٩) راجع مصر القديمة الجزء الأول ص ٣٨٨.

(١٠) راجع مصر القديمة الجزء الأول ص ٣٩١.

(١١) راجع: Urk., I, 30 p. 141.

(١٢) راجع: Firth, Ibid, p. 22 ff.

الفصل الرابع

العصر النوبي المتوسط الأول

المجموعة الثقافية G (من ١–٤) حوالي ٢٤٠٠ ق.م–١٦٠٠ ق.م

كان يسكن في بلاد النوبة السفلى قوم من النوبيين القدامى الذين يُنْسَبُونَ إلى نفس جنس سكان مصر في عهد ما قبل التاريخ، ولكنَّ دَمَهُمُ الحامي كان مختلطًا بدم الزنوج وهم الذين تَخَطَّوُا الشلال الأوَّل من الجنوب ونزلوا في الوجه القبلي واستوطنوه وهؤلاء القوم كانوا في الأصل رعاة ماشية يشبهون قبيلة «البقارة» الحالية التي يرعى أهلها ماشيتهم ي مراعي «كردفان» وقبيلة «المعازة» التي يربي أهلها الماعز في رقعة الصحراء الشرقية،[١] وقد استوطنوا وادي النيل، ولا يمكننا أن نحكم على وجه التأكيد من أين جاء هؤلاء السكان الجدد وقد ذهب الأثري «فرث»،[٢] والأستاذ «ينكر»[٣] إلى أن موطنهم الأصلي في الجنوب الشرقي من البقعة التي ينبع منها النيل الأزرق وعطبرة، ويتألف من مجراهما طريق طبيعي إلى وادي النيل في بلاد النوبة، وفي هذه البقعة نجد موطن أهل ثقافة «كرمة» الذين يسكنون بلاد النوبة العليا، وقد نمت ثقافة القوم وترعرعت في «دنقلة»، غير أن الأستاذ «ستيندورف» يرجح نظرية أخرى في هذه المعضلة وافقه عليها الأثري «فرث» وأنكرها الأستاذ «ينكر»، وذلك أن قوم مجموعة ثقافة C قد أَتَوْا من الجنوب الغربي من «كردفان» وسكنوا أولًا في منطقة الشلال الثاني، ونذكر هنا بهذه المناسبة نظرية أخرى أدلى بها «فرث»[٤] إذ يقول إن أول وأبسط فرض يخطر بالبال هو أن الجنس الزنجي قد دخل وادي النيل النوبي من جهة السودان واختلط بالقبائل الحامية التي تقطن الصحراء الشرقية وهم الذين يمثلهم الآن «العبابدة» و«البشاريون» و«الهدندوة» ولكن يعترض هذه النظرية التي ينكرها كذلك الأستاذ «ينكر» النتائج التي

أسفر عنها بحث الأجسام البشرية؛ وذلك أن الهياكل العظمية لمجموعة C ليس فيها إلا نسبة ضئيلة من الجنس الزنجي، وهنا نقف أمام سؤال لم تُسْفِرِ البحوث الأثرية عن جواب شافٍ له، وهو ما أصل هذه السلالة التي غزت البلاد النوبية؟ ويجب أن نعلم حق العلم أننا هنا أمام جنس من الناس يحيط بأصله الغموض والإبهام وليس لدينا أية معلومات كتابية تميط اللثام عنه (وقد تحدثت عن أصل ثقافة مجموعة C عند التحدث عن جولان «التمحو» وخزفهم الذي عثر عليه في بلاد النوبة في الجزء السابع من مصر القديمة ص ٦٥–٧٤).

والذي نعرفه أن هؤلاء القوم المهاجرين بمجرد اختلاطهم بالسكان الأصليين كوَّنوا لأنفسهم ثقافة جديدة نامية أخذت عناصر كثيرة من الثقافة النوبية القديمة، وبخاصة الفخار، ولكنها على وجه عام كانت ثقافة قائمة بذاتها، وقد احتلت مكانة عالية في الحياة القومية نفسها، وإذا ما قُرِنَتْ بثقافة الدولة الوسطى المصرية عُدَّتْ ساذجة إلى أقصى حدٍّ، بالنسبة إليها، ويمكن أن تُعَدَّ بمثابة الثقافة النحاسية الحجرية المتأخرة. ولم تأخذ عن المنتجات الثقافية الأجنبية إلا الشيء الضئيل جدًّا؛ وذلك لأن الأهالي كانوا شديدي الفقر فلم يفكروا في جلب أشياء كمالية من الخارج، وعلى ذلك لم يجلب من مصر الغنية أشياء مصنوعة من النحاس إلا القليل كالمرايا والخناجر وقطع الزينة الرخيصة أو الأواني المصنوعة من الفخار كالأباريق القناوي وما أشبه ذلك. كان يتجر فيها تجار جائلون وهم الذين كانوا يتنقلون بسلعهم من مكان إلى آخر، ولكن من جهة أخرى لم يكن هناك أي تبادل تجاري بين أهل مجموعة ثقافة C ومصر. ومن جهة أخرى نستخلص أنه كانت تقوم بين هؤلاء الناس وبين سكان ساحل البحر الأحمر معاملات ماهرة، إذ كانوا يجلبون من ساحل البحر الأحمر الأدوات الضرورية للزينة وبخاصة المحار الذي كان يحمله بدو الصحراء الشرقية إلى وادي النيل.

هذا وليس لدينا أي دليل على قيام أية معاملات تجارية بين هؤلاء القوم وبين بلدة «كرمة» التي كانت تعد المركز الثقافي المصري لبلاد النوبة العليا.

أسماء بلاد النوبة والسودان

وقد ظهر خلال باكورة الدولة الوسطى في النقوش المصرية اسم جديد للجزء الأعلى من وادي النيل بلاد النوبة وهو «كاش» . وبهذه المناسبة سنفحص هنا الأسماء التي سميت بها بلاد السودان في مختلف عصور التاريخ وسنبدأ أولًا بالاسم الحديث الذي يستعمله المؤرخون في كتب التاريخ الآن وهو:

«أثيوبيا» ولا نزاع في أن لفظة «أثيوبيا» التي استعملها الكتاب القدامى والأثريون المحدثون هي لفظة تنقصها الدقة للدلالة على الإقليم الخاص الممتد من أعالي النيل، والذي يشمل من أول «حلفا» تقريبًا حتى ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض عند «الخرطوم». وقد دلت البحوث الأثرية الحديثة على أن المراكز الرئيسية للثقافة والسكان في هذا الإقليم كانت منطقة «دنقلة» الحالية ما بين الشلال الثالث والرابع ومركز «مروي». وهذا الإقليم لا يشمل بلاد الحبشة (أبيسينيا) الجنوبية الشرقية.

والواقع أن لفظة «أثيوبيا» قد استعملت لتدل على الأقطار الواقعة جنوب مصر نفسها وتشمل المساحة التي نعرفها الآن بهذا الاسم. ولكن هذا الاسم يستعمل بطريقة مبهمة حتى إنها كانت تشمل كل بلاد النوبة السفلى وبلاد الحبشة، وفضلًا عن ذلك فإن هناك عنصرًا آخر زاد في ارتباك معنى هذا الاسم، وذلك أن سكان بلاد السودان الأحداث لا يَعُدُّونَ أنفسهم أثيوبيين ولا يرغبون في أن يُطْلَقَ على بلادهم هذه التسمية.[٥] وكان قدماء المصريين في عهد الدولة الحديثة يشيرون إلى الأراضي الجنوبية بلفظين وهما:

(١) «واوات» وتعادل بلاد النوبة السفلى من أسوان حتى «وادي حلفا».

(٢) و«كوش» وكانت في نظرهم الإقليم الواقع جنوب «وادي حلفا» وعاصمته «نباتا» ويحكمه نائب ملك يحمل لقب «ابن الملك صاحب كوش». ومملكة «كوش» هذه عندما استقلت كانت تشمل «مروي»، وكانت في عصورها الأخيرة تُحْكَمُ من هذه المدينة.

والواقع إذن أن ما يسمى بلاد «أثيوبيا» عند المؤرخين القدامى هو بلاد «كوش». وأول ذكر لهذا الاسم (كوش) على الآثار في نقوش اللعنة التي وضعها الأستاذ «زيته».[٦]

وقد بحث الأستاذ «ستيندورف» الأسماء المختلفة التي أطلقت على بلاد السودان أو على أجزائها في مقال ممتع،[٧] وسنورد هنا هذه الأسماء ونتحدث عن كل منها:

(١) **«خنت-حن-نفر»:** وجد هذا الاسم في قائمة البلاد التي خلفها لنا «رعمسيس الثاني» على جدران معبد «العرابة المدفونة».[٨] وهذا الاسم يعد أحدث أسماء بلاد النوبة بعد اسم «أثيوبيا» وكان أول ذكر له على الآثار في نقوش القائد «أحمس» بن «إبانا»،[٩] وتدل المتون على أن هذا الاسم كان يُطْلَقُ على السودان حتى الشلال الثالث على الأقل، بل يحتمل على كل البلاد التي كانت خاضعة لمصر في هذه الجهات الجنوبية ولم يكن يقتصر على جزء معين من بلاد النوبة.

(٢) **«كاش» أو «كوش»:** هذا الاسم أقدم من السابق بمئات السنين وكان يُنْطَقُ في أقدم الكتابات «كاش» وقد عثر عليه في النقوش المصرية في أوائل الدولة الوسطى كما ذكرنا من قبل.[١٠] وقد ظهرت كلمة «كاش» في نفس الوقت الذي ظهر فيه قوم أصحاب ثقافة مجموعة C في وادي النيل، وقد أصاب الأستاذ «ينكر»[١١] عندما قال إن «كوش» لا تعنى إلا الأراضي التي تسكنها أهل مجموعة ثقافة C، وهي البلاد الجنوبية التي تمتد من الشلال الثاني حتى «أسوان»، ولا نعلم كيف امتد هذا الاسم في كل الرقعة التي يُطْلَقُ عليها، كما كانت الحال على ما يظن مع اسم «خنت-حن- نفر»، والواقع أن هذا الاسم قد أُطْلِقَ فيما بعدُ على كل البلاد التي كان يحكمها «ابن الملك صاحب كوش». فكانت «كوش» كما ذكرنا من قبلُ هي على وجه التقريب بلاد «أثيوبيا» في العهد اليوناني الروماني.

(٣) **تاستي:** أما ثالث اسم لبلاد السودان فنجده في قائمة أسماء البلاد بالعرابة المدفونة وهو «تاستي» وهو أقدم اسم لهذه الجهات الجنوبية، وكان يُتْرْجَمُ فيما مضى «بأرض القوس»، غير أن الأستاذ «ولف» قال إن العلامة ([hieroglyph] = ستي) لا تدل على القوس.[١٢] ويرجع الفضل للأستاذ «أرمان» في قراءة هذا الاسم «تاستي» الذي كان يُقْرَأُ قبل «تاخنت»،[١٣] وكتابة هذا الاسم في متون «الأهرام» تدل على أنه بلد أجنبي أو جبلي. وقد ظن البعض أن «تاستي» لم تكن تُطْلَقُ في الأصل على بلاد النوبة بل على أول مقاطعة من مقاطعات الوجه القبلي من جهة الجنوب، ولكن الوثائق دلت على أن هذا زعم خاطئ. ولا نعلم إذا كان إقليم «واوات» هو جزء من بلاد «تاستي» أو كان يقع في الأصل جنوب حدود «تاستي». وعلى أية حال فإن بلاد «تاستي» كانت تشمل في الأسرة

الثامنة عشرة كل بلاد النوبة إلى الشلال الثاني وتتفق جزئيًّا مع الاسم «خنت-حن-نفر»، وذلك أن أقدم جزء من معبد «سمنة» كان منذورًا للإله سيد بلاد النوبة «ددون». وتقع «سمنة» في بلاد «تاستي» هذا إلى أنه عندما ذكر في لوحة «نورثمبتون»[١٤] أن خشب الأبنوس يأتي من «تاستي» فإن هذا لا يعني بلاد النوبة السفلي بل يعني بلاد السودان الواقعة جنوب الشلال الثاني.

وعلى ذلك فإن الأهالي الذين كانوا يسكنون أرض «ستي» أي الذين يسكنون في وادي النيل النوبي كانوا يُعْرَفُونَ باسم «ستيو» منذ أقدم العهود دون الالتفات إلى نوع الثقافة التي يتبعونها سواء أكانوا تابعين إلى الثقافة الأولى أم الثانية أم الثالثة. ومن هنا وجب علينا أن نترجم هذا الاسم بكلمة «النوبيين»، غير أنه يلزم أن نعلم تمام العلم أن كلمة «النوبيين» لا يمكن تحديدها بأي جنس، بل تُطْلَقُ على أي قوم من الناس سكنوا بلاد النوبة فنجد اسم «ستيو» كان فعلًا منذ عهد «مينا» في كتابات القبور الملكية[١٥] إذ يشير فيه إلى ضرب «ستيو»، وفي عهد الدولة الوسطى نجد في متن حرب الملك «منتو حتب» في الأسرة الحادية عشرة ذكر هؤلاء القوم بوصفهم «ستيو» بجانب «ستتيو» (سكان آسيا). وفي الدولة الحديثة قد جاء ذكر «ستيو» أيضًا،[١٦] حيث يقال إن «تحتمس الأوَّل» في حملته على أهل الجنوب هزم أمراء «ستيو».

(٤) **نحسيو:** ونجد اسم «نحس» أو «نحسي» الذي جمع على «نحسيو» مستعملًا أكثر من اسم «ستيو» ويقصد به سكان الجنوب،[١٧] واسم «نحسيو» كان يترجم إلى زمن قريب بكلمة «زنجي» ومن ثَمَّ اسْتُنْبِطَ أن بلاد النوبة كانت في العهد القديم مسكونة بقوم من الزنوج غير أن الكشوف الحديثة في بلاد النوبة برهنت على أن سكان هذه البلاد وهم الممثلون للمجموعتين الثقافيتين A & B وكذلك المجموعة الثقافية C، وهي التي وفد أهلها فيما بعدُ إلى بلاد النوبة لم يكونوا بأية حال زنوجًا بل هم من أصل حامي وقد اختلط دمُهم بعض الشيء بالدم الزنجي. وقد أثبت الأستاذ «ينكر» بعد البحث المسبب أنه لم يوجد حتى عهد الدولة الحديثة في الرسوم المصرية صورة «زنجي» وأن اسم «نحسيو» لا يطلق فقط على أهل النوبة سكان وادي النيل من «أسوان» حتى السودان وحسب، بل كذلك يشمل سكان بلاد «بُنت».[١٨] وعندما دخل الزنوج للمرة الأولى بلاد النوبة حوالي بداية الأسرة الثامنة عشرة واستوطنوها كانوا لذلك يُسَمَّوْنَ «نحسيو»؛ وعلى ذلك نجد أن كلمة «نحسيو» قد أخذت شيئًا فشيئًا تحمل المعنى الخاص بالزنوج، ومنذ الأسرة الثامنة عشرة ذُكِرَتْ بلاد «نحسيو» وأُطْلِقَتْ على أرض الزنوج، ومن ثَمَّ ظهر

في المناظر التي من عهد متأخر أجناس العالم الأربعة كما وجدت منقوشة في مقبرة «سيتي الأوَّل»[١٩] فكان «النحسيو» يُمَثَّلُونَ ببشرة سوداء وشعر مجعد بجانب «العامو» (أي السامي) و«التمحو» (اللوبي) و«رمث» المصري (ومعنى الكلمة الأخيرة هو الناس إذ كان المصري يعتبر أن الناس هم المصريون وسائر العالم همج).

(٥) **«أونوت»:** وكذلك يوجد بجانب الاسمين «ستيو» و«نحسي» اسم آخر يُعَدُّ أقدم الأسماء بكونه نعتًا لأرض الجنوب وأعني بذلك كلمة «أونوت». وقد وُجِدَ هذا النعت في كثير من النقوش التاريخية منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة مستعملًا صفة لاسم «ستيو» أو مضافًا لكلمة «ستي» أو «تاستي». فيقال «ستيو-أونوت» أي نوبيو «أونوت». وقد جرت التقاليد على أن يترجم اسم قوم «أونوت» بكلمة «تروجلوديت» Troglodite (أي سكان الكهوف)، أي إن هؤلاء «الأونوت» هم قوم كانوا يسكنون الجنوب الشرقي من الصحراء بين النيل والبحر الأحمر، ويقول عنهم «زيته»[٢٠] إنهم يمثلون أهل قبيلة «مجا» أو «مزا» (المزاوي) الذين يسكنون الصحراء بين النيل والبحر الأحمر ويفدون إلى وادي النيل. والواقع أن اسم هؤلاء القوم يمثل قبيلة «مجا» وواضع هذا التفسير هو الأثري «بركش»، غير أن تفسيره اللغوي لكلمة «أونوت» لا يتفق مع المعلومات الحديثة في هذا الصدد، إذ قد اشتق «بروكش» كلمة «أن» التي تعني عمودًا أو دهليزًا من أصل الحجر الذي عُمِلَ منه العمود وربطها بكلمة أرض جبلية أو مكان فيه حجارة، وعلى ذلك تكوين كلمة «آن» أو «أنتى» معناها ساكن الجبل أو إنسان يسكن الكهف أي «تروجلوديت» مثل هؤلاء القوم الذين يسكنون بين البحر الأحمر ووادي النيل، غير أن المعنى الحقيقي لكلمة «أونوت» على حسب قول «زيته»[٢١] هو في الأصل قبيلة بدوية (ويقول «جاردنر[٢٢] أن عبارة «أونتي-ستي» مأخوذة من كلمة «أونت» التي تعني قوسًا، وتعني الرامي من القوس)، ويظن «زيته» أن اسم قوم «أونوت» مشتق في الأصل من الكلمة المؤنثة المفردة «أونت»، وأصبح إذن اسم الفرد المنسوب إلى هذه القبيلة يسمى «أونتي». وهذا الاسم كان في الأصل يطلقه المصري القديم على قبائل مختلفة تسكن الصحراء الشرقية، وقد أصاب «زيته» عندما أطلقه على القوم الساميين الذين يسكنون شبه جزيرة سينا كما أطلقه كذلك على العرب الرُّحَّلِ الذين يسكنون صحراء العرب بين النيل والبحر الأحمر وهما العبابدة الحاليون. وكذلك بدو بلاد النوبة. ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك.[٢٣]

والأمثلة التي جاء فيها لفظ «أونوت» وتعني سكان الصحراء الشرقية ترجع إلى عهد الأسرة الأولى حتى الأسرة الثامنة عشرة.

ويمكننا بعد درس هذه الأمثلة أن نستخلص باختصار ما يأتي:

في استطاعتنا أن نفهم أنه كان في الأصل ينضوي تحت لواء هذا الاسم القبائل التي لم تكن مصرية المنبت والعشائرُ التي تقطن شبه جزيرة سينا، وكذلك التي كانت تسكن الصحراء الشرقية تجاه الوجه القبلي، والتي تحتل بلاد النوبة ويحتمل كذلك الصحراء النوبية. ولكن نجد في عهد الدولة الوسطى أن هذا اللفظ قد حُدِّدَ معناه. ومنذ الدولة الحديثة كان يُوَضَّحُ معناه بكلمة «نوبي»، وكانت الكلمة تُطْلَقُ بوجه خاص على الأجانب الذين ليسوا مصريين ويسكنون وادي النيل النوبي في الأراضي «ستي» و«خنت-حن-نفر». وقد دلت الحفائر الحديثة التي عملت في هذه الرقعة من الأرض على أن سكانها كانوا حاميي الجنس ولهم ثقافة خاصة بهم وهي التي تمثل ثقافة مجموعة C. وعلى ذلك يجب ألَّا نفهم أن «أونوت» الدولة الوسطى أو «أونوت» النوبيين التابعين للأسرة الثامنة عشرة مثل النوبيين القاطنين في وادي النيل. والواقع أن نوبي هذا العهد ليسوا من البدو، وذلك عندما نعلم أن المقصود أنهم قبائل غير متوطنين. ومن باب أولى لا نفهم على هذا الزعم أنهم «الترو جلوديت» الذين ليس لهم بهم أقل علاقة.

نعود بعد هذا العرض لأسماء بلاد النوبة المختلفة إلى ثقافة مجموعة C.

الأماكن التي وجدت فيها آثار ثقافة مجموعة C.

جمع المعلومات التي كشفت عنها البعوث المختلفة في جَبَّانَاتِ مجموعة C الأستاذ «ينكر» في كتابه المسمى «كوبانيه الشمالية»[٢٤] وبحثها. وجبانات هذا العهد كبيرة والمقابر كلها من العهد النوبي المتوسط وتشمل الجبانة رقم ٨٧ في بلدة «كشتمنه»[٢٥] والجبانات رقم ١٠١–١٠٣ في «الدكة» والجبانة رقم ١١٨ في «قرته غرب» وتشمل مقابر من عصر مجموعة C المبكر[٢٦] وفي «عنيبة» و«فرص».

ومقابر هؤلاء القوم مستديرة في شكلها الخارجي وجزؤها الأعلى كان مبنيًّا بالحجر ويغطي المبنى الْمُقَامَ فوقها رمال الصحراء. والجزء الأسفل منها حفرة موضوعة في الجهة الشرقية الغربية. وقد وُضِعَ الْمُتَوَفَّى فيها مضطجعًا القرفصاء على الجانب الأيمن ووجهه متجه نحو الشمال وذراعاه وساقاه مغطاة بالملابس، ولكن وجد أن هذا الوضع لجسم الْمُتَوَفَّى لم يَدُمْ الحرص عليه، فنجد هناك حفرًا غالبًا ما يكون اتجاهها من الجنوب للشمال فيتغير وضع الجثة تبعًا لذلك.

أما الأثاث الذي يوضع مع الْمُتَوَفَّى فكان يوجد في الجانب الخارجي من البناء الذي فوق حفرة الدفن في الجهة الشرقية أو في الشمال الشرقي عادة، ويحتوي على أوانٍ من الفخار الأحمر ذي الفوهة السوداء وفخار أحمر حافته محزوزة وأطباق عليها حزوز بيضاء تذكرنا بالأطباق المصرية التي ترجع إلى عهد ما قبل التاريخ، وبالأطباق النوبية التي من مجموعة A الثقافية، غير أنها من حيث الصناعة والنماذج تختلف عنها اختلافًا بينًا. وكذلك وُجِدَ فخار بدائي الصنع محزوز وغير محزوز. كما وجدت جرار حبوب وأوعية للمؤن وقعاب صغيرة من الفخار الصلب المصقول ذي اللون الأبيض المائل للخضرة. وهذه الأواني هي التي يُطْلَقُ عليها الأواني القناوية وقد وجدت في المقابر القديمة من مجموعة C بعدد قليل، ومعظمها وُجِدَ في العصر النوبي المتوسط.

وبدأت أَوَّلًا عادة وضع الأواني الفخارية مع الْمُتَوَفَّى في حجرة الدفن أو الحفرة في فترة متأخرة من هذا العهد الذي يتحدث عنه. وقد ظهر بدلًا من الأطباق التي كانت تُوضَعُ فيها مواد التجميل صحاف مفرطحة معظمها من فخار النيل، وقد وُجِدَ فيها كشف عنه من هذه الصحاف بقايا مادة الكحل. أما الأواني المصنوعة من الحجر فقليلة جدًّا.

هذا ووجدت كذلك مرايا من النحاس وحلي مؤلف من عقود مصنوعة من الخرز من أنواع مختلفة وأسورة حرخلاخيل وأسورة معصم مصنوعة من مواد مختلفة وحلي عظيم كالأقراط ومشابك الشعر المصنوعة من الأصداف.

وتدل شواهد الأحوال على أنه إذا كانت بداية العهد النوبي المتوسط الذي يماثل ثقافة مجموعة C هي الأسرة السادسة فإن نهاية هذا العهد كانت في باكورة الأسرة الثامنة عشرة. وعلى ذلك تكون فترة هذه الثقافة حوالي ثمانية قرون من الزمن. والمفهوم أن هذه الثقافة لم تقف جامدة طوال هذه الفترة الطويلة بل لا بد قد حدثت فيها تغييرات، ولكنها تغييرات ليست مُحَسَّةً بالنسبة لقوم بدائيين كالنوبيين. وذلك على العكس مما وجدناه جاريًا من تغيرات في الثقافة العالية التي كانت منتشرة في وادي النيل في مصر منذ توحيد البلاد.

وقد أشار الأثري «فرث»[٢٧] إلى الاختلافات التي توجد في مختلف جبانات «الدكة» الخاصة بالمجموعة الثقافية C. وقد أثبت بحق وجود مميزات في إقامة المقابر تدل على أنها صُنِعَتْ في أزمان قديمة متأخرة عن سابقتها وبخاصة ظهور المقابر الْمُقَبَّبَةِ والمزارات الْمُقَامَةِ من اللَّبِنَاتِ، هذا بالإضافة إلى اتجاه المقابر نحو الشمال بدلًا من الغرب ووجود أوانٍ بها حزوز مملوءة بألوان مختلفة.

ويمكن تقسيم مدة هذه الثقافة على حسب الآثار التي عُثِرَ عليها في «عنيبة» أربعة أقسام تاريخية منفصل بعضها عن بعض، وإن كانت أحيانًا تتداخل وهي:

(١) الثقافة النوبية المتوسطة رقم (أ): وتمثل العهد القديم الذي يبتدئ حوالي الأسرة السادسة والعهد المتوسط الأوَّل المصري. والآثار التي تمثل هذا العهد عُثِرَ عليها في أجزاء جَبَّانَاتِ «الدكة» و«عنيبة» و«فرص»، ولكن في «عنيبة» على وجه التأكيد، وتمتاز مقابر هذا العصر بأن مبانيها العلوية التي على سطح الأرض مقامة من الحجر الجيري الأبيض المتماسك الحبات فوق حفرة صغيرة مستديرة الشكل. هذا وقد وُجِدَتْ أحجار على هيئة لوحات كانت تقام بغير تنسيق في الجبانة.

أما الأثاث الجنازي فكان يحتوي على أوانٍ من الفخار حمر وسود وكذلك على أوان محزوزة من الأشكال والنماذج القديمة، وعلى أوانٍ ملوَّنة باللون الأحمر.[٢٨] ومن جهة أخرى نجد أن الفخار النوبي الخشن الصنع[٢٩] معدوم، وكذلك الفخار القناوي (جرار الحبوب وما أشبه ذلك) لا يوجد إلا في حالات فردية.[٣٠] ووجدت المرايا المصنوعة من النحاس في يد الْمُتَوَفَّى اليمنى عادة أمام الوجه، هذا إلى وجود أوانٍ من الحجر لطحن الكحل، ولم يُعْثَرْ على المحار الخاص بحفظ مواد الزينة إلا قليلًا. ووُجِدَ عدد عظيم من الحلي مُؤَلَّفٌ من قلائد من الخرز بخاصة لأن الأنواع المحببة كانت هي الخرز والعقود المصنوعة من الصوان ذي اللونين الأسود والأبيض معًا والقلائد المصنوعة من الكرنالين والتعاويذ المصنوعة من الخرز والأختام التي على هيئة أزرار.

وسنتكلم عن الأقسام الأخرى في عصورها.

هوامش

(١) راجع: Faras, p. 67.

(٢) راجع: Firth, Report, II, p. 19.

(٣) راجع: Kubanieh Nord, 9 ff., 179.

(٤) راجع: Firth, II, p. 19.

(٥) راجع: El Kurro, p. 1 ff.

(٦) راجع: Sethe, Die Achtung feindlicher Fursten Folker und Dinge auf altägyptischen Tongefass-scherbin des Mittlern Reiches, p. 133.

(٧) راجع: Steindorff, Studies Presented to Griffith, p. 360 ff

(٨) راجع: Mariette, Abydos, II, p. 12

(٩) راجع: Urk., IV, P. 5 ff.

(١٠) راجع: Sethe, Die Achtung, etc, p. 33

(١١) راجع: Kubanieh Nord, p. 17-18

(١٢) راجع: Wolf, Bewaffung. p, 27, Anm, 4

(١٣) راجع: A.Z., XLV, p. 128

(١٤) راجع: Urk., IV, p. 423

(١٥) راجع: Petrie, Royal Tombs, II, p. 3, 2

(١٦) راجع: Urk., IV, p. 83

(١٧) راجع: Sethe, Die Achtung, etc., p. 25 ff

(١٨) اقرن: L.D., III, p. 163. حيث نجد عبارة نحسيو بنت وكذلك راجع: Junker, Das Erste Auftreten der Neger in der Geschichte (Almanach der Akademie d. Wissinschaft Wien 1925)

(١٩) راجع: L. D., III, p, 136

(٢٠) راجع: Sethe, Urk., IV, ubersetzung, p. 3

(٢١) راجع: Sethe, Grab des Sahure, II, pp. 80-81

(٢٢) راجع: Gardiner, Grammar, p. 533

(٢٣) راجع: Studies presented to Griffith, p. 365 ff

(٢٤) راجع: Kubanieh Nord, p. 2. ff.

(٢٥) راجع: Firth, I, p. 158 ff.

(٢٦) راجع: Firth, III, p. 145 ff.

(٢٧) راجع: Firth, II, p. 12. ff.

(٢٨) راجع: Aniba, I, Gattung VII. p. 102 Pls. 66, 9, and 210

(٢٩) راجع: Ibid, IV, P. 91 ff,; Taf-54-57

(٣٠) راجع: Ibid, VI, P. 98, Pl. 60

الفصل الخامس

العلاقة بين مصر وبلاد النوبة في العهد المتوسط

مقدمة: كان المصري منذ فجر تاريخه متمسكًا بأهداب العدالة والحق والصدق والنظام التي كان يعبر عنها جميعًا بلفظة «ماعت»؛ ولذلك جاء في أساطير القوم أن الإله «رع» الذي يعد أول من حكم مصر هو الذي جاء بهذا القانون وطبقه في أنحاء البلاد. ولما رُفِعَ «رع» إلى السماء كما تقول الأسطورة وتَنَحَّى عن الحكم في الأرض وبدأ يحكم بعده أخلافه على الأرض اتخذوا هذا القانون نبراسًا لهم في حكم البلاد، ولهذا كان يُدْعَى كل من يحكم مصر من بعده «ابن رع» ما دام متبعًا قانون «ماعت»، فإذا حاد عنه ملك من الملوك فإنه لن يكون منه، وقد ظل ملوك مصر منذ عهد «مينا» يترسمون في خطواتهم هدى «ماعت» أكثر من ألف سنة إلى أن أخذ الملوك يحيدون عن هديها فَضَلُّوا السبيل وأضلوا البلاد معهم فلفظتهم وأقصتهم عن الحكم. ولقد بدأ الفساد يدب في البلاد عندما أخذ ملوك مصر يهبون حكام الأقطاع الهبات، ويُرْخُونَ لهم الْعِنَانَ للعبث بالأهلين في حين أنهم كانوا أنفسهم ينغمسون في حمأة اللهو والفجور؛ مما أدى إلى ضعف الحكومة المركزية وتمزق شمل البلاد حتى رجعت إلى سيرتها الأولى من الانقسام إلى إقطاعات كما كانت عليه قبل حكم «مينا» موحد مصر. وفي النهاية كان حكم الملك «بيبي الثاني» الذي ظل يحكم البلاد أكثر من تسعين عامًا هو خاتمة المطاف فقد ضعفت في أيامه الحكومة المركزية في «منف» وكذلك سارت البلاد نحو الهاوية والانحلال بطبيعة الحال. وهذه الحالة قد أدت بلا نزاع شل قوة مصر في الخارج، فكان من جراء ذلك أن روابط العلاقات التجارية الخارجية قد أصبحت مرتبكة، ثم قطعت نهائيًّا. وتدل شواهد الأحوال على أنه بعد حكم «بيبي الثاني» غزا البلاد أقوام من الأسيويين بل ومن النوبيين أيضًا. فقد جاء ما يشير إلى ذلك من طرف خفي في الفقرة المشهورة من تحذيرات المتنبي «آبور»[١] التي

نقتبس منها عن قطع العلاقات التجارية مع الأرض الشمالية (آسيا) الجملة التي جاء فيها: «إن الإنسان لم يعد يمكنه الحصول على خشب الأرز لأجل الموتى»، وهذه العبارة لها ما يقابلها فيما يخص أرض الجنوب (أي النوبة)، غير أنها لم تُلَاحَظْ كثيرًا فيقول المتن: «لقد جردت (الناس) من ملابسهم ومادة «خسايت» وزيت «مرحت» (وهاتان مادتان لا تُجْلَبَانِ إلا من بلاد الجنوب)، ومن ثَمَّ نرى أن هذه الفقرة تشير إلى أن العلاقات مع الجنوب كانت قد قُطِعَتْ أيضًا كما انقطعت مع بلاد آسيا والشمال. وهذه الحالة قد أَثَّرَتْ في «منف» بوصفها عاصمة البلاد فقد انقطع عنها محاصيل جنوب الوادي. هذا ولدينا فقرات أخرى في نفس المتن تدل على شيوع الاضطراب في البلاد: «أن «إلفنتين» و«طينه» (؟) يتبعان الوجه القبلي (؟) وهما لا يدفعان ضرائب بسبب الفتن».

على أن الضيق والعوز لم يَسُودا شمال مصر وحده حيث كانت «منف» عاصمة الملك بل كذلك نجد الانحلال التام قد انتشر في داخل البلاد. وقد رأينا من قبلُ أن الجنود المرتزقين بدءوا يفدون إلى عهد الأسرة السادسة ويستعملون شرطة[٢] ومحاربين، وقد حدث ذلك في وقت كانت لا تزال فيه الحكومة قوية، وقد أصبح هؤلاء الجنود المرتزقون فيما بعد خطرًا داخليًّا كما يدل على ذلك منشور الحماية الذي أصدره «بيبي الأوَّل». والدور الذي لعبه هؤلاء الأجانب أنهم نشروا الفوضى في مرافق الحكومة كما تشير إلى ذلك فقرة في تحذيرات المتنبي «آبور»[٣] فاستمع لما جاء فيها: «… إن كل إنسان قتال قد حارب من أجل أخته وكان يحمي نفسه. هل هم «نحسيو»؟ إذن يجب أن نحمي أنفسنا (؟) وإن المحاربين قد تضاعفوا (؟!) ليصدوا رجال القوس. هل هم «تمحو» (اللوبيين) إذن علينا أن نتقهقر، (؟) والمازوي فرحين (؟) بمصر. وكيف ينبغي أن يقتل كل رجل شقيقه؟ والجنود الذين جُنِّدُوا لنا قد أصبحوا من قوم القوس (أي أصبحوا مسيئين مثل هؤلاء) وقد أَتَوْا ليهلكوا (؟) (والمقصود هنا أن «المازوي» أو «المجاي» قد هيأت لهم الأحوال أن يقطنوا مصر ويخربوها كالوحوش).

ونحن نعلم أن الآسيويين قد ذكروا قبل ذلك بأنهم خطر على مصر، وكذلك يقصد بالتمحو (اللوبيين) بأنهم قوم قد غمروا مصر بالخطر. ومن المحتمل أن التعبير «هل هم «نحسيو» إذن يجب علينا أن نحمي أنفسنا» يُقْصَدُ به نفس المعنى أيضًا. ولا ينتظر الإنسان من هذا المتن المكتوب من الوجهة المنفية إشارة إلى علاقة البلاد بالحدود الأجنبية؛ وذلك لأن الحكومة المنفية في هذا الوقت قد تركت حماية الوجه القبلي — على ما يظهر — للأسرة التي تحكم هناك وأصبحت منفصلة عن الجزء الجنوبي من مصر، ولهذا السبب

يمكن أن تنسب هذه الجملة الخاصة بالجنود المرتزقين الثائرين إلى مصر العليا، ولكن التعبير: «إن المحاربين قد تضاعفوا ليصدُّوا رجال القوس» يشير على ما يظهر إلى الخطر السياسي الخارجي أكثر من إشارته إلى الخطر الداخلي.

وقد رأينا أن العلاقات بين مصر وبلاد النوبة السفلى قد تحرجت بدرجة عظيمة في نهاية الدولة القديمة حتى إن الملك قد أرسل حملة تأديبية على رأسها «بيبي نخت» غير أن نتائجها من حيث امتداد نفوذ مصر لم تأتِ ثمارها، بل على العكس أوجدت في الحياة السياسية النوبية غشاوة وقد أصبحت مصر من جراء ذلك لا تحتل مكانة قوية في سياسة بلاد النوبة.

وقد لاحظنا، في نقوش «حرخوف» أن علاقات السلالات النوبية في الجنوب حرخوف قد أصبحت مضطربة، وقد ذكرنا من قبلُ الحملة التي قام بها قوم «يام» على «التمحو» (اللوبيين) وكذلك نجد في هذه النقوش تعبيرات تدل على وجود عداء بين القبائل النوبية ذاتها. ولا نزاع في أنه بوجود مثل هذه العلاقات المضطربة التي لم تكن فيها لمصر يد بوجه عام كانت الطريق ممهدة لهجرة قبائل جديدة كما كانت الحال من قبل. والواقع أن نتائج الحفائر الأثرية قد أثبتت هجرة قبائل عديدة إلى بلاد النوبة وهم القوم الذين وفدوا إلى النوبة السفلى حاملين ثقافة مجموعة C، كما حمل أقاربهم المجاورون لهم في الجنوب ثقافة «كرمة».

وهؤلاء المهاجرون يمكن أن يكونوا قد وفدوا إلى البلاد في نهاية الأسرة السادسة على أكثر تقدير. والواقع أن تحديد هذا التاريخ بأنه يقع بين نهاية الأسرة السادسة وبداية الأسرة الحادية عشرة لا يمكن أن يتفق مع الحقيقة بما لدينا من مادة مكشوفة إذ لم نجد في أقدم الجبَّانات المنسوبة إلى مجموعة C تاريخًا يمكن الاعتماد عليه. فالجبَّانات المعروفة حتى الآن من أقدم زمن لهذه الثقافة توجد جزئيًّا في «الدكة» و«عنيبة» و«فرص»، ولكن لم نجد وثائق يمكن تأريخها في «عنيبة» كما تحدثنا عن ذلك من قبل.

والواقع أن ما وجد في «عنيبة» ويمكن نسبته إلى هذا العهد يعتوره بعض الشك، وإن كان لدينا من مقابر هذه الجهة بعض أشياء مجلوبة من مصر وتنسب إلى العهد المتوسط الأوَّل، على حسب تقسيم «ستيندورف» لمجموعة ثقافة C كما تحدثنا عن ذلك سابقًا.

وقد ظن الأثري «فرث» أن هذه الهجرة قد حدثت بسبب الضعف الذي أصاب بلاد النوبة السفلى بعد الحملة التأديبية التي قام بها «بيبي نخت» إذ يقول: «ومن الجائز

أنه بعد الحملة التي قام بها «بيبي نخت» أصبحت أراضي «واوات» و«أرثت» ضعيفة لدرجة أن قوم مجموعة ثقافة C وضعوا أقدامهم في هذه البلاد وأصبحوا قوَّة مُنْتَهِزِينَ في ذلك الحروب الداخلية التي كانت في مصر في العهد الإقطاعي، وكذلك الحروب التي كانت بين أسرتي «أهناسية المدنية» و«طيبة»،[٤] ولكن الأسباب التي دعت إلى هذه الهجرة كانت أعمق من ذلك وترتبط بعدم وجود المصريين في بلاد النوبة، إذ من المحتمل أن هذه الحملة التي مهدت الطريق للمهاجرين لم تكن الدافع المباشر الذي سهل لهؤلاء القوم الوافدين الهجرة، وعلى ذلك لا يمكن أن نتخذ هذه الحملة بمثابة معيار تأريخ مؤكد.

ولقد وُصل إلى تأريخ محدود كما ذكر الأستاذ «نيكر» في تحليله لمحتويات مقابر «كوبانية الشمالية» وهو أن هذه الهجرة قد حدثت من غير شك قبل بداية الدولة الوسطى بزمن طويل كافٍ؛ وعلى ذلك فإن مجموعة ثقافة C هذه قد انطبعت بطابع مصري من عهد الدولة الوسطى المبكر جدًّا. ولما كانت «الكوبانية الشمالية» التي تتمثل فيها طليعة هذه الثقافة تقع في أقصى شمالِي بلاد النوبة فإن أقدم جزء في آثارها قد وجد في تأريخه مع منتصف الدولة الوسطى المصرية.[٥]

ولا نعلم إلا القليل عن صبغة ثقافة قوم مجموعة C عند زمن هجرتم. ويمكننا أن نلحظ هذه الثقافة أولًا بوجه خاص في طور من أطوارها المتأخرة أي في الوقت الذي بدأت فيه المملكة الموحدة تقهر بلاد النوبة. ولا نزاع في أن هذه الهجرة الجديدة كانت لها صورة أخرى تميزها عن الثقافتين A، B اللتين تَحَدَّثْنَا عنهما فيما سبق، كما يدل على ذلك بوضوح مناهضتها لسياسة التوسع المصرية المتأخرة.

وقد ذكر كل من «ريزنر»[٦] و«إمري» و«كروان»[٧] أن قوم ثقافة C كانوا لا يميلون إلى الحروب، وأنهم كانوا أهل سلام، وأن حضارتهم قد أينعت أولًا في حماية معاقل الدولة الوسطى، غير أنه لدينا أمور كثيرة تناقض هذا القول. حقًّا لم يوجد في أثاث مقابر قوم مجموعة C كثير من الأسلحة، ولكن لا يستلزم ذلك أنهم كانوا أهل سلم، إذ من المحتمل أن الأسلحة كانت غالية بالنسبة للنوبي فيعجز عن شرائها لتوضع معه في القبر، ومن المحتمل كذلك أنه كان للقوم عادات خاصة بالدفن لا يتفق معها وضع أسلحة في المدافن، والواقع أن النزاع الحربي الذي قام بين مصر وبلاد النوبة وهو الذي انتهى باحتلال المصريين لبلاد النوبة السفلى على يد «سنوسرت الأوَّل» قد بدا فيه لنا مقاومة عنيدة من جانب النوبيين. ولا شك في أن قوم مجموعة C كانوا بلا نزاع وقتئذٍ قد استوطنوا بلاد النوبة قبل نهاية عهد الدولة القديمة.

وقد خالف «ريزنر» هذا الرأي إذ يقول: إن مجموعة ثقافة C لم توجد في «كرمة» غير أن بعض الفخار الذي وجد في المقابر النوبية المتأخرة كان موحدًا مع فخار جبانات مجموعة C الخاصة ببلاد النوبة السفلى. وإن الجبانات النوبية الخاصة «بكرمة» كان الجزء الكبير منها معاصرًا لجبانات مجموعة C التابعة لبلاد النوبة السفلى، ومن الواضح أن السكان النوبيين الذين أسست في وسطهم مستعمرة «أنبو أمنمحات» المصرية لم تكن مثل مجموعة ثقافة C؛ إذ على الرغم من أن كل الرغم من أن كل هؤلاء السكان يمكن أن يكونوا من أصل واحد فإني أميل إلى الاعتقاد مع الأثري «أورك بيتس» أن قوم المجموعة C كانوا في معظمهم قبيلة صحراوية، والمحتمل أنهم لوبيون قد زحفوا إلى بلاد النوبة السفلى في هذه الآونة في حين أن نوبيي منطقة «دنقلة» كانوا يمثلون السكان القدامى الذين سكنوا في الوادى منذ عهد الدولة القديمة أو حتى قبل ذلك إلخ.[٨]

ويدل ما وصل إلينا من وصف الموقعة الحربية التي شنها «سنوسرت الأوَّل» على أنها كانت موجَّهة إلى أهالي وادي النيل في بلاد النوبة[٩] ويدل إحجام قوم مجموعة C عن الأخذ بتعاليم الثقافة المصرية أيام احتلال المصريين لهذه الأراضي في عهد ملوك الدولة الوسطى، وكذلك بناء المعاقل المصرية في قلب مراكز الأهالي على كراهية سكان أهل النوبة السفلى للسيادة الأجنبية. هذا ويدل تخليص النوبيين أنفسهم في العهد المتوسط الثاني من السيادة الأجنبية على أنه كان على المصريين أن يُخْضِعُوهُمْ ثانية، يُضَافُ إلى كل ذلك أن قوم مجموعة C والقبائل القريبة النسب منها كان أفرادها يشتغلون جنودًا مرتزقين. كل هذه الحقائق لا ت تفق مع ما ذكره الأستاذ «ينكر» أو الأستاذ «كيس» عن هؤلاء القوم.[١٠]

ويدل فحص الفخار الخاص بأقدم طور من أطوار ثقافة قوم مجموعة C على أنه لم ينم في بلاد النوبة السفلى بل إنه ظهر وانتشر في البلاد في خلال حملة هذه المجموعة الرئيسية على هذه الجهات، ونخص بالذكر الأواني الفخارية المحزوزة التي تعد من أحسن الأشكال التي ظهرت في بلاد النوبة أناقة ومن أحسن النماذج التي وجدناها في أقدم المقابر،[١١] ولا يوجد في الفخار الأحمر ذي الرقبة السوداء والفخار المصقول تطور كبير يُذكر من حيث النوع بل في الشكل فقط.[١٢] ومن جهة أخرى توجد عناصر نرى بوساطتها تطورًا جديدًا ظهر في صورة أشكال فخار طويلة، ويتضح ذلك جليًّا في الفخار الذي عُثِرَ عليه في المقابر بخاصة، فأقدم هذه المقابر صغير الحجم وكلها على ما يظهر بدون استثناء على شكل حلقة في وسطها بئر بسيطة للمتوفى، ولم نعثر على المقابر

الكبيرة الحسنة البناء المكسوة بالحجر أو المقببة الشكل التي حلت محل البئر البسيطة إلا فيما بعد. وهذه التطورات في فن البناء توضح بجلاء وبأحسن صورة عهد الانتقال من عيشة الْجَوَلَانِ والبداوة إلى عيشة الاستقرار والحضارة.

وفي هذا العهد ظهرت كذلك أنواع من الأواني المصرية الأصل في المقابر النوبية، هذا إلى بعض خرز من القاشاني وقطع أخرى صغيرة مستوردة ضمن قائمة محتويات القبر الثابتة. ووجود هذه الأشياء يدل بلا نزاع على تبادل تجاري مع مصر منذ أقدم عهد ظهرت فيه ثقافة مجموعة C. وقد كتب الأستاذ «ينكر» عن العلاقات التجارية في هذا العهد[١٣] قائلًا: «ومن المحتمل أن الموطن الجديد وتغير الحياة من الجوَلان إلى حياة الاستقرار ووجود العلاقات الطيبة مع جيرانهم أهل الشمال قد كان لها أثر حسن. ومع ذلك فقد بقي هؤلاء القوم فقراء فنجد أن أواني الفخار التي كانت تُوضع في المقابر قد انكمش عددها حتى أصبح لا يزيد عن بعض طرز من الأواني المحزوزة بحزوز حادة، ولا يوجد بينها إلا بعض أوانٍ فخارية من أصل مصري. وإذا استثنينا هذه العناصر فإن الروابط التي كانت بين البلدين تنتهي عند هذا الحد. وقد بقيت القطع الرئيسية من الأواني الفخارية التي من ذلك العهد كما هي، وقد اختفت عند ظهور أوانٍ جديدة يمكن أن تكون دليلا على أصل حضارة المجموعة الثقافية C الخاصة، وهي التي كانت وقتئذ آخذة في السعي وراء الكمال والاستقرار. وفي تلك الأثناء أخذت تظهر في مصر سياسة معارضة في عهد الأسرة الحادية عشرة شيئًا فشيئًا، ومنذ هذه الفترة كانت الخطة الثابتة لمطامح فراعنة مصر تنحصر في قهر بلاد النوبة والقبض عليها بيد من حديد. ولا غرابة في أن نجد في تلك الأوقات المليئة بالمقاومة والحروب تبادل التجارة الذي كان يسوده الوئام والسلام قد تأثر تأثرًا سيئًا كما أن التأثير المصري الثقافي أصبح بمقتضى الأحوال غير ممكن وقف تياره.

ويحتمل أن الأستاذ «ينكر» كان على حق عندما قال إن العلاقات كانت ودية في بادئ الأمر بين هؤلاء الوافدين من القبائل الجدد وبين مصر، هذا إذا كانت الجملة التي أوردها دليلًا على ذلك تشير حقًّا إلى بلاد النوبة أي «بلاد الجنوب» ولا تشير إلى الجنوب بمعنى الوجه القبلي،[١٤] لأن ذلك يكون التفسير الطبيعي لوجود أوانٍ مصرية بحالة ثابتة في أواني مجموعة C، ولكن يظهر أن التجارة كانت قد تأثرت هناك ولم تكن هناك كذلك حكومة مصرية قوية يمكن أن يَعتمد عليها قائد الحملة، ومن أجل ذلك كان لا بد من إرسال حملة تأديبية من وقت لآخر لوضع الأمور في نصابها عندما كان يصيب التجار

المصريين أيُّ أذى. ولدينا ما يدل على وجود تجارة صغيرة يقوم بها صغار السكان في هذا العهد.[١٥]

ولا نزاع في أنه ما دامت بلاد النوبة في حملتها كانت مجدبة لا يزرع منها إلا أجزاء قليلة، وأن هذه الهجرة العظيمة إلى أرض الجنوب قد استقرت في الأراضي الخصبة لوادي النيل فإنه لا يمكن تفسير ذلك إلا أن قوم مجموعة C قد باءوا بالفشل بعد محاولة غير مجدية لدخول وادي النيل الخصيب. والحروب الدفاعية التي قامت في الجنوب من جراء ذلك لم تلعب فيها حكومة «منف» أي دور، وأعنى بذلك الحكومة التي عاشت بعد الاضطرابات التي كانت في عهد «بيبي الثاني» وبعده، وهي التي كانت قد فقدت كثيرًا من سلطانها. وكان يحكم في الوجه القبلي في هذه الفترة أسرات مختلفة محلية، غير أن الأسرة التي اتخذت مقرها «قفط» كانت صاحبة المكانة العليا في تلك الجهة. ولا نعرف عن ملوك هذه الأسرة إلا القليل فقد وصل إلينا بطريق الصدفة بعضهم، فنجد في نقوش منشور «قفط» الذي عُثِرَ عليه من قبل اسم ملك يدعى «وازكارع».[١٦] على أن هذا الاسم ليس هو اسم الملك الذي أصدر المنشور، والواقع أن الاسم الحوري لصاحب المنشور هو «دمز–اب–تاوى» وهو الذي كتب في أول نقش المنشور[١٧] وفضلًا عن ذلك فإن لقب «وازكارع» كان يؤلف جزءًا من اسم علم لشخص ما من عامة الشعب يريد أن يضيف إلى اسمه هذا اللقب مثل اسم «وازكارع–سنب»، وعلى ذلك فإن اسم «وازكارع» الذي مزج بالأسماء الأعلام على ما يظهر لا بد أنه كان ممن خلفوا هذا الملك، والظاهر أنه من ملوك «قفط».

واسم الملك «وازكارع» قد وُجِدَ في نقش مزدوج عُثِرَ عليه في نقوش «خوردهميت».[١٨] وأحد النقشين يشمل الصيغة الجنازية المعتادة، أما الثاني فقد جاء فيه الحملة (أو الأمر) التي قادها ابن الحاكم الذي هزم عدو والده «حور الذهبي» «خنم رع» ملك الوجه القبلي والوجه البحري «وازكارع» بن «رع» «سجرسنتي» في الشمال من بلدة «برسنبيت»: تفتيش أراضي «سخع» و«واعج»[١٩] (؟). ومما جاء في النقش الأوَّل نفهم أن «ابن رع» «سجرسنتي» ليس اسم الملك «وازكارع» بل هو اسم «ابن الملك». أما على حسب ترجمة الأستاذ «ريدر» فكان «سجرسنتي» هذا الذي يحمل الصِّلَّ على جبينه فهو على رأيه أمير نوبي صغير كان على اتصال بملك مصر.[٢٠] غير أن البرهان الذي ذكره «ريدر» مدللًا على أن هذا اسم ليس مصريًّا وأن الثائر قد هُزِمَ في الشمال لا يمكن الأخذ به؛ فلا بد من التروِّي والحيطة عند الحكم على الاسم إذا كان مصريًّا أصليًّا أو أجنبيًّا، لأنه توجد أسماء

لم نصِل حتى الآن إلى معرفة اشتقاقها اللغوي، وأنه لم يصل إلينا منها إلا مثال واحد وهو الذي نحن بصدده. وفي هذه الحالة يكون الحكم في إرجاعه إلى أصله صعبًا جدًّا، يضاف إلى ذلك أن «سجرسنتي» لم يقل إنه هزَم العدو في الشمال، بل إن المقصود هنا في الجملة السالفة موقع المكان في شمالِي «برسنبيت».

وإذا كان «وازكارع» — كما هو المرجح — ينتسب فعلًا إلى أسرة «قفط» على حسب ما يُفهم من المنشور السابق ذكره فإن الوجه القبلي حتى ما وراء «إلفنتين» كان تحت سلطانه، وعلى ذلك فإن هذين النقشين يُعَدَّانِ وثيقة تثبت أن أسرة «قفط» كانت طليعة المحاربين من المصريين في بلاد النوبة السفلى. وإذا كان لزامًا علينا أن نعترف بأن قوم مجموعة C هاجروا فعلًا نحو مصر فإنه من الجائز أن الملك كان قد أرسل ابنًا له — يحتمل أنه كان ولي العهد — إلى الجنوب ليصدَّ تقدُّم هؤلاء القوم المهاجرين في زحفهم على الأراضي المصرية.

أما في الوجه البحري فقد تولى الحكم بعد الأسرة المنفية الأسرة الأهناسية وهي التي أوجد ملوكها من الفوضى نظامًا نسبيًّا؛ وبذلك بدأت مصر عصر ثقافة زاهر.[٢١] ولا نعرف على وجه التأكيد إلى أي حد امتدَّ سلطان هذه الأسرة نحو الجنوب، ولكن المؤكد أن سلطانها كان ممتدًّا حتى «طيبة» ولو اسمًا. وتدل شواهد الأحوال على أن الطِّيبِيِّينَ كانوا قد انضموا إلى أسرة «قفط» وشنوا حربًا على ثلاث المقاطعات الواقعة في أقصى جنوب مصر. ولما كانت الأسرة القفطية قد اختفت لأسباب غير معروفة فإن ملوك «طيبة» قد أصبحوا هم الحامون للأراضي الواقعة جنوب «طيبة»، ثم أخذت قوتهم تزداد في هذه الجهة باستمرار كما كانت لهم السيادة على مملكة «أهناسية المدينة»، وهذه التطورات السياسية كانت في الواقع بشيرًا بقيام الأسرة الحادية عشرة التي وضعت العراقيل شيئًا فشيئًا في سبيل الأسرة الأهناسية إلى أن قضت عليها نهائيًّا ووحدت البلاد جمعاء.[٢٢]

هذا ولدينا نقش من العهد الذي لم يكن فيه أمراء «طيبة» الأقوياء على عداء ظاهر مع حكومة الدلتا وهو من الأهمية بمكان إذ يدلنا على العلاقة التي كانت بين مصر والجنوب وقتئذٍ.[٢٣] وهذا النقش مدوَّن على لوحة عثر عليها على ما يظن في «طيبة» وهي لفرد يدعى «زمي» ويلقب المشرف على الجنود والمشرف على التراجمة (رئيس القافلة) وهو يقص علينا حملات مختلفة قام بها في أثناء حياته وفيها يقول: «لقد جعلت «واوات» بلادًا خاضعة وكل حاكم مقاطعة ثار في هذه المقاطعة قضيت … وبذلك كنت محبوبًا». غير أنه من الصعب فهم عبارة «جعلتها بلادًا خاضعة». إذ ليس لدينا مادة أخرى تساعد

على الإدلاء برأي قاطع في معنى هذه العبارة، ويجوز أنها مبالغة من الكاتب المصري كما هي الحال غالبًا في وصفه للعلاقات المصرية مع البلاد الأجنبية، وعلى ذلك يمكننا أن نتطرف في تفسيرنا إلى القول بأن هذا القائد يشير إلى حملة للاستيلاء على بلاد النوبة.

ولا يدل تاريخ البلاد فيما بعدُ على أن هذه كانت حملة لاستعمار البلاد النوبية، بل في الواقع كانت غزوة من الغزوات الصغيرة المعدَّة التي كان يقوم بها المصريون ليحملوا النوبيين على توريد السلع إلى مصر، ومن المحتمل أن هذه الحرب كانت قد وقعت في جنوب الحدود حيث كان أهل ثقافة مجموعة C قد وَطَّدُوا أقدامهم هناك، وذلك أنه على حسب نتائج الكشوف التي قام بها الأستاذ «ينكر» في «الكوبانية الشمالية» نعلم أنه كانت تسكن هناك جماعات صغيرة كانت تزحف نحو شمالِي «أسوان».

هذا ولا نعرف إذا كان للأهناسيين أنفسهم نشاط عند الحدود في مراقبة التخوم والتجارة، إذ إن ذلك موضوع يحيطه الشك والإبهام.[٢٤]

حقًّا وجد اسم الملك «خيتي الأول» والملك «مرى-اب-رع» عند الشلال الأول، ولكن يمكن تفسير ذلك بأن هذه النقوش كتبها أحد أمراء مقاطعة «طيبة» الذين لم يكونوا قد اعترفوا بأمراء «أهناسية» ملوكًا على مصر. والواقع أن الطيبيين كانوا يعتبرون عند الحدود الجنوبية بمثابة أبطال مصر الذائدين عنها كما يدل على ذلك نقش «زمي»، ونقش آخر،[٢٥] وقد وجد مكتوبًا عليه اسم أمير مقاطعة يُدعى «أنتفي الطيبي» ويحمل لقب: «الذي يملأ قلب الملك عند باب الجنوب الضيق».

وإنه لمن المهم أن نجد الآن وثيقة ذكر فيها هذا اللقب القديم المحترم الذي يدل على أن حامله كان يراقب الهجرة من الجنوب إلى مصر عند الحدود. ولا نزاع في أن حاكم المقاطعة هنا كان يمثل الملك كما يدل على ذلك الكتابة التي أمام «أنتف» الأول وتعدُّ من عصر واحد هي ونقش «زمي»، وقد كان الأخير ضابطًا في خدمة حاكم مقاطعة.

والألقاب التي تأتي بعد هذا في اللوحة السابقة تُعَدُّ من الألقاب الخاصة بهذا العهد وهي: «العمود العظيم الذي يحمي أرضه» وهذا اللقب له رنين خاص عند حاكم المقاطعة، ويدلنا على أن الوقت قد اقترب لأن يصبح حاكم المقاطعة مناهضًا للملك. وهذا التغير بالفعل، مضافًا إليه اسم «أنتف الأول» وهو «سهرتاوى» (مهدئ الأرضين) يقابلان اسمي ملكين لم يوجد اسمهما إلا في بلاد النوبة وهما من الأهمية بمكان. وأحد هذين الاسمين هو «حور» مجمل أرضيه، حور الذهبي الجميل ملك الوجه القبلي والوجه البحري «كارع كا» ابن رع «أن». وقد جاء ذكر اسم هذا الملك سبع مرات على صخور بلاد النوبة من الشمال إلى الجنوب.[٢٦]

وقد وضع «إدوارد مير» هذا الملك في الأسرة الحادية عشرة وذلك بسبب مشابهته لاسم الملك «منتوحتب» «سعنخ كارع» (أي الذي يحيي روح «رع») حور ونبتي «سعنخ تاوي» (الذي يحيي الأرضين).[٢٧] أما الأثري «جوتييه» فإنه وضع هذا الاسم مع اسم ملك وضعه «لبسيوس» في كتابه الذي ألَّفه عن ملوك مصر ولكن بدون سند.[٢٨]

ونجد نفس الاختصار لاسم «أنتف» موجودًا كما أشار إلى ذلك «إدوارد مير» وكذلك على لوحة الكلب المشهورة وفي ورقة «آبوت».[٢٩] وعلى ذلك فإنه لا مانع من وجوده مع أحد الملوك الذين تَسَمَّوْا باسم «أنتف» في عهد الأسرة الحادية عشرة، كما أن توحيد الاسم الحوري واسم نبتي يجعل هذا التاريخ في العهد الذي قبل الدولة الوسطى ممكنًا.

أما اسم الملك الآخر الذي لم تجد ذكره للآن إلا في بلاد النوبة فهو:

«**حور جرج تاوي ف**» ملك الوجه القبلي والوجه البحري (أي- ب-خنت-رع» وقد وجد اسمه في نقشين من نقوش بلاد النوبة أحدهما على مقربة من «أبو هور»[٣٠] والآخر في «المضيق».[٣١] ونجد في الحالة الأخيرة أن اسمه قد ذكر مع اسم «سارع أنتف» ولهذا السبب يكون معاصرًا، ويعضد ذلك التكوين الخاص للاسم الحوري الذي يشبه كثيراً أسماء الملوك الآخرين.

ويشك «جوتييه» في أن هذين الملكين مصريان وقد تبعه في ذلك «دريتون» و«فنديه»[٣٢] ولكن «سيف زودربرج» قد برهن على خطأ هذا الرأي.[٣٣]

وقد أنكر كذلك «ينكر» رأي «جوتييه» وأكد أن أسرة مثل هذه لو وجدت خارج مصر وكانت صاحبة سيادة هنا لحرمت كل معاضدة في بلاد النوبة. ولما لم يكن هناك ثقافة مشتركة ولا تبعية ثقافية للبلاد فإنه لا يمكن للإنسان أن يفكر في أن ملوكًا مناهضين قد فروا إلى بلاد النوبة واتخذوها ملجأ لهم كما حدث ذلك مع الملك «نقطانب» الذي ينسب إلى ملوك الأسرة الثلاثين.[٣٤]

ولا يمكن القول بأن أهل ثقافة مجموعة C كان لهم ملك ليس له قوة يستند عليها في بلاده الأصلية. وعلى الإنسان أن يفكر في المصاعب التي لاقتها مصر فيما بعدُ عندما أرادت استعمار بلاد النوبة.

والواقع أن الموضوع لا يخص ملكًا مؤقتًا حكم البلاد بل يخص عدة ملوك، فينبغي أن يكونوا قد خلفوا وراءهم بعض بقايا المدنية المصرية محفوظة لنا سواء أكان ذلك في المقابر أم غيرها، ولكن لم نجد في ثقافة مجموعة B ولا في ثقافة مجموعة C أي أثر يدل على السيادة المصرية. هذا ولم يوجد قبر مصري في كل العصر الذي نحن بصدده، كما لم يوجد به بقايا لمقر ملك أو أي شيء من أشياء حاشية الملك.

ويوجد مع اسم الملك «حور-جرج-تاوي-ف» ملك الوجه القبلي والوجه البحري «أي-أب-خنت رع» السالف الذكر في بلدة «المضيق» نقش لكاهن يُدْعَى «خنوم حتب» كتب بنفس الطريقة وبنفس الأسلوب الذي كتب به اسم هذا الملك وهذا النقش هو بلا شك من عصر هذا الملك.[٣٥]

ويوجد في نقوش «أبو هور» اسم مدير مكتب يدعى «سبك محتب» (؟) والظاهر أن هذا الرجل بعينه كتب اسمه في «المضيق».[٣٦] ويلاحظ في «أبو هور» أن نقوش هذا الرجل متصلة باسم الملك، وقد كتبت في الصورة بنفس الأسلوب. وعند قرن هذه النقوش باسم الملك المعاصر له وهو يحمل لقبًا مصريًّا خالصًا يتضح أن هذا الملك كان مصري الأصل. وعلى ذلك فإن القول بأن ملوك النوبة في هذا العصر قد ذهبوا بعيدًا في ثقافتهم إلى أن تمصروا وأنهم حملوا أسماء مصرية وكان لهم موظفون يحملون ألقابًا على النمط المصري لا يتفق مع نتائج الحفائر التي عملت في هذه البلاد.

وإذا كانت الأسماء الأخرى التي توجد مع أسماء الملوك في «المضيق» يُعَدُّ بعضها معاصرًا لبعض فإنها تؤكد لنا تاريخ الكتابات الملكية. وفضلًا عن ذلك تقدم لنا نقطة يُعتمد عليها في معرفة كنهها. ففي هذا العهد نجد عدة شخصيات يحملون اسم «منتوحتب» و«أنتف» وثلاثة من هذه الأسماء كان كل منها يحمل لقب المشرف على التراجمة (أو رئيس القافلة)، وهذا اللقب يدل غالبًا على أن النقوش كانت خاصة برحلات تجارية أو حملات حربية كما كانت الحال في عهد الدولة القديمة.

ويمكن تأكيد الرأي القائل بأن هؤلاء الذين كانوا في دائرة حكام مقاطعة «طيبة» كانوا تابعين لملوك. فقد رأينا من مصادر أخرى من البلاد المصرية نفسها النشاط الذي أظهره الطِّيبيون في الجنوب في هذا العهد. أما عدم ذكرهم في نقوش «طيبة» فقد يكون ذلك من باب الصدفة، وبخاصة عندما نعلم أن جبانة «طيبة» التي دفن فيها الملوك الأناتفة قد خُرِّبَتْ وحُطِّمَتْ منذ زمن بعيد. وما نعلمه عن علاقة الأسرة الحادية عشرة وسابقتها قليل جدًّا، ولا نزاع في تتابع أسماء الأناتفة الآتية: «حور-واح-عنخ-أنتف-الثاني» و«حورنحت نب تب نفر أنتف الثالث» و«حور سعنخ أب تاوي منتحتب الثالث». إذ قد أكد لنا هذا الترتيب النقوش. ولا نعلم على وجه التأكيد إذا كان هناك ملك آخر وهو «أنتف الأول» قد حكم «طيبة» إذ قد جاء ذكره فقط في نقوش «طود» باسم «سهرتاوي أنتف الأول».[٣٧] وعلى أية حال لا نعلم شيئًا على وجه التأكيد بالنسبة لترتيب هؤلاء الملوك في الأسرة الحادية عشرة إلا ما ذكرناه في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ٨.

الجنود المرتزقون: ذكرنا من قبل أنه كان يوجد جنود نوبيون يحترفون امتشاق الحسام في عهد سقوط الدولة القديمة، وليس لدينا بعد عهد الدولة القديمة وثائق عن وجودهم في مصر ولا عن الدور الذي لعبوه في الحروب التي كانت بين الأسرات المحلية أي في عهد الإقطاع، ولكن من الجائز أن ذلك قد حدث عن طريق المصادفة لأننا وجدنا — كما تدل الآثار العديدة — أن النوبيين في هذه الحروب الداخلية كانوا يُسْتَعْمَلُونَ جنودًا مساعدين، وبوجه خاص كانوا يقومون في ساحة القتال بدور الرماة، ولا أدل على ذلك من مجموعة نماذج الجنود التي عُثِرَ عليها في إحدى مقابر العصر الأهناسي.[٣٨] وقد عُثِرَ على هذه المجموعة في «أسيوط» التي بقيت مشتركة في الحروب القائمة بين «طيبة» و«هيراكليوبوليس» حتى النهاية وكانت منحازة إلى أهل الشمال، أي إن الجنود المرتزقين كانوا يحاربون في صف «إهناسية». وقد برهن الأستاذ «ينكر»[٣٩] على أن هؤلاء الجنود ليسوا من سلالة الزنوج بل كانوا من السلالة الحامية النوبية ولونهم أسمر قاتم، ولكنه ليس أسود فاحمًا، غير أنهم يظهرون أشد سمرة عندما يقفون بجانب الجنود المصريين، هذا إلى أنهم أقصر قامة من المصريين، وهذا يتفق مع ما ظهر من نتائج الحفائر التي عملت في النوبة. وكانوا مسلحين بالسهام والأقواس ويرتدون قمصانًا قصيرة مزينة برسوم مختلفة يميل إليها أهل مجموعة C الثقافية كثيرًا.[٤٠] وكان بعض هذه القمصان أبيض ويحتمل أنها كانت مصنوعة من الكتان المصري وكان معلقًا فيها من الأمام شرابة طويلة مزينة برسوم متشابهة. وهذه الشرابة نراها فيما بعدُ في الرسوم المتأخرة العهد يتحلى بها الجنود المرتزقون النوبيون كما يلحظ ذلك في الجنود المرتزقين النوبيين في عهد «تل العمارنة».[٤١]

وقد عثر في مقابر مجموعة ثقافة C على قمصان من الجلد مزينة، وليس لدينا ما يبعث على الشك في أنها تمثل هذه الثقافة أو أنها أقرب شيء إليها، ولكن الشيء الغريب أننا حتى الآن لم نجد أي قبر نوبي مثل المقابر القعبية الشكل التي جاءت بعد في هذا العهد في مصر. ومن المحتمل أن النوبيين كانوا يهاجرون ثانية بعد انتهاء خدمتهم في مصر إلى وطنهم في بلاد النوبة كما هي الحال في عصرنا الحالي إذ نجد أن النوبي أو البربري عندما يتقدم في السن ويصبح غير قادر على العمل يعود إلى بلاد النوبة موطنه الأصلي حيث كان يفضل أن يُدْفَنَ بين أهله وعشيرته.

على أن وجود مقابر جنود مرتزقين نوبيين من وجهة نظرنا يُعَدُّ من الأمور الهامة إذ من ذلك نعلم إذا كانوا يُدْفَنُونَ في جبَّانات خاصة بهم أو كانوا يُدْفَنُونَ في مقابر

متفرقة بسيطة من المقابر المصرية. وقد يجوز إذن أن خصائص مقابرهم القليلة المتفرقة لم يكن من المستطاع ملاحظتُها، وقد يكون السبب في عدم تمييزها هو التخريب الذي أصابها فأصبحت كأنْ لم تَغْنَ بالأمس. وليس لدينا من بين الجبانات النوبية التي عُثِرَ عليها في مصر ما يرجع إلى العهد الأول المتوسط من تاريخ أرض الكنانة.

ومن المحتمل أن هؤلاء الجنود النوبيين المرتزِقة كانوا قد وفدوا فعلًا في عهد مبكر نحو الشمال، ولكن ذلك لا يحتم أنهم كانوا وقفًا على مساعدة حزب الشمال قبل قيام الحرب بين «طيبة» و«أهناسية». والواقع أن هؤلاء الجنود لم يكن لهم أية منفعة شخصية في ذلك؛ لأنهم كانوا يحاربون مع أية طائفة تدفع لهم أجورهم، ومن أجل ذلك كانوا ينتقلون من معسكر لآخر على حسب زيادة الأجر الذي يتقاضونه، ولدينا عن ذلك مثال حديث وقع في عهد الحروب السودانية فقد حارب بعض هؤلاء الجنود مع الجيش المصري بقيادة «كتشنر» وكانوا من قبل يحاربون مع «المهدي». وكان هؤلاء الجنود يَتَحَيَّنُونَ كل فرصة ضعف في الحكومات وينهبون أموال المصريين كما يدلنا على ذلك مصادر مصرية مختلفة.[٤٢] على أن أمثال هؤلاء الجنود لم تقتصر على النوبيين بل كان من بينهم أجانب آخرون ومصريون، وليست النماذج التي عُثِرَ عليها في «أسيوط» هي الدليل الوحيد الذي يبرهن على أن هؤلاء الجنود المرتزِقة كانوا يحاربون إلى جانب مملكة «أهناسية» بل لدينا بعض نقوش عُثِرَ عليها في «حتنوب» من عصر «أهناسية» المتأخر تُحدِّثنا عن حرب الأمير «نحري» الذي أوقد نارها على «طيبة» فيقال عنه «كانت المحبة له (أي لنحري) عند المزوي والأسيويين والأراضي الجبلية (؟) نافذة في قلوبهم».[٤٣]

وكذلك يذكر لنا أمير يُدعى «كاي» في نقش من السنة الخامسة من عهد «نحري» نفسه قوم «المزوي» وأهل «واوات» و«نحسيو» (؟) والأسيويين وربما كان ذكرهم هناك على أنهم أعداء.

على أن عصر ظهور الجنود المرتزِقة بصورة بارزة لم يكن قد حَلَّ بعدُ وأعني بذلك العصر الذي نجد فيه هذا الصنف من الناس يذكرون كثيرًا، ونجد لهم كذلك مقابر في مصر.

ولم نجد حتى الآن بين النقوش التي عثر عليها ذكر للجنود المرتزقين محاربين في جانب الطيبيين، ومن الجائز أن ذلك قد حدث عن طريق الصدفة. وهذا ليس بغريب عندما نعلم أن المصادر المبكرة كانت قليلة جدًّا.

ولم نجد في الصور التي بقيت لنا من معبد الملك (منتوحتب) صورة واحدة يمكن أن يقال عنها بحق إنها تمثل رجلًا نوبيًّا، والعلامة الخاصة للجنود المرتزِقة من النوبيين

هي شريط على هيئة صليب مرسوم على الصدر. والمثال الوحيد الذي يمكن أن يدل على ذلك هو الذي نشاهد فيه الرامي يحمل الشريط المصلب ولا يحمل أية ريشة على الرأس في حين أن رماة آخرين كانوا يحملون هذه الريشة،[٤٤] ومع ذلك فإنه لا الريشة التي تكون على الرأس ولا الشريط المصلب كان كافيًا لتمييز المحارب النوبي بل على العكس نجد أن الشريط المصلب لا يُعْرَفُ بأنه لباس نوبي أو على الأقل لم نجد متنًا مع شخص يلبس هذا الشريط قيل فيه إن المتحلي به نوبي الأصل.

هوامش

(١) راجع الأدب المصري القديم للمؤلف الجزء الأول ص 295 وكذلك راجع: Chronique d'Egypt, No. 52 (1951), p. 299.

(٢) راجع مصر القديمة الجزء الثاني ص ٤٧١–٤٨٧.

(٣) راجع: Gardiner, Admonitions of an Egypt sage, 14, 2.

(٤) راجع: Firth. Ibid, Vol. II, p. 20

(٥) راجع: Junker, Kubanieh Nord, p. 35 f

(٦) راجع: Reisner, Kerma, II, p. 555.

(٧) راجع: Emery, W. B. and Kirwan, Es Sebua and Adendan (Service des Antiquites de I'Egypt, Mission Archeologique de. Nubie (1929–1934), Cairo (1935), p. 8.

(٨) راجع: Reisner, Kerma II, p. 555.

(٩) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٢٣ إلخ.

(١٠) راجع: Kees, Kult., p. 345

(١١) راجع: Aniba, I, p. 65 ff., pls 33–51& 64, 32

(١٢) راجع: Aniba I, p. 86

(١٣) راجع: Junker, Ermanne, p. II ff.

(١٤) راجع: Save Soderbergh, Agypten and Nubien, p. 42, Note 1

(١٥) راجع: Aniba, I, p. 6.

(١٦) راجع: Weill, Les Décrets Royaux de L'Ancien Empire Egyptien, p. 65

(١٧) راجع: Gothingische Gelebrte. Anz., 1912, No. 12, 719 ff. and Urk., I, p. 306, Journal Asiatique Ser., 11, 10 (1917), p. 385.

(١٨) راجع: Roeder, Debod Bis Bab Kalabsche, p. 306, p. 108.

(١٩) وقد ترجم الأستاذ «ريدر» هذه الجملة ترجمة أخرى Roeder, Ibid, p. 307.

(٢٠) راجع: Roeder, Ibid, p. 116.

(٢١) راجع مصر القديمة الجزء الأول ص ٤١٤.

(٢٢) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ١ إلخ.

(٢٣) راجع: The American Journal of Semetic Languages and Literatures (1921), p. 55 ff.

(٢٤) راجع: Kees, Beitrage zur Altagyptischen Provinzialverwaltung, p. 102 ff.

(٢٥) راجع: Petrie, season, PI, XII, No. 310.

(٢٦) راجع: Save Soderbergh, Ägypten und Nubien, p. 47

(٢٧) راجع: A.Z., 44, p. 115

(٢٨) راجع: Lepsius, Konigsbuch, No. 166, Taf. XI, and Gauth., L.R., I, p. 247

(٢٩) راجع: Moller, Hierat. Lesest. III, p. 17

(٣٠) راجع: Weigall, Report, Pl. 32,1

(٣١) راجع: Weigall, Report, P1, 50,1; Breasted., A.J.S. L.(1906); 57

(٣٢) راجع: Drioton et Vandier, L'Egypte, p. 238

(٣٣) راجع: Save, Ibid, p. 48

(٣٤) راجع: Gauthier: Precis De, L'Histoire de L'Egypte, p. 224

(٣٥) راجع: Breasted, A.J.S.L. (1906), P. 57, Weigall, Report, P1. 50, 4.

(٣٦) راجع: Weigall, Report, P1, 50, 15.

(٣٧) راجع مصر القديمة الجزء الثالث صفحة ٨ إلخ. عن تتابع ملوك الأسرة الحادية عشرة.

(٣٨) راجع: Le Musèe Egyptien I, PI. 33 ff

(٣٩) راجع: Kubanieh Nord, p 16.

(٤٠) راجع: Aniba I. P1. 25; Grab., 487 Note 3

(٤١) راجع: Wresz., Atlas II, P1. 11.

(٤٢) راجع: Kees, Kulturgesch, p. 232.

(٤٣) راجع: Anthes, Die Felseninschriften Von Hatnuh, Insch, No. 25, L. 14. p. 56 ff.

(٤٤) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٥٧ إلخ.

الفصل السادس

العصر النوبي المتوسط الثاني

(الأسرتان الحادية عشر والثانية عشرة)

تحدثنا من قبل عن العصر النوبي المتوسط الأوَّل من الوجهة الأثرية وسنتحدث هنا عن العصر المتوسط الثاني، وهو الذي يقابل من حيث الزمن الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، وبعبارة أخرى هو العصر الذهبي لثقافة أهل مجموعة C. ونخص بالذكر هنا الآثار التي كُشِفَ عنها في هذا العصر خلافًا للأماكن الثلاثة التي ذُكِرَتْ في العصر السابق جبانة «جرف حسين»[١] ٧٢/٧٣,٢٠٠، وجبانة «الدكة» رقم ٢٩٧[٢] وجبانة «العلاقي» رقم ١١٤[٣] وجبانة «قرته غرب» رقم ١٧٥ و١١٨،[٤] ويلحظ في مقابر هذا العصر أن المبنى العلوي للمقبرة كان كبيرًا، غير أنه لم يكن متماسك البناء كما كانت الحال في مقابر العصر السابق. ومقابر هذا العهد لم تقم مباشرة في غالب الأحيان عند حافة رقعة الصحراء بل على الرمال التي هبت من هذه الصحراء، وحفر الدفن الخاصة بهذا العهد كانت مستطيلة الشكل وزواياها مستديرة وكثيرًا ما كان يبنى ظاهرها بالأحجار وتزين بألواح من الحجر بعد ذلك.

وبجانب هذا كان يسقف البناء الأعلى ببناء مقبب من الطين المجفف في الهواء، على أن الرأي القائل بأن السقف المقبب أحدث من السقف المنبسط المقام بالحجر وأنه أول ما ظهر كان في العصر الثالث للثقافة النوبية المتوسطة وهو الذي سنتحدث عنه بعدُ — لا يؤخذ به بعد الكشوف التي حدثت في «عنيبة» إذ نجد الطرازين من المقابر موجودين جنبًا إلى جنب.

وكانت الجثة تُدْفَنُ في هذا العصر موضوعة على جانبها الأيمن ورأسها نحو الشرق وكثيرًا ما كانت تُلَفُّ في حصير أو في جلد ماشية أو ما شابه ذلك، وكثيرًا ما كان الرأس يوضع على مخدة من القش. وكان يوضع مع الْمُتَوَفَّى أوانيَ فخارٍ من أنواع مختلفة في البناء الخارجي وتحتوى على أوانٍ للحبوب والمؤن.

وقد لوحظ وجود حلي كثير يشمل قلائد من الخرز وأسورة مختلفة للساعد وأقراطًا ومشابك شعر ذات أشكال مختلفة مصنوعة من الأصداف.

هوامش

(١) راجع: Firth I. p. 80 ff., 105 ff.

(٢) راجع: Firth II, p. 108 ff.,.

(٣) راجع: Firth III, p.129 ff.,.

(٤) راجع: Firth III, p. 132. 145 ff.

الفصل السابع

علاقة مصر ببلاد النوبة في عهد الدولة الوسطى

مقدمة: كانت الأحوال التي حافظت فيها قوافل التجارة على تبادل السلع في عهد الدولة القديمة بين مصر والأراضي الجنوبية قد عرَّضت هذه التجارة إلى النهب والسلب اللذين يقوم بهما جمهرة من الولايات الصغيرة المستقلة بما يتبع كل ذلك من غرور وطمع وعدم اكتراث كان يبديه أمراء هذه الولايات. وقد كان الضمان الوحيد للمحافظة على هذه القوافل هو أن تُحْرَسَ بفرقة من الجنود لا يزيد عددها عن بضع مئات، غير أن هذا النوع من الحماية كان غالبًا تحيط به المتاعب والمناوشات، فقد كانت هذه القوافل على الرغم من حراستها تُهَاجَمُ في طريقها، ومع ذلك فإن ملوك الأسرة السادسة لم يتخذوا إجراء حازمًا للقضاء على مثل هذه الحالة المقلقة لتجارتهم اللهم إلا بعض حملات تأديبية تَحَدَّثْنَا عنها في مكانها.

ومما لا شك فيه أن فتح بلاد السودان لم يحتجْ إلى مخاطر كبيرة، فقد كانت بلاد النوبة مقسمة إلى ممالك صغيرة كما كانت الحال في باكورة القرن الماضي عندما قامت قوة مؤلفة من مئتي مملوك طردهم «محمد علي» من مصر فساروا دون أية مشقة إلى مديرية «دنقلة» وفتحوها وقبضوا على زمام الأمور فيها عدة سنين. وفي عام ١٨٢٠م قام إبراهيم باشا على رأس حملة مؤلَّفة من أربعة آلاف مقاتل ففتح كل السودان واستولى عليه. على أن فتح بلاد مثل السودان التي تعد بلاد طرق للوصول إلى أجزائها المختلفة كان يحتاج إلى الاستعانة بحامية كافية لضمان طرق القوافل والحملات التي تحمل الجزية للحكومة. وبإقامة الحاميات في أنحاء بلاد النوبة أصبحت طرق التجارة بوساطة النهر والطرق المحاذية له هي التي تسير فيها التجارة آمنة. وقد دلت النقوش التي من عهد الدولة الوسطى كما كان المنتظر على أن النقل بطريق الماء كان مستعملًا

كثيرًا، وبخاصة في الحملات الكبيرة، وكان النهر محميًّا من خطر الغارات بسلسلة من الحصون نعرف منها اثني عشر حصنًا بالاسم، تمتد من سمنة العليا حتى جزيرة «بجة» (أسوان).

والمقدمات المتعلقة باحتلال الدولة الوسطى لبلاد السودان لا بد من الإدلاء بها هنا لأنها تشير مباشرة إلى الأحوال التي اقتضت تأسيس مستعمرة «كرمة» (جدار أمنمحات)، والنقوش التي عُثِرَ عليها مدوَّنة على صخور بلاد النوبة السفلى وعلى اللوحات التي من «الجبلين» التي تشير إلى العصر الذي قبل الأسرة الثانية عشرة وسنتحدث عنها فيما يلي كل على حسب مناسبته في الكلام.

(١) الأسرة الحادية عشرة

كانت الكفة الراجحة في الحروب التي قامت بين أمراء «أهناسية المدينة» الذين كان يعاضدهم أمراء «أسيوط» وبين أمراء «طيبة» في جانب حكام «طيبة» وهم الذين أسسوا الأسرة الحادية عشرة.[١]

وبعد أن قضى ملوك هذه الأسرة على كل مقاومة في داخل البلاد وأصبحت مصر من جديد موحدة الكلمة أخذت تنهج سياسة نشاط وتوسُّع في الخارج، ولدينا وثائق أثرية خاصة بتوسع مصر في بلاد النوبة وغيرها، وتدل شواهد الأحوال على أن سياسة التوسع هذه كانت قد بدأت تظهر منذ العهد المبكر من تاريخ الأسرة الحادية عشرة. فمن بين هذه الآثار منظر عثر عليه في «تل الشيخ موسى» في «الجبلين» على مسافة بضعة أميال من «أرمنت» إذ أقيم معبد صغير احتفالًا بإقامة باب عظيم لمعبد ما محلي لإظهار الفرح بإحدى انتصارات الملك «منتوحتب الثاني».

وهذا المنظر يمثل الملك «حورحزت» «منتوحتب الثاني» يضرب أربعة من الأسرى، الأوَّل يرتدي القميص المصري المعتاد، وعلى الرغم من عدم وجود كتابة عليه فإنه يمثل رجلًا مصريًّا، والثاني يرتدي قميصًا قصيرًا وتدل النقوش التي عليه أنه نوبي (ستيو) ولا يحلي رأسه بالريشة التي كان يلبسها النوبي، والثالث أسيوي ويلبس ريشة على رأسه، والرابع يلبس كذلك ريشة على رأسه ويُدْعَى تحنو (أي لوبي) وفوق المنظر المتن التالي: «إنه مسيطر على رؤساء الأرض الصعيد والدلتا والأجانب وشاطئ النيل والأقواس التسعة وكلا الْمِصْرَيْنِ».[٢]

ولدينا منظر آخر يشبه منظر «الجبلين» مثل على مقصورة للملك نفسه في «دندرة» وقد أشير فيه إلى توحيد الأرضين فنشاهد الملك يقبض على النَّبَاتَيْنِ اللذين يمثلان الوجه

القبلي والوجه البحري، ويُرَى تحت هذه الصورة فضلًا عن ذلك علامة توحيد الأرضين العادية. وفوق الملك صورة صقر يحلق وهو يمثل الإله «حور» الذي يبطش بالبلاد الأجنبية وخلف الملك نقش مهشم خاص بالبلاد الأجنبية التي هزمها الملك، ويلفت النظر بوجه خاص في هذا المتن أن أهالي البلاد الأجنبية قد وصفت بما يأتي: «والنوبيون قد أصبحوا يدفعون الضرائب». وكذلك ذكر بوضوح أهل «المزوي» و«واوات» بجانب «التمحو» (اللوبيين)[٣] والواقع أنه ينبغي علينا ألا نجعل لهذه المناظر في حدِّ ذاتها قيمة تاريخية عظيمة، غير أنها تُعَدُّ بمثابة إشارة للاهتمام العظيم والنشاط الكبير اللذين كان يظهرهما الملك في سياسته الخارجية. وقد ذكرنا من قبل في نقوش «زمي» أن النوبيين قد أصبحوا خاضعين يدفعون الضرائب لمصر دون أن يكون في مقدورنا أن نستنبط بحق أن بلاد النوبة كانت خاضعة لمصر عسكريًّا، وكذلك في عهد «منتوحتب الثاني» تكاد تكون الحالة واحدة، ولكن وجدت آثار من عهد الأسرة الحادية عشرة تدل على سياسة نشطة في الجنوب. فقد عثر في معبد «منتوحتب» بالدير البحري على قطعة من منظر يقول عنها الأثري «نافيل» إنه مُثِّلَ فيها أسير نوبي أسود،[٤] ولكن مما يُؤْسَفُ له أن الصورة ليست واضحة تمامًا، ولذلك لم يكن في مقدورنا أن نعطي عنها رأيًا قاطعًا. ويتساءل الإنسان كيف يمكننا أن نفسر من جهة أخرى تمثيل الأميرة «كمسيت» في قبرها ببشرة سوداء مع أنها مُثِّلَتْ مرة ببشرة صفراء وهذا شيء غير واضح. ومن المحتمل في هذه الحالة أن هذه السيدة قد وفدت إلى مصر من الجنوب بوصفها من سبايا الحرب أو عن طريق تجارة الرقيق ودخلت البلاد بهذه الكيفية. ولكن من جهة أخرى نجد أن الملكة «أحمس[٥] نفرتاري» التي يرجع تاريخها إلى بداية الأسرة الثامنة عشرة كانت تُصَوَّرُ باللون الأسود على الرغم من أنها مصرية بحتة على ما يظهر؛ مما يجعلنا نتخذ جانب الحذر في الحكم على الملكة «كمسيت». هذا ولا يفوتنا أن نذكر أنه قد وجدت صورة الملك «أمنحتب» والملكة «نفرتاري» ملونتين باللون الأسود وذلك في قبر من مقابر الأسرة التاسعة عشرة.[٦] والظاهر أن تفسير هذا اللون الأسود يرجع إلى اعتقاد ديني خاص وهو أن الإنسان بعد الموت يفقد دمه وعندما يعود إلى الحياة ثانية يجري في عروقه الدم كما نشاهد ذلك في صورة البقرة «حتحور» المحفوظة بالمتحف المصري فنجد «تحتمس الثالث» يقف أمام صدر البقرة بلونه الأسود، فإذا ما رضع من لبنها جرى الدم في عروقه. ولهذا نجد أن تمثالي «توت عنخ آمون» الملونين باللون الأسود وهما واقفان أمام قبره يمثلانه وهو ميت وهو في ذلك كالإله «أوزير». على ذلك يمكن تفسير

كل هؤلاء الأشخاص الذين مُثِّلُوا باللون الأسود على هذا النمط. غير أن «نافيل» قد ادَّعى أن جمجمة الأميرة «كمسيت» من سلالة نوبية أو على رأيه زنجية.[٧]

ولدينا صورة أخرى في معبد «منتوحتب»[٨] من عهد الأسرة الحادية عشرة وقد كُتِبَ معها «نحسيو» (نوبي) محضرًا جزية من المعدن الثمين في صورة حلقات. ولكن الفحص دل على أن هذه الصورة ترجع إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة.

وفي «أسوان» يوجد نقش على صخر مُؤَرَّخٌ بالسنة الواحدة والأربعين من عهد الملك «منتوحتب الثالث» جاء فيه ذكر حامل الخاتم «خيتي» الذي كان معروفًا تمامًا في «طيبة»[٩] ومما يؤسف له أن هذا النقش قد وُجِدَ مهشمًا جدًّا ولكن يفهم مما تبقى منه أنه قد أتى إلى هذه الجهة كما جاء ذكر سفن من بلاد «واوات»، وإنه على ما يظن سافر بها إلى الجنوب. وبالاختصار تدل شواهد الأحوال على أنه قد أرسلت حملة في عهده وأنها كانت في سفن. وهذا يدل على نشاط السياسة الخارجية للأسرة الحادية عشرة في بلاد النوبة.

وحامل الخاتم «خيتي» هذا كان قد قام بحملة في بلاد النوبة وقد تحدثنا عنها عند الكلام على منظر «شط الرجال» بالتفصيل.[١٠] وخلاصة القول أن هذا المنظر يمثل عودة حملة من بلاد النوبة ولا يمثل خلافًا في داخل البلاد، ولا نعلم عن هذه الحملة شيئًا، ولكن الظاهر أن «خيتي» كان قائدها وكان عائدًا مع رجاله في عام ٣٩ من حكم «منتوحتب» من حملته هذه.

ولدينا كذلك في بلاد النوبة بعض نقوش دُوِّنَتْ على الصخور خاصة بعهد هذا الملك، فمن ذلك مجموعة النقوش الموجودة في إقليم «دهميت» (على مسافة عشرة كيلو مترات جنوب «أسوان») في قرية «أبيبسكو» وقد كشف عنها «ويجول» ونقلها بسرعة ثم نقلها فيما بعدُ الأثري «ريدر»[١١] نقلًا صحيحًا. وهذه النقوش كُتِبَ نصفها بالخط الهيراطيقي على غرار نقوش «حتنوب». والنقش الأول وهو الوحيد الذي نقش نقشًا غائرًا ولا يزال محفوظًا حفظًا جيدًا وقد كتب عكسيًّا وجاء فيه: «الأمر (حملة) الذي صدر لـ«ثمار» في السنة … (؟) وقد بدأت أحارب في عهد «نب-حبت-رع» بوصفي جنديًّا عندما كان يسير شمالًا نحو «بن» وقد سار معي ابني إلى الملك وقد استولى الملك على كل الأراضي. وقد فكر في ذبح أسيوي «زاتي» (يحتمل أن المقصود هنا بلاد «زاهي»). وقد اقتربت من «طيبة» في عودتي (؟) ولكن النوبيين عادوا. وقد هزمت زاتي وعلى ذلك أقلع جنوبًا».

والنقش الثاني مهشم تمامًا ولا يمكن أن يقرأ منه الإنسان إلا بعض ألفاظ منها «سافر جنوبًا … وعاد إلى الجنوب مع الناس».

والنقش الثالث هشمت بداية أسطره ولم يمكن فهم محتوياته وجاء فيه ذكر بلاد تدعى «معا» وبدو الرمال و(؟) وبلاد «واوات». هذا وأشير فيه إلى حرب كما أشير فيه إلى أن «ثماو» سافر نحو الشمال. وفضلًا عن ذلك يُحتمل أنه ذكر فيه الاستيلاء على مقاطعة، وكذلك جاء ذكر ابن الملك وجيشه الذي أحضره.

والنقش الرابع في حالة لا بأس بها وجاء فيه: «لقد انحدرت في النهر إلى جهة «طيبة» ووجدت الناس على الشاطئ واقفين وقد ظنوا أنهم سيقومون بحرب؟ وهربوا أمامي ...».

أما النقوش من رقم خمسة إلى سبعة فلم يَبْقَ منها إلا القليل وهي غير مفهومة.

ومن الطبيعي أنه لا يمكننا أن نصل إلى صورة مفهومة من المتون السبعة السابقة ومن الجائز أن المقصود من النقشين الأول والرابع وهما اللذان يمكن أن نقرأ منهما شيئًا ما يأتي: كان في قبضة «ثماو» جنود مساعدون من النوبيين يشن بهم حربًا للملك «منتوحتب» على بلاد «زاتي» التي يُحتمل أن تكون هي بلاد «زاهي» في آسيا، وبعد اعتلاء الملك العرش سافر إلى «طيبة» يتبعه نوبي كان ذا شهرة حتى إن اسمه لم يُذكر. وقد عاد هذا النوبي إلى «طيبة» ثم عاد إلى وطنه. وعندما وصل «ثماو» مع جيشه من الجنود المرتزِقة إلى «طيبة» فزع الأهالي الذين كانوا واقفين على الشاطئ وظنوا أنه عدوٌّ فَوَلَّوُا الأدبار أمام «ثماو» هذا.

هذا ما يمكن فهمه، على أننا لسنا واثقين من أن هذا المعنى هو الحقيقي، وقد فهم الأستاذ «ريدر» هذا المتن بصورة أخرى إذ يقول إن المتن يقص علينا أن «نب حبت رع» ليس موحدًا مع الملك بل كان تابعًا له، أي كان يُعْتَبَرُ ولي عهد، ولكن استنباط «ريدر» جاء من سوء فهم المتن.

وإذا كان المعنى الذي استنبطه «سيف زودربرج» لهذا المتن وهو ما لخصناه فيما سبق هو المعنى الصحيح، فإن «ثماو» كان في قبضته جيش من الجنود المرتزِقة لمساعدة «منتوحتب» الثاني في حرب على آسيا؛ وذلك ينبئ بأن بلاد النوبة كانت في مصافاة مع مصر في هذا الوقت. ولدينا نقش آخر عُثِرَ عليه في بلدة «بلاص» يشير إلى هذا الاتجاه السلمي في بلاد النوبة.[١٢] ومما يؤسف له أن كل نهايات الأسطر في هذا المتن وُجِدَتْ مهشمة حتى أصبح من الصعب فهم المتن في مجموعة وترجمته ترجمة كاملة، ففي السطر الثاني نقرأ: «وسافرنا منحدرين في النهر بعد أن هزمنا العدو»، وفي السطر الثالث نقرأ: «إنهم أَتَوْا إليك منحنين ومقبِّلين إياك من كل أعضائك؛ ومن أجل هذا ينبغي

أن يكون قلبك هادئًا في جسمك والجنوبيون …»، وفي السطرين السادس والثاني عشر قيل إن «واوات» والواحات قد ضُمَّتْ إلى الوجه القبلي، «ولا يوجد ملك كانت تُدْفَعُ له الجزية من قبل»، وفي السطر الثامن جاء: «إن الطرق المغلقة التي في البلاد الأجنبية قد فُتِحَتْ لك».

ومن هذا النقش نفهم كما فهمنا من نقش «ثماو» السابق أنه كانت توجد بين مصر وبلاد النوبة علاقة ولكن بصورة مبهمة.

ولا يمكن الاستنباط مما سبق أن بلاد النوبة السفلى كانت مُنْضَمَّةً إلى مصر أو أنها محتلة عسكريًّا، كما أنها لم تكن كذلك في عهد نقوش «زمي» و«منتوحتب الثاني». ولا أدل على ذلك من العبارة التي جاءت في سياق الكلام السابق وهي أن هذه البلاد لم تكن تدفع الجزية، ومن المحتمل إذن أن أمراء بلاد النوبة السفلى كانوا مضطرين بعد غزوة أو أكثر لبلادهم إلى دفع ضرائب دون أن تكون بلادهم قد احْتُلَّتْ عسكريًّا، ونشاهد مثل هذه الحالة في العهد الإسلامي، حيث نجد أن بلاد النوبة الحرة كانت تدفع جزية سنوية معينة.[١٣] ولا يبعد أن يكون ما جاء في المتون السابقة من أن بلاد النوبة كانت تدفع الضرائب لمصر من هذا القبيل؛ فيكون ما جاء في نقوش «بلاص» دليلًا على تنفيذ نظام كان متبعًا من قبل.

ولا نزاع في أن الحروب الداخلية التي نشبت في نهاية الأسرة الحادية عشرة قد أودت بها إلى الدمار كما فصَّلنا القول في ذلك في الجزء الثالث من مصر القديمة ص ١٤٠–١٤٨.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن متون «اللعنة» التي نشرها الأستاذ «زيته»[١٤] قد يرجع زمنها إلى هذا العهد، غير أن المتون المشابهة التي نشرها «بوزنر» يرجع تاريخها للأسرة الثانية عشرة؛ ولذلك فإن تاريخ «زيته» للمتون التي نشرها أصبح يعتوره الشك.[١٥] ويقول الأثري «سيف زودربرج»:[١٦] إذا كان ينبغي علينا أن نؤرِّخ متون اللعنة هذه بعهد نهاية الأسرة الحادية عشرة فلا بد من أن الرجال الموالين لبيت الملك القديم في عهد الأسرة الحادية عشرة كانوا قد كتبوا هذه المتون على قطع من الخزف ووضعوها في قبر أحد الملوك الذين سُمُّوا باسم «منتوحتب» وأن هذه النقوش كانت إذن أحد الاحتجاجات الأخيرة التي احتجت بها الأسرة الفانية على الأسرة الثانية عشرة التي كانت لا تزال في دور النهوض في تلك الفترة، وذلك أنه جاء ضمن الأعداء — وهم على وجه عام الأمراء والأقوام الأجانب — أسماء «أمنمحات» و«سنوسرت». ويلحظ أن معظم الأمراء الأفريقيين

والأقوام الذين ذُكروا في هذه المتون غير معروفين لدينا. هذا ونجد بعض تأثير مصري ضعيف في أسماء هؤلاء القوم، ففي حالة نجد أن نوبيا يحمل بجانب اسمه الأصلي اسم علم مصري، وفي حالة أخرى نجد رجالًا من قوم المزوي يسمى «واح أب» (الهادي). ومما يلفت النظر أن الاسم الأخير لم يكن مثل سابقه أمير قوم بل مجرد أحد أفراد «المزوي». وبالنسبة للدور الذي كان يلعبه هؤلاء «المزوي» كما رأينا من قبل نُرَجِّحُ أن هذا «المزوي» المسمى «واح أب» (الهادي) كان من الجنود المرتزِقة وكان يقوم بدور هام في العصر المضطرب الذي وقع بين التغيير الأسري؛ ولذلك فإنه بمكانته هذه في مصر قد اتخذ لنفسه اسمًا مصريًّا.

(٢) فتح مصر لبلاد النوبة على يد ملوك الأسرة الثانية عشرة

أصل الأسرة الثانية عشرة: تدل شواهد الأحوال على أن «أمنمحات الأوَّل» مؤسس الأسرة الثانية عشرة هو نفس «أمنمحات» وزير الفرعون «منتوحتب الرابع»[١٧] والمرجح أن سلطان هذا الوزير أخذ يعظُم ونفوذه يزداد ويقوى في عهد «منتوحتب» هذا حتى تمكن في نهاية الأمر من الاستيلاء على عرش الملك عنوة، ويقوى هذا الظن أن «منتوحتب» الرابع هذا، كان مغتصِبًا المُلكَ ولم يكن صاحب حق وراثي فيه، على أنه من الجائز أن يكون «أمنمحات» قد تولى العرش بعد وفاة «منتوحتب» مباشرة بفضل ما كان له من قوَّة ونفوذ في البلاط، ويعدُّ هذا الرأي الأخير مقبولًا جدًّا إذا ثبت أن «أمنمحات» هذا ينتسب إلى أحد فروع الأسرة الملكية الشرعية القديمة.[١٨]

ويميل الأستاذ «ينكر» إلى أن أم «أمنمحات» أو «أميني» كانت من أصل نوبي كما ذكر الكاهن المرتل «نفر رهو» في نبوءته التي قيل إنها أُلْقِيَتْ أمام الملك «سنفرو»[١٩] عندما يقول: «ابن امرأة من «تاستي» ولد في «نخن» (الكاب)». والظاهر أن أم الملك هذه تُدعى على ما يظهر «نفرت» وذلك لأنه وُجِدَتْ مائدة قربان في هرم هذا الملك «باللشت» جاء عليها النقش التالي: الأميرة أم الملك «نفرت». ومما يلفت النظر أنها لا تحمل أي لقب ملكي، ويمكن تفسير ذلك بأن «أمنمحات» قد أسس أسرة جديدة[٢٠] والظاهر أن أم الملك كان لها اسم مصري، غير أن هذا لا يحدثنا بشيء عن أصلها؛ لأنها لو كانت نوبية الأصل لما كان لها اسم أجنبي بوصفها أم الملك. والواقع أن التعبير «تاستي» يحمل معناه الأصلي، أي نوبي، وقد يعني المقاطعة الأولى من مقاطعات الوجه القبلي. غير أن المعنى الأقرب للذهن هو أنها كانت نوبية الأصل.

ومن جهة أخرى يجب ألا يغرُب عن ذهننا أن قصة «نفررهو» لا تخرج عن كونها قصة أسطورية؛ ولهذا ينبغي أن نكون على حذر عند التحدث عنها من الوجهة التاريخية. فنعلم أن بلدة «نخن» (الكاب الحالية) كانت منذ أقدم العهود تحمل معنى خاصًّا بالنسبة للملك. فمن المحتمل أن كل هذه القصة التي أوردها هذا الفيلسوف الأديب تعني ببساطة أن مصريًّا صميمًا قد وُلِدَ في البلد الذي كان يُتَوَّجُ فيه الملك في الأزمان القديمة (أي نخن) فنُسِبَ من أجل هذه الولادة إلى الملك، وهذا رأي ضعيف.[٢١] والرأي الصواب هو الذي أدلى به «ينكر» إذ يقول: إن طراز محيا الملك الجديد يحتمل أنه من أصل نوبي وبخاصة أن عظم الوجنتين فيه ما يدل على أنه من دم نوبي.[٢٢]

الملك أمنمحات الأوَّل وحملاته في بلاد النوبة (٢٠٠٠–١٩٧٠ق.م.).

تدل ظواهر الأمور على أن «أمنمحات الأوَّل» قد وطد سلطانه في بلاد النوبة بصفة جدية، ولدينا نقوش عدة تؤكد لنا ذلك، ونخص بالذكر منها: أولًا تلميحه بذلك في تعاليمه المنسوبة إليه وهي التي ألقى فيها على ابنه دروسًا في الحياة فيقول: لقد أذللت الأسود، واصطدت التماسيح، وقهرت أهل «واوات»، وأسرت قوم «المزوي» إلخ.[٢٣]

ومن المحتمل أن الجنود المرتزِقة الأجانب قد لعبوا دورًا في الحروب الداخلية التي أدَّت إلى تسلُّط ملوك الأسرة الثانية عشرة على البلاد. والواقع أنه لدينا متن مهشم جدًّا في مقبرة «خنوم حتب الأوَّل» في «بني حسن».[٢٤] ومن المحتمل أن هذا النقش يصف حملة نهرية وقد جاء فيها ذكر النوبيين (نحسيو (؟)) و(ستتيو؟) بصورة غامضة. وقد اختلف المؤرخون في تفسير ذلك فيقول «إدورد مير»[٢٥] إن «ستتيو» هم الأسيويون ويقول «ريزنر» إن «ستتيو» هم أهالي «الشلال الأوَّل».

وقد قص علينا «خنوم حتب» أنه ظهر مع الملك في أسطول يبلغ نحو عشرين سفينة مصنوعة من خشب الأرز وأنه هزم العدوَّ في مصر، وأخضع السود والأسيويين الذين كانوا في معسكر العدوِّ، واستولى على الأراضي المنخفضة والأراضي العالية في كلا القطرين. وقد كافأ الفرعون «خنوم حتب» على ذلك بأن جعله أميرًا على بلدة «منعات خوفو» (بني حسن) التي كانت إلى هذا الوقت تابعة لمقاطعة الغزال وفصلت عن حكومة هذه المقاطعة، وكذلك ضم إليه إدارة الصحراء الشرقية، ولقد امتدت سيطرة هذه البلدة حتى شملت كل مقاطعة «الغزال» (بالقرب من المنيا الحالية)، والظاهر أن أسرة الأمراء القديمة في هذه الجهة كانت قد انضمت إلى المعسكر المعادي للفرعون فخلعوا من حكم

هذه المقاطعة؛ ولذلك يظن أن السود والأسيويين الذين ذُكِرُوا في هذه الحروب ليسوا إلا جنودًا مرتزِقة كانوا يحاربون في المعسكر المُعادي للفرعون.[٢٦]

وليس لدينا مصادر كثيرة تحدثنا عن علاقة «أمنمحات الأول» السياسية ببلاد النوبة، ولذلك أصبح من الصعب علينا حتى الآن أن نحدد على وجه التأكيد التغييرات التي طرأت في عصره على علاقاته بهذه البلاد. وسنذكر أهمَّ هذه المصادر فيما يلي:

أوَّلًا: وُجِدَ له نقش مختصر على صخرة بالقرب من «كرسكو» عند مدخل «وادي جرجاوي» يدل على وصول جيوش الفرعون إلى هذه البقعة في السنة التاسعة والعشرين من حكم ملك القطرين القبلي والبحري «سحتب أب رع» «أمنمحات الأول» عاش مخلدًا. لقد جئنا لنهزم أهالي «واوات».[٢٧] وهذه هي الجملة الوحيدة المؤكدة التي وصل إلينا عنها متن. ولا نعلم إذا كان هذا الفرعون قد قاد الجيش بنفسه في هذه الحملة أو ذهب جيشه بقيادة أحد عظماء رجال دولته، والمرجَّح هو الرأي الأخير لأن «أمنمحات» كان قد تقدم في السن في هذه الآونة. هذا ويوجد في بلاد النوبة كذلك نقوش أخرى من عهد «أمنمحات الأول» ولكنها ليست كثيرة كما هي الحال في عهد الملوك المتأخرين من هذه الأسرة.

فمن المحتمل أن اسم هذا الملك قد ذكر في نقش بالقرب من «ماريه» الواقعة شمالِي «جرف حسين».[٢٨]

وكذلك يوجد نقش بين «أسوان» و«الفيلة» على الصخر مؤرخ بالسنة الثالثة والعشرين من حكمه.[٢٩] يضاف إلى ذلك أن اسمه قد نُقِشَ في المحاجر الواقعة في الشمال الغربي من «توشكى». وقد ذكر هنا مع وارثه لعرش الملك «سنوسرت الأوَّل» ولكنه نعت بالعبارة التالية: «مُعطى الحياة أبديًّا» مما يدل على أن ابنه «سنوسرت الأول» هو الذي نقشها.

وقد وجد «ريزنر» في «كرمة» من بين الأواني المصنوعة من المرمر التي وجدت مهمشة في «دفوفة» قطعة عليها: «أمنمحات الأول»، وكذلك قطعة عليها اسم خلفه. وفي عهد «أمنمحات الثالث» عثر على نقش يتحدَّث عن جدار «أمنمحات» ويذكر لنا أنه قد أسس مبنى في «كرمة» وعلى ذلك فمن الجائز أنه يُنسب إلى «أمنمحات الأول» ومن المحتمل أن هذا المبني يُنسب إلى «أمنمحات الثاني»،[٣٠] على أنه من الجائز أن الآنية التي عليها اسمه قد جلبت فيما بعدُ إلى «كرمة» عن طريق التجارة.

ولا نزاع في أن العثور ثانية على المحاجر النوبية الواقعة في الصحراء في الجهة الشمالية الغربية من بلدة «توشكى» وقطع الأحجار منها وإرسالها عن طريق النيل في

السفن إلى مصر يدل دلالة واضحة على أن الحكومة المصرية كان لها سلطان عظيم على سكان بلاد النوبة في تلك الفترة؛ وذلك لأن المصري كان عندما يقابل صعوبات في بلاد النوبة السفلى من هذه الناحية يرسل الأحجار عن طريق الصحراء مباشرة إلى «أسوان».

ويدل نقش «كرسكو» الذي يقول: «لقد أتينا إلى «واوات» لنقهرها» على أن العلاقات بين البلدين لم تكن علاقات ودٍّ ومصافاة، بل كانت هناك حرب مع النوبيين كما نوَّه «أمنمحات» إلى ذلك في تعاليمه، وفضلًا عن ذلك نعلم أن خلف «أمنمحات الأول» وهو «سنوسرت الأول» قد سار على رأس حملة لاحتلال بلاد النوبة. وقد كان همُّ المصري في بلاد النوبة منحصرًا في استغلال موادها الغفل وبخاصة مناجم الذهب التي كانت تزخر بها تلك الجهات، وكان على المصري للحصول على ذلك إما أن يستغل النوبي بطريقة منظمة فيستولي على ما لديه من مواد غفل باعتبارها ضريبة يدفعها له أو كان يعمل بالتعاون معه لاستخراجها أو على الأقل كان لا يمنع من الحصول على هذه المنتجات.

وكان السكان الوطنيون الذين يمثلون ثقافة مجموعة C كما قلنا من قبل أكثر مدنية وأشدَّ بأسًا بدرجة عظيمة من مجموعة ثقافة B التي تحدثنا عنها فيما سبق. إذ نجد أنهم قد وقفوا في وجه أطماع المصريين بقوَّة وبأس شديدين، فقد رأى النوبيون في مطامع المصريين خطرًا يهدد استقلالهم وخشُوا أن يتسلط المصريون عليهم ويخضعوهم لسلطانهم التام وبذلك يُقْضَى على حريتهم كلية. وتدل الأحوال على أنهم في عهد الأسرة الحادية عشرة كانوا يئنون من ضغط المصريين عليهم مما جعلهم يدفعون جزية كما كانوا يوردون لهم السلع أو يبيعونها، غير أن هذا النظام قد ظهر في أعينهم عدم جدواه. ومن الجائز أنه قد حدثت أعمال غير مرضية من كلا الجانبين ممَّا أدى إلى سوء التفاهم واضطراب العلاقات بين البلدين، ولا أدل على ذلك من أثنا لم نجد في هذا الوقت تبادلًا تجاريًّا بين البلدين يسير على طريق الودِّ والمهادنة، كما يبرهن على ذلك ثقافة مجموعة C إذ لم نجد تقريبًا أي عنصر من عناصر التجارة المصرية قد ورد إلى بلاد النوبة، وعلى ذلك لم يكن لمصر أمام هذا الموقف إلا أن تحتل بلاد النوبة احتلالًا عسكريًّا. وذلك لأن المصري كان يرى بقاء الطريق مفتوحة إلى الأماكن التي يمكنه أن يصرف فيها تجارته من الأهمية بمكان، وعلى ذلك فلا بد من تهدئة الأحوال في كل بلاد النوبة السفلى والإشراف عليها إشرافًا قويًّا حتى يتسنى بذلك سير القوافل التجارية دون عائق أو مناقس. وعلى الرغم من أنه لا يمكننا القطع بأنه في عهد «أمنمحات الأول» كانت توجد مستودعات تجارية في «كرمة» فإن التجارة في هذا الإقليم كانت قد بدأت تترعرع، مما

جعل المصري يري لزامًا عليه أن يُخضع سكان بلاد النوبة السفلى لإرادته حتى تسير تجارته وتنمو.

سنوسرت الأوَّل وبلاد النوبة (١٩٨٠–١٩٣٦ق.م.)

والظاهر أن «أمنمحات الأوَّل» عند توليته عرش الملك كان طاعنًا في السن فرأى أن يُوَكِّلَ أمر قيادة الحروب مع بلاد النوبة وغيرها لابنه وخلفه على العرش «سنوسرت الأوَّل». والواقع أنه لما حضرت الوفاة «أمنمحات الأول» كان «سنوسرت» ابنه يقود جيشه في موقعة حربية مع بلاد «لوبيا» وتتضح لنا سياسة «سنوسرت» الخارجية بعد تولية عرش الملك مما لمح به في قصة «سنوهيت»[٣١] إذ يقول في متن هذه القصة «إنه هو الذي أخضع البلاد الأجنبية، والذي سيفتح البلاد الجنوبية».

محاجر صحراء النوبة الغربية:

يظهر أن أول من ممَّر محاجر صحراء النوبة الغربية في عهد الدولة الوسطى هو الملك «سنوسرت الأول». وقد كُشِفَ عن موقع هذه المحاجر حديثًا، وتقع على مسافة ٦٥ كيلو مترًا في الشمال الغربي من «أبو سمبل» أي على خط عرض ٢٢/٤٩ شمالًا وخط طول ٣١/١٦ شرقًا. وقد جاء كشفها عن غير قصد، فلقد كان رجال من شرطة الجيش المصري يمرون في هذا المكان، فلفت نظرهم قطعتان من الحجر عليهما نقوش ظهر أنها تحمل ألقاب بعض ملوك الدولة القديمة ومن بينها اسم الفرعون «زد فرع». وقد عثر في هذه المحاجر على حجر الديوريت الجميل الذي كان يستعمله «خفرع» لصنع تماثيله العظيمة، وقد كان مصدر هذا الحجر مجهولًا حتى كُشِفَ عنه كما ذكرنا، وكذلك عُثِرَ على أنواع أخرى من الحجر الصلب في هذه البقعة، مثل الجرانيت الوردي ذي الحبات الدقيقة وحجر الكوارتسيت الأبيض القاتم.

وقد عُثِرَ في هذا المكان على لوحة من الحجر الرملي الأسمر نُقِشَ عليها طُغْرَاءُ كل من «أمنمحات الأول» وابنه «سنوسرت الأول».

وفي محاجر الجرانيت الواقعة في هذه البقعة وُجِدَتْ لوحة لهذا الفرعون مؤرَّخة بالسنة العشرين، الشهر الثاني، فصل الحصاد والجزء الأسفل منها غامض. يُضاف إلى ذلك لوحة أخرى من الحجر الرملي الأصفر، أقامها لهذا الفرعون موظف يدعي «حننو»

بن «منتوحتب» ويلقب أعظم عشرة الجنوب، وقد نقش عليها: «محبوب «حتحور» سيدة الصحراء له كل الحماية والحياة الخالدة».[٣٢]

بعوثه إلى وادي الهودي:

أرسل «سنوسرت الأول» عدة بعوث إلى «وادي الهودي» لاستحضار حجر الجمشت في السنوات العشرين، والحادية والعشرين، والثانية والعشرين، والرابعة والعشرين، والثامنة والعشرين، والتاسعة والعشرين من حكمه. وقد ترك لنا رجالُ هذه البعوث لوحات هامة عمَّا قاموا به في هذه الجهة، ففي السنة العشرين من حكم هذا الفرعون ترك لنا ثلاثة ممن قاموا بالبعثة ثلاث لوحات: الأول منها لأعظم عشرة الجنوب المسمى «منتوحتب» بن «حننو» بن «بيبي» وقد صنعت من الجرانيت الأسود.

(١) **نص لوحة «منتوحتب»:** السنة العشرون في حكم جلالة الصقر «الملك»، ملك الوجه القبلي والبحري «خبر كارع» بن «رع» «سنوسرت» حور العائش أبديًّا خادمه الحقيقي وعزيزه الذي يفعل كل ما يمدحه دائما وكل يوم، أعظم عشرة الجنوب، الذي يمثل «ماعت» (العدالة). «منتوحتب» بن «حننو» بن «بيبي» يقول: أرسلني سيدي له الحياة والصحة والسلامة لأحضر الجمشت من أرض النوبة، واستوليت من جديد على الأماكن التي كنت قد عملتها، وقد أحضرت منه كثيرًا جدًّا من منجم الأحجار التي من الجمشت، ولقد كانت قوة رب القصر وامتيازه هما اللذان رعياني، ولرهبته انحنى أهل الأراضي الأجنبية، وسيفه يُخضع كل الأراضي ليشتغلوا له، وأُعطي (أي الملك) الصحراء فيها بأمر «منتو» ساكن «أيون» (أرمنت) و«آمون» رب تيجان الأرضيين ليبقى خالدًا.

وقد عاد «منتوحتب» هذا مرة أخرى في العام الرابع والعشرين من حكم هذا الفرعون، فكتب على نفس اللوحة ما يأتي: السنة الخامسة والعشرون من حكم جلالة «حور» (المسمى)، حياة المواليد، وصاحب الإلهتين، (المسمى) حياة المواليد، ملك الوجه القبلي والبحري (المسمى) «خبر كارع» (روح «رع» تأتي إلى الحياة) ابن «رع» (المسمى) «سنوسرت» الإله الطيب رب الأرضيين الحي إلى الأبد، العودة لمتابعة (استخراج) الجمشت إنه خادم سيده ومحبوبه إلخ.

(٢) **لوحة قائد الجيش «أنتف»:** وفي نفس السنة العشرين ترك لنا قائد الجيش «أنتف» لوحة لم يكمل كتابتها وقد جاء فيها: «السنة العشرون من حكم «حور» حياة المواليد،

الإله الطيب، رب الأرضين، ملك الوجه القبلي والبحري «خبر كارع» عاش مثل «رع» مخلدًا. حامل الخاتم وقائد الجيش «أنتف» خادمه الذي يثق فيه، والذي يفعل كل ما يرضيه، وعشت خاليًا من الذنب «أنتف» المبرأ».

(٣) لوحة رئيس الخزانة «أنتف إقر»: وكذلك ترك لنا لوحة من الجرانيت الأسود رئيس الخزانة غير أن نقوشها متآكلة، وقد جاء عليها: «السنة العشرون رئيس الخزانة ووكيل حامل الخاتم «وني» عملت «هذه اللوحة» لقائد جيشه الذي يعمل كل ما يرضيه دائمًا، وكل يوم، حاكم المدينة (طيبة) والوزير، وكاتم أسرار بيوت الفرعون «أنتف إقر» له الحياة والصحة والسلامة، لقد أرسلني لأحضر الجمشت والذهب … وقد أحضرت منها (الكثير جدًّا) …».

وفي السنة الواحدة والعشرين ترك لنا «منتونسو» لوحة من الجرانيت منقوشة نقشًا جميلًا جاء فيها: السنة الواحدة والعشرون من حكم جلالة «حور» حياة المواليد الإله الطيب «سنوسرت» الحي الخالد. إنه خادمه وموضع ثقته بحق الذي يفعل كل ما يرضيه دائمًا وكل يوم. لقد تبع خطوات سيده في الطرق المعبدة التي أحسن صنعها الخادم «منتونسو» بن «حتبي» بن «آدن» وفي نهاية اللوحة نجد رسم الملك.

فهل هذا يُشعر بأن الفرعون نفسه قد زار هذه المناجم؟ وهذه اللوحة محفوظة الآن بمتحف «أسوان».

(٤) وفي السنة الثانية والعشرين ترك شخصان لوحتين من الجرانيت: أولهما يُدعى «سنوسرت» بن «وني» وقد جاء عليها ما يأتي: «السنة الثانية والعشرون، الخروج لإحضار الجمشت لحور (أي الملك) حياة المواليد الإله الطيب ابن «رع» ملك الوجهين القبلي والبحري «خبر كارع» بن «رع»، «سنوسرت» عاش أبد الآبدين خادمه «سنوسرت» ابن «وني»»، مما يدل على أن خادمه كان معه في الرحلة. أما اللوحة الثانية فهي لشخص يُدعى «سبك» بن … وقد نقش عليها ما يأتي: «السنة الثانية والعشرون، ملك الوجهين القبلي والبحري «خبر كارع» بن «رع»، «سنوسرت» معطي الحياة مثل «رع» مخلدًا «سبك» بن … الممدوح … نزل في سلام».

(٥) وفي السنة الرابعة والعشرين قامت حملة خامسة يقول فيها قائدها: «إنه تابع البحث عن الجمشت» والظاهر أن كاتب اللوحة قد كتبها على عجل إذ نقش اسم «سنوسرت» بدون طُغْرَاءَ.

(٦) ولدينا لوحة من السنة الثامنة والعشرين باسم «وسدي»: ويلقب رئيس القوم، ولم يُذكر فيها شيء غير الألقاب الفرعونية والصيغ المعتادة في إخلاصه للفرعون، وكان معه خادمه المخلص الذي يثق فيه «حرور» قاطع الأحجار.

أما في السنة التاسعة والعشرين فقد وُجِدَ على ما يظهر لوحتان من عهده: الأولى أقامها موظف يدعي «حننو» وهي من الحجر الرملي وقد جاء عليها ما يأتي: في السنة التاسعة والعشرين خرج إلى هذه البلاد أعظم عشرة الوجه القبلي «حننو» ليته يعيش ويقوى ويصح. (ومعه) خادمه الأمين الذي يعمل كل ما يمدحه (سيده) في خلال كل نهار المسمى «سنب حا أشتف».

أما اللوحة الثانية فصاحبها كذلك «حننو» بن «منتوحتب» وهو نفس الموظف صاحب اللوحة السابقة وقد جاء عليها ما يأتي: «السنة التاسعة والثلاثون أعظم عشرة الوجه القبلي «حننو» بن «منتوحتب» ليته يعيش ويقوى ويصح (ومعه) خادمه الأمين الذي يعمل كل ما يمدحه (سيده) كل يوم «شمسو سعنخ». ومن ذلك نعلم أن اللوحتين قد عُمِلَتَا للموظف «حننو» ومعه خادماه أي إن الثلاثة كانوا قد ذهبوا سويًّا إلى هذه المناجم.

لوحة «حور»: وأعظم هذه اللوحات التي تُنْسَبُ إلى عهد هذا الفرعون لوحة أقامها موظف يُدْعَى «حور» أرسله «سنوسرت» لإحضار الجمشت من صحراء النوبة الجنوبية الشرقية من وادي «الهودي» وهذه اللوحة مصنوعة من الحجر الجيري الأبيض وهاك النص الذي نقش عيها: «يعيش «حور» حياة المواليد، صاحب السيدتين، (الصل والعقاب)، حياة المواليد، ملك الجنوب والشمال «خبر كارع» (روح «رع» تأتي للوجود) بن «رع» «سنوسرت» الإله الحسن، الذي يذبح «الأونتي» (سكان الصحراء الجنوبية الشرقية) ويقطع رقاب من في الأراضي الأسيوية، الملك الذي يطوق «حانبو» (أقوام الشمال) والذي يصل إلى نهاية حدود المقهورين وحدود السود، والذي يهشم رءوس الأسرة الثائرة، موسعًا تخوم مصر مفسحًا بذلك المجال (لبلاده)، وهو الذي وَحَّدَ بجماله الأرضين، رب القوة والحروب في البلاد الأجنبية، وسيفه قد أخضع الثوار، ومن ثاروا عليه ماتوا بسيف جلالته. وهو الذي وضع أعداءه في الأغلال، وهو أمير وديع الخلق لمن يخدمه، ومعطٍ نفس الحياة من يبتهل إليه، والبلاد تقدم له طعامها، و«جب» (إله الأرض) أفضى إليه بأسراره، والبلاد الأجنبية أصبحت تابعة (له)، والجبال صارت مبتهجة (به) وكل مكان قد أفضى إليه بأسراره، مبعوثوه عديدون في كل الأراضي، ورسله يفعلون ما يريد،

وأملاكه هي السهل والحزن ويدين له ما يحيط به قرص الشمس، وإليه تجلب العين وما فيها (العين هنا عين حور وهي تعني كل شيء حسن)، وهي سيدة الموجودات مع كل ما خلقته.

ملك الوجه القبيل والوجه البحري. «خبر كارع» الذي يحب «حور النوبة»، والذي يمدح السيدة التي على رأس النوبة معطي الحياة والثبات والصحة مثل «رع» مخلدًا.

خادمه الأمين حقيقة، حامل خاتم ملك الوجه البحري والسمير الوحيد ومدير مخزني الغلال، ومدير حظيرتي الدجاج، ومدير بيتي التبريد، ومدير ذوات القرن، وذوات الحوافر، والطيور والسمك، ومدير البيت «حور» يقول: لقد أرسلني السيد (هذا الإله رئيس الأرضين) بأمر يتعلق بأعماله الطيبة في هذه الأرض وقد كان الجيش خلفي (أي يشد أزري) لأجل أن أقوم بما أراده خاصًّا بهذا الجمشت الذي في أرض النوبة وقد أحضرته من هناك بكميات عظيمة، وعندما جمعته مثل فم المخزنين (أي مثل القطع التي تسد فم المخزنين) جُرَّ بزحَّافات وحُمِلَ على نقالات، وكل «أنتيو» من أرض النوبة الذين سيدفعون الجزية يعمل خادمًا حسب رغبة هذا الإله سيبقى جنسه أبد الآبدين.[٣٣]

وفي جنوب الشلال الأول عُثِرَ له على لوحتين في معبد «بهين» ويُعَدَّانِ من أهم آثاره، وهذا المعبد قائم أمام بلدة «وادي حلفا»، أقامه هذا الفرعون تخليدًا لذكرى انتصاراته على أعدائه، واعترافًا منه بالجميل لآلهة هذه المنطقة.[٣٤] وتوجد لهذا الملك آثار مؤرخة بسني حكمه من السنة الأولى حتى السنة الخامسة والأربعين.[٣٥]

وكانت أولى نتائج أول حرب شنها «سنوسرت» على النوبيين أن نظم من جديد العلاقات بينه وبين مقاطعة الشلال الأول فنصب أمير مقاطعة جديدًا في «إلفنتين» يدعى «سرنبوت» في «إلفنتين»[٣٦] وقبر هذا الأمير بالقرب من قبة الهواء مقابل النهاية القصوى من جزيرة «إلفنتين» ويحمل رقم ٣٦ وهو ابن «سات ثني» ويعاصر الملك «سنوسرت الأول» وهذا القبر محفور في الصخر في هذه الجهة ويدل على ما كان له من مكانة عظيمة في تلك الفترة وقد كان سلطانه يمتد إلى الجهات التي خلف «الشلال الأول» ولذلك كان يُدعى المشرف على كل الأراضي الأجنبية والمشرف على التراجمة (رئيس القوافل). وقد خلف لنا ترجمته لنفسه فاستمع لما يقول: الأمير الوراثي والحاكم وحامل خاتم الملك للوجه البحري والسمير الوحيد، رئيس كهنة الإلهة «ساتيس» سيدة «إلفنتين» والمبجل من «أنوبيس» ومن أنجبه «سات ثني» يقول: أنتم يا من يعيشون على الأرض ومن سيمرون على القبر الصاعدين منكم في النهر والمنحدرين فيه، إذا أردتم أن تكونوا

محبوبين من إلهكم فعليكم أن تصلوا إلى إلهكم من أجل قربان جنازي لروح الحاكم «سرنبوت».

وهو يقول: إني إنسان أرضيت قلب الملك في المعبد وإني فم «نخن» في معبد «ساتيس» ونخبت في معبد «بوتو» (معبد النار) والرئيس الأعلى للكهنة الجنازيين وحامل خاتم ملك الوجه البحري والسمير الوحيد، وكاتم سر الملك في الجيش، والذي يسمع ما يسمعه الواحد فقط، والذي يأتي إليه كل الأرض (أي كل واحد) إلى المكان الذي خضع فيه أعداء الملك. والواحد الذي يدخل في قلب الملك (ثقته) …

وإني إنسان حملت الخاتم الملكي في كل الأحوال الخاصة ببلاد «كوش» (؟) (وفي رواية أخرى كل البلاد الأجنبية) للزوجة الملكية والذي يقدم التقارير عن الضرائب من بلاد «مزا» (بجا) بوصفها جزية من أمراء البلاد الأجنبية. والذي يسهر الليل داخل المعبد في يوم العيد الكبير، والذي يتسلم الهدايا التي تحتوي على أحسن الأشياء الثمينة التي يقدمها الملك في قصره. والرئيس الأعلى للأعياد الثلاثينية في قارب الإله بوساطة كل الأعمال المدهشة (أي المحاصيل المدهشة) للنوبيين من «الشلال» وأمين القوم على الميناء وأعظم المشرفين على سفن بيت الملك، والذي يدير بَيْتَيِ المال بنظام والرئيس على بقاع «تاستي» (النوبة) والذي تحت إدارته من يبحر ومن يرسو.

والحاكم ورئيس الكهنة «سرنبوت» يقول: لقد أقمت قبري بحظوة الملك «خبر كارع». ولقد رفعني الملك في الأرض وكذلك كنت أعلى قدرًا من أمراء المقاطعات، ولقد غيرت (؟) قوانين الأزمان القديمة. ولقد رُفِعْتُ إلى السماء في لحظة عين (أي رُفِعْتُ إلى مرتبة عليا في لحظة عين). وعُيِّنْتُ صناع أحجار لعمل مقبرتي وقد مدحني جلالته لذلك كثيرًا جدًّا ومرات يخطئها العد في حضرة رجال البلاط والملكة. وقد جهزها بأثاث من القصر وزينها بكل ما يلزم وملأها بالحلي وأمدَّها بقربان الخبز وجهزها بكل ما كان صالحًا لها. ولم يكن ينقصني شيء مما يلزمني من الأشياء التي من بيت المال … وسمح لي جلالته أن أذهب (حرًّا) مثل كل موظف في مقر الملك (هل يعني أنه لم يكن مقيدًا بالبقاء في «إلفنتين» طوال الوقت؟) وكنت رجلًا يؤدي خدمات بجانب سيده وإنسانًا رفعته مميزاته».

يقول: «كنت رجلًا مستقيمًا في الحضرة الملكية، خاليًا من المين، وكنت ذكيًّا عندما يرسلني (في مأمورية). ولقد كنت ثاني اثنين وثالث ثلاثة في هذه الأرض، وكنت أعمل المديح كثيرًا جدًّا وكنت مملوءًا بالثناء حتى يعوز حنجرتي الهواء، وقد هللت عندما

رُفِعْتُ إلى السماء ووصل رأسي إلى القبة الزرقاء. وقد كشطت أجسام النجوم وباشرت التهليل عندما لمعت كالنجم ورقصت مع الكواكب. وكانت مدينتي في عيد، وهلَّل رجالي وسمعت الناس ذلك الرقص ...، والمسنون والأطفال كانوا في سرور. والآلهة الذين في «إلفنتين» قد أطالوا لي مدة بقاء جلالته ملكًا، فقد وَلَدُوا جلالته من جديد من أجلي حتى يكرر لي ملايين الأعياد الثلاثينية. وقد منحوه الأبدية بوصفه ملكًا حتى يبقى على عرش حور من جديد (؟) كما أحب، وكنت خادمه القريب من قلبه مؤديًا ما يحبه سيده، الأمير والمشرف على الكهنة «سرنبوت».

ويقول: «لقد حضرت من مدينتي ونزلت إلى مقاطعتي وعملت ما يحبه قومي وما يمدحه كل الآلهة».

والواقع أن الألفاظ المنمقة التي حاك بها قصة تاريخ حياته لا يمكننا منها الحكم تمامًا عليه واستنباط الحقائق التي قد اختفت وراء هذه التعابير البراقة، ومع ذلك تدل شواهد الأحوال على أنه على ما يظهر كان المؤسس لأسرته، وأن الفضل يرجع للملك «سنوسرت الأول» في تنصيبه في هذا المنصب الخطير، ولذلك لم نجده يحاول إخفاء ما حباه الملك به من فضل وإنهام. ومن ثَمَّ يجب علينا ألَّا نستخلص من فخامة مقابر أمراء هذا العصر أنهم كانوا على جانب عظيم من الأهمية بوصفهم حكامًا محليين مستقلين، بل على العكس تدلنا على خضوعهم لحكم أسرة قوية السلطان، وما كان يتبع ذلك من تقدم مادي.

وأهم ألقاب «سرنبوت» هي أنه كان كاهنًا في معبد «ساتيس» في «إلفنتين» كما كانت العادة أن يكون حاكم المقاطعة هو القيم على المعبد الرئيسي للمقاطعة، ولا أدل على ذلك من منزلة «زفاي حعبي» بـ«أسيوط».[٣٧] هذا وقد أظهر الملك اهتمامًا بمعبد «إلفنتين» فقد ذكر على قطعة من الحجر محفوظة الآن بالمتحف المصري كيف أن الملك ذهب نحو الجنوب ليقدم لآلهة الجنوب مائدة قربان، وكذلك في نقش آخر وجد في معبد «هليوبوليس» أنه قد ذكر إقامة معبد لحور صاحب «تاستي» وكذلك أقام معبدًا لثالوث «الشلال» وهم «خنوم» و«ساتيس» و«عنقت».[٣٨] هذا وقد جاء ذكر هذا الملك على قاعدة تمثال عُثِرَ عليه في «إلفنتين» محبوب «ساتيس» و«عنقت».[٣٩]

هذا ونجد أن الملك «سنوسرت» قد منح حاكم مقاطعة «إلفنتين» هذا عطفه إذ يقول: «وعندما ذهب جلالته ليضرب أهل «كوش» التعساء[٤٠] أمر جلالته أن يُرْسَلَ إليَّ قطعة لحم (من ثور)». ومن هذا النقش نفهم أن الملك قد أسس لنفسه في «إلفنتين»

قاعدة لأعماله الحربية، واهتم بأن تكون سفن التجارة في هذا المكان الصعب منظمة وأن يكون حاكم المقاطعة المسيطر فيها خادمًا أمينًا لبيت الملك. ولا نزاع في أن هذا العمل كان على جانب من الأهمية في زمن كان العهد الذي قبله هو عهد إقطاع، فلا بد أن يُعْزَلَ فيه أمراء المقاطعات وأصحاب الكلمة العليا في البلاد وأن يحل غيرهم من المخلصين لبيت الملك من الموظفين.

الحملة الكبرى التي أرسلها «سنوسرت الأوَّل» لفتح بلاد النوبة العليا:

وتعد الحملة التي قام بها «سنوسرت الأوَّل» حتى «الشلال الثالث» من أهم الحملات التي قام بها ملوك الأسرة الثانية عشرة. ولا نعلم على وجه التأكيد إذا كانت الحملة السالفة الذكر وهي التي كما قلنا ذهب فيها ليضرب أهل «كوش» التعساء هي نفس الحملة التي قام بها في السنة الثامنة عشرة من حكمه أم غيرها. وكان غرضه من هذه الحملة إخضاع قبائل السودان وتثبيت حدود مصر الجنوبية إلى نقطة تبعد نحو ٢٥٠ كيلو مترًا من جنوبي «وادي حلفا» التي تعتبر الآن الحد الشمالِي لبلاد السودان وبذلك تصبح كل بلاد النوبة السفلى وشمال السودان خالية من كل اعتداء أو غزو من جهة السود. وهذه الحملة التي قامت في السنة الثامنة عشرة من حكم هذا الفرعون كانت بقيادة قائد يُدعى «منتوحتب» الذي ترك لنا نقشًا في معبد «بهين» ب«وادي حلفا» مُثِّلَ في أعلاه «سنوسرت الأوَّل» واقفًا أمام إله الحرب «منتو» الذي يقول للملك: «أحضرت كل أعمالك التي في النوبة تحت قدميك يأيها الإله الطيب». ويُشَاهَدُ بعد ذلك الإله يقود للفرعون عشرة أسرى من النوبيين كل منهم يمثل قبيلة.[٤١] ونفهم من مغزى ما بقي من نقوش هذا المتن أن المقصود من هذه الغزوة هو قهر بلاد النوبة العليا وإذلالها، ويؤكد ذلك وجود هذه اللوحة في «بهين». وتدل نتائج أعمال الحفر في هذه الجهة على أنه من المرجح جدًّا أن المصريين كانوا قد أقاموا حصنًا في هذه الجهة. ويدل على ذلك أيضًا وجود نقش لمشرف على جنود ومشرف على مجندين وقائد جيش من عهد «سنوسرت الأوَّل» فنقرأ في سطوره الأخيرة الممزقة ذكر حصن ويحتمل كذلك الإشارة إلى حراسة حدود،[٤٢] وتدل نتائج الحفر في حصون بلاد النوبة الأخرى وبخاصة حصن «كوبان» على أن بلاد النوبة كانت فعلًا محتلة عسكريًّا في عهد «سنوسرت الأوَّل» وكان مسيطرًا عليها بوساطة الحصون، وإنه لمن المعقول التسليم بأن هذه الحصون قد تم بناؤها في زمن هذه الحملة التي قهر فيها أهل بلاد النوبة.

ومن المحتمل أنه قد أقيمت لوحة على مسافة عشرين كيلو مترًا من الجنوب الغربي من «أسوان» عُثِرَ عليها في قلب الصحراء بأمر ملكي غير أنه لم ينقش على هذه اللوحة طُغْرَاءُ الملك وكل ما نقش عليها هو السنة الثامنة عشرة ورسم رجل مسلح بالقوس والنشاب يقود أمامه أسيرًا.[٤٣] وتدل شواهد الأحوال على أن المصريين قد استعملوا العسف في فتح بلاد النوبة السفلى كما حدث ذلك في عهد الدولة الحديثة فيما بعدُ، فقد كان هَمُّ الفاتحين استغلال أهالي البلاد؛ ولذلك نجد النوبي الذي كان مستعدًّا لأن يعمل للمصري قد أصبح يُعَامَلُ معاملة العدو فيقول «سنوسرت الأوَّل»:[٤٤] «إن كل نوبي سيدفع الجزية بمثابة خادم ويعمل على حسب مشيئة هذا الإله تمامًا ستبقى سلالته أبدية، وبعبارة أخرى على كل نوبي أن يسير سيرًا حسنا في تقديم محصولاته لمصر.

واللوحة التي جاء فيها هذا النص عُثِرَ عليها في «وادي الهودي» على مسافة ٢٨ كيلو مترًا في الجنوب الشرقي من «أسوان» وعلى مسافة ٢٦ كيلو مترًا شرقي وادي النيل على مقربة من «دبود» وهو خاص بحملة كان قد أرسلها الفرعون للحصول على حجر الأمتست.[٤٥]

وعُثِرَ كذلك على لوحتين أخريين بالقرب من السابقة لأفراد مُؤَرَّخَتَيْنِ بالسنة التاسعة والعشرين من حكم «سنوسرت الأوَّل». والظاهر أنه قد أُرْسِلَتْ حملتان في نفس هذه الجهة كما يدل على ذلك نقشان عُثِرَ عليهما في «دبود» و«دهميت» مما يدل على أن هذه الطريق كانت هي المفضلة إلى الجهات التي يمكن استغلالها من هذا الجزء من بلاد النوبة. ويرجع نقش «دبود» إلى عهد الملك «أمنمحات الثاني» والآخر أُرِّخَ بالسنة الحادية عشرة من عهد الملك «أمنمحات الثالث».[٤٦] ومما يُؤْسَفُ له أن كلا النقشين وُجِدَ في حالة سيئة، غير أنه كان في الإمكان معرفة أنهما خاصَّان باستخراج الأمتست. وقد ذُكِرَ على كل منهما اسم رجل يُدْعَى «حنو». وهذا الرجل بعينه قد ذُكِرَ على صخور المحاجر الواقعة في الشمال الغربي من «توشكى» وكذلك يوجد فضلًا عن ذلك نقش آخر مُؤَرَّخٌ بالسنة العشرين الشهر الثاني من فصل «أخت» من حكم الملك «سنوسرت الأوَّل».[٤٧] وكذلك جاء اسم «سنوسرت الأول» على قطعة مثقال وزن عثر عليها في حصن «كوبان».[٤٨]

وأخيرًا وُجِدَتْ مائدة قربان باسم هذا الفرعون عُثِرَ عليها في بيت في جزيرة «أرقو» وهي الآن بمتحف بمديرية «مروي»، ومن المحتمل أنه أتى بها من «كرمة» ولكن المرجح أنها من «جزيرة أرقو».[٤٩]

عهد «أمنمحات الثاني» حين اشتراكه مع «سنوسرت الأوَّل»:

ونجد في العهد الأخير من حكم «سنوسرت الأوَّل» عندما كان مشتركًا معه ابنه «أمنمحات الثاني» في الحكم سلسلة نقوش على الصخور في بلاد النوبة السفلى.

فعلى الصخور التي في الطريق من «أسوان» إلى «الفيلة» نقشان واحد منها باسم شخص يُدْعَى «منتوحتب» بن «ردي سبك» مؤرخ بالسنة الحادية والأربعين،[٥٠] ويحتوي على صيغة قربان عادية. أما النقش الآخر فلشخص يدعى «أنتف» وهو مُؤَرَّخٌ بالسنة الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين.[٥١] هذا ويوجد في «جناوي شما» (Gnawi Schema) التي تقع قبالة «خوردهميت» مجموعة من النقوش على الصخر نقشها موظفون مُؤَرَّخَةٌ بالسنة الثانية من عهد الملك «أمنمحات الثاني» (السنة الخامسة والأربعين من حكم «سنوسرت الأوَّل») وقد جاء عليها اسم شخص معروف يُدْعَى «أميني» بن «بيبي» ونُقِشَ معه الدعاء: «له الحياة والصحة والعافية المرحوم». وهذا الدعاء جاء على غرار ما كان يُكْتَبُ لحكام المقاطعات والوزراء. ويظن الأستاذ «ريدر» أن هذا الرجل هو نفس «أميني» الذي ذكرناه سابقًا في نقوش «بني حسن» وهو الذي مات في السنة الثالثة والأربعين من حكم «سنوسرت الأوَّل».[٥٢] ولكن الأثري «سيف زودربرج» يشك في توحيد الاسمين.[٥٣]

وعلى مسافة أربعة كيلو مترات جنوبي معبد «أمدا»[٥٤] نجد مجموعة أخرى من النقوش مدوَّنة على الصخر من عهد «سنوسرت الأوَّل» كما نجد نقوشًا على الصخر مُؤَرَّخَةً بالسنة الخامسة من عهد «أمنمحات الثاني» ومن عهد «سنوسرت الثالث». و«أميني» الذي ذُكِرَ في هذه النقوش بوصفه يحمل لقب أعظم عشرة الوجه القبلي لا يمكن تحديد تاريخه. وعلى أية حال فإنه ليس «أميني» الذي جاء ذكره في مقابر «بني حسن» بل يحتمل توحيده مع فرد يُدْعَى «أميني» جاء ذكره على لوحة محفوظة بالمتحف البريطاني مُؤَرَّخَةٍ بالسنة الثامنة من عهد «سنوسرت الثالث». والأمر الذي يلفت النظر في هذه النقوش أنها لا تدل على قيام حروب جديدة بين البلدين أو الشروع في حروب بعد السنة الثامنة عشرة من حكم «سنوسرت الأوَّل» بل على العكس يظهر منها أنها تدل على وجود نشاط عظيم في الأراضي النوبية للحصول على المواد الغفل.

حملات «سنوسرت» للبحث عن الذهب:[٥٥]

والواقع أن «أميني» قد ذكر لنا حملتين إلى بلاد النوبة كان الغرض منهما الحصول على الذهب. فقد قاد «أميني» حملة متأخرة إلى صحراء «قفط» (وكان قد مات في السنة الثالثة والأربعين من حكم «سنوسرت الأوَّل»)، وعلى ذلك لا ينبغي ألَّا نُؤَرِّخَ هذه الحملة بالسنين الأخيرة من حكم «سنوسرت الأوَّل»، هذا إلى أن ولي العهد أي «أمنمحات الثاني» كان قد رافقه في هذه الحملة.

ووصف هذه الحملة مُختصَر وليس مؤرَّخًا. فاستمع لما جاء فيه: «لقد سرت نحو الجنوب لأحضر التبر لجلالة «سنوسرت الأوَّل» العائش أبديًّا. وقد سرت إلى الجنوب مع الأمراء وولي العهد بكر أولاد الملك المحبوب «أميني» له الحياة والعافية والصحة. وسرت إلى الجنوب مع جمع يبلغ أربع مئة من خيرة رجال الجيش، وعدنا إلى الوطن سالمين دون أن يُفْقَدَ واحد منا، وقد أحضرت الذهب الذي كلفت به، وقد مُدِحْتُ من أجل ذلك في بيت الملك وشكرني ابن الملك».

ويدل عدد الجنود الذين رافقوا «أميني» على أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى نشوب حرب بل كان لمجرد البحث عن مناجم الذهب التي بدأت تظهر في بلاد النوبة. والظاهر أن وادي النيل النوبي في ذلك الوقت قد سادته السكينة بعد الحروب الأولى، وأن المصريين قد أخذوا العدة لأنفسهم وأقاموا الحاميات في أنحاء طرقهم، ومع ذلك فقد اتخذ قائدنا لنفسه الحيطة خوفًا من قطاع الطرق من البدو الذين كانوا يتجمعون في الصحراء.

أما الصلات مع بلاد النوبة العليا أو بلاد «كوش» فسنتحدث عنها فيما بعدُ ويكفي أن نشير هنا إلى أنه قد وُجِدَ في عهد «سنوسرت الأوَّل» تماثيل للحاكم «زفاي حعبي»[٥٦] وزوجته في بلدة «كرمة».[٥٧]

وقد بقيت العلاقات الودية بين مصر وبلاد النوبة سائدة ومستمرة في عهد كل من «أمنمحات الثاني» وخلفه «سنوسرت الثاني» وذلك لأن الاحتلال المصري كان على ما يظهر ناجحًا؛ ولذلك لم يكن هناك ما يدعو إلى إرسال حملات حربية إلى بلاد النوبة. ولدينا لوحة محفوظة بالمتحف البريطاني[٥٨] لموظف يدعى «ساحتحور» مساعد مدير الخزانة وقد ذُكِرَ ضمن نقوشها أنه قام برحلة مماثلة لحملة «أميني» لإحضار الذهب، فاستمع لما يقول: «لقد زرت أرض المناجم «سيناء» وأنا شاب، وأجبرت العظماء والأمراء على غسل الذهب وأحضرت الفيروزج ووصلت إلى «تاستي» (النوبة) الخاصة بالنحسيو لأني أتيت إليها عندما كانت مقهورة أمام خوف سيد الأرضين وسرت نحو «حا» واخترقت

جزيرتها (أو أرضها) وأحضرت محاصيلها (؟) وإني أقسم بسيدي — له الحياة والفلاح والصحة — أني أقول الصدق».

وهذا المتن يؤكد لنا ما تحدث به «أميني» في نقشه، ويضيف لنا تفاصيل أخرى عن استخراج الذهب، كما ذكر لنا استخراج الفيروزج من بلاد النوبة.

وتدل شواهد الأحوال على أنه في تلك الفترة قد تم نظام الحاميات كما تم بناؤها فقد وجد نقش على صخرة في «أسوان» مُؤَرَّخٌ بالسنة الخامسة والثلاثين من عهد أمنمحات الثاني خاص بتفتيش على هذه الحصون حيث يقول: «لقد أتى ... «حنو» ليقوم بتفتيش على حصون «واوات».[٥٩]

وقد أرسل «أمنمحات الثاني» بعوثًا إلى «وادي الهودي» وقد وصلت إلينا لوحة من عهده غير مُؤَرَّخَةٍ أقامها رئيس البعثة المسمى «سنيبو» ويحمل لقب رئيس الخزانة ونُقِشَ عليها ما يأتي: «ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خع كاورع» عاش أبد الآبدين محبوب «حنحور» سيدة الجمشت (حسمن). قريب الملك الحقيقي ومحبوبه وساكن قلبه رئيس الخزانة، وهو الذي وضعته «سبك رع» ورب الاحترام والذي استولى على قلب الملك باختراق الصحاري (في البعثة) التي قام بها لسيده بتفوق «سنيبو» رب الاحترام».

ولدينا لوحة أخرى من هذا المكان منحوتة من الصخر الرملي غير أن معظم كتاباتها قد محيت ويرجع عهدها إلى السنة السادسة من الحكم الذي اشترك فيه هذا الفرعون وابنه «سنوسرت الثاني».[٦٠]

ومما هو جدير بالذكر هنا أن حصن «عنيبة» قد أُصْلِحَ وزيد فيه في عهد «سنوسرت الثاني» وكذلك وُجِدَ اسمه مطبوعًا على لبنة في حصن «الكبانية».[٦١]

ووُجِدَ في محاجر الصحراء الواقعة شمال غربي «توشكى» بعض نقوش من عهد «سنوسرت الثاني» منها نقش مُؤَرَّخٌ بالسنة الثامنة (؟) من عهد هذا الملك[٦٢] يحدثنا عن بعثة قام بها موظف كبير يُدْعَى «أميني» ويحمل لقب مدير هيئة الموظفين ولقب كاهن (سم) وهو من أكبر ألقاب الكهنة وفيه صلاة للإلهة «حتحور» سيدة «نخنت»؛ ومن بين الأسماء التي ذُكِرَتْ في هذه اللوحة اسم موظف يُدْعَى «حقا أب» بن «سنوسرت» ويحمل لقب المشرف على فرقة قطع الأحجار الأثرية، وهذا اللقب نادر جدًّا في الآثار المصرية وكذلك عُثِرَ على تمثال صغير منذور من الحجر الرملي نُقِشَ على صدره لقب «سنوسرت الثاني».[٦٣]

وقد ظل السلام مخيمًا في عهد كل من الفرعونين «أمنمحات الثاني» و«سنوسرت الثاني» على بلاد النوبة ومصر وازدهرت التجارة فيه ازدهارًا عظيمًا، ولكن ما لبث هذا

السلام أن أعقبه اضطرابات وهجمات على القوافل في السنة الثامنة من عهد «سنوسرت الثالث» لأنه في هذه السنة قام هذا الفرعون بحملة على بلاد النوبة كما سنرى بعد، ومن المحتمل أن سبب قيام هذه الهجمات من جانب النوبيين يرجع إلى الخمول العسكري الذي ساد البلاد في عهد هذين الملكين السابقين وهو الذي شجع السكان في السودان على القيام بالهجرة في البلاد من الجزء الجنوبي من السودان مما أدى إلى طرد قبائل أخرى أمامها نحو الشمال.

«سنوسرت الثالث» وعلاقاته ببلاد النوبة (١٨٨٧–١٨٤٩ق.م.)[٦٤]

يعد «سنوسرت الثالث» عند المصريين من أكبر الغزاة الذين قاموا بحروب طاحنة دفاعًا عن حدود مصر من جهة الجنوب في وجه السودانيين، ومن جهة الشمال في وجه الأسيويين؛ غير أن الحروب التي قام بها جنوبًا كانت شغله الشاغل طوال مدة حياته، من أجل ذلك عَدَّهُ المصريون من أكبر غزاتهم حتى إنهم أَلَّهُوهُ وبقي اسمه تتناقله الأجيال ويذكرونه في خرافاتهم باسم «سوزستريس» كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

وقد كان أوَّل عمل قام به «سنوسرت الثالث» من الوجهة الحربية هو تأديب قبائل بلاد النوبة وهم الذين كانوا في حالة اضطراب وقلاقل بعض الشيء في عهد الفرعون السابق، بل كانوا مصدر خوف في داخل البلاد نفسها. ويقول «ريزنر»: «من الواضح تمامًا أنه في الجزء الأوَّل من عهد «سنوسرت الأوَّل» كانت التجارة الجنوبية مهددة جدًّا من رجال القبائل في مواضع بالقرب من «سمنة» وبخاصة على الشاطئ الغربي. وكان ذلك هو السبب الرئيسي في تدخل «سنوسرت الثالث» لتحرير طريق التجارة الموصلة إلى «كرمة»». ويعضد الرأي القائل إن بدو الصحراء عند الشلال كانوا هم العدو الرئيسي لمصر ما أُقِيمَ هناك من حصون في هذا الإقليم وكذلك ما ذُكِرَ على لوحة النصر التي أقيمت في «سمنة».

ولقد كان لزامًا على الفرعون للقيام بحملة على هؤلاء المغيرين أن يكون لديه أسطول عظيم لنقل الجنود ولإمدادهم بالغذاء والمهمات باستمرار. وقد كان العائق أمامه صخور الشلال التي تعوق مرور هذا الأسطول إلا في وقت الفيضان. ومنذ خمس مئة عام من هذا التاريخ تغلب فراعنة الأسرة السادسة على هذه العقبة بحفر سلسلة ترع حفرها القائد «وني» لعوامل تجارية،[٦٥] ولكنها بعد هذا الزمن الطويل هُدمت ولم تعد صالحه لما يتطلبه الموقف وقتها؛ ولذلك رأي «سنوسرت الثالث» ضرورة حفر قناة عند الشلال

الأوَّل ليعبر فيها إلى أعالي الشلال، وقد لا يكون المقصود من ذلك حفر قناة بالمعنى الصحيح الذي نفهمه نحن الآن، بل قد يكون القصد تعميق الممر الموجود الآن شرقي «جزيرة سهيل» ليساعد على جر السفن فيه بدون كبير عناء، وذلك بدلًا من معارضة التيار القوي في الممر الغربي، وعلى أية حال فإن هذه الترعة قد تم تعميقها في بداية حكم هذا الفرعون كما تُحَدِّثُنَا بذلك نقوش «سهيل» وفيها نشاهد «سنوسرت» واقفًا أمام الإلهة «عنقت» إحدى إلهات «الشلال» وأسفل هذه الصورة نقرأ: «لقد صنعها أثرًا للإلهة «عنقت» ربة النوبة إذ شق لها ترعة تُسَمَّى «أجمل طرق» «خع كاورع» «سنوسرت الثالث» الحي الخالد». ولم نجد تاريخًا لهذا النقش، ولكن لما كان من الضروري أن تطهر هذه الترعة من الغرين في السنة الثامنة من حكم هذا الفرعون ليسير منها بحملته؛ رجحنا أنها كانت موجودة منذ بعض سنين قبل ذلك العهد ويمكننا أن نتصور بعد ذلك جيش الفرعون يمر في هذه الترعة الجديدة في السنة الثامنة من حكمه لغزو بلاد النوبة.

والواقع أن «سنوسرت الثالث» قد فكر كما فكر من قبله جده «سنوسرت الأوَّل» في أن يتخذ لحملاته الحربية التي أراد شنها على بلاد النوبة مدينة «إلفنتين» قاعدة لجيوشه ومؤنه وأن يعدَّها لذلك، ولأجل أن يصل إلى هذه القاعدة بسرعة بوساطة السفن أمر بحفر قناة في الشلال. وقد دون هذا العمل على صخور «سهيل»، فنرى في لوحة هناك الفرعون واقفًا وعلى رأسه التاج المزدوج أمام الإلهة «ساتت» إلهة «الشلال» وتقدم له رمز الحياة وخلفه رئيس بيت المال ومدير الأشغال ثم يلي ذلك النقش الآتي: «السنة الثامنة من حكم جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خع كاروع» «سنوسرت الثالث» عاش مخلدًا. أمر جلالته بعمل قناة جديدة اسمها «طرق» خع كاورع «جميلة» عاش أبديًّا، وبذلك عندما سار بجيشه إلى أعالي النهر ليهزم الكوشيين الخاسئين»، وطول هذه القناة خمسون ذراعًا وعرضها عشرون ذراعًا وعمقها خمس عشرة ذراعًا أي إن هذا الممر كان كافيًا لمرور أية سفينة لمثل هذه البعثة. وقد حُفِرَتْ هذه القناة حفرًا جيدًا إذ بقيت مستعملة حوالي ثلاث مئة سنة أو أربع مئة سنة تقريبًا بعد حفرها، وقد طهرت في عهد «تحتمس الأوَّل» وكذلك في عهد «تحتمس الثالث» عندما قاما بالغزو في هذه الجهات، وقد كان لزامًا على صيادي السمك تطهيرها سنويًّا.[٦٦]

وعندما كان مارًّا نحو الجنوب وجه الفرعون عنايته إلى حصن «إلفنتين» كما ذكرنا من قبل قاصدًا بذلك تحسين مدخله وقد ترك لنا أحد الموظفين المحليين نقشًا يدل محتوياته على إتمام هذا العمل الذي انتهى في السنة التالية: «السنة التاسعة الشهر

الثالث من حكم جلالة ملك الوجهين القبلي والبحري «خع كاورع» محبوب الإلهة «ساتت» سيدة «إلفنتين» عاش مخلدًا. أمر ملكي موجه لعظيم العشرة للوجه القبلي المسمى «أميني» ... في حصن «إلفنتين» محجر (؟) لأجل حاكم الجنوب ليعمله ... وأناس على شاطئ «إلفنتين» عندما كان جلالته له الحياة والفلاح والصحة ذاهبًا لقهر «كوش» الخاسئة.[٦٧] ومما تبقى من هذا المتن نرى أن الجملة الهامة الخاصة بحصن «إلفنتين» قد هشمت، ولذلك أصبح الحكم في هذا الموضوع غير ممكن على الوجه الأكمل. وإذا كان هذا الأمر له علاقة بإعداد الحملة وأن أهل «إلفنتين» الذين ذُكِرُوا في هذا المتن قد جندوا لها فإن ذلك لا يمكن استنباطه من هذا النقش المهشم.

وقد كان من نتائج هذه الحملة أن تقدم المصريون في زحفهم نحو سبعة وثلاثين ميلًا جنوبي «وادي حلفا» ولكنهم كانوا لا يزالون بعيدين عن «كرمة» التي اتخذها «زفاي حعبي» مقرًّا لحكم هذه الجهات في عهد «سنوسرت الأوَّل» بنحو مئتي ميل كما يظن بعض المؤرخين، وكان الفرعون «سنوسرت الثالث» مصممًا على أن يحافظ على ما فتحه فأقام نصبًا في «سمنة». وهذا الأثر معروف بلوحة الحدود. وقد نقش عليها المتن التالي: «الحدود الجنوبية التي عُمِلَتْ في السنة الثامنة من عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خع كاروع» معطى الحياة أبديًّا ليمنع أي نوبي (نحسي) أن يتعداها في ذهابه نحو الشمال سواء أكان ذلك على البر أم بسفينة أم بحيوانات من أي نوع من النوبة إلا إذا أتى إلى «أقن» بقصد التجارة أو معه رسالة ما، فإنه يُعَامَلُ حينئذٍ معاملة حسنة (أي تُعطى له كل التسهيلات) على شرط ألا يسمح لسفينة فيها سود أن تتخطى «حح» (سمنة) ذاهبة نحو الشمال قط».[٦٨] ومن ثَمَّ أقام «سنوسرت الثالث» حاجزًا لمنع هجرة أهل السودان إلى مصر.

الحملة الثانية: غير أن هذه الحملة الأولى لم يكن لها أثر فعال، ومن المحتمل أنه قد قامت حملة ثانية في السنة العاشرة من حكمه. والمصدر الوحيد الذي لدينا عنها هو نقش على الصخور الواقعة على الطريق بين «أسوان» و«إلفنتين» وهو السنة العاشرة (؟) الشهر الثاني من فصل الزرع في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خع كاورع» معطي الحياة المحبوب من «خنوم» رب «الشلال»: «لقد سار جلالته لهزم الكوشيين».[٦٩] وبقية هذا النقش مهشم وغير مفهوم، هذا إلى أن التاريخ الذي في أوله غير مؤكد. ويظن «ريزنر» أن هذا النقش مرتبط بنقش الحملة الأولى التي قام بها في السنة الثامنة. غير أنه ليس لدينا ما يمنع قيام حملة في السنة العاشرة على الرغم من أنه لا يمكننا أن نجزم بذلك بسبب تهشيم المتن.[٧٠]

الحملة الثالثة: والواقع أن بلاد «كوش» هذه قد تطلبت من الفرعون غزوات عدة على ما يظهر قبل أن تخضع وتُذْعن تمامًا للحكم المصري، إذ إنه بعد انقضاء ستة أعوام على الحملة الأخيرة كان «سنوسرت» يزحف بجيشه كرة أخرى، ولدينا عن هذه الحملة لوحتان عند الحدود واحدة منهما نصبها في «سمنة» والثانية وُجِدَتْ في «ورنرتي» وتقع تحت بلدة «سمنة» مباشرة وتمتاز لوحة «ورنرتي» بأنها تعطينا بعض معلومات لم تُدَوَّنْ على لوحة «سمنة». فقد جاء فيها أن حصن «ورنرتي» قد بني في هذه السنة أيضًا، إذ بعد ذكر الملك نقرأ: «لوحة أقيمت في السنة السادسة عشرة الشهر الثالث من الفصل الثاني عندما بُنِيَ الحصن المسمى «طرد النوبيين».[٧١] ومن المحتمل أن الحصون الأخرى التي أُقِيمَتْ في هذه الجهة قد بُنِيَتْ في نفس هذا الوقت وأهمها هو حصن «سمنة» كما كان يسميها المصريون («سمنة» التابعة للملك «خع كاورع»)، وقد كانت قلعة عظمية بنيت باللَّبِنْ في موقع حصين وقد زيد في حصانتها الطبعية بالتحصين الصناعي، وكانت تُشرف على النهر الذي لا يزيد عرضه في هذه الجهة عن أربع مئة متر. وفي الجهة الشرقية من النهر قبالة «سمنة» أقيمت قلعة أخرى صغيرة تعرف باسم «قمة»[٧٢] بنيت على قلعة طبعية فكان من الصعب مرور أي جيش في النهر من هذه الجهة. وخرائب هاتين القلعتين لا تزال باقية للآن.

آلهة بلاد النوبة العليا وتأليه «سنوسرت الثالث»: وكان في كل من الحصنين معبد. ففي «سمنة» كان معبد الإله «ددون» وهو الإله المحلي لهذه الجهة وفي «قمة» معبد للإله «خنوم» معبود شلال «أسوان» و«إلفنتين»، وفي هذين المعبدين احتفل بعيد عظيم ابتهاجًا بالانتصار على السود وكان يُسْمَّى «طرد السود»، وكان يحتفل بعده بِعيد آخر يسمى «شد وثاق المتوحشين»، وفي خلال كانت تقدم القرابين للملكة «مرسجر» العظيمة زوجة الفرعون «سنوسرت الثالث»، وهذه الأعياء قد بقيت ذكراها إلى أزمان بعيدة حتى إن «تحتمس الثالث» عندما أعاد بناء معبد سلفه بعد مضي ثلاث مئة وسبعين سنة تقريبًا، أحيا الاحتفال بها مع أعياد أخرى، يضاف إلى ذلك أنه أَلَّهَ الملك «سنوسرت» وجعله ثالث آلهة الحدود التي أسسها، ولا نستغرب أن يصدر هذا العمل الصالح من رجل عظيم مثل «تحتمس الثالث» الذي لم يحمل حقدًا لأحد بخلاف «رعمسيس الثاني» الذي كان يغتصب كل شرف ليس له فيه أدنى نصيب، ونجد في معبد «إمدا» ببلاد النوبة أن الفرعون «تحتمس الثالث» كان يتعبد للإله «سنوسرت الثالث».[٧٣] وفي معبد «الليسية» نراه كذلك يعبد، ونرى «تحتمس الثالث» يتعبد إليه كذلك في «بهين» (وادي حلفا).[٧٤]

ولم تكن عبادة «سنوسرت الثالث» قاصرة على الملوك بل تعدتهم إلى عامة الشعب، إذ عُثِرَ على نقش جهة «توشكى» شمالِي «أبو سمبل» على إحدى الصخور المطلة على النهر وهذا النقش يمثل منظر أسرة تتألف من رجل يُدْعَى «سلبي» وزوجه وأولادهما وقد أحضروا قربانًا لصورة «حور معام» الذي مُثِّلَ جالسًا ثم «سنوسرت الثالث» والإله «رشب».[٧٥]

وتعد نقوش لوحة «سمنة» الثانية التي سجلت لنا حملة السنة السادسة عشرة من أهم النقوش التي وصلت إلينا من هذا العصر،[٧٦] ولا تنحصر أهميتها في أنها حددت لنا التخوم المصرية في هذا العهد في بلاد النوبة، بل لأن جُمَلَهَا المنمقة تذكرنا بالخطب التي ذكرها «ديدور» والذي يقول عنها إنها كُتِبَتْ على لوحة نقشها «سوزستريس» الخرافي تذكارًا لفتوحه، وتعد هذه النقوش بحق من أهم ما تركه لنا قدماء المصريين في كل عصورهم، إذ يتمثل لنا فيها قوة إرادة هذا الفرعون وشدة حرصه على مجد بلاده، وإذكاؤه نار الغيرة في نفوس أخلافه للمحافظة على فتوحاته، والدفاع عن حدودها بالنفس والنفيس، وهاك ترجمتها حرفيًّا لتكون مثلًا حيًّا لأبناء هذا الجيل من المصريين في وقت أحوج ما تكون فيه البلاد لمثل هذه العظات الخالدة.

نص لوحة الحدود الخالدة: في «السنة السادسة عشرة في الشهر الثالث من الفصل الثاني عندما مَدَّ جلالته الحدود لغاية «حح» (سمنة)». لقد جعلت تخوم بلادي أبعد مِمَّا وصل إليه أجدادي، ولقد زدت في مساحة بلادي على ما ورِثته، وإني ملك يقول وينفذ، وما يختلج في صدري تفعله يدي، وإني طموح إلى السيطرة، وقوي لأحرز الفوز، ولست بالرجل الذي يرضى لبه بالتقاعس عندما يُعْتَدَى عليه، أهاجم من يهاجمني حسب ما تقتضيه الأحوال، وإن الرجل الذي يركن إلى الدعة بعد الهجوم عليه يُقَوِّي قلب العدو. والشجاعة هي مضاء العزية، والجبن هو التخاذل، وإن من يرتد وهو على الحدود جبان حقًّا، ولما كان الأسود يحكم بكلمة تخرج من الفم، فإن الجواب الحاسم يردعه، وعندما يكون الإنسان ماضي العزيمة في وجهه (الأسود) فإنه يولي مدبرًا، أما إذا تخاذل أمامه فإنه يأخذ في مهاجمته، على أن السود ليسوا يقوم أشداء ولكنهم فقراء كسيرو القلوب، ولقد رآهم جلالتي، وإني لست بخاطئ في تقديري، ولقد أسرت نساءهم، وسقت رعاياهم. واقتحمت آبارهم، وذبحت ثيرانهم، وحصدت زرعهم، وأشعلت النار فيما بقي منها، وبحياتي وحياة والدي لم أنطق إلا صدقًا، دون أن تخرج من فمي فرية، وكل ولد أنجبه ويحافظ على هذه الحدود التي وصل إليها جلالتي يكون ابني، وولد جلالتي، وألحقه بنسبي، وإن من يحافظ على تخوم الذي أنجبه، يكون منتقمًا لأبيه حقًّا، أما من

يتخلى عنها، ولا يحارب دفاعًا عن سلامتها فليس ابني ولم يولد من ظهري، والآن تأمل فإن جلالتي قد أمر بإقامة تمثال عند هذه الحدود التي وصل إليها جلالتي حتى تنبعث فيكم الشجاعة من أجلها، فتحاربوا للمحافظة عليها».

وهذا الروح الحربي نشاهده في الصور التي تنطق بها التماثيل الكثيرة التي تركها لنا هذا البطل العظيم، وبخاصة تلك التماثيل التي كُشِفَ عنها في ساحة معبد الملك «نب حبت رع» بجوار «الدير البحري» حيث أقامها لتكون تذكارًا لسلفه العظيم وهذه التماثيل تصور لنا «سنوسرت الثالث» في أطوار حياته الثلاثة المختلفة «الشباب-الكهولة-الشيخوخة»، وكلها موجودة بالمتحف البريطاني[٧٧] وتلمح في تمثال شيخوخته وجهًا ينم عن القوة الساحقة والعظمة والكبرياء التي يمتاز بها عظماء الفاتحين.

وقد كان لانتصارات «سنوسرت الثالث» هذه في بلاد النوبة أثر عظيم في تاريخها وعاش اسم «سنوسرت» محرفًا باسم «سوزستريس» ومن ذلك نشأت خرافة «هردوت» عن «سوزستريس» إذ يقول لنا فيها «هذا الملك كان حينئذٍ هو الفرعون الوحيد الذي حكم «أثيوبيا» (بلاد النوبة)». وذلك طبعًا لا ينطبق على الواقع. ولكن من جهة أخرى يظهر لنا مقدار تأثيرات انتصارات «سنوسرت» في هذه البلاد، ولا نعلم إذا كان هذا الفرعون قد حَرَّمَ عبادة تمثاله الذي أقامه عند الحدود أم لا، ولكنا نعرف أن هذا التحريم — إذا كان قد حدث — نُسِخَ بعد مدة قصيرة، وأصبح «سنوسرت» من بين الآلهة الذين يعدون أربابًا لبلاد النوبة، وقد رأينا فيما سبق أن عبادته أصبحت على قدم المساواة مع عبادة الإله «ددون» والإله «خنوم» في قلعة «سمنة» في عهد «تحتمس الثالث»، ولما تولى «تهرقا» الفرعون النوبي حكم البلاد بعد انقضاء ألف ومئتي سنة من حكم «سنوسرت» أعاد معبد «سمنة» وعبادة فاتح النوبة العظيم «سنوسرت الثالث». كما سنرى ذلك بعد.

آخر حملاته إلى السودان: وعلى الرغم من هزائم «سنوسرت» المتتالية للسود فإنهم قاموا في وجهه كَرَّةً أخرى، ويظهر أنها كانت الأخيرة وكان قد مضى على إخضاعهم وكسر شوكتهم ثلاث سنوات، ولم تصلنا عن حملته الأخيرة معلومات شافية سوى نقش لرئيس إدارة موظفيه الذي يُدْعَى «ساتت» وهي لوحة عُثِرَ عليها في «العرابة المدفونة» وهي الآن بمتحف «جنيف» فيقول فيها: «حضرت إلى «العرابة» وبصحبتي كبير بيت المال «أخرنفرت» لينحت تمثالًا للإله «أوزير» «رب العرابة» عندما كان ملك القطرين «خع كاورع» الحي المخلد سائرًا ليهزم الكوش الخاسئين في السنة التاسعة عشرة».

ولم تحدثنا الوثائق عن الحد الذي وصل إليه «سنوسرت الثالث» في داخل بلاد النوبة ولكنه ثبت الحدود في «سمنة» تمامًا ومن ثَمَّ أصبح في مقدوره أن يتبع القبائل

المغيرة في عقر دارها؛ ومن هنا كان تأثير هذه الحملة عظيمًا في إلقاء الرعب والهلع في قلوب أهالي السودان.

وقد حدثنا الأستاذ «ريزنر» عن حملات «سنوسرت الثالث» من وجهة نظره فيقول ما مضمونه:[٧٨] يظهر أولًا أن الحملة أو الحملات التي جاء ذكرها في النقوش التي تركها لنا «سنوسرت الثالث» لم تكن حملات حربية جدية شُنَّتْ لمقاومة كبيرة من قبل النوبيين بل كانت في الواقع حملات تأديبية من الصعب أن تجد من تؤدبه؛ وذلك أن القبائل المجرمة كانت تهرُب على ما يظهر إلى الصحراء وكان المصريون يحطمون كل الممتلكات التي لم يكن في مقدور الهاربين حملها ويستولون على العبيد والنساء الذين تُرِكُوا خلف الفارين. وكان يتتبع المجرمين إلى أماكن بعض الآبار في الصحراء، وعندما كان المصريون ينسحبون كان رجال القبائل يعودون إلى سلب محاطِّ القوافل. وكانت مجموعة الحصون التي بنيت أو التي كانت موجودة بين «سمنة» و«حلفا» تظهر بوضوح الإقليم الذي كان تقوم فيه الاضطرابات، وقائمة الحصون (التي سنتحدث عنها فيما بعد) التي نشرها «جاردنر» تقدم لنا اثني عشر حصنًا جنوبي «بيجه»، ثمانية منها تقع في المسافة التي بين «بهين» و«سمنة» وكلها عدا واحدة على الشاطئ الغربي أو في جزر النهر. وحصون «سمنة» تحرُس النهر من هجمات الجنوب وهي مع كل الحصون الأخرى يظهر أنها قد أقيمت للحماية من الهجمات الآتية من الغرب. ونعلم أنه كان على الأقل «لسنوسرت الثالث» حصنان بالقرب من «سمنة» وواحد عند «مورجيس» وأن الباقي كان موجودًا قبل عهده. ومن الواضح أنه في الجزء الأوَّل من عهد «سنوسرت الثالث» كانت التجارة قد شُلَّتْ على يد رجال القبائل في نقاط بالقرب من «سمنة» وبخاصة على الشاطئ الأيمن.

والواقع أن الأعمال التي كانت تجري عند «إلفنتين» وأعني بذلك القناة والمباني كانت تحسينات دائمة لطريق المواصلات مع الجنوب، ولم تكن متصلة بأية حملة خاصة يقوم بها الملك، فالذهب أو السام الذي ذكر في السنة التاسعة عشرة أن الملك أحضره من بلاد «كوش» يمكن أن يكون قد أحضر بطرق التنجيم العادية من المناجم أو بالسلب وفرض الغرامات على الأهلين. وهذا لم يكن يستلزم حروبًا طاحنة.

والآن يتساءل المرء نتيجة لذلك عن عدد الحملات التي قام بها «سنوسرت الثالث» في بلاد «كوش» من هذا النوع. وإذا فهمنا النقوش حرفيًّا وجدنا ثلاث حملات: الأولى حدثت في السنة الثامنة، والثانية في السنة السادسة عشرة، والثالثة في السنة التاسعة عشرة.

وحملة السنة الثامنة ترتكز على نقش القناة الذي ذُكِرَ فيما سبق ولوحة المتحف البريطاني السابقة أيضًا. ولوحة «سمنة» الأولى السالفة الذكر لا تحتاج إلى استنباط أن الملك كان في بلاد «كوش» ولكن نفهم منها بطبيعة الحال وجوده هناك. والبيان الوحيد فيها بالنسبة لصفة هذه الحملة هو أن الملك صعد في النيل ليهزم «كوش» الخاسئة ومن المحتمل كما سيظهر أن شعر لوحة «سمنة» الثانية وترجمة حياة «خوسبك» يشير كل منهما إلى هذه الحملة.

وحملة السنة السادسة عشرة ترتكز فقط على لوحة «سمنة» الثانية غير أن هذه اللوحة لا تذكر لنا بيانًا محددًا عن هذه الحملة فتقول فقط: «عندما عمل جلالته حده الجنوبي عند «حح» (سمنة)» غير أنه ينبغي أن يلحظ أن الملك على حسب ما جاء في لوحة «سمنة» الأولى كان قد عمل حده الجنوبي عند «حح». فاللوحة المزدوجة التي عُثِرَ عليها في «ورنرتي» تقول: «عندما أقيم الحصن المسمى «طرد الأونتيو» والشعر الذي نقش على هاتين اللوحتين وهو الذي يصف لنا أخلاق العبيد ويدعي الانتصار عليهم يستند بطبيعة الحال على حقيقة تاريخية، غير أن أساس الحقيقة قد يرجع إلى عدة سنين قبل السنة السادسة عشرة كالسنة الثامنة مثلًا. وإقامة الحصن على «ورنرتي» (جزيرة «ورو») وكذلك إقامة الحدود بنصب حجر تذكاري جديد ليست إلا حقائق قد حددت السنة السادسة عشرة. ولا نزاع في أن إقامة الحصن يدل بوضوح على أن شيئًا قد حدث بين السنة الثامنة والسنة السادسة عشرة يحتم ضرورة زيادة حصن جديد. ومن المحتمل أن سبب ذلك يرجع إلى أن القبائل الغربية قد عبروا النهر إلى الجزيرة وهاجموا القوافل الذاهبة إلى «كرمة» على الشاطئ الشرقي في أسفل حصون «سمنة» وإذا كانت نقوش «خوسبك» وهي التي تذكر أن الملك ذهب جنوبًا ليهزم قبائل «أونتيو» لها علاقة بإقامة هذا الحصن فإن الملك يكون قد أتى بنفسه وقَوَّى الحاميات وأقام الحصن الجديد ليمنع تكرار الغارات عند هذه النقطة.

ومن الجائز أن حصن «مرجيس» الذي يحتوى على معبد للملك «سنوسرت الثالث» كان قد أقيم في نفس الوقت. وليس من المؤكد أن ترجمة حياة «خوسبك» تشير إلى السنة السادسة عشرة بقدر ما يمكن أن تدل على السنة الثامنة، وهي التي قيل عنها في نقش إلفنتين قد قامت فيها حملة لهزم الكوش توصف كذلك بأنها كانت حملة لهزم «أونتيو» أرض «ستي» (بلاد النوبة). وعلى ذلك فإني أشعر ببعض الشك في حضور الملك إلى بلاد «كوش» في السنة السادسة عشرة.

وحملة السنة التاسعة عشرة ترتكز على نقش لوحة «ساتت» السالفة الذكر والحقائق الخاصة بهذه الحملة كما ذكرها «إخرنفرت» و«ساستت» في لوحتيهما هي كما يأتي: «أرسل «أخرنفرت» بأمر الملك ليعمل في «العرابة» مستعملًا السام الذي أحضره الملك بنصر من بلاد «كوش». وقد حضر معه «ساستت» وكان ذلك في السنة التاسعة عشرة عندما ذهب «سنوسرت الثالث» ليهزم «كوش» الخاسئة». ومما تجدر ملاحظته أننا لا نعرف شيئًا قَطُّ عن الوقت الذي أقيمت فيه هذه اللوحة ولا يمكن أن نكون متأكدين من أنها وثيقة معاصرة مثل لوحة القناة واللوحات الرسمية. ومن المحتمل أن هناك بعض خطأ؛ ولذلك فإن لوحة «ساستت» وحدها دون أن يعضدها برهان آخر لا يمكن أن تكون بذاتها برهانًا قاطعًا على قيام حملة في السنة التاسعة عشرة من حكم «سنوسرت الثالث».

وللأسباب السالفة نجد أن حملة السنة الثامنة هي التي ظهر قيامها بوضوح، أما الاستنباطات الخاصة عن الحملة أو الحملات الأخرى، وكذلك فيما يخص الأحوال السائدة في «كوش» فإنها لم تتأثر كثيرًا سواء أكان الملك قد قام برحلة أو اثنتين أو أكثر إلى بلاد «كوش». ولكن تبقى هناك حقيقة وهي أنه لم يذهب إلى بلاد «كوش» ليفرض بطشه على القبائل، أو أنه نهب قبائل الصحراء بدون جدوى، وأنه أقام على أقل تقدير ثلاثة حصون وأنه حافظ على استيراد المعادن الثمينة، ويحتمل كذلك محاصيل أخرى من بلاد «كوش» وإني لا أجد في الوثائق أي أثر لثورة قام بها أهل «كوش» الساكنون على شاطئ النهر كما لا يوجد أثر يدل على فتح بلادهم، بل نجد برهانًا واضحًا على أن «سنوسرت الثالث» قد مَكَّنَ أعماله الخاصة بالحماية على طول الطريق وزاد في الْمَحَاطِّ الحربية ليجعل التجارة في مأمن نسبيًّا.

هذا موجز ما ذكره «ريزنر» عن حروب «سنوسرت الثالث» وهو بذلك يريد أن يفرض علينا أنه لم يقم إلا بحملات قليلة لا تزيد عن حملتين وأنه لم يكن هناك في عهد حروب بالمعنى الحقيقي، هذا على الرغم من أن ملوك مصر العظام الذين قاموا بالفتوح العظيمة في عهد «تحتمس الثالث» قد أَلَّهُوا «سنوسرت الثالث» وجعلوه من كبار الفاتحين، بل كان يُعَدُّ في نظرهم أعظم ملك حربي، كما يرى القارئ فيما ذكرناه من قبل في هذا الصدد. وعلى أية حال فإن «سنوسرت الثالث» قد قام بحروب عظيمة في السودان لما كان من أهلها من عبث بالأمن ومناهضة المصريين، ولا تقل الحملات التي قام بها على حسب أحدث الكشوف التي قامت في الأزمان الأخيرة عن أربع حملات ونجد في كلام «ريزنر» بعض التشكك في عدد حملات «سنوسرت» هذا إلى أنه أهمل ذكر حملة.[٧٩]

أمنمحات الثالث[٨٠]

ويلحظ أن الإشارة إلى بلاد «كوش» من الوجهة الحربية في عهد من تبقى من ملوك الأسرة الثانية عشرة أي في عهد كل من «أمنمحات الثالث» و«أمنمحات الرابع» والملكة «سبك نفرو رع» كانت قليلة جدًّا، فنجد في «أسوان» تسعة نقوش على الصخر مؤرَّخَة بعهد الملك «أمنمحات الثالث». هذا وقد وصل إلينا عدد عظيم من مقاييس ارتفاع النيل في عهد هذا الفرعون مُدَوَّنَة في «سمنة» و«قمة».[٨١] وكذلك لدينا من عصره بعض إشارات من أشخاص عاشوا في عهده من بينهم شخص يدعى «سيمنتو» يقول في نقش له: «السنة السادسة من عهد الملك «أمنمحات الثالث» العائش أبديًّا، الثقة الحقيقي للملك والمحبوب منه والقاضي وفم «نخن» «سيمنتو» سيد الاحترام ليت كل من يمر بهذا النقش يقول إذا أراد أن يعود إلى بيته ويرى زوجه سعيدة وأقاربه غير فقراء: قربانًا يقدمه الملك إلى القاضي وفم «نخن» «سيمنتو»»، والظاهر أن نفس هذا الرجل قد جاء ذكره على لوحة بالمتحف البريطاني من «سمنة».[٨٢]

وكذلك لدينا بعض النقوش من عهد هذا الفرعون وُجِدَتْ في المحاجر الواقعة في الشمال الغربي من «توشكى»[٨٣] وكذلك وُجِدَ له لوحة في «كوبان».[٨٤]

ومن جهة أخرى وجدت أشياء في مقابر النوبة السفلى في حصن «ورنرتي» نقش عليها اسم الفرعون «أمنمحات الثالث»،[٨٥] ولدينا بعض رسائل ترجع إلى عهد هذا الفرعون.[٨٦] ولم نعثر على نقوش من عهد هذا الفرعون خاصة بحروب قام بها. والواقع أن البلاد في عصره وعصر خليفته «أمنمحات الرابع» والملكة «سبك نفرو رع» وكذلك العصر تلاهم أي في عهد الأسرة الثالثة عشرة كانت في سلام وكانت بلاد النوبة مرتبطة بمصر ارتباطًا وثيقًا من حيث العمل وتبادل التجارة. وقد عُثِرَ على بعض مقابر مصرية في بلدة «بهين» وفي بلدة «عنيبة» تبرهن على وجود مستعمرين مصريين فيهما.

وتدل أعمال الحفر على أنه في عهد «أمنمحات الثالث» حدث في «كرمة» إصلاح في سور «أنبو أمنمحات» على يد موظف مصري،[٨٧] مما يدل على أنه في هذا العهد كانت وكالات التجارة التابعة للحكومة محمية وأن التجارة كانت مزدهرة بين السودان ومصر.

هوامش

(١) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ١٧ إلخ.

(٢) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٣٦.

(٣) راجع: Breasted, A.J.S.L. 21, p. 111.

(٤) راجع: Naville, Deir El Bahari (IIth Dy.), 1, 5.

(٥) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ١٢٥، ٢١٢، ٢٤٣.

(٦) راجع: J.E.A., V., p. 288.

(٧) راجع: Naville, I, 55 and 50,

(٨) راجع: Naville, Ibid, III, pl XIII, 5.

(٩) راجع: A.J.S.L. (1940), p. 137.

(١٠) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٦٣ إلخ.

(١١) راجع: Debod bis Kalabasche, p. 103, f; Tafel 1. 6 ff.

(١٢) راجع: Kees, Kulturgesch., p. 345.

(١٣) راجع: MacMichael, A History of the Arabs in the Sudan, Vol I, Cambridge, 1922 p. 156, and 179.

(١٤) راجع: Die Ächtung feindlicher, Fürsten, etc.

(١٥) راجع: Posener, Princes et Pays d'Asie et de Nubie, Chronique d'Egypte, 14, p. 39 ff.

(١٦) راجع: Save, Ibid, p. 61 ff.

(١٧) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ١٤٠.

(١٨) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ١٦٩ إلخ.

(١٩) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ١٧٠ إلخ.

(٢٠) راجع: The Egyptian Expedition, Metropolitan Museum (1921–22), p. 12; comp.; Sethe, Die Thronwirren unter den Nachfolgern Königs Thotmosis I, p. I. anm. 4.

(٢١) راجع: Save, Ibid; P. 64

(٢٢) راجع: J.E.A., 7, p, 124, Anm. 2; cf. Junker and Delaporte, Die Völker des Antiken Orients, p 88; Winlock, J.E.A. 26, p. 119.

(٢٣) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ١٨٥ والأدب المصري القديم جزء أول ص ٢٠٤.

(٢٤) راجع: Urkunden Des Mittlerenn Reiches I, VII, 12.

(٢٥) راجع: Ed. Meyer, Gesch, Alt, 1, 2, p. 264.

(٢٦) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ١٨١–١٨٢.

(٢٧) راجع: A.Z., (1882), P. 30; Br. A.R.I., p. 473, etc

(٢٨) راجع: Weigall, Report, Pl. XXXII, 6

(٢٩) راجع: De, Morgan, Cat. Gen., I, p. 34, No. 81

(٣٠) راجع: Reisner, Kerma, 542 f.; 511 ff.

(٣١) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٠٥.

(٣٢) راجع: A.S., XXXIII, p. 65 ff.

(٣٣) راجع: A.S., XXXIX, p. 186 ff

(٣٤) راجع: Maclver and Woolley, "Bullen", pp. 89, 95.

(٣٥) راجع: Petrie, History, p. 163.

(٣٦) راجع: Muller, Die Felsengräber du Fürsten Von Elephantine; Scharff, Aegyp. Forschungen, Heft. 9 (1940).

(٣٧) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٣٠.

(٣٨) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢١٣.

(٣٩) راجع: A.S., VIII, p. 47.

(٤٠) راجع: Urk., VII, p. 5. B ومصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٢٥ ملحوظة (١).

(٤١) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٢٣.

(٤٢) راجع: British Museum Hierog. Text, IV Pls, 2 and 3

(٤٣) راجع: A.S., 38, Pl. LV, 3, p. 389

(٤٤) راجع: A.S., 39, p. 187

(٤٥) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ١٤٩.

(٤٦) راجع: Berlin No. 1203; L.D. II p. 123 b.

(٤٧) راجع: A.S. 33, p–70 f.

(٤٨) راجع: Ibid, p. 32

(٤٩) راجع: Reisner, Kerma II, p. 545.

(٥٠) راجع: L.R., I, p. 270

(٥١) راجع: De Morgan, Cat, Gen. I, 19, No, 94; L D., II, 11 and G.

(٥٢) راجع: Roeder, Debod bis Bab Kalabsha, p. 114 pl. 108 d.

(٥٣) راجع: Save Soderbergh, Agypten and Nubien, p. 72,. Not b

(٥٤) راجع: Weigall, Report, PI, L III

(٥٥) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٢٤ إلخ.

(٥٦) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٢٧.

(٥٧) وهو المعروف باسم «حبزافي» أيضًا.

(٥٨) راجع: Brit. Mus. Stela, No, 569; texts II, 19, 20; Br. A.R., I, § 602; A. Z., 12. III ff.

(٥٩) راجع: L.D. II, 123 e; De Morgan, Cat Gen. I, p. 25, No. 178.

(٦٠) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٤٨.

(٦١) راجع: Aniba, II, p. 11; Emery–Kirwan, p. 55.

(٦٢) راجع: A.S., 33 p. 71 f. ومصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٧٣.

(٦٣) راجع: A.S. Vol. XXXIII, p. 72.

(٦٤) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٧٨–٢٨٩.

(٦٥) راجع مصر القديمة الجزء الأوَّل ص ٣٨٣.

(٦٦) راجع: Sethe, Lssestücke, p. 85; De Morgan Gat., I, 86, No. 20 and 86; Rec Trav., 13, p. 202. وكذلك راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٨٠ إلخ.

(٦٧) راجع: Br., 169 [852]; Hierog. Texts Vol. IV, 10 and Br. A.R., I, § 550

(٦٨) راجع: Berlin, No. 14753, Agyp. Inschrif, Konig, Mus, Berlin I, 255 f; L.D. II, 163, i and Sethe Lesestücke p–84. ومصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٨١.

(٦٩) راجع: Petrie, Season Pl, XIII, No. 340

(٧٠) راجع: Br., A R. Vol. I, § 65; Reisner, Kerma, II, p. 547.

(٧١) راجع: L.D., II, P. 136, Sethe, Lesestucke, p. 83.

(٧٢) راجع: L. D. I, 111-112; Maspero, Larcheologie Egyptienne, p, 9, 29, 30

(٧٣) راجع: Weigall, Lower Nubia, p. 104

(٧٤) راجع: Maclver and Woolley, "Buhen" p. 41, 42

(٧٥) راجع: Dunbar, The Rock Pictnres of Lower Nubia, p. 15, 16.

(٧٦) راجع: L.D., II, 136.

(٧٧) راجع: Naville, 11th Dyn. Temple, Vol. I, Pl, XIX; Vol. II, Pl. II.

(٧٨) راجع: Reisner, Kerma, II. pp. 549-551.

(٧٩) راجع: Reisner, Kerma, II, p. 551.

(٨٠) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٣٠٩ إلخ.

(٨١) راجع: L.D. II, p. 139

(٨٢) راجع: B.M. Hierog. Texts IV. Pl. 16.

(٨٣) راجع: A.S. 33, p. 72.

(٨٤) راجع: L.D. II, 138g; L.D., Texts., V. p. 60.

(٨٥) راجع: Junker, Kubanieh Sud., p. 159.

(٨٦) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٤١٥ و٤١٩.

(٨٧) راجع: L.D. II, p. 114 f.

الفصل الثامن

الحاميات المصرية في بلاد السودان للمحافظة على طرق التجارة

تحدَّثنا في الفصل السابق عن الحملات التي قام بها ملوك الدولة الوسطى حتى نهاية الأسرة الثانية عشرة وما قاموا به من مجهودات جبارة في العمل على استتباب النظام والسلام بين البلدين مما أدَّى في نهاية الأمر إلى إقامة الحصون والمعاقل في جهات عدة لتأمين مراكزهم التجارية في هذا الإقليم المترامي الأطراف من الشلال الأوَّل حتى الشلال الرابع تقريبًا.

ولدينا قائمة بالحصون التي أقيمت في هذه الجهات يرجع تاريخ إقامتها إلى حوالي مئة عام قبل بداية الأسرة الثامنة عشرة عُثِرَ عليها في «طيبة».[١] ومواقع هذه الحاميات التي جاءت في هذه القائمة[٢] تنقسم قسمين: قسم يمكن تحقيق مواقعه، وهو الجزء الأكبر، وقسم مواقعه غير مؤكدة وقد تكشف عنه الحفائر المقبلة في تلك الجهات. وقبل أن نتحدث عن هذه الحصون المختلفة ووظيفتها وطراز بنائها ينبغي أن نسرد أسماءها وهي:[٣]

(١) حصن «داير خاست» (؟) «كيدنكالو» (بورخادرت) Kidinkalo.
(٢) حصن «سخم خع كاو رع-مع خرو» = «سمنة».
(٣) حصن «اتنو-بزوت» = «قمة».
(٤) حصن «خسف أونتيو» = «ورنرتي».
(٥) حصن «وعف-خسوت» = «شلفك» (مرشد).
(٦) حصن «در-وتيو» (؟) أو«در ميتو» (؟) = مرجيس.

(٧) حصن «اقن» = «دابنارتي» = «دابي» (ويشك سمزرد في توحيد هذه البلدة جزيرة دابنارتي الواقعة عند فم وادي «متوكة»).[٤]

(٨) حصن «بهين» = «وادي حلفا».

(٩) حصن «سرة الغرب» (؟) «وادي حلفا» شرق (؟).

(١٠) حصن «خسف مزاي»، «سرة الغرب» (؟) «فرص».[٥]

(١١) حصن «معام» = «عنيبة».

(١٢) حصن «باكي» = «كوبان».

(١٣) حصن «سنمت» = «بيجه».

(١٤) حصن «آبو» = «إلفنتين».

(١٥) حصن «... زد» ...؛ «كوبانية» (؟).

(١٦) حصن (اسم مفقود).

(١٧) حصن «خني» = «جبل السلسلة».[٦]

هذه هي أسماء القلاع كما وُجِدَتْ على البردية وإذا ألقينا نظرة عامة على هذه القائمة وجدنا أن ثمانية من هذه الحصون السبعة عشر قد أُقِيمَتْ في إقليم الشلال الثاني أي من «سمنة» إلى «وادي حلفا»، وكذلك نلاحظ أن ثلاثة منها على أقل تقدير كان لها علاقة بالفرعون «سنوسرت الثالث»، ومن المحتمل أن سبعة الحصون التي في جنوب «وادي حلفا» تنتسب إلى هذا الفاتح العظيم أيضًا، وإذا كان هذا الفرض صحيحًا فإنه يفسر لنا سبب عبادة هذا الفرعون في كل أنحاء بلاد النوبة السفلى. على أننا من جهة أخرى نعلم أن هناك قلاعًا ضخمة كانت قد أقيمت في جنوب هذه القلاع في تاريخ مبكر عن الذي نحن بصدده، وقد أماط لنا اللثام عن هذه الحقيقة الدكتور «ريزنر» بالحفائر التي قام بها في بلدة «كرمة». غير أن ذلك لا يقلل من أهمية الخطوة التي خطاها «سنوسرت الثالث» والتي كان غرضه المعين منها أن يضم مصر وبلاد النوبة السفلى تحت لواء واحد، وذلك بإقامة حاجز منيع عند «بطن الحجر» (الشلال الأول). وهذه الوثائق المدهشة توضح لنا أن بعض القلاع النوبية كان لها وظيفتان أنها كانت بمثابة سدٍّ منيع أمام أي اعتداء حربي منتظر، وكذلك كانت حاجزًا ضد الضغط المستمر الذي كان يهدِّد مصر وأملاكها من جهة الشمال، وهو ما كان يقوم به أهل السودان من الغارات، ومن جهة أخرى كانت تستعمل بمثابة محاطة تجارية. وقد كانت «سمنة»

في عهد الدولة الوسطى آخر الحدود كما نعلم ذلك من لوحتي بطل مصر «سنوسرت الثالث» كما سلف ذكره.

وتحدثنا الرسائل عن أهل الجنوب الذين نزحوا إلى الحدود المصرية ليبيعوا سلعهم، أنهم كانوا يصرفون متاجرهم ثم يقفلون راجعين إلى أوطانهم، وكذلك نجد أن بعض أهل «المزوي» (وهم الذين كانوا يعلنون أنهم أَتَوْا لخدمة الحكومة المصرية) قد سُرِّحُوا إلى الصحراء، ومن ثَمَّ يظهر أنه لم يكن مصرحًا لهؤلاء القوم أن يتخطوا الحدود، وهذا يتفق مع الأمر الملكي الذي نُقِشَ على لوحة «سمنة» الصغرى، حيث يُذْكَرُ فيها أن النوبى الذي أتى ليتجر مع «إقن» الواقعة شمال الحدود، أو الذي جاء لأمر رسمي يمكنه أن يمر شمالِي «حح» وهي التي تُعْرَفُ الآن عادة بأنها واقعة في إقليم «سمنة»، وكذلك لا يسمح لقوارب النوبيين أو قطعانهم بأية حال من الأحوال أن تتخطى الحدود. فالنوبيون الذين سُمِحَ بمرور بضائعهم كانوا تجارًا قاصدين «إقن» لتصريف بعض أنواع منتجات بلادهم، وكانوا يقطعون باقي رحلتهم بالقوارب فقط، وكانت هذه القوارب دائمًا مصرية.

ومما يلفت النظر كذلك في هذه الرسائل، فضلًا عن الصيغة العادية التي نجدها في أسلوب كثير منها في عهد الدولة الوسطى، أنها كانت تحتوى على شيء جديد، وهو التأكيد غير العادي بسلامة الضياع الملكية، والظاهر أن أملاك الفرعون هنا كانت تحتوي على أراضي التاج، ثم تشمل دخل التاج الذي كان يُجْبَى من الضرائب، ومن مصادر أخرى، كالاحتكار وغير ذلك، ومن هذا يتضح أن التجارة على حسب ما جاء في هذه الرسائل كانت عند الحدود يقوم بها موظفون حكوميون لحساب الضياع الملكية (برنسو) وكذلك كان هؤلاء الموظفون هم المسئولون عن البضائع التي كانت تُرْسَلُ من مصر للمبادلة، وكذلك كان موكولًا إليهم أمر إرسال البضائع التي حصلوا عليها من النوبيين بوصفها ملكًا للتاج.[٧]

وقد ذكرنا من قبل أن مصر في عهد الدولة القديمة حتى أوائل الدولة الوسطى لم يكن لها حصون في بلاد النوبة بالمعنى الحقيقي، ولكن عندما أخذ المصريون في استغلال بلاد النوبة وبخاصة فيما بعد الشلال الأول والثاني وإقامة مركز تجاري لهم في «كرمة» في عهد «سنوسرت الأول» أخذوا يقيمون الحصون على طول ساحل النهر لتأمين طرق تجارتهم وللسيطرة على الأماكن الكثيفة السكان وبخاصة في إقليم «دنقلة» وبإقامة هذه الحصون أصبح في مقدورها حراسة السكان الوطنيين الذين كانوا يستخدمونهم في مآربهم التجارية، وذلك بالقوة والنظام معًا.

وهذه الحصون كانت تُقَامُ في وسط الوديان بالقرب من النهر كما ذكرنا من قبل وبذلك تكون الرابطة مع الحصون الأخرى النوبية التي تؤدي إلى الاتصال مع البلاد المصرية نفسها.

وقد كان لزامًا على المصري لأجل السيطرة على نهر النيل نفسه بما لديه من مهارة في فن صنع السفن وبما كان له من طول خبرة بالنسبة لأهل بلاد النوبة السذج أن ينظر إلى هذا الموضوع نظرة الْوَجِلِ الْحَذِرِ لِمَا كان يكتنفه من أخطار. وقد كشفت لنا البحوث الأثرية الحديثة عن طراز حصن من الحصون التي كانت شائعة في هذا العهد وهو يقع في بلدة «عنيبة» الحالية يرجع تاريخه على ما يظهر إلى عهد الهكسوس وذلك في القائمة التي نشرها الأستاذ جاردنر عن حصون بلاد النوبة[٨] واسم البلد القديم هو «معام» وقد اختلف المؤرخون في موقع «معام» هذه، ولكن المؤكد أن موقعها هو بلدة «عنيبة» الحالية. وإقليم «معام» يشمل المواقع القديمة التي كانت على الشاطئين الشرقي والغربي، هذا بالإضافة إلى الجزيرة الواقعة في النيل التي تُسَمَّى جزيرة «أبريم» وجزيرة «الرأس». وقد وجد نقش ذكر عليه اسم الجزيرة: جزيرة «معام». ومعبد هذه البلدة قد تهدم تمامًا ولم يبق له أثر، وكان الإله «حور» سيد «معام» الذي مُثِّلَ بصورة صقر يحمل على رأسه قرص الشمس، أو بإنسان له رأس صقر، ويلبس التاج المزودج هو نفس الإله «حور» الذي كان يُعْبَدُ في «بهين» (وادي حلفا) باسم سيد «بهين» وفي «الدكة» و«كوبان» باسم سيد «باكي». والظاهر أن عبادة «حور» في المدن الثلاث الرئيسية لبلاد النوبة السفلى الجنوبية قد أُدْخِلَتْ في نهاية الدولة القديمة، ويُحْتَمَلُ أن ذلك كان في نفس الوقت الذي كانت تقدس فيه بلدة «أبشك» القريبة من «أبو سمبل»[٩] الإلهة «حتحور» التي كانت تنعت بسيدة «أبشك» وكانت «حتحور» تمثل هناك في صورة بقرة.

وترجع مكانتها الممتازة من الناحية السياسية والثقافية في بلاد النوبة السفلى إلى خصب تربتها، وكثرة خيراتها؛ ولذلك كانت تعد محطة عظيمة لطرق التجارة الآتية من «واحة دنقل» الواقعة في الصحراء الغربية. ولا نعلم إذا كانت هناك طريق للتجارة على الشاطئ الشرقي عند «أبريم» مخترقًا الوديان حتى البحر الأحمر أم لا. ويقول «ويجول»: إن «عنيبة» تحتل مكانة إستراتيجية عظيمة الأهمية، ومن المحتمل أنه كانت توجد في قديم الزمان شلالات عند قصر «أبريم»، وعلى ذلك كان لا بد من إقامة حصن هناك لحماية السفن الذاهبة جنوبًا، ولمهاجمة العدو المنقض من جهة الشمال، غير أننا لا نعرف شيئًا عن هذا الشلال، ومن الجائز أن تحصين «معام» كان يُستعمل لملاحظة التجارة على النيل، كما كان يُعَدُّ مركزًا لجمع الضرائب على السفن التي تمر من هناك.

ويمكن أن نلخص تاريخ «معام» (عنيبة) مما لدينا من الوثائق التاريخية، ومن نتائج أعمال الحفر التي قامت في هذه الجهة في النقط الآتية:

(١) تدل أقدم الآثار التي عُثِرَ عليها في هذه الجهة على وجود مستعمرة يرجع عهدها إلى العصر الثاني القديم من تاريخ بلاد النوبة (أي عصر الأسرات المصري المبكر).

(٢) أما في العصر النوبي الثالث وهو ما يقابل عهد الدولة القديمة المصرية فلم نجد له أثرًا يُذْكَرُ في «عنيبة» كما كانت الحال في الجهات الأخرى لبلاد النوبة، ومن الجائز أن «عنيبة» وكذلك كل بلاد النوبة السفلى قد حاقت بها خسائر على يد أحد فراعنة هذا العهد الذين قاموا بغزوات في هذه الجهات كما جاء على حجر «بلرم»، ومنها حملة في عهد الملك «سنفرو» (الأسرة الرابعة) وقد غنم فيها سبعة آلاف أسير وعشرين ألف رأس من الماشية. ولا نعلم إلى أي حد في عهد الأسرة السادسة قد امتدت مشروعات القوافل التي كان يرسلها أمراء مقاطعة «أسوان» وعظماء تجارها من «إلفنتين» إلى بلاد النوبة والسودان، وذلك لأن أسماء الأماكن النوبية التي جاءت في المتون المصرية لم يمكن تحقيق مواضعها حتى الآن، وهذا العصر هو الذي أسس فيه الوكالات التجارية في «كرمة» التي اتخذها رجال القوافل مركزًا، ومن المحتمل أنه في ذلك العهد قد أقام المصريون محطًّا أو حصنًا كما يدل على ذلك الآثار الباقية.[١٠]

(٣) وعندما استوطن قوم مجموعة C وادي النيل في البقعة التي تقع بين الشلال الأول والشلال الثاني في نهاية الأسرة السادسة أصبحت «عنيبة» بجوار «الدكة» أهم بلدة ممثلة لهذا العهد. وفي الحروب التي نشبت بين الأهالي الأصليين وبين الأقوام الجائلين قاسى الأهالي الذين كانوا على ما يظهر في الحصن عذابَ الحريق الذي جعل عاليه سافله، وهذا العهد هو أقدم جزء في الجبانة N يمكن معرفته، وهو الذي يُعْرَفُ بمجموعة C القديمة.

(٤) وفي نهاية الأسرة الحادية عشرة ابتدأ عهد تَغَلُّبِ مصر الحربي على بلاد النوبة. وقد أقام «سنوسرت الأول» حصن «عنيبة» في مكان الحصن القديم (وهو الذي يُعْرَفُ بالحصن الثاني)، وفي خلال الأسرة الثانية عشرة أقيمت زيادات مُحَسَّةٌ على هذا الحصن. وفي هذا العهد أقيمت للمرة الأولى جبَّانة مصرية في منبسط الصحراء وهي المعروفة بالجبانة حرف S. وعلى الرغم من وجود أثر الفاتح المصري فإن الثقافة النوبية لمجوعة C كانت لا تزال هي الثقافة المزدهرة تمامًا. ولم تتوارَ هذه المدنية إلا في نهاية الدولة الوسطى كما يظهر لنا ذلك من الفخار المنسوب إلى هذه المدنية، فقد أخذ يختفي تدريجًا.

والمقابر العديدة الخاصة بالجبانة حرف N وبخاصة المُقام سقفها بحجر مقطوع من المحاجر، والقباب المبنية باللَّبِنْ قد ظهرت في هذا العهد وكذلك في العهدين الثالث والرابع للمستعمرة أي في مجموعة C الوسطى.

(٥) ولما كان قد قُضِيَ على قوة مصر السياسية في عهد الهكسوس فإن ثقافة مجموعة C النوبية قد انتعشت من جديد، وهذا العهد يُعْرَفُ بعهد ثقافة مجموعة C المتأخرة.

(٦) ولما تمصرت بلاد النوبة في أوائل الدول الحديثة اختفت ثقافة مجموعة C ولدينا كثير من الموظفين المصريين الذين سكنوا في «عنيبة» ودُفِنُوا في مقابر خاصة أُقِيمَتْ لهم، كما يوجد آخرون ممن اهتموا بالعمل على أن تُدْفَنَ جثثهم في أرض الكنانة نفسها لأجل أن تُحَنَّطَ ويُحْتَفَلَ بها دينيًّا. ولكننا لا نعلم على وجه التأكيد إلى أي حدٍّ اشترك النوبيون في «عنيبة» في الحكم. وعلى أية حال نجد أنه كان يعيش بجانب المصريين وبمعزل عنهم سكان أصليون تحت حكم رئيس من بني جلدتهم، ويحمل لقب «أمير معام» ويُدعى «حقانفر»، وقد عاش في عهد «توت عنخ آمون» وكان بين عظماء «واوات» الذين أحضروا الجزية المفروضة عليهم لابن الملك في «طيبة». وقد بقيت السيادة المصرية مستمرة في «عنيبة» حتى حكم الفرعون «رعمسيس السادس».

وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة تم بناء مدينة «عنيبة» التي بدأت في عهد الدولة الوسطى، وكذلك أقيم المعبد في الركن الشمالِي الشرقي داخل السور.

ويتبع الجزء الرئيسي من الجبانة S بما فيها من آبار ومقابر هرمية الشكل هذا العهد، وفي نهاية هذه الجبانة تقع مقبرة «بننوت» العظيمة المحفورة في الصخر.[١١]

وعلى الرغم من أن الغرض من إقامة حصني «كوبان» و«أكور» شيء آخر فإن ظواهر الأحوال تدل على أنهما كانا يقومان بنفس المهمة التي أقيم من أجلها حصن «عنيبة».

ويلحظ أن «وادي الدكة» ينفرج قبالة وادي الكوبانية وهنا نجد جبانات عظيمة خاصة بمجموعة ثقافة C تكشف لنا عن وجود مستعمرات كثيفة السكان من أهالي النوبة، ويمتد الوادي في الشمال حتى شمالِي «أكور» وهذا الحصن بوجه خاص قد أقيم لحراسة السكان الوطنيين. ويدل موقعة في الشاطئ الغربي على أنه كان صالحًا لهذا الغرض صلاحية عظيمة، ولكن كان موقع «كوبان» من هذه الوجهة هامًّا. والواقع أن إقامة الحصن على الشاطئ الشرقي كان يتوقف على الوظيفة الخاصة التي كان

يؤديها وهي تأمين طرق المواصلات المؤدية إلى مناجم الذهب والنحاس الواقعة في «وادي العلاقي».

ومن الصعب كذلك إيجاد تفسير آخر لإقامة حصني «سرة الغرب» و«فرص»؛ غير أن كلًّا منهما قد أقيم لحراسة بلاد النوبة، والواقع أنه لا يقع واحد منهما في مكان إستراتيجي هام، هذا إلى أن قيمتهما لم تكن عظيمة في تأمين التجارة الذاهبة إلى «بهين»، وكذلك لم يكن لهما أهمية عظيمة بالنسبة للتجارة مع السودان لأنهما لم يكونا مَحَطَّيِ انتظار للسفن النيلية تحتمي فيهما في أثناء الليل.

وحسن «سرة غرب»[١٢] صغير الحجم وهو الآن مُدَمَّرٌ حتى أصبح من الصعب أن يقف الإنسان على معالمه الأصلية وهو مستطيل الشكل وبه أبراج متقابلة مُقامة في أركانه وجدرانه مقسمة أقسامًا تتبادل فيها الطبقات المبنية بصورة مُجَوَّفَةٍ مُقَبَّبَةٍ. وهذا النوع من المباني لا نجده في الحصون النوبية الصميمة بل في الواقع هو النوع الذي كان عاديًّا في مصر، والاسم القديم لهذا الحصن هو «انق-تاوي» ومعناه «ضام الأرضين». ويقول «جاردنر»: «لقد لاحظت عند «سرة غرب» على مسافة خمسة عشر ميلًا شمالِي «حلفا» وبصحبتي مستر «جفري ميلهام» أن الجدران التي تحيط بالكنائس هناك كانت بلا شك لحصن قديم من عهد الدولة الوسطى».

أما عن حصن «فرص» المُسَمَّى «طرد المزوي» (خسف مزاو) فيقول الأستاذ «جاردنر» إنه لا يمكن أن يقطع فيه برأي لأن تحصيناته يظهر أنها من عصر متأخر عن ذلك بكثير، ومع ذلك فإنه قد عثر على نحو مئة قطعة من اللبنات مختومة، وكذلك عثر على قطع أكبر من السابقة كلها توحي بأن هذا الحصن قد يُؤَرَّخُ بالدولة الوسطى، ويلحظ أن هذا الحصن لم يكن يقع على شاطئ النهر مباشرة بل يقع في واد بعيد بعض الشيء عن النهر حيث كان على ما يظن يصل إليه فرع من النيل يدل على ذلك بقايا مرسى لا تزال موجودة هناك. وفي داخل هذا المبني الصغير يوجد ما يدل على وجود بيوت وزرائب ومخازن غلال.

مواقع مناجم الذهب في الصحراء وإقامة الحصون لحمايتها:

تحدثنا في الجزء الثاني من «مصر القديمة» (ص ١٨٩–١٩٥) عن الذهب وأنواعه وكيفية الحصول عليه والأماكن التي كان يوجد فيها في وادي النيل النوبي وغيره. والواقع أن الذهب النوبي هو أهم مادة بحث عنها المصريون في بلاد النوبة السفلى وقد كان أول معدن ذكر عندهم. ومناجم الذهب التي استغلها المصريون في الصحراء الشرقية من مصر وبلاد النوبة تنقسم ثلاث مجاميع،[١٣] فالمجموعة الأولى تقع في أقصى الشمال من وادي النيل في «وادي حمامات» «قنا» وهو في منتصف الطريق المؤدية للبحر الأحمر. ومن هذا المكان كان يُستخرج الذهب المُسَمَّى ذهب «قفط» أو ذهب صحراء «قفط» وفي المجموعة الثانية أو الوسطى يوجد منجم ذهب «پرامية» ويصل إليه الإنسان من «إدفو». والمجموعة الأخيرة أو المنجم الجنوبي ويقع في «وادي العلاقي» «أم جرايات» و«أم ثورة»، و«بير إيجات» و«دراهيب»)، وكذلك كان يُسْتَخْرَجُ من الوديان القريبة من «وادي العلاقي» وأهمها «وادي مرا» و«سيجا» (Seiga) و«دراهيب» وتوجد بقايا بعض بيوت قديمة لا يزال فيها مغاسل وطواحين يد للطحن.[١٤] وهذه المناجم لم يُحَدَّدْ زمنها على وجه التقريب، ويوجد في «بير إيجات» (Eigat) على الآبار نفسها رسوم تمثل ثيرانًا ذات قرون طويلة وإشارات هيروغليفية فجة، هذا بالإضافة إلى نقوش تركها كاتب يدعى «أمنحتب»[١٥] وكذلك وُجِدَ في «دراهيب» قطعة من إناء حجري،[١٦] ويقع هذا المكان في «وادي العلاقي» على مسافة بضعة أميال من جهة السودان على الحدود المصرية السودانية، وهو ضمن الإدارة المصرية.

وقد وصلت إلينا طريقة العمل في هذه المناجم في العهد الفرعوني، وقد وصفها لنا الكاتب الإغريقي «أجاتارخيدس» (Agatharchidis)[١٧] يضاف إلى ذلك الاستغلال الذي كان يقوم به عدد عظيم من الناس دون أي نظام. ولا نعلم شيئًا مؤكدًا عن هذه الطرق من المصادر الفرعونية، ومن المشكوك فيه أن المصري نفسه كان يقوم بمراقبة استخراج الذهب. ومن المحتمل أن العبارة التي فاه بها «ساحتحور»[١٨] كما ذكرنا من قبل وهي «لقد ابتززت الذهب الكثير بالغسل» تشير إلى أن الأمراء النوبيين كانوا هم المسئولين عن تحصيل الذهب، وأن الدخل كان يُدْفَعُ للمصريين بمثابة جزية. وتدل شواهد الأحوال على أن الذهب في هذا الوقت (كما كان في عهد الدولة الحديثة بعدُ) يمثل الجزية التي كان يدفعها الأمراء النوبيون للموظفين المصريين، ومن ثَمَّ نفهم أن المصريين أنفسهم كانوا لا يستخرجون الذهب.

النحاس: ومن الجائز أن النحاس كان يُسْتَخْرَجُ كذلك من «وادي العلاقي» وذلك على الرغم من أنه لم تصل إلينا وثائق مدوَّنة عن ذلك إذا ما قرن بنقوش «وادي الهودي»؛ وذلك أنه في وادٍ جانبي متفرع من «أم قربات» نجد في مكان يُدْعَى «أبسيل» طبقة نحاسية، هذا إلى وجود مناجم قديمة.[١٩]

وقد أقيم عند فم «وادي العلاقي» حصن قوي ليكون نقطة ارتكاز للمناجم يُدْعَى «باكي».[٢٠] والظاهر أنه أول حصن أقيم في عهد «سنوسرت الأول» وقد حل محله حصن أكبر كما حدث في «عنيبة». ويظن «إمري» و«كيروان» أنه قد أُسِّسَ في عهد «سنوسرت الثالث»، ولكن طراز بنائه يدل على أنه أقيم في عهد «سنوسرت الثاني». ويدل مظهر حصن كل من «كوبان» و«إكور» على أنهما متشابهان، هذا إلى أن حصن «إكور» لم يذكر في قائمة الحصون السالفة الذكر مما جعل الأثري «فرث» يظن أنهما بناء يكمل أحدهما الآخر، فقد استعمل حصن «كوبان» لتنظيف المعدن المستخرج من المناجم المجاورة، وبعد ذلك كان يُحْفَظُ في حصن «إكور» ومن المحتمل أن الذهب الذي أتى به «أميني» في عهد «سنوسرت الأول» بحماية كتيبة حربية، يُعَدُّ برهانًا على أنه على الرغم من احتلال البلاد احتلالًا عسكريًّا كان يحسب حساب هجمات يقوم بها الأهالي، وأن اتخاذ مثل هذه الاحتياطات كان لا بد منه. ولا نزاع في أنه كانت توجد في «كوبان» لا في «إكور» رواسب معدنية، وهذا يدل على أنه لم يوجد في هذا الحصن الأخير إلا المعدن الغفل الذي تم إعداده، هذا إلى أن موقع «إكور» على الشاطئ الغربي يوحي بأن هذا الحصن كان يقوم بنفس الوظيفة التي كانت تقوم بها «عنيبة» في عهد الدولة الحديثة، ذلك العهد الذي كان يسوده السلام والطمأنينة. هذا ويدل وقوع هذين الحصنين عند فوهة «وادي العلاقي» على مقدار ما كان لهذه المناجم من أهمية عند المصريين. ونجد في مقابر عظماء القوم من عهد الأسرة الثانية عشرة وبخاصة في جبانة مقر الملك أن الأثاث الغزير الذي كان يُصْنَعُ من مواد غير ثمينة قد أصبح يُصْنَعُ من مواد أثمن، ولا شك في أن ذلك مرتبط باستخراج الكنوز الطبيعية من بلاد النوبة، وقد لعب الذهب دورًا خاصًّا في صناعة هذا الأثاث، وقد أخذت أهمية الذهب تزداد من هذه الناحية منذ هذه اللحظة، ولا أدل على ذلك من المجوهرات التي عُثِرَ عليها في «دهشور» و«اللاهون» وهي التي تُعَدُّ من أفخر المصنوعات الذهبية التي أخرجها الصانع المصري في هذا العهد.[٢١] وقد أخذ الذهب يحتل مكانة عظيمة في التجارة مع البلاد الشمالية المجاورة لمصر كما يدل على ذلك الكنز الذي عُثِرَ عليه في «ببلوص» (جبيل)، يضاف إلى ذلك أن بلاد النوبة كانت تُعَدُّ طريقًا هامة

للتجارة المصرية مع البقاع الجنوبية التجارية؛ ومن أجل ذلك كانت الحصون النوبية على جانب عظيم من الأهمية لحراسة الأهالي ولتأمين طرق التجارة الذاهبة إلى السودان.

ويوجد ما لا يقل عن سبعة حصون من التي ذُكِرَتْ في القائمة السالفة الذكر في منطقة «الشلال الثاني». وجميع هذه الحصون تقع في مساحة لا تزيد عن ستين كيلو مترًا، ويرجع سبب ذلك إلى خاصية هذا السهل الذي تقع فيه وما كان لهذه الحصون من مهام ضرورية تقوم بها. ففي جنوب «بهين» مباشرة تنتهي المسافة التي كان يمكن للمسافر أن يقطعها بوساطة النهر بسهولة، وبعد ذلك نجد شلالات عدة وجزرًا يصعب مع وجودها السير في النهر. وقد تجمعت هذه العقبات في مسافتين أُولاهما: ما بين «بهين» و«مرجيس داب» والأخري ما بين «شلفك» و«سمنة».

ولا نزاع في أنه كانت توجد في العهد القديم تجارة نهرية على الرغم من كل ذلك، وقد لاحظ الأستاذ «ريزنر»[٢٢] في أثناء الحفر الذي قام به في هذه الحصون مدة عشرين سنة أنه كان يقوم أسطول تجاري من السفن الصغيرة من السودان ثلاث مرات في السنة من يوليو/تموز حتى يناير/كانون الثاني ويمر في الشلالات، وقد سَلَّمَ بأن قدماء المصريين كانوا يعملون مثل هذا العمل وكانوا يمرون بالحملات الحربية بخاصة في هذه الجهات، ومن المحتمل كذلك أنه كانت تقوم مبادلات تجارية بالسفن.[٢٣] ويؤكد ذلك الآن النقوش التي عُثِرَ عليها حديثًا في «ورنرتي» وهي مؤرخة بالسنة التاسعة عشرة من عهد الفرعون «سنوسرت الثالث» وقد سبق التحدث عن ذلك، كما يؤكده ما جاء في لوحة «سمنة» الخاصة بهذا الفرعون نفسه وهي التي حَرَّمَ فيها على السودانيين تعدي الحدود بالسفن.

ويدل كذلك ذكر تعداد السفن عند «الشلال» في تنجور في عهد «تحتمس الأوَّل» على وجود هذه التجارة النهرية في مصر القديمة.[٢٤] وأخيرًا نجد أن فكرة وقوع «ورنرتي» على جزيرة غير مفهوم إذا أنكر الإنسان إمكانية قيام تجارة نهرية هناك كما ذكر ذلك الأثري «بورخارت».[٢٥] والواقع أن هذا المنبسط من الأراضي الواقع عند الشلال الثاني والذي يصعب المرور فيه كانت فيه مخابئ يستتر فيها الأهالي عند قيام اللصوص بهجمات مفاجئة على التجارة المارة هناك، كما كان صالحًا من جهة أخرى لمرور الحملات التأديبية على أهالي النوبة الثائرين، وأخيرًا تمثل هذه الجهة الممر الطبعي الذي كانت تزحف منه القبائل السودانية نحو الشمال. ومما يُؤْسَفُ له جد الأسف أن البقعة الواقعة بين «سمنة» و«كرمة» لم تُبْحَثْ بحثًا كافيًا؛ ولذلك فإننا لا نكاد نعرف شيئًا عن ثقافة الأهالي هناك.

ويرجع السبب في وجود حصون «الشلال الثاني» إلى ثلاثة أمور، أوَّلها أنها أقيمت هناك على وجه عام لمراقبة وحماية السياحة والتجارة، وثانيها حراسة السهل حتى لا تطأ قدم معادية من السكان هذه الجهة، وثالثها أنها كانت تُعَدُّ بمثابة حاجز في وجه المهاجرين من السودان إلى مصر.

ولما كانت الرابطة بين الحصون بطريق الماء ليست سهلة في بلاد النوبة العليا كما هي الحال في بلاد النوبة السفلى فإن كل حصن على وجه عام كان يعتمد على نفسه؛ ولذلك أقيمت الحصون بطريقة تجعل كل واحد منها يحتوي على حامية صغيرة تصد غائلة الهجوم المفاجئ، ولذلك كان يوضع في كل حامية عدد من الرجال للقيام بالأعمال والواجبات الأخرى التي تقتضيها ملابسات الأحوال، فإذا اتفق أن السفن الخاصة بالحملات الحربية أو الحملات التجارية عجزت عن المرور بسهولة في الجهات الجنوبية النائية بسبب الشلالات كما سبق وصف ذلك في نقش «ورنرتي» فإنه في مثل تلك الحالة يُسْنَدُ إلى بعض من رجال الحصن القيام بهذا العمل الشاق دون أن يُؤْخَذَ من حامية الحصن نفسها أحد، وعلى ذلك أصبح في الإمكان تبادل المساعدة بين حصن وآخر، وقد كان على العمال الذين يجرون السفن أن يسيروا على الساحل دون حماية حربية مما جعل من السهل الهجوم عليهم، ومن أجل ذلك كان المرور صعبًا، فكان لا بد من تقريب الحصون بعضها إلى بعض فنرى في المنطقة الجنوبية بين «سمنة» و«شلفك» أن هذه الحصون لا يبعد الواحد عن الآخر أكثر من مَدِّ البصر، وعلى العكس من ذلك نجد أنه بين «مرشد» و«مرجيس» حيث المرور أسهل، لم يُكْشَفْ عن أكثر من حصنين رديئين وقد أُصْلِحَا عدة مرات ولا يمكننا أن نؤرخهما على وجه التأكيد.[٢٦]

وقد بُنِيَتْ ميناء تفريغ في «بهين» وهي النقطة النهائية الطبيعية للتجارة النهرية في بلاد النوبة السفلى، وقد كُشِفَ في هذا المكان عن حصن يرجع تاريخه للأسرة الثانية عشرة، والآثار التي كُشِفَ عنها فيه لا تمكننا من تأريخه على وجه التأكيد، ولكن الآثار التي عُثِرَ عليها في «بهين» وهي التي ترجع إلى عهد «سنوسرت الأول» تجعلنا نؤرخ هذا الحصن على الأرجح بزمن هذا الفرعون. وعلى الرغم من عدم وجود ميناء نهرية فإنه ممَّا لا شك فيه وجود ميناء للتفريغ في هذا المكان لكل الأراضي الجنوبية وإلا فلا نجد تفسيرًا آخر طبيعيًّا لوجود هذه المؤسسة. والواقع أن «بهين» كانت قبل كل شيء تقوم بدور عظيم بوصفها نقطة نهائية للتجارة النهرية في الأزمان الغابرة عندما كان «الشلال» بوجه عام لا يمكن عبوره. وكان لا يمكن تبادل التجارة من هنا جنوبًا أو

شمالًا إلا بوساطة طريق البر فقط، ولا نعلم إلى أي حد كانت تفرغ البضائع كذلك هنا خلال الفصل الذي كان يمكن للسفن أن تمر فيه في النهر، كما لا نعلم إذا كانت هناك سفن أخرى تُسْتَعْمَلُ في مياه الشلال خلاف السفن النيلية المعتادة.

ويلحظ أنه في الجنوب عند «سمنة» حيث يكون مرور السفن في النيل أسفل لم تكن الأرض السهلة هناك صالحة بوجه خاص لإقامة ميناء تفريغ؛ ومن أجل ذلك كان على التجار الأهلي الوافد من السودان أن يسير حتى يعبر «إقن» وكان يُفَتَّشُ عليه بعدُ في الجانب الآخر من الشلال على أن تجمُّع هذه الحصون عند الحدود الجنوبية سهلت القيام بمراقبة شديدة، وكذلك كان يمكن مراقبة الأجنبي في السفر من الحدود حتى «إقن». ومما يُؤْسَفُ له أننا لا نعرف موضع «إقن» بصفة مؤكدة وكل ما نعرفه عن موقعها لا يخرج عن التخمين وقد وحَّد الأستاذ «ريزنر» بلدة «إقن» ببلدة «بهين» دون أن يقدِّم لنا البراهين على ذلك.[٢٧]

أما عن مراقبة التجارة بالبر فليس لدينا إلا الحصون المقامة على شاطئ النهر فالأجنبي الوافد يمكن الإعلان عنه في الوقت المناسب في «سمنة» جنوبًا، وذلك أنه كان يخترق عرض الحصن الرئيسي في «سمنة» شارع، وكانت قوافل التجارة على ما يظهر تمر فيه للتفتيش والمراقبة، وكذلك المؤسسة الصغيرة الواقعة غربي «سمنة» كانت مُقامة لأجل الإشراف على القوافل التجارية، أما أجزاء الحصون التي لم تكن ضرورية للدفاع فكان يقوم حُرَّاسُهَا بجر السفن في جهة الشلال وحراسة الأماكن التي تحيط بها الصحراء، فإذا كشفت دوريات الحراسة هجومًا معاديًا من هذه الجهة أعلنوا ذلك للحصون المجاورة ويمكنهم بالتعاون مع هؤلاء صد المغيرين، كما كان في مقدورهم بوساطة جنود الإشارة الاستنجاد بجنود من الحصون الشمالية، ومضمون لوحة «سمنة» يوحي بأن الحصون قد أقيمت أولًا لتكون سدًّا منيعًا عند الحدود في وجه كل من يريد المرور إلى داخل البلاد المصرية بدون إذن، غير أن الكشوف في «كرمة» قد برهنت على أن الفائدة العظمى التي كان يسعى وراءها المصري في السودان هي الفائدة التجارية، ومن أجلها كان لزامًا عليه أن يعمل كل ما في وسعه لتسهيل مرورها في الشلالات دون أي عائق.

ونعرف مما نستنبطه من طبيعة بلاد السودان نوعين مختلفين من طُرُزِ الحصون: النوع الأول الحصون التي كانت تُقام في الوديان، والنوع الآخر كان يُؤَسَّسُ في الجبال. والنوع الأول نجده في بلاد النوبة السفلى حيث كان يُقام الحصن على النهر ففي «فرص»

يُلَاحَظُ أن النهر قد غَيَّرَ مجراه، فَبَعُدَ الحصن بعض الشيء عن النهر. ويمكن تفقد التصميم الأصلي لهذا الحصن من وجهتين، إذ يوجد في داخل المبنى على طول امتداده فضاء كبير في داخل الحصن على هيئة مربع وبجانب ذلك ميناء نهرية ليست بعيدة عن النهر ومحمية بالجدران. ومن هذين العنصرين يتألف الحصن على هيئة مستطيل أبعاده طويلة وضلعه الطويل محاذٍ للنهر، ويلاحظ أن أقوى التحصينات يقع في ضلع الحصن المطل على اليابسة؛ وذلك لأن الهجوم من جهة الماء يكون صعب المنال جدًّا، هذا إلى أن المصري كان في استطاعته دائمًا أن يسيطر على النهر بما أوتي من مهارة في قيادة السفن ودراية في فن الملاحة.

وتتجلى التحصينات المبنية التي كانت تُقام من جهة البر في الحصون التي كانت تقع في الوادي بوجه عام. فكان يُقام حول الحصن منحدر حتى لا يجد العدو أي مكان يحتمي فيه في أحجار الأرض عند هجوم مَنْ في الحصن عليه. وفي داخل هذا المنحدر كان يدور حول جدرانه حفر مجففة محفورة في سطح الأرض أو في الصخر. وتدل كسوتها التي كانت تُعمل في الغالب من طين النيل على أنها لم تكن تُملأ بالماء.

وفوق ذلك كان يقام طوار هزيل منخفض ومُقَوًّى بالأبراج الصغيرة وفي داخل هذا المبنى كانت توجد طريق ضيقة وبعد ذلك يأتي الجدار الرئيسي العالي القوي البنيان الذي كان يُحَلَّى غالبا بخارجات تشبه الأبراج وخلف هذه الخارجات يوجد أحيانًا شارع ضيق كان يمكن أن تسير فيه الجنود والمهمات بحماية الجدار الرئيسي.

وكان الغرض من هذا الطوار بلا نزاع هو أن تكون الرماية أكثر أثرًا؛ لأن الرماية من الطوار المنخفض ليست كبيرة المفعول كالرماية من الطوار العالي، وعندما يقرب المهاجمون من الحصن يكونون تحت نيران جنود البرجين أو الطوارين وتبتدئ الزاوية الميتة أو بعبارة أخرى الأرض التي لا يصيبها مرمي الذين يصوبون سهامهم من المبني الرئيسي عند الحفر الواقعة أمام الطوار ويكون في مقدور المدافعين عن الطوار أن ينسحبوا بوساطة باب الحصن عند الحاجة تحت حماية النيران المنطلقة من الجدار الرئيسي. ونجد في الحصون المقامة في منطقة الشلال فقط أن السهل كان هو العامل الفعال في تكييف صورة الحصن ففي مثل هذه الحصون كان على المهاجم أن يتسلق الجدران التي كانت ملغمة بالعقبات، كما كان عليه أن يتغلب على المرتفعات العمودية التي كانت بطبيعة الحال مُقَامَةً هناك.

أما في الحصون الجبلية التي توجد في جهة الشلال فقط فإنه على العكس يكون التل هو العامل الفاصل في تكوين الحصن وفي كيفية إقامته. وكان على المهاجم في هذا الحال

لأجل أن يستغل السهل ليصل إلى سفح جدار الحصن أن يتسلق عقبات، كما كان عليه أن يصعد مرتفعات عمودية وإلا فإن الميزة الإستراتيجية للحصن تصبح على العكس لا قيمة لها. ولكن إذا كانت الأحوال تحتم على العدو أن يندفع إلى أعلى فإنه في هذه الحالة يكون في إمكان المهاجمين إيقاد نار لإغاثتهم، ومن أجل ذلك كان من الضروري بناء كل الطنف التي في الحصون المقامة على الهضاب بجدران طويلة ويمكن مشاهدة التصميم الخاص بذلك في بناء حصن «ورنرتي» حيث نجد أن الحصن يتألف من جدار واحد طويل ينقسم متفرعًا عند نقطة فرعين يقع الحصن الرئيسي في حضنهما.

وإذا كانت الأرض التي تقع خارج الحصن عظيمة الانحدار فلا توجد في هذه الحالة ضرورة لإقامة سور خارجي، إذ إن مثل هذا السور يكون ضروريًّا لتكوين زوايا ميتة للرماة في البناء الرئيسي ليكون في مقدور الرماة بما لديهم من أسلحة قديمة تصويب مرماهم بدقة وإحكام على المهاجمين خارج الحصن. ومن أجل ذلك نجد أن معظم حصون «الشلال» قد أقيمت على صخور منحدرة، فليس فيها دائمًا نظام إقامة السور المزدوج. وفي حصن «مرجيس» يوجد على جانبه الواقع تجاه البر جداران متوازيان يبعد أحدهما عن الآخر، وقد بُنِيَ كل منهما بناءً محكمًا. والآن يتساءل الإنسان عما إذا كان هذان الجداران قد بُنِيَا في عهد واحد أو في عصرين مختلفين، والواقع أنه ليس لدينا ما يثبت الرأي الأخير مما لدينا من آثار. ومن المحتمل أنه كان يوجد سور أمامي في «قمة»، ولكن يحتمل أن ما نشاهد في «مرجيس» ليس إلا تقوية للسور الرئيسي.[٢٨]

ومما يلفت النظر في الحصون المقامة في الصحراء كيفية الحصول على الماء، والواقع أنه كان يوجد في الحصن باب خاص يفتح على النهر مباشرة. وكان يوجد هناك ممر سري لا يراه الأعداء يبتدئ عند هذا الباب ويستمر مسافة وكان مُغَطًّى بأحجار مسطحة. ونجد مثل هذا النظام في حصن «سمنة» وفي حصني «ورنرتي» و«كوبان» والحصن الأخير يقع في الوادي ولكنه مبني في الصخر؛ وعلى ذلك لم يكن من المستطاع حفر آبار فيه.

وكان كل حصن مجهَّز بمعبد وقد وُجِدَ فعلًا في هذه الحصون مبانٍ تشبه المعبد في كثير من الأحوال وقد اتضح أنها للعبادة، وذلك بما وجد فيها من آثار تدل على ذلك، كما نشاهد ذلك في حصن «ورنرتي» بصفة قاطعة، إذ وُجِدَ في هذا الحصن بناء يحتوي على ثلاث حجرات صغيرة وردهة تحتوي على أحد عشر نموذجًا من الرغفان المصنوعة من الخشب ومن بينها رغيف نُقِشَ عليه: «السنة الثالثة والثلاثون من عهد «أمنمحات

الثالث»[٢٩] ومما يؤسف له كثيرًا أن الحصون الواقعة في السهل في بلاد النوبة قد وُجِدَ داخلها محطمًا، ولذلك لم يكن في مقدورنا معرفة وظيفة المباني الداخلية التي تحتويها تلك الحصون.

وكان يوجد في كل حصن بصفة مستديمة غير البيوت التي يسكنها الجنود والقواد مخزن غلال وبيت مال، فقد وُجِدَ من بين اللَّبِنَاتِ المختومة التي عُثِرَ عليها في «ورنرتي» لبنات مطبوع عليها المتن التالي: مخزن غلال حصن «خسف أونتيو». و«بروي حز» (بيتا الفضة) الخاصان بحصن «خسف أونتيو» «ورنرتي»، ومن ثَمَّ نعرف أنه كان لكل حصن إدارته الخاصة التي تتصل بمكتب الوزير وبالسلطات المصرية الأخرى مباشرة، هذا ولدينا طابع أختام هذه السلطات عُثِرَ عليه في حصن «ورنرتي» وترجع إلى بداية العصر الذي بل عهد الأسرة الثانية عشرة ولكنها بلا شك كانت متصلة بالأسرة الأخيرة على وجه التأكيد.

وقد وصل إلينا طوابع أختام على لَبِنَاتٍ لموظفين مختلفين ولأشخاص غير موظفين ولكن لا يمكننا أن نحكم على وجه التأكيد بأن هؤلاء كانوا ضمن موظفي الحصن.

ولا نزاع في أنه كان بين هذه الحصون روابط قوية يدل على ذلك تلك الآثار التي عُثِرَ عليها في «ورنرتي» وهي طوابع أختام من حصون أخرى مثل حصون «سمنة» و«شلفك» و«إقن» و«بهين» ولا غرابة في ذلك فإنه كان من الضروري أن تكون هذه الروابط موجودة بين هذه الحصون إذ إن جنودها مصريون، وكان العمل الذي يقوم به كل حصن هو نفس العمل الذي تقوم به الحصون الأخرى ولا يبعد أنها كلها كانت تحت إدارة رئيس أعلى وإدارة واحدة تربط بعضها ببعض.

هوامش

(١) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٤١٦–٤١٨.

(٢) راجع: J.E.A., 3, p. 155 ff.; and Save, Agypten, und Nubien p. 21.

(٣) المصادر التي يمكن الرجوع إليها في تحقيق أسماء هذه الحصون خلافًا لما ذكرنا هي: Borchardt, Altägypt., Festungen; Reisner, Kerema, II, p. 549; p. 25, Anm. 4. وقد تحدث عن هذه المعاقل وأورد أسماءها الأثري سيف زودربرج (راجع Save, Agypten und Nubien, p. 81 ff.).

(٤) راجع: Onomastica, 1, 10 Note 4.

(٥) راجع: Ibid, 1, II, Note 1.

(٦) وتوجد بعض الاختلافات في هذه الأسماء والأسماء التي أوردها سيف زودربرج (راجع Save, p. 81 f.).

(٧) راجع: J.E.A. Vol. XXXI, p. 5.

(٨) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٤١٧ إلخ.

(٩) راجع: Gautheir, Die, Geog, I, p. 65.

(١٠) راجع: Steindorff, Aniba, II.

(١١) راجع: Steindorff, Aniba, I, p. 21 ff. ومصر القديمة الجزء الثامن ص ٢٨٩–٢٩٣.

(١٢) راجع: J.E.A., Vol. 3, p. 190.

(١٣) راجع: Blankenhorn, Aegypten (Steinmann and Wilkens, Handb. d. regionalen Geologie VII Bd. 9), p 196 ff.; Williams, Gold and Silver Jewellery and related objects (New York Hist. Soc. Cat. Eg. Ant). p. 15 ff. Bibliotheque in Krenkel, Geological Africus I, (Geologie der Endé), p. 409.

(١٤) راجع: Wilkenson, Manners and Customs, III, 229 Sudan Notes and Records, 20, (1937), P. 313 ff.

(١٥) راجع: A.S, 4. p. 278

(١٦) راجع: A S., 24, p. 10

(١٧) راجع: Diodor, III, Comp. K. Fitzler steinbruche und Bergwerke im pitol. u. Rom. Agypten (Diss. Lps., 1910), p. 54.

(١٨) راجع: Br., A.R., I, § 602

(١٩) راجع: Lucas, An. Mat., P. 162

(٢٠) راجع: Emery–Kirwan, Report, p. 26 ff.

(٢١) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٤٥٤.

(٢٢) راجع: Sudan Notes and Records, 12, p. 147.

(٢٣) راجع: A.S., 29, p. 10.

(٢٤) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص 259.

(٢٥) راجع: Borchardt, Altag. Festungen, p. 24.

(٢٦) راجع: Sudan Notes and Records, 15, (1932), p. 256.

(٢٧) راجع: Reisner, Kerma, II, p. 549.

(٢٨) راجع: J.E.A. Vol. 3, p. 173.

(٢٩) راجع: Sudan Notes and Records, 14, (1931), p. 5.

الفصل التاسع

علاقات مصر بالسودان في عهد الدولة الوسطى

رأينا فيما سبق المجهود الذي بذله ملوك الأسرة الثانية عشرة في إخضاع القبائل الثائرة والأقوام التي كانت تُغِيرُ على التجارة المتبادلة بين القطرين، وكيف أن ملوك هذه الأسرة قد مهدوا السبيل لاستتباب الأمن بإقامة المعاقل والحصون في مختلف جهات بلاد النوبة من أول «الشلال الأول» حتى «الشلال الثالث». غير أن إقامة الحصون وتزويدها بالجنود المصريين ليدل دلالة واضحة على أن الأمن لم يكن مُسْتَتِبًّا في بلاد السودان على الوجه الأكمل، بل على العكس يدل على أن المصريين كانوا يخافون شر هجمات القبائل المُعادية، وتدل شواهد الأحوال على أنه كان بجوار هذه الحصون بعض المستعمرات ولكنها لم تُبْحَثْ حتى الآن بحثًا كافيًا يمكن به استنباط حقائق مقررة، هذا إلى أن مدن الدولة الحديثة التي أقيمت على أنقاض هذه المستعمرات مثل «عنيبة» و«بهين» قد خُرِّبَتْ كذلك ولم تُحْفَظْ لنا من هذه المؤسسات إلا بعض بيوت في حصون الشلالات وقد فحصت.

والواقع أن هذه المستعمرات أو المؤسسات لم تكن مراكز سكن مريحة بصورة مرضية، وذلك لأنه لم تكن هناك أراضٍ خصبة صالحة للزراعة بجوار هذه المؤسسات؛ وعلى ذلك فليس من السهل أن نستخلص نتيجة أكيدة من بقايا المباني التي حُفِظَتْ لنا حتى الآن عن استعمار المصريين لبلاد النوبة السفلى في عهد الدولة الوسطى، ومن المحتمل أن الإضافات التي عُمِلَتْ في حصن «عنيبة» إلى أن أصبحت مدينة صغيرة قد تكشف لنا الغطاء عن الحقيقة القائلة بأن المصري قد هاجر إلى بلاد النوبة السفلى واستوطن هناك، وأن الحال كانت مثل ذلك تمامًا في «بهين» إذ نجد غير حصن الدولة الوسطى مؤسسة كبيرة نسبيًّا يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرة الثامنة عشرة وتقع تحت مباني المعبد الذي أقامه «أحمس الأول» وتتفق اتجاهاتها مع اتجاهات الحصن القديم[١]

والطبقة التي وجدت فيها جدران هذه المؤسسة تقع على علو ٧٠ سم من أساس حصن الدولة الوسطى، وعلى ذلك يظهر أنها أحدث من الأخيرة، وقد أقيم هذا الحصن القديم في أوائل الأسرة الثانية عشرة ويُحتمل في عهد الملك «سنوسرت الأول»، وعلى ذلك تنتسب هذه المؤسسة إلى الزمن الذي يلي الأسرة الثانية عشرة، ومن ثَمَّ لا توجد جدران حصون من عهد الدولة الوسطى، والظاهر أنها تقع خارج الأراضي التي يحجبها السور، ولا بد إذن أنها قد بُنِيَتْ في وقت كانت فيه العلاقات الودية على ما يرام، ولم يكن المصري يخاف وقتئذٍ شَرَّ أي هجوم من النوبي.

وقد لاحظنا أن نظام إقامة الحصون في عهد «سنوسرت الثالث» عند الشلال الثاني هو لتأمين الحدود الجنوبية من إغارة النوبيين، ولذلك فإنه عُدِّل تعديلًا تامًّا، وتدل شواهد الأحوال كما ذكرنا من قبل على أن العهد الذي تلا حكم «سنوسرت الثالث» كان على ما يظهرُ عهدَ سلام ووئام. ومن المحتمل إذن أن المباني التي نحن بصددها قد أقيمت في هذا العهد، وهذا يتفق تمامًا مع ما نشاهده من أن معظم المقابر القديمة في «بهين» تُنْسَبُ إلى هذا العهد وهذا يشير إلى ازدهار هذه المستعمرات.

ومما عُثِرَ عليه في المقابر المصرية التي أُقِيمَتْ في بلاد النوبة السفلى نستنبط أن المصري كان يكره لنفسه بدرجة عظيمة أن يُدْفَنَ جثمانه في بلاد أجنبية، وقد كان من نتائج ذلك أن أجسام موتى كل أصحاب اليسار كانت تُنْقَلُ إلى أرض الوطن، ولدينا أدلة على ذلك مدونة في عهد الدولة القديمة، وكذلك من عهد الدولة الوسطى، ونذكر على سبيل المثال قصة «سنوهيت»[٢] الذي كان جُلُّ ما يتمناه أن يعود إلى أرض الوطن ويُدفن جثمانه فيها. وفي عهد الدولة الوسطى كانت بلاد النوبة لا تزال محتفظة بطابعها الذي يدل على أنها كانت بلادًا أجنبية مخيفة، وأول مقابر هامة ظهرت فيها يرجع تاريخها إلى عهد نهاية الدولة الوسطى، ونجد مقابر الدولة الوسطى فيها فردية وفي جهات قليلة، وجميع أصحاب هذه المقابر على وجه عام نكرات فلا نعرف شيئًا عن مكانتهم أو ألقابهم، ومع ذلك نعرف شيئًا عن سلسلة أفراد من المصريين الذين استوطنوا بلاد النوبة السفلى من النقوش العديدة التي دُوِّنَتْ على صخور هذه البلاد، ومن الصعب تأريخ معظم هذه النقوش، ولا نعلم شيئًا عن الأسماء التي جاء ذكرها على هذه الصخور أكان أصحابها مجرد عابرين لبلاد النوبة أم مقيمين فيها، ويلحظ أن الكاتب الذي دَوَّنَ هذه النقوش كان يقصد ذكر اسم بلاده كما حدث ذلك في حالة كاتب جنود «إلفنتين».[٣]

ولدينا في مصر نفسها نقوش كثيرة تذكارية — خلافًا لما ذُكِرَ من قبل عند الكلام على السياسة الخارجية — تدل على أن كثيرًا من المصريين قد أُرْسِلُوا في مأموريات إلى

بلاد النوبة، فمثلًا يقول رجل من مدينة «إلفنتين» كان قد قام بدور هامٍّ في سياسة البلاد الجنوبية كما كانت الحال في عهد الدولة القديمة: «لقد قمت بحملات عدة مصعدًا في النيل نحو «بلاد كوش» فلم تحدث مني غلطة، ولم يقع أي سوء».[٤] وكان يُلَقَّبُ فضلًا عن ذلك «حارس النوبيين» وقص علينا كذلك نائب حامل الخاتم على لوحة تذكارية من «العرابة المدفونة» أن الملك أرسله لفتح بلاد كوش،[٥] ومما له علاقة بهذا الموضوع ما جاء في مقدمة قصة الغريق وفي نهايتها يقول صاحب القصة إنه كان في رحلة إلى بلاد «واوات» غير أن ذلك فيه شك كبير.[٦]

ولدينا من عصر متأخر عن العصر الذي نحن بصدده الآن نقش وُجِدَ في «إدفو» يذكر فيه مشرف على المدينة أنه ذهب إلى «أورايس» في الشمال و«كوش» في الجنوب.[٧]

هذا ولدينا مشرف على الجنود آخر يُدْعَى «نيسو منتو» ولقبه هذا يدل على نشاطه في بلاد النوبة.[٨]

ولا بد أن نسلم هنا بأن كل المصريين الذين ذكروا على الآثار كانوا يقومون بتأدية مهام خاصة في بلاد النوبة وكان كثير منهم يتخذها موطنًا ويعمل فيها.

وقد كان من الطبعي أن نجد من نتائج استيلاء المصريين على بلاد النوبة نقوشًا كثيرة لرجال الحرب والموظفين هناك. فوُجِدَ في طوابع الأختام التي عُثِرَ عليها في جزيرة «ورنرتي» بعض تابعين كانوا يشغلون نفس المنصب الذي كان يشغله «سبك خو» الذي تحدَّثنا عنه من قبل، وأمثال هؤلاء التابعين نجد أسماءهم على النقوش الصخرية. هذا ولدينا كذلك لقب المشرف على التابعين، وهذا اللقب على حسب نقوش «سبك خو» الصخرية (وهي التي عُثِرَ عليها في «قمة» و«سمنة») يعد أعلى رتبة وكذلك لقب «المشرف على الجنود»[٩] قد وجد في أحد نقوش «سنوسرت الأوَّل» في «بهين»،[١٠] هذا وفي المحاجر الواقعة في الشمال الغربي من «توشكى» نقش لقب «المشرف على المجندين» في عهد «أمنمحات الثاني».[١١] وكان حامل اللقب الأخير يُلَقَّبُ كذلك المشرف على بَيْتَيِ الفضة (= الخزانة) وعلى بَيْتَيِ الذهب. ومن المحتمل أن بعض الذين يحملون لقب «المشرف على السفينة» ينسبون إلى الدولة الوسطى أو الدولة القديمة كما يرى في النقوش المدوَّنة في «هنداو» وفي «الأمير كاب» وفي «جزيرة سروس»، حيث نجد فضلًا عن ذلك منقوشًا لقب «كاتب السفينة».[١٢] وأخيرًا وُجِدَ على طابع خاتم في «ورنرتي» اسم موظف يحمل لقب «المشرف على الرماة» ومن المحتمل أنه كان يشغل وظيفة قائد الجنود في بلاد النوبة.

ولا يمكن أن نستخلص شيئًا عن نظام الإدارة من النقوش السالفة الذكر لأننا لا نعلم مَنْ مِنْ هؤلاء الموظفين يُنْسَبُ إلى بلاد النوبة، فنعلم أنه كان يوجد في «سمنة»

موظف يحمل لقب «حاكم المركز».[١٣] وينبغي علينا أن نعلم أن بلاد النوبة كانت مُقَسَّمَةً من حيث المقاطعات قسمين أو أكثر، وكان لكل واحد من هذه الأقسام مشرف يحمل لقب «المشرف أو الحاكم على المركز».[١٤] وقد وُجِدَ مذكورًا على نقوش المحاجر الواقعة في الشمال الغربي من «توشكى»[١٥] لقب «المشرف على قسم قطع الأحجار» (؟).

ومن بين الوظائف العالية المصرية التي وجدناها في بلاد النوبة لقب أعظم العشرة للوجه القبلي وقد وُجِدَ منقوشًا في «أمدا»؛[١٦] وكذلك لقب «فم نخن» (نائب نخن) في «سمنة»[١٧] ولقب «المشرف على مائدة الملك» في نقوش «جرف حسين»[١٨] وفي «سمنة».[١٩]

ومن المحتمل أن ألقابًا مثل «مدير البيت»[٢٠] و«موظف البيت»[٢١] و«المشرف على المحكمة» و«مدير مكتب الإدارة»[٢٢] يمكن أن تكون من الألقاب الإدارية الخاصة بحصون بلاد النوبة ومركز الحكومة الاستعمارية.

وأخيرًا نعرف كذلك سلسلة من الأشخاص الذين يحملون ألقابًا تدل على أعمالهم مثل «الحاجب» و«قاطع الأحجار»،[٢٣] ووُجِدَ لقب «طبيب» في نقش «بباب كلبشة»،[٢٤] كما وُجِدَ أسماء موظفين كثيرين في جهات متفرقة في «جرف حسين» و«ورنرتي» و«باب كلبشة» و«مودنجار» (Mudinjar). وكذلك نجد أن صاحب القبر (k.8) في «بهين» يحمل لقب «بستاني».[٢٥] يُضَافُ إلى ذلك أسماء كُتَّابٍ عديدين جاء ذكرهم في نقوش الصخور، غير أنها لا تلقى أي ضوء كبير على علاقات مصر ببلاد النوبة من جهة النظام في عهد الدولة الوسطى، ومع ذلك نذكر بعضهم هنا. فقد وجدنا اسم كاتب لبيت المال في نقوش «جرف حسين»،[٢٦] وهنا نجد كذلك اسم «كاتب للبلاط لقيادة العمل» (؟) وفي «البقع» نجد نقشًا لقاضٍ يحمل لقب «المشرف على الكتاب».[٢٧]

ومن كل ما سبق نفهم أن المصري كان يهاجر إلى بلاد النوبة السفلى على الأقل في نهاية الدولة الوسطى، غير أن ذلك لم يكن في نطاق واسع، هذا مع العلم بأن المصري كان لا يسكن إلا في الأماكن المحصنة، لأنه عثر في هذه الأماكن على مقابر مصرية الصبغة في عهد الدولة الوسطى، ولا بد أن نفهم أن هؤلاء المصريين النازحين كان معهم خدمهم. أما في الجهات الراقية في بلاد النوبة، وكذلك في القرى فكان النوبي يعيش عيشة خاصة كما تدل على ذلك الْجَبَّانَاتُ القومية ومستعمرات هذا العهد. أما إذا كانت قد حدثت حقيقة هجرة كبيرة من مصر إلى بلاد النوبة السفلى فإن ذلك كان هو السبب في القضاء على ثقافة النوبيين مما جعلهم يهاجرون إلى أماكن بعيدة، غير أن ذلك ليس هو الواقع بأية حال من الأحوال، وذلك لأن ثقافة مجموعة C كانت مزدهرة وليس هناك ما يدل على أي انحطاط ثقافي قَطُّ هناك.

والواقع أن ثقافة مجموعة C لم تتأثر بالثقافة المصرية العالية إلا تأثرًا سطحيًّا إذ قد بقيت الصبغة الأساسية الثقافية القومية لم تتغير، ففي الأواني الجنازية بقيت العناصر التي كانت على وجه عام قد نُقِلَتْ في بداية الاختلاط بالثقافة المصرية، هذا إلى آلات أخرى وأشياء فنية قد بقيت كما هي بصورة ما، ويمكن أن تكون مستوردة من مصر أو وطنية الأصل، ومن الجائز أنه منذ عهد الدولة الوسطى قد وجدت أشياء كمالية في القبور بكثرة بعض الشيء، إذ قد وُجِدَتْ مرايا من النحاس في مجموعة ثقافة C، وكذلك قبلها وبعدها، ولكن الخناجر المصرية البحتة المصنوعة من البرنز قد وُجِدَتْ في المقابر النوبية ببلدة «عنيبة» أولًا في بداية الدولة الوسطى.[٢٨] ومعظم الخناجر يرجع عهدها إلى العصر المتوسط الثاني، وتوجد كذلك أسلحة في مقابر مجموعة C ولكنها نادرة.[٢٩] وقد عُثِرَ في قبر من مقابر «عنيبة» على قطعة عاج مشغولة وتدل على أنها صناعة مصرية بحتة، غير أن تقليد لوحات المقابر المصرية وكذلك موائد القربان[٣٠] قد أُخِذَ عن مصر، كما حدث ذلك في عناصر أخرى في ثقافة مجموعة C على وجه عام في عصر متأخر.

والواقع أن ثقافة مجموعة C قد اختطت لنفسها حياة خاصة وكذلك العناصر التي ثقافتها من «كرمة» فإنها تابعة بوجه خاص لعهد كانت فيه الموانع الخاصة بالحدود عند «الشلال الثاني» قد أزيلت بين البلدين.

ثقافة (كرمة)

تحدثنا فيما سبق عن مدى اختلاط المصريين ببلاد النوبة وما كان لمصر من سلطان في بلاد النوبة السفلى حتى «الشلال الثاني» وما بعده بقليل، وكذلك تحدثنا عن ثقافة مجموعة C وما كان لها من أثر في هذه الجهات منذ أن ابتدأت تظهر في نهاية الأسرة السادسة، وقد بَقِيَتْ مستمرة حتى بداية الدولة الحديثة كما سنرى بعد، على أنه في الوقت الذي كانت تسود فيه ثقافة مجموعة C بلاد النوبة السفلى كانت تزدهر في بلاد النوبة العليا ثقافة أخرى وذلك أن الأستاذ «ريزنر» قد عثر في بلدة «كرمة» الواقعة شمالِي «جزيرة أرقو» مباشرة وعلى مسافة بعيدة من حصن «سمنة» الذي كان يعد الحد السياسي لمصر في عهد الدولة الوسطى على جبانة وطنية عظيمة وعلى آثار مستودع تجاري.[٣١] وقد وصف السياح والكتاب المحدثون بلدة «كرمة» ولكن أشملهم وأوفاهم وصفًا هو ما كتبه الأثري «لبسيوس»[٣٢] وقد زار بعث «لبسيوس» «كرمة» في يونيو/حزيران سنة ١٨٤٤.

والمكان المعروف باسم «كرمة» أخذ اسمه من الإقليم الذي يقع على الشاطئ الشرقي للنيل بين «أرقو» و«تومبوس» ويسكنه الآن نوبيو «دنقلة» أو البرابرة. والميزة الظاهرة لهذه البقعة خرابتان مؤلَّفتان من المباني المقامة من الطوب التي تُدْعَى بلغة أهل «دنقلة» «كرمان دفوفة»، وكلمة «دفوفة» يحتمل أن تعني قرية وخرائب «كرمان دفوفة» يمكن رؤيتها من بعد، وقد لاحظها كل السياح الذين مروا بهذه الجهات. وتنقسم «كرمان دفوفة» في نظر الأهالي قسمين «دفوفة العليا» و«دفوفة السفلى» وتشمل «كرمة» حاليًّا عدة مجاميع من البيوت المقامة من الطين بالقرب من النهر.

وأهل ثقافة «كرمة» الذين وُجِدُوا في الجبانات العظيمة التي عُثِرَ عليها في هذه البقعة في المقابر التي يرجع تاريخها إلى نهاية الأسرة الثانية عشرة وبداية الدولة الحديثة يُنْسَبُونَ إلى السكان الأصليين على حسب رأي الأستاذ «ريزنر»[٣٣] حيث يقول: «وإذا وزنًّا الأمور بميزان الإمكانيات التي ترتكز على البراهين التي في متناولنا فإني أستنبط أنه عندما أُسِّسَتْ مستعمرة «إنبو أمنمحات (جدار أمنمحات)» التجارية كانت مديرية «دنقلة» مسكونة بسلالة أصلية لا تُنْسَبُ إلى زنوج أواسط أفريقيا بل إلى مجموعة سكان شمالِي أفريقيا، ويحتمل أن اللوبيين كانوا فرعًا منهم. وهذا الجنس كما يُشَاهَدُ في الصور المصرية الخاصة باللوبيين يَتَّسِمُ بأنف مفرطح ويميز بتقاطيع بارزة تعادل الميزات الزنجية الخاصة بالهياكل العظمية النوبية. ويُلَاحَظُ في المقابر النوبية المتأخرة العهد أن السكان أصبحوا مختلطي الجنس، وقد أظهر الفحص الذي قام به الدكتور «دري» أنه توجد في مقابر هذا العصر المتأخر هياكل بشرية من أجناس مختلفة بعضها مصري صميم وبعضها يدل على أنه من أهل مجموعة ثقافة C ويظهر فيه الدم الزنجي، وأخيرًا نجد أن بعض الأجسام من أصل زنجي صريح.

وعلى ذلك ينبغي للإنسان أن ينظر إلى سكان «كرمة» في نهاية الدولة الوسطى وبداية الدولة الحديثة، كما ينظر على وجه التقريب إلى سكان بلدة «أم درمان» الحالية حيث يجد فيها الإنسان الآن كل الأجناس التي تسكن أعالي وادي النيل.

ومما يُؤْسَفُ له جد الأسف أن ثقافة «كرمة» ليس لها وثائق مكتوبة قط، وما عثر عليه من نقوش هيروغليفية ليس له أية علاقة بهذه الثقافة.

ولا نعلم من الآثار التي عُثِرَ عليها قبل الكشف الذي قام به الأستاذ «ريزنر» في مصر وبلاد النوبة السفلى؛ أي عن نشاط للمصريين في هذه الجهة إلا في لوحة عثر عليها في بلدة «إدفو»،[٣٤] من نص صعب الفهم، ويمكن أن نستخلص منه أن رجلًا يُدعى «خع

عنخف» يقرر أنه كان مصريًّا، ويحتمل أنه كان صاحب نشاط في «كرمة»، ولكن يمكن أن نفهم من المتن جليًّا أنه كان هو وزوجه وأولاده قد عادوا إلى «أسوان» من «كرمة» أو أنهم وصلوا إلى هذا المكان في ثلاثة عشر يومًا. ويذكر لنا فضلًا عن ذلك صاحب هذه اللوحة الذهب الذي أحضره، وكذلك يقول إنه جلب معه عبدًا أو عبيدًا، وسنتحدث عن هذه اللوحة فيما بعد. ولعمري إن أهم ما كانت تتجه إليه أنظار المصري في كل عصور تاريخه حتى عصرنا الحالي إلى زمن قريب هو الحصول على الذهب والعبيد، والكل يعلم أن تجارة الرقيق كانت منتشرة إلى زمن قريب جدًّا أُبْطِلَتْ بعده.

غير أن ما جاء في هذه اللوحة لا يؤكد لنا بصورة قاطعة نشاط مصر في الجنوب. وعلى ذلك فإن كل اعتمادنا على صلة مصر بهذه الجهة ينحصر فيما عُثِرَ عليه في «كرمة». والواقع أن معلوماتنا عن ثقافة «كرمة» في تلك الفترة مستقاة من مقابر جبانات شاسعة الأرجاء تبعُد حوالي أربعة كيلو مترات ونصف كيلو متر من شاطئ النيل.

ففي هذه البقعة يوجد غير مزارين كبيرين عدة مقابر ومدافن في هيئة أكوام دُفِنَ فيها أفراد من عامة الشعب، وعدد مهم من المقابر الضخمة يدل ظاهرها على أنها كانت لأسر أمراء أقام كل منهم لنفسه جبانة منفردة. وهذه المقابر في صورة تل مستدير الشكل يحيط بها لوحات من الحجر الرملي ويوجد في داخلها مبنى مؤلَّف من جدران من اللبنات، مثال ذلك المؤسسة التي على هيئة تل رقم (٣)[٣٥] وهي المقبرة التي دفن فيها على ما يقال «زفاي حعبي»[٣٦] (انظر اللوحة رقم ٢) ويبلغ قطرها حوالي ٩٠ مترًا وتشغل مساحة قدرها ٦٣٨٥ مترًا مربعًا، ويبلغ ارتفاع الجدران المبنية باللبنات من الداخل حوالي ٢,١١ مترًا، وهذه الجدران كانت أعلى من ذلك فيما مضى، وقد أقيم في وسط هذا المدفن دهليز يمتد من الشرق إلى الغرب جدرانُه من اللبنات ويبلغ عرضه حوالي مترين، ومن هذا الدهليز يتفرع شمالًا وجنوبًا حتى محيط دائرة هذه الجبانة عدة جدران متوازية تقطعها جدران أخرى في نقط متعددة مرتبط بعضها ببعض ومن ذلك يتكون في كل من الجزء الشمالِي والجزء الجنوبي عدة حجرات صغيرة تعرَّف عليها الأستاذ «ريزنر» بأنها مقابر.

وفي وسط هذا الدهليز نجد بابًا لحجرة أمامية تبلغ مساحتها ٢,٣٥ × ٢ مترًا مسقفة بسقف مقبب وهي أكبر حجرة في كل هذه المؤسسة وقد وُجِدَتْ منهوبة فلا يمكننا أن نتحدث عن حالتها الأصلية على وجه التأكيد، ولكن يمكن وصفها بطريق الحدس بالموازنة بينها وبين ما وُجِدَ في حجرات الدفن الأخرى المماثلة لها في المؤسسات

الأخرى المجاورة. ولا نزاع في أن الشخص الذي دُفِنَ في هذه الحجرة أمير وهو الرئيس المسيطر على هذه الجهة في عصره، وبجانب هذا الأمير كانت تضطجع زوجه على سرير من الخشب، وعلى رقعة الحجرة وُجِدَ رجال مضطجعون ونساء مضطجعات، ويُحْتَمَلُ أنهم أقرب الناس إلى صاحب المقبرة وزوجه. والظاهر أنهم قد دفنوا أنفسهم أحياء طوعًا أو كرهًا مع الأمير وزوجه، ويبلغ عدد الذين دَفَنُوا أنفسهم بهذه الكيفية حوالي مئة شخص (هذا ونجد مدفونًا في دهليز المقبرة المستديرة رقم ٤ عددًا يتراوح بين ١١٠–١٣٠ شخصًا) وكل هذه الأجسام قد وُجِدَتْ في أوضاع مفزعة مخيفة مما يدل على أن هؤلاء الرجال والنساء قد لَاقَوْا حتفهم في وقت واحد. وهؤلاء الموتى ضحايا قرابتهم للمُتَوَفَّى. وقد سَمَّى هذه العادة الأستاذُ «ريزنر» دفن «ساتي». حيث يقول:[٣٧] «إنه على حسب كل ما وصل إلينا من معلومات لا توجد إلا عادة واحدة على حسبها تذهب كل الأسرة أو جزء منها إلى عالم الآخرة مع رئيسهم، وهذه هي العادة المسماة «ساتي» التي تُسْتَعْمَلُ كثيرًا، ولكنها معروفة معرفة جديدة عند الهنود باسم «ساتي» أو «سوتي» وبمقتضاها تُلقي نساء الرجل الْمُتَوَفَّى أنفسَهن (أو يُلْقَيْنَ) في النار التي يُحْرَقُ فيها الْمُتَوَفَّى، ومثل هذه العادة تفسِّر لنا تمامًا ما نجده من حقائق في مقابر «كرمة» إلخ»، والواقع أن هذا النوع من الدفن يقابل ما كان متبعًا في عصور ما قبل التاريخ عند دفن الملوك أو الأفراد من الأسرة المالكية في «سومر» ببلدة «أور»، وكذلك في أفريقيا نجد هذه العادة، وذلك أنه عند موت رئيس كانت زوجه أو بعض أقاربه يُدْفَنُونَ معه طوعًا أو على كره منهم، فكانوا بذلك يُضَحُّونَ بأنفسهم من أجله أو يُدْفَنُونَ معه أحياء. وهذه العادة متبعة حتى الآن، ولا يوجد من يحيد عنها[٣٨] إلا النادر، والظاهر أن أصل هذا المدفن الكومي الشكل هو أن يقام أولًا السور المصنوع من الحجر ثم يُبْنَى بعد ذلك البناء المصنوع من اللبِنات وكان يضطجع في حجرة دفن الأمير أقرباؤه الأدنون، وكانوا في هذه الحالة يُدفنون أحياء، وفي خارج هذه الحجرة كان يُدْفَنُ الخدم والأتباع في الدهليز الطويل الممتد بقطر المؤسسة ثم يُهال عليهم التراب حيث كانوا ينامون في أوضاع محزنة مفزعة، أما الماشية التي كانت تُقَدَّمُ قربانًا في خلال حفل الدفن، وبخاصة الثيران، فكانت تُدفن في الجهة الجنوبية من المقبرة، وبعد ذلك كانت تُمْلَأُ الطرق المجاورة بالرمال والحصى بما يبلغ سمكه حوالي خمسين سنتيمترًا ثم يُغَطَّى ذلك بطبقة من اللبنات التي تعلوها طبقة من الملاط وفوق ذلك توضع طبقة رفيعة من الحصى، وكان يُقام فوق هذا المدفن الذي على شكل كومة لوحة مخروطية الشكل توضع في وسطه وهي مصنوعة من حجر الكوارتسيت، ومن المحتمَل أنه كان يوضع فوقها القربان.

وبعد ذلك يُقام في صلب هذه الكومة في خلال عدة أجيال مقابر ثانوية كانت تُحْفَرُ في الحصى حتى طبقة الطين أو أعمق من ذلك. وكان يُوْضَعُ صاحب القبر غالبًا مع زوجه على سرير ويلف كل منهما في جلد حيوان، وهنا كذلك نجد فردًا أو عدة أفراد مدفونين على الأرض مباشرة، ومن المحتمل أنهم أقارب صاحب المقبرة أو خدمه، وهؤلاء كانوا بمثابة قربان له كالخرفان التي كانت تُدْفَنُ معه قربانًا.

هذا وتُقَدِّمُ لنا الأشياء التي كانت توضع مع المتوفى في قبره لاستعماله اليومي في عالم الآخرة في «كرمة» لمحة عن ثقافة بلاد النوبة العليا في العهد النوبي المتوسط، والواقع أن هذه الثقافة تُنْسَبُ إلى العهد النيوليتي المتأخر مثل ثقافة مجموعة C؛ ففي حين نجد أن جزءًا من محتويات القبر قد صُنِعَ في نفس بلاد النوبة العليا بدون شك، فإنه قد عُثِرَ على قطع أخرى من أثاث القبر قد تأثرت كثيرًا في صنعها بالطابع المصري حتى إنه كان في كثير من الأحيان يصعب على الإنسان أن يميز بين الأشياء المورَّدة من مصر والأشياء المصنوعة محليًّا، ومن المحتمل أنها كانت من صنع مصريين هاجروا إلى بلاد السودان واستوطنوها، ويميل غالبًا إلى هذا الرأي الأخير الأستاذ «ريزنر».

ومعظم الأشياء التي وُجِدَتْ في هذه القبور مصنوعة من الفخار وبخاصة الأباريق والطسوت وأطباق الأكل والشرب والزيوت والمسوح وهي مصنوعة في مصانع فخار يدوي؛ ويقول «ريزنر» إن أشكال الأواني التي وُجِدَتْ في «كرمة» تؤلف مجموعة منقطعة النظير في كل من مصر وبلاد النوبة فنجد حوالي ١٥,٥٪ من الأواني التي ذكرت من أصل مصري في حين نجد أن ٨,٥٪ قد صنع من الفخار الخشن المصنوع باليد، وهو من مادة نوبية لا شك فيها ويشبه كثيرًا أشكال فخار مجموعة ثقافة C في بلاد النوبة السفلى، أما الستة والسبعون في المئة الباقية فهي أوانٍ جميلة الصنع عدا بعض كئوس بسيطة لا يمكن وجودها في كل من مصر وبلاد النوبة. وهذه الأواني الجميلة الصنع هي خليط نوبي بها أجزاء سوداء ولكنها صُنِعَتْ بعجلة الفخار بمهارة وبحسن اختيار للشكل لا مثيل له في الفخار النوبي بقدر ما وصلت إليه معلوماتنا. ويقول «ستيندورف» إن «ريزنر» مَيَّزَ ثمانية عشر نوعًا مختلفًا من الأواني الفخارية قسمها ثلاثة أقسام:

(١) أوانٍ وطنية.
(٢) أوانٍ مصرية أو متحضرة.
(٣) أوانٍ وطنية خشنة الصنع.

فالمجموعة الأولى تحتوى علي٧٩,٥٪ من مجموع الأواني التي عُثِرَ عليها في هذه الجهة. ويظن «ريزنر» أنها عُمِلَتْ على حسب الصناعة المصرية على عجلة صانع الفخار، ومن الْمُحْتَمَلِ أن ذلك كان على نسق فخار مجلوب من مصر حيث نجد من الفخار القديم الفخار الأحمر المصقول والأواني ذات الحافة السوداء. وكذلك نجد أن أشكال وخواص هذه الأواني التي توحي بأنها كانت مخصصة للشرب على جانب عظيم من الجمال، ومن هذه بوجه خاص الأواني والأقداح الرشيقة المنظر. ويتبع هذه الأواني الأكواب الرشيقة الشكل والأباريق ذات الحافة الجميلة والأقداح ذات البزابيز والأباريق التي تشبه أباريق الشاي. كل هذه قد وجدت في مصانع «كرمة»، ولكن أصولها منقولة من مصر إلى بلاد النوبة السفلى، وقد عثر عليها في مقابر هذه الجهات التي أقيمت على شكل قعب (مستديرة)، ومن الفخار الخاص بعهد «كرمة» القعب الطويل الأسود والطويل ذو الجدار العمودي المسنن ولدينا مثال من ذلك.[٣٩]

والمجموعة الثانية تحتوى على ١١,٥٪ من مجموع فخار «كرمة» وهي من حيث الشكل والمادة والصناعة موحدة مع أوانٍ مصرية معروفة أو على الأقل قريبة الاتصال بها وهي كما قلنا من قبل إما مجلوبة من مصر أو عُمِلَتْ تقليدًا لأوانٍ مصرية.

أما المجموعة الثالثة فتحتوي على ٨,٥٪ من مجموع فخار «كرمة» وكلها صناعة محلية وتشتمل مثل أواني مجموعة ثقافة C، على أوانٍ فخارية ساذجة الصنع،[٤٠] وهذه الأواني رخيصة وفقيرة في صنعها، وكانت تستعمل في وادي النيل النوبي للأعمال اليومية المعتادة في المنازل ومن الجائز أن النساء كُنَّ يصنعنها بأيديهنَّ.

ولدينا كذلك من الصناعات الوطنية النوبية[٤١] بوجه خاص الأثاث المصنوع من النجارة الدقيقة كالأسرة والكراسي والمخدات والتوابيت، وقد صُنِعَ كثير من هذه الأشياء وفق نماذج مصرية، يضاف إلى ذلك الأشياء المصنوعة من الجلد منها الأحزمة والمبدعات الجميلة للسيدات العذارى، والأحذية، وأغطية وأربطة للأسرة والكراسي والشبابيك وعلاقات للأواني الفخارية.

أما المصنوعات المعدنية فنجد أن الصائغ كان يصوغ أدوات الزينة الجميلة التي وُجِدَ منها الكثير ونخص بالذكر الأساور والأقراط وقطع الحلي الأخرى والنحاس الذي كانت مادته في نفس البلاد، فكان يصنع منه أنواع الآلات مثل السكاكين والموسيات. ولا نعلم تمام العلم إذا كانت الخناجر العدة وهي السلاح الوحيد الذي وُجِدَ في كل المقابر النوبية في هذه الجهة من المحاصيل المحلية أو جلبت من مصر كما يظن ذلك «ستيندورف».[٤٢]

وتمتاز مصنوعات «كرمة» بما تنتجه من الزخارف المصنوعة من الميكا. وهذه المادة قد وُجِدَتْ في مصر منذ عصر ما قبل التاريخ.[٤٣] وقد وُجِدَتْ مرايا من الميكا من العهد العتيق في بلاد النوبة.[٤٤]

وأهم ما يلفت النظر في استعمال هذه المادة في «كرمة» هو استعمالها زينة في صنع القبعات[٤٥] المصنوعة من الجلد التي خِيطَ فيها قطع من هذه المادة[٤٦] ذات أشكال مختلفة تُمَثِّلُ الزراف والطيور والأزهار الصغيرة وأشكالًا هندسية أخرى منوعة، ونجد مثل هذه الأشكال مصنوعة من سِنِّ الفيل في صور حيوانات مثل الثعلب والنعام والصقور[٤٧] مطعمة في خشب الْأَسِرَّةِ. ولا نزاع في أن جزءًا عظيمًا من الخرز والتعاويذ التي وُجِدَتْ في هذه الجهة هي من شغل «كرمة»، وكذلك لا بد أن نعلم أن الكثير منها قد أحضره معه صناع من مصر إلى بلاد النوبة.

ومن الأشياء التي جُلِبَتْ من مصر على ما يظهر الأواني المصنوعة من الفخار المطلي؛ وقد وُجِدَ منها قطع عديدة[٤٨] ويرى الأستاذ «ينكر»[٤٩] أن صناعًا مصريين كانوا يديرون المصانع التي تَصنع الأواني الخزفية المطلية التي توجد على مقربة من «دفوفة كرمة». غير أن «ستيندورف» لا يعتقد في ذلك ويظن أن هذه الأشياء قد أُحْضِرَتْ من مصر، وكذلك التماثيل التي عُثِرَ عليها في «كرمة» فإنها أُحْضِرَتْ من مصر ويظن «ينكر» أنها قد صُنِعَتْ في «كرمة» وقام بعملها صناع مصريون.

هذا ولدينا فضلًا عن ذلك جزء من القواعد المصنوعة من الخزف المطلي، والتطعيم والخرز والتعاويذ والأشكال المطلية وغير ذلك قد صُنِعَتْ في مصانع نوبية وطنية. وقد بقي من كل ذلك آثار تدل على وجود مصنع في هذه الجهة.[٥٠]

هذا ويدل ما وجد في المقابر من الأشياء الكمالية التي عُمِلَتْ في أشكال مصرية كالمرايا والآلات المصنوعة من النحاس وحِقَاقِ الزيت المصنوعة من المرمر وغير ذلك على أنها من أصل مصري وأن الصناع المصريين قد أَتَوْا إلى بلاد النوبة العليا وزاولوا صناعاتهم فيها.

وإذا ألقينا نظرة عامة إلى مجموع ما عرفناه عن ثقافة «كرمة» حتى الآن أمكننا أن نقرر بحق أن الثقافة قد تأثرت تأثرًا عظيمًا بالثقافة الأفريقية أكثر من الأثر الذي نجده في أختها ثقافة مجموعة C التي ظهرت في بلاد النوبة السفلى. حقًّا إن كلًّا من حملة هاتين الثقافتين بينهما رابطة جنسية تربطهما بعضهما ببعض، هذا فضلًا عن أن كلًّا من الفريقين كان يفلح الأرض ويرعى الماشية، كما نجد كذلك تشابهًا بينهما من حيث

الملبس وبخاصة الأحزمة المزينة بالخرز، وكذلك من جهة المحاصيل اليدوية فهي مشاعة بينهما، ومن جهة أخرى نجد فروقًا ضخمة وبخاصة في مؤسسات المقابر التي تتشابه جميعًا في الظاهر، إذ نجدها كلها على هيئة كومة مستديرة، وكذلك تختلف في عادة الدفن إذ نجد العادة في «كرمة» أن يُدْفَنَ مع الرئيس عدد عظيم من الناس المذبوحين ومعهم أدوات زينة خاصة، ولكن في ثقافة مجموعة C كان صاحب المقبرة يُدْفَنُ وحده.

ويلاحظ أنه لم توجد قطع فنية كالتماثيل وغيرها من الصناعة النوبية الوطنية بل كادت تكون معدومة في «كرمة»، هذا إذا غَضَضْنَا الطرف عن بعض التماثيل الصغيرة المصنوعة من الحجر المطلي في«كرمة»[٥١] مثل الأسود والثعابين والكباش والصقور.

أما في مجموعة ثقافة C فلدينا جَمٌّ غفير من التماثيل الصغيرة للرجال والحيوان.[٥٢]

أما الصور التي في المناظر فنجد في «كرمة» (خلافًا لبعض الرسوم التي نجدها على الجص في مزارين[٥٣] وهي التي نلحظ فيها على ما يظهر التأثير المصري) أحيانًا صورًا فخمة مطعمة بسن الفيل والميكا والخشب والجلد، ولدينا في مجموعة C صور أخرى مختلفة عن السابقة من حيث الأسلوب اختلافًا تامًّا رسمت على أوانٍ من الفخار، صورًا محفورة لرجال وحيوانات وهي تذكرنا بالصور التي كانت تُرْسَمُ على جدران الأواني المصرية في عصر ما قبل التاريخ أو الصور التي رُسِمَتْ على جدران «هيراكنپوليس» (الكاب). يُضاف إلى ذلك بعض الاختلافات في الملبس إذ نجد في «كرمة» القوم يلبسون القبعة المصنوعة من الجلد والمزينة بقطع من الميكا عليها صور مختلفة. هذا ولا نجد في «كرمة» ما نجده من خواص عصر ثقافة C المتأخر، وأعنى بذلك الأقراط وأسورة السواعد المصنوعة من أصداف البحر،[٥٤] وكذلك نجد هذه الاختلافات في كثير من المحاصيل الهامة من الصناعات اليدوية.

ومما سبق نجد أن لدينا ثقافتين منفصلة إحداهما عن الأخرى انفصالًا بَيِّنًا، ففي بلاد النوبة السفلى لدينا ثقافة مجموعة C وفي بلاد النوبة العليا لدينا ثقافة «كرمة». وكلاهما يُنْسَبُ إلى عصر النحاس المتأخر، وهما متفرعتان من الثقافة الإفريقية. وقد انفصل بعضهما عن بعض في العصور الأولى ونمت كل منهما على حدة، وبقيت كل منهما فيما بعدُ لا تؤثر على الأخرى كما يقول «ستيندورف»، ولكن الأستاذ «ينكر» يقول إن ثقافة مجموعة C قد تأثرت تأثرًا عظيمًا بثقافة «كرمة»[٥٥] وقد ظهر ذلك جليًّا في المزارات المبنية باللبنات في مقابر مجموعة ثقافة C فإنها مأخوذة عن ثقافة «كرمة».

وخلاصة القول أن مجموعة الأشياء التي أنتجتها حفائر «كرمة» تؤلف مجموعة أثرية لها علاقة ظاهرة جلية من جهة بمجموعة الدولة الوسطى المصرية، ومن جهة

أخرى لها علاقة أقل ارتباطًا بمجموعة بلاد النوبة الأثرية التي من نفس العهد، غير أن مجموعة ثقافة «كرمة» في حدِّ ذاتها تعد نسيج وحدها فالصبغة الخاصة بالمحاصيل الفنية والصناعية التي وُجِدَتْ في المقابر تُفَسِّرُ بطبيعة الحال وبكل بساطة صيغة الموقع الجغرافي الذي يسكن فيه القوم. والواقع أن هذا المكان كان يُعَدُّ مستعمرة تجارية مسلحة أسسها فرعون مصر لتحافظ على سلامة الطرق الجنوبية، وكانت في الأصل تحتوى على أهل بيت أول نائب ملك وموظفيه ويُحْتَمَلُ أنه كان الأمير «زفاي حعبي» حاكم «أسيوط».[٥٦] وجماعة حاشية بيت «زفاي حعبي» هذا كانت تتألف من طائفة من الموظفين قائمين بأنفسهم ويشملون عمالًا وصناعًا كافين لسدِّ الحاجات الضرورية اللازمة لمثل هذا المجتمع كما كانت الحال في حاشية بيت صاحب الإقطاع العظيم في مصر في تلك الفترة. والواقع أن الصناع المصريين الذين كانوا قد جُلِبُوا إلى تلك الجهة كان المفروض فيهم أنهم عمال مدربون مهرة وأنهم قد أُبْعِدُوا عن المواد الأولية التي كانوا يُنْتِجُونَ صناعاتهم منها؛ ولذلك كانوا يبحثون بكل ما لديهم من عزم عن المواد التي كانت لازمة لصناعاتهم في موطنهم الجديد، ولا بد أنهم قد بحثوا عن المواد والطرق ومنتجات العمال المحليين تمهيدًا للبدء في عملهم. ولا نزاع في أن الصناعات المحلية كانت بطبيعة الحال بدائية جدًّا بالنسبة لما كان يوجد في مصر، ولكن لا بد أن الفخار ذا القمة السوداء والفخار الأحمر المصقول وهما اللذان يُؤَلِّفَانِ أهمَّ صفة للمجموعة الفخارية الأثرية النوبية، قد احتل مكانه في الذوق المصري، ويظهر أنه قد ترك أثرًا في أعمال المصريين هناك أكثر من أي عنصر آخر من عناصر الصناعات المحلية المجاورة. والواقع أن الصناع المصريين الذين استوطنوا هذه الجهة قد أخذوا هذه الصناعة المحلية واستعملوا في صنعها عجلة صنع الفخار، هذا بالإضافة إلى المهارة المصرية، ومن ذلك أوجدوا مجموعة من الفخار لا مثيل لها في العهود القديمة قبل استعمال الإغريق العجينة اللطيفة في صناعة الفخار. وكذلك قد أخذ المصريون عن أهل هذه الجهات حرفة أخرى أو حرفتين وأعنى بذلك صناعة الجلود والتطعيم بحجر الميكا، غير أن هاتين الصناعتين لم تتقدما تقدمًا يُذْكَرُ إذا استثنينا تطبيق الأشكال المصرية في الحليات التي عُمِلَتْ من الميكا. وعلى الرغم من أن الصناعات المصرية كانت متمسكة بكل قوة بالتقاليد المصرية فإنها قد تأثرت بالمواد الجديدة التي كان يستعملها العمال المصريون. هذا بالإضافة إلى الالتزامات الجديدة التي كانت تتطلبها البيئة الجديدة، وهذه الالتزامات الجديدة كانت ترجع أولًا: إلى إدخال عادات دفن جديدة مثل وضع الْمُتَوَفَّى على سرير، وثانيًا:

أحوال الجو الجديدة كعمل صهاريج ماء وأوانٍ للشرب وأحذية، وثالثا: حاجيات التجارة الجنوبية، وبخاصة الخرز المطلي وغيره مما كان يحتاج إليه أهل هذه الجهة.

المستودع التجاري الذي أُقِيمَ في«كرمة»

تحدثنا فيما سبق عن جبانات «كرمة» وعن الأشياء التي عُثِرَ عليها في مقابرها مما وضع أمامنا صورة عن الثقافة التي كانت سائدة في هذا العهد.

والآن نتحدث عن المستودع التجاري الذي وُجِدَ في هذه الجهة ويقع على مسافة كيلو مترين من شاطئ النيل وعلى مسيرة خمسة كيلو مترات من «جزيرة أرقو» ويتألف من مبنى في صورة مستطيل مقام باللبنات وقد أقيم في الجهة الشرقية مبنى آخر بُنِيَ بنفس الطريقة ويُعَدُّ في الواقع امتدادًا للمبنى السابق في حين أنه يوجد في الجهة الغربية من هذا المبنى مجموعة مبانٍ مركبة أقيمت أمام الجهة التي فيها المدخل العام.

وتدل شواهد الأحوال على أن المبنى الأصلي قد بُنِيَ على حسب مقاييس الأبعاد المصرية فطوله يبلغ ٥٢,٥ مترًا وهو ما يساوي مئة ذراع مصري وعرضه ٢٦,٧ مترًا وهو ما يساوي خمسين ذراعًا مصريًّا، يضاف إلى ذلك أن صناعات اللبنات التي بُنِيَ بها تختلف عن اللبنات المصرية العادية. ويلحظ في هذه المباني أنه قد استعملت كتل من الخشب في صلب المباني لتقويتها، هذا إلى أن مقاس اللبنات وتنظيمها في الجدران يتفق مع ما هو معروف في المباني المصرية في هذا العهد.

وكان ارتفاع هذا المبني ١٩,٣ مترًا عند الكشف عنه. والدور العلوي الذي كان مخصصًا للسكن والمؤن قد هُدِمَ، وكذلك المبنى الإضافي الذي في الجهة الشرقية فقد كان ارتفاعه مثل ارتفاع المبنى الأصلي، ولم يبقَ منه إلا الجزء السفلي (انظر الشكل رقم ١).

ويدل ما عثر عليه في هذا المبنى من مواد غفل وأوانٍ مثل السلات والأوعية المصنوعة من الفخار الكبير العدد المختومة، على أن هذه المؤسسة كانت مركزًا تجاريًّا هامًّا وقد يكون خلو المبنى الرئيسي من طوابع أختام كالتي وُجِدَتْ في الحجرتين الثالثة والرابعة من المبنى الغربي جاء من طريق الصدفة، ومع ذلك فإن الدكتور «ريزنر» يؤكد أن الحجرتين الأولى والثانية (أ، ب) وهما اللتان يُفْتَحُ بابهما إلى خارج المبنى هما متجران لا مكانان للسكن، ومع ذلك يمكن أن نَعُدَّ الحجرة الأولى مقصورة للعبادة إذ إنها بما تحتويه من عمد في وسطها تشبه المقصورتين أو المزارين رقم ٢ ورقم ١١ اللتين عثر عليهما في هذه الجبانة الشاسعة.[٥٧]

ومن البدهي أن المبنى الرئيسي قبل زيادة أية إضافة فيه كان يُعَدُّ نوعًا من الحصون أو مستودعًا تجاريًّا محصنًا تخزن فيه السلع، وكان يسكن فيه المصريون الذين كانوا يشتغلون في التجارة مع أهالي الجنوب، وذلك لحماية أنفسهم من غارات السطو والنهب التي كانت تتعرض لها مثل هذه الأماكن الغنية بما فيها من مواد ثمينة. ويستنبط من موقع هذه المؤسسة في الوادي أنها كانت لأول وهلة تشبه حصون بلاد النوبة السفلى التي تقع في الوديان. غير أن الأخيرة كانت تقع في أسفل النهر الذي كان يسيطر المصري هناك عليه، يضاف إلى ذلك أن عدم انتظام تصميم هذه المؤسسة جعلها تُشْبِهُ حصن ميناء نهري، غير أن الأحوال في السودان تختلف اختلافًا تامًّا فقد رأينا على حسب ما جاء في لوحة الحدود التي أقامها «سنوسرت الثالث» تجارة نهرية وطنية، كما رأينا فضلًا عن ذلك أن المصري لم يكن في مقدوره قط أن يسيطر على النهر سيطرة تامة، إذ كان مضطرًّا أحيانًا أن يوجه حملات بأسطوله جنوبي «سمنة» على أعدائه المغيرين. ومن أجل ذلك لم يكن هذا المخزن مقامًا أسفل النهر، ولذلك كان وضعه في الأرض المكشوفة رهنا بالوضع الذي يكون فيه بيوت السكان؛ ومن ثَمَّ كان لا بد من انتخاب نقطة قوية يمكن حمايتها من كل جانب. وهذه الحصون تشبه في الواقع الحصون الجبلية التي كانت تُقَامُ عند «الشلال الثاني»، فكان يُقَامُ طوار ضخم تحت الحصن وبذلك كان ينال هذا الحصن نفس الميزة التي يتمتع بها الحصن الجبلي. والواقع أن المبني الأساسي في «كرمة» كان يشبه حصنًا جبليًّا مقامًا على جبل صناعي. وكان في مقدور مثل هذا البناء الضخم أن يقاوم أكثر من السور الذي يُقَامُ حول الميناء النهرية في بلاد النوبة السفلى.

ويقول الأستاذ «ينكر»[٥٨] إنه استنادًا إلى براهين مقنعة نفهم أن هذه المؤسسة لا يمكن أن تكون حصنًا مصريًّا يستطيع به المصريون أن يسيطروا على الأراضي التي حوله ويبتزون المحاصيل التي يحتاجون إليها بمثابة جزية، وذلك لأن حجم هذا المبنى الصغير نسبيًّا، إذا فرضنا أنه حصن، لا يتسع لأكثر من خمسين إلى مئة رجل، يضاف إلى ذلك أن انفرادها تمامًا يؤكد عدم صلاحيتها لأن تكون حصنًا. حقًّا نعرف أنه في القرن التاسع عشر بعد الميلاد كانت توجد حاميات عربية صغيرة في داخل أفريقيا يمكن بوضعها أن تسيطر على بقعة كبيرة من الأرض، ولكن الفضل في إمكان قيامها بمثل هذه الوظيفة يرجع إلى حسن تسليح رجالها بالأسلحة النارية الحديثة. وعلى العكس تدل الآثار المكشوفة في جبانات القوم من الوطنيين في «كرمة» على أنهم كانوا قومًا مسالمين يتبادلون التجارة بين مصر وبلاد السودان كما سنرى بعد.

وكذلك نجد في المبني الشرقي لهذه المؤسسة نفس التصميم الذي قام عليه البناء الأصلي إذ بوساطة المسطح الذي يشتمله الطابق العلوي يمكن توسيع إمكانية الدفاع عند الهجوم وذلك لأنه كان في الإمكان وضع حامية كبيرة عليه.

أما البابان الخاصان بالحجرتين (أ و ب) وهما اللذان يظهر أنهما لا علاقة لهما مباشرة بالدور العلوي فإنهما لا يُؤَثِّرَانِ بأية حال على نظام الدفاع لأن الرماية من الشرفات التي فوق الباب تهيئ للرامي مكانًا فسيحًا أكثر مما يتصور. أما مجموعة المباني المقامة في الجهة الغربية للمؤسسة وهي التي تتألف من عدة حجرات فإنها تؤدي على العكس بما فيها من زوايا ميتة إلى ضعف بين في نظام الدفاع وعلى ذلك تكون في تصميمها مضادة لتصميم البناء الأصلي، ومن ثَمَّ فإنه يلوح أن هذه المجموعة قد أنشئت في وقت كانت فيه الأحوال هادئة موطدة الأركان، والعناية بشئون الدفاع الفني لم يكن لها الاعتبار الأول عند إقامتها، يضاف إلى ذلك أن الأرض المكشوفة التي تحيط بهذه المؤسسة وما جاورها من المباني لم تكن بأية حال من الأحوال محاطة بسور حامٍ لها.

وعلى الرغم من أن التاريخ النسبي للأجزاء المختلفة لهذه المؤسسة قد عُرِفَ على وجه التقريب، وأن البناء الشرقي أقدم من الجزء الرئيسي من المجموعة التي في الغرب، فإن التاريخ المؤكد للبناء كله لم يمكن الوصول إليه بعد.

وقد وُجِدَتْ تحت المبنى الأصلي جدرانٌ أقدم منه كما وُجِدَتْ بعض أجزاء مبانٍ في مجموعة من المباني الغربية أقدم من المبنى القديم وقد نسب الأستاذ «ريزنر» هذه المباني إلى الدولة القديمة وحدَّد ذلك ببعض آثار وُجِدَتْ هناك بأنها من الأسرة السادسة. وقد وصف لنا «ريزنر» حالة الطبقات والأساس لهذا المكان فيما يأتي:

> وكما ذكرنا فيما سبق كانت توجد ثلاث طبقات من الردم: أولًا طبقة علوية من الردم الخشن مؤلفة بوجه خاص من آجر مفتت، وثانيًا طبقة من الردم الدقيق المفكك تملأ الجدران، وثالثًا بقايا ردم قديم متماسك كان تحت الأرضية يرجع إلى عهود مختلفة. ففي الردم الخشن لم تُوجَدْ آثار تقريبًا إلا بعض قطع من الفخار بعضها داخل في تركيب اللبنات. وقد وُجِدَ في الردم المفكك معظم الأشياء التي استخرجت من هذه البقعة. وهذا الردم معظمه أتربة جلبتها الرياح ولبنات متحللة من عصور مختلفة جدًّا. ففي الحجرات التي تقع شمال العقد لم توجد إلا قطع من الفخار أو من أواني الفخار المطلي بالقاشاني.[٥٩] هذا إلى أشياء أخرى ليس لها أهمية فاصلة. ووُجِدَ جنوب عقد

المبنى في الردم الذي كان في الجدران القديمة سلسلة من القطع الأثرية على جانب عظيم من الأهمية، أهمها قطع كثيرة من المرمر الخاصة بالعطور ذات الشكل الأسطواني وهي التي كانت شائعة الانتشار في الدولة القديمة، ووجد منها منقوشًا على أقل تقدير خمس وعشرون آنية مختلفة باسم الملك «بيبي الأول»؛ ولكن أسماء الملوك «رع نفركا» (بيبي الثاني) و«أمنمحات الأول» و«سنوسرت الأول» ذُكِرَ كل منهم مرة واحدة. وكذلك اسم الملك «مرنرع» ذُكِرَ على قطعة من نفس طراز الأواني التي وُجِدَتْ في المبنى رقم ٢ (KII). وهذه القطع بوجه خاص في الحجرة (H5)، ولكن وُجِدَتْ كذلك في الحجرة (X 1–3). وهذه الأشياء كانت على ما يظهر مما لدينا من أدلة قد أودعت هنا مع الردم قبل إقامة «الدفوفة». وكانت موجودة تحت سفح السُّلَّمِ الخارجي للعقد في أسفل. وكانت بلا نزاع تحت المستوى الذي تتطلبه رقعتا الحجرتين (H, X). ومن الممكن إذن أن تكون قد أُلْقِيَتْ مع أشياء أخرى في أثناء حفر جدران «الدفوفة»، فإذا كان هذا الفرض صحيحًا — وإني أعتقد بصحته — فإن امتداد زمن القطع المؤرخة يد على أن «الدفوفة» كانت قد أقيمت بعد بداية حكم «سنوسرت الأول»، ودُفِنَتْ فيما بعد في جبانة «زفاي حعبي» (KIII)، وعلى ذلك يمكن أن تكون المدة التي مكثها البناء القديم على هذا الموقع تمتد من عهد «بيبي الأول» حتى عهد «سنوسرت الأول».

ولكن مما يُؤْسَفُ له أن الأستاذ «ريزنر» لم يقدم لنا أي صورة تخطيطية عن هذه الطبقات والجدران التي تحدث لنا عنها مما جعل التاريخ النسبي للأجزاء المختلفة لهذا البناء لا يمكن ضبطه، كما ترك لنا حالة الأساس غير ظاهرة بالنسبة لقطع المرمر. وقد دل البحث على أن وجود قطع المرمر السالفة الذكر لا يمكن اتخاذها معيارًا لوجود مبانٍ قديمة من عهد الدولة القديمة.[٦٠]

وعلى ذلك فإن ما وجد من آثار في عهد الدولة القديمة في «كرمة» وما وجد من مخازن عهد الدولة الوسطى لا بد أن يبقى موضع الشك إذا كان لنا الحق في أن نُسَلِّمَ بأنه وُجِدَ في عهد الدولة القديمة مُسْتَوْدَعٌ تِجاري في «كرمة». على أنه من الممكن بدون شك أن تكون هذه الأواني قد جُلِبَتْ أولًا في عهد الدولة الوسطى إلى «كرمة»، مما يدل على أن استعمال الأواني القديمة كان مستعملًا في الجنوب كما كان مستعملًا في شمال

الوادي،[٦١] فنجد مثلًا في مخزن الأواني الذي وُجِدَ في هرم «زوسر» أواني من الحجر من عهد الأسرتين الأولى والثانية.[٦٢]

وكذلك وُجِدَتْ آنية من الحجر في مخزن من عهد الأسرة الثامنة عشرة في «تل العمارنة».[٦٣] وفضلًا عن ذلك وُجِدَ في «كريت» وكذلك في بلاد اليونان نفسها أوانٍ من الحجر مصرية الصنع، وبخاصة في المقابر الكريتية — أقدم بكثير من عهد استعمالها في هذه الجهات — ولا بد أنها على الأرجح قد أحضرت من مصر قبل زمن استعمالها.

ومن الممكن أن تكون هذه الأواني المصنوعة من المرمر التي أُتِيَ بها إلى «كرمة» قد جُلِبَتْ في زمنٍ كان استعمالُها في مصر قد انقضى ولم تكن من جهة نقوشها من حيث الاستعمال أو بوصفها أوانيَ جنازية ذات ميزة خاصة. وقد وصلت بوساطة تبادل التجارة مع أهالي الجنوب لتُسْتَعْمَلَ هناك. وقد عثر «ريزنر» على قطع مؤرخة بعهد الدولة القديمة في المزار أو المقصورة رقم ٢ الخاصة بجبانة الأهالي في «كرمة».

وعلى أية حال فإن التأريخ الأصلي لإقامة المستودع التجاري السالف الذكر غير مؤكد، غير أنها على ما يظهر ترجع إلى عهد بداية الأسرة الثانية عشرة. ولا ينبغي أن نبني السبب في ذلك على قطع المرمر التي وجدناها في «الدفوفة» باسمي الملك «أمنمحات الأول» و«سنوسرت الأول» بل يُحْتَمَلُ أن نضم إلى ذلك مائدة القربان التي وُجِدَتْ باسم الملك «سنوسرت الأول» في «جزيرة أرقو». وهذه المائدة قد وُجِدَتْ مبنية في بيت في هذه الجزيرة وهي موجودة الآن في متحف المديرية في «مروي». ويقول «ريزنر» إن هذا الأثر يُحْتَمَلُ أنه أتى من «كرمة» أو «كاوا» ولكن في الغالب من «جزيرة أرقو».[٦٤] هذا وقد وُجِدَ فضلًا عن ذلك في مقبرة «زفاي حعبي» (KIII) تمثال هذا الأمير بالحجم الطبيعي وكذلك تمثال زوجه، ويدل وجود لوحة في مقصورة «كرمة» رقم ٢ (KII) باسم «أنتف» على احتمال إقامة مؤسسة في عهد «أمنمحات الأول» أو «أمنمحات الثاني».

وتدل القطع الأثرية الأخرى الْمُؤَرَّخَةُ التي وُجِدَتْ في المستودع التجاري (مثل طوابع الأختام التي وُجِدَتْ في المبني الشرقي من هذه المؤسسة) بوجه التأكيد على استمرار وجود هذا المستودع حتى عهد الهكسوس. فنجد فضلًا عن طوابع أختام عديدة ذات طراز خاص بهذا العصر أسماء الملوك الآتية:

(١) ابن رع «أبيبي» (= «أبو فيس»).
(٢) ابن رع «ششي».
(٣) الإله الطيب «ماعت أب رع».

(٤) الإله الطيب (؟) «سخعن رع».
(٥) الزوجة الملكية العظيمة صاحبة التاج الأبيض «إنني».

فبينما نجد أن الملكة «إنني» يرجع عهدها على الأرجح إلى الأسرة الثالثة عشرة إذ نجد أن الملوك الآخرين الذين عددنا أسماءهم هنا جميعًا يرجع تاريخهم إلى عهد الهكسوس، ولا شك في أن ذلك كان حوالي العهد الذي قوي فيه نفوذ الهكسوس في الوجه القبلي ولم تكن معارضة الأسرة السابعة عشرة وسالفتها قد بدأت بعد.[٦٥]

وتدل شواهد الأحوال على أن مؤسسة «كرمة» (المستودع) قد امتد زمنها حتى بداية الدولة الحديثة إلى أن خربها حريق، ويحتمل أن ذلك كان في عهد الاضطرابات في نهاية عهد الهكسوس في وقت لم يكن المصريون في مركز يؤهلهم للتجارة مع الجنوب.

وقد وُجِدَتْ جبَّانات ضخمة بالقرب من هذه المؤسسة وهي كما ذكرنا من قبل تقع على مسافة ثلاث كيلو مترات شرقي مستودع التجارة وتشمل عدة مقابر مستديرة على هيئة تل بعضها كبير والآخر صغير كما تحتوي على مزارين مستطيلي الشكل وهما «كرمة» رقم (١) و«كرمة» رقم (٢) (KI, KII) وحجرات هذين المزارين مُزَيَّنَةٌ بالرسوم وبالأعمدة المقامة في وسطها.

ولا نزاع في أن هذه الأكوام المستديرة الشكل هي مقابر السكان الأصليين، غير أن ما وُجِدَ فيها من كتابات لا يمكن به معرفة أسماء أصحابها. وقد برهن الأستاذ «ينكر»[٦٦] على أنها مقابر الأهالي كما اعترف بذلك «ريزنر».

وقد تحدثنا من قبلُ عن هذه المدينة ولكن يجب أن نلحظ هنا أن ما وجد فيها هو في أساسه وطني غير أنه تأثر تأثرًا عظيمًا بالثقافة المصرية. ويدل ما في هذه الجبانات الضخمة من الإنتاج الصناعي القومي وبخاصة الخناجر ذات الشكل الخاص على أن أصحابها كانوا قومًا محاربين.

وقد رتب «ريزنر» الجبانات العظيمة التي في منطقة «كرمة» ترتيبًا تاريخيًّا نسبيًّا فوضعها على حسب قِدَمِهَا بالترتيب التالي: ٣ و٤ و١٦و١٨ و١٩ و٢٠، وإذا كان هذا الترتيب صحيحًا كما يَدَّعِي فإن هناك أسبابًا تدعو للتشكك فيه، وذلك لأنه اتخذ أساسًا لاستنباطه آثارًا تحوم حول تاريخها الشكوك. وسنورد فيما يلي النقوش التي استند إليها «ريزنر» في تحديد تواريخ هذه الجبانات وما جاء عنها من اعتراضات: فاستمع لما يقول:[٦٧] «لقد عانيت صعوبات كبيرة في وضع ترتيب تاريخي لهذه الأكوام العظيمة على أسس أثرية وذلك لأن الأشياء المكتوبة كان معظمها في حالة تمزق، ووُجِدَتْ كلها في الردم

وليست في أماكنها الأصلية» ثم يستطرد فيقول إنه «لا يشك في أن هذه النقوش بسبب ما قدَّمه من براهين في الفصول الخاصة بقطع النحت وبالمباني المنفصلة والجبانات الكومية الشكل — قد وُجِدَتْ تقريبًا في الأماكن التي نوَّه عن وجودها فيها. والنقوش التي وجد فيها إشارة عن تاريخها هي كما يأتي:

(١) تمثالان بالحجم الطبعي للأمير «زفاي حعبي» وقد وُجِدَا في الجبانة رقم ٣ والتمثال الأخير يُرَجَّحُ أنه وُجِدَ في مكانه الأصلي تقريبًا وقد عُرِفَ «زفاي حعبي» من ألقابه ومن اسمَي زوجه وأمه والدعاء للإله «أنوبيس» رب «أسيوط» ونفس «زفاي حعبي» الذي يوجد قبره في «أسيوط» قد وُجِدَ اسمه في النقوش التي سجلها الأستاذ «جرفث»[٦٨] ونجد في قبره هذا الذي لم يكن قد تم اسمَا «سنوسرت الأول» على جدرانها و«زفاي حعبي» يقدم أمامها الخضوع. ولا شك في أن «زفاي حعبي» كان عائشًا في عهد «سنوسرت الأول» (١٩٨٠–١٩٣٥ق.م.) وتدل شواهد الأحوال على أن نقوش القبر الذي في «أسيوط» قد نُقِشَتْ فوق نقوش أخرى أي إنها لم تكن خاصة بالتصميم الأول لتزيين القبر بل بالتصميم الثاني وهو الذي يُحْتَمَلُ أنه قد نُفِّذَ كله أو بعضه على يد كاهن الروح للأمير «زفاي حعبي» بعد موته. وليس من السهل لدينا أن نفسر أهمية الاسم الملكي من حيث التاريخ. إذ من الجائز أن الاسم الملكي قد وُضِعَ على الجدار بوصفه المنعم العظيم على «زفاي حعبي» حتى ولو بعد موت «سنوسرت الأول». ومع ذلك فإنه على الرغم من ذلك لا يزال من الحقائق الثابتة أن «زفاي حعبي» كان من أتباع «سنوسرت الأول». وقد اعتبر هذا الملك بأنه سيده العظيم. هذا وقد يشير إلى تعيين «زفاي حعبي» نائبًا للملك في بلاد أثيوبيا (كوش) ومن الجائز أن هذا الاعتراف بالجميل قد يرجع سببه إلى خطوات أخرى نالها في مصر، وأن التعيين في السودان كان المقصود منه النفي من البلاط وأن الذي أمر بها هو «أمنمحات الثاني». فإذا فرضنا أن تعيين «زفاي حعبي» حاكمًا «لكوش» قد تم في عهد «سنوسرت الأول» فإن الفرصة المواتية كانت بعد الحملة التأديبية التي وقعت حوالي عام ١٩٦٢ق.م. وأن الغرض من إرسال حامية مستديمة مع «زفاي حعبي» في «كرمة» كان المقصود بها إخماد أي ثورة أخرى كما حدث من قبل، وإذا كان «زفاي حعبي» قد بدأ مجال حياته في «كرمة» عام ١٩٦٠ق.م. وتمتع بمدة ولاية مثل التي كان يتمتع بها نواب الملوك في الأسرة الثامنة عشرة فيحتمل أنه قد مات حوالي عامي ١٩٤٠–١٩٣٠ق.م. أما إذا كان قد عُيِّنَ في عهد «أمنمحات الثاني» فإن أقدم تاريخ لذلك يكون حوالي عام ١٩٣٥ق.م. ومن المحتمل أن يكون قد حكم في «كرمة»

حتى حوالي عام ١٩٠٠ق.م. أو إذا كانت حياته طويلة فوق العادة فيكون قد حكم حتى عام ١٨٨٠ ق.م. وهكذا يظهر لي أن السنتين ١٩٤٠ق.م. و١٨٨٠ق.م. هما الطرفان الممكنان لموت «زفاي حعبي». والظاهر أنه في زمن ما في خلال الستين سنة هذه أقيمت الجبانة الكومية الشكل في «كرمة رقم ٣» ولا بد أن المقصورة «كرمة رقم ٢» كانت قد بُنِيَتْ». هذا ما قاله «ريزنر» عن مقبرة «كرمة رقم ٣» التي يَدَّعِي أن «زفاي حعبي» قد دُفِنَ فيها، غير أن هناك اعتراضات على ذلك يظهر منها أن «زفاي حعبي» لم يُدْفَنْ في هذا القبر إذ قد وُجِدَ في هذه المقبرة غير تمثاله وتمثال زوجه تماثيل أخرى لموظفين آخرين يحملون أسماء وألقابًا عالية من بينهم واحد يُلَقَّبُ أعظم العشرة[٦٩] للوجه القبلي وآخر يُدْعَى «كن»[٧٠] ويُلَقَّبُ المشرف على حملة الأختام، ولدينا ثالث يحمل لقب حامل الخاتم الملكي والمشرف العظيم والمشرف على حملة الأختام «أميني».[٧١] ومن المحتمل أنه كان يتمتع بنفس المرتبة التي كان يتمتع بها «زفاي حعبي» الذي لم يكن يحمل في «كرمة» لقب المشرف العظيم للوجه القبلي. وليس من المرجح أن هذا الموظف قد اشترك في إقامة هذه الجبانة مع «زفاي حعبي» فإن ذلك يكون لو سلمنا بأن حاكم مقاطعة «الكاب» الذي يُدْعَى «سبكنخت» قد دُفِنَ في قبر ثانوي في جبانة «كرمة رقم ٣» لأنه وجد هناك آنية من المرمر باسمه.[٧٢] وهذه التماثيل لا تمدنا إلا بتأريخ العهد الذي عُمِلَتْ فيه. أما المدة التي بين الدفن في جبانة «كرمة رقم ٣» وفي جبانة «كرمة رقم ١٠ ب»، وبين إقامة هذه التماثيل فإنه لا يمكن معرفتها على وجه التأكيد إذ من الجائز أن أحد الأهالي قد استعمل تماثيل قديمة لا تمثله ولا تحمل نفس اسمه.

وإنه لمن الصعب أن نضع فاصلًا بين ما هو تابع للدفن الرئيسي وهو ما تُؤَرَّخُ به الجبانة، وبين ما هو تابع للدفن الثانوي الذي عُمِلَ فيما بعد، وذلك لأن محتويات الجبانة قد قُلِبَتْ رأسًا على عقب. ولكن عندما نسب «ريزنر» الجعارين التي وُجِدَتْ في الدهليز الرئيسي لهذه الجبانة (63-11)، (87-11) للدفنة الرئيسية نتج عن ذلك أن هذه الجبانة قد أصبحت تُؤَرَّخُ بعصر متأخر عن بداية الدولة المتوسطة، هذا إذا كانت نسبة هذه الجعارين لهذه الجبانة صحيحة، وذلك لأن من شكل النقوش يظهر أن الجعران (63-11) من عهد الهكسوس، وكذلك نلحظ أن الجعران الثاني (87-11) يدل شكله على أنه من عهد بعد الأسرة الثانية عشرة، وكذلك نجد أنها ممثلة في طوابع الأختام التي وُجِدَتْ في «كرمة» للمبنى رقم (١) كما وُجِدَتْ في الدفنات الثانوية في جبانة كرمة رقم (٣)، ونجدها كذلك على ظاهر جعارين مصورة بأشكال كثيرة (راجع

11-74,11-81,11-86,11-89). وكل هذه الرسوم لا يمكن أن تُنْسَبَ إلا إلى العهد الذي بعد الأسرة الثانية عشرة.

وكذلك الحال في الجبانة رقم (٤) «بكرمة» يُلْحَظُ أن الجعارين التي وُجِدَتْ مع الأجسام في الدهليز الرئيسي وبخاصة الجعران (11-53) لا تكاد تتفق مع استنباط «ريزنر» بالنسبة لتاريخها فقد وضع هذا الجعران الأخير في عهد «أمنمحات الرابع».

وعلى أية حال نرى أن «ريزنر» قد استنبط من الآثار التي عثر عليها في جبانة «كرمة رقم ٣» (التي دل ما وجد فيها على أنها من طراز يرجع إلى أزمان متأخرة) أنها من عهد أوائل الدولة الوسطى وهذا يناقض ما كشف فيها من آثار، وعلى ذلك يمكن القول إن جبانة «كرمة رقم ٣» لا يمكن أن تكون مقبرة «زفاي حعبي» وهذا يوافق رأي «سيف زودربرج».

وإذا كانت هذه الآثار والطرز التي نشاهدها في جبانة كرمة رقم ٣ لا يمكن أن تُؤَرَّخَ بعهد أوائل الأسرة الثانية عشرة فإن وجودها في هذا المكان لا بد أن يُنْسَبَ إلى ما بعد الأسرة الثانية عشرة أو على الأقل إلى نهاية هذه الأسرة. وفضلًا عن ذلك وُجِدَ في دهليز جبانة «كرمة رقم ٣» قضيب سحري مصنوع من سنِّ الفيل كُتِب عليه النقش التالي «الأم الملكية أنني». ومن المحتمل أنها كانت في الأصل في الدفنة الرئيسية. ونحن من جانبنا نعلم بوجود الأم الملكية التي تُدْعَى «إنني» على بعض الجعارين، وقد قال عنها «نيوبري» إنها من العهد المتوسط الثاني[٧٣] وهذا التأريخ يتفق مع تاريخ الجعارين التي وُجِدَتْ في الدهليز الرئيسي لمقبرة «كرمة رقم ٣».

أما الغطاء الذي عُثِرَ عليه في جبانة «كرمة رقم ٣» وهو الذي نقش عليه الاسم الحوري للملك «أمنمحات الثالث» فتدل كل الاستعمالات المتبعة على أن أصله من مبنى «كرمة[٧٤] رقم ٥». هذا فضلًا عن أن هذا الغطاء لا يمكن أن يُعَدَّ ضمن أثاث جبانة «كرمة رقم ٣».

ومن ثَمَّ نلحظ أن هناك أشياء كثيرة تُرَجِّحُ الرأي القائل إن جبانة «كرمة رقم ٣» وجبانة «كرمة رقم ٤» لا بد أن تُؤَرَّخَا بعهد غير العهد الذي اقترحه «ريزنر» ومن ذلك تكون التماثيل التي وُجِدَتْ للأمير «زفاي حعبي» وزوجه قد اسْتُعْمِلَتْ مرة ثانية في هذه الجبانة فيما بعد. والآن يتساءل الإنسان عما إذا كان «زفاي حعبي» والموظفون الآخرون الذين جاء ذكرهم في النقوش في جبانة «كرمة رقم ٣» كانوا فعلًا يقومون بأعمال إدارة في «كرمة». فعلى حسب رأي «ريزنر» نفهم أن كل التماثيل التي وُجِدَتْ

في «كرمة» مصنوعة من أحجار محلية، غير أن هذا الرأي يرتكز فقط على أن الأحجار التي اسْتُعْمِلَتْ للحفر موجودة في هذه الجهة أي إنها أحجار محلية، غير أن المكان الذي اسْتُخْرِجَتْ منه هذه الأحجار سيظل غير مؤكد لدينا إذ ليس من الثابت لدينا أن نوع الحجر الذي نحن بصدده لم يكن مُسْتَعْمَلًا في مصر وأنه لا يوجد إلا في «كرمة».

وإذا كانت التماثيل الصغيرة والكبيرة قد نُقِلَتْ إلى «كرمة» بوساطة التجارة أو غير ذلك فإن الأشخاص الذي تمثلهم لا يقدمون لنا بدهيًّا أية صورة عن طائفة الموظفين في هذه الجهة. أما التماثيل الصغيرة فإنها على العكس من التماثيل الكبيرة الحجم يمكن حملها ونقلها بسهولة.

وتشمل النقوش عدا لوحة «أنتف» التي عُثِرَ عليها في مبنى «كرمة رقم ٢» صيغة جنازية وألقابًا بعضها لا يدل على شيء، وبعضها له اتصال بعلاقات مصرية داخلية مباشرة. هذا ونجد أن لقب «الرئيس العظيم للجنوب» الذي يحمله «زفاي حعبي» لا يكاد يعادل لقب حاكم، ولكنه من المؤكد يحمل نفس المعنى الذي نجده في لقبه «المشرف على الوجه القبلي» وهو اللقب الذي نجده في نقوشه التي تركها لنا في مقبرته «بأسيوط». يضاف إلى ذلك أننا لا نجد في نقوش «أسيوط» هذه ما يدل على أن «زفاي حعبي» كان يعمل خارج بلاد مصر أي في بلاد «كوش».

(٢) ينتقل بعد ذلك «ريزنر» إلى التحدث عن لوحة «أنتف» فيقول: «وجدت لوحة الأمير الوراثي والمشرف على الخاتم «أنتف» مُهَشَّمَةً ثلاث قطع متقاربة في الردم أمام مقصورة «كرمة رقم ٢». وقد أُرِّخَتْ بالسنة الثالثة والثلاثين من عهد «أمنمحات الثالث» (١٨١٦ق.م.) وهي تذكار لإصلاح مبنى يُدْعَى «سنبت» أي إن تاريخها ما بين ٦٥ و١٢٥ سنة بعد موت «زفاي حعبي». والظاهر من النقش الذي تركه لنا «أنتف» أنه قد أُرْسِلَ إلى «كرمة» في حملة موفقة، ولكنه يفتخر بأنه قد أُرْسِلَ بسبب امتيازه لتوسيع حدود الملك وما أوتي من كفاية، وليس في مقدوري أن أعرف لماذا أُرْسِلَ إلى هذا المكان إذا كان هناك فعلًا حاكم في «كرمة»؛ فلا يتصور أن يُرْسَلَ إلى هذه الجهة عظيم لمجرد إصلاح مبنى يحتاج إلى عدد قليل من آلاف اللبنات، والتفسير الوحيد المقبول في هذا الصدد على ما يظهر لي هو أن «أنتف» كان قد أرسل لإدارة هذا القطر، وإن هذه اللوحة هي عبارة عن سجل قصير لعمل من الأعمال، وقد نُصِبَتْ في هذا المكان حيث نفذ هذا العمل، وإني أعتقد إذن أن «أنتف» كان أحد نواب الملك العاملين في «كرمة» وكان يقوم بعمله في العام الثالث والثلاثين من حكم «أمنمحات الثالث» ما بين ١٨١٦ق.م. وبين ١٨٨٠ق.م. وهو

آخر تاريخ ممكن لعهد ولاية «زفاي حعبي» وهي مدة قدرها أربع وستون سنة، ولا بد أن نفرض لهذه المدة حاكمًا لم يكن مدفونًا في «كرمة» أما من جهة «أنتف» نفسه فإنه على الرغم من تحديد تاريخ لعهده في «كرمة» فإن هذه الحادثة يمكن أن تكون قد حدثت بين عامي ١٨١٦ و١٨٥٠ق.م. وإن كان من المحتمل أن التأريخ الأخيرة مُبَالَغٌ فيه بعض الشيء. والنقش يقدم لنا نقطة أخرى في اسم المؤسسة «إنبو أمنمحات (جدار أمنمحات) صادق القول»، وذلك أن هذا المكان قد سمي باسم فرد يُدْعَى «أمنمحات» كان قد مات، وعلى ذلك فإنه ليس «أمنمحات الثالث» الذي عُمِلَ في عهده النقش لأن النقش على الأرجح جدًّا بطبيعة الحال كان يُنْسَبُ إلى «أمنمحات الأول»، وعلى ذلك فإن تأسيس هذه النقطة العسكرية في «كرمة» لا بد أن يُنْسَبَ إلى عهده. وقد أخضع «أمنمحات الأول» ثورة كوشية في عام ١٩٧١ق.م. غير أن ابنه «سنوسرت الأول» كان مضطرًّا لإخماد ثورة أخرى في عام ١٩٦٢ق.م. أي بعد تسع سنوات من الثورة الأولى. وكان المركز الإداري المحصن الذي تمثله «الدفوفة الغربية» قد أُقِيمَ إما في نهاية عهد «سنوسرت الأول» أو في أوائل عهد «أمنمحات الثاني» وكانت الجبانة العظيمة التي تعد المركز الهام لدفن المجتمع هناك قد بُدِئَتْ على قدر ما يمكن معرفته الآن بالأمير «زفاي حعبي» عند نهاية حكم «سنوسرت الأول» تقريبًا أو في عهد «أمنمحات الثاني». والظاهرُ أن المؤسسة «إنبو أمنمحات» إذا كانت قد أُسِّسَتْ في عهد «أمنمحات الأول» لم تكن في عهده إلا بمثابة نقطة تجارة كما كانت عليه في عهد «بيبي الثاني»، ولذلك فإن اسم «جدار أمنمحات» يظهر ضخمًا أكثر من اللازم إلا إذا كان هناك جدار شاسع محيط كان قد هدم تمامًا، وعلى ذلك لا يمكن حل هذه المسألة بما لدينا من مادة محفوظة كشف عنها، فالجبانة كما وجدناها لا يرجع تاريخها إلى أكثر من عهد «سنوسرت الأول» وعلى ذلك فإنه لا بد أن نفكر في المقترح القائل بأن اسم «إنبو أمنمحات» يشير إلى «أمنمحات الثاني»، وأن «زفاي حعبي» قد أرسله الملك إلى «كرمة» وأنه هو المؤسس لحامية «كرمة» وهذا المقترح إذا كان صحيحًا فإنه يجعل موت «زفاي حعبي» حوالي عام ١٨٨٠ق.م. أكثر من التاريخ الذي حُدِّدَ لموته فيما سبق، هذا ما علق به الأستاذ «ريزنر» على لوحة «أنتف» والآن يجب علينا قبل مناقشة كلامه أن نضع ترجمه لهذه اللوحة فيما يلي:

> السنة الثالثة والثلاثون الشهر الأول من فصل الصيف اليوم الأول في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «ني ماعت رع» بن «رع» «أمنمحات (الثالث)» العائش أبديًّا، قائمة اللبنات اللازمة للمبنى «سنبت» الذي يقع في

«إنبو أمنمحات المرحوم» وهي التي اسْتُعْمِلَتْ بنشاط الأمير والسمير الوحيد الذي بعثه سيده لأنه كان ممتازًا — لتثبيت حدوده بما لديه من تصميمات ممتازة، المشرف على الخاتم «أنتف» ابن «شم إب» عندما كان مع جنود الحدود الخاصة «بإلفنتين».[٧٥] (عدد اللبنات) ٣٥٣٠٠ (أو ٣١٣٠٥).

وعلى الرغم من أن المنتظر أن ذكر جنود الحدود في «إلفنتين» وكذلك العبارة: «لأنه كان ممتازًا لتثبيت حدوده (أي الملك)» يكون مصدره نقشًا من «إلفنتين» أكثر من نقش مصدره «كرمة»، فإن شواهد الأحوال تدل على أن مصدره كان «كرمة». ومن الْمُحْتَمَلِ أن النشاط البنائي المذكور في هذه اللوحة كما يقول «ريزنر» قد دل على إصلاح في مبنى «كرمة رقم ٢». وكلمة «سنبت» معناها العام «جدار» ولا تعني أية محطة معينة. غير أن عدد اللبنات يتفق مع عمل إصلاح حدث فعلًا في مبنى «كرمة رقم ٢»، وفي الوقت نفسه فإنه يعتبر عددًا ضئيلًا جدًّا لإقامة مبنى في «كرمة رقم ٢» أو «كرمة رقم ١». ويطلق الاسم «إنبو أمنمحات المرحوم» على المستودع التجاري «بكرمة» أو على المستعمرة المرتبطة بها (أي كرمة نفسها)،[٧٦] هذا إلى أن تكوين الاسم نفسه يدل على أنها قد أقيمت في عهد ملك مبكر يُدْعَى «أمنمحات» ويُحْتَمَلُ أنه «أمنمحات» الأوَّل أو الثاني ولذلك سميت باسمه. أما الأستاذ «ينكر» فيسلم[٧٧] بأن مبنى «كرمة رقم ٢» وكذلك المؤسسة الكبيرة «كرمة رقم ١» قد أقامهما «أمنمحات الثالث» غير أن المتون التي لدينا لا تعضد هذا الرأي، ومع ذلك فإنه قد يكون على حق، وذلك لأنه من المحتمل أن «كرمة رقم ١» المتأخرة قد أقيمت في عهد ذلك الفرعون في حين أن المباني القديمة في «الدفوفة» قد أقيمت في بداية عهد الدولة المتوسطة. وهذا الرأي يمكن الأخذ به ما دامت المآخذ الأثرية تعوزنا. وتؤكد لنا المتون على أن الوكالة كانت تقوم بنشاط في عهد حكم الإمبراطورية، وهذا ما تدل عليه كل الأحوال في عهد الدولة الوسطى.

وتدل صفة هذه المؤسسة المحصَّنة التي تُعَدُّ بمثابة مستودع تجاري لا حصن، كما يدل ما نجده من مظاهر النعيم والرخاء في مقابر القوم في هذا العهد، على أن المصري كان يعيش هنا بوصفه تاجرًا مسالمًا، وأنه كان يستغل السكان الأصليين في تجارته. ولم تنتشر المقابر المتأخرة عن عصر ثقافة «كرمة» بعد، غير أنه من المادة التي انتشرت حتى الآن من جبانة «كرمة رقم ٣» نعلم أن تدهورًا حدث في فن بناء المقابر الكومية الشكل وكذلك في الصناعات اليدوية.[٧٨]

وبازدياد الصعوبات في العهد المتوسط الثاني من التاريخ المصري في وجه التجارة مع الجنوب ظهر أمامنا كذلك حالة فقر الأهلين في «كرمة» نتيجة لذلك.

(٣) ويستمر «ريزنر» في تعداد الآثار التي وُجِدَتْ من هذا العصر فيقول: «عُثِرَ على لوحة في هيئة خاتم في «كرمة رقم ٤٠٥» وهو مدفن من أهم المدافن الثلاثة في جبانة «كرمة رقم ٤» وهو على ما يظهر أحد المدافن المبكرة في هذه الجبانة. ويرى «ريزنر» أن العلامات الهيروغليفية التي على هذا الخاتم هي الاسم الحوري للملك «أمنمحات الرابع»[٧٩] وهذا الخاتم كان متآكلًا ويبرهن على أن الدفنة (K 405) كانت قد حُفِرَتْ بعد بداية حكم «أمنمحات الرابع»، ولكن هذه المدة لا تتجاوز عشر سنين من غير شك، وعلى ذلك يمكننا أن نضع حدًّا لتاريخ معقول وهو ما بين ١٨٠٠ق.م. و١٧٩٠ق.م. للعهد الذي يمكن أن يكون قد تُوُفِّيَ فيه الموظف الذي دُفِنَ في الجبانة (KIV). ويلاحظ أن هذا التأريخ يفتح أمامنا إمكانية أن «أنتف» صاحب اللوحة الذي أصلح مبنى «كرمة رقم ٢» قد دُفِنَ في نفس المقبرة (KIV). وألقاب الموظف الذي دُفِنَ في (KIV) كما وصلت إلينا من قطعة من تمثال صغير نسبته إليه هي: الأمير الوراثي والحاكم ...» في حين أن «أنتف» كان يُلَقَّبُ على اللوحة «المشرف على الخاتم» ولكن يلحظ أن اللوحة صغيرة جدًّا وكان الكاتب مضطرًّا بمقتضى المساحة التي أمامه أن يختصر في الألقاب، فمن الممكن إذن أنه كان يحمل ألقاب صاحب التمثال الصغير وغيرها. وفضلًا عن ذلك يمكن أن يحمل التمثال اللقب الذي على اللوحة وألقابًا أخرى هُشِّمَتْ. وأخيرًا يمكن أن نضيف هنا أن «أنتف» قد أتى إلى «كرمة» إما في سنة ١٨١٦ق.م. أو قبلها، وهو يحمل لقب «المشرف على الخاتم» ومن الممكن أنه كان قد أحرز ألقابًا أخرى بين هذا الوقت والتاريخ الذي دُفِنَ فيه إذا كان فعلًا قد دُفِنَ في هذه الجبانة».

والواقع أن قراءة الاسم الحوري بوصفه للملك «أمنمحات الرابع» فيه شك، وبخاصة أن هذا الخاتم لا يحمل على ظهره الإطار العادي والرسم الذي على ظاهر الخاتم على أنه من عهد متأخر[٨٠] وعلى ذلك فإن كل مقترحات الأستاذ «ريزنر» تتلاشى من حيث التأريخ بهذا الخاتم.

(٤) ثم يقول «ريزنر»: «عُثِرَ على تمثال صغير لملك يُدْعَى «سخم رع خوتا وي» في دهليز التضحية للمقبرة (KXB) في الردم في غربي حجرة الدفن الرئيسية، وكذلك عُثِرَ على قطع من تمثال أصغر بكثير من السابق وعلى تمثال الملك «سنوسرت الثالث» على سطح الردم على الجانب الجنوبي للمقبرة الكومية». وتوحيد هذا التمثال بالملك

«سنوسرت الثالث» يتوقف على سطر من النقوش جاء فيه: الإله الطيب «خع ... رع» وعلى رأس تمثال يظهر من ملامحه أنه «لسنوسرت الثالث» كما يدل على ذلك تماثيله في مصر ويظهر لي ذلك مؤكدًا. والعلاقات بين قطع هذا التمثال الصغير والدفنة الرئيسية ليست واضحة. ولكن يمكن أن تُعْتَبَرَ هذه مثل القطع التي وُجِدَتْ في المقبرتين رقم ٣ و٤ في «كرمة» وعلى ذلك فإني أنسبها بالإضافة إلى تمثال «سخم رع خوتا وي» للدفنة الرئيسية في الجبانة (K.X.). وعلى حسب ورقة «تورين» يعتبر «سخم رع خوتا وي» الملك الخامس عشر في الأسرة الثالثة عشرة، وعلى حسب تاريخ هذه الأسرة العام يكون حكمه حوالي عام ١٧٣٠ق.م. تقريبًا، وعلى وجه التقريب يكون قد حكم بعد «سنوسرت الثالث» بقرن. ولما كان تمثاله قد وُضِعَ في حجرة الدفن الرئيسية للمقبرة (K.X.) فإن الرجل الذي دُفِنَ هناك لا يمكن أن يكون قد مات قبل حكم «سخم رع خوتا وي».

(٥) ويقول «ريزنر»[٨١] إنه عثر في المقبرة (KXVI) في ردم حجرة الدفن الرئيسية على قطع كبيرة من إناء قربان كبير مصنوع من المرمر نُقِشَ على جزء منها نهاية اسم ملكي «مس» كما عثر على تمثال صغير من الخشب له لباس رأس ملكي وصل، هذا إلى قطع من تمثالين «لشخصين عاديين».

وقد قرأ «ريزنر» اسم هذا الملك على أنه «زديومس» غير أن هذه القراءة فيها شك كبير لأن علامة «مس» فيه مهشمة تماما.[٨٢]

ومما سبق نفهم أنه كان يوجد في جهة «كرمة» مستعمرة مصرية قد يجوز أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة، غير أن قيامها الفعلي كان في عهد الدولة المتوسطة، وكان الغرض منها قبل كل شيء التجارة بين بلاد «كوش» ومصر، وتدل شواهد الأحوال على أن هذه التجارة كانت تقوم على مبادئ السلام والمهادنة. والواقع أنه ليس لدينا أية مصادر حتى الآن تدلنا على قيام مشاريع حربية أو على نشوب مواقع مع الأهالي جنوب «سمنة»، ومن ثَمَّ نعرف أن بلاد النوبة السفلى كان يحتلها المصريون احتلالًا عسكريًّا، وأن الأهالي هناك عندما كانوا لا يُسَامُونَ الْخَسْفَ يخضعون تمامًا سياسيًّا لمصر. ولكن من جهة أخرى نجد أن العلاقات بين منطقة «كرمة» ومصر كان قوامها تبادل التجارة السلمي، وعلى ذلك فإن الصعوبات التي كانت تعترض التجارة المصرية في الجنوب وهي التي انتهى أمرها بسقوط المستودع الذي كان في «كرمة» لم يكن سببها يرجع إلى الأحوال في «كرمة» بل إلى الأحوال في مصر نفسها وفي بلاد النوبة السفلى التي كانت تربط الجهتين إحداهما بالأخرى. إذ في تلك الفترة أخذت مصر في التدهور الذي انتهى بسقوط الدولة الوسطى ثم احتلال الهكسوس للبلاد لمدة طويلة كما سنرى بعد.

هوامش

(١) راجع: Buhen, p. 98, 102, ff.

(٢) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٠٤.

(٣) راجع: Roeder, Debod bis Bab-Kalabsche § 450, VI ويحتمل أن هذه الأسماء من الدولة الحديثة.

(٤) راجع: Berlin No. 19500 (Agypt. Inschr. Konig. Mus. Berlin I, 260. f.

(٥) راجع: Lange-Schafer, I, p, 101

(٦) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٥٠ إلخ.

(٧) راجع: J.E.A., 3, p. 100

(٨) راجع: Louvre. I, Nach Abschrift des Berliner W.B

(٩) راجع: Sudan Notes and Records 12, p. 157

(١٠) راجع: Ibid P 69

(١١) راجع: A.S., 33, p.71

(١٢) راجع: Roeder, Debod bis Bab-Kalabsche, pp. 529, 543

(١٣) راجع: Sudan Notes and Records, 12, p. 157

(١٤) راجع: A.Z., 70, p. 88 ff.

(١٥) راجع: A.S., Vol. 33, p. 72

(١٦) راجع: Weigall Report, Pl. LIII

(١٧) راجع: Sudan Notes, 12, p. 159

(١٨) راجع: Roeder, Dekka, p. 369

(١٩) راجع: Sudan Notes, 12, p. 159

(٢٠) راجع: Roeder, Debod bis Bab-Kalabsche, p. 114

(٢١) راجع: A.S., 33, p. 74

(٢٢) راجع: Roeder, Dekka, p. 371.

(٢٣) راجع: Roeder, Debod, p. 113.

(٢٤) راجع: Roeder, Ibid, $ 524

(٢٥) راجع: Buhen, p 201

(٢٦) راجع: Roeder, Dekka, p. 368

(٢٧) راجع: Roeder, Debod, § 544

(٢٨) راجع: Aniba, I, p. 114.

(٢٩) راجع: Emery-Kirwan, p. 8; LAAA, 8, 77.

(٣٠) راجع: Ibid, p. 40

(٣١) راجع: Harvard, African Studies, Vols. V and VI and Kerma I and Il

(٣٢) راجع: Karl Richard Lepsuis, Denkmaler aus Aegypten und Aethiopien Erganzungsband V, bearbeitat Von Walter Wreszinské, Leipzig, (1913), pp. 245,247,

(٣٣) راجع: Kerma, II, p. 556.

(٣٤) راجع: A.S.T., 29, p. 6 ff.

(٣٥) راجع: Kerma, I, pp. 135-189.

(٣٦) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٢٧ إلخ وينطق اسمه كذلك حبزافي.

(٣٧) راجع: Kerma, I, p. 69.

(٣٨) راجع: Kerma, 72.

(٣٩) راجع: Kerma, II, p. 378, Fig. 260 Pl, 70. 3; 72, 1.

(٤٠) راجع: Aniba, I, Gattung IV, p. 91 ff.

(٤١) راجع: Kerma, II, p. 7.ff

(٤٢) راجع: Aniba, I, p. 114

(٤٣) راجع: Flinders Petrie, Prehistoric Egypt, p, 44

(٤٤) راجع: Firth, Arch. Survey of Nubia, IV-V, pp, 272-280

(٤٥) راجع: Lucas. An. Eg. Mat. P. 22

(٤٦) راجع: Reisner, Kerma, II, Pls, 57-60

(٤٧) راجع: Reisner, Kerma, ll,, Pls. 54-56

(٤٨) راجع: Kerma, II, Taf 45-47

(٤٩) راجع: Griffith, Studies, p. 303 f

(٥٠) راجع: Kerma, II, P. 135

(٥١) راجع: Kerma, II, p. 51 P1, 37.

(٥٢) راجع: Aniba, I, p. 116. ff.

(٥٣) راجع: Kerma, I, P1, 19.

(٥٤) راجع: Kerma, I, p. 48.

(٥٥) راجع: Junker, Toschke, p. 10.

(٥٦) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٢٧ إلخ.

(٥٧) راجع: Kerma, I, P1, Xl.

(٥٨) راجع: Tell el-Yahudiya Vasen p. 99.

(٥٩) راجع: Keram, I, Fig, 4, No. 1. p. 27.

(٦٠) راجع: Save-Soderbergh, Ibid., pp. 107- 108.

(٦١) راجع: Reisner, A.Z., 52 p. 34 ff.

(٦٢) راجع: Firth, The Step Pyramid (1936) p. 120.123, 136 f. Pl. 88,ff; 105.

(٦٣) راجع: Pendlebury, Aegyptiaca (Cambridge, 1930), p. 3 Note 6.

(٦٤) كما يزعم «ريزنر» راجع Kerma, II, p. 545.

(٦٥) راجع: Save-Soderbergh, Ibid., p. 109.

(٦٦) راجع: Kubanieh Nord, p. 19 ff.; Tell-el-Yahudiya-Vas en, p. 95 ff. Steindorffi Aniba, I, 12; Kees, Ibid., p. 348, Scharff in OLZ. 29, 89 ff.

(٦٧) راجع: Kerma, I, p. 94 ff.

(٦٨) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٧٧ إلخ.

(٦٩) راجع: Kerma, II, p. 525, Statuette No. 48 Inscr. No. 49 comp. Kerma I, 85, No. 49.

(٧٠) راجع: Kerma, II, p. 525, Statuette No. 60.

(٧١) راجع: Kerma, II, p. 525, Statuette No. 55 Inscr, No. 47.

(٧٢) راجع: Kerma, I, p. 182.

(٧٣) راجع: Kerma, I, 85, II, p. 522.

(٧٤) راجع: Reisner, Kerma, II, p. 521.

(٧٥) راجع: Scharff in OLZ, 29, p. 96 f; Kees, Kulturgesch., p. 348.

(٧٦) راجع: J.E.A, Vol, 3, p. 187 note 1.

(٧٧) راجع: Tell-el-Yahudiya Vasen, p. 102.

(٧٨) راجع: Kerma, I, 95; II, p. 13 ff.

(٧٩) راجع: Kerma, I, p. 100.

(٨٠) راجع: Kerma, II, pl. 40 and 41 No II, 59.

(٨١) راجع: Ibid, p. 101.

(٨٢) راجع: Save, Ibid, p. 111.

الفصل العاشر

العصر المتوسط النوبي الثالث (عصر الهكسوس)

يبتدئ العصر المتوسط النوبي الثالث بالأسرة الثالثة عشرة وهو عصر نهوض جديد ثم انحطاط تدريجي لمجموعة ثقافة C.

والأماكن التي وُجِدَتْ فيها آثار تمثل هذا العصر غير الجبانات التي ذكرناها فيما قبل هي جبانة الشلال رقم ١٧[1] وجبانة «مريس-فرص» ٤١/ ٥٠٠[2] وجبنة «جناري» ٥٨/ ١٠٠[3] وجبانة «الدكة» رقم ٩٤[4] وجبانة «كوبان» رقم ١١٠[5] وجبانة «السيالة» رقم ١٣٥[6] وجبانة «قرته غرب» رقم ١١٨[7] وجبانة «العلاقي غرب» رقم ١١٣[8] هذا بالإضافة إلى ما كشف عنه «ينكر» من مقابر في الكوبانية الشمالِية وأرمنا وتوشكى.

ويلفت النظر أن الدفن في هذه الجبانات يُشْبِهُ الدفن في العصر النوبي المتوسط الثاني ويُلَاحَظُ كثيرًا أنه كانت تُقام مزارات من اللَّبِنَاتِ في الشرق أو في الجهة الشمالية من البناء العلوي.[9] وفضلًا عن ذلك يوجد بناء علوي عظيم ضخم مستدير مسقف بقبة وله مزار من اللبنات مُقَامٌ على حافة الجبانة. وتقام غالبًا المقابر على رمل عالٍ يكون في العادة فوق مبانٍ قديمة. ووَضْعُ الجثة المقرفصة في هذه المقابر لا يتبع قاعدة معينة كما كانت الحال في العهد المتوسط الثاني النوبي؛ فنجد بجانب الوضع القديم الذي كانت توضع فيه الجثة متجهة من الشرق إلى الغرب الوضع من الشمال إلى الجنوب. وتُوضَعُ الجثة على السرير على الجانب الأيسر، ويلاحظ أن الركبة ليست مطوية تمامًا بل مطوية بعض الشيء. وغالبًا ما يوجد بجانب الجثة حيوانات (ضأن وماعز) مدفونة. وفي كثير من الجبانات توجد قرون منصوبة ملونة باللون الأحمر في الجانب الخارجي للمبنى العلوي.

أما القربات التي كانت تُدْفَنُ مع الْمُتَوَفَّ في هذا العهد فكانت تشتمل على أوانٍ عدة من الفخار توضع في حفرة الْمُتَوَفَّ (وأحيانًا كان يُوضَعُ بعضها خارجها) أو كانت تحفظ في المقصورة. وقد بَقِيَ كثير من الأشكال القديمة التي كانت تُسْتَعْمَلُ في مقابر العهد المتوسط الثاني في مقابر العصر الذي نحن بصدده، غير أن صناعتها قد انحطت والأشكال الجديدة التي ظهرت في هذه المقابر هي أوعية عميقة الغور ذات اللون الأحمر المصقول أو ذات اللون الأحمر والحافة السوداء، وكذلك من التي على ظاهرها أشكال تخطيطية محفورة.[١٠] هذا إلى صحاف محزوزة مكونة من نماذج ملونة، وقواعد أوانٍ وأباريق على هيئة الزنبق وأطباق ذات أفواه من فخار «كرمة» الجميل.

وأهم ما يلاحظ في أدوات الزينة التي وُجِدَتْ مع الْمُتَوَفَّ أساور المعصم التي نظمت في صفوف على هيئة مستطيلات رقيقة من الألواح الصغيرة الْمُؤَلَّفَةِ من الأصداف.

العصر النوبي الرابع الذي يقابل نهاية عصر الهكسوس وبداية الأسرة الثامنة عشرة

ومجموعة مقابر هذا العصر تشمل المقابر المستديرة أو القعبية وهي التي توجد في الجزء الجنوبي من الوجه القبلي وتمتد شمالًا حتى «أسيوط». وهذه المقابر لها علاقة وثيقة بمقابر العصر النوبي الثالث، غير أنها تقدم لنا مع ذلك خواص كثيرة لها مما يجعلها مميزة عن الأخيرة تمامًا بوصفها وحدة منفصلة دخيلة. ولا يمكن أن نحكم على وجه التأكيد عن المكان الذي أتى منه القوم الذين دُفِنُوا في هذه المقابر المستديرة الشكل، فمن المحتمل أنهم نوبيون مهاجرون مثل البرابرة الذين يقومون بالخدمة في البيوت المصرية الكبيرة الآن لعدم وجود أسباب العيش في بلادهم الأصلية، فكانوا يرحلون إلى مصر حيث يجدون العيش الرغد والدخل الكبير بالنسبة لبلادهم. وقد يظن الإنسان أن هؤلاء المهاجرين هم جنود مرتزِقة وذلك بسبب وجود بعض الأسلحة معهم، وأنهم قد وفدوا إلى مصر في عهد الهكسوس ليقوموا بخدمة ملوك الوجه القبلي في عهد الأسرة السابعة عشرة وأقاموا لأنفسهم مستعمرات هناك. والواقع أن الأثري «وينريت» قد وصف القوم الذين دُفِنُوا في هذه المقابر المستديرة الشكل بأنهم قوم غلاظ الطبع وبطبيعة الحال محاربون.[١١]

ولم نعثر على وجه التأكيد في تربة بلاد النوبة على جبانات تحتوي على مقابرَ مستديرة الشكل، وقد نَسب خطأ الأستاذ «ويجول» في وقت لم تكن الثقافة النوبية

القديمة معروفة (١٩٠٦م–١٩٠٧م) الثقافة القعبية الشكل إلى ثقافة مجموعة C. يضاف إلى ذلك أن الجبانة النوبية رقم ٧ في «الشلال» والجبانة رقم ١١٠ في «كوبان» والجبانة رقم ١١٣ في «العلاقي» لا يزال ينسبها «ينكر»[١٢] إلى ثقافة المقابر القعبية الشكل، وقد كان أول من وضع الأمور في نصابها الأثري «فرث» عندما نسبها بحق إلى ثقافة مجموعة C المتأخرة، وبذلك قد سقطت كل مقترحات «ينكر» عن أصل وعلاقة المقابر القعبية الشكل بثقافة «كرمة» الوطنية في «دنقلة». فيلحظ لأول وهلة أنه من مميزات الأخيرة، أي ثقافة «كرمة» أن مدافنها على شكل كومة كبيرة كما تمتاز زخرفتها بالميكا، هذا إلى أن التطعيم بسن الفيل نجده معدومًا تمامًا في ودائع المقابر القعبية كما أنه غريب عن ثقافة مجموعة C. وعندما نجد المقابر القعبية تقدم لنا أشياء كثيرة لا توجد في معظم مقابر العصر المتوسط النوبي الثالث فإنه يكون من السهل علينا أن نفسر أن الثقافة النوبية بوجه عام ليست من تربة مصرية وأن الأشياء التي أمكن الإنسان أن يحصل عليها هي للقوم الذين ضربوا في الأرض نحو الشمال وبذلك كان لزامًا عليهم أن يستبدلوا غيرها بها.

وأهم الأماكن التي وُجِدَتْ فيها آثار هؤلاء القوم في مصر هي «هو» و«عبادية»[١٣] و«ريفة» بالقرب من «أسيوط»[١٤] «والبلابييش» الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل قبالة «العرابة»[١٥] و«البداري».[١٦]

ومقابر هذا العهد مستديرة ومنبسطة واتجاهها من الجنوب إلى الشمال ولا يعلوها بناء آخر، وقد وُجِدَ مع الْمُتَوَفَّى أحيانًا في جبانات منفردة (كما هي الحال في جبانات العصر النوبي الثالث) قرون نهايتها حمراء والجثة المقرفصة قد وُضِعَتْ في القبر مُضْطَجِعَةً على الجانب الأيمن والوجه متجه نحو الغرب.

الأثاث الذي كان يُوضَعُ مع الْمُتَوَفَّى:[١٧]

وُجِدَتْ بين الأواني الفخارية التي كانت تُوضَعُ مع الْمُتَوَفَّى في حفرة الدفن غير الأواني النوبية المعروفة أشكال جديدة وزخارف، وأباريق لها بزابيز وصحون من أواني «كرمة». أما أدوات الزينة فقد عُثِرَ منها على محارٍ حلزوني اسْتُعْمِلَ في نظم قلائد وأسوار معصم مؤلفة من لوحات من الأصداف كما كان ذلك محبوبًا في العهد النوبي المتوسط الثالث، وفي هذا العهد كَثُرَتْ كذلك الخناجر المصنوعة من النحاس.

هوامش

(١) راجع: Reisner, Ibid, P. 52 ff.

(٢) راجع: Reisner, Ibid, P. 224 ff.

(٣) راجع: Firth, I, p 9 55 ff وكذلك راجع Toschke, p. 13.

(٤) راجع: Firth, II, p. 105 ff و Toschke, p, 12.

(٥) راجع: Firth III, p. 51.

(٦) راجع: Firth III, P. 198 ff.

(٧) راجع: Firth III, p. 143 ff.

(٨) راجع: Firth III, p. 125 f.

(٩) راجع: Steindorff, Aniba I, p. 32 ff.

(١٠) راجع: Firth II, p. 18, fig. I, classes: XI, XII, pl. 32 b. 1-3 and 35 c, d; comp. Toschke II, 14.

(١١) راجع: Balabish, p. 6.

(١٢) راجع: Kubanieh Nord, p. 30.

(١٣) راجع: Petrie, Diospolis Parva, 45, pls. 35-36, 38-40.

(١٤) راجع: Giza and Rifeh 20/21, p1s, 25 and 26.

(١٥) راجع: Balabish, 8 ff, pls. 2-15.

(١٦) راجع: Qau-Badari III, p., 5 pl. X.

(١٧) راجع: Wainwright, Balabish, p. 17.

الفصل الحادي عشر

حكم الهكسوس في مصر والسودان

تحدثنا في الجزء الرابع من مصر القديمة (ص ٥٤–١٩٨) عن الهكسوس وحكمهم في مصر وما جلبوه من مدنية إلى وادي النيل، غير أن البحوث الحديثة قد غيَّرت بعض النظريات الخاصة بهم؛ ولذلك آثرنا أن نتحدث عن هؤء القوم هنا مُقَدِّمِينَ آخر ما وصلت إليه الكشوف الحديثة وبخاصة البحث الذي وضعه الأستاذ «سيف زودربرج»[١] وإن كان كثير من آرائه لا يُعْتَمَدُ عليه لأنه مجرد نظريات، إلى أن له فضلًا عن ذلك في بعض الأحيان منحًى خاصًّا في النظر إلى المصريين القدامى على أنه لم يأت بشيء جديد مؤكد أكثر مما ذكرناه في مقالنا السابق من الهكسوس اللهم إلا أشياء طفيفة في العلاقات الخارجية.

مقدمة[٢]

كانت مصر في الأسرة الثانية عشرة أقوى دولة في الشرق الأدنى أي في خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد فكانت تسيطر على بلاد النوبة السفلى جيوش مصرية في حين أنه في بلاد النوبة العليا أي بلاد «كوش» كانت الوكالات أو المستودعات المصرية في «كرمة» مزدهرة نامية، فكانت مصر تَجْلِبُ من هذه البلاد الجنوبية الذهب والسلع الأخرى الثمينة بكميات ضخمة، وقد نجم عن كُلٍّ من المكانة السياسية والتجارية التي احتلتها مصر في هذه الأصقاع أن أخذت مصر تلعب دورًا خطيرًا كذلك في الشمال، أي في آسيا، ولا أدل على ذلك من أن ملوك «ببلوص» (جبيل) في سوريا كانوا على ما يظهر من أتباع الفرعون، فقد كانوا يستعملون شارة يلبسونها من صنع مصري ومن الجائز أنهم كانوا يُعَطَّرُونَ عند تتويجهم بالمسوح من أوانٍ تحمل اسم ملك مصري.[٣] ومن المحتمل أن بعض المدن السورية الأخرى مثل «رأس شمرة» («أوجاريت») كانت تابعة لمصر سياسيًّا،[٤] وبعد

سقوط الأسرة الثانية عشرة (١٧٧٥ق.م.) مرت على البلاد فترة تقرب من جيل من الزمن كانت وحدة مصر في خلالها قد تمزقت، ولكن في تلك الفترة كان يحكم البلاد عدة ملوك مؤقتين يعاصر بعضهم بعضًا،[٥] وعلى أية حال لم تلبث أن قامت مصر من عثرتها واسترجعت وحدتها السياسية وقوتها، وهذا الضعف العارض الذي طرأ على مصر لم يغير من مكانتها السياسية في الشرق الأدنى. وفي عهد ملوك الأسرة الثالثة عشرة وبخاصة في حكم الملك «نفرحتب» وأخيه «سبكحتب» (١٧٦٠–١٧٥٠ق.م.) كانت الأحوال في مصر في غالبيتها كما كانت عليه في عهد الأسرة الثانية عشرة، فقد وَحَّدَتْ مصر نفسها ثانية، وفي بلاد النوبة السفلى دلت ظواهر الأحوال على أن كثيرًا من المقابر الغنية الواقعة بالقرب من البلاد المحصنة تُؤَرَّخُ بهذا العهد نفسه، وفي «كرمة» الواقعة في السودان تدل مدنية الأهالي على مقدار عظيم من الثراء الناتج عن التجارة مع مصر كما تَحَدَّثْنَا عن ذلك من قبل.

وعلى أية حال فإن البراهين الأثرية تُوحي ببعض الاختلاف، فقد ازداد الفخار الأجنبي في العدد في المقابر المصرية ومن ثَمَّ نجد ما يسمى فخار «تل اليهودية» منتشرًا من أول بلدة «كرمة» في الجنوب حتى بلاد سوريا في الشمال. وهذا الفخار وغيره من السلع يعد شاهدًا على قيام تجارة نشطة تشغل مساحة شاسعة كان من نتائجها أنها غيرت إلى حد ما صبغة المدنية المصرية وكسرت إلى حد ما قيود أشكالها وخاصيتها التي كانت تتميز بها في العصور التي قبل ذلك العهد.

ففي الشمال كانت علاقات مصر التجارية بمدينة «ببلوص» (جبيل) لا تزال محفوظة فقد عثر في «ببلوص» على نقش غاية في الأهمية نشاهد فيه ملك «ببلوص» المسمى «أنتن» يقدم خضوعه لاسم الملك «نفرحتب» فرعون مصر،[٦] ومن ثَمَّ نعرف أن «أنتن» قد عد نفسه تابعًا لملك مصر. ومن المحتمل أن «أنتن» هذا موحد بملك «ببلوص» المسمى «يانتن-خامو» الذي جاء ذكره في سجلات بلدة «ماري» الشهيرة الآن،[٧] والمتون التي كُشِفَ عنها في «ماري» تُلْقِي ضوءًا جديدًا على تاريخ الشرق الأدنى في منتصف القرن الثامن عشرق.م. فملك «أشور» المسمى «شماشي أداد الأول» حكم جزءًا كبيرًا من «مسوبوتاميا» العليا ولكن ابنه الْمُسَمَّى «أشمي-داجان» لم يكن في مقدوره المحافظة على قوة آشور السياسية ومن ثَمَّ خلصت «ماري» نفسها من نيرها. وقد وصف لنا بوضوح مركز «ماري» السياسي في خطاب لحاكم «ماري» الْمُسَمَّى «زمري ليم» وهاك الخطاب: «إنه لا يوجد ملك يعد وحده الأقوى؛ إذ يتبع «حمورابي» ملك «بابل» عشرة أو

خمسة عشر ملكًا. ويدين بالطاعة مثل هذا العدد لملك «لارسا»[8] المسمى «رم-سن» ومثل هذا العدد يتبع «إبال-بي-إيل» ملك «أشنونا» ونفس هذا العدد يتبع «آموت-بي-أيل» ملك «قطنا». وتبع عشرون ملكًا «ياريم-ليم» ملك «يامخاد».[9] على أن هذا التوازن الدولي بين تلك الممالك الصغيرة لم يمكث طويلًا، إذ نجد أن «حمورابي» ملك «بابل» قد هزم «لارسا» و«ماري»، ومن المحتمل أنه حكم لمدة قصيرة بلاد «آشور»، ولكن لم تلبث أن انْقَضَّتْ قبيلة من الجبال الشرقية على السهل، وأهلها هم القوم الذين يُسَمَّوْنَ «الكاسيين»، وقد وطدوا حكمهم في الجزء الشرقي من بلاد «بابل».

وفي «آشور» نجد قومًا آخرين أجانب من الشرق يُدْعَوْنَ الحوريين قد أصبحوا تدريجًا عاملًا سياسيًّا قويًّا في بلاد النهرين. ولما كان «الكاسيون» قد ثبَّتوا أقدامهم في «بابل» فإن هذه القوة الجديدة الفاتحة قد اتجهت نحو الجنوب وسافر أفرادها غربًا فاجتاحوا «ألالاخ» عاصمة «يامخاد» الواقعة في أعالي نهر الفرات، ومن المحتمل أن هؤلاء الجدد هم الذين اجتاحوها، وقد شاع في «سوريا» عدم استقرار عام يرجع سببه إلى زحف الشعوب من الشرق.[10]

والآن يتساءل الإنسان ماذا حدث في مصر في تلك الفترة؟ الواقع أنه بعد حكم الأخوين «نفرحتب» و«سبكحتب» أخذت الحكومة المصرية في التدهور نحو الانحلال، ويلحظ هنا أن قوائم الملوك المتأخرة وكذلك الآثار المعاصرة تذكر عددًا كبيرًا جدًّا من صغار الملوك الذين يجب أن يكونوا قد حكموا في عصر واحد. والواقع أن مصر قد صارت إلى حالة تشبه الفوضى، وبذلك كانت فاكهة ناضجة لمن أراد أن يجنيها دون كبير عناء، وفي هذا الوقت أخذ بعض الآسيويين يتسربون إلى الدلتا، ولم يلبثوا أن مَكَّنُوا أنفسهم في أرجائها حكامًا محليين، ومن المحتمل أن سبب تسرب هؤلاء الآسيويين يرجع إلى اضطراب في بلاد سوريا، وقد ذكرت لنا قائمة «تورين» الخاصة بملوك مصر وهي التي يرجع عهدها إلى عصر الرعامسة[11] من بين الملوك العديدين الذين لم يحكُموا إلا فترة وجيزة أسماء الملوك «عا-نا-تي» (عنتي» (= عنت-حر «عنا تحر») على جعارين معاصرة، وببنم (Bebnem) أو ببلم (Bblm) وهذان الاسمان يدلان على أنهما مصطبغان بصبغة آسيوية، ومن المحتمل أنهما من أمثال ملوك الأسرة التي كانت تحكم في الدلتا، وقد حكم الملك «خع نفر. رع. سبك. حتب» وهو أخو «نفر حتب» على أقل تقدير مدة ثماني سنوات[12] أي حوالي (١٧٤٠–١٧٣٠ق.م.) وعلى حسب رأي الأثري «شتوك»[13] نجد أن أخلاف هذه الأسرة كذلك حتى حكم الملك «مرحتب رع سبكحتب» قد حكموا كل مصر مما جعله يستنبط أنهم حكموا حتى عام ١٧١٠ق.م. تقريبًا.

على أن وجود جعران باسم «مر نفر رع-آس»[١٤] «في تل اليهودية»[١٥] ليس بالدليل على سلطان هذا الملك في الدلتا، وعلى ذلك فإن أول ملوك للهكسوس «عناتحر» وببنم أو (ببلم) إلخ، يمكن أن يكونوا قد وطَّدُوا حكمهم في الدلتا الشرقية حوالي ١٧٣٠ق.م. وبعض ملوك هذا العهد العديدين الذين جاء ذكرهم في ورقة «تورين» يمكن[١٦] أن يقابلوا الملوك الذين يطلق عليهم ملوك «إكسيوس» (سخا) وهم ملوك الأسرة الرابعة العشرة الذين يُؤَرَّخُونَ على ذلك بحوالي ١٧٣٠–١٧١٠ق.م.

وهكذا نرى أن الأثري «سيف زودربرج» في كل استنباطاته التي ذكرناها هنا لا يرتكز على رأي قاطع بل كل آرائه ترجع إلى الاحتمالات التي قد تصيب أو تخطئ.

وقد حكم هؤلاء الهكسوس مصر بعد انقضاء جيل على عهد حكم الملك «نفرحتب» أي قبل عام ١٧٠٠ ق.م. وقد أخذوا في أيديهم السلطان على بلاد النوبة السفلى كما استحوذوا على التجارة في «كرمة» في بلاد «كوش».

وليس لدينا مصدر يصف لنا كيفية استيلاء الهكسوس على السلطان في البلاد إلا تاريخ مصر الذي كتبه «مانيتون» في القرن الثاني قبل الميلاد أي حوالي ١٥٠٠ عام بعد وقوع هذا الحادث العظيم. ومن ثَمَّ نفهم أنه مصدر متأخر، غير أنه مع ذلك مأخوذ عن وثائق مبكرة. وعلى أية حال فإنه من مميزات كل هذه المصادر المتأخرة الخاصة بالهكسوس أننا نجدها مطبوعة بطابع الدعاية ضد الأجانب الفاتحين، والواقع أنه كلما كان المصدر حديثًا كانت محتوياته تنم عن العداء والبغضاء للهكسوس، وعلى ذلك يجب أن نذكر ذلك عندما نقرأ ما رواه «مانيتون» عن هؤلاء الغزاة[١٧] فاستمع لما يقول:

> «إنه في عهد «توتيمايوس» أو «تيمايوس» أصابتنا جائحة على حين غفلة لسبب لا أعرفه من إقليم الشرق فقد انقض غزاة من أصل غامض على أرضنا وقد اسْتَوْلَوْا علينا بالقوة الغاشمة بسهولة دون أن يضربوا ضربة واحدة. وبعد أن أخضعوا حكام البلاد أحرقوا بعد ذلك مدننا بدون رحمة، وهدموا معابد الآلهة وعاملوا كل الأهالي بعدوان غاشم، فقتلوا البعض وقادوا الآخرين من زوجات وأولاد أناس إلى العبودية، وأخيرًا نصبوا ملكًا منهم يُدْعَى «ساليتيس» (Salitis) وكان مقر حكمه في «منف!» وفرض الضرائب على أهل الوجهين القبلي والبحري، وكان دائمًا يترك خلفه حاميات في أهم المواقع الإستراتيجية».

ويحدثنا بعد ذلك «مانيتون» أن «ساليتيس» قد أقام حصنًا في «أواريس» في الدلتا الشرقية وحكم بعده الملوك «بنون» (Bnon) و«أپاخان» (Apachan) و«أبوفيس»

(Apophis) و«ياناس» (Yannas) و«أسيس» (Assis) (أو «أسث» Aseth أو «كرتوس» Kertos) وأخلافهم، وكل سلالة هؤلاء الغزاة كانت تُسَمَّى «هكسوس» Hyksos.

والآن من هم الهكسوس؟ والتعبير المصري الدال على هؤلاء الحكام هو «حقاو-خاسوت» ومعناه حكام الممالك الأجنبية. وهذا التعبير كان على ما يظهر التسمية المعتادة لمشايخ في فلسطين وسوريا منذ بداية الأسرة الثانية عشرة. فمثلًا نجد واحدًا من هؤلاء المشايخ قد حضر إلى مصر ومعه سبعة وثلاثون أسيويًّا[١٨] حاملين معهم محاصيلهم إلى مصر كما هو مُصَوَّرٌ في مقبرة من مقابر «بني حسن». وقد سُمِّيَ في النقش الذي يتبع هذا المنظر «أبيشاي» حاكم أجنبي. وهذه الصورة يمكن أن تُتَّخَذَ تفسيرًا لهؤلاء الأسيويين الذين تسربوا إلى الدلتا حوالي نهاية الأسرة الثالثة عشرة، غير أنه ليس لدينا برهان لنعتبر هؤء «الحقاو-خاسوت» الذين ذُكِرُوا في القرن العشرين أي قبل عهد الهكسوس بقرنين أو ثلاثة قرون هم نفس الهكسوس الذين أَتَوْا متأخرين أو بمثابة عنصر أجنبي في فلسطين بوصفهم فرسان أشراف يهاجمون البلاد المصرية من سوريا. والواقع أنه لم يصبح استعمال التعبير «حقاو خاسوت» دالًّا على لقب ملكي يُطْلَقُ على حكام مصر إلا فيما بعدُ ويُقْصَدُ به جماعة الأسيويين الذين حكموا مصر.

وهذا التعبير يوحي إلى نفوسنا أن الهكسوس كانوا جماعة صغيرة من الأسر الأجنبية لا أقوامًا عديدين لهم مدنية خاصة. والظاهر على حسب رواية «مانيتون» أن حكم الهكسوس كان لا يعني إلا تغيير القواد السياسيين في مصر، وأنهم لم يكونوا قد وفدوا على البلاد غازين لها بجموع عديدة من عنصر أجنبي. وهذا الرأي يستند على براهين معاصرة كما يقول الأثري «سيف زودربرج»: فيوجد عدد عظيم من المقابر من عصر الهكسوس في مصر، غير أنه لا يوجد في أي مكان أدلة واضحة تحدثنا عن غزوة أجنبية من الشمال. حقًّا يوجد غالبًا فخار أجنبي، غير أن وجوده كان نتيجة الازدياد التدريجي لتدفق السلع الأجنبية وهذا ما يمكن ملاحظته من أول سقوط الأسرة الثانية عشرة وما بعدها، هذا ولا يوجد في أي مكان تغيير مفاجئ في عادات الدفن. ولم ينسب إلا عدد محدود من المقابر في «تل اليهودية» و«أبو صير الملق» و«قاو» و«سدمنت» و«دشاشة» إلى عهد الهكسوس،[١٩] وعلى حسب رأي الأستاذ شارف[٢٠] يحتمل أن بعض الأجسام المصرية في «أبو صير الملق» كانت من طراز سامي الأصل، غير أن هذه النسبة غير مؤكدة، وعلى أقل تقدير فإن هياكل أبو صير الملق تُنْسَبُ إلى آخر عهد من حكم الهكسوس.

وكان في الغالب يُنْسَبُ عدد عظيم من الأشياء الأثرية وما شابهها إلى عهد الهكسوس، ومن هذه المادة قد استنبطت نتائج فيما يتعلق بمدنية قوم الهكسوس ووطنهم وتكوينهم من حيث السلالة.[٢١] وسنذكر هنا بعض هذه الاستنباطات وما يعترضها من حقائق فقد ذُكِرَ مرارًا وتكرارًا أن ما يُسَمَّى فخار «تل اليهودية» يجب أن يُعْتَبَرَ من منتجات الهكسوس، وكما يقول العالم الأمريكي «إنجبرج» يُعَدُّ سندًا لا يقدر بقيمة في الكشف عن احتلال الهكسوس للموقع.[٢٢] وهذا في اعتقاد بعض العلماء ليس له أي مبرر، لأن من الخطر أن يستنبط الإنسان قيام زحف سلالي من مجرد بعض طُرُزٍ خاصة من الأواني الفخارية إذا لم يكن هناك في الوقت نفسه شيء من التغيير الهام في عادات الدفن؛ ومن الممكن البرهنة غالبًا على أن التغير في المواد الأثرية قد يكون سببه التجارة وإلا فما عساه أن يستنبطه أثري في المستقبل بهذه الطريقة من أواني منزل مصري حديث؟ فقد يرى أن مواقد الغاز قد حلت محل المواقد الكبيرة المصنوعة من الفخار، ومن ثَمَّ يرى الباحث أن قومًا يستعملون مواقد الغاز قد غَزَوْا مصر في أوائل القرن العشرين بعد الميلاد، هذا ولما كان بعض هذه الآلات يمكن نسبتها إلى الولايات المتحدة فإن هؤلاء القوم يكونون قد أَتَوْا من أمريكا ومن جهة أخرى يُلْحَظُ أن وجود موقد «بريمس» يمكن أن يبرهن على زحف سلالة من السويد قد اختلطت بعنصر لاتيني، وذلك بسبب وجود كتابة لاتينية على المواقد، وهكذا من الأمثلة التي لا تدخل تحت حصر (غير أن هذا الرأي الذي أدلى به الأستاذ «سيف زودربرج» مردود عليه لأن الأمثلة الجديدة التي أوردها هنا كان منشؤها سهولة المواصلات بين الأمم وانتشارها في كل العالم لا في أماكن محصورة).

وفضلًا عن ذلك نجد أن طراز أباريق «تل اليهودية» الخاص كان يتطور تدريجًا في فلسطين وسوريا وكان ظهوره هناك لا يُشْعِرُ بتغير مفاجئ في تقاليد الفخار.[٢٣]

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأواني كانت قد جلبت إلى مصر قبل دخول الهكسوس بزمن طويل، وقد وُجِدَتْ في مقابر في بلاد النوبة السفلى مُؤَرَّخَةً بزمن لم يكد يكون فيه الهكسوس قد وصلوا إلى مصر الوسطى. ومعظم ما يمكن أن يقال عن العلاقة بين الهكسوس وأباريق «تل اليهودية» هو أن الهكسوس على ما يظهر كانوا يميلون إليها ومن المحتمل أن عددًا عظيمًا منها قد اسْتُورِدَ عندما كان حكام الهكسوس يسيطرون على التجارة أكثر مما كانت في أيدي حكومة مصرية أشد محافظة، ويجب أن نؤكد هنا أن هذه الأباريق كانت تُسْتَعْمَلُ في مصر بعد أن طُرِدَ الهكسوس المبغوضون من البلاد.

وينطبق هذا التدليل على أوانٍ أخرى من الفخار قد أُخْطِئَ استعماله إذا صح أن نقول ذلك عندما نريد البرهنة على أنه كان يوجد عنصر حوري بين الهكسوس، وهذا الفخار هو الذي يُسَمَّى الفخار ذا اللونين المصنوع بعجلة صانع الفخار، وهو معروف من العهد المتوسط الثاني في مصر، وقد عثر عليه في «أبو صير الملق» و«قاو» و«سدمنت».[٢٤] وقد اسْتُعْمِلَتْ زينة مشابهة، ولكن على أوانٍ مختلفة في «مسوبوتاميا» العليا حيث نجد جزءًا من السكان يتكلم اللغة الحورانية، ومن ثَمَّ كان هذا الطراز من الفخار يُدْعَى أحيانًا «الفخار الحوري». ويمكن أن نلحظ أولًا أنه حتى العلاقة التي بين الحوارتيين وهذا الفخار الملون الخاص بمسوبوتاميا العليا — وهو الذي يُسَمَّى فخار «خابور» — لم تقرر بعد، أما فخار الدولة الحورانية المتني الأصلي فهو فخار نوزي مختلف تمام الاختلاف.[٢٥] على أنه لا فخار «خابور» الحقيقي ولا الفخار الذي يحتمل أنه «نوزي حوراني» قد وُجِدَ في مصر بل كل ما عُثِرَ عليه في مصر هو بعض قعاب عليها زينة تشبه الزينة التي على فخار «خابور» ولكنها من طراز آخر.[٢٦]

وطراز فخار فلسطين ذي اللونين وهو الخاص بها قد وصل إلى قمته بعد عصر الهكسوس، ويمكن أن يكون له صلة بأواني العصر المتوسط الثاني التي عُثِرَ عليها في مصر؛ ومن المحتمل أنه قد تأثر بفخار شمالِي سوريا، وهو بدوره يمكن أن يكون قد اشْتُقَّ من فخار «خابور» الحقيقي، وهو الذي بدوره ثانية يمكن أن يكون ذا صلة بالحورانيين، وعلى ذلك نجد أن الطريق طويلة جدًّا لنسبة القعاب التي وُجِدَتْ في مصر إلى الحورانيين بوصفهم عنصرًا جنسيًّا، فتسمية هذا الفخار حوراني يُعَدُّ في رأي بعض العلماء تخمين له خطورته وعلى فرض أنها كانت قعابًا حورانية فإن ذلك لا يكفي بأية حال من الأحوال ليبرهن على أنه كان يوجد حورانيون بين الهكسوس، وذلك لأن هذا الطراز من الفخار يمكن أن يكون قد وصل إلى مصر عن طريق التجارة.

ومن جهة أخرى يظهر أن النظرية القائلة بأن الهكسوس يوجد فيهم عناصر حورانية لا ترتكز على براهين لغوية لأن معظم الأسماء الهكسوسية سامية محضة والأسماء التي لا يمكن تفسيرها على هذا الأساس لا تكاد تكون حورانية. فمثلًا كلمة «خيان»[٢٧] التي تُعَدُّ في العادة غير سامية قد قرنها الأثري «دوسو» بالاسم العربي والقبطي حيان — على أن عدم وجود ألفاظ حورانية لا يعد دليلًا على عدم احتلال القوم لمصر، فلدينا الاحتلال الإنجليزي لم يؤثِّر في لغة القوم — هذا ونجد بعض الصفات في فن النحت قد اسْتُنْبِطَتْ بهذه المناسبة لتبرهن على وجود عنصر شرقي في مدنية الهكسوس،

ومن أحسن الأمثلة في هذا الصدد اللوحة المسماة لوحة «هورنبلاور» حيث نجد أن الطائر المرسوم عليها يجب ألا يُعْتَبَرَ أنه نسر قد رُسِمَ رسمًا رديئًا (وهو الطائر الذي يمثل الآلهة «نخبت» المصرية) بل يجب أن يعتبر أنه الطائر «إمدوجود» (Imdugud) المسوبوتامي، هذا فضلًا عن أن النموذج الذي رُسِمَ في أسفل اللوحة هو طراز مسوبوتامي لرسم الجبال.[٢٨] ولا أنكر أن هذا التفسير ممكن كما لا أنكر المجاميع المضادة لذلك وهي التي تُشَاهَدُ فيها شجرة الحياة على جعارين يمكن أن ترجع إلى تأثير من مسوبوتاميا، ولكن لما كانت قد وُجِدَتْ أختام من الأسرة الأولى البابلية في «رأس شمرة» فإن هذه الصبغة الشرقية الأصل في فن النحت يمكن أن تكون نتيجة اتصالات تجارية. ويبرهن على مثل هذه الاتصالات البعيدة المدى بوجود فخار قبرصي في مصر مع أنه لم يحاول أي إنسان أن يبرهن على وجود عنصر جنسي قبرصي بين الهكسوس.

وكذلك ظن البعض وجود عنصر آري في الهكسوس ويرتكز هذا الزعم على النظرية القائلة إن الهكسوس قد غَزَوْا مصر بسهولة كبيرة لأنهم استعملوا العربات التي تجرها الخيل، وهذه صناعة حربية يقال عنها إنها آرية، وذلك لأن بعض الاصطلاحات الفنية المتعلقة بها يرجع أصلًا إلى قوم الهنود الإيرانيين وهذه العربات في الواقع قد أحدثت انقلابًا في فنون الحرب. ولا يمكن أن نستطرد في هذا المكان فنتكلم عن المسائل المعقدة الخاصة بتاريخ الحصان في الشرق الأدنى بل يكفي أن نشير هنا إلى أن الحصان كان معروفًا في «مسوبوتاميا» منذ زمن طويل قبل أن نجد آثارًا هندية إيرانية[٢٩] ومن جهة أخرى ليس لدينا أي برهان على أن الهكسوس قد استعملوا الحصان حتى العهد المتأخر جدًّا من حكمهم في مصر. وأحدث مصدر أدبي ذُكِرَ فيه الحصان هو المتن الذي يشير إلى طرد الهكسوس من مصر[٣٠] وقد وجد «بترى» في «تل العجول» الواقع جنوب فلسطين مقابر غنية كانت فيها تُدْفَنُ مع الْمُتَوَفَّى جياد وحمير، وقد عُدَّ ذلك برهانًا قاطعًا على أن الهكسوس من جهة كانوا يستعلمون الحصان، ومن جهة أخرى كانت هذه المقابر خاصة بالهكسوس.[٣١] ولكن هذه المقابر يرجع تاريخها إلى نهاية عهد الهكسوس، ومن المحتمل إلى أوائل الأسرة الثامنة عشرة.[٣٢] والواقع أنه لم يوجد حصان واحد أو حتى عظمة حصان في أي قبر من القبور العدة التي من عهد الهكسوس في مصر، هذا إلى أنه لم توجد صورة واحدة لحصان على الرغم من أن كل أنواع الحيوانات المختلفة قد صُوِّرَتْ على الجعارين الخاصة بهذا العهد. ففي مناظر الصيد كان يُمَثَّلُ الصائد واقفًا على قدميه[٣٣] وهذا ليس هو الْمُتَّبَعُ عادة في الممالك التي كانت تَجُرُّ فيها الخيلُ العربات،

وعلى ذلك نجد أن كل البراهين تدل على ان الهكسوس لم يستعملوا قط العربات الحربية إلا في حروبهم الأخيرة التي شَنُّوهَا على المصريين قبل أن يُطْرَدُوا من البلاد. (يُلْحَظُ هنا أن سيتي الأول قد رُسِمَ واقفًا على قدميه وهو يصيد في صحراء الجيزة مع أن العربات كانت هي العدة السائدة في الصيد).[٣٤]

ويقال كذلك إن الهكسوس قد جلبوا معهم طرازًا جديدًا من الحصون في الشرق الأدنى، وهذه عبارة عن معسكر كبير جدًّا له جدا من الطين محاط بخندق. وقد قيل إن هذا الطراز من الحصون هو طبعي يقام فقط على السهول العظيمة مثل التي تجاور البحر الكسبي، وعلى ذلك فإن موطن هؤلاء الهكسوس لا بد أن يُبْحَثَ عنه في هذه المساحات الشاسعة الأرجاء.[٣٥] ومعظم الحصون التي في فلسطين يرجع تاريخها إلى عصر الهكسوس على الرغم من أن واحدة منها وهي «هازور» يقال إنها ترجع إلى زمن قبل ذلك، وتاريخ الحصون الأخرى يحوم حوله الشك الكثير، هذا إلى أن حصن «سيبار» (Sippar) قد اسْتُنْبِطَ من متن سومري يَذْكُرُ أن «جدار «سيبار» … كان مصنوعًا من كتل عظيمة من الطين».[٣٦] وعلى أية حال فإن هذا طراز منتشر انتشارًا عظيمًا في عهد الهكسوس، ولكن — وهذا هو الأساس — لا يوجد مثال أكيد معروف لنا في مصر وهي البلاد الوحيدة التي وَطَّدَ فيها الهكسوس أقدامهم على وجه التأكيد بوصفهم عاملًا سياسيًّا.

وقد فُسِّرَ مرارًا وتكرارًا أن كل خرائب «تل اليهودية» وخرائب «هليوبوليس» كان من هذا النوع من الحصون غير أن المهندس المعماري «ركه» كما يقول «سيف زودربرج» كان مصيبًا عندما قرر بأنهما كانا على أغلب الظن أسس معبدين[٣٧] وفي رأيي أن هذا كلام فيه شك كبير لأن لم توجد آثار تثبت ذلك.

وخلاصة القول كما يقول «سيف زودربرج» أن تحليل البراهين الأثرية قد أعطانا نتيجة عكسية ولكن في الواقع تعاضد الرأي الذي ذكرناه آنفًا، وهو أن حكم الهكسوس لم يكن إلا تغيير القواد السياسيين، وأنه لم يكن غزوة قام بها سلالة من الناس بعدد عظيم من الجنود يستعملون آلات حربية متفوقة ولهم مدنية خاصة، ومن جهة أخرى فإن الهكسوس كان لهم اتصال وثيق بآسيا، ويظهر أنهم قد ساعدوا على إدخال تجديد من هذه البلاد أكثر من أخلافهم المصريين. والواقع أنهم عند نهاية حكمهم في مصر كانوا قد أدخلوا عدة إصلاحات في فنون الحرب سعيًا منهم في أن يحافظوا على قوتهم السياسية في وجه المعارضة المصرية التي كانت تتزايد. فقد جلبوا أولًا من آسيا العربات

التي تجرها الخيل وطرزًا جديدة من الخناجر والسيوف والآلات المصنوعة من البرنز والقوس الأسيوي وهو القوس المركب. وهذا التطور الثقافي يتفق مع تواريخ الآثار الفعلية التي عُثِرَ عليها وهي الخاصة بهذه التجديدات في مصر، وذلك لأنها لم تكن معروفة حتى نهاية حكم الهكسوس، وسنرى بعد مقدار اتصال الهكسوس بآسيا من الغنائم التي استولى عليها منهم «كاموس».

والرأي القائل بأن الهكسوس لم يُمَثِّلُوا في مصر غزوة حقيقية قام بها أقوام أجانب يعضده التطورات التي حدثت في بلاد النوبة وهي التي يمكن تأليفها ثانية من المتون والبراهين الأثرية.[٣٨] ففي بلاد النوبة السفلى كانت هناك معارضة دائمة قوية للاحتلال المصري، وكان النوبيون هناك يراقبون مراقبة شديدة بوساطة حصون قوية مقامة في الأماكن الآهلة بالسكان. وقد كان على الحكومة المصرية أن تكون صاحبة السلطان السياسي في بلاد النوبة السفلى لأجل أن تحافظ على قيام تجارتها في «كرمة» الواقعة في الجنوب. أما في «كرمة» فكان الموقف على العكس وذلك لأن الأهالي كانوا يُجْنُونَ فوائد عظيمة من التجارة المصرية، ولم يحاول المصريون قط أن يسيطروا على هذه البقعة من الأرض سياسيًّا، ولكنهم فضلوا أن يكونوا على اتصال سلمي تجاري، وقد ورث حكام الهكسوس هذه التجارة السلمية من المصريين في «كرمة»، وقد استمرت مزدهرة دون أي انقطاع لمدة تقرب من قرن بعد أن استولى الهكسوس على السلطة في مصر نفسها. ومن المحتمل أن أحد أواخر ملوك الأسرة الثالثة عشرة في الصعيد بل ربما هو الأخير ويدعى «ددوموس» وقد وحد بالملك «توتيمايوس» الذي ذكره المؤرخ «مانيتون» وهو الذي في عهده تغلب الهكسوس على مصر ما يقال، قد وجد اسمه في «كرمة» على ما يظن في نقش مُهَشَّمٍ.[٣٩] هذا وتوجد أسماء ملوك الهكسوس «شيشي» (=؟ «أسيس» Assis) و«ماعت أب رع» و«يعقوب–أيل» على طوابع أختام في المستودع التجاري وهي بلا شك كانت مستعملة الختم الوثائق الرسمية.[٤٠] وهؤلاء الملوك الهكسوس كانوا ضمن أول طائفة من الحكام الأجانب في مصر. ولدينا براهين أثرية أخرى تظهر أن التجارة قد استمرت حتى ذلك العهد، وهذا يعني أن الحكام من أول «ددوموس» حتى هؤلاء الملوك الهكسوس لا بد أنهم كانوا قد حكموا بلاد النوبة السفلى والجزء الجنوبي من مصر العليا.

وإذا كان هناك قوم عديدون من الأجانب قد غَزَوْا مصر وقَضَوْا على الإدارة المصرية والقوة الحربية ونظام الحكومة المصرية فإن هذا التطور الذي حدث في الجنوب يكون من الصعب جدًّا تفسيره.

ويمكن أن نميز بعد حكم صغار الملوك الهكسوس الذين لا أهمية لهم سياسيًّا في الدلتا، طائفتين من حكام الهكسوس: الطائفة الأولى هي التي يمكن أن نطلق عليها مع «مانيتون» ملوك الأسرة الخامسة عشرة، وتحتوي على حسب قائمة الملوك التي دُوِّنَتْ على ورقة «تورين» خمسة ملوك حكموا حوالي ١٠٨ سنة. وأسماء هؤلاء الملوك قد فُقِدَتْ إلا الاسم الأخير وهو الذي يُسَمَّى في هذه الورقة «خامودي». وقد ذكر لنا «مانيتون» هذه الأسماء وهي «ساليتيس»، «بنون»، «أباخنان» «أبو فيس»، «ياناس»، «أثيس» (Athes) أو «كرتوس». ونعرف كلًّا من «أبو فيس» و«ياناس» من الآثار المعاصرة في صورة «عاو سر رع» «أبو فيس» و«ساوسرت رع» «خيان»؛ أما «أثيس» فيمكن أن يُوَحَّدَ بالملك «شيشي» الذي نجد اسمه غالبًا على جعارين يمكن تأريخها من حيث الأسلوب بالنصف المبكر من حكم الهكسوس. وهذه الجعارين تتصل اتصالًا وثيقًا بالجعارين التي عليها اسم «ماعت إب رع» ويمكن أن يكون اسمًا آخر لنفس هذا الملك ومن المحتمل أن اسم حاكم الهكسوس «يعقوب إيل» الذين نعرف اسمه من جعارين يتبع هذه الطائفة المبكرة من الملوك، أو كان أول ملوك الطائفة الثانية، هذا إذا حكمنا عليه من حيث الأسلوب وتوزيع جعارينه، وأخيرًا يمكن أن يكون «خامودي» وكذلك «كرتوس» اسمين مختلفين لنفس الملك.[٤١] وليس لدينا كبير شك في الحقيقة القائمة بأن هؤلاء الملوك مع احتمال استثناء «ساليتيس»، «بنون»، «أباخنان» قد حكموا كل مصر وبلاد النوبة السفلى كما يظهر لنا ذلك من توزيع الآثار التي وُجِدَتْ في أماكنها والتي تحمل أسماء هؤلاء الملوك.

أما الآثار التي عُثِرَ عليها في «كرمة» فقد سبق ذكرها. هذا ونجد اسمى «أبو فيس» «عاو سر رع»، «خيان» على بعض قطع أحجار من بلدة الجبلين جنوبي «طيبة» أما الآثار الأخرى فمعظمها خفيفة الوزن ويمكن حملها كالجعارين وهذا ينطبق على كل الآثار التي عُثِرَ عليها في فلسطين الجنوبية، ومن المحتمل جدًّا أن هؤلاء الهكسوس قد حكموا هذه البقعة كذلك، غير أن ذلك ليس مؤكدًا تمامًا.

ومن البراهين التي استنبطت من هذا الاحتمال هو أنه لا يكاد يكون من المسلم به أن الهكسوس قد فتحوا مصر دون أن يكونوا قد تسلطوا على فلسطين من قبل، ولكن إذا كان الهكسوس لم يفدوا على مصر بوصفهم فاتحين بل بوصفهم مهاجرين مسالمين مكنوا أنفسهم بمثابة ملوك صغار في الدلتا الشرقية، ومنها أفلحوا في التغلب على صغار ملوك الوجه القبلي الذين كانوا لا يحكمون إلا مددًا قليلة، فإن هذا البرهان يصبح لا قيمة له. يضاف إلى ذلك أن وجود أسد عليه اسم الملك «خيان» قد أُحْضِرَ إلى «بغداد»،

وأن غطاء من المرمر عليه اسم هذا الملك نفسه وقد وُجِدَ في قصر «كنوسوس» في «كريت» لا يبرهن على أي شيء عن القوة السياسية للهكسوس في الشرق الأدنى.[٤٢] ولكن يظهر واضحًا من متن متأخر خاص بحرب التحرير لرفع نير الهكسوس أن بلدة «شاروهين» (يُحْتَمَلُ أن تكون «تل الفرعة») في فلسطين الجنوبية كانت معقلًا للهكسوس وقد فتحها «أحمس» ملك مصر، بعد أن قام بحصار ناجح على بلدة «أواريس» عاصمة الهكسوس في مصر. ومهما يكن من حقيقة بلدة «أواريس» فإن وقوعها في الدلتا الشرقية يدل على أن الهكسوس كان لهم علاقة وثيقة بفلسطين ومن المحتمل أنهم كانوا يحكمون الجزء الجنوبي منها. هذا وتدل الغنائم التي استولى عليها كاموس في حربه مع الهكسوس على أنه كان له نفوذ في فلسطين أو على الأقل اتصال وثيق.[٤٣]

ولدينا أثر من «تانيس» يدلنا على التاريخ الذي تولى فيه الهكسوس الحكم في الدلتا الشرقية وهذا الأثر هو ما يُسَمَّى لوحة الأربع مئة سنة. وكانت قد أقيمت في عهد الفرعون «رعمسيس الثاني» وتحدثنا أن ملكي المستقبل «رعمسيس الأول» ومن بعده «سيتي الأول» قد احتفلا بعيد أربع مئة السنة لعبادة «ست» في «تانيس». ولا بد أن يكون ذلك قد حدث في عهد الملك «حور محب» عندما كان كل من «رعمسيس الأوَّل» و«سيتي الأوَّل» يخدم بوصفه ضابطًا في الجيش المصري، وقد حكم «حور محب» من حوالي «١٣٣٠–١٣٢٠ق.م» على وجه التقريب. وعلى ذلك فإن عبادة الإله «ست» تكون قد جُلِبَتْ إلى «تانيس» حوالي ١٧٣٠–١٧٢٠ق.م. وهذا التأريخ يمكن أن يحدد بداية حكم الهكسوس في الدلتا، وذلك لأن مصادر أخرى تحدثنا أن الإله «ست» أو «سوتخ» كان الإله الرئيسي عند الهكسوس. وعبادة الإله «ست» كانت موجودة في شرق الدلتا منذ الدولة القديمة أي قبل عهد الهكسوس بزمن طويل، ولكن الإله «ست»-«سوتخ» إله الهكسوس كان ذا صبغة أسيوية أكثر منها مصرية فكان بينه وبين الإله «بعل» أو الإله «رشب» أو الإله «تشوب» وكلهم آلهة حرب، وجه شبه من حيث المنظر؛ ولدينا جعران من عهد الهكسوس نرى عليه صورة «ست» من الطراز الذي مثل على اللوحة السالفة الذكر،[٤٤] والثوب ولباس الرأس المحلى بقرني الإله من الصفات الخاصة بالأسيويين، ونجد في المتون المتأخرة أن «أشتار-عشترت» (أو «عنات») كانت تعد زوج الإله «ست-بعل» وهذه الإلهة العارية الجسم تظهر كذلك مصورة على جعارين هكسوسية.[٤٥]

وعلى أية حال لا بد أن نعد من سبيل الدعاية القصة التي من زمن الرعامسة وهي ورقة «ساليه» الشهيرة التي تُحَدِّثُنَا أن ملك الهكسوس لم يخدم أي إله آخر غير «سوتخ»

محتقرًا بذلك الإله «رع»، المصري وكذلك قول الملكة «حتشبسوت» من الأسرة الثامنة عشرة إن الهكسوس قد حكموا بدون «رع».[٤٦] والبرهان على عدم صحة هذا الزعم هو أن كثيرًا من ملوك الهكسوس يحملون أسماء مركبة تركيبًا مزجيًّا مع اسم الإله «رع» مثل «عظيمةٌ قوةُ «رع»، و«رع» هو سيد السيف» وفضلًا عن ذلك نجد أن الملك «عاو سر رع» «أبو فيس» يسمى «ابن جسم «رع» و«الصورة الحية «لرع» على الأرض» وهذه النعوت كُتِبَتْ على لوحة يقول عنها الكاتب الملكي «أتيو» إنه تسلمها هدية من سيده الملك «أبو فيس».[٤٧] وهذه الحقائق تدل بوضوح على أن حكام الهكسوس كانوا يعبدون الإله المصري «رع» كما كانوا يعبدون إلههم «سوتخ-بعل».

وتدل شواهد الأحوال على أن الهكسوس كانوا يحترمون المدنية المصرية — على الرغم من تأكيد «حتشبسوت» العكس من ذلك — وبخاصة عندما نعلم أن الكِتاب الرياضي الشهير الذي يرجع عهده للأسرة الثانية عشرة قد نقله الكاتب «أحمس» في السنة الثالثة والثلاثين من حكم نفس الملك «أبو فيس» السالف الذكر.[٤٨]

وإذا حكمنا من الأسماء المصرية الصميمة لهؤلاء الكتبة وجدنا أن الهكسوس الْأُوَلَ قد استخدموا موظفين مصريين، يُضاف إلى ذلك أن استمرار تجارة مصر مع «كرمة» في بلاد «كوش» النائية بدون انقطاع عندما أخذ الهكسوس مقاليد الأمور في مصر، كل ذلك يعضد الرأي أن الهكسوس الأول قد اعتنقوا نظام الإدارة المصرية القديمة وكذلك استعانوا بالموظفين المصريين في تيسير أمور الحكم، ولا غرابة في ذلك فإن المصري كان يهضم أي فاتح لبلاده ويجعله يطبع بطابعها كما سنرى بعد:

هذا ونجد موزعًا على نفس الرقعة التي كان يسيطر فيها الهكسوس في مصر وغيرها جعارين عدة مثل جعارين الملك «شيشي»، وكذلك من نفس أسلوبها باسم ولقب حامل الخاتم «حار» الذي لا بد كان من أهم الموظفين الهكسوس حوالي نهاية حكم طائفة حكام الهكسوس الأولى، واسم «حار» — على أغلب الظن يُقْرَأُ «حور» وهي كلمة سامية ومعناها شريف أو «حر» بالعبرية — وعلى ذلك فمن الجائز أن هذا الأجنبي كان له سلطان إداري يمتد على كل مصر بما في ذلك بلاد النوبة وجنوبي فلسطين. ولما كان من المحتمل أن «حار» هذا قد عاش في عهد أحد أواخر ملوك الهكسوس الذي كان لا يزال يحكم في هذه البقعة فإنه مما يطيب لنا أن نجمع بطريقةٍ ما بين أنه أجنبي وبين المعارضة المتزايدة من جانب المصريين ضد الهكسوس. وإنه لمن الصعب القول أن تعيين مثل هذا الأجنبي في وظيفة إدارية رئيسية كان من الأشياء التي أثارت الشعور المصري

على الهكسوس، أو أن المعارضة المتزايدة قد حركت الهكسوس إلى الاعتماد على أناس من جنسهم أكثر من الاعتماد على المصريين الذين لم يكن من الممكن بعدُ الاعتماد عليهم، وذلك بالنسبة لانتقاض المصريين عليهم وتحرك الشعور الوطني في وجه الحكم الأجنبي. ومهما يكن من أمر فإنه جاءت بعد هؤلاء الحكام العظام طائفة أخرى من الهكسوس حوالي ١٦١٠ق.م. ويمكن أن نسميهم الأسرة السادسة عشرة وأسماء هؤلاء الملوك لم نجدها بعدُ مذكورة على آثار من بلاد النوبة والجزء الجنوبي من الوجه القبلي[٤٩] بل نجدها مجموعة في الجزء الشمالِي من مصر وفي فلسطين الجنوبية، ويُمَيَّزُ هذا العصر بالشجار الذي نشب بين الهكسوس والمصريين، وكما ذكرنا من قبل يظهر أن التجديد في فنون الحرب الذي جلبه الهكسوس إلى مصر يمكن أن يُؤَرَّخَ من الوجهة الأثرية بهذا العهد، وذلك عندما كان موقف الهكسوس السياسي في البلاد يهدده المصريون طلبًا في استقلال بلادهم وطرد الغاصب. ولدينا من هذا العهد أثر صغير غاية في الأهمية عُثِرَ عليه في مقبرة «بالعرابة المدفونة»[٥٠] وهذا الأثر هو تمثال «بولهول» له رأس ملكي ووجه سامي. ويلحظ أنه يذبح بمخالبه مصريًّا، وإذا كان مصري قد استولى على مثل هذا التمثال غنيمة، فإنه على أغلب الظن كان يهشمه ويلقي به بعيدًا لما فيه من إثارة الخاطر، بدلًا من أن يدفنه معه في قبره، على أن وجود هذا التمثال في «العرابة» قد يدل على أن تاريخه يرجع إلى العهد الذي كان فيه الهكسوس لا يزالون يحكمون هذا الجزء من الوجه القبلي، ولكن حدث ذلك عندما كان الشعور قد أصبح مريرًا بين الهكسوس والمصريين.

وفي الوجه القبلي كان الملوك المحليون قد وصلوا في هذا الوقت إلى الحصول على استقلال ذاتي أخذ في التزايد كُلٌّ في مملكته الصغيرة في قلب مصر.

فنجد في «طيبة» أنه قد ظهر أول ملوك الأسرة السابعة عشرة بألقابهم الملكية وادَّعَوْا أنهم الحكام الشرعيون لمصر، غير أنهم لم يكادوا يحكمون أكثر من الرقعة المجاورة لطيبة، ومن المحتمل أنه كان لزامًا عليهم أن يدفعوا جزية للهكسوس في الشمال. وأغلب الظن أنه كانت توجد أسرات حاكمة كثيرة محلية أخرى في الوجه القبلي في نفس الوقت، غير أن نسل ملوك «طيبة» هم الذين طردوا الهكسوس في النهاية بعد أن أصبح سلطانهم قويًّا.

والتأريخ المبكر للشجار الذي نشب بين الهكسوس والمصريين يحيطه الغموض، والمصدر الرئيسي لذلك لدينا هو قصة من عهد «الرعامسة» أي إنها كُتِبَتْ بعد وقوع

الحادث بعدة قرون، هذا فضلًا عن أن متن القصة ممزق وموضوع القصة هو شجار بين أحد ملوك الهكسوس يُدْعَى «أبو فيس» وملك «طيبة» المسمى «سقنن رع» الذي كان سلفًا للملك «كاموس» والملك «أحمس» وهما الملكان اللذان طردا الهكسوس في نهاية الأمر.[٥١] هذا وسنرى أن اللوحة التي كُشِفَ عنها حديثًا تُقَرِّبُ إلى أذهاننا ما جاء في هذه القصة كما سنرى بعد.

وتُحَدِّثُنَا الوثائق أن مصر كانت في حالة وباء في هذا العهد وكان الوباء في بلد الأسيويين، (يقصد أواريس) منذ أن كان الملك «أبو فيس» في أواريس، وكانت كل الأرض خاضعة له. وقد اتخذ الملك «أبو فيس» الإله «سوتخ» ربًّا له، ولم يَخْدُمْ أيَّ إله آخر في كل البلاد وقد أقام معبدًا جميلًا للإله «سوتخ» وعبد هذا الإله بنفس الطريقة التي عبد بها إله الشمس «رع حور أختي».

وكان الملك «سقنن رع» من جهة أخرى حاكم «طيبة» ولم يَمِلْ إلى أي إله آخر في كل البلاد إلا «آمون رع»؛ والظاهر أنه أراد أن يهدئ من روع ملك الهكسوس فأكد له ولاءه، ولكن مما يؤسف له أن نهاية هذه القصة فُقِدَتْ، ويُحْتَمَلُ أنه جاء فيها ذكر بعض انتصار للملك «سقنن رع» بطل القصة على الهكسوس. ولا نعلم أي «أبو فيس» قد أشير له في القصة، والواقع أنه يوجد ملكان باسم «أبو فيس» وهما «أبو فيس» «عاقن رع» و«أبو فيس» «نب خبش رع». والأوَّل نعرفه من النقوش المعاصرة فقد بنى معبدًا (أو على الأقل جزءًا من معبد) للإله «ست «صاحب» أواريس» ولما كان «أبو فيس» الذي ذُكِرَ في القصة قد فعل مثل ذلك فإن عدو «سقنن رع» من المحتمل أن يكون «أبو فيس عاقن رع» وعلى أية حال سواء أكان «أبو فيس الأوَّل» أو الثاني فإن اسمه كان مركبًا تركيبًا مزجيًّا مع اسم الإله «رع»؛ وبذلك يكون من الذي قدسوا هذا الإله، وهذه حقيقة تُبَرْهِنُ بوضوح على الجانب الذي كانت تتجه إليه الدعاية في القصة.

وإنه لمن الصعب أن يصل الإنسان إلى لب الحقيقة في هذه القصة المتأخرة جدًّا، ولكن من السهل أن نفهم أن هذا الملك كان في أواخر عهد «سقنن رع» لا يزال يدفع جزية لملك الهكسوس وأنه هو الملك الذي بدأ في وضع المقاومة المنظمة لطرد الأجانب، ومن الْمُحْتَمَلِ أن هذا المجهود الأوَّل هو الذي أجبر الهكسوس على الاعتراف باستقلال حكام «طيبة».

ونجد في رأس الملك «سقنن رع» خمسة جروح مخيفة، ولكن كما يقول كل من «جن» و«جاردنر» إن القول بأن هذه الجروح قد أصابته في خلال معركة مع الهكسوس

قول مغر معتمد على الحدس والتخمين[52] والمرجح صدق هذا القول، وقد أشير بوضوح إلى هذا الموقف السياسي الدال على حكومة مستقلة في مصر العليا في متن من عهد خلف «سقنن رع» وهو عهد الملك «كاموس». ولدينا روايتان عنه إحداهما على لوحة معاصرة والرواية الثانية هي نسخة متأخرة بعض الشيء كُتِبَتْ على لوحة من الخشب.[53] ومما يُؤْسَفُ له أن نهاية القصة وُجِدَتْ مُهَشَّمَةً في كلا المتنين؛ (ولكن لحسن الحظ كُشِفَ أخيرًا عن لوحة ثانية هي بلا نزاع تكملة لحروب كاموس التي تحدث عنها في لوحة كرنارفون) وهما مؤرخان بالسنة الثالثة من حكم «كاموس» وبعد صيغة التاريخ يستمر المتن قائلًا: «الملك القوي في «طيبة» «كاموس» مُعْطَى الحياة أبديًّا كان ملكًا محسنًا وقد جعله «رع» ملكًا حقيقيًّا وسلمه القوة بالحق المبين».

«وقد تكلم جلالته في قصره لمجلس الأشراف الذين كانوا في حاشيته: «إلى أي مدى أدرك كنه قوَّتي هذه عندما أرى حاكمًا في «أواريس» وآخر في «كوش» وأنا أجلس (في الحكم) مشتركًا مع أسيوي ونوبي وكل واحد منهما مسئول عن جزئه من مصر هذه؟ وذلك الذي يقاسمني الأرض لا أجعله يمر في ماء مصر حتى «منف» التي تتبع (في الواقع) لمصر لأنه يملك «هليوبوليس» وإني سأصارعه وأبقر بطنه، وإن رغبتي هي تحرير مصر والقضاء على الآسيويين».

وعندئذٍ قال عظماء مجلسه: «تأمل أن إقليم الآسيويين يمتد حتى «قوص» ولقد أخرجوا ألسنتهم لنا حتى آخرها، ولكننا في أمان قابضين على نصيبنا من مصر «فإلفنتين» قوية، والأرض الوسطى معنا حتى «القوصية»، والناس يزرعون لنا أحسن أرضهم، وماشيتنا ترعى في الدلتا، والشعير يُرْسَلُ لخنازيرنا، وماشيتنا لم تُغْتَصَبْ، وليس هناك هجوم على … وعلى ذلك … وإنه يستولى على أراضي الآسيويين ونحن مستولون على مصر، ولكن كل من يأتي إلى أرضنا ويناهضنا عندئذٍ نناهضه».

والكلام الذي يلي ذلك وهو للملك مهشم، ولكن يمكن أن نفهم منه أنه قد أعلن «أنه سيطرد من سيشاطر الأرض معه» وأنه «سيسير شمالًا ليقبض عليه، والنجاح سيأتي، والأرض قاطبة ستصفق للحاكم القوي في داخل طيبة «كاموس» حامي مصر».[54]

وعلى حسب رأي الأستاذ «دي بك» الذي يقول إنه من الموضوعات التقليدية أن الملك قَبْلَ اتخاذ قرار هام كان يتحدث مع عظماء بلاطه، وأن هؤلاء بدورهم كانوا يعرضون عليه كل الصعوبات الخاصة بالأمر الْمُقْتَرَحِ على الملك ناصحين إياه بألا يسعى في هذا المشروع الصعب. ولكن حتى لو كان ما لدينا هنا هو حيلة أدبية لتبرز لنا قرار الملك

وعمله الجريء فإن ذلك لا يعني أن كلمات العظماء تقدم لنا صورة كاذبة عن الموقف الحقيقي، إذ في الواقع على عكس الأوصاف المتأخرة لحكم الهكسوس نجد أن كلام العظماء يقدم لنا صورة أحسن قبولًا عن الموقف؛ إذ يعترفون أن النوبيين لم يصبحوا بعدُ تحت حكم المصريين، ولكن الحدود كانت محصنة تحصينًا جيدًا عند «إلفنتين» فلم يكن في إمكان النوبيين أن يهددوا قطر «كاموس». وكان الهكسوس لا يزالون يحكمون أجزاء كبيرة من «مصر» حتى «قوص». ومع ذلك فإن هذا الوضع لا يخلو من الفوائد. فالهكسوس لم يعودوا بعدُ متوحشين قساة ظالمين — وهي الصورة المعتادة التي ورد ذكرها في المصادر المتأخرة — بل إنه كان من الممكن أن يعاملهم الإنسان ويعيش معهم في سلام. فأهل «طيبة» كان مسموحًا لهم أن يُرَبُّوا الماشية في الدلتا على الرغم من أن أرضها تابعة لإقليم الهكسوس ومع ذلك فلا يَغْتَصِبُ أحد ماشيتهم.

على أن هذا الموقف الذي ينم عن ميل متبادل بين المصريين والهكسوس ليس مجرد تعبير أدبي يقابل الفكرة المضادة التي كانت تخالج نفس الملك «كاموس» قبل أن يعلن الحرب على الهكسوس. على أن عدم وجود حقد في صدور المصريين على هؤلاء الهكسوس يمكن أن نراه ممثلًا في نقش أثري كثيرًا ما حَيَّرَ العلماء الذين كانوا يعتمدون على الأوصاف العدائية للهكسوس في المصادر المتأخرة ليبرهنوا على كُرْهِ المصريين لهؤلاء الغزاة. وذلك أنه قد عُثِرَ في قبر الملك «أمنمحتب الأول» الذي مات بعد حوالي نصف قرن من عهد «كاموس» (حوالي نفس الوقت منذ أن نسخ على لوحة من الخشب نقش «كاموس») على قطعة من إناء المرمر عليها اسم الملك «عاو سر رع» «أبو فيس» وابنة الملك المسماة «حريت»، والغريب أنه لم يوجد في هذا النقش أية إشارة تدل على الكشط، وعلى ذلك فإن وجود أثر نقشٍ عليه اسم ملك من ملوك الهكسوس الذين كان مفروضًا دائمًا أن المصريين يحقدون عليهم أشد الحقد في مقبرة ملك مصري يدل على أن الملوك المبكرين في الأسرة الثامنة عشرة كان لهم رأي غير معادٍ للهكسوس إذا ما قُرن بالرأي الذي نقرؤه في المصادر المتأخرة عن هؤلاء القوم.[٥٥]

ويُلْحَظُ أن الملك «كاموس» في جوابه لرجال حاشيته لم يعتنق السبب الذي أشير إليه في خطابه الأول وهو أن مواطنيه في الوجه البحري قد عُومِلُوا معاملة سيئة على يد الهكسوس ولكنه يؤكد نقطة أخرى وهو أنه لا يمكنه أن يتحمل حاكمًا آخر يقاسمه أرض مصر. وسياسته على حسب التعابير الحديثة يمكن أن توصف بالكلمات التالية: «شعب واحد وبلاد واحدة وزعيم واحد». (ويفهم من منطوق النقش أنه كان يعتبر مصر والسودان بلدًا واحدًا).

وعلى ذلك فإنه قد يكون من غير المؤكد أن المصريين فَضَّلُوا أن يدفعوا ضرائب «لكاموس» بدلًا من دفعها للهكسوس. وتوجد ظروف خاصة يمكن أن تبرر هذه الشكوك. فالعدو الأول الذي هاجمه «كاموس»، هو شخصية تُدْعَى «تيتي» ابن «بيوبي» في بلدة الحدود المسماة «نفروسي». ومن المحتمل أن هذا كان مصريًّا إذا حكمنا عليه من اسمه، وقد قيل عنه إنه قد حوَّل «نفروسي إلى عش للآسيويين، وهذا تعبير يوحي بأنه مصري قد انحاز إلى الهكسوس وبخاصة أن كلامه على ما يظهر يعد مناقضًا لكلمات «كاموس»: «لقد وَلَّيْتُ ظهري للآسيويين الذين اعْتَدَوْا (؟) على مصر». ويمكن أن نفهم أن صغار الملوك قد اخْتَفَوْا عندما تسلَّم الطيبيون زمام الحكم، ومن الجائز أنهم لم يسلِّموا دون مقاومة وأن بعضهم قد فضل الانضمام إلى الهكسوس الذين كانت قبضتهم على البلاد منحلة، ويمكن استنباط ذلك من ظهور الأسرة السابعة عشرة نفسها. هذا هو رأي سيف زودربرج، ولكن الواقع أن المصريين كانوا في كل تاريخهم لا يفضلون حكم الأجنبي مهما كان رحيمًا وأنهم بلا شك كانوا يعملون على طرد الهكسوس من بلادهم وأن وجود خائن واحد لا يدل على قبولهم حكم الأجنبي.

ومهما يكن من أمر فإننا لا نكاد ننتظر من متن رسمي إشارات للنجاح أكثر وضوحًا في مثل هذه الأحوال مما ذكر، ولكن الرواية الرسمية يجب بطبيعة الحال أن توحي بأن «كاموس» قد رُحِّبَ به بحماس من الأهلين بوصفه المحرر لوطنهم، وهذه هي الحالة التي يجب أن تسود في أيامنا أيضًا.

وقد ذُكِرَ في الوصف الأوَّل المختصر للحروب جنود المزوي مرتين والظاهر أنهم قد لعبوا دورًا هامًّا، ونحن نعلم أن المزوي كانت قبيلة تسكن البقاع الواقعة جنوبي مصر، وجنود المزوي الذين ذُكِرُوا في متن «كاموس» كان يجب أن يكون بينهم صلة وبين المقابر التي تُدْعَى المقابر القعبية التي وُجِدَتْ موزعة في هذا الوقت على مساحة تعادل بالضبط الإقليم الذي كان يسيطر عليه «كاموس» وتظهر لنا محتويات هذه المقابر بوضوح أنها ملك لقبيلة حربية من بلاد النوبة والسودان وكان أهلها مجهزين بأسلحة مصرية، وقد رُسِمَ على رأس ثور أحد هؤلاء المتوحشين الذين أُتِيَ بهم بوساطة الطيبيين لمساعدتهم على الهكسوس[٥٦] وهو حَامِيُّ السلالة يرتدي قميصًا ويحمل بلطة مصرية ومقلاعًا.

وكذلك لدينا صور معاصرة تقدم لنا فكرة عن منظر المحارب الهكسوسي، فلدينا من عهد ملك الهكسوس المسمى «أبو فيس» «نب خبش رع» خنجر وُجِدَ في مقبرة «بسقارة»[٥٧] ومن المحتمل أن هذا الملك كان مناهضًا «لكاموس». وقد وُجِدَ الخنجر في قبر

رجل سَامِيِّ الجنس يُدْعَى «عابد» وهو في الأصل كان لسامي محارب آخر. كان سيده يتبع عظيمًا يُدْعَى «نحمن»، وكان «نحمن» ذا ملامح سامية وأسلحته التي كانت معه حربة وقوسًا قصيرًا مركبًا وسيفًا وخنجرًا ويحتمل أنها كلها من طراز سامي. وطراز الخنجر نفسه بمقبضه المطعم يحتمل أن يكون طرازًا أسيويًّا جديدًا أيضًا، والواقع أنه من أقدم العينات المعروفة لهذا الطراز من الخناجر المتقنة البتارة[٥٨] وكذلك يظهر في الزخرفة التي عليه الأثرُ الأسيوي ويمكن أن نقرنها مثلًا بجعران من «يريحا» من فلسطين[٥٩] ولدينا في هذه الزينة أسلوب سوري فلسطيني الأصل، وكذلك يوجد نفس الفن في الزينة في مجوهرات سورية.[٦٠] وقد جاءت اللوحة التي كشفها الأستاذ لبيب حبشي مُؤَيِّدَةً لهذا الرأي كل التأييد كما سنرى بعد.

وهذه الصور تبرهن لنا بوضوح على أن الهكسوس كان لهم اتصال وثيق بآسيا ومن ثَمَّ أخذوا عنها قوتهم الفنية في فنون الحروب خلال الحروب الفاصلة التي شنوها على المصريين الذين اعتمدوا بدورهم على أراضيهم الخلفية في أفريقيا. وهكذا نخرج بفكرة أن حروب التحرير هذه كانت حروبًا بين آسيا وأفريقيا.

ولما كانت نهاية متن «كاموس» قد فُقِدَتْ فقد بقِينا لا نعرف إلى أي حد قد نجح المصريون في طرد الهكسوس نحو الشمال إلى أن كُشِفَتِ اللوحة التي أماط عنها اللثام الأستاذ لبيب حبشي في صيف عام ١٩٥٤ هو والدكتور حماد في معبد الكرنك.[٦١]

والواقع أن النصر النهائي قد أتى على يدي أخيه وخلفه «أحمس» وقد حدثنا ضابط بحري يُدْعَى «أحمس» بن «إبانا» أن «أواريس» قد سقطت بعد حصار طويل وأن «شاروهين» الواقعة في فلسطين الجنوبية قد حُوصِرَتْ بعد ذلك ثلاث سنوات وسقطت. ولا بد أن «شاروهين» هذه كانت معقلًا في فلسطين الجنوبية ويحتمل أنها موحدة ببلدة «تل الفرعة» وهي التي يُسَمِّيهَا «بتري» «بيت بلث» (Beth Peleth) في تقريره عن الحفائر في هذه الجهة.[٦٢] وبسقوط هذا الحصن أُبْعِدَ الخطر من الشمال وكُسِرَتْ شوكة الهكسوس على الأقل في هذه الفترة ولا أدل على ذلك من أن «أحمس الأول» حوَّل نظره الآن نحو الجنوب واستولى ثانية على بلاد النوبة السفلى حتى «بهين» عند الشلال الثاني. فإذا كان الهكسوس وقتئذٍ يؤلِّفون خطرًا مداهما في الشمال فإن التوسع في الجنوب لم يكن ممكنًا.

وقد أخذ المصريون عن الهكسوس كثيرًا من التجديد في فنون الحرب الأسيوية ولم يلبثوا أن أصبحوا من أقوى الدول في الشرق الأدنى وقد فتحوا كذلك دولة في الشمال

أيضًا. وفي غضون الحملات المتأخرة في آسيا تعلَّم المصريون أشياء جديدة من الفنون الجديدة في الحرب التي أصبحت مميزة بها، وذلك نتيجة لإدخال استعمال العربات التي تجرها الجياد استعمالًا كاملًا. ففي مصر وكذلك في ممالك أخرى كانت الحروب تُشَنُّ بوساطة جنود محترفين قد تعلموا حرفتهم منذ الطفولة، وكانوا يُقْطَعُونَ الإقطاعات مقابل ذلك هبةً من الفرعون، وكانت هذه الإقطاعات تبقى في الأسرة ما دام فرد من الأسرة يحارب في جيش جلالته.[٦٣]

وقد كان نتيجة احتلال الهكسوس لمصر أنها غيرت عاداتها بالنسبة لفنون الحرب وبالنسبة لتفاصيل أخرى فنية كما غيرت أنظمتها الداخلية السياسية فبدأت مصر تدخل في عهد يمكن أن يُطْلَقَ عليه عصر الفروسية في الشرق الأدنى.

هوامش

(١) راجع: J.E.A. vol. 37, p. 53.

(٢) سنذكر هنا ما قاله «سيف زودوبرج» واعتراضاتنا عليه.

(٣) راجع: Montet, Byblos et L'Egypte, Pls. 88 ff, 95 ff.

(٤) راجع: Schaeffer, Ugaritica, I, 20 ff.

(٥) راجع: Stock, Studien zur Geschichte and Archeologie der 13 bis 17 Dynastie Aegypten, Ag. Forach. Heft 12 Glukstadt Hamburg 1942, p. 53.

(٦) راجع: Kemi, I, p. 90 ff. of Stock, Ibid p. 59.

(٧) راجع: Albright, Bull. A.S.O.R. 99. 9. ff. وتقع ماري على أعالي نهر الفرات.

(٨) تقع لارسا على الجزء الأسفل من نهر الفرات.

(٩) راجع: Dossin, Syria, 19, 117 f; of Smith, Alalach And Chronology, p. 11.

(١٠) راجع: Smith, Ibid, p. 35.

(١١) راجع: Turin pap., col. 9. 30/1.

(١٢) راجع: F.I.F. A.O, 10 L, p. 33.

(١٣) راجع: Ibid 60 ff.

(١٤) راجع: Turin pap., 7, 3.

(١٥) راجع: Petrie, Hyksos and Isr., pl. 9, 116.

(١٦) راجع: Turin; Col. 8 and 9.

(١٧) راجع: Manetho, et W. G. Wadell, p. 79 ff.

(١٨) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٦٩–٢٧٠.

(١٩) راجع: Wolf, Z.D. M.G., 83, 74 f.; Engberg. The Hyksos Reconsid-ered, P. 19; Stoek, Ibid, p. 72.

(٢٠) راجع: W.V, D.O.G., 49, 87 with Ref. to Muller, Ibid, 27, 308

(٢١) راجع: Winlock, The, Rise and Fall of the MiddIle Kingdom in Thebes, Chap. VIII

(٢٢) راجع: Engberg, Ibid, p. 18

(٢٣) راجع: Albright Ann, A.S.O.R., 12, 17; 13, 79; A.J.A. 36, 559.

(٢٤) راجع: Engberg, p. cit. 19 Not. e 11.

(٢٥) راجع ما كُتِبَ عن هذا الفخار الملون Marian welker, Transact, Amer, Philos, Soc., N.S., 38, 185 ff.

(٢٦) على أن ذلك لا يمكن أن يؤخذ دليلًا على أن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى مصر واستوطنوها ومعهم فخارهم الأصلي ثم قلده المصريون كما حدث في «كرمة» فقد قلد القوم الفخار المصري والأشياء المصرية على حسب طبيعتهم واتخذت طابعًا خاصًّا.

(٢٧) راجع: Labib, op. cit. 9; Dissaud R.H.R., 109, 116.

(٢٨) راجع: Stock, Ibid., p. 32.

(٢٩) راجع: Götze, Kleinasien, p. 72.

(٣٠) راجع: Urk., IV, p. 3.

(٣١) راجع: Bissing, A.F.O.F., 11, 333, No. 61 and Otto Z.D.P.V. 61, 259 contra Petrie Ancient Gaza, I, p. 3. f, etc.

(٣٢) راجع: Otto, Ibid.

(٣٣) راجع: Newberry, Scarabs, Pls. 25, 26.

(٣٤) راجع: The Sphinx in the Light of Recent Excavations. p. 201, Fig. 42.

(٣٥) راجع: Albright, J.P.O.S. 2, 122 f.; Journ. Soc. Or. Res. 10, 245 ff.

(٣٦) راجع: Albright, Bull. A.S.O.R., 88, 33.

(٣٧) راجع: A.Z., 71, p. 107 ff.

(٣٨) راجع: Ägypten und Nubien, Chap. C.5 and D, and J.E,A., Vol. 35, P. 56.

(٣٩) راجع: Reisner, Kerma, I, p. 101.

(٤٠) راجع: Kerma, II, 75 f, Fig. 168.

(٤١) راجع: Stock, Ibid. p. 64 ff.

(٤٢) راجع: Bissing, AFOF., 11, 327; Dussand RHR, 109, 116.

(٤٣) ذلك على حسب ما جاء في نص اللوحة الجديدة التي كشف عنها الأستاذ لبيب حبشي بالأقصر.

(٤٤) راجع: Ancient Egypt, 1933, 37, No. 6.

(٤٥) راجع: Rev. D'Egyptol, I, 198, Figs, 1, 2.

(٤٦) راجع: Gardiner, J.E.A., Vol. 32, Pl. 6, 1, 38, pp. 48, 55.

(٤٧) راجع: Labib, op. cit., p. 27.

(٤٨) راجع: Peet, The Rhind Math. Pap., p. 2.

(٤٩) راجع: Stock, op. cit., 6g.

(٥٠) راجع: Garstang. J.E.A. 14. p. 46 pl. 7.

(٥١) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ١٢٨ إلخ.

(٥٢) راجع: J.E.A., 5, p. 43.

(٥٣) راجع: A.S., 39, p. 245; J.E.A., 3, p. 95; 5, p. 45.

(٥٤) انظر بقية اللوحة في مصر القديمة الجزء الرابع ص ١٤٠–١٤١.

(٥٥) والواقع أن وجود هذه القطعة من النقش قد يدل في آن واحد على أن الأثر الأصلي كان قد هُشِّمَ لنسبته للهكسوس وبقيت هذه القطعة لتحدثنا عن أنه قد هُشِّمَ لهذا السبب.

(٥٦) راجع: Brunton, Mostagedda Pl. 76.

(٥٧) راجع: A.S, 7, pl. opp. p 116.

(٥٨) راجع: Winlock, op. cit., 159 f.; Petrie, Ancient Egypt, 1930, p. 97 ff.

(٥٩) راجع: Rowe, Catal. of Egyp. Scarabs in the Palestine Arch. Mus.,.Pl. 2: 69, p. 20.

(٦٠) راجع: Montet, Les Reliques de L'Art Syrien, p. 133 ff.

(٦١) وقد حدثني عن هذا الكشف الأستاذ لبيب بما يأتي: عندما ندخل إلى صالة الأعمدة من مدخلها الغربي أو المدخل الرئيسي نجد تمثالين لرمسيس الثاني أحدهما على اليمين والآخر على الشمال، وعندما كان الأستاذ لبيب حبشي كبير مفتشي آثار مصر العليا والدكتور حماد مدير الأعمال يعملان في فحص القاعدة وجدا تحت التمثال الأخير بعض الأحجار المعاد استعمالها ومن ضمنها لوحة كبيرة، اتضح أنها للملك كاموس آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة التي حكمت في طيبة.

واللوحة من الحجر الجيري وارتفاعها ٢٢٠ سم (كانت حوالي ٢٣٥ سم عندما كانت كاملة) وعرضها ١١٠ سم وسمكها ٢٨ سم ولا ينقصها سوى جزء بسيط من أعلاها.

وعلى هذه اللوحة الشمس المجنحة في أعلى ثم ٣٨ سطرًا أفقيًّا تنتهي بسطر واحد رأسي وبجواره رسم لرئيس حاملي الأختام "Neshi" وهي تقص علينا شطرًا من حرب الملك مع الملك أبو فيس ملك الهكسوس.

ولقد كان أول نص وصلنا عن هذا الحرب هو "Carnarvon Tablet No. 1" التي اكتشفت عام ١٩١٢ في البر الغربي بطيبة، وقد نظر إليها بعض العلماء على أنها قصة خيالية، ونظر لها البعض الآخر وعلى رأسهم "Gardiner" على أنها قصة حقيقية منقولة عن لوحة بأحد معابد طيبة. ولقد صدق تخمينه عندما عثر المسيو شفرييه سنة ١٩٣٢ وسنة ١٩٣٥ على قطعتين من لوحة في بناء الصرح الثالث من الكرنك، اتضح أنها جزء من بدء لوحة للملك نفسه يقص علينا نفس القصة "Lecau, Ann, 39".

كذلك أثبتت اللوحة المكشوفة حديثًا تحت تمثال رمسيس الثاني نظرية جاردنر، كما أتاحت لنا معرفة بعض التفاصيل عن صراع ملك مصر مع ملك الهكسوس الذي قصوه علينا في لوحتين كاملتين مما لم يسبق عمله في التحدث عن أي حرب أخرى أو أي عمل آخر.

ومن اللوحة الأولى وَصَلَنَا فقط حوالي السدس. أما اللوحة الثانية فقد وصلتنا لحسن الحظ سليمة، ومن هاتين اللوحتين ومن لوح كارنارفون (وفيها فقط جز من اللوحة الأولى) نستطيع أن نتابع أخبار هذا الصراع، ففي اللوحة الأولى يتحدث الملك كيف أنه في

السنة الثالثة من حكمه جمع كبار رجاله ليحدثهم على استيائه من أنه لا يحكم مصر كلها وأنه لا بد محارب الأجنبي في شمال الوادي وجنوبه فيحاولون أن يثنوه عن عزمه ولكن على غير جدوى؛ ويذهب حتى نفروسي وينتصر على "Teti, Son of Piopi" وهنا تنقطع اللوحة. ولكن من اللوحة الثانية نستطيع أن نتابع أن نتابع أحداث الحرب فنجد أن كاموس يذهب شمالًا حيث يخرب بعض البلاد وحيث يشيع الرعب في النفوس، فهو يحدثنا كيف أن النساء أصبحن لا يستطعن أن يحملن وكيف أنهن كُنَّ ينظرن إليه من أسطح منازلهن أو من النوافذ كما تفعل صغار الحيوانات المفترسة عندما تنظر إلى المارين من مغاراتها. ويستمر فيحدثنا كيف استطاع أن يقبض على ٣٠٠ مركب محملة بالذهب والفضة والـ lapis-lazuli, amethyst والزيت والشحم والعسل، وكل نوع قيم من أخشاب الأشجار وكلها من منتجات بلاد "Retenow" (فلسطين) ثم يتحدث إلينا بعدئذٍ كيف وُفِّقَ للقبض على رسول ملك الهكسوس إلى ملك كوش الذي دعاه لمحاربة ملك مصر ليقتسما الأرض فيما بينهما، فهو يقول له في هذه الرسالة كيف تكون حاكمًا ولا يسمح لك بأن تعرفني ... ألا ترى ماذا عمل ملك مصر ضدي؟ فإن الحاكم الذي فيها يوشك أن يتقدم نحو أرضي ولا يمكنني أن أهاجم بنفس الطريقة التي أتبعها معك؛ لقد أختار أرضين كي يهاجمها، أرضك وأرضي، فقد شاء أن يخربها: تعال وأبحر شمالًا وحدك فإني هنا ولن يستطيع أن يتغلب عليك في مصر فلن أسمح له بمهاجمتك، ودعنا نقسم أرض مصر بيننا. فيأخذ الرسالة، ولكنه يطلق الرسول ليحدث سيده عما فعله كاموس في الأراضي المحتلة، وينتهي كاموس من حديثه بأن يخبرنا بأنه بقي في بلده "Qasa" (القيس مركز بني مزار) ليمنع العصاة من التسلل وراء خطوطه، وكيف أرسل حاملي الأقواس لتخريب الواحة البحرية، وقد كانت ولا شك من مراكز الهكسوس الرئيسية وأخيرًا كيف عاد إلى أسيوط وطيبة حيث خرج الناس من كل بلد يستقبلونه استقبال الفاتحين وليقدموا لأمون الكرنك القربات، ثم كيف أقيمت هذه اللوحة بأمر الملك وبإشراف "Neshi" المرسوم على اللوحة والذي أشرنا إليه فيما سبق.

ولا شك في أن هذا الصراع الذي لم ينل فيه الملك انتصارًا تامًّا قد مهد السبيل لخلفه الملك أحمس في النجاح في طرد الهكسوس نهائيًّا من البلاد.

(٦٢) راجع: Albright, The Archaeology of Palestine and the Bible, 153, 187.

(٦٣) راجع: Save Soderbergh, The Navy of the 18th Dynasty, p. 81.

الفصل الثاني عشر

العلاقات بين العصر المتوسط الثاني في مصر وبلاد النوبة

لقد خيم على مصر منذ نهاية الأسرة الثانية عشرة عصر من أظلم عهود التاريخ المصري، فلم نعرف عن تتابع ترتيب ملوكه إلا الشيء القليل على وجه التحقيق»، ولكن على الرغم من ذلك فإن التطور السياسي في بلاد النوبة بما عُثِرَ عليه من النقوش والآثار التي وُجِدَتْ في مصر وفي بلاد النوبة السفلي و«كرمة» يمكن أن نبني خطوطه الرئيسية. والأشياء الهامة التي يمكن الحكم بها على حالة بلاد النوبة السفلى هي ما عُثِرَ عليه في حصون «الشلال الثاني»، وذلك لأنها قد أقيمت حماية للحدود في أماكن تكاد تكون قاحلة وبدونها كان لا يمكن لمصر أن تسيطر على بلاد النوبة السفلى، ففي قلعة «ورنرتي» عُثِرَ على أسماء ملوك في صورة طوابع أختام في طبقات التربة وتُؤَرَّخُ بالعهد الذي يلي الأسرة الثانية عشرة،[1] وأحد هؤلاء الملوك يُدْعَى «حور-خع-پاو-سخم-رع-خو-تاوي أمنمحات سبكحتب» ويُنْسَبُ لهذا الملك نفسه أربعة مقاييس للنيل نُقِشَتْ في «سمنة» واحد منها دوَّنه المشرف على الجيش وقائد حصن «سمنة» المُسَمَّى «رن سنب»[2] وفضلًا عن ذلك ظهر اسمه على تمثال صغير مستخرج من «كرمة».[3]

وهذا الملك — لا كما ذكرت ورقة «تورين»: «حور خوتاي» — لا بد أن يكون أول ملك حكم البلاد قاطبة بعد الأسرة الثانية عشرة.[4]

وفي الوقت الذي تلا عهده تمزقت وحدة البلاد وحكم أجزاءها المتفرقة عدد من الملوك المحليين بعضهم معروف وبعضهم خامل الذكر، فمن حكام الوجه القبلي نعرف ملكين آخرين عُثِرَ على اسميهما في «ورنرتي» أحدهما يُسَمَّى «حور مري تاوي» ولم يعثر على اسمه إلا في هذا المكان، أما الملك الآخر فهو «حور زدي خبرو» وقد ظهر في «العرابة المدفونة» باسم «حور ددوي خبرو[5] …».

وحوالي نفس الوقت كان الملك «حور خو تاوي رع» باسمه ابن «رع» «وجاف» وهو الذي ذكرناه آنفًا على ما يظهر كان يحكم فقط الوجه القبلي. ومما جاء على تمثاله الذي عُثِرَ عليه في «سمنة»[6] نعلم أن نقطة حراسة الحدود عند «الشلال الثاني» كانت لا تزال مُحَافَظًا عليها.

وفي هذا العهد الذي أصاب فيه مصر الضعف والتفكك نجد على الرغم من ذلك أن سلطانها كان لا يزال ممتدًّا على بلاد النوبة السفلى، ثم لم تلبث أن استعادت وحدتها ثانية في عهد الملكين «نفرحتب» وأخيه «نفر رع سبكحتب» بوصفهما الحاملين لنهضة سياسية قوية في البلاد، وتدل الآثار الباقية على أنهما كانا يبسطان سلطانهما على كل البلاد. وقد وُجِدَ في «جبيل» «ببلوص» نقش يدل على أن «نفرحتب» كان له نفوذ خارج الحدود المصرية[7] وقد جاء ذكر هذا الملك في نقوش صخور في بلاد النوبة عند «الشلال الأول»، وكذلك ذُكِرَ على لوحة «بهين».[8] أما أخوه «سبكحتب» فقد عُثِرَ له على تمثال في جزيرة «أرقو» القريبة من «كرمة».[9] ولما كان وجود هذا التمثال يدل على استمرار مستودع «كرمة» حتى عهد الهكسوس فإنه بالإضافة إلى التماثيل التي وُجِدَتْ في المقابر التلية الشكل تكون معاصرة ولم تنقل إلى هذا المكان في العصر الكوشي.[10]

وهي على الأقل كآثار «كرمة» أو مائدة القربان التي وُجِدَتْ كذلك باسم «سنوسرت الأول» تُعْتَبَرُ شاهدًا على سيطرة سياسية مصرية على هذه البلاد، وقد انقطعت عنا المصادر الأثرية الخاصة بعلاقة مصر بالجنوب تمامًا في هذه الفترة، وكل ما وصلنا إلينا من عهد الملك «خع نفر رع سبكحتب» هو نقش مُهَشَّمٌ جدًّا ويحتوي على ما يظهر على إشارات إلى حرب على المزوي؛ وكذلك على بلاد «واوات»، غير أن هذه الإشارات مبهمة. هذا ويحتوي كتاب الإحصاء لشئون الحاشية[11] في بلاط اللشت وهو المعروف بورقة «بولاق رقم ١٨» — وقد كتبه كاتب يُدْعَى «نفرحتب» عاش في نفس هذا الوقت تقريبًا — على معلومات عن توريد أفراد المزوي الذين أتوا إلى مصر بوصفهم عبيدًا من بلاد «أوشق». واسم هذه البلاد جاء ذكره كذلك في كتاب «اللعنة»[12] بجانب اسم المزوي. هذا وليس لدينا أية وثيقة عن حرب عظيمة وقعت في الجنوب. وهذان المصدران لم يذكرا لنا أي شيء تقريبًا يدل على تغير في الموقف السياسي للبلاد. حقًّا لم تدلنا الآثار المكشوفة عن المحافظة على نقطة الحدود عند «الشلال الثاني»، ولكن لدينا لوحة عُثِرَ عليها في «بهين» في مقبرة سليمة تدل على استمرار مستعمرة «بهين» في يد المصريين. وعندما تخطت السيادة المصرية عصر الضعف السابق لم يكن من المنتظر أن يحدث أي تغيير في الاتحاد الذي حصلت عليه البلاد.

ومن ثَمَّ يظهر أن العصر الذي أتى بعد الأسرة الثانية عشرة كان عصر سلام في الجنوب وكذلك تدل الآثار المكشوفة على وجود هذا الاتجاه السلمي. ونفهم من محتويات المقابر التي وُجِدَتْ في بلاد النوبة السفلى من هذا العصر على أن هذه البلاد كانت تتمتع بعصر ازدهار، ويرجع أقدم هذه المقابر إلى أواخر الأسرة الثانية عشرة كما ترجع أخرى إلى عصر الهكسوس. والواقع أن تحديد تاريخ هذه المقابر بوجه عام يُعَدُّ من الأمور الصعبة، لأن المقابر التي لدينا هي مقابر أُسَرٍ لم تُفْصَلْ محتويات كل واحدة منها عن الأخرى إلا نادرًا بسبب ما أصابها من نهب وتخريب في الأزمان القديمة.

ويمكن فقط في هذا العصر جمع الأواني الفخارية باعتبارها وحدة ثم جعل الزيادة المئوية لطراز معين من مجموعة أساسية خاصة بالدفن بمثابة نقطة ارتكاز لتأريخ تقريبي. ومن ثَمَّ نجد أن الأشكال الفخارية التي تطورت ببطء ثم بقي منها طرز خاصة هي التي تكون مميزة للعصور القديمة.[١٣]

وأسماء الملوك في هذا العصر قليلة، وقد وُجِدَتْ منقوشة كلها على جعارين قديمة مستعملة ثانية في مقابر أحدث عصر منها. ومن أجل ذلك يصعب استخلاص تاريخ محدد بوساطتها، وبخاصة أن التطورات منذ أفول نجم الأسرة الثالثة عشرة حتى نهاية الأسرة الرابعة عشرة كانت قد ركدت[١٤] بدرجة عظيمة.

ويُلَاحَظُ أنه توجد جبانات مصرية من عهد الدولة الوسطى في «كوبان» و«عنيبة» و«بهين» وفي حصن «سمنة» و«شلفك» والأخيرتان منها لم تنشر محتوياتهما، ولذلك لا يمكن تأريخهما بوجه التأكيد. وتقع الجبانات في المستعمرات الثلاثة الكبيرة التي كان قد استولى عليها المصريون فعلًا في عهد الأسرة الثانية عشرة، وكذلك مدَّت مصر سلطانها حتى الحدود الجنوبية. والمقابر القديمة الخاصة بجبانات «كوبان» قد أرَّخَها الأثري «فرث» بنهاية الأسرة الثانية عشرة وما بعدها.[١٥] وليس لدينا معيار تاريخي يقربنا من الحقيقة مثل أسماء الملوك التي على الجعارين. هذا إلى أن إعادة استعمال حجرات الدفن في عهد الدولة الحديثة قد وضعت أمامنا العقبات التي تعوقنا عن الوصول إلى رأي قاطع عن قدم القبر وتأريخه، ومع ذلك فإن هذه العقبة يمكن تلافيها لِمَا يوجد بين فخار «تل اليهودية» وفخار «كرمة» من علاقة تجعلنا نعطيه تأريخًا أحدث.

ونجد في «عنيبة» على حسب ما نُشِرَ حوالي عشر مقابر تؤرخ بالنصف الثاني من الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثالثة عشرة والعصر المتوسط الثاني، في حين نجد عشرين مقبرة مُؤَرَّخَةً بالعهد المتوسط الثاني وبداية الأسرة الثامنة عشرة. وهذا التأريخ

في تفصيله غير مؤكد كما أَكَّدَ ذلك لنا الأستاذ «ستيندورف» ومع ذلك فليس هناك شك في أن المستعمرات كانت مزدهرة في العهد الذي تلا الأسرة الثانية عشرة. حقًّا إن أسماء الملوك تكاد لا توجد في هذا العهد، ومن ثَمَّ فإنه من الصعب تحديد تاريخ للقبور القديمة وعُثِرَ على جعران في مقبرة من عهد الدولة الحديثة نُقِشَ عليه اسم ملك يُدْعَى «سخعن رع»[١٦] ومن المحتمل أن هذا الملك وُجِدَ في «كرمة» ويرجع عهده إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة أو عصر الهكسوس ولا بد أن نؤكد هنا أنه لم يُعْثَرْ على أي شيء يمكن أن نستخلص منه تأريخًا من عصر الهكسوس المتأخر. أما في مقابر «بهين» فلدينا بوجه خاص جبانة «K» التي لها أهمية خاصة عظيمة، وذلك لأن موقعها داخل سور المدينة الذي أقيم على ما يظهر في عهد «أحمس الأول» مما يجعلنا نؤرخها بالعصر الذي جاء قبل الأسرة الثامنة عشرة. وكذلك لدينا بعض مقابر ضمن جبانات أخرى «J.H» في «بهين» يمكن تأريخها بعهد الدولة الوسطى والعهد المتوسط الثاني، ولكن نضرب عنها صفحًا لعدم تَأَكُّدِنَا من تأريخها الحقيقي.

ولما كان ينقصنا ترتيب الأواني الجنازية على حسب طرز الدول الحديثة فإنه لدينا من جهة أخرى أشياء باسم «أمنمحات الثالث» ولذلك أَرَّخَ الأثري «ماك ايفر» القبر «K» بالأسرة الثانية عشرة في «بهين»[١٧] وهذا التأريخ قد وافق عليه الأستاذ «ينكر»[١٨] وكذلك يقول إنه من المحتمل تأريخ بعض الدفنات في هذه الجهة بعهد الهكسوس في حين أن الأستاذ «ستيندورف» يُؤَرِّخُ كل هذه المقابر باستثناء المقبرة رقم "K.8" بعصر الهكسوس.

والواقع أنه ليس لدينا إلا المقبرة "K.8" السليمة وهي التي وُجِدَ فيها لوحة الملك «نفرحتب» السالف الذكر، فقد أُرِّخَتْ تأريخًا مؤكدًا، أي الأسرة الثالثة عشرة أو بعهد بعد ذلك بقليل فقد تكون اللوحة أقدم من الدفنة، ولا أدل على ذلك من أنه قد وُجِدَ خاتم في صورة جعران باسم «أمنمحات الثالث» مما يدل على استعمال شيء قديم، ولذلك فإن القبر "K.13" الذي وُجِدَ فيه خرزة عليها اسم نفس هذا الملك ليس من المؤكد أن يؤرخ بالأسرة الثانية عشرة. أما الآثار الأخرى التي وُجِدَتْ في هذا القبر فلا يمكن تأريخها على وجه التأكيد، وطراز الفخار ورقم واحد المنسوب إلى كرمة وهو القارورة العادة الخاصة بالدولة الوسطى والطراز رقم اثنين ويشمل الأطباق الخشنة المحزوزة وهي التي أكد الأستاذ «ينكر» أنها مميزة لفخار الدولة الوسطى، فقد امتد زمن استعمالها إلى ما بعد

هذا العهد، فمثلًا نجد الطراز رقم واحد في المقبرة "K.8" كما نجد الطراز الأوَّل والثاني في المقبرة "K.10" بجانب فخار «تل اليهودية».[١٩]

ولا يمكن أن نؤرخ على وجه التأكيد أية مقبرة بالأسرة الثانية عشرة، وذلك لأن الجعارين التي وُجِدَتْ في هذه المقابر يظهر من طابعها أنها من عصر متأخر عن ذلك، ويمتاز العصر المتوسط الثاني برسوم أشكال كبيرة مثل رقم ١٠٦٩٧ من المقبرة "K.18" ورقم ١٠٨٤٦ من المقبرة "K.14" وعليها اسم الملك «كارنفروي» وكذلك النموذج الذي على شمالِي الاسم لا يمكن أن يكون طرازه مستعملًا إلا بعد الأسرة الثانية عشرة والمقابر "K.14"، "K.18"، "K.37"، "K.83" التي وُجِدَتْ فيها هذه الجعارين هي بلا شك من هذا العصر أيضًا.

وهذا التأريخ لمقابر «بهين» لا تقتصر أهميته على هذا السبب، وذلك لأنها برهنت على استمرارها، وكذلك ازدهار المستعمرة في خلال الأسرة الثانية عشرة، يُضاف إلى ذلك أن التأريخ الذي وضعه الأستاذ «ينكر» بوجه عام للأسرة الثانية عشرة كان ليقابل تأريخًا أعلى وضعه للأواني التي وُجِدَتْ هنا من أواني «تل اليهودية» وكذلك ليكون بمثابة برهان على أنها مأخوذة من أصل نوبي.

والمقابر التي وُجِدَتْ فيها هذه الأواني لا يمكن أن تُؤَرَّخَ إلا بالأسرة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وليس لدينا قطعة واحدة تفرض علينا تأريخها قبل الأسرة الثانية عشرة.

وكل ما وُجِدَ في «كرمة» من قطع الفخار المحزوز سبع قطع وأربع من الفخار العاري عن الزخرفة وهي بلا نزاع من مقابر على هيئة تل مستديرة ومؤرخة بالعهد الذي يلِي الأسرة الثانية عشرة.

والبرهان الذي أورده الأستاذ «ينكر» على أن أواني «تل اليهودية» من أصل نوبي قد أُهْمِلَ بوجه عام.[٢٠] والواقع أنه ليس لدينا شك في أنها من الواردات الشمالِية، ويحتمل أنها من منطقة سوريا وفلسطين. وعلى حسب رأي «أوتو» كان العصر الذهبي هناك يقع حوالي ١٧٥٠ق.م. ويستمر حتى بداية عهد الهكسوس،[٢١] وقد عاش إلى العهد الذي بعد عصر البرنز المتوسط الثاني[٢٢] وهذا يقابل الدولة الحديثة؛ وكذلك وُجِدَ فضلًا عن ذلك في مصر وبلاد النوبة، ولكن يُلْحَظُ أن هذه الأواني لم توجد بصورة قاطعة في مصر في مقابر الأسرة الثانية عشرة، إذ ليس لدينا ما يثبت ذلك. وهذه الأواني التي لا نعرف على الأقل أصلها النوبي — وهي على الأرجح ليست كذلك — لم يكن مرغوبًا فيها بوجه خاص في «كرمة» كما أنه لا يمكن وضعُها بوجه عام في ثقافة مجموعة "C" بل لا بد

من وضعها في العصر الذي يلي الأسرة الثانية عشرة، كما أن المقابر التي وُجِدَتْ فيها في بلاد النوبة لا يمكن أن تُؤَرَّخَ كذلك بعصر آخر. وكذلك المقبرة التلية الشكل رقم ٤ (K.IV) في «كرمة» فإنها مثل المقابر الأخرى التي في هذه الجهة التي وُجِدَتْ فيها هذه الأواني يرجع عهدها بلا شك إلى العصر الذي يلي الأسرة الثانية عشرة. وتبرهن أواني «تل اليهودية» دون أي شك على وجود علاقة ودية بين المستعمرة المصرية في بلاد النوبة وأرض الوطن المصرية، وليس هناك أي شيء يشبه تبعية إقليمية في تطور هذه الأواني، فمن المحتمل إذن أنه قد ورد إلى «بهين» أوانٍ من سوريا وفلسطين وأعني بذلك أواني خاصة بالطعام من ذوات المقبض العمودي (وطراز رقم ٨ هو الذي له مقبض) هذا إلى الأطباق ذات القاعدة العالية،[٢٣] ولكنا لا نجد من هذه الأواني، وبخاصة البسيط منها، قطعا مماثلة لا بوصفها قطع زينة ولا أطباقًا للتصدير.

ومن ثَمَّ نرى أن العصر الذي يلي الأسرة الثانية عشرة كان عند أهل الجنوب على الأرجح جدًّا عصر سلام، وكانت فيه مصر صاحبة السيادة على الأقل حتى نهاية الأسرة الثالثة عشرة، ومن المحتمل حتى بداية عصر الهكسوس ولا أدل على ذلك مما قَصَّهُ علينا «كاموس» من أن إقليم بلاد النوبة كان في هذا العصر المبكر في سلام عندما بدأ النضال في أوائل الدولة الحديثة بين الهكسوس والمصريين، وأن بلاد النوبة كانت محررة من السيادة المصرية.

فالقبور المصرية التي في مستعمرات بلاد النوبة المصرية لا يمكن أن نحصل منها على نقطة ارتكاز للتأريخ بصفة مؤكدة، وكذلك لا تقدم لنا الآثار التي عُثِرَ عليها في الحصون أي معونة في هذا الصدد، لأن تاريخها فيه شك لوجود مبانٍ من عصور مختلفة فيها. حقًّا نجد تخريبًا كبيرًا قد حدث في مباني الحصون النوبية التي من هذا العصر، ولكن يجب أن نستنبط من استمرار وجودها بحالة الحفظ التي هي عليه الآن أنها لا تدل على حدوث فتح. وفضلًا عن ذلك لا نظن أنها كانت مستعمرات منفصلة عن وطنها الأصلي إلا إذا كانت قد هُوجِمَتْ وأخذت تفقد قوتها شيئًا فشيئًا حتى قُضِيَ عليها.

وفي «عنيبة» نجد بوجه خاص أن العلاقات في هذه المناسبة هامة، وذلك لأن الحصون على حسب ملحوظات الأثري «شليفس» (Schleifs) ينبغي أن تكون باقية حتى عهد الدولة الحديثة.[٢٤] والبرهان على استمرار المحافظة على أعمال الدفاع تقدمه لنا الإصلاحات العدة التي عُمِلَتْ في المنحدرات التي فيها الْحُفَرُ الجافة والتي يمكن رؤيتها في كثير من الأماكن حتى الآن. ومع ذلك نفهم من كل الأماكن التي بقيت عليها الحفر

بمقدار كافٍ أنها كانت في وقت ما مثل كل الحفر مملوء ثلثُها بالرمال والحصى، وأنه قد شرع في تجديد أساس لكل المنحدرات والأبراج، ولم يكن ذلك بمثابة إصلاح بل بمثابة إقامة بناء من جديد لهذه الحفر، ولذلك كان يعد عصر بناء سادس. والمنحدرات الجديدة بُنِيَتْ بناء رديئًا من أحجار خشنة القطع واسْتُعْمِلَ فيها طمي النيل بكثرة بدلًا من الملاط. وقد كانت تجدد المنحدرات بهذا النوع من الصناعة. وكانت المنحدرات الخارجية لا يُعْنَى بها أكثر من سابقتها، وذلك لأن الحافة الخارجية للحفر في وقت التجديد كانت في حالة سيئة.

وينبغي أن نقرر هنا بأنه في حالة عدم التأكد من زمن إقامة الإصلاح والتجديد، وكذلك إذا لم يُتَّبَعْ فن تجديد المنحدرات والأبراج وفن البناء المعتاد تمامًا، فإنها في هذه الحالة تكون قد أقيمت بالأحجار الخشنة التي يُسْتَعْمَلُ فيها طمي النيل ملاطًا مثل طراز مباني ثقافة مجموعة "C".[٢٥]

والآثار التي وُجِدَتْ في حصن عنيبة لا تحدثنا بشيء على وجه التأكيد، كما أن فخارها لم يُنْشَرْ بعد، ومع ذلك فقد وُجِدَ هناك صورة امرأة عارية من العصر النوبي المتوسط[٢٦] وتكاد تنعدم هنا تمامًا الآثار القديمة، ولم نجد إلا قطعة حجر من بناء من عمود نُقِشَ عليها بحروف خشنة بالهيروغليفية اسم الملك «سنوسرت الأول». من الدولة الوسطى.[٢٧] ومن ثَمَّ نفهم أن الحجرات كانت قد نُظِّفَتْ في عهد الدولة الحديثة من القطع الأثرية القديمة.

وقد سارت الأسرة الثالثة عشرة في طريقها بعد حكم الملكين «نفرحتب» وأخيه «سبكحتب» إلى الانحلال بسرعة وقد بدأ في عهدها عصر الهكسوس. ففي الوجه القبلي كان موقف هؤلاء الحكام الأجانب غير واضح حقيقة، ولكن يمكننا أن نحكم من الآثار التي عُثِرَ عليها في «الجبلين» على أنه يجب أن يكون لهم سلطان حقيقي في عهد الملكين «خيان» و«أبو فيس عاو سر رع».[٢٨] والظاهر أن تقدم الهكسوس في الوجه القبلي قد سبب سقوط الأسرة الثالثة عشرة.

وتدل طوابع الأختام في «كرمة» على أن التجارة كانت مشرقة في «كرمة» في عهد الهكسوس، بل كانت فضلًا عن ذلك تجارة الجنوب تحت حماية حكام الهكسوس؛ وبغير ذلك لا يمكننا أن نفسر وجود أسماء ملوك الهكسوس على طوابع أختام في مستودع «كرمة». ومن ذلك نستنبط أن هؤلاء الحكام، على الأقل في العصر الأول من حكمهم، كان لهم سلطان حقيقي في الجنوب من مصر، وإذا كانوا قد جعَلوا مستودع «كرمة» تحت

سلطانهم فإن بلاد النوبة السفلى كانت بطبيعة الحال في قبضتهم. ولا نزاع أن كثيرًا من الأختام التي وُجِدَتْ في المقابر المصرية ببلاد النوبة السفلى هي بكل تأكيد تابعة لعصر الهكسوس، مع العلم أنه على حسب معلوماتنا حتى الآن تكاد لا توجد هناك أسماء هكسوسية. ولم يكن من المتصور قط أن يبقى مستودع «كرمة» مستمرًّا عندما كانت مراقبة أهالي بلاد النوبة السفلي قد انقطعت، وكذلك خطوط المواصلات التجارية لم تكن بعدُ في يد الحكومة المصرية، والواقع أنه في خلال العهد الأول من عصر الهكسوس قد أخذ الحاكم الأجنبي يحتل مكان الأسرة البائدة في الجنوب ويقوم بدورها السياسي، غير أن الحكومة المصرية في هذا العهد لم تفقد كل سلطانها.

والظاهر أن الهكسوس لم يكن في مقدورهم أن يمدوا سلطانهم مدة طويلة في الوجه القبلي، إذ أخذ صغار الحكام المختلفين في البلاد يعارضون سلطان الهكسوس بشدة إلى أن أقام أهالي إقليم «طيبة» وأسسوا الأسرة السابعة عشرة التي احتلت مكانة ممتازة في الصعيد، وفي هذا الوقت كان الانحلال السياسي في الهكسوس، وكذلك بين صغار ملوك الأسرات في الوجه القبلي قد أضعف سياسة مصر الخارجية بقوة، وبذلك اضمحلَّت تجارتها مع الجنوب. وتدل الآثار التي وُجِدَتْ في «كرمة» في هذا العهد على أن مستودع «كرمة» كان قد قُضِيَ عليه وأصبح خرابًا، وكذلك نجد أنه في نفس الوقت تقريبًا كانت مصر قد فقدت سلطانها على بلاد النوبة السفلى، وذلك عندما أصبحت هذه المستعمرة لم يعُد بعد مستعمروها يَلْقَوْنَ العون الْجِدِّيَّ من أرض الوطن وتُرِكُوا هم وحظهم.

وهذا التغير السياسي في بلاد النوبة السفلى نشاهده في المواد الأهلية التي عُثِرَ عليها هناك. وذلك أن وجود فخار «كرمة» في ثقافة مجموعة C المتأخرة.[٢٩] ووجود مقابر فردية من طراز مقابر «كرمة» الخالصة يعد دليلًا واضحًا على انعدام وجود حواجز الحدود عند «الشلال الثاني». ومما يُؤْسَفُ له جد الأسف أن الآثار التي وُجِدَتْ عن أواخر عهد تاريخ «كرمة» لم تُنْشَرْ بعد، غير أن إحدى الجبانات الحديثة فيها وُجِدَ أنها تحتوي على فخار يشبه فخار أواخر عهد ثقافة مجموعة C.[٣٠] وهذا دليل آخر على هذا الاتجاه.

وفي خلال كل الوقت الذي كانت فيه السيادة المصرية — كما أكدنا ذلك من قبل — قائمة، كانت ثقافة مجموعة C عند المصري من جهة أخرى كاسدة، وعندما لوحظ أول نهوض جديد لثقافة مجموعة C المتأخرة وهي التي تتميز بالمقابر التلية الضخمة التي لها مقاصير مشيدة باللبنات وبها الأواني الفخارية الجميلة المحزوزة المصور عليها

نماذج ذات ألوان مختلفة، فإن ذلك يجعلنا نرى فيها علامة على وجود معارضة متزايدة لمصري الأقاليم المنعزل في «كرمة».

نجد فيما بعدُ قيام حركة تمصير للثقافة الوطنية في بلاد النوبة السفلى واسعة النطاق، وكان النوبي بلا شك في هذا الوقت دائمًا مستقلًّا عن مصر إلى أن انتهى به الأمر أن خلع عن نفسه تمامًا النير الأجنبي، وهذا التطور الثقافي لا يكاد يرجع إلى حركة هجرة مصرية. والرأي القائل إن سيادة الهكسوس في مصر قد أدت إلى هجرة عدد عظيم من المصريين إلى بلاد النوبة رأي خاطئ، وذلك لأن الهكسوس الأُوَلَ كان لهم فيما نرجح سلطان حقيقي على بلاد النوبة، في حين أنه فيما بعدُ قد أخذت من جهةٍ سلطةُ الهكسوس في الوجه القبلي تختفي، ومن جهةٍ أخرى كان المصري دائمًا أكثر حرية، وأخيرًا قد أصبح سياسيًّا غير تابع لأحد.

وليس لدينا معلومات أكيدة من عهد الهكسوس المتأخر ولا من عهد الأسرة السابعة عشرة عن نشاط مصر السياسي في الجنوب، ومن ثَمَّ نفهم جليًّا من قصة «كاموس» أن بلاد النوبة في نهاية الأسرة السابعة عشرة كانت دائمًا بلادًا حرة مستقلة يُمْكِنُهَا عقد المحالفات مع البلاد الأخرى، يضاف إلى ذلك أنه قد عُثِرَ في «بهين» على لوحة[٣١] تشمل على ما يُظْهِرُ تاريخ حياة مصري كان في خدمة حاكم مستقل لبلاد «كوش» وهذه اللوحة من الأهمية بمكان لأنها تلقي ضوءًا جديدًا على متون أخرى من نفس العصر. واللوحة محفوظة الآن بمتحف «الخرطوم» وأعلاها مستدير وزينتها تقليدية وكذلك النصف الأول من المتن، الذي يحتوي على اثني عشر سطرًا ألفاظه تقليدية وهاك النص: «قربان يقدمه الملك لأوزير رب «بوصير» الإله العظيم رب العرابة ولحور رب البلاد الأجنبية ليقدما قربانًا يحتوي على خبز وجعة وثيران ودواجن وكل شيء طيب وطاهر مما يعيش عليه إله، مما توجده السماء وتصنعه الأرض ويجلبه النيل بمثابة قرباته الطيبة لروح الموظف «كا». إنه ابن بنته الذي يجعل اسمه يعيش (أي اسم الموظف) «ياح وسر». يقول «إني خادم شجاع لحاكم «كوش» إني غسلت قدمي في مياه «كوش» وأنا في ركاب الحاكم «نزح» وقد عدت صحيحًا مُعَافًى إلى أسرتي»».

وهذه اللوحة السالفة تشبه لوحة «بهين» لصاحبها «سبدحر» وهي محفوظة الآن بمتحف «فلادلفيا»[٣٢] وهاك ترجمتها: «قربان يقدمه الملك «لبتاح سكر» (أوزير) رب «بوصير» الإله العظيم سيد «العرابة» ولحورسبد «بهين» وملك الوجه القبلي والوجه البحري «خع كاورع» المبرأ والآلهة الذين في «واوات» ليقدموا دعاء يحتوي على خبز

وجعة وثيران ودواجن وأواني مرمر وملابس (؟) وبخور ومسوح وقربان من الطعام وكل الأشياء الطيبة النقية ... مما تعطيه السماء وتنتجه الأرض ويجلبه النيل قربات طيبة من الطعام لروح قائد «بهين» «سبدحر» العائش ثانية (المرحوم). يقول لقد كنت قائدًا شجاعًا «لبهين» ولم يفعل قط قائد ما فعلته، لقد بنيتُ معبد «حور سبد» صاحب «بهين» إرضاءً لحاكم «كوش».

وتدل شواهد الأحوال على أن نفس المقدمات التي اسْتُعْمِلَتْ في تأريخ لوحة «الخرطوم» رقم ١٨ تنطبق كذلك على هذا المتن الأخير، وعلى ذلك فإن لوحة «سبد حر» ينبغي أن تُؤَرَّخَ على أغلب الظن بالعصر الذي يقع بين الأسرتين الثالثة عشرة والثامنة عشرة، وفضلًا عن ذلك فإن مركز حاكم «كوش» في كل من المتنين يجعل تأريخهما بالعصر الذي كانت فيه بلاد النوبة حرة قبل إعادة فتح هذه البلاد ثانية على يد «أحمس الأول» هو أحسن تأريخ مقبول؛ ففي كلا المتنين لدينا ترجمة حياة مصري لنفسه خدم تحت إدارة حاكم «لكوش» مستقل، فكان «سبد حر» مصريًّا كما تشير إلى ذلك لوحة «فلادلفيا». والظاهر أن كل أقاربه كانوا يحملون أسماء مصرية طيبة مثل «كا» (الثور)، (وتوجد حتى الآن في المعصرة مركز ميت غمر أسرة تُدْعَى أسرة الفحل، كما توجد أسرة تُدْعَى أسرة العجيل بميت غمر) ومثل «ياح وسر»، كما جاء في لوحة «الخرطوم» رقم ١٨؛ ومن جهة أخرى يحدثنا الأثري «جوتييه»[٣٣] أن «سبد حر» كان قائدًا لــ«بهين» بعد «ثورى»[٣٤] الذي خدم هناك في عهد الملك «أحمس». ولم يقدم لنا «جوتييه» لتأريخه هذا دليلًا، ولكن يحتمل أنه يعتبر «ثوري» أول قائد بعد إعادة فتح بلاد السودان، ولم يشك في إمكانية أن يكون لحاكم «كوش» الوطني قائد «لبهين» قبل تلك الفترة وأن مصريًّا أقام معبدًا هناك بأمره.

وقد وجدت لوحة «سبدحر» في المستوى الذي قيل عنه إنه مستوى الأسرة الثامنة عشرة بالقرب من المعبد الذي في «بهين» غير أن ذلك لا يعني بأية حال من الأحوال تأريخه بالأسرة الثامنة عشرة.[٣٥]

ومن المحتمل أن الأسباب اللغوية لهذا التأريخ ليست براهين فاصلة. والواقع أنه يعد من المدهش أن حاكمًا كوشيًّا مستقلًّا يأخذ في خدمته مصريًّا بعد أن يكون النير المصري قد خُلِعَ عن أعناق النوبيين منذ زمن قصير، وأن يأمر مصريًّا ببناء معبد في «بهين» الحصن المصري القديم، ففي حالة «سبدحر» من المحتمل القول إن التعبير «حقات كاش» أي «حاكم كوش» يشير إلى الملك المصري وهو الحاكم الحقيقي لكوش

بعد إعادة فتح بلاد النوبة، غير أن هذا التفسير على أية حال مستحيل فيما يخص لوحة «الخرطوم» رقم ١٨ حيث تجد اسم الحاكم قد ذُكِرَ، وهذه الحقيقة تبرهن بدون أي شك على أنه في بعض الوقت كان الحاكم الوطني لديه مصريون في خدمته.

ومن المؤكد أن صغار الملوك الوطنيين كانوا يلعبون دورًا خاصًّا في إدارة بلاد النوبة حتى بعد إعادة فتح البلاد كما سنرى بعد، ولكن هل من المقبول أنهم كانوا وقتئذٍ لهم مكانة كالتي نجدها في المتنين السالفين؟ وهل يمكن أن نزعم أنهم أرسَلوا حملات بأنفسهم أو أن القائد المصري لحصن «بهين» الذي يُعَدُّ من أقوى الحصون المصرية والمراكز الإدارية كان مسئولًا عندما كان يبني معبدًا للحاكم الوطني لكوش لا نائب الملك وبوساطته لملك مصري؟ والواقع أن رجلًا يخدم في النوبة في عهد الأسرة الثامنة عشرة كان يفضل أن يبرهن على ولائه لسيده الأعلى المصري وكان يضع متن لوحته بالطريقة التي صاغها رجل آخر في «بهين»[٣٦] أو كان يستعمل كلمة «الملك» أو «جلالته» بدلًا من استعمال «حاكم كوش» فقط.

والواقع أن كلًّا من لوحة «الخرطوم» رقم ١٨ ولوحة «سبدحر» تؤرخ بالفترة المتأخرة جدًّا من العهد المتوسط الثاني وهذا هو التأريخ المقبول.

وعلى حسب هذين النقشين كانت «بهين» ضمن دائرة حكام «كوش» وكان أحدهم اسمه «نزح». والحرية التي نالتها بلاد النوبة في عهد هؤلاء الحكام لم تمكث أكثر من جيل أو جيلين.

وملوك الهكسوس العظام حتى عهد «شيشي» و«ماعت إب رع» و«يعقوب-إيل» الذين وُجِدَتْ أسماؤهم على طوابع أختام في «كرمة» يظهر أنهم حكموا حتى قبل عام ١٦٠٠ق.م. بقليل، في حين أن «أحمس» أعاد فتح بلاد النوبة السفلى في النصف الأول من القرن السادس عشر. على أن الموقف السياسي كما نعلم قبل إعادة فتح بلاد النوبة قد وُصِفَ في مخاطبة «كاموس» المشهورة لعظماء رجال بلاطه: «إلى أي حد أنا عالم بقوتي هذه عندما يكون رئيس في «أواريس» وآخر في «كوش» وأنا أجلس هنا في حلف مع أسيوي ونوبي، وكل رجل قابض على قطعته من مصر هذه؟ هذا بالإضافة إلى ما جاء في متن اللوحة المكشوفة حديثًا مما يدل على استقلال «كوش» بوصفها دولة قائمة بذاتها بجوار مصر والهكسوس، ونفهم من ذلك وجود ثلاث ممالك كبيرة: مصر الشمالِية تحت حكم ملك الهكسوس، ومصر العليا حتى «قوص» تحت حكم «كاموس»، و«كوش» تحت حكم حاكم نوبي. وكان جواب عظماء البلاط على سؤال الملك: «إن «إلفنتين»

قوية» يظهر لنا أن الحدود الشمالِية لبلاد النوبة في هذه الحرب كانت عند «الشلال الأول»، وعلى ذلك فإنه من هذين المتنين بالإضافة إلى متني لوحتي «بهين» يظهر أنه من الممكن أن نستخلص أنه كان يحكم بلاد النوبة السفلى حاكم واحد. ومن المحتمل أن ذلك كان ينطبق مؤقتًا بعد إعادة الفتح، وذلك لأن لدينا متنًا متأخرًا من عهد «تحتمس الثاني» يحدثنا بأن منطقة نفوذ حاكم «كوش» كانت مقسمة خمسة أقسام عُمِلَتْ في عهد «تحتمس الأول» ولكن في هذا الوقت كان من المحتمل أن يستعمل كلمة «كوش» في معنى مختلف. وبالنسبة لقصر فترة تحرير بلاك النوبة بدرجة كبيرة فإنه من الجائز أن حاكم «كوش» «نزح» السالف الذكر كان هو الذي أشير إليه في متن الملك «كاموس» والذي أرسل إليه ملك الهكسوس يطلب إليه التحالف على مصر كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

ويلاحظ أن العبارة التي فاه بها «كاموس»: «مصر هذه» بقدر ما تشير إلى الإقليم المصري في بلاد النوبة لم تكن بأية حال في غير محلها قط، وبذلك لأن مجموعة C النوبية كانت فعلًا قبل الأسرة الثامنة عشرة قد تمصرت لدرجة أن الأستاذ «ريزنر» في أول الأمر كان تحت تأثير أن مجموعة C كانت قد طُرِدَتْ على يد مهاجرين مصريين من الذين كانوا قد هربوا من حكم الهكسوس في مصر. وقد برهن «ينكر»[٣٧] على أن هذا التمصير كان تطورًا في داخل مجموعة "C" ولم يكن سببه تغييرًا أساسيًّا في التأليف السلالي لسكان بلاد النوبة السفلى وهذا التغير السريع يمكن تفسيره جزئيًّا بحقيقة أن عددًا عظيمًا من النوبيين كانوا قد خدموا بوصفهم جنودًا مرتزِقة في جيش الأسرة السابعة عشرة في مصر ثم عادوا إلى بلادهم كما ذكرنا في غير هذا المكان. وعلى أية حال فإنه لا المزوي ولا قوم المدافن القعبية، وهم الذين يمثلون هؤلاء الجنود المرتزِقة في متن «كاموس» وفي الآثار، ليسوا على ما يظهر موحدين بقوم مجموعة "C" الذين عاشوا في بلاد النوبة السفلى.[٣٨]

ويُلَاحَظُ هنا أن متني «بهين» اللذين قد حللناهما هنا يمكن أن تتخذ منهما عاملًا آخر في عملية تمصير بلاد النوبة، وأعني بذلك المصريين الذين كانوا في خدمة النوبيين، إذ إن بلاد النوبة حينما أصبحت حرة وصارت المدنية المصرية منتشرة هناك كان من الطبعي أن يُرَّحَبَ بالمصريين الذين يريدون أن يخدموا الحكام الأهليين، وإذا كانت بلاد النوبة السفلى محكومة بحاكم واحد ميوله مع المصريين والمدنية المصرية فإن التغير السريع في الميول كانت بطبيعة الأحوال أكثر سهولة لتفسير ذلك، وفي هذه الأحوال يكون من الطبعي أن نبحث عن براهين تعزز ذلك في فنون التراجم المعاصرة من أقصى جزء

في جنوبي مصر. ففي حين نجد لوحة «ثو» الإدفاوي التي نشرها «جاردنر»[٣٩] تحدثنا أنه عمل شماله عند «أواريس» وجنوبه عند «كوش» — وبذلك حصر نفسه في مصر نفسها — نجد أنه قد لا يكون من المستحيل أن «حاعنخف» الإدفاوي[٤٠] (وهو مصري آخر) كان في خدمة أحد صغار ملوك النوبة ثم عاد إلى مصر مع أسرته. والمقدمات التي انطبقت على تأريخ لوحتي «الخرطوم» رقم ١٨ ولوحة «سبدحر» هي التي تنطبق على لوحة «حاعنخف»، وهذا على ما يظهر يدل على أن لوحة «إدفو» تنتمي إلى أواخر العهد المتوسط الثاني. وبما تلقيه اللوحتان الأخيرتان من ضوء فإن التفسير التالي الذي يرتكز معظمه على تحليل الأستاذ «جن» للفقرة الصعبة جدًّا الخاصة بحياة هذا الرجل في هذا النقش يمكن قبوله وهاك الترجمة:

> لقد كنت محاربًا شجاعًا وأحد الداخلين «إدفو» وقد نقلت زوجتي وأطفالي ومتاعي من جنوب «كوش» في ثلاثة عشر يومًا وقد عدت بذهب قدره ستة وعشرون دبنًا والخادمة «وشع شني»؟ ولم أترك شيئًا منه لزوجة أخرى (أي على الرغم من هذه الثروة فإني لم أتخذ لي زوجة أخرى) ولكن بدلًا من ذلك اشتريت ذراعين من الأرض وكان (لزوجتي) «حور ميني» واحد منهما بمثابة عقار لها في حين أن الذراع الآخر كان ملكي. واستحوذت على أرض مقدارها ذراع من الأرض قد أُعْطِيَ للأطفال وعلى ذلك قد كوفئت على ست السنين التي خدمتها في بلاد النوبة التي جاء منها الذهب الذي اشتريت به الأرض.

وعلى ذلك نرى بصورةٍ ما أن مخاطرة «سنوهيت» الشهيرة في أوائل الدولة الوسطى كان لها مثيلتها في الجنوب في المدة القصيرة التي استقلت فيها بلاد النوبة قبل حلول عهد الأسرة الثامنة عشرة، ولكن شتان بين القصتين، فقصة «سنوهيت» قطعة أدبية بارعة من الطراز الأول، في حين أن القصة التي نحن بصددها لا تخرج بقدر ما تصل إليه معلوماتنا عن قصة مقتضبة كُتِبَتْ بلغة حوشية ونقوس خشنة يقف أمامها المترجم حائرًا مترددًا للوصول إلى سبر غورها وإبراز معناها الأصلي.

حقًّا عُثِرَ في «المدمود» على نقش لملك يُدْعَى «سخم-رع-واز خعو-سبكساف»،[٤١] تدل شواهد الأحوال على أنه في أغلب الظن من ملوك هذه الأسرة وقد جاء في هذا الأثر ما يدل على أن السيادة المصرية في بلاد النوبة السفلى قد استرجعت ثانية فقد جاء في النص: «قهر الأونتيو وضرب «كوش الخاسئة». ولكن من صيغة المنظر التقليدية —

وهو يرجع إلى تقليد قديم — لا يمكن أن نستخلص منه شيئًا مؤكدًا عن سياسة مصر في جنوب الودي. وعلى عكس ذلك تمامًا تدلنا الهجرة العظيمة التي قام بها أهل بلاد النوبة نحو مصر كما يظهر ذلك أمامنا في المقابر القعبية، وهذه الهجرة كان قوامها روابط الجوار السلمية. وعلى مثل هذه الصورة — كما أوضح الأستاذ «ينكر» — نجد أن تمصير بلاد النوبة السفلى يمكن تفسيره من وجهة سيكولوجية: وذلك أن المصري إذا دخل بلاد النوبة بوصفه سيدًا أجنبيًّا شعر النوبي نحو سيده بالحقد والبغضاء ولكن عندما أصبحت السياسة في بلاد النوبة غير تابعة لغيرها، وكان فضلًا عن ذلك عدد كبير من النوبيين يرحلون إلى مصر بوصفهم جنودًا مرتزِقة أصبح الذوق المصري هو الْمُتَّبَعُ في بلاد النوبة، من ذلك أنه قد أصبح القوم في بلاد النوبة يجهزون بتوابيت الدفن على غرار الذوق المصري، وكذلك جُلِبَتِ الأواني الفخارية المصرية وقُلِّدَتْ في بلاد النوبة، كما لبس القوم ملابس مصرية، ومن المحتمل أن هذا السلوك قد بدأ به صغار الملوك النوبيين الذين رأوا أن يفعلوا ما يفعله زملاؤهم المصريون.[٤٢]

وهذا الرأي الأخير يحبذه الأستاذ «ينكر» إذ ليس من المستحيل في عهد الأسرة السابعة عشرة أن يحمل بعض الأمراء النوبيين الأحياء أسماءً وألقابًا مصرية. فقد عُثِرَ على جعران في «أرميني» نُقِشَ عليه كلمة «نتر» (إله) «أحمس–أنتف» وهذا يمكن أن يكون اسم أمير وطني. وهذا الاسم ليس معروفًا بين أسماء ملوك مصر. وكذلك نلحظ في البرج النوبي الواقع في بلدة «الريقة» (مركز الدر) بعض تقليد للمباني المصرية المماثلة، وذلك عندما نعلم أن هذا المبني بوجه عام يحتوي على اعتبارات كثيرة أخرى هامة بالنسبة لهذا العهد.

وهذا المبني مؤسسة كبيرة لا بأس بها إذ يبلغ طولها ثمانين مترًا وعرضها خمسة وأربعين مترًا والتصميم الأصلي مستطيل وعرض جدرانه الخارجية نحو مترين وهو يكون وحدة منفردة، وتدل جدرانه المقامة من الحجر على أنه في صورته يؤلِّف حصنًا وهو بدون شك يمثل برج أمير وطني.[٤٣] ولا شك في أننا هنا أمام مؤسسة نوبية كما يدل على ذلك الفخار الذي وُجِدَ فيها وهو فخار مجموعة C العادي المختلط بقطع مصرية معتادة، هذا فضلًا عن صناعة البناء كلها وبخاصة الجدران المكوَّنة من ألواح الحجر المرتفعة يتخللها ملاط من غِرْيَنِ النيل وأحجار خشنة بمثابة حشو وجدرانها مغطاة بطبقة من الطين، وهذا الفن من المباني نصادف شبيهه في مساكن الأهالي في «وادي العرب».[٤٤]

وهذه المؤسسة التي كانت في الأصل منفصلة وحدها قد حرقت جدرانها، وأصبحت كأنها مبنى مزرعة. وقد أُرِّخَتْ هذه المؤسسة بعهد الدولة الوسطى، وذلك بسبب وجود جعران باسم «تحتمس الثالث» في حجرة بنيت في عصر متأخر ولكن من جهة أخرى أكد الأستاذ «ينكر» وجود فخار من الدولة الوسطى فيها وبذلك أَرَّخَهَا بالعصر المتوسط الثاني.[٤٥] وقد وجد في حفرة في الجدار الخارجي في هذه المؤسسة ودائع أساس مؤلَّفة من عشرة ألواح من الفخار رُسِمَ عليها صورة رجل واقف وعلى رأسه ريشة نعام ويقبض بحبل على أسير راكع،[٤٦] وهذه الآثار التي يمكن أن تتخذ لتحديد تأريخ إقامة المؤسسة لها أهمية. ولا يمكن هنا أن نعد هذه الآثار أنها آثار مصرية اسْتُعْمِلَتْ ثانية.

وقد وجد ما يشبه ذلك تمامًا في «كوبان» وفي «بهين» ففي «كوبان» وجد ذلك في أسفل طبقة بين المنزلين واحد واثنين بجوار طابع خاتم باسم «سنوسرت الثاني»[٤٧] وفي «بهين» وجد هذا الشكل في أسفل طبقة (L. Stratum) في رقعة بين المعبدين تميز أن تأريخ هذا الشكل لم يكن من المستطاع. وعلى الرغم من أن هذه الطبقة (L) تمثل الأسرة الثانية عشرة فإن من الجائز أن تكون حجارتها قد اسْتُعْمِلَتْ حشوًا للمبنى في الأسرة الثامنة عشرة. ولا يوجد غير اسم «تحتمس الثالث» اسم أي ملك آخر.[٤٨] فعلى حسب رأي الحفار أُرِّخَتِ القطع بالأسرة الثامنة عشرة، ولكن على حسب الآثار التي وُجِدَتْ في «كوبان» يمكن تأريخها بالأسرة الثانية عشرة وهذا على ما يظهر هو الاحتمال المرجح.

وعلى الرغم من أن «ماك إيفر» و«ولي» و«إورك بيتس» وكذلك «ينكر» يرون أن الصور الرئيسية في «الريقة» لأمير نوبي فإن «ينكر» يرى في الصورة الرئيسية التي وُجِدَتْ في «بهين» أنها لرئيس نوبي في حين أن «ماك إيفر» و«ولي» يريان أنها لمصري.

هذا وتُصَادِفُنَا صورة أخرى غير ما وُجِدَ في الحصنين المصريين «كوبان» و«بهين» وهي على لوحة وُجِدَتْ في الصحراء الغربية على مسافة عشرين كيلو مترًا جنوب غربي «أسوان» وقد كتب مع الصورة فقط تاريخ السنة الثامنة عشرة،[٤٩] ولكن هذه الكتابة في الواقع مصرية دون أي شك.

وليس لدينا شك في أننا هنا أمام صورة مصرية فالرجل الواقف وهو المنتصر يجب أن يُفَسَّرَ بأنه مصري، ولكن كونه في «الريقة» ومثل لابسًا ريشة نعام على رأسه لا يمكن أن يُقال إنه هنا من أصل نوبي لأن مثيله في الصورة التي عُثِرَ عليها في «بهين» و«كوبان» لا يلبس هذه الريشة. وهذا التفسير يظهر طبعيًّا عندما يفكر الإنسان في أن الصورة في «بهين» رقم ١٠٩٣٣ قد رُسِمَ فيها الشكل الرئيسي مثل الصورة الهيروغليفية التي تمثل

الجندي، وأن هذه الصورة الهيروغليفية كانت لا تزال في عهد الأسرة الثامنة عشرة تُمَثَّلُ أحيانًا في صورة جندي[٥٠] واقف. فإذا كان الشكل الرئيسي مصريًّا فلا بد أن يكون الأسير عدوًّا للمصري، والعلامة التي مع العدو يمكن تحديد معناها بأية حال. ففي صورة «بهين» نجد العلامة هي علامة «أمنت» (الغرب) أو علامة تدل على صورة معزى. وفي «كوبان» نجد علامة «أمنت» وكذلك صورة المعزي أو الثور، وفي القطعة المستخرجة من «الريقة» يحتمل وجود رسم معزي على الرغم من أن الرسم غير واضح.[٥١]

فعلامة «أمنت» (الغرب) يمكن أن تُفَسَّرَ بأنها انتصار على البدو سكان الصحراء الغربية، كما أن صورة الحيوان التي توجد فوق رأس الأسير يمكن أن تُمَثِّلَ عدوًّا، ويمكن أن تكون علامة هيروغليفية تدل على قوم أجانب أو تدل على معنى جغرافي ليس بمعروف لدينا، وعلى ذلك يمكن أن تدل على نوع من الشارات التي يُرْمَزُ بها للقبيلة. والآن نعرف أن الجزء الأعظم من أفراد مجموعة C كانوا يعيشون على رعي الماشية ولذلك نجد الثيران والماعز والغزلان كانت تلعب دورًا هامًّا في الشعائر الجنازية الخاصة بالقبائل النوبية، ولا أدل على ذلك من القربان الذي كان يُقَدَّمُ من هذه الحيوانات، هذا فضلًا عن النماذج المصنوعة من الفخار التي تمثل حيوانات مودعة في القبور وهي بلا شك تمثل صورًا سحرية، ويضاف إلى كل ذلك صور بقرات وُجِدَتْ على لوحات للأهالي.[٥٢]

ومن هنا كانت الحيوانات التي وُجِدَتْ مُصَوَّرَةً على ألواح الفخار في الواقع شارات قبائل تدل على قبائل نوبية، والصور التي مع هذه الشارات تفسر الانتصار على هؤلاء النوبيين.[٥٣] على أن وجود مثل هذه الصور في برج نوبي في «الريقة» يمكن أن يُتَّخَذَ دليلًا مضادًّا للتفسير السابق، ولكن الصورة في تكوينها مصرية تمامًا، ولا يمكن أن تكون بأية حال نسخة صُنِعَتْ محليًّا في بلاد النوبة، يمكن أن تكون صورة مصرية قد أُعِيدَ استعمالها، وأن معناها الأصلي لم يفهمه صاحب البناء إلا نصف فهم، أساء استعمالها لنفسه تقليدًا للمصري. ولدينا أمثلة من هذا التقليد الأعمى للمصري دون فهم أي معنى له ما وُجِدَ من كتابات مصرية قديمة لا معنى لها في مقابر أفراد من أهالي بلاد النوبة من هذا العهد؛ وهذه الألواح الخزفية التي تظهر من شكلها أنها قطع مصرية أُعِيدَ استعمالها لا يمكن أن يُعْتَمَدَ عليها اعتمادًا مباشرًا في استخلاص تأريخ المكان الذي وجدت فيه، غير أن استعمالها كان في الوقت الذي سبق تمصير مجموعة C مباشرة. أما عن وجود مؤسسة مثل التي كانت في «الريقة» فإن الفكرة السياسية لها لا توجد إلا في وقت يكون فيه النوبيون أحرارًا أي في وقت لم يكن المصري في قدرته أن يعوق أميرًا من

أهل البلاد أن يؤسس لنفسه بيتًا وطيد الأركان. وعلى ذلك فإن انقلاب المؤسسة السابقة الذكر إلى مزرعة مفتوحة يُعَدُّ إصلاحًا قام به المصري بعد إعادة فتح البلاد ممَّا يدل على أنه لم يعد يطيق رؤيته، ومن المحتمل أن هذا يدل على ما كان يسود البلاد من سلام وهدوء.

ومن المحتمل أنه كان يوجد في بلاد النوبة السفلى مؤسسات أخرى من هذا النوع، ولكن الذي كان في «الريقة» هو المؤسسة الوحيدة الكبيرة الحجم التي نشرت. وقد جاء ذكر مختصر لمستعمرة على مسافة ٣٠٠ متر شمالِي «عنيبة»[٥٤] وكذلك من بقايا مباني في «مصمص» وهما يدلان على أنهما يشبهان مؤسسة «الريقة» ومع ذلك بقي مبهمًا إذا كان كل منهما مستعمرة مفتوحة أم لا.

هذا ونجد أن المصري في الجزء الأخير من النصف الثاني من العهد المتوسط الثاني قد نزل عن الحدود الجنوبية عند «سمنة» وهي التي كانت تُعْتَبَرُ الحد الفاصل بين مصر والسودان، وبذلك أصبح المرور عند هذه النقطة حرًّا، ويدل على ذلك ما جاء في لوحة «كاموس» إذ ذكر فيها أن الحد الفاصل بين مصر وبلاد النوبة هو الشلال الأول، وعلى ذلك فإن الهجرة العظيمة التي كانت تتدفق من بلاد النوبة إلى مصر قد أصبحت منتظمة. ومقابر مجموعة C الموجودة «بالكوبانية» يُنْسَبُ الجزء الأعظم منها إلى عصر مبكر مما يوضح لنا بجلاء أن هذه البقعة القديمة التابعة للمقاطعة الأولى من مقاطعات الوجه القبلي، والتي يرجع أصل أهلها إلى قبيلة تُنْسَبُ إلى بلاد النوبة السفلى لم تكن مفصولة بحدود بين البلدين، ولم يكن هناك بأية حالة من الأحوال حد فاصل للهجرة. والواقع أنه كانت توجد مراقبة على هجرة النوبيين إلى مصر منذ عهد الدولة القديمة، ولكن يُلْحَظُ أنه في العصر المتوسط الثاني كانت هذه الهجرة لمصر واسعة النطاق بدرجة لم تُعْرَفْ من قبل، ففي العهود المبكرة نجد أن دفن النوبيين في الأراضي المصرية يكاد يكون معدومًا، وذلك لأن النوبي كان بعد الانتهاء من خدمته في مصر يعود لِيُدْفَنَ في موطنه الأصلي كما ذكرنا من قبل، ولكن نجد الآن في الوجه القبلي جبانات نوبية ومستعمرات، وهي التي تُسَمَّى ثقافة المقابر القعبية الشكل وتمتد في البلاد المصرية حتى بلدة «ريفه» شمالًا والأماكن الأثرية المعروفة التي وُجِدَ فيها آثار حتى الآن من هذا النوع هي:

(١) «ريفه».[٥٥]

(٢) «مستجدة»[٥٦] وفي هذه البلدة وجد حتى الآن أكبر جبانة من هذا النوع ويبلغ عدد مقابرها سبعًا ومئة هذا فضلا عن وجود مستعمرة.

(٣) «قاو»[٥٧] وفيها سبع وثلاثون مقبرة ومستعمرة.
(٤) «العرابة»[٥٨] وتوجد بها حفر قبور مسطحة وبها فخار من فخار «كرمة».
(٥) «البلابيش»[٥٩] وبها ٤٩ مقبرة.
(٦) «هو».[٦٠]
(٧) «بلاص».[٦١]
(٨) «الخزام» لم تطبع نتائج الحفائر بعد.
(٩) «طيبة»[٦٢] وقد وجد كل من الدكتور «هول» و«إيرتون» جبانة منهوبة بالقرب من «الكرنك» ووجد غير ذلك قطع فخار من مقابر قعبية شرقي معبد «الكرنك».
(١٠) «أرمنت»[٦٣] ولم يتم طبع محتويات الحفائر بعد.
(١١) «الدير»[٦٤] عثر عليها الأثري «سايس» ولم يتم طبع تقاريرها.
(١٢) «الكاب».[٦٥]
(١٣) «إسنا».[٦٦]
(١٤) ما بين «هيراكنپوليس» و«الحصاية»[٦٧] لم يتم طبع تقاريرها.
(١٥) قبالة «دراو»[٦٨] لم يتم طبعها بعد.

وعلى الرغم من كل ما ذكرنا فإن معلوماتنا ليست كاملة وذلك لأن لدينا خمس جبانات فقط قد نُشِرَتْ نشرًا مفصلًا وهي «ريفة» و«مستجدة» و«قاو» و«البلابيش» و«هو» ومع ذلك يمكننا أن نكوِّن صورة لا بأس بها عن هؤلاء القوم. هذا ويمكن أن يجد القارئ وصفًا شافيًا عن ثقافة هؤلاء هؤلاء القوم فيما نشر بوجه خاص في الكتابين اللذين كُتِبَا عن «البلابيش» و«مستجدة». وسنقتصر هنا على ذكر بعض اعتبارات أساسية لنقاط هامة في هذا الصدد.

ففيما يتعلق بتأريخ هذه المقابر يمكن وضع تأريخ أقصى وتأريخ أدنى بصورة مؤكدة، وذلك لأن وضع بحث مفصل للتواريخ النسبية لهذه المقابر المحطمة المنهوبة لم يمكن الشروع فيه حتى الآن، هذا بالإضافة لعدم نشر محتويات هذه المقابر نشرًا علميًّا مستفيضًا.[٦٩]

وتدل الأشياء المستعملة تمامًا من عهد الأسرة الثانية عشرة وكذلك الفخار الذي من زمن العهد المتوسط على أن المقابر التي وُجِدَتْ فيها يرجع عهدها إلى ما بعد الأسرة الثانية عشرة، في حين أن الخرز وكذلك الاختفاء التام لآثار من الدولة الحديثة في العهد الذي قبل الأسرة الثامنة عشرة يبرهن على ذلك.

ولدينا بلطة عُثِرَ عليها في «مستجدة» باسم ملك يظهر أنه قبل عصر الهكسوس وهو «نب ماعت رع»[٧٠] هذا إلى جعران باسم ملك الهكسوس «شيشي» وآخر باسم حامل الخاتم المشهور «حار» الذي يُذْكَرُ كثيرًا في العهد المتوسط الثاني وكلاهما وُجِدَ في «ريفة».[٧١] ويضاف إلى ذلك في عهد الهكسوس تمثال بولهول المصنوع من سن الفيل الذي وُجِدَ في «العرابة» والذي قلنا عنه إن ملامح وجهه سَامِيَّةٌ، وقد مُثِّلَ وهو ينشب مخالبه في جسم أسير مصري.

ومن ثَمَّ نفهم أن بداية الهجرة لا يمكن تحديدها على وجه التقريب ولكن التبعية الجنسية لقوم المقابر القعبية يمكن أن تقوم لنا دليلًا هامًّا على معرفة هؤلاء القوم. فعلى حسب رأي كل من «ينكر»[٧٢] و«كروان»[٧٣] ليس لدينا هنا على ما يظن تطور في مجموعة ثقافة C وحدها، بل إنه مع قبيلة أخرى أيضًا. وثقافة المقابر القعبية تختلف بداهة عن ثقافة مجموعة C هذا إلى أن طراز المقابر القعبية قليل الوجود في بلاد النوبة السفلى. وقد أضاف الأستاذ «ينكر» إلى هؤلاء القوم الأفراد اللذين دُفِنُوا في الجبانة ٧ الواقعة في منطقة الشلال[٧٤] والجبانتين رقم ١١٠ و١١٣ في كوبان، وفي حين أنه لا توجد إلا بعض مقابر في «الشلال» بينها وبين المقابر القعبية وجه شبه كبير، نجد في الجبانتين الأخريين وجه شبه يربطهما بدون شك بثقافة «كرمة». وأسوار المعصم المصنوعة من لويحات من الصدف وهي التي قال عنها «ينكر» إنها رمز قبيلة لا يمكن البرهنة على كونها كذلك في مقابر مجموعة C الخالصة.[٧٥] وفي حين نجد أن «ينكر» قد ربط أهل المقابر القعبية بمقابر المجموعة المتوسطة التي بين مجموعة «كرمة» ومجموعة ثقافة C التي أضاف لها فخار «تل اليهودية» نجد أن «كروان» أشار إلى أنه من الممكن ربطها بالعصر الأخير «لكرمة». وعلى أية حال فإنه طالما لم نعرف بعدُ الآثار المحلية التي بين «كرمة» والشلال الثاني ولم نعرف التطورات الأخيرة في «كرمة» التي لم يُتَوَصَّلْ إليها فإن هذا الموضوع سيبقى غامضًا.[٧٦]

ولكن إذا أردنا أن نسلم بالزعم القائل إن أهل المقابر القعبية كان أصلهم من البقعة الواقعة جنوبِي حدود «سمنة»، فإن هجرتهم إلى مصر تكون أولًا قد تلت محو حواجز الحدود التي عند الشلال الثاني، ويشير إلى هذا الاتجاه كذلك انتشار هؤلاء القوم في مصر حيث بلغ أقصاه في الشمال على حسب ما جاء في قصة «كاموس» إلى «قوص» وهي الحد السياسي بين مملكة الوجه القبلي التي تمثل بالأسرة السابعة عشرة وبين مملكة الهكسوس. وتدل الكشوف الأثرية على أننا أمام قبيلة محاربة،[٧٧] وهذه القبيلة

هي التي نوحدها بالجنود المرتزِقة الذين جاء ذكرهم في قصة «كاموس» باسم «مزوي» وعلى ذلك فإنا نكون هنا أمام جنود استخدمهم ملوك الأسرة السابعة عشرة في حرب التحرير التي أشعلوا نارها على الهكسوس.[٧٨] ففي شمالِي «قوص» في الجهة الأخرى من الحدود الشمالية من مملكة الأسرة السابعة عشرة لم نجد قط أي أثر للمقابر القعبية البحتة، وإذا كان قد حدث أن بعض أفراد من النوبيين قد تقدموا نحو الشمال ودخلوا على فرض في خدمة الهكسوس فإنه لم تصلنا عن هؤلاء معلومات مؤكدة.[٧٩]

وإذا فكرنا من جهة الانتشار العظيم للمقابر القعبية في الوجه القبلي، ومن جهة أخرى ما ذكر عن قصد عن الدور الذي لعبه جنود مزوي في الحرب القصيرة نسبيًّا التي جاءت في قصة «كاموس» فإنا لا نكون قد شططنا كثيرًا إذ ذهبنا إلى أن هؤلاء الجنود قد لعبوا دورًا فاصلًا في تحرير مصر من نير الهكسوس، وأنهم قبل كل شيء في الحرب الأخيرة كانوا فقط يحاربون في جانب المصريين. وهذا ما أشارت إليه نقوش اللوحة الجديدة الخاصة بحروب كاموس التي شنها دفاعًا عن نفسه على الهكسوس.

ولا نعرف شيئًا على وجه التأكيد عن هؤلاء القوم من الوجهة الاجتماعية، ولكن على حسب ما وُجِدَ من آثار ذهبية في مقابرهم في «مستجدة» وكذلك ما نجده من تخريب شامل لمقابرهم نفهم أن هؤلاء الجنود كانوا يُكَافَئُونَ مكافأة حسنة، ولم يكونوا بأية حال من الأحوال فقراء.[٨٠] ويلحظ أن شكل أسلحتهم كان مصريًّا محضًا بوجه عام، فقد وُجِدَتْ في مقابرهم بلط وخناجر وسهام وأغطية أصابع. وقد كانوا مثل نوبيي الدولة الحديثة على ما يُظَنُّ يُسْتَعْمَلُونَ مشاة خفافًا وكما ذكرت لنا لوحة «كاموس» أن المزوي كانوا يُسْتَعْمَلُونَ جنود استطلاع.

وقد تمصر أهل المقابر القعبية تمامًا كما تمصر أهل مجموعة C في بلاد النوبة السفلى، ونجد فقط في المقابر المتأخرة لهؤلاء القوم بعض أواني فخار من صنع أجنبي أما باقي الأواني فمصرية. وكذلك تلحظ نفس العملية في المستعمرات من حيث الانتقال من الأكواخ المستديرة إلى المباني ذات الأضلاع الأربعة.[٨١] وعلى هذا الأساس يكون من الواضح عدم وجود المقابر القعبية في الدولة الحديثة؛ ولكن على الرغم من صعوبة وجود برهان أثري فإن أصحاب المقابر القعبية على أية حال بتمصيرهم تمامًا واختفائهم بوصفهم قومًا مُمَيَّزِينَ قد انتهى دورهم السياسي في التاريخ المصري.

وكذلك فإنه مما لا شك فيه التسليم بتمصير قوم ثقافة مجموعة C الذين ساروا شوطًا بعيدًا في بلاد النوبة السفلى، وأنهم في خلال عهد التحرير قد أصبحوا تابعين ثقافيًّا

لمصر بسبب ضعف مقاومتهم الداخلية لها؛ فقد استعادت قوتها ووضعت لنفسها من جديد سياسة توسع وفتوح. وعلى ذلك فإن الطريق أمام إرجاع السيادة المصرية القديمة في بلاد النوبة السفلى قد مهدت. وعلى العكس من ذلك فإن وحدة الثقافة العظيمة التي كانت بين أهل بلاد النوبة وأسيادهم المصريين الذين عادوا إلى بلادهم قد سهلت الأمر أكثر من قبل، وبذلك أصبحت هذه البلاد قاعدة أكثر ملاءمةً لتكوين إمبراطورية مصرية عظيمة في الجنوب من التي كانت في عهد الدولة الوسطى.

هوامش

(١) راجع: Bull. Boston, M.F.A, Vol, 28, p, 47 ff; Sudan Notes and Records, 14,(1931) p. 1 ff.

(٢) راجع: Sethe, Lesestucke, P. 99.

(٣) راجع: Kerma, II, p. 516 and p 111.

(٤) راجع: Journal Asiatique Ser., 11, 6 (1915) 2, Ser. 11, 9 (1917), 194 f.

(٥) راجع: Rec. Trav., 22, 138; LR, II, 84.

(٦) راجع: Gauthier, L.R., II, 151 h.i.

(٧) راجع: Montet, Kemi I, 90 ff., Fig. 8.

(٨) راجع: Buhen, P. 201, Pl. 74.

(٩) راجع: L.D., II, p. 151 h.i.

(١٠) راجع: A. J. S. L (1908), p. 41 ff., Drioton-Vandier, L'Egypt, p. 278.

(١١) راجع: مصر القديمة الجزء الثالث ص ٣٨٨.

(١٢) راجع: Sethe, Achtung, etc.

(١٣) راجع: Peet, Cemeteries of Abydos, II, 70 and J.E.A., 14, p. 204.

(١٤) راجع: save, Ibid, p. 12, Note 2.

(١٥) راجع: Firth, III, p. 24.

(١٦) راجع: Aniba, II, 99, No. C 2; 2, etc.

(١٧) راجع: Buhen, p. 185, ff.,.

(١٨) راجع: Tell-el-Yahudiya-Vasen, p. 82 f.

(١٩) راجع: Save Soderbergh, Ibid, p. 123, Note 5.

(٢٠) راجع: Sjoqvist, Problems of the Late Cypriote Bronze Age, p. 86, etc.

(٢١) راجع: Otto, Studien Zur Keramik der Mittleren Bronzezeit in Palästina (Zeitscher. d. Deutsch-Pälast. Vereins, Bd. 61 (1938), p. 168 ff.

(٢٢) راجع: MBZ II b.

(٢٣) راجع: Otto, Ibid, p. 171.

(٢٤) راجع: Aniba, II, p. 16.

(٢٥) راجع: Areika, p. f. and Pl. 4.

(٢٦) راجع: Aniba, II, p. 30.

(٢٧) راجع: Aniba, II, p. 21.

(٢٨) راجع: Rec. Trav., 16, 42; 14, 26.

(٢٩) راجع: Aniba, I, 9; Emery-Kirwan, p. 504.

(٣٠) راجع: J.E.A., Vol, 25, p. 108.

(٣١) راجع: J.E.A. Vol., 35, p. 50 ff.

(٣٢) راجع: J.E.A. Vol, 35, p. 54, (Philadelphia 10984).

(٣٣) راجع: Rec, Trav., 39. p. 236.

(٣٤) وقد كان ثوري هذا أول نائب للملك في بلاد النوبة حمل لقب «ابن الملك» كما سنرى بعد.

(٣٥) راجع: J.E.A, 35; Ibid., 55 f.

(٣٦) راجع: Buhen, p. 90 ff.

(٣٧) راجع: Ermenne, p. 37 ff.

(٣٨) راجع: Gardiuer, Onomastica 1, 73, II, 269.

(٣٩) راجع: J.E.A., 7, p. 100.

(٤٠) راجع: Gunn, A.S., 29, p. 5 ff.

(٤١) راجع: Fouilles, Inst. Fr., VII, 96 F; IX, P. 7.

(٤٢) وهذا نفس ما حدث في بلاد لوبيا في الأزمان القديمة عندما كانوا يَتَزَيَّوْنَ بالزي المصري.

(٤٣) راجع: Maciver and Woolley, Areika, p. 5.

(٤٤) راجع: Emery-Kirwan, p. 106.

(٤٥) راجع: Junker, Ermenne, p. 35.

(٤٦) راجع في أسفل على يمين Save, Ibid, 133, Fig. 12.

(٤٧) راجع: Emery-Kirwan, p. 55.

(٤٨) راجع: Buhen, Ibid, p. 117.

(٤٩) راجع: A.S., 38, p. 389 and Pl. LV., 3.

(٥٠) راجع: Urk., IV, p. 888.

(٥١) راجع: Areika, p. 9.

(٥٢) راجع: Aniba, I, 38.

(٥٣) راجع: Save, p. 134, Note 4.

(٥٤) راجع: Aniba, II, p. 35.

(٥٥) راجع: Petrie, Gizeh and Rifeh.

(٥٦) راجع: Brunton, Mostagadda, p. 114 ff.

(٥٧) راجع: Brunton, Qau and Badari, III, p. 3.

(٥٨) راجع: L. AAA, 10, 33 ff.; J.E.A., Vol. 14 p. 46 f.

(٥٩) راجع: Wainwright, Balabish.

(٦٠) راجع: Petrie, Diospolis Parva, p. 45 ff.

(٦١) راجع: Arch. Survey of Nubia, Bull. No 4, p. 12; Reisner, Report, p. 6.

(٦٢) راجع: Weigall Report, p. 25.

(٦٣) راجع: J.E.A., 23, p. 118; Chronique D'Egypte, 12 (1937), p. 172.

(٦٤) راجع: Weigall Report, p. 25.

(٦٥) راجع: Ibid., p. 26.

(٦٦) راجع: A.S,8, p. 141 f., J.E.A., 14, p. 46 f.

(٦٧) راجع: A. S., 8, p. 137 f.

(٦٨) راجع: Weigall Report. p. 25.

(٦٩) راجع: Ermenne, p. 108 ff.

(٧٠) راجع: Mostagadda, p. 117, 127, 131; L.R., II, 51 f.

(٧١) راجع: Gizeh and Rifeh, p. 21; comp. Kerma, I, 300 Anc. Egypt. Sup. (1935), p. 143.

(٧٢) راجع: Kubanieh-Nord, p. 32 f; Tell-el-Yahudiya vasen.

(٧٣) راجع: J.E.A., Vol., 25, p. 108 f.

(٧٤) راجع: Kubanieh-Nord, p. 30 f.

(٧٥) راجع: Firth, II, 139; Emery-Kirwan, p. 314, 323, 326.

(٧٦) راجع: Oric Bates, Harvard African Studies, 8, 17.

(٧٧) راجع: Balabish, p. 6.

(٧٨) راجع: Aniba, I, p. 9.

(٧٩) راجع: Save, p. 139.

(٨٠) راجع: Mostagadda, p. 122.

(٨١) راجع: Qau and Badari, III, P. 41.

الفصل الثالث عشر

الدولة الحديثة (١٥٨٠–١٠٩٠ق.م.)

العلاقات السياسية بين مصر وبلاد النوبة

(١) «أحمس الأوَّل» (١٥٨٠–١٥٥٨ق.م.)

أشرنا فيما سبق إلى أن بداية تحرير مصر من يد الأجنبي قد جاء ذكرها في قصة الملك «كاموس» بصورة واضحة وبخاصة في اللوحة التي كُشِفَ عنها حديثًا بالكرنك. ففي خطابه لمجلس مستشاريه يقول: «إني أريد أن أعرف أين قوَّتي عندما يكون أمير في «أواريس» وآخر في «كوش» وأنا أجلس في وسطهما (أي متحدًا مع الآسيويين والنوبيين) وكل واحد منهما يسيطر على نصيبه من مصر ويقاسمانني هذه الأرض». وقد حاول أعضاء المجلس في جوابهم أن يُهَدِّئُوا من روعه فأجابوه: «بأن الآسيويين لا يحكمون إلا إلى «قوص» ونحن نحكم ما لنا من مصر في سلام. و«إلفنتين» قوية». وبعبارة أخرى أنه على الرغم من أن بلاد النوبة قد استقلت فإن حدودنا الجنوبية في أمان، وأنه لا خوف من زحف النوبيين على بلادنا؛ لأن «إلفنتين» كانت محصنة تحصينًا قويًّا. وهذا الموقف السياسي يتفق مع الكشوف الأثرية التي أشرنا إليها من قبل في بلاد النوبة. ومما يجدر التسليم به كذلك أن جنود المزوي الذين جاء وصفهم في ساحة القتال بين المصريين والهكسوس في هذا المتن هم الذين عرفناهم في المقابر القعبية التي أسهبنا الكلام عنها في الفصل السابق، هذا ويدل وجودهم في الجيش المصري على انتشار المقابر القعبية.

ولم كان الجزء الأعظم من قصة «كاموس» قد ضاع من لوحته على ما يظهر فإن اللوحة الثانية التي كُشِفَ عنها تحدثنا عن حروب «كاموس» مع الهكسوس وانتصاره

عليهم مبدئيًّا. والواقع أن اسم «كاموس» قد وُجِدَ في نقش على حجر في بلدة «توشكى» غير أن هذا النقش خاص على وجه التأكيد بعهد خلفه الملك «أحمس الأول» الذي وُجِدَ اسمه تحت اسمه مباشرة. ويُلْحَظُ هنا أن «أحمس» يحمل لقب «مُعْطَى الحياة». وهذا يدل على أنه كان لا يزال عائشًا عند كتابة هذا النقش غير أنه لا يجب أن نفهم هذا اللقب على هذا الوجه دائمًا، وإذا فهمناه كذلك فإنه يعني هنا أن الملكين كانا يحكما بالاشتراك في وقت واحد، ولكن ليس لدينا ما يُعَزِّزُ هذا الرأي ويؤكده، يضاف إلى ذلك أن الجعران الذي عُثِرَ عليه في بلدة «قوص» وهو الذي نقش عليه اسم «واز-خبر-رع» (؟) لا يعني أنه قد حدث تغلُّب على بلاد النوبة قبل عهد «أحمس الأول»[١] ويرجع السبب في ذلك إلى أن سياسة طرد الآسيويين من مصر، وهي السياسة التي وصفها «كاموس» — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — لم تكن قد حُقِّقَتْ بعدُ في أوائل حكم «أحمس الأول» لذلك لم يكن جائزًا أن يقوم «أحمس» بعمل هجومي على الجنوب قبل أن يستولي على «أواريس» عاصمة الهكسوس في الشمال.

ويقص علينا «أحمس» بن «إبانا» في وصف الحرب التي وقعت في «أواريس» ما يأتي: «وقد وقعت الحرب في مصر في الجزء الواقع جنوب هذه المدينة وأحضرت أسيرًا.[٢] «وقد عارض كل من الأثرى «شيفر» والمؤرخ «إدوارد مير» وكذلك «برستد» و«زيته» وغيرهم بحق في أن ذلك كان لا يعني إخماد ثورة في الوجه القبلي أو حملة على بلاد النوبة، بل المقصود من عبارة «هذه المدينة» هو «أواريس». وأن الغرض من العبارة في المتن هو محاصرة ومحاربة جزء من «أواريس»، إذ نجد مباشرة بعد وصف الحرب عبارة «جنوبي هذه المدينة» وقد جاء ما يأتي: «وقد استولى على أواريس»، ومن ذلك يظهر أن فتح بلاد النوبة لم يبدأ إلا بعد أن قُضِيَ على النفوذ الآسيوي كما تحدثنا بذلك صراحة في نقوش «أحمس» بن «إبانا» فاستمع لما يقول: «وبعد أن ذبح جلالته منتيو آسيا صعد في النيل نحو «خنت-حن- نفر» وهزم النوبيين وقد أوقع جلالته مذبحة عظيمة بينهم وقد أُحْضِرَتْ غنائم ... وبعد ذلك انحدر جلالته في النيل وكان قلبه مملوءًا بالشجاعة والنصر الذي أحرزه على الجنوبيين والشماليين».

وهذا النقش بعينه يصف هزيمة ثائرين، واسما الثائرين هما «أيتيو» و«تيتي-عن» (= تيتي جميل)، والأول منهما قيل عنه إنه أتى من الجنوب، ولكن آلهة الوجه القبلي قد قبضوا عليه، وقد وجده جلالته (يعني أحمس الأول) في «تنتاع» وأحضره جلالته بمثابة أسير وكل أهله بمثابة غنيمة، وأحضرت اثنين من المجا (مزوي) وهما اللذان استوليت

عليهما من سفينة «أيتيو». واسم المكان «تنتاع» ليس معروفًا لدينا، ولكن الأستاذ «زيته» يظن أنه محطة بئر في الصحراء، غير أن رأيه لا يستند على برهان هذا وليس بواضح من المتن أين حدثت هذه الثورة. أما التعبير «وآلهة الوجه القبلي قد قبضوا عليه» فيمكن أن يحدد مكان الثورة في الوجه القبلي، غير أن ذكر «أحمس» بن «إبانا» أنه استولى على اثنين من المزوي يحتمل أن يكون إشارة إلى أن الثورة قامت في بلاد النوبة ويُعَزِّزُ ذلك ما ذكره «أمنحتب الثالث» على لوحة «سمنة» أنه كان ضمن الغنائم التي استولى عليها في «إبهت» مئة وعشرة من رجال المزوي، يُضاف إلى ذلك أننا نجد لقب المشرف على المزوي في القبر رقم ٧٨[٣] «بطبية» وهذا الموظف نلحظ من قرطيه الكبيرين في الصورة أنه لم يكن مصري الجنس في ملامحه، على الرغم من أنه يحمل اسمًا مصريًّا هو وأخو صاحب المقبرة. ويشاهد خلف هذا الموظف رجل يجلب محصول الصيد، من ذلك أرنب بري وبيضة نعام وريش نعام. ومما يُؤْسَفُ له أن لدينا صورة جنود المزوي مهشمة في «تل العمارنة» ولذلك لا يمكننا أن نؤكد إذا كانوا أجانب[٤] أم لا، ولكن وجود جزء كبير من الجنود النوبيين لم يكن الأمر غير العادي. وعلى ذلك لا يُسْتَغْرَبُ من وجود صور جنود المزوي وصور جنوبيين. وعلى الرغم من أن هذا المصدر لا يشير بوجه التأكيد إلى أن المزوي هم نوبيون حقيقيون إلا أنه مع ذلك على ما يظهر يشير إلى هذا الاتجاه. وبالإضافة إلى ما ذكرنا من أن «أيتيو» قد وفد من الجنوب فإنه من الجائز على أقل تقدير أن نفهم أن هذه كانت أول ثورة قامت في بلاد النوبة السفلى وفي وادي نهر النيل كما يدل على ذلك ذكر سفينة الثائر «أيتيو». ولا يمكننا أن نعرف من النقوش التي في متناولنا إلى أي حدٍّ زحف «أحمس» بجيشه جنوبًا، وذلك لأن اسم «خنت–حن– نفر» لا يدل على الرقعة المفتوحة كما وَضَّحَ ذلك «ستيندورف» بقوله: «حقًّا لا تدل على جزء صغير من بلاد النوبة». وفضلًا عن ذلك فإن هذا الاسم قد ظهر أولًا في الدولة الحديثة كما أوضحنا ذلك من قبل، ولكن الآثار التي كُشِفَ عنها في بلاد النوبة السفلى توحي بأن «أحمس» قد استولى على الأقل حتى ما بعد «بهين». وعُثِرَ في «كوبان» على مخروط جنازي عليه النقش التالي: «الإله الطيب «رع نب بحتي» (لقد «أحمس الأول») مُعْطَى الحياة أبديًّا، إنه الكاهن الأول لآمون وحامل الخاتم «حورسات»؛ يُضَافُ إلى ذلك نقش على الصخر ذكرناه آنفًا في «توشكى» وكذلك نقوش على أجزاء مبانٍ من أقدم معبد عُثِرَ عليه في «بهين»، وقد وُجِدَ تحت أرضية معبد «أمنحتب الثاني»[٥] أنه قد رسم على كوة باب الملك «أحمس الأول» والملكة «أعح حتب» أمام آلهة مختلفين، ووُجِدَ كذلك رسم قربان

لقائد حامية «بهين» الْمُسَمَّى «ثوري». و«ثوري» هذا هو نفس «ثوري» الذي أصبح فيما بعدُ نائبًا للملك،[٦] وليس لدينا أي شك في أن هذا الأثر قد أُقِيمَ في عهد هذا الملك. وقد كانت «بهين» على ذلك وهي سوق التجارة القديم قد عادت في عهده إلى يد المصريين، إذ من المحتمل أن الرقعة الْمُحَصَّنَةَ هنا زاد فيها «أحمس» زيادة كبيرة. والواقع أن جدران الدولة الحديثة التي تلف حول الحصن القديم الذي يشغل مساحة كبيرة لا يمكن تأريخها على وجه التأكيد، غير أن تأسيس معبد خارج سور الدولة الوسطى على يد «أحمس الأول» يدل على أن تحصينات الدولة الحديثة كان قد بُدِئَ في بنائها في عهده فعلًا.

ولما كانت الحالة السياسية في بلاد النوبة السفلى المفتوحة حديثًا لم تكن حتى الآن في حالة استقرار وسلام فإنه مما لا يكاد يُسَلَّمُ به أن هذا المعبد قد حُفِظَ ببناء سور حوله.[٧] ومن الجائز أن «أحمس الأول» قد زحف إلى جنوبي الشلال الثاني وذلك لأنه وُجِدَ في حصن مُقَامٍ على جزيرة «ساي» تمثال نُقِشَ عليه اسم هذا الملك، ولكن من المحتمل في الوقت نفسه أنه نُقِلَ إلى هذا المكان.[٨] وفي عهد خلفه «أمنحتب الأول» تم إعادة فتح بلاد النوبة فقد قامت حملة إلى بلاد «كوش» لتوسيع حدود مصر،[٩] ومصدرنا الرئيسي عن ذلك هو تاريخ حياة «أحمس» بن «إبانا»، يُضاف إلى ذلك عبارة قصيرة عن هذه الحملة جاءت في نقوش مقبرة «أحمس بننخت» وقد وُصِفَتْ هذه الحملة كما هي العادة في المتون المصرية وصفًا مختصرًا جدًّا. والواقع أننا لا نعرف شيئًا تقريبًا عن هذه الحملة، كما أن المتن لا يدلنا أين وقعت الحرب فاستمع لما يقول المتن: «إن جلالته هزم هذا النوبي في وسط جيشه وقد أُحْضِرُوا مُكَبَّلِينَ دون استثناء، أما الذين هربوا منهم فقد صُرِعُوا على جُنُوبِهِمْ وصاروا كأن لم يَغْنَوْا بالأمس … وأهله ماشيته أُسِرُوا وقد أحضرت جلالته في يومين من محطة البئر العليا». وتدل شواهد الأحوال على أن نهاية الحرب على الأقل قد وقعت في الصحراء، وهذا يعني أن نوبيي وادي النيل قد اقتفى أثرَهم الفرعونُ حتى الصحراء، أو أنه كان يحارب بدو الصحراء. هذا ولا نعلم أين تقع محطة «البئر العليا» التي على مسيرة يومين من مصر. فإذا لم يكن في هذا التعبير مبالغة كما هي عادة المصري في تقدير المسافة فإنه لا بد أن يكون المقصود بالعدوِّ هنا البدو الذين لم يكونوا قد أُخْضِعُوا بعدُ للحكم المصري في جهة بالقرب من «أسوان»، وهؤلاء هم الذين كانوا يسكنون الصحراء الغربية بالقرب من وَاحَتَيْ «كركر» و«دنقل» أو هم من البدو مثل قبيلة البجا الذين يسكنون في جبال الصحراء شرقِي وادي النيل. ويُلَاحَظُ هنا أن

تسمية العدو باسم «أونتي–ستي» يمكن أن نستخلص منها شيئًا وهو أن الاسم القديم «أونتيو» كان يُطْلَقُ على القبائل الأجنبية المتوحشة أعداء مصر، وعلى ذلك فإنه من الممكن كذلك أن يُطْلَقَ على سكان النوبة في وادي النيل كما شرحنا ذلك من قبل. هذا وقد وُجِدَ تمثال للملك أمنحتب الأول حديثًا في جزيرة «ساي»؛ مما يدل صراحة على أنه قد تَغَلَّبَ على هذا الجزء من البلاد الكوشية وهذا الأثر محفوظ الآن بمتحف وادي حلفا عَثَرَ عليه الأثري ثابت في حفائره الحديثة في جزيرة «ساي».

(٢) أمنحتب الأوَّل (١٥٥٧–١٥٣٠ق.م.)

ونعلم للمرة الأولى من الآثار أنه في عهد الملك «أمنحتب الأوَّل» قد أُقِيمَتِ الحدود المصرية الجنوبية عند سمنة. وقد عُثِرَ في «ورنرتي» وفي «سمنة» على نقوش لنائب الملك «ثوري» مؤرخة بالسنين السابعة والثامنة من حكم هذا الفرعون،[١٠] وقد ذُكِرَ «أمنحتب الأوَّل»: «بأنه رب الأرضين «زسر كارع» سيد التيجان «أمنحتب» صاحب أرض «كاري» «الإله الطيب».[١١] غير أن هذا النقش، وهو للكاهن الأوَّل لآمون المُسَمَّى «بنتا وسرت» كان بلا شك من عصر متأخر، وعلى أية حال ليس لدينا برهان قاطع على أن «أمنحتب الأول» قد وصل في زحفه حتى «كاري» الواقعة بالقرب من «نباتا». ولكن وجود تمثال له في جزيرة ساي حديثًا قد يجعل من الجائز وصوله إلى هذه النقطة ولعل الحفائر الحديثة تُحَدِّثُنَا بشيء عن ذلك في المستقبل القريب.

(٣) «تحتمس الأول» (١٥٣٠–١٥٢٠ق.م.)

والواقع أن الذي وَسَّعَ نفوذ مصر الحقيقي بدرجة أكثر مما وصلت إليه مصر في عهد الدولة الوسطى هو الفرعون «تحتمس الأوَّل» في حملته الأولى على هذه البلاد، والمصادر عن هذه الحملة لا بأس بها ويوجد لدينا فضلًا عما جاء في ترجمتي «أحمس» بن «إبانا» «وأحمس بننخت» لوحة أقامها «تحتمس الأول» عنوانًا على انتصاره في «تومبوس» على هذه البلاد وتقع جنوب الشلال الثالث، يُضاف إلى ذلك نقوش صغيرة وُجِدَتْ في نفس المكان، وكذلك نقوش على صخور جزيرة «ساي» و«تنحور» وأخيرًا ثلاثة نقوش عند الشلال الأول. ونجد كذلك أن الأسرى الذين أُسِرُوا في هذه الحروب قد صُوِّرُوا في مقبرة العظيم «إنني». وقد جاء ذكر بناء الحصون التي أقامها هذا الملك وأعمال أخرى له قام بها في بلاد النوبة في نقوش من عهد الملك «تحتمس الثاني».[١٢] (١٥٣٠–١٥٢٠ق.م.).

والوصف الوحيد الذي وصل إلينا عن حروب هذا الفرعون هو ما قَصَّهُ علينا «أحمس» بن «إبانا» فاستمع لما جاء فيه: «لقد رافقت ملك الوجه القبلي والوجه البحري. «عا خبر كارع» المرحوم عندما زحف إلى «خنت-حن-نفر» ليعاقب الثورة التي قامت في البلاد الأجنبية وليصدَّ طغيان البلاد الأجنبية (أو ليصدَّ هجمات البلاد الأجنبية أي الصحراء). ولقد كنت شجاعًا أمامه على الماء الرديء (الدوامات) عندما كان يجر الأسطول على مياه الشلال، وكنت قد نُصِّبْتُ رئيسًا أعلى للبحارة. وقد عمل جلالته له الحياة والسلطان والصحة ... وقد سار جلالته من أجل ذلك غاضبًا كالفهد، وقد فَوَّقَ جلالته سهمه الأول فسكن في جسم عدوه، وقد فقد هذا العدو شجاعته أمام صِلِّهِ، ووقعت هناك مذبحة في لحظة عين وسيق قومه أسرى، ثم سار جلالته منحدرًا في النيل عندما أصبحت كل الأراضي في قبضته. أما هذا النوبي فقد عُلِّقَ مشنوقًا منكسًا في مقدمة سفينة جلالة الملك وأرسى سفنه في الكرنك».

ويدل ما جاء في هذا المتن على أن سبب هذه الحملة كانت ثورة في بلاد النوبة، غير أنه من المشكوك فيه أن يكون مدلول هذا القول قد حدث حرفيًّا، ولكن المظنون هو أن القبائل التي كانت تسكن جنوب الشلال الثاني وهو الإقليم الذي كان قد فُتِحَ منذ زمن قصير كانت تقوم بهجمات مُهَدِّدَةٍ للأمن هناك، ولدينا عامل آخر وهو رغبة المصريين في أن تصبح البلاد الجنوبية التي كانوا يتعاملون معها في عهد الدولة الوسطى في قبضة أيديهم ليستولوا منها على المواد الغفل التي تُنْتِجُهَا بلاد السودان. وقد وقعت هذه الحملة في السنة الثانية من عهد «تحتمس الأول»، وقد عُثِرَ في جزيرة «ساي» على نقش مُدَوَّنٍ على الصخر مُؤَرَّخٍ بهذا التاريخ وهو «السنة الثانية من عهد «تحتمس الأوَّل»»، وكذلك نقش آخر في «تنجور» مُؤَرَّخٌ بنفس السنة جاء فيه: «صعد جلالته في النيل ليهزم الكوشي الخاسئ عندما كان كاتب الجيش «أحمس» يُحصي السفن»؛ ومن ثَمَّ نفهم أن السفن كانت تجري في الشَّلَّالَيْنِ الثاني والثالث أي فيما كان يسميه «أحمس» ابن «إبانا» «تاتبعيت» (ربما كان يقصد بذلك الانحناء العظيم الذي عند «أكور»؟). وإذا كان ما جاء على نقش في «تنجور» — وقراءته ليست مُؤَكَّدَةً — مُؤَرَّخًا بالشهر الأول من فصل الصيف السنة الثانية من عهد «تحتمس الأول» يُعْتَبَرُ صحيحًا[١٣] فإن عبور الشلال كان يحدث في شهري مايو/أيار ويونيو/حزيران، إذ في هذا الوقت من السنة تبتدئ زيادة النيل وعندئذٍ تكون لدى المهاجم فترة مبكرة للهجوم فيمكنه أن يبقى على اليابسة بقدر المستطاع قبل أن تعوق الدوامات النيلية المتزايدة عودة السفن إلى أوطانها. ونعرف من

النقوش أن الحملة وصلت حتى «تومبوس» و«أرفو» وأنها كانت موجودة هناك حوالي أكتوبر/تشرين الأول، ومن جهة أخرى ليس لدنا ما يبرر القول بأن «تحتمس الأول» قد وصل إلى «نباتا». ويرجع أقدم أثر وُجِدَ في «كاوا»[١٤] إلى عهد الفرعون «أمنحتب الثالث»؛ وَوُجِدَتْ في «نباتا» الواقعة في جبل «برقل» لوحة «لتحتمس الثالث»[١٥] وهي على وجه التأكيد أول نقش وُجِدَ من عهد الأسرة الثامنة عشرة في هذه الجهة.

ولكن نعلم من قبل أن فتح وادي «كرمة» كان يعني خطوة فسيحة للأمام في بناء الإمبراطورية المصرية في أفريقيا، وبخاصة لأن ذلك الفتح قد تَغَلَّبَ على كل الصعوبات الحربية مما مهد الطريق للذين أتَوا بعد من الفاتحين وساروا في فتوحهم حتى الشلال الرابع. والواقع أن خط الدفاع الطبعي لأهل الجنوب قد اخْتُرِقَ وقد ذكر ما يفيد هذا المعنى تمامًا «تحتمس الأول» في نقوش «تومبوس»: «إنه هو الذي فتح الوديان وهي التي لم يعرفها الأجداد، ولم يرها حامل التاج المزدوج من قبل، وحدوده الجنوبية قد وصلت مباشرة حتى هذه الأرض».[١٦] والواقع أن فتح منطقة «كرمة» كان له أهمية سياسية عظيمة لأننا نعرف من حفائر «ريزنر» أن المستعمرة الأهلية لمجموعة C في «كرمة» قد امتدت حتى الأسرة الثامنة عشرة، وأخلاف أمراء الدولة الوسطى في «كرمة» هم الذين أصبحوا أعداء «تحتمس الأول»، ولذلك فإن فتح هذا الإقليم يُعَدُّ ضربة في صميم نواة دائرة الثقافة السودانية.

ومما تنبغي ملاحظته هنا أن الأسرى الذين استولى عليهم «تحتمس» في هذه الحملة وأحضرهم إلى مصر كما نشاهد ذلك في الصور التي بقيت لنا في مقبرة «إنني» لا تدل هيئتهم على أنهم زنوج بل هم من الجنس الْحَامِيِّ،[١٧] وهذا يتفق مع الرأي القائل بأن مستعمرة «كرمة» قد تغلب عليها «تحتمس الأول»، لأنه قد وجد في مقابرها العظيمة طراز من صور الزنوج غير أنهم ليسوا السائدين هناك.[١٨] والواقع أن تصوير الزنوج لم يظهر في الفن المصري بكثرة إلا فيما بعد، وقد يُفَسَّرُ ذلك بأن الحملات التي قام بها أخلاف «تحتمس الأول» قد أوغلت في بلاد الزنوج أكثر من أن الزنوج قد زحفوا نحو الشمال، وكذلك يلحظ أن اتجاه الزي الشائع في الفن المصري كان يميل إلى رسم الزنوج بتقاطيعهم الخاصة.

ولم تذكر لنا النقوش على وجه التأكيد إلا حملة واحدة قام بها «تحتمس الأول» على بلاد النوبة وهي التي أُرِّخَتْ بالسنة الثانية كما ذكرنا من قبل، غير أن الأستاذ «زيته» قد سلم بوجود حملة أخرى مستنبطًا ذلك من رسم هذا الملك في نقشين صغيرين في

«تومبوس»[١٩] وقد بني ذلك من إضافة عبارة: «الذي يظهر مثل «رع» لاسمه». وهذه العبارة لم تظهر قط في نقوش في السنين الأربع الأولى من حكمه، وعلى ذلك فإن هذا النقش كان قد كُتِبَ بعد السنة الرابعة، ومن ثَمَّ لا يجوز لنا أن نستخلص من ذلك قيام حملة ثانية، لأن هذا النقش أولًا يحتوي على نعوت عادية للملك مثل الذي يضرب «كوش»؛ وثانيًا فإنه من الجائز كذلك أن نقش «تومبوس» الكبير الذي أُرِّخَ بالسنة الثانية وقد جاء فيه نهر ذكر نهر الفرات الذي جاء ذكره في حملة حَدَثَتْ فيما بعدُ لم يكن قد كتب في هذا التاريخ الذي أُرِّخَ به. ومن الواضح أن النقوش التي تُدَوَّنُ بعد الموقعة لم تكن لتسجل الغزوات العابرة بالنسبة لأرض العدو بل كانت خاصة باستعمار الأرض المقهورة.

وليس لدينا ما يدل على أن «تحتمس الأول» قد أقام في «تومبوس» حصنًا عند الحدود الجنوبية الجديدة ليكون مركزًا لجنود الحامية، إذ لم يُعْثَرْ على آثار أكيدة في منطقة «تومبوس» تثبت ذلك. ومن ثَمَّ لا ينبغي أن نستخلص شيئًا من هذا القبيل من السطر العاشر من لوحة «تومبوس»، إذ إن ما جاء فيها لا يخرج عن كونه استعارة تشبيهية وهي «أنه حصن لكل جيشه». ونجد في نقش لخلفه «تحتمس الثاني» عبارة صريحة تدل على أن «تحتمس الأول» أقام حصنًا في بلاد النوبة على الأقل في المنطقة التي فُتِحَتْ جديدًا إذ يقول: «وقد كان الثوار على وشك أن يسرقوا المصريين؛ وذهبوا للاستيلاء على قطعان الماشية التي كانت خلف الحصون التي أقامها والدكم في حملته المظفرة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تحتمس الأول» عاش مخلدًا، ليصد البلاد الأجنبية الثائرة».[٢٠] والحصن المنسوب هنا «لتحتمس الأول» ليس من السهل تحديد مكانه على وجه التأكيد، إذ لا توجد هناك مبانٍ تدل على ذلك، ومن المحتمل أنه في عهده أقيم حصن في جزيرة «ساي» لأنه قيل في نقش بناء مُؤَرَّخٌ بالسنة الخامسة والعشرين من حكم «تحتمس الثالث» إن معبدًا قديمًا مقامًا من اللَّبِنَاتِ قد بُنِيَ بدلًا منه آخر بالحجر، ولكن اسم «حتشبسوت» ذكر كذلك في جزيرة «ساي»، وعلى ذلك يرجع الموقع القديم إلى عهدها.[٢١]

هذا وقد قُسِّمَتْ بلاد النوبة في عهد «تحتمس الأول» خمسة أقسام تحت إدارة أمراء نوبيين كان لهم نصيب[٢٢] في إدارة مقاطعات البلاد. والظاهر أن الملك قد حط رحاله بعد الحملة الأولى بسنة في بلاد النوبة: «ففي اليوم الثاني والعشرين من الشهر الأول من فصل الصيف السنة الثالثة مر (الملك) في الشلال الأول عندما هزم «كوش» الخاسئة

وقد أمر بحفر قناة هناك وجدها مملوءة بالحجارة ولم يكن في مقدور أية سفينة أن تسير فيها وقد أقلع فيها لأن قلبه كان فرحًا بعد أن ذبح عدوه». وهذا الإصلاح في طريق التجارة في الشلال الأول لم يكن بالشيء الجديد إذ نعرف أنه حدث منذ الدولة الوسطى. والآن لما أصبح من الضروري أن تستولي مصر على الإدارة في بلاد النوبة السفلى وبلاد كوش صار من الأمور الهامة حل مسألة المرور لضمان مرور السلع الآتية من السودان.

(٤) «تحتمس الثاني» ١٥٢٠–١٤٨٤ق.م. (ومعه حتشبسوت)

وفي السنة الأولى من حكم «تحتمس الثاني» قامت في شمالي بلاد كوش ثورة، وكان الإقليم النوبي قد أصبح فعلا يشمل «كوش» و«واوات» وبذلك كان المقصود ببلاد «كوش» الإقليم الواقع جنوب الشلال الثاني، ومن جهة أخرى لم تكن هذه الثورة كما كان المنتظر في الإقليم المفتوح حديثًا جنوبي «سمنة» بل شبت في بلاد النوبة السفلى. وتتلخص في أن أحد الأمراء النوبيين قد حاول بسبب الضعف الذي أصاب البلاد من جراء تَغَيُّرِ المتربِّع على العرش أن يفيد من هذه الفرصة ويحرر البلاد نفسها من النير المصري. ومن المحتمل أن أطماع القائم بهذه الثورة لم تذهب إلى هذا الحد، وأنه أراد بثورته هذه النهبَ لإثراء نفسه وحسب. ومن جهة أخرى يقول «زيته» إن هذه الثورة لها ارتباط وثيق بتغيُّر الجالس على عرش ملك مصر[٢٣] وأن «حتشبسوت» قد لعبت دورًا في هذه الثورة، وبخاصة إذا كانت كما يقال قد وقفت في وجه زوجها «تحتمس الثاني» فعلًا وعاملته معاملة الأسير، وإذا كان هذا صحيحًا كان لدينا لذلك مثيل في التاريخ المصري، وأعني المؤامرة التي حيكت ضد «رعمسيس الثالث». وقد كانت بلاد النوبة عاملًا قويًّا في الدسائس السياسية الداخلية التي حيكت ضده.[٢٤] على أن نظرية الأستاذ «زيته» فيها شك، إذ كان يتوقف كل الموضوع على فهم الارتباك الذي حدث بعد حكم «تحتمس الأول» وهو الارتباك الخاص بمن يتولى العرش بعده. وهذه المسألة المعقدة لا يمكن الخوض فيها هنا أكثر مما تحدثنا به عنها في عهد حكم «حتشبسوت»[٢٥] وكل ما يمكن أن يقال هنا هو اتِّبَاعُ الرأي الذي أدلى به المؤرخ «أجرتون» ويشتمل على نظرية سهلة بسيطة الفهم. وسنترك جانبًا نظرية «زيته» وكذلك نضرب صفحًا عن علاقة ارتباك تولية عرش الملك بالثورة النوبية كما ذكرها «زيته» إذ فيها شك كبير.[٢٦]

هذا ولا نعرف إلى أي حد ذهب الأمير النوبي الثائر في ثورته للتحرر من النير المصري. ولكنا نعرف أن الثورة قد أُخْمِدَتْ وعاد النظام إلى نصابه. وتدل النقوش

صراحة على أن الملك «تحتمس الثاني» لم يرافق هذه الحملة بنفسه كما جرت العادة مع ملوك مصر في حروبهم. ونفهم من منطوق المتن أن الهزيمة كانت دامية والانتقام من الثائرين كان وحشيًّا.[٢٧]

(٥) حتشبسوت

وقد مرت مدة طويلة بعد هذه الحملة التأديبية التي قام بها «تحتمس الثاني» قبل أن نسمع بحروب عظيمة في بلاد النوبة. وتدل الأحوال على أنه في عهد الملكة «حتشبسوت» التي تولت العرش بعد زوجها «تحتمس الثاني» قد سادت العلاقات السلمية في كل أرجاء الإمبراطورية المصرية ولدينا منظر في الدير البحري «نشاهد فيه الإله «ددون» إله بلاد النوبة يقود البلاد الجنوبية (خنت-حن-نفر) وكذلك يقود في أسفل بلاد «ميو» إلى الملكة بوصفها بلادًا (تابعة)، غير أن هذا المنظر لا يمكن أن يعد دليلًا تاريخيًّا لحملة قامت بها الملكة على بلاد النوبة[٢٨] كما ظن ذلك الأثري «نافيل». يُضاف إلى ذلك النقش الْمُهَشَّمُ الذي عُثِرَ عليه في قبر «سنموت» وهو الذي يتحدث فيه عن أعمال حربية في بلاد النوبة لا يمكن أن نستخلص منه برهانًا قاطعًا عن حروب قامت في هذه البلاد في عهد «حتشبسوت»، ومن الْمُحْتَمَلِ أن هذا النقش كان خاصًّا بحياة «سنموت» قبل عهد الملكة «حتشبسوت»، وكذلك يمكن أن تكون الفقرة التي جاءت في لوحة «تحوتي» التي يتحدث[٢٩] فيها عن فحص غنائم الملك في «كوش» (؟) لا تمثل هنا إلا مجرد تعابير تقليدية. وفضلًا عن ذلك فإن الفقرة الفاصلة التي يُحْتَمَلُ أن تكون قد ذُكِرَتْ فيها «كوش» في هذا النقش وُجِدَتْ مهشمة جدًّا.

وكذلك عندما يقول الموظف «نبو حوي» في ترجمته: «لقد أقصيتُ العدو الذي ثار على جلالته»[٣٠] فإنه لم يستعمل هذا التعبير ليدل بأية حال من الأحوال على الموقف السياسي في السودان. وعلى أية حال نلحظ من النقوش العدة التي اقْتُبِسَتْ هنا أن هذا المتن هو الوحيد الذي قد يشير إلى حرب ومشروعات ضخمة لا إبهام فيها؛ فمن المحتمل أن هذه الحرب كان المقصود منها مناوشات مع بدو الصحراء. هذا ولا تدل الحفائر التي عُمِلَتْ في السودان على شيء مؤكد عن مد نفوذ مصر في السودان في عهد «حتشبسوت»، وكذلك لم يعثر حتى الآن على لوحات أثرية من هذا العهد جنوبي جزيرة «أرقو»، ومن جهة أخرى يمكن اعتبار وجود بعض أشكال زنوج في مناظر لأهالي «ثميو» وهم يقدمون الجزية في معبد «الدير البحري» بمثابة رمز على علاقة ودية مع الأقطار الجنوبية.

وقد أخبرني الأستاذ لبيب حبشي أنه يوجد في الجهة البحرية الشرقية من جبل تاجوج بجزيرة «سهيل» نقش للأمير الحاكم رئيس المالية «تي» يتكلم فيه عن الملكة حتشبسوت وكيف أنها هاجمت بلاد النوبة وانتصرت عليها. وهذا يُعَدُّ أول نص صريح عن حرب حقيقية للملكة حتشبسوت وكان «تي» هذا يحمل فضلًا عن ذلك لقب المسجل للغنائم.

(٦) تحتمس الثالث (١٥٠٤–١٤٥٠ق.م.)

وكان أول ما قام به «تحتمس الثالث» بعد نهاية مشاريعه الحربية الضخمة في آسيا أنه سار على رأس حملة إلى السودان. ويحدثنا نقش عند الشلال الثالث مُؤَرَّخٌ بالسنة الخامسة من حكمه بنفس الكلمات التي ذُكِرَتْ في نقش «تحتمس الأول» وهي أنه: «حفر قناة (أي القناة التي عند الشلال الأول) لأنه وجدها مملوءة بالأحجار» وبعد ذلك يقول إنه «قد ساح فيها فَرِحَ القلب بعد أن ذبح عدوه واسم هذه القناة هو «فتحت الطريق الجميلة لتحتمس الثالث»». هذا وكان لزامًا على صيادي السمك في «إلفتنين» أن يكروها سنويًّا.

ونجد في تواريخ «تحتمس الثالث» أن الجزية من «كوش» و«واوات» منذ ٣١ / ٣٢ من حكمة كانت تُدْفَعُ لمصر وفضلًا عن ذلك نقش هذا الفرعون على بوابته بمعبد «الكرنك» قوائم طويلة بأسماء أهالي الجنوب الذين انتصر عليهم[٣١] من «أونتيو–سيتي» و«خنت حن–نفر» وهم الذين ذبحهم جلالته عندما قام بمذبحة عظيمة فيهم حتى أصبح عددهم لا يُحْصَى، و«كل أهلها قد اقتيدوا إلى «طيبة» أسرى ليقوموا بالعمل اللازم لبيت والده «آمون رع» رب «الكرنك»، وكل بلد أجنبي أصبح رعية لجلالته كما أراد والده «آمون».» هذا ونعلم من اللوحة التي عَثَرَ عليها «ريزنر» في جبل «برقل» للملك «تحتمس الثالث» أن النفوذ المصري كان فعلًا في السنة السابعة والأربعين من حكم هذا الفرعون يمتد إلى هذه الجهة الواقعة تحت الشلال الرابع. ولا نزاع في أن هذا الأثر لم يُؤْتَ به إلى جبل «برقل» كما يدل على ذلك متن النقش نفسه، وكذلك المنظر الذي في أعلى المتن إذ نجد فيه الملك يقدم «لآمون رع» رب الجبل المقدس (أي جبل برقل) الماء والخمر. وفي السطر الثالث والثلاثين من المتن يقول في خطاب له: «إن الناس (رمث أي المصريين) الذين في الأرض الجنوبية وهم الذين في الجبل المقدس الذي يُسَمَّى «عرش الأرضين» كانوا تحت حكم الناس (أي المصريين) عندما لم تكن معروفة بعد»، ومن ثَمَّ

نفهم أن اللوحة منذ كُتِبَتْ، كانت موجودة في جبل «برقل»؛ مما يدل على أن العلاقة بين مصر والسودان كانت من الأهمية بمكان. ونحن نعلم أن الحدود الجنوبية حتى «قرن الأرض» قد وصلت إلى هذه الجهة أو كما جاء في فقرة أخرى: «لقد وصل خوف جلالته حتى الأرض الجنوبية» فالتعبير الأول قد استعمله «تحتمس الأول» في صورة مشابهة في لوحة الحدود التي أقامها في «تومبوس» وكذلك في «برقل» قيل إن الحدود تقع بالقرب من هذا المكان، وهذا يتفق مع الوثائق الأثرية لأننا لم نجد جنوبًا أي أثر في مكانه الأصلي من عهد الأسرة الثامنة عشرة حتى الأسرة العشرين يثبت ذلك. هذا بالإضافة إلى أنه لدينا متن «من جبل برقل» يحدثنا عن وجود حصن، وكذلك عن وجود معبد على ما يُظَنُّ فنقرأ في إهداء اللوحة ما يأتي: لقد عملها بمثابة أثره لوالده «آمون رع» رب عروش الأرضين (الكرنك أو جبل برقل) في الحصن المُسَمَّى «شمع خاستيو» عندما اتخذه مأوى أبديًّا … «ولم ينسب أي معبد من المعابد التي كُشِفَ عنها على وجه التأكيد للملك «تحتمس الثالث». ويقول «ريزنر» إنه من الجائز أن هذا الكلام يشير إلى المعبد الصغير (B 300) وإن تحتمس الثالث هو الذي أقامه. والواقع أن المعبد الأول قد أُرِّخَ بصورة قاطعة بحكم «تحتمس الرابع».[٣٢] والحصن المذكور هنا لا يوجد فيه أي أثر يدل على مُؤَسِّسِهِ. ولدينا في النقوش وصف عن التغلب على هذه الأرض من «أرقو نحو جبل برقل» غير أنه مستتر،[٣٣] ولكن على الرغم من ذلك فإن هذا التوسع في ممتلكات مصر ينسب إلى «تحتمس الثالث». وليس لدينا دليل على ذلك لأن المادة المقتبسة لا ترتكز على أساس تاريخي متين، ولكن مع ذلك نعرف أن الملك أو موظفيه في عام سبعة وأربعين من حكم «تحتمس الثالث» كانوا يقومون بنشاط في جبل برقل، وإن هذا الملك في العام الخمسين من حكمه قد عاد من رحلته في الجنوب إلى مصر، وهذا الرأي هو الطبعي جدًّا، وفضلًا عن ذلك نجد أن الآثار التي كشف عنها حتى الآن تتفق مع ذلك. ومن ثَمَّ نرى أن الإمبراطورية المصرية قد أخذت صورتها الطبعية في الجنوب في عهد هذا العاهل. وفي هذا المكان الذي وصلت إليه الحدود كان الشلال الرابع يُعَدُّ نقطة الحدود التي كان من السهل حمايتها كما كان من غير الممكن التغلب عليها أيضًا.

وبذلك بقيت مستعمرة «نباتا» الواقعة بالقرب من جبل «برقل» مدة مئة سنة تقريبًا مركز الحدود، ولم يمد الفراعنة ملكهم بعد هذه النقطة قط، وقد أصبحت محط تجارة ولعبت دورًا هامًّا حيث كانت المحاصيل الجنوبية تُصَدَّرُ منها إلى الإمبراطورية المصرية.[٣٤]

(٧) أمنحتب الثاني (١٤٥٠ق.م.)

كان آخر من وَسَّعَ رقعة البلاد المصرية وثَبَّتَ حدودها من الجهة الجنوبية هو الفرعون «تحتمس الثالث»، وبذلك يُعَدُّ عصره نهاية الفتح السياسي في هذه الجهة، ولذلك نجد أن الحملات التي قام بها الملوك الذين خلفوه لم تكن حملات لِمَدِّ حدود مصر بل كانت حملات تأديبية في وادي النيل على بدو الصحراء الذين كان لا غرض لهم إلا النهب والسلب من الأهالي الذين أخذوا يتمصرون بازدياد على مر الأيام.

وأول ملك قُرِنَ اسمه ببلاد السودان بعد «تحتمس الثالث» هو ابنه «أمنحتب الثاني»، غير أنه ليست لدينا نقوش أو مناظر تحدثنا عن قيامه بمشاريع حربية في هذه البلاد، وكل ما نعرفه عنه هو ما جاء في نقشين موحدين من حيث الألفاظ[٣٥] فقد جاء فيهما أن الملك بعد أن عاد من حملة في آسيا قتل سبعة أمراء[٣٦] من أهل «نخسي» وعلق ستة منهم على جدران «طيبة» في حين أن السابع قد أُرْسِلَ إلى «نباتا» في «تاستي» (بلاد النوبة) وعُلِّقَ جسمه على جدرانها «لأجل أن يظهر انتصارات جلالته أبد الآبدين في كل الأراضي وفي ممالك أرض السود، ومنذ ذلك استولى على أهل الجنوب وغل أهل الشمال».

وقد قص علينا في نقش على قطعة خزف أحد موظفي الملك ويُدْعَى «أمنحتب»[٣٧] أنه أقام لوحة في النهرين وأخرى في «كاراي»، وعلى ذلك فإن الأخيرة قد نُصبت في «نباتا» ومن ثَمَّ لا بد أن يبحث الإنسان عن «كاراي» في أقصى الجنوب. وهذه اللوحة الأخيرة لم يُعْثَرْ عليها بعد في جبل «برقل» ولكن عثر الأثري «ريزنر» على أثر آخر من هذا العصر في الحفائر التي قام بها في هذه الجهة.[٣٨] هذا وقد وُجِدَ لهذا الملك تمثالان صغيران في «بن نجا» (وادي بانجع) الواقعة بين «الخرطوم» و«مروي»[٣٩] ولا شك في أنهما قد نُقِلَا إلى هذا المكان، وعلى ذلك ليس هناك أي أساس للرأي القائل إن سلطان مصر قد وصل في عهد «أمنحتب الثاني» إلى ما بعد الشلال الرابع.[٤٠]

وقد ترك «أمنحتب الثاني» آثارًا عدة في بلاد النوبة.[٤١]

(٨) «تحتمس الرابع»

ولدينا من عهد الملك «تحتمس الرابع» وصف لحملة قام بها هذا الملك على بدو الصحراء.[٤٢] ولكن مما يُؤْسَفُ له أن تلك النقوش التي عُثِرَ عليها في «كونوسو» قد وصلت إلينا رديئة الحفظ ولا يمكن فهمها فهمًا تامًّا[٤٣] وقد جاء فيها بعد ذكر اسم

الملك ما يأتي: «السنة الثامنة الشهر الثالث من فصل الزرع اليوم الأول عندما كان الملك في «طيبة» ... وقدم لوالده «آمون» ... جاء رجل وقال لجلالته: «لقد نزل إلينا نوبي (من الهضبة الصحراوية؟) في مكان ما في «واوات» وأنه دبر فتنة على مصر وجمع معه كل أجانب مصر المهاجرين والثائرين من الأراضي الأخرى». وقد ذهب الملك إلى معبد «آمون» ودعا والده «آمون» أن يُسْدِيَهُ النصح والمساعدة، وبعد ذلك سافر نحو الجنوب ليضرب العدو في بلاد النوبة ...». (ويأتي بعد ذلك قطعة مهشمة) «وكانت العربات في صفوف بجانبه وكانت جنوده المظفرة معًا وبجانبهم المجندون، والأسطول المجهز كان في ركابه، وقد سافر جلالته نحو الجنوب مثل النجم الجبار (الجوزاء Orion) وقد أعمى أهل الجنوب (سكان الوجه القبلي) جَمَالُهُ، وهَلَّلَ الناس له وفرحت النسوة بالرسالة.[٤٤] وكل آلهة الوجه القبلي ساعدوه». وهكذا يتبع الوصف الخاص بالقضاء على العدو: «وقد اخترق الصحراء الشرقية لأنه سار في الطريق كأنه الفهد ... وقد وجد كل الأعداء النوبيين مختبئين في وديانهم التي لا يعرفها الإنسان». وما يأتي بعد ذلك من المتن قد هُشِّمَ ولذلك لم نفهم منه شيئًا وقد تلف نحو اثني عشر سطرًا تلفًا بالغًا لدرجة أنها على وجه عام لم تُنْشَرْ، ولكن ما تبقى منها يكفي للدلالة على أن الموضوع ينحصر في أن المتن كان الغرض منه التحدث عن حملة تأديبية على بدو الصحراء الشرقية.

ولدينا منظر خاص لنفس الحملة في نفس المكان[٤٥] فنشاهد فيه الملك وهو واقف أمام الإلهين «ددون» إله «تاستي» والإله «حمن» سيد الصحراء الغربية[٤٦] يضرب الأعداء، وقد أُرِّخَ بنفس التاريخ السابق، وكذلك يُلْحَظُ أن المنظر الذي صُوِّرَ على الجدار الداخلي لصندوق عربة «تحتمس الرابع» يمثل هذه الموقعة[٤٧] ففي الجزء الأعلى نشاهد الملك في صورة «بولهول» يدوس ثلاثة من النوبيين، وفي أسفل من ذلك صورة ستة أناس أجانب عاديين نُقِشَ معهم اسم الأعداء المغلوبين وهم أهل «كوش» و«كاراي»، و«ميو»، و«أرم»، و«جورسس»، و«ترك». وملابسهم غريبة بالنسبة لأهل الجنوب، إذ يرتدي كل منهم قميصًا ذا ألوان، و(شالًا) على أحد الكتفين، وقرطًا ضخمًا وأَسْوِرَةَ معصم. ويُلْحَظُ أن بعضهم زنجي خالص. والأراضي التي ذُكِرَتْ هنا في أغلب الظن تقع في السودان (ولا بد أن تكون «كاراي» بالقرب من «نباتا»). وفي تواريخ «تحتمس الثالث» نجد أن جزية النوبة مقسمة بين «كوش» و«واوات». و«أرم» تعد جزءًا من بلاد «كوش» وهي بلاد جزيتها من ضمن جزية «كوش».[٤٨] ويُلْحَظُ أن «ترك» و«أرم» يُذْكَرَانِ معًا ولا تقع الواحدة منهما بعيدة عن الأخرى، ومن المشكوك فيه أن «أرم» هي «ألم» بلغة «الجالا».[٤٩]

ومما يشير إلى عدم أهمية هذه الحملة من الناحية السياسية وعلى وجه عام إلى السياسة السلمية في الجنوب أن هذا المنظر قد وُضِعَ في الخلف بالنسبة لصور الحملة الأسيوية. ولدينا صورة مشابهة كذلك في المنظر الذي على الجزء الداخلي لكرسي عُثِرَ عليه في مقبرة «تحتمس الرابع» ولم يَبْقَ منه إلا قطعة؛[٥٠] وخلافًا لذلك لا نعلم إلا القليل عن هذه الحملة، فلدينا نقش من غربي «طيبة» يبرهن على أن الأسرى قد سِيقُوا إلى مستعمرة.[٥١] ويقول كاهن أوَّل للإله «أنوريس» إنه رافق الملك من «النهرين» حتى «كاراي»،[٥٢] وكذلك لدينا نقش من «أمدا»[٥٣] يحتوي بعض عبارات قد لا تمت بمعلومات عن حملة حربية.

(٩) أمنحتب الثالث (١٤٠٥–١٣٧٠ق.م.)

تدل الآثار المكشوفة حتى الآن على أن عهد الملك «أمنحتب الثالث» كان كله عهد سلام ومهادنة ولم تَكَدْ تحدث فيه حروب. ففي ممتلكاته الأسيوية لم يقم «أمنحتب» بأي مشروع حربي، على الرغم من أن العلاقات بينه وبين هذه الممتلكات المصرية تقوم على ما له من حاميات في مختلف جهات المستعمرات المصرية هناك؛ أما في «كوش» فلم يقم إلا بحملة واحدة.[٥٤] والمصادر التي استقيت منها أخبار هذه الحملة هي: لوحتان ملكيتان على الصخور في الطريق التي بين «أسوان» و«فيلة»،[٥٥] وكذلك لوحة لموظف،[٥٦] وكذلك لوحة «كونوسو».[٥٧] وتاريخ هذه الحملة كان في «السنة الخامسة، الشهر الثالث من فصل الفيضان، اليوم الثاني، عندما كان يُحْتَفَلُ بيوم عيد تتويج الملك وفي الحال قام بحملته المظفرة». وفي خلال السنة نفسها رجع النظام إلى نصابه.

أما لوحة «كونوسو» التي تتحدث عن عودة الملك بعدما انتصر في حملته الأولى الْمُظَفَّرَةِ في بلاد «كوش» الخاسئة فإنها تُؤَرَّخُ دائمًا بالسنة الخامسة.

ومن جهة أخرى تحتوى لوحة «سمنة» على الوصف المسهب للحملة وبدايتها مفقودة، ولذلك لا نعلم ماذا ذُكِرَ في السطر الثالث عن المقصود «بحصاد العدو» في «ابهت»». ويأتي بعد ذلك ذكر استعراض جيش الفرعون الذي كان تحت إدارة ابن الملك صاحب «كوش». فقد اسْتُعْرِضَتْ جنود من قبائل من حصن «كوبان» وحصن «تاراي». وقد بدأت الموقعة ولم يُفْلِتْ رجل ولا امرأة، وكانت «ابهت» فخورة لأنها كانت منتفخة الصدر، ولكن هذا السيد قتلهم بنظرته المتوحشة الأسدية كما أمره بذلك والده «آمون

الفاخر». وفي ختام المتن تأتي قائمة الأسرى الذين غنمهم وخطاب قصير لنائب الملك «مر موسى».

ويلحظ أنه من الصعب تحديد مكان حصن «تاراي» من المتن، ولا نعلم إذا كان يقع على مسافة ٣٢ «أترو»[٥٨] شمال أو جنوب «كوبان» هذا فضلًا عن أن طول المقياس «أترو» ليس معروفًا لدينا. وكذلك لا يُلْقِي هذا المتن ضوءًا كبيرًا على موقع «ابهت»، ولكن على حسب نقوش أخرى نفهم أن بدو صحراء النوبة كانوا هم العدو الرئيسي؛ ففي نقوش «فيلة-أسوان» قيل عنهم «إن عين الملك كانت مثل عين الأسد المتوحش، وهو الذي أنشب مخالبه في «كوش» الخاسئة، وهو الذي داس تحت قدميه عظماءهم في وديانهم حتى إنهم تخبطوا في دمائهم ...».

ويقول الملك في لوحة «كونوسو» (من السطر السادس): «إنه وضع حدوده حيث أراد حتى أعمدة السماء الأربعة ولوحة انتصاره إلى ما بعد «كيحو-حر» ويعني بذلك هنا حتى نهاية الشمال[٥٩] ولم يقم بعمل مماثل لذلك ملك مصري غير جلالته». وعلى حسب النقوش التي أضيفت للمنظر ذُكِرَتْ «كوش» الخاسئة و«أرم» و«ترك» ثم «ورشن (؟)». ولا نعلم تمامًا إذا كانت كلمة كوش قد أُرِيدَ بها معناها الضيق أي إنها تعني الأرض التي جنوب الشلال الثاني أم أريد بها كل بلاد النوبة، وعلى أية حال لا بد أن نبحث عن كل من موقع «أرم» و«ترك» في الجزء الجنوبي من إقليم بلاد النوبة. على أن ما كان يبديه الملك هنا من نشاط يظهر من المؤسسات التي أقامها في «صلب» و«سدنجا» ومن المحتمل كذلك ما وجد له من أعمال في «كاوا»، وكذلك نعلم من نقش خاص بمبانٍ[٦٠] أن الملك أحضر ذهبًا من «كاراي» إلى مصر «مصر» في حملته الأولى المظفرة عندما هُزِمَتْ «كوش» الخاسئة. على أن امتداد أعماله الحربية بعيدًا إلى هذا الحد لدليل على أن الثورة قد أنشبت أظفارها في كل إقليم «ابهت» في الشمال حتى «نباتا» في الجنوب وهو ما لا يكاد يسلم به، بل الغالب أن الملك بهذه المناسبة قد قام بتفتيش في هذا الإقليم.

وقد كتب «برستد» عن نقش وجد في «بوبسطة»[٦١] من عهد «أمنحتب الثالث» وجد فيه دليلًا عن حملة على هذه الأراضي الواقعة في الجنوب الأقصى بعد «كاراي» على النيل (فوق «العطبرة») وكما رأى «برستد» بحق أن هذه اللوحة كُتِبَتْ في عهد الدولة الحديثة. والبرهان الرئيسي لدي «برستد» أن النقش لا بد قد أُضِيفَ في عهد «أمنحتب الثالث». وهذه إشارة لم تُلْحَظْ حتى الآن عن عيد تتويج الملك وهي ذات أهمية بالنسبة لذكر يوم تتويج الملك كما جاء في لوحة «فيلة-أسوان».

والفقرة التي يقال إنها تحمل هذا المعني تُتَرْجَمُ كما يأتي: «وقمة جبل «حوا» عندما طلع جلالته في الأراضي العالية». وهي كما ترى ليس فيها أية تورية ليوم تتويج هذا الفرعون.[٦٢]

والتاريخ الوحيد للنقش هو الشهير الثالث لفصل الفيضان، وقد وُضِعَ في وسط الوصف الْمُهَشَّمِ للحملة إلى «حوا»، وهو يذكر لنا يوم تتويج الملك في لوحة «فيلة–أسوان» في السنة الخامسة. وهذا التاريخ الذي وُجِدَ في النقش الأخير لا يمكن أن يكون خاصًّا بعودة الحملة بل يُقَدِّمُ لنا تاريخ الزمن — كما في المتون المماثلة لملوك آخرين — الذي وصل فيه خبر قيام الثورة.[٦٣] ولدينا من جهة أخرى نقش آخر من بهين مُؤَرَّخٌ بالسنة الخامسة الشهر الأول من فصل الصيف يُحْتَمَلُ أنه من عهد حكم الملك «أمنحتب الثالث»[٦٤] وعلى ذلك يكون من المحتمل أنه قد نُقِشَ بمناسبة هذه الحملة. وتدل شواهد الأحوال على أن لوحة «فيلة–أسوان» لا تُقَدِّمُ لنا التاريخ الذي وقعت فيه الواقعة كما يُسَلِّمُ بذلك «برستد»؛[٦٥] إذ إن ذلك غير محتمل من أساسه، لأنه لا يُقَدِّمُ لنا وصفًا معينًا للموقعة، بل ما جاء فيه هو في الواقع عبارة عن أوصاف ونعوت. وإذا كان ينبغي لنا أن نعتبر أن تاريخ الثورة قد جاء حقيقة في اليوم الثاني من الشهر الثالث من فصل الفيضان فإنه لا بد أن تكون الثورة قد أُقْمِعَتْ في مدى ثمانية وعشرين يومًا في بلاد النوبة وأن يكون قد تقدم حتى «حوا» كما يقول «برستد» أي بعد الشلال الرابع وهذا غير جائز بل أمر لا يمكن تنفيذه تقريبًا.

وكذلك فإن مؤسسة «حوا» غير معروفة لنا ومن المحتمل أنها هي التي ذُكِرَتْ في قائمة أهل الجنوب التي وضعها «تحتمس الثالث» باسم «حوعت–حريت» (رقم ٨٩)،[٦٦] وهي ليس لها أية صلة ببلاد «بُنت» ويمكن أن تكون واقعة في أقصى الجنوب. وإذا سلمنا بالترتيب الذي وُضِعَ في قائمة أهل الجنوب فإن «حوعت–حريت» من باب أولى يمكن أن تكون واقعة في الصحراء الغربية بين «تحنو» (رقم ٨٨) و«نب نخب» (رقم ٩١) كما جاء في القائمة،[٦٧] وعلى ذلك فإن العبارة: «وقد طلع جلالته من الأرض العليا» تتلاءم مع ذلك.

والواقع أن هذا المتن من الوجهة التاريخية لا يقدم لنا شيئًا يُذْكَرُ، إذ لا يمكننا أن نُؤَرِّخَهُ على وجه التأكيد، كما لا يمكننا أن نعرف شيئًا مؤكدًا عن البلاد التي جاء ذكرها فيه.

(١٠) «أمنحتب الرابع-أخناتون» (١٣٧٠–١٣٥٢ق.م.)

لقد وَجَّهَ «أمنحتب الرابع» كل اهتمامه للمسائل الدينية السياسية الخاصة بمصر، فلم يقم بأية حملة حربية في المستعمرات المصرية الأسيوية حيث كانت الأحوال تدعو لذلك، ولا في الجنوب أيضًا. وفي عهده لم تضعف سلطة الحكومة المركزية في المستعمرات النوبية بأية حال من الأحوال، ولم تخرج أية بقعة من بقاع وادي النيل عن دائرة سلطان البلاط كما يدل على ذلك صراحة ما حدث من محو اسم الإله «آمون» وصور الآلهة في كل أنحاء بلاد الوادي حتى جبل «برقل»، وكذلك فإن اسم نائب الملك في عهد «أمنحتب الرابع» وهو «تحتمس» كان موجودًا حتى الحدود الجنوبية،[٦٨] يُضَافُ إلى ذلك النشاط الذي أظهره هذا الفرعون في البناء والتعمير في الجنوب فإنه يُعَدُّ بمثابة تطور في العلاقات السلمية أكثر من ذي قبل. ففي «سسبي» التي أقام جدار مدينتها يوجد معبد صغير للإله «آتون»،[٦٩] وكذلك نشاهد مناظر في المعبد الكبير وفي معبد «صلب» باسمه[٧٠] وقد وُجِدَ في «سدنجا» جعران باسم هذا الملك، وتدل ظواهر الأحوال على أن بلدة «كاوا» القديمة قد أُسِّسَتْ على ما يظهر في عهد «أمنحتب الثالث»، وقد سُمِّيَتْ أولًا «جم آتون» على ما يُظَنُّ في عهد «أمنحتب الثالث» لا في عهد «أخناتون» ثم سُمِّيَتْ في العهد الكوشي كما سنرى بعد باسم «جم با آتن».[٧١] كل هذا يبرهن بوضوح على أن بلاد النوبة كان يسودها السلام والنظام. وفي الوقت الذي نجد فيه في المستعمرات الأسيوية أن العلاقات السياسية كانت في حالة فوضى تامة فإننا لا نجد في بلاد النوبة أي متن يحدثنا عن حملة حربية ضخمة لقمع أية ثورة هناك، ولدينا له لوحة سيئة الحفظ من هذا العهد عُثِرَ عليها في «بهين»[٧٢] تقول صراحة: «لم توجد أية ثورة في هذا العهد» وكذلك تشمل قطعة أخرى من نفس اللوحة على ما يظهر قائمة جزية أو تعداد غنائم حروب، والنقش مهشم درجة أنه لا يمكن للإنسان أن يستخلص منه شيئًا. وهاك الكلمات التي يمكن قراءتها: «… مذبوح … اكاتيا (اقته) النوبيين أحياء ٩٠ (؟ + ؟) … زوجة ١٢ (؟) فيكون المجموع ١٥٥ (أو ٢٤٥) الذين كانوا تحت إمرته … ٢٢٥ مهرًا (؟) (أو بقرة حلوب) ٣٣١. وابن الملك صاحب كوش المشرف على الأراضي الأجنبية …». فالكلمة الأولى «مذبوح» يمكن أن تشير إلى موقعة حربية أيضًا ما دامت لا تشير إلى جزء من لقب الفرعون. و«اكتيا» تقع في الصحراء شرقي «كوبان» ومن المحتمل أنها ذكرت بمناسبة حملة تأديبية على بدو الصحراء في هذه الجهة، وإنه لمن المهم أن نجد اسم «اكتيا» الذي لا يُذْكَرُ كثيرًا في النقوش قد كُرِّرَ في نقش من نقوش «أمدا»[٧٣] مرة أخرى.

هذا ولا يمكن أن نَعُدَّ صور توريد الجزية من الجنوب بأية حال حملات حربية مُظَفَّرَةً، وهذا ما يجب أن نتبعه في حالة الواردات الآتية من الشمال أيضًا، أما إن الفرعون «أخناتون» لم يقم بأية حملة في آسيا فيدل على ذلك خطابات[٧٤] «تل العمارنة» التي كان يرسلها الأمراء المخلصون يرجون فيها الفرعون أن يرسل جيشًا مصريًّا إلى سوريا وفلسطين لمساعدتهم؛ إذ لم نجد فيها ما يدل قط على إرسال أي جيش لشنِّ حرب.

(١١) حور محب

وفي العهد الذي تلا عهد «أخناتون» نجد أن «حور محب» قد لعب دورًا سياسيًّا عظيمًا، وقد كان في عهد حكم «توت عنخ آمون» هو القائد الحقيقي للسياسة الخارجية والسياسة الداخلية معًا، وقد قبض على زمام الحكم في القطرين عدة سنين. «وقد حضر رجال البلاط منحنين أمام باب القصر وأمراء البلاد الأجنبية من الجنوب والشمال قد أَتَوْا بأيديهم مرفوعة مادحين إياه كأنه إله وكل شيء يطلب عمله كان يعمل على حسب أمره».[٧٥] وقد قام «حور محب» بوصفه قائدًا لحملة حربية على بلاد آسيا كما قام برحلة إلى بلاد النوبة. ويلحظ أن المادة الخاصة بالحكم على الحالة السياسية في بلاد النوبة في ذلك الوقت، والفكرة المنطوية في رحلة «حر محب» إلى النوبة هي في الواقع لا تخرج عن كونها فكرة عابرة.

ونستخلص من منظر في مقبرة «حور محب» التي أقامها في «منف» السلطة المهددة الأركان لحكومة مصر في ذلك الوقت وهي التي نشاهدها مُمَثَّلَةً في ممتلكاتها الأسيوية وما أصابها من ارتباك، وهذه المناظر التي عُثِرَ عليها في نقوش هذه المقبرة هي في الواقع إيضاح مفيد لما جاء في خطابات «تل العمارنة»[٧٦] عن سوء الحال في المستعمرات المصرية فنشاهد في هذا المنظر «أناسًا قد أَتَوْا من كل حدب وصوب من آسيويين ولوبيين يتضرعون إلى الفرعون أن يسل سيفه البتار» فكان إذن لزامًا على الملك أن يقبض بجيشه على زمام الأمام وأن يخرج البلاد من الفوضى إلى النظام. وقد ذكرت هنا بلاد «كوش» في جملة مهشمة وذلك في خطاب «حور محب» إلى الموظفين المصريين وهي: «إن بعض الأجانب الذين لا يعرفون كيف ينبغي عليهم أن يعيشوا قد أتوا … الفرعون مثل ما فعل آباء آبائهم … ويوجد لديكم الفرعون ليحرس حدوده … بضوئه … من بداية الجنوب من «كوش» … وكل أرض قد اجْتُثَّتْ مثل هذه …».

وفضلًا عن ذلك لاحظ الأثري «شيفر» في فقرة المتضرعين للفرعون رسم زنجي وهذا بصرف النظر عن سائس الجواد المصور في هذه الصورة وهو الشخص الذي لم يرسل لحيته. وتدل تقاطيع وجهه على أنه ليس بزنجي وليس فيه من الملامح ما يدل على أنه جنوبي الأصل، إذ لا نجد فيه الميزات التي تميز ابن الجنوب وهو القرط الكبير وأسورة الساعد والريشة التي على الرأس، هذا إلى أن شعره المستعار الذي كان يحليه شريط عريض على الجبهة لا يُعَدُّ بأية حال من الأحوال من الخواص التي يُمَيَّزُ بها النوبي أو الزنجي. وفضلًا عن ذلك فإنه يمكن التعرف عليه صراحة من كمه الطويل الضيق وهو الذي لا يكاد يوجد عند أهل بلاد الجنوب.[٧٧] ويُلَاحَظُ أن النوبي والزنجي يلبسان بوجه عام تلفيعة عريضة فقط على الجزء الأعلى العريان من الجسم أو على ثوب مصري واسع.[٧٨] وقد كان الزي المحبب في ذلك العهد أن يصور المفتن أهل الجنوب بملامح خارجة عن حد المألوف بوصفهم زنوجًا. ونشاهد في ذلك صورة أخرى في نفس المقبرة واضحة الرسم فنجد على قطعتين[٧٩] صفًّا من العبيد جالسين القرفصاء بملامح هزيلة تمثل الزنوج، ولدينا قطعة حجر أخرى[٨٠] يظهر أنها كذلك من مقبرة «حور محب» مثل عليها فرقة من الجنود نجد من بينهم بعض الجنوبيين يظهرون بلباس شعر قصير وملامح زنجية. وأخيرًا لدينا قطعة حجر محفوظة بمتحف اللوفر[٨١] تُعَدُّ من المناظر المماثلة التي نحن بصددها وهي هامة بوجه خاص، إذ نجد فيها ممثلًا جنبًا لجنب أسيويًّا ولوبيًّا وجنوبيًّا، وهكذا كانوا في الواقع كذلك يمثلون منظر السفراء الأجانب إذا كانوا في الحقيقة يمثلون الأقوام المجاورين لمصر.

والواقع أن شواهد الأحوال لا تدل على أن العلاقات السائدة في الجنوب كانت تشبه التي في الشمال، وكذلك الرأي القائل بأنه كانت توجد اضطرابات في كل مكان على حدود المملكة، وأنه كانت تنبعث أصوات استغاثات من كل جانب لدرجة أن المملكة كانت مهددة عند حدودها الثلاثة أو على الأقل يوجد ما يكدر الصفو، كل ذلك مشكوك فيه من كل الوجوه. وفضلًا عن ذلك فإنه الحالة في البلاد تحدثنا على العكس من ذلك، إذ في عهد «توت عنخ آمون» قد أقيمت بلدة جديدة أو على الأقل أسس معبد في «فرص» وخُصِّصَ لعبادة الفرعون، وقد كان النظام في بلاد النوبة سائدًا، وعلى ذلك فإن رحلة «حور محب» في بلاد النوبة كانت تمليها السياسة الداخلية. على أن المادة اللازمة للحكم على نوع المشروع الذي كان يقوم به في رحلته هذه في تلك البلاد ليست كافية لدينا إلى حد ما، وأهم أثر لدينا عن ذلك هو قطعة نقش من مقبرة «حور محب»[٨٢] نقرأ فيها ما

يأتي: «أنه (أي «حور محب») قد أُرْسِلَ بوصفه مبعوث الملك إلى بعد ما يضيئه «آتون» (قرص الشمس) ليعود بعد أن يكون قد انتصر ... دون أن تستطيع أية أرض أن تقف أمامه وقد استولى عليها في لحظة عين وحده، واسمه قد استوعب بيقظة ... وقد سار (؟) نحو الشمال. وهناك ظهر جلالته على عرش تقديم الجزية، وقد أُحْضِرَتِ الجزية من الجنوب ومن الشمال. وكان يقف بجانبها «حور محب» ...» ويعلن «إدوارد مير» اقتراحه بأن هذا النقش خاص بالصورة المفقودة من المنظر الخاص بالغنائم النوبية في هذه المقبرة وأن الصورة التي في مقبرة «حوي» تُنْسَبُ إلى نفس الاحتفال الذي أقيم في مقبرة «حور محب».

ولم يبق لنا من مقبرة «حور محب» في منف إلا القطعة التي نحن بصددها.[٨٣] هذا ويدل متن قطعة الإسكندرية التي من هذه المقبرة على أنه خاص بمنظر كان مصورًا فيه جزية الشمال،[٨٤] ومن المحتمل أن القطعة التي في متحف «بولوني» وهي التي تحدثنا عنها فيما سبق مع صورتها وكذلك قطعة «اللوفر» هما من هذا المنظر. وإذا كان ينبغي علينا أن ننسب منظر تقديم الجزية الذي في مقبرة «حوي» إلى نفس الاحتفال الذي نحن بصدده في مقبرة «حور محب» فإن ذلك بلا نزاع يكون دليلًا على أن المنظر لا يمثل غنيمة حرب جاءت عن طريق موقعة حربية نشبت في بلاد النوبة، وذلك أنه لم يُذْكَرْ قط في مقبرة نائب الملك «حوي» أي حرب أو عصيان قام في بلاد النوبة، بل على العكس نجد في صورة أخرى جمع الضرائب في هدوء وسكينة.[٨٥] وكذلك لا تمت قطعة «الإسكندرية» إلى غنيمة حرب بسبب بل هي خاصة بجزية كما يدل على ذلك مدلول الألفاظ المصرية القديمة التي وردت عليها، ولا بد لقيام حملة حربية حقيقية من أن يكون سببها قيام ثورة ثم القضاء عليها والمادة التي لدينا ليس فيها ما يشير إلى ذلك في السودان في عهد قيادة «حور محب».

يضاف إلى ذلك أن المنظر الذي على صندوق الملك «توت عنخ آمون» الذي نشاهد فيه هذا الملك في عربة حربية مع طائفة من الجنود الزنوج مجدَّلين لا يدل في الواقع على موقعة حربية حقيقية لها علاقة بجملة قام بها القائد «حور محب» في بلاد النوبة. وأخيرًا فإن العبارة التي جاءت في لوحة «الكرنك» وهي: «لقد ملأ بيوت أعماله بالعبيد والإماء وبالجزية من غنائم سيف جلالته». قد اسْتُعْمِلَتْ جملة تقليدية وليس لها بأية حال من الأحوال علاقة بمشروع حربي نوبي.

والأجدر إذن أن تكون هذه الرحلة التي قام بها «حور محب» المدير لأمور الدولة رحلة تفتيش في بلاد النوبة ليطمئن على إخلاص موظفيه في عملهم في بلاد النوبة والواقع

أن بلاد النوبة بثروتها الغنية كانت تلعب دورًا هامًّا في سياسة مصر الداخلية وبخاصة في الأوقات المضطربة إذا كانت في أوقات الحرب مليئة بالأحزاب الكبيرة، فإذا كان نائب الملك وموظفوه وكذلك السيطرة على موارد المواد الغفل في الجنوب وبخاصة مناجم الذهب العظيمة في يد الفرعون فإن ذلك يكون سببًا في الانتصار على عناصر الدسائس في سياسة البلاد الداخلية والقبض على زمام الموقف كما سنرى ذلك بعد.

ولما اعتلى «حور محب» عرش البلاد قام بحملة حربية على بلاد «كوش» وهنا كذلك لا نعلم شيئًا على وجه التقريب عن هذه الحملة، ومن المحتمل أن هذه لم تكن إلا مجرد مظاهرة قام بها رجل أعلن نفسه ملكًا على البلاد ولم يكن لديه سند شرعي يَدَّعِي به تَوَلِّي الملك، وقد صُوِّرَتْ عودته إلى البلاد المصرية على صخور «السلسلة»[٨٦] فنشاهد أمام الملك الذي كان محمولًا في محفة يسير خلفه الأسرى النوبيون والجنود المصريون وفي النقوش التابعة لهذا المنظر أن جلالته يعود من بلاد «كوش» بالغنائم التي أحرزها سيفه كما أمر به والده «آمون». وكذلك نجد أن الموقعة هنا قد مُثِّلَتْ غير أن الصور قد هُشِّمَتْ لدرجة أنه لم يكن التعرف على كيفية تأليفها، ومن المحتمل أنها كانت على غرار تلك الموقعة التي شاهدناها مصورة على جدران عربة «تحتمس الرابع». ونجد بعض التفاصيل ثانية في الصور التي مُثِّلَتْ فيما بعد في عهد «رعمسيس الثاني» و«رعمسيس الثالث»،[٨٧] وهذا هو الأثر الوحيد الذي لدينا نتخذه دليلًا على حملة الملك هذه، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن نحكم حكمًا صحيحًا أكيدًا على أهمية هذه الحملة وما لها من قيمة سياسية.

وكذلك ليس لدينا معلومات عن الحملات الحربية التي قام بها الملوك الذين خلفوه من عهد الرعامسة. فنجد في رسوم المناظر الكبيرة في النقوش المملوءة بالعبارات البراقة الأعمال الحربية التي قام بها الفرعون، ولكن لا نكاد نجد مع كل ذلك ذكر تاريخ محدد أو مكان معين، بل كل ما نجده هو ذكر بلاد دون أن يقال عنها شيء. وقد كانت العادة عند الفراعنة أن يُمَثَّلَ الفرعون منتصرًا على أهالي الجنوب، وأن النوبي مهزوم وقراه مُخَرَّبَةٌ دون أن تقوم على وجه عام حملة حربية عظيمة على ما يظهر نحو الجنوب. والواقع إذن أن المعلومات التي نستقيها من هذه المناظر تكاد تكون لا شيء، ومع ذلك فإننا سنلقي نظرة خاطفة على ما لدينا من مادة عُثِرَ عليها في هذا العهد.

(١٢) «رعمسيس الأول»

ففي نقش من السنة الثانية من عهد «رعمسيس الأول» وكذلك في صورة منه يرجع تاريخها إلى السنة الأولى من عهد «سيتي الأول» قد قص علينا أن الملك قد أقام معبدًا في «بهين» وجهزه بكهنة وملأ بيت أعماله بالعبيد والإماء الذين أحضرهم جلالته غنيمة.[٨٨] ففي لوحة «رعمسيس الأول» يقال صراحة إن الملك كان في «منف» ونجد كذلك اسم «سيتي الأول» في نهاية النقش دون أن يكون له أية علاقة بالمتن ويريد الأستاذ «برستد»[٨٩] أن يرى في ذلك احتمال أن «سيتي الأول» قد قام لوالده بحرب في بلاد النوبة. ولكن النقوش لا تحدثنا بشيء من ذلك، أي إن الأسرى كانوا من بلاد النوبة، وفضلًا عن ذلك فإن التعبيرات التي ذُكِرَتْ في المتن إن هي إلا تعابير كلامية ليس لها قيمة تاريخية تذكر فقد نُعِتَ «رعمسيس الأول» في نقوش معبد «العرابة» بأنه «الثور القوى الذي ضرب النوبيين».[٩٠]

(١٣) «سيتي الأول»

ولدينا لوحة وجدت في «العمارة غرب» مُؤَرَّخَةٌ بالسنة الرابعة أو الثامنة من عهد «سيتي الأول» تُحَدِّثُنَا أن هذا الملك قام بحملة حربية على إقليم «أرم»،[٩١] وتدل شواهد الأحوال على أن هذه الحملة لم يكن لها أية أهمية، وذلك لأننا لم نجد في المناظر العدة في معبد الدولة في «الكرنك» الذي تحدثنا عن حملاته في آسيا ولوبيا صورة واحدة عن حروب له قام بها في البلاد الجنوبية. والواقع أنه يوجد فقط منظران حيث نجد هذا الفرعون ممثلًا وهو يضرب أمام «آمون» أهل الشمال وأهل الجنوب. والنقش الذي يتبع ذلك كما قال «برستد»[٩٢] هو نقش مُنْتَحَلٌ نصفه الأول يُنْسَبُ إلى نقش بناء للفرعون «أمنحتب الثالث» والنصف الثاني مأخوذ من أنشودة النصر للفرعون«تحتمس الثالث»، ولدينا في نقوش معبد «وادي مياه» (الرديسية) منظران يمثلان ضرب العدو أمام الإله؛[٩٣] واحد منهما يمثل أهل البلاد الشمالية والآخر يمثل أهل البلاد الجنوبية. غير أن صبغة النقوش التقليدية نجدها ظاهرة في المتن التابع لهذا المنظر؛ على الرغم من أن النقش الذي بجوار صورة الملك يقول صراحة «إنه هزم عظماء كوش الخاسئة وإن الإله آمون أمر الملك بقوله: «خذ سيفك أنت يأيها الملك القوي و«حور» الحي صاحب القوس لتهزم عظماء «كوش» ولتقطع رءوسهم». وهكذا نطق «آمون» عندما قدم للملك الأراضي المأسورة:

«إني أعطيك الجنوب وكذلك الشمال مجتمعَيْن تحت نعليك». وكذلك الأراضي العشر التي ذُكِرَتْ هنا بعدُ ليست بأية حال من الأحوال أراضيَ جنوبية كلية بل جاء بعد «كوش الخاسئة» قائمة تقليدية بأسماء أقوام الأقواس التسعة وهي التي وجدناها للمرة الأولى مذكورة في مقابر عظماء القوم في عهد الأسرة الثامنة عشرة،[٩٤] وهي التي على وجه عام نجدها مرسومة تحت أقدام الفرعون على كرسي العرش، وهؤلاء الأقوام هم نظريًّا الأقوام الخاضعون لحكم الفرعون. وعلى ذلك فإن هذه القائمة تكون لا معنى لها في منظر يصف هزيمة أهل الجنوب قبالة أهل الشمال، وهذا مما يدل على أن الإنسان يجب أن يكون حذرًا عندما يستنبط نتائجه التاريخية من مثل هذه المناظر أو من قوائم الأقوام الخاصة بهذا العصر.

(١٤) «رعمسيس الثاني»

ولدينا من عهد «رعمسيس الثاني» مادة غزيرة ولكنها على الرغم من غزارتها لا تقدم لنا شيئًا يُذْكَرُ عن الحوادث التاريخية في موضوعنا. فلا نجد المناظر العدة الدالة على حروب نوبية ما يمكن أن نستخلص منه تاريخًا معينًا أو مكانًا معروفًا وقعت فيه حروب بوجه عام.

والرسوم الخاصة بالمناظر الحربية نجدها في ثلاثة معابد وهي «أبو سمبل» و«بيت الوالي» و«الدر».[٩٥]

ففي «أبو سمبل» مُثِّلَ ضَرْبُ أحد ممثلي أهل الجنوب كما مثل موكب الظفر بعد النصر وسوق الأسرى[٩٦] ويلفت النظر في النقوش التابعة للمنظر أنها تتحدث عن أهل الشمال أيضًا، فمثلًا نجد مع موكب المظفر: «أنه (أي الملك) لهيب نار عندما تندلع دون أن يوجد ماء لإطفائها»[٩٧] وفي منظر الاستعراض نقرأ: «إحضار جزية بوساطة الإله الطيب (أي الملك) لوالده «آمون رع» بعد أن خرب الأراضي الأجنبية الثائرة وهزم النوبيين في عقر دارهم وتشمل (الجزية) فضة وذهبًا ولازوردًا وفيروزجًا وكل الأحجار الكريمة الفاخرة وهي التي أخذها بقوته ونصره على كل بلاد أجنبية». والكتابة التي على الأسرى هي: «إن عظماء كوش الخاسئة أحضرهم جلالته بنصره من أرض كوش ليملأ بهم بيت أعمال والده الفاخر «آمون رع» سيد الكرنك …». ونجد مثل هذه الجمل مع أسماء أخرى من أهل الشمال.[٩٨] وهذا مما يقلل من قيمتها بوصفها مصادر عن حملة حربية أو أنها نوع من المحاصيل الجنوبية التي غنمت في ساحة القتال.

أما في «بيت الوالي» فنجد تسلم جزية كبيرة ومنظر واقعة حربية،[٩٩] وهذا المنظر الأخير له نظيره في «الدر»[١٠٠] ونشاهد في هذا المنظر الملك يقبض وهو في عربته على النوبيين الهاربين. وعلى اليسار من ذلك بلدة نوبية تحت شجر النخيل ونشاهد كذلك امرأة جالسة تنوح أمام كوخ وبجوارها راعٍ معه قطيعه وجريح حمل إلى هذا المكان من موقعة القتال.

والواقع أن تأليف هذا المنظر قد أُخِذَ عن مناظر مواقع قديمة، وأكثر من ذلك نجد أن بعض تفاصيله قد صُوِّرَ في مصادرَ قديمة.[١٠١] وقد جاء مع منظر القرية النوبية ما يأتي: «كل عدو (؟) قال: «لا تجعل الأسد يخرجه من الوادي ... «رعمسيس الثاني»»، ومعنى هذه العبارة نجده في منظر موكب الظفر الخاص بالملك «حور محب» في «السلسلة» ففيه نقرأ مع رجل وامرأة نائمة على رجل أُخِذَ في الأسر: «آه أنتم أيها الأطفال الذين كانوا كبارًا في قلوبهم يا من نَسُوا ما قد قيل لهم من قبل لا تجعل الأسد يخرج ويدخل بلاد كوش».[١٠٢]

ومن ثَمَّ نرى أنه ليس لدينا مصدر وثيق عن حملة حربية قام بها «رعمسيس» على بلاد النوبة وعلى ذلك فإن هذه المناظر التقليدية التي نجدها في المعابد ليست ذات بالٍ ولا يُعْتَمَدُ عليها.[١٠٣] هذا ولدينا كذلك لوحة[١٠٤] على صخور الطريق الممتدة بين «أسوان» و«الفيلة» مؤرخة بالسنة الثانية الشهر الثالث من فصل الصيف اليوم السادس والعشرين، ولا يمكن أن يكون هذا التأريخ لحملة حربية لأن المتن لا يحتوي إلا علي جمل عادية تشير إلي انتصار في الشمال أيضًا، فإذا كان المتن يتناول في الواقع موضوع حملة حربية معينة لجاء ذكرها صراحة فيه كما هو المنتظر.

والواقع أن كثيرًا من الألقاب والنعوت التقليدية كانت لا معني لها قط في العلاقات السياسية الغابرة، وذلك أنه عندما يفكر الانسان في أن بلاد النوبة كانت إقليمًا مصريًّا اقتصاديًّا علي جانب عظيم من الأهمية يدير شئونها موظفون من قبل الملك ولم يكن للأمراء المحليين بالتأكيد بعدُ إلا دور غير هامٍّ في هذه الإدارة؛ يجد أنه لم يكن لهؤلاء الأمراء أية قوة يجابهون بها المصريين اللهم إلا بعض زعماء من قبائل البدو كانوا يقومون في وجه المصالح المصرية، وعلي ذلك فإنه لا ينبغي أن تكون الجمل التي ذُكِرَتْ صورة تمثل السياسة المصرية في الجنوب مثل: «الملك الثور القوي ضد كوش الخاسئة، ومن خواره يخترق بلاد النوبة، ومن حافره يدوس النوبيين، ومن قرنه يخترقهم عندما يستولي بقوة على «خنت–حن–نفر» ومن الفزع منه يصل إلى «كاراي»»، أو «من يجعل أرض كوش لا شيء»[١٠٥] فكل هذه ليس إلا جملًا جوفاء تقليدية.

وفي بلدة «العمارة القديمة»[١٠٦] عُثِرَ حديثًا على مناظر في داخل البوابة لها قيمتها الأثرية وهي من عهد «رعمسيس الثاني» فعلى الجدار الجنوبي نجد المنظر المبتذل الذي يُمَثَّلُ فيه «رعمسيس الثاني» يهجم بعربته على مجموع من النوبيين الذين فقدوا النظام في صفوفهم، وعلى الجدار الشمالي صُوِّرَتْ عودة الفرعون منتصرًا، ففي نهاية الشرق يتقدم «رعمسيس الثاني» جنودًا وهو ممتطٍ عربته في حين نشاهد خلفه من جهة الغرب على الباب الجانبي ثلاثة من أولاده هم «مرنبتاح» و«ستمويا» وثالث فُقِدَ اسمه يقودون أسرى نوبيين. ومع ذلك نجد متنًا قصيرًا مؤلَّفًا من سطرين سُجِّلَ فيه أن الحملة قد وُجِّهَتْ على أرض «أرم» النوبية وبه ما يزيد على سبعة آلاف أسير. وهذا المتن القصير تدل شواهده على أنه سجل تاريخي أصلي، وعلى ذلك فإنه يُعَدُّ أول سجل معروف لدينا عن حملة قام بها «رعمسيس الثاني» على بلاد «أرم»؛ بل الواقع أن هذه الحملة تُعَدُّ أول حملة حقيقية تاريخية لهذا الفرعون في بلاد النوبة. ومن جهة أخرى قد كُشِفَ في «العمارة» على سجل عن حملة قام بها «سيتي الأول» على بلاد «أرم».[١٠٧]

(١٥) الملك «مرنبتاح»

وبعد عهد «رعمسيس الثاني» نجد أن التحدث عن المواقع الحربية قد أخذ في النقصان، ففي عهد «مرنبتاح» خلف «رعمسيس الثاني» نعرف فقط لوحة واحدة مُهَشَّمَةً في «عمدا»[١٠٨] وهي تحدثنا عن إخماد ثورة في «واوات» واللوحة لا يمكن ترجمتها لما فيها من تهشيم كثير. ويبتدئ المتن باسم الملك ونعوته المختلفة مثل «الإله الطيب»، و«الأسد سيد خارو (سوريا)» و«الثور القوي ضد كوش» و«الذي يذبح بلاد مزوي»، ثم يأخذ في سرد الموضوع وهو يشبه تمامًا النقوش التي ذكرناها عن الثورة النوبية التي نشبت في عهد «تحتمس الثاني»[١٠٩] والتي قامت في عهد «تحتمس الرابع» وفي عهد «أمنحتب الثالث» فقد جاء فيها: «لقد أتى إنسان يقول لجلالته إن العدو من «واوات» (قد بدأ بثورة)»، وبعد ذلك تأتي أشياء غامضة عن اللوبيين والرتنو ثم يأتي: «إن الأسد صاحب النظرة الوحشية قد أرسل لهيبًا من فمه على أرض «واوات» (سطر ٦)» «وقد بحث عن العدو في كل الأرض حتى لا يقوم مرة أخرى بثورة (١٠)» «ورجوع الأمن إلى نصابه، وقد قبض على الأراضي الأجنبية باسمه وجعل الأراضي في سلام (يعيشون)، وجعل مصر فرحة وجعلها فاخرة (سطر ١٣)»، وإنه لمن المستحيل أن نستعمل هذا المتن الْمُمَزَّقَ من الوجهة التاريخية ليضع أمامنا حقائق جديدة، وعلى أية حال فإنه يمكن أن نتصور أن

هذه الثورة التي حدثت في بلاد النوبة السفلى كان لها ارتباط بالحروب مع بلاد لوبيا التي قام بها هذا الفرعون على هذه البلاد.[١١٠] وذلك أن اللوبيين عندما كانوا يبحثون عن مساكن لهم وسبل للعيش قد منعهم «مرنبتاح» من الزحف شمالًا، على أنه ليس من المستحيل أن يكون بعض هؤلاء اللوبيين قد وَلَّى وجهه نحو بلاد النوبة السفلى بدلًا من التوجه جنوبًا نحو الواحات. وسنظل في شك من أمر هؤلاء القوم إذا كان وجود هذه الطائفة المهاجرة التي تمتاز ببياض بشرتها في بلاد الأهالي الجنوبيين أو إذا كنا نفهم اسم المكان «نخنت» في بلاد النوبة بمثابة رمز لتسرب أناس لوبيين في عهد الدولة الحديثة[١١١] وحافظوا على اسمهم الأصلي.

(١٦) «رعمسيس الثالث»

وآخر أثر له علاقة بحملة حربية على بلاد النوبة يرجع عهده إلى عصر الفرعون «رعمسيس الثالث» ففي معبده الكبير الذي أقامه في مدينة «هابو» نجد صور حرب نوبية قد مُثِّلَتْ في ثلاثة مناظر وهي تشبه التي ذكرناها في عهد «رعمسيس الثاني». وخلافًا لذلك نشاهد قائمة طويلة منقوشة بأسماء أهل الجنوب المغلوبين على الجانب الأمامي للبوابة الأولى من هذا المعبد.

هذا ولدينا صورة كما أشار الأثري «أنتس» في معبد «آمون» بالكرنك نقلها «رعمسيس الثالث» عن «رعمسيس الثاني» خاصة بسَوْقِ الأسرى على حسب ما جاء في موقعة «قادش» ولكنها رُسِمَتْ مختصرة مع حذف أجزاء منها.[١١٢] وكذلك نجد أن المتن في كل من النسختين موحد إلا لفظة «خيتا» التي ذكرت في عهد «رعمسيس الثاني» فقد حل محلها اللفظة «قادش» وذلك أن مملكة «خيتا» كانت قد لعبت دورها واختفت من الوجود في عهد «رعمسيس الثالث».

وكذلك نجد صورًا نوبية مشابهة تمامًا في مدينة «هابو» فالصورة الأولى التي تمثل الانتصار على النوبيين تشبه الصورة التي رسمها «رعمسيس الثاني» في «بيت الوالي» وفي «الدر»، وبتأليف موضوع الصورة وفيها الملك المهاجم في عربته والجموع الْمُجَدَّلَةُ من النوبيين المهزومين والقرية النوبية، كل هذه قد بقيت كما هي ولم يتغير إلا بعض تفاصيل فردية مثل الراعي مع قطيعه فقد حُذِفَتْ.

والمنظر الثاني ويُمَثِّلُ سَوْقَ الأسرى ونعرفه من قبل في معبد «رعمسيس الثاني» في «أبو سمبل»، ثم المنظر النهائي ويُمَثِّلُ قيادة الأسرى أمام الإله «آمون» والإلهة «موت»

وهذا يرجع أصله إلى تقليد قديم. وأخيرًا نجد أن قائمة الأقوام الجنوبيين كما برهن «برستد» قد نُقِلَتْ عن قوائم قديمة.[١١٣] وعلى ذلك لم يكن من باب المفاجأة أن نجد ثانية مع الملك الذي يقود الأسرى أمام «رع حوراختي» وهم مهزومون أنشودة النصر، بل إن «سيتي الأول» كان في الواقع قد نقلها في زمنه من الأنشودة القديمة التي أُنْشِئَتْ في عهد «أمنحتب الثالث» مع إضافة بعض عناصر تتناسب مع الموقف.[١١٤]

وقد جاء في ورقة «هاريس» الكبرى ذكر السوريين والنوبيين الذين غنم منهم جلالته غنائم كثيرة[١١٥] وكذلك لدينا لوحة من مدينة «هابو» تصف لنا سَوْقَ الأسرى النوبيين إلى مصر.[١١٦]

غير أن كل هذه المصادر لا تكاد تكون لها قيمة تاريخية ولا يمكنًا مرة واحدة أن نثبت على وجه التأكيد قيام حملة حربية نحو بلاد النوبة على حسب ما جاء بها. وفي ورقة «هاريس» الكبرى التاريخية لم نجد في الفصل المخصص للأحداث التاريخية وهو الذي نجد كل أعمال الملك العظيمة قد ذُكِرَتْ فيه أية إشارة إلى قيام حملة حربية على بلاد النوبة، وهذا يعني عل كل حال أن «رعمسيس الثالث» لم يقم في مدة حكمه بأي أعمال حربية في الجنوب.

والواقع أن بلاد النوبة كانت من الآن لمدة طويلة لا تعد بلادًا أجنبية لها ثقافة مميزة بل كانت تعد جزءًا من المملكة المصرية مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا لدرجة أن شخصيتها من حيث الجنس والثقافة قد فُقِدَتْ. وعلى الرغم من أنه على ما يظهر لم تقم أية مشاريع حربية في هذه البقعة فإنها بقيت في قبضة الحكومة المصرية، وكذلك كان من المفهوم أنه في عهد «رعمسيس الحادي عشر» كان نائب الملك في «كوش» في عهد الاضطرابات السياسية في مصر مع جنوده النوبيين منحازًا للحكومة المنفية.[١١٧]

هوامش

(١) راجع: L.A.A.A., 8, Pl. XVIII.

(٢) راجع: URk., IV, 14.

(٣) راجع: Mem, Miss. Fr. V, 420, Pl. III.

(٤) راجع: Davies, El Amarna, III, Pl. 12.

(٥) راجع: Maciver and Woolley Buhen, p. 86, PI, 35.

(٦) راجع: Reisner, J. E.A., Vol. 6, p. 29.

(٧) راجع: Buhen, p. 99.

(٨) راجع: J.E.A., Vol. 25, p, 142, Note.

(٩) راجع: Urk., IV, 7.

(١٠) راجع: Urk., IV, 78.

(١١) راجع: Urk., IV, 50.

(١٢) راجع: Urk., IV, 8, 36, 70, 78-90 and 139; sai and Tangur Graffité A. J. S. L (1908), p. 100, 104, f.

(١٣) راجع: Breasted, A.J.S.L. (1908), p. 104; P.S.B.A., 7, p. 121 and Sethe Untersuchungen I, 41.

(١٤) راجع: J.E.A., Vol. 22, p. 200 Kalic ff.

(١٥) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٤٠٦.

(١٦) راجع: Urk., IV, 85, L, 11 ff.; Jnnker, Kubanieh Nord, p. 16, 21.

(١٧) راجع: Junker, J.E.A., 7, 129; wreszinski, Atlas I, 265.

(١٨) راجع: Kerma, II, 556; 1, pp. 152, 215, 224, 314.

(١٩) راجع: Urk., IV, ubersetzung, p. 46. Note I.

(٢٠) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٢٩٤.

(٢١) راجع: Urk., IV, 192; L. D., Text V, 226.

(٢٢) راجع: Save, p. 184 ff.

(٢٣) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٢٩٥.

(٢٤) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٥٤٤.

(٢٥) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٣٠٧.

(٢٦) راجع: The Thutmosid Succession (Studies in Anc, Oriental Civil-isation) 8; Chicago Oriental Institute.

(٢٧) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٢٩٥.

(٢٨) راجع: The Temple of Dier El Bahari, III, Text, p. 11, and Urk., IV, p. 315 f.

(٢٩) راجع: Urk. IV, 438, L. 10.

(٣٠) راجع: A.Z., 36., 71.

(٣١) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٤٦٨.

(٣٢) راجع: A.Z., 66, p. 76.

(٣٣) راجع السطر ٣٥ من النقش.

(٣٤) أقرن Schafer, Aethiop. Konigsinschr, (Nastasen), p, 33.

(٣٥) راجع: Amade stele und Elephantine Stele Bibliotheque d'Etude, 10

(٣٦) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٦٦٨.

(٣٧) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٦٧٨.

(٣٨) راجع A.Z., 66, 81.

(٣٩) راجع: L.D., III, p. 70.

(٤٠) راجع: Schafer, Aethiop, Konigsinschr, (Nastasen), p. 31.

(٤١) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٦٨٦.

(٤٢) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص ٢٠.

(٤٣) راجع: Rec, Trav., 15, 178 f.

(٤٤) ولا يمكن الإنسان أن يرى من هذا الوصف تجمع الجيش كما يظن «برستد» (Br., A.R., II. §. 828) وقد تُرْجِمَ المتن بصورة أخرى مغايرة بعض الشيء.

(٤٥) راجع: L.D., III, 69 e.

(٤٦) راجع: Kees, Totenglauben p. 28 f., Rev. Egyptol. N.S., II, 25.

(٤٧) راجع: Wrcszinski, Atlas II, 3, Carter and Newberry, The Tmob of Thoutmosis, IV p. 31 f.

(٤٨) راجع: Urk, IV, 708.

(٤٩) راجع: Rec. Trav, 8. 84 ff: 10, 97 ff; 21, 227.

(٥٠) راجع: The Tonb of Thoutmosis IV p. 21.

(٥١) راجع: Petrie, Six Temples, Pl. I; A.Z., 36, p. 84

(٥٢) راجع: Br. Mus. No. 902 (Hierog, Texts. VIII, 8 PI. IX)

(٥٣) راجع: L.D. III, 69 f.; Gauthier. Amada, p. 153

(٥٤) راجع: مصر القديمة الجزء الخامس ص ٥٤–٥٧.

(٥٥) راجع: De Morgan Cat. I, 4, 5; L.D., III, 81 g, h.

(٥٦) راجع: L. D. Text IV 119

(٥٧) راجع: L.D, III, 82 a; Brugsch Thesuarus, p.1218 f. De Morgan, Cat. I, 67 f Semneh Stele (B.M. No. 657, Hierog, Texts, VII, p. 21 f Pl. xx; Merenptah Stele (Rec.Trav, 20. 42); Petrie Six Temples, Pl, X.

(٥٨) أترو = ١,٥ كيلو مترًا على وجه التقريب.

(٥٩) راجع: Urk, IV, P. 808 L. 2.

(٦٠) راجع: Rec, Trav., 20, 42, L. 23.

(٦١) راجع: Naville, Bubastis, Pl, 34.

(٦٢) راجع: Urk., I, p. III.

(٦٣) راجع: Urk., IV, 137, f.

(٦٤) راجع: Buhen, P. 81.

(٦٥) راجع: Br., A.R., II, P. 388, Note

(٦٦) راجع: Urk., IV, P. 800.

(٦٧) راجع: Holscher. Libyer und Agypter, p. 21.

(٦٨) راجع: J.E.A., 6, p. 34.

(٦٩) راجع: J.E.A., 23, p. 143 f.

(٧٠) راجع: A.J.S.L. (1908), p. 51 ff.

(٧١) راجع: Sudannotes and Records, 12, p. 87 f.

(٧٢) راجع: Buhen, p. 91 f.

(٧٣) راجع: A.S., 10. 122 f. and Gauth., D.G.I, 110.

(٧٤) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص ٣٦٧ إلخ.

(٧٥) راجع: Fluger and Die Amarna Zeit, p. 28.

(٧٦) راجع: A.Z., 38, p. 48.

(٧٧) راجع: Ermann-Ranke, Taf. 39.

(٧٨) راجع: Wreszinski, Atlas II, 3.

(٧٩) راجع: Eremann Ranke Taf, 39.

(٨٠) راجع: The Brooklyn Museum Quarterly, Vol. XIX (1932), No. 48 and p. 147 ff.

(٨١) راجع: Wreszinski, Atlas, II, 3 B b4.

(٨٢) راجع: Alexandria, Fagment, P.S.B.A, II, p. 424, Comp. Ed, Meyer, p. 406 and Fluger Ibid. P. 38 f. 55.

(٨٣) راجع: Helck., p. 83.

(٨٤) راجع: Fluger, Ibid, p. 31.

(٨٥) راجع: Davies, The Tomb of Huy, Pls. XVI, XVII, Wreszinski, Atlas I, p. 162 ff.

(٨٦) راجع: L.D.III, p. 120, 121; wreszinskix Atlas, II, 162 and Fluger, 6 وراجع كذلك مصر القديمة الجزء الخامس ص ٦٠٥.

(٨٧) راجع: Wreszinski Atlas II, 161.

(٨٨) راجع: Br., A.R., III § 74 ff. Louvre C. 57, and B.M. No. 1189.

(٨٩) راجع: Br., Ibid. § 75.

(٩٠) راجع مصر القديمة الجزء السادس ص ٥٧.

(٩١) راجع: J.E.A., 25, 142

(٩٢) راجع: Br. A.R. III § 113.

(٩٣) راجع: L.D., III, 139 a, 140 a, Bull. Instit Fr. 17. I, ff.

(٩٤) راجع مصر القديمة الجزء التاسع ص ١١٨.

(٩٥) راجع مصر القديمة الجزء السادس ص ٢٤١–٢٤٣.

(٩٦) راجع: Wreszinski, Atlas, II, 180, 171, 184, a; Br., A.R., III § 450 ff.

(٩٧) راجع: wresz,., Ibid, 181.

(٩٨) راجع: Wresz. Ibid, Pl, 179.

(٩٩) راجع: Wresz., Ibid, 165–168.

(١٠٠) راجع: Wresz., Ibid, 168 a.

(١٠١) راجع: Jaquier, Fouilles à saqqarah, La Monument Funerire de Pepi II, Tome. II, Le Temple, P. 14; Comp. Kees, O.L.Z. (1941), p. 106.

(١٠٢) راجع: Brmus., Hierog. Texts, VIII, P. 22, Pl, XX.

(١٠٣) راجع: Roeder, Betel Wali, P. 161.

(١٠٤) راجع: L.D., III, 1759.

(١٠٥) راجع: Kuban stele, L. 4; Abu Simbel Hymnes Ramses II, L.D., III, p. 195 a.

(١٠٦) راجع: J.E.A., Vol, 35, p. 8.

(١٠٧) راجع: J.E.A., Vol. XXIII pls. 13, 19 cf Pl. 15, 1.

(١٠٨) راجع: Rec. Trav. 18, p. 156, f. Gauthier, Amad, p. 187.

(١٠٩) راجع: Urk, IV, 138.

(١١٠) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٣٥ إلخ.

(١١١) راجع: Holscher, Ibid, P. 21 f.

(١١٢) راجع: A.Z., 65, P. 26 ff.

(١١٣) راجع: Br. A.R. IV. § 138

(١١٤) راجع: Medinet Habu, II Pl. 102.

(١١٥) راجع: Ericksen, 75, I ff.

(١١٦) راجع: Wresz, Atlas II, 160.

(١١٧) راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٥٢٣ و٥٥٠ و٥٨٥.

الفصل الرابع عشر

حكومة نائب الملك في السودان في عهد الدولة الحديثة

مقدمة

تناولنا في الجزء الخامس من هذه الموسوعة الحديث عن الإدارة في السودان[١] وكذلك الدور الذي كان يلعبه حاكم هذه البلاد الذي كان يُلَقَّبُ «ابن الملك» ثم لُقِّبَ فيما بعد «ابن الملك صاحب كوش». غير أن الموضوع على الرغم مما كتبه «ريزنر»[٢] وما كتبه من بعده «جوتييه»[٣] لا يزال ينقصه بعض نقاط وإضافات لا بد من استيفائها. وقد لاحظ ذلك الأثري «سيف زودربرج» في كتابه عن مصر والنوبة.[٤] وفضلًا عن ذلك فقد ظهرت مصادر أخرى في هذا الصدد تحمل إلينا حقائق جديدة، ولذلك رأينا أن نبحث موضوع هؤلاء الحكام العظام ومن كانوا يعملون معهم لنصل إلى صورة واضحة عن نظام الحكم في تلك الفترة من تاريخ السودان وعلاقته مع مصر.

هوامش

(١) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص ١٦٣–١٧٧.

(٢) راجع: J.E.A., Vol. 6, p. 73 ff.

(٣) راجع: Rec, Trav., 39, p. 182 ff.

(٤) راجع: Save, Agypten und Nubien, p. 175.

الفصل الخامس عشر

نواب الملك في الأسرة الثامنة عشرة

(١) نائب الملك «ثوري»

دَلَّتِ الآثار التي كُشِفَتْ حتى الآن على أن أوَّل نائب ملك معروف لدينا في بلاد النوبة هو «ثوري». والظاهر أن «ثوري» هذا كان في بادئ الأمر قائد حصن «بهين» في عهد الملك «أحمس الأوَّل»،[١] وفي عهد «أمنحتب الأوَّل» عُيِّنَ نائب الفرعون وكان يحمل لقب ابن الملك صاحب الأقاليم الجنوبية، وكان تعيينه في السنة السابعة من حكم هذا الفرعون،[٢] وفي السنة الثامنة من حكم نفس الملك نجده يحمل ألقابًا أخرى[٣] نذكرها هنا وهي «الأمير الوراثي والحاكم وحامل الخاتم الملكي في الأراضي الجنوبية …» وابن الملك.

وقد استمرت ولايته حتى عهد الملك «تحتمس الأوَّل»، وكان يحمل لقبًا آخر وهو المشرف على البلاد الجنوبية.[٤] والظاهر أنه كان في خدمة الملكة «حتشبسوت» ويحمل نفس الألقاب السالفة.[٥] ويحتمل أنه لم يكن يقوم بمهام وظيفته وقتئذٍ على الرغم من حمله ألقابها.[٦]

وقد أضاف «جوتييه» إلى المصادر السالفة الذكر التي جاء فيها ذكر هذا العظيم أربعة مصادر أخرى نذكرها على الترتيب:[٧]

(١) **أولًا** وُجِدَ له متن منقوش على صخرة في «أبو سمبل» في الشمال من المعبد الصغير الذي نقل نقوشه «لبسيوس»[٨] وهاك النص: «عمله كاتب المعبد ووالد الإله والمشرف على الماشية والأمير والكاهن الأول «أحمس» الملقب باسم «ثوري» صادق القول». وتدل النقوش على أن الاسم «ثوري» الحقيقي هو «أحمس» وذلك من آثار أخرى، وأن اسم «ثوري» لم يكن إلا لقبًا يُنَادَى به كثيرًا في أوائل الأسرة الثامنة عشرة.

(٢) أما المصدر الثاني فهو تمثال هام جدًّا من حجر الكوارتسيت الأحمر محفوظ الآن بالمتحف البريطاني.[٩] وهذا التمثال يمثِّل شخصًا يدعى «تيتي» وعلى ظهر التمثال تحت النقش الأفقي الخاص بتيتي ذُكِرَ ثلاثة أشخاص في ثلاثة أسطر عمودية يسبق لقب كل منهم كلمة «ابن»، وهؤلاء الأشخاص الثلاثة قد ذُكِرُوا على التوالي كما يأتي:

(١) كاتب الموائد المقدسة «لآمون» أحمس باتنا (؟) صادق القول (المرحوم).

(٢) ابن الملك والمشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية «أحمس»-«ثوري» صادق القول (المرحوم).

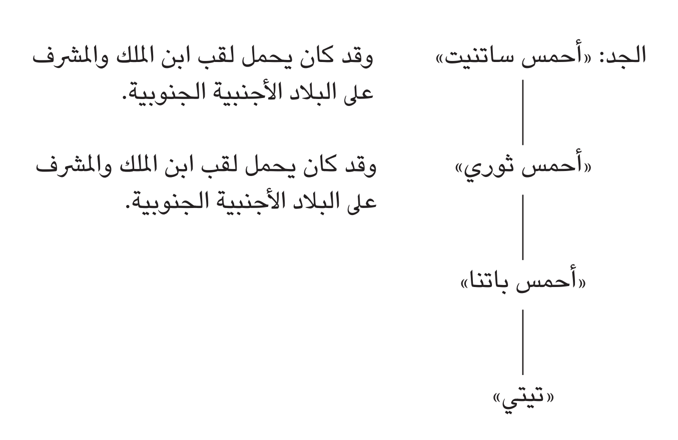
(٣) ابن الملك المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية «أحمس ساتنيت» (؟) صادق القول (المرحوم).

ومن الواضح أن ثاني هؤلاء الأسماء هو نفس الكاهن «أحمس» «ثوري» الذي ذُكِرَ في نقوش «أبو سمبل» السالفة. ومن المحتمل أن النقش الأخير لم يكن قد نُقِشَ بعدُ إلا في عصر لم يكن فيه نائب الملك المستقبل لبلاد كوش قد عُيِّنَ قائد حصن «بهين» بل كان فقط يحمل لقبي كاهن ومشرف على الماشية في منطقة «بهين» و«أبو سمبل». ومن ثَمَّ يكون لدينا خطوة قديمة جدًّا ويحتمل أنها الأولى في مجال تاريخ «ثوري» المدهش.

ولكن يوجد أمامنا سؤال كذلك ينجم عما جاء في أربعة الأسطر التي على تمثال المتحف البريطاني السالف، وأعنى بذلك صلة القرابة التي بين أربعة الأشخاص الذين ذُكِرُوا عليه فهل «أحمس باتنا» و«أحمس» «ثوري» و«أحمس ساتنيت» كان ثلاثتهم أولاد صاحب التمثال؟

والواقع أن «تيتي» صاحب التمثال كان يُسَمَّى «تيتي» بن «باتنا» بن «أحمس» «ثوري» بن «أحمس ساتنيت» وبذلك كان المقصود أنه يشير إلى أربعة أجيال متتابعة، غير أن الجواب المؤكد على هذا السؤال ليس من السهل الإدلاء به. وذلك أنه لو كان هذا الوضع صحيحًا لوضع الكاتب ضمير الغائب بعد كلمة ابن في كل حالة وذكر كلمة «ابنه». ومن المحتمل جدًّا — ولكن ليس مؤكدًا — أن ضمير الغائب (هـ) كان لا بد أن يُكْتَبَ إذا كان الحفار قد أراد أن يميز أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة هم أولاد «تيتي». ولكن من جهة أخرى نجد على وجه التمثال الداخلي اسم ولد «لتيتي» مميز بكلمة «ابنه» بدلًا من «ابن». وهذا الاسم مُهَشَّمٌ غير أن ما بقي منه يدل على أنه لا بد كان واحدًا من ثلاث الشخصيات التي ذُكِرَتْ في الأسطر العمودية التي على ظهرت التمثال السالف الذكر.

فإذا كانت القراءة السالفة هي الصحيحة كان لدينا الجدول الصغير التالي لشجرة نسب هذه الأسرة:



وعلى ذلك فإن هذا التمثال يرجع تأريخه في هذه الحالة إلى بداية الأسرة الثامنة عشرة أو بعد ما يقرب من ثلاثة أجيال من عهد مؤسس هذه الأسرة «أحمس»، وعلى الأخص لن يكون «ثوري» بعد هو الأول في هذه الأسرة الذي كان يحمل من الوجهة التاريخية لقب «ابن الملك» و«المشرف على البلاد الأجنبية في الجنوب» كما هو الرأي السائد بصفة عامة حتى الآن عند الأثريين، بل الواقع أنه كان يسبقه في حمل هذه الوظيفة والده الْمُسَمَّى «أحمس ساتنيت». وهذا يجعلنا في وضع جديد على أية حال بالنسبة للحقائق التاريخية التي في متناولنا عن هذا العهد. فإذا وافقنا على التاريخ الذي حدده «ڤيل»[١٠] فهمنا أن «أمنحتب الأول» كان قبل العام السابع من حكمه وهو العام الذي نشاهد فيه أن «ثوري» كان فعلًا يقوم بأعباء وظيفته قد حكم من ١٥٥٥–١٥٣٤ق.م. وعلى ذلك فإن الدكتور «ريزنر» قد جعل تنصيبه في هذه الوظيفة حوالي سنة ١٥٥٠ق.م. كما ذكرنا من قبل. ومن ثَمَّ فإن والد «ثوري» كان في إمكانه أن يقوم بأعباء وظيفة إدارة بلاد النوبة لأوَّل مرة منذ خمس عشرة أو عشرين سنة قبل «ثوري» أي حوالي ١٥٦٨–١٥٦٣ق.م. أي في خلال حكم «أحمس الأول» (١٥٧٧-١٥٥٧ق.م.). وعلى ذلك فإن الفضل يرجع كذلك إلى

معيد نظام المملكة المصرية وقاهر الهكسوس ومؤسس الإمبراطورية الطيبية الثانية في وضع الفكرة الأولى التي أصبحت فيما بعدُ في عهد أخلافه تُعْرَفُ في نظام الحكم «النيابة الملكية لبلاد كوش» أو بعبارة أخرى نائب الملك في السودان. وقد وكل «أحمس» لابنه «أحمس ساتنيت» مأمورية تهدئة وإدارة بلاد النوبة. وكان على خلفه «أمنحتب الأول» بطبيعة الحال أن يعين ابن الحاكم السابق وهو «أحمس ثوري» وهو ابن أخيه، وهو الذي كان قد شغل وظيفة قائد حصن «بهين» في عهد الملك «أحمس الأول».

ويمكن استخلاص حقائق أخرى هامة من تمثال «تيتي» هذا المحفوظ بالمتحف البريطاني فنجد أن الشخصيات الثلاث «أحمس ساتنيت» و«أحمس ثوري» و«أحمس باتنا» يشمل العنصر الأول من أسمائهم المركبة تركيبًا مزجيًّا اسم «أحمس» وهو الاسم الذي يحمله مؤسس الأسرة الثامنة عشرة. وقد خَوَّلَ لنا تفسير أصل الأسماء العدة التي على هذا النسق القول بأن هؤلاء الأشخاص الذي يحملون هذا الاسم قد وُلِدُوا في عهد الملك الفرعون «أحمس الأول» وهذا الاسم يُعَدُّ في نظرهم حاميًا لهم. وهذه المحاولة لتفسير هذه التسمية مُحْتَمَلَةٌ كما نشاهد ذلك في عصرنا، إذ نجد أن معظم الذكور الذين وُلِدُوا في عهد محمد علي قد سُمُّوا بهذا الاسم. ولكن نجد أنه من المؤكد من جهة أخرى أن هناك أسبابًا أسرية قد لعبت هنا دورًا في هذا التوزيع في الأسماء، ويمكن أن يكون ذلك وهو اسم الملك، وأن كثيرًا من بين عشرة الأشخاص الذين تبتدئ أسماؤهم المركبة باسم «أحمس» كانت توجد بينهم روابط دم أي إنهم كانوا أولاده أو أحفاده، والغالب أن «أحمس ساتنيت» هو ابن فرعون، وعلى ذلك فإن «أحمس ثوري» يُعَدُّ حفيدًا للأخير، وعلى ذلك فإن لقب «ابن الملك» الذي كان يُنْسَبُ بنظام لكل نُوَّابِ الملك في كوش من أولهم إلى آخرهم — وقد كان موضع حيرة وارتباك في تفسيره — يرجع للمرة الأولى على الأقل لأصل ملكي أي إن «أحمس ساتنيت» كان ابن الملك المباشر الذي أنشئت في عهده وظيفة المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية، ومن المحتمل أنه كان قد وُلِدَ قبل تولية والده عرش الفراعنة، ومن المحتمل أن والدته «تائيت» ماتت قبل تولية زوجها عرش الملك، ولذلك لم تصبح قط ملكة على أرض الكنانة. وابن أول نائب ملك في الواقع يحمل هذا اللقب وهو «أحمس ثوري» كان حفيد الملك وكان كذلك يحمل لقب «ابن الملك» ومن ثَمَّ بحكم العادة والتقليد قد حُشِرَتْ عبارة «ابن الملك» مع ألقابه الرسمية.

(٣) وثالثًا لدينا الجزء الأسفل من تمثال آخر مُهَشَّمٌ مصنوع من الحجر الرملي وُجِدَ بالقرب من «كرمة» في السودان وهو محفوظ الآن بالمتحف البريطاني[١١] ويحمل اسم

«أحمس» الذي يُدْعَى «ثوري» والذي يحمل لقب المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية. وقد ظن ناشر دليل المتحف البريطاني أن هذا الموظف قد عاش على ما يظن في عهد الأسرة التاسعة عشرة، فلم يعرف شخصيته أنه «ثوري» نائب الملك في كوش المعروف، والمتن المحفور على التمثال يحتوي على صلوات للإله «حور محب» صاحب «بهين» وهذه الخاصية مضافة إلى أن «ثوري» كان في أول الأمر كاهنًا في إقليم «أبو سمبل» ثم قائدًا لحصن «بهين» قبل أن يصبح نائب ملك لكوش قد يسمح لنا أن نستخلص أن أوَّل مقر للمشرف على البلاد الأجنبية في الجنوب كان في منطقة «أبو سمبل» — و«وادي حلفا» بالقرب من الشلال الثاني ولم يكن الفرعون بعدُ قد تخطت سلطته هذه النقطة.

(٤) **ورابعًا** وأخيرًا يمكن أن ننسب إلى نائب الملك «ثوري» جعرانين وقد نُقِشَ على كل منهما المتن التالي: ابن الملك «ثوري».[١٢] وقد قال «نيوبري» عن الجعران الأول إن صاحبه «ثوري» هو ابن الملك «تحتمس الأول» ويرتكز في رأيه هذا على نقش في جزيرة «سهيل»[١٣] حيث نجد «ثوري» هذا نفسه قد لُقِّبَ فقط بلقب «ابن الملك» وقد أُرِّخَ باليوم الثاني والعشرين من بشنس من السنة الثالثة من حكم «تحتمس الأول». ولكنا نعلم الآن أن «ثوري» هذا لا يمكن أن يكون ابن «تحتمس الأول» لأنه كان فعلًا في عهد «أمنحتب الأول» والد هذا الملك مُكَلَّفًا بإدارة بلاد الجنوب، والظاهر أنه كان ابن أخ «أمنحتب الأول» وابن عم «تحتمس الأول».

هذه هي كل الآثار التي نعرفها حتى الآن عن «ثوري» نائب الملك في بلاد النوبة.

أما عن اسم «ثوري» فَنَوَدُّ أن نثبت وجود وجه قرابة بين اسمه الصوتي وبين الاسم المؤنث «تورس» الذي تحمله ملكة، وهي كذلك كانت بنت «أحمس الأول» وهذا التقريب هو في رأيي برهان آخر يعضد قرابة «ثوري» هذا للفرعون الأول من ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

وتدل شواهد الأحوال على أن «ريزنر» قد رصد مدة قصيرة لعهد ولاية «ثوري» لإدارة السودان فإذا كان يشغل وظيفته هذه منذ السنة السابعة من حكم «أمنحتب الأول» وهذا ما لا نشك فيه وإذا لم يكن قد ترك وظيفته في السنة الثالثة في عهد «تحتمس الأول» فإنه لا بد قد بقي يحمل هذه الألقاب على الأقل مدة ست عشرة سنة أو سبع عشرة سنة لا اثنتي عشرة كما يقول «ريزنر» أي إنه بقي في وظيفته أربع عشرة سنة في عهد «أمنحتب الأول» الذي نعرف أنه حكم على أقل تقدير واحدة وعشرين سنة، وسنتين أو ثلاثة في عهد «تحتمس الأول».

والواقع أننا لا نعرف شيئًا عن إدارة «ثوري» هذا، غير أنه كان مُتَوَّجًا بالنجاح في أعماله. ومما لا شك فيه أن «ثوري» قد تَخَلَّى عن عمله قبل موته، وإذا كنا نراه لا يزال على قيد الحياة قبل موت الوزير «وسر» (أو «وسر آمون») في عهد الملكة «حتشبسوت».[١٤] فمن المؤكد أنه في هذا العهد بل ومنذ زمن طويل فعلًا قد تخلى عن وظيفته التي تولاها من بعده ابن الملك «سني» أما لقبا ابن الملك والمشرف على الأراضي الأجنبية الجنوبية اللذان نشاهدهما مدوَّنَيْنِ في هذا القبر فكانا ذوي صبغة فخرية محضة وحسب.

(٢) ابن الملك «سني»

شغل «سني» وظيفة «ابن الملك» في عهد كل من الملكين «تحتمس الأول» و«الثاني» ولكن يظهر أنه قد شغل وظائف أخرى قبل تنصيبه في هذه الوظيفة، ففي عهد «أحمس الأول» كان يشغل وظيفة المشرف على …».[١٥] وفي عهد الفرعون «أمنحتب الأول» كان يشغل الوظائف التالية: المشرف على مخازن غلال «آمون» ومدير الأعمال في الكرنك.[١٦]

وفي عهد «تحتمس الأول» تولى منصب «ابن الملك» والمشرف على البلاد الجنوبية في نفس النقش السالف، وفي نقش آخر وجد في معبد «قمة»[١٧] نجده يحمل الألقاب التالية: حاكم المدينة الجنوبية (طيبة) والمشرف على مخازن غلال الإله آمون، و«ابن الملك» و«المشرف على الأراضي الجنوبية». وقد نسب «ريزنر»[١٨] إلى ابن الملك «سني» مدة حكم طويلة أي ما يقرب من ستين سنة كان يشغل منها حوالي خمس وثلاثين سنة على رأس إدارة بلاد النوبة. ويرى «جوتييه» أن نيابة «سني» لبلاد السودان قد امتدت حتى السنة السابعة عشرة على الأقل من عهد «تحتمس الثالث» و«حتشبسوت» معًا، ولكن من جهة أخرى يري أن بداية هذه النيابة كانت خمس سنين قبل التاريخ الذي حدده «ريزنر» الذي جعل بداية ولايته ١٥٣٧ق.م. ونهايته ١٥٠٣ ق.م، وعلى أية حال فإن مسألة التاريخ المحضة لا تزال تحتاج إلى تحقيق لأن تواريخ هذا العصر مرتبكة جدًّا بسبب الخلافات الأسرية في بيت الملك، ومهما يكن من أمر فإن الأستاذ «ريزنر» قد نسب بحق إلى «سني» نقش معبد «سمنة»، وهو الذي ترجمه وعلق عليه «برستد» وقال عنه إنه يرجع إلى عهد «ثوري»،[١٩] وهذا النقش يحتوي على ترجمة حياته كاملة، غير أنه ممزق، ونعرف منه أنه كان، كما ذكرنا من قبل، قد عَيَّنَهُ «تحتمس الأول» ليحل محل «ثوري» في بلاد النوبة وخلع عليه نفس الألقاب التي كان يحملها سلفه.

وفي عهد «تحتمس الثالث» نجد أن «سني» يضيف إلى ألقابه السالفة لقب عمدة المدينة الجنوبية، أي «طيبة»، وهذا اللقب وُجِدَ على عتب باب معبد «قمة» الذي زَيَّنَهُ من جديد «تحتمس الثاني».[٢٠]

أما النقش الذي ضمن نقوش «قمة» على الصخر وهو الذي نقله «برستد»[٢١] فقد شوهد فيما تبقى منه اسم «نحي» وهو نائب آخر وهذا هو رأي «ريزنر»، أما «جوتييه» فقد رأى فيه بقية اسم «سني»، والرأي الأول لا يتفق مع الواقع.[٢٢] وقد أضاف «جوتييه» إلى المصادر التي ذُكِرَتْ هنا عن «سني» نقشين جاء فيهما اسمه ولكنهما وُجِدَا مهشمين، ويحتمل أن «تحتمس الثالث» هو الذي فعل بهما ذلك. ولكن يمكن على أية حال فهم ما جاء فيهما تقريبًا.

فالنقش الأول مُؤَرَّخٌ بالسابع من بئونة السنة الثانية من حكم «تحتمس الثالث» وهو منحوت على جدران أقدم جزء من معبد «سمنة» على الجدار الخارجي[٢٣] وفي السطر الثاني من هذا النقش جاء فيه ذكر لقب «حامل خاتم الملك» و«السمير الوحيد» و«ابن الملك» و«المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية»، ثم نجد بعد ذلك الاسم مُهَشَّمًا. وقد ظن «برستد» أن هذا النقش خاص بالنائب «ثوري». وقال «ريزنر» إنه النائب «نحي»[٢٤] والظاهر أن «زيته» هو الذي صَحَّحَهُ بحق وقال عنه إنه «سني» الذي تقع مدة حكمه بين «ثوري» و«نحي»، وإن كان قد عاد فيما بعد وقرأ الاسم «نحي» بدلًا من«سني».[٢٥]

ويوجد في المتحف البريطاني قطعة من تمثال من الجرانيت الرمادي من «وادي حلفا»[٢٦] وقد نُقِشَ عليه اسم نائب ملك لبلاد النوبة، ويظهر أنه كان يعمل في عهد الملكة «حتشبسوت» «تحتمس الثالث» ولكن الاسم كان قد كُشِطَ عن قصد وكذلك كُشِطَ اسم الملكة. وألقاب هذا الموظف هي «الشريف» و«الأمير الوراثي» و«حامل خاتم الملك» و«السمير الوحيد» و«عينا الملك» و«أذنا سيد الأرضين» و«مالئ قلب الإله الطيب في النوبة (؟) بالتمام» و«فم الملك في بلاد النوبة» و«المشرف على بلاد الجنوب» و«رئيس رخيت (عامة الشعب)» و«ابن الملك» و«المشرف على البلاد الأجنبية في الجنوب ...». وتدل شواهد الأحوال على أن هذا الاسم الْمُهَشَّمَ هو اسم «سني» تقريبًا، وأنه قد أصاب اسمه من التهشيم والمحو ما أصاب اسم سيدته «حتشبسوت» على يد «تحتمس الثالث» بعد موتها، أي إن ذلك قد حدث ما بين السنة السابعة عشرة والسنة العشرين من حكم «تحتمس الثالث». والواقع أن الملكة كانت لا تزال تشارك «تحتمس الثالث» السلطة. وفي السنة العشرين كان خلف «سني» وهو «نحي» يزاول عمله نائبًا للملك في بلاد النوبة وقد برهن

بقوة الأستاذُ «ريزنر» على أن إحلال «نحي» محل «سني» محتمل تمامًا إذا كان قد حدث في السنة الثانية من عهد «تحتمس الثالث»، وأنه على العكس إذا كان «سني» قد عاد ثانية نائب ملك بعد ذلك بزمن في المدة التي بين السادسة والثامنة من حكم «تحتمس الثالث» فإنه كان لا يكتفي فقط بمحو اسم «نحي» في كل مكان يجده، بل كان على وجه خاص يعيد اسمه في كل مكان حذفه منه «نحي». ولكن على العكس ما قرره «ريزنر» الذي استنبط من هذه الملاحظة الصائبة الخاصة باختفاء اسم «سني» منذ السنة الثانية نهائيًّا من حكم «تحتمس الثالث» يقول «جوتييه» إنه يميل إلى مدِّ زمن ولايته إلى وقت موت الملكة «حتشبسوت» حاميته، وأن نيابة «نحي» لم تبتدئ إلا بعد السنة السابعة عشرة من عهد «تحتمس الثالث» ما بين السنة السابعة عشرة والسنة العشرين من حكم «تحتمس الثالث».

(٣) ابن الملكِ «أنبني»

إن «أنبني» هذا قد تضاربت الأقوال في توليته نيابة بلاد كوش. فيقول «جوتييه» في ملاحظته عنه:[٢٧] لقد حذف «ريزنر» عن قصد من قائمة أسماء نواب بلاد «أثيوبيا» الفرد الذي يُدْعَى «أنبني» وهو الذي وضعه كاتب فهرس كتاب «برستد»[٢٨] خطأً بين أسماء نواب بلاد النوبة وتمثاله موجود بالمتحف البريطاني[٢٩] وقد أظهر أنه كان يُلَقَّبُ «ابن الملك» و«رئيس الرماة» و«المشرف على أسلحة الملك»، ولكنه لم يكن قط يحمل لقب «المشرف على البلاد الأجنبية للجنوب».[٣٠] ومن جهة أخرى فإنه من الجائز أن لقب «ابن الملك» لا يدل قط هنا على بُنُوَّةٍ ملكية حقيقية، وفي هذه الحالة أكون قد ارتكبت خطأً في حذف هذا الأمير من كتابي الخاص بأسماء الملوك وقد ذكره كل من «لبسيوس»[٣١] و«بركش» و«بوريان» و«بدج» في كتبهم. وتمثال «أنبني» كان قد منحه إياه «حتشبسوت» و«تحتمس الثالث».[٣٢] وإذا كان فعلًا «أنبني» ابن ملك فإنه من المحتمل جدًّا أنه ابن «تحتمس الثالث». هذا ما قاله «ريزنر» ووافقه عليه «جوتييه».

ولكن نجد أن «سيف زودربرج»[٣٣] يقول خلافًا لذلك فاستمع إليه: «في العهد المشترك للملك «تحتمس الثالث» والملكة «حتشبسوت» نعرف «ابن الملك» و«رئيس الرماة» للملك اسمه «أنبني» وأنه ليس من المستحيل أن هذا كان نائب الملك لبلاد كوش فإن اسمه هو الذي ينبغي أن يكون في نقوش «تومبوس» بدلًا من «نحي».[٣٤] وذلك أنه بعد كتابة هذا النقش بقليل وضع «نحي» اسمه بدلًا منه».[٣٥]

(٤) ابن الملك «نحي»

تدل شواهد الأحوال على أن «نحي» كان يشغل وظيفة نائب الملك في «كوش» في عهد الفرعون «تحتمس الثالث» حتى السنة الثانية والخمسين من حكم هذا الفرعون، ومن المحتمل أنه بقي في وظيفته هذه حتى موت هذا الفرعون. أما عن بداية توليته هذا المنصب فإن «ريزنر» يقول إنه يرجع إلى السنة الأولى أو الثانية من حكم نفس هذا الفرعون متجاهلًا بذلك وجود نائب الملك «أنبني». ولما كان «تحتمس الثالث» قد حكم ما يقرب من ٥٣ سنة — هذا إذا كان «نحي» قد بدأت ولايته في السنة الثانية وكان لا يزال يزاول عمله في السنة الثانية والخمسين من حكم «تحتمس» — فإن ولايته لا تكون قد استمرت أقل من خمسين سنة. ويقول «جوتييه»[٣٦] إن «ريزنر» لا يعترف له إلا بولاية قدرها ٤٧ سنة أي من ١٥٠٠ حتى ١٤٥٣ق.م. ويستمر جوتييه قائلًا: وقد سنحت لي الفرصة أن ألحظ فيما يخص نائب الملك «سني» أنه من غير المحتمل كثيرًا أنه قد حل محله مرة أولى «نحي» في السنة الثانية ومرة ثانية في تاريخ غير محدود، ولكن يقع ما بين السنة الثامنة والسنة العشرين، وقد ذهبت إلى أن أمد نيابة «سني» يقع في عهد متوسط بين اختفاء الملكة «حتشبسوت» وأول ذكر تاريخ مؤكد لولاية خلفه «نحني» على بلاد النوبة، أي ما بين السنة السابعة عشرة والسنة العشرين من حكم «تحتمس الثالث» عندما أصبح ملكًا منفردًا بالعرش. وعلى ذلك فإن مجال خدمة «نحي» تكون قد امتدت مدة اثنتين وثلاثين سنة على أقل تقدير (من السنة العشرين إلى السنة الثانية والخمسين) أو سبع وثلاثين سنة على أكثر تقدير (من السنة السابعة عشرة إلى الرابعة والخمسين) وهو التاريخ الذي توفي فيه «تحتمس الثالث». والواقع أن ذكر «نحي» في أقدم جزء من معبد «سمنة» مرتين، يدل على أن واحدة منهما مشكوك فيها،[٣٧] لأن الأستاذ «زيته» ظن أنه يمكنه أن يقرأ اسم «سني» بدلا من «نحي» في المرة الأخرى[٣٨] وقد أضيف بعد نفي أو موت «سني» على غرار ما كان يفعله «تحتمس الثالث» غالبًا عندما يضع بدلًا من اسم «تحتمس الثاني» و«حتشبسوت» اسمه هو.

ومما قد يُسْتَحْسَنُ أن نلحظ هنا (فضلًا عما سبق) أن ذكر «نحي» في السنة العشرين من عهد «تحتمس الثالث» غير مؤكد. إذ الواقع أن «ابن الملك المشرف على البلاد الأجنبية للجنوب» الذي نقله «برستد» للمرة الأولى[٣٩] من نقوش صخرة في جزيرة «تومبوس» قد قرأه «برستد» باسم «آني». وهذا الاسم الذي وُجِدَ في النقوش مرتين كان

مُهَشَّمًا عمدًا في المرتين. وقد رفض «ريزنر» قراءة الاسم بلفظة «أني» ويقول إنه من الجائز أن الاسم يُقْرَأُ «نحي».[٤٠]

وقد جمع الأستاذ «ريزنر» كل ما كُتِبَ عن «نحي» وألقابه[٤١] وذكر لنا بوجه خاص «جبلة أبريم» التي تشمل تاريخ السنة الثانية والخمسين من حكم الملك «تحتمس الثالث» وجاء فيها اسم النائب «نحي» كما جاء في «جبلة الليسيه» حيث يوجد متن مُؤَرَّخٌ بالسنة الواحدة والخمسين فلم يُذْكَرْ قط اسم «نحي».[٤٢] وقد خلط «فيدمان» بصورة غريبة بين اسم «الليسيه» واسم «السلسلة» وأعلن أنه يوجد في صخرة من صخور «السلسلة» قبر «نحي» نائب الملك في بلاد الجنوب.[٤٣] والحقيقة أننا نجهل أين يوجد قبر «نحي»،[٤٤] ومع ذلك فإنه في وقت ما كان معروفًا وسُلِبَ ما كان فيه، وذلك لأن تابوت هذا الأمير لا يزال محفوظًا في متحف «برلين». وهرمه الصغير الجنازي موجود بمتحف «فلورنسا» هذا ويجيز لنا ما كشفه «بتري» في «طيبة» خلف معبد الرمسيوم من تماثيل جنازية صغيرة مصنوعة من الخشب باسم «نحي»[٤٥] أن نذهب إلى أن هذا الوالي قد دُفِنَ في جبانة «طيبة» ولم يُدْفَنْ بعيدًا عن سيده «تحتمس الثالث» في بلاد النوبة، ومن المحتمل أنه دُفِنَ على المنحدر الشرقي لتل «قرنة مرعي» حيث قد عُرِفَ هناك كذلك مقابر أخرى لنواب ملوك من الأسرة الثامنة عشرة مثل «مري موسى» و«حوي».

والآثار العدة التي وجدناها باسم «نحي» تدل على أنه كان يقوم بوظائف أخرى غير وظيفة نائب الملك في بلاد النوبة، ويحتمل أنه كان يقوم بها قبل تولية هذه الوظيفة، وإن كان ذلك غير مؤكد. فمثلًا نجد أنه كان يحمل لقب «حامل الخاتم الملكي» و«السمير الوحيد» و«الحاجب الأول للملك» و«مرتل آمون» و«المشرف على الإدارة القضائية»، وكان من جهة أخرى يُدْعَى «الأمير الوراثي» و«الحاكم» و«حظي الملك الممتاز» و«ثقة الملك في بلاد النوبة». ومن ثَمَّ نفهم أن «نحي» هذا كان شخصية عظيمة جدًّا وأنه كان يستحق كل ما أغدقه عليه «تحتمس الثالث» من امتيازات وما حباه به من مكانة عالية. والواقع أنه يرجع إلى مهارته في مدِّ فتوح مصر في بلاد السودان، كما يرجع الفضل إلى إدارته الحازمة أن بقيت الأقطار المفتوحة موالية للفرعون مما سهل عليه أن يلتفت إلى مدِّ حدود إمبراطوريته في الشمال من بلاده، أي في سوريا ومسوبوتاميا.

ولا نزاع في أن «نحي» يُعَدُّ أول حاكم قد هدَّأ البلاد الجنوبية في عهد الأسرة الثامنة عشرة. ولكن على الرغم مما قاله الأثري «بدج»[٤٦] فإن «نحي» لم يكن يحمل بعد لقب «أمير كوش».

وأخيرًا نذكر هنا تمثالًا لهذا الحاكم عثر عليه الأثري «نافيل» في معبد الأسرة الحادية عشرة «بالدير البحري»، وهو تمثال جنازي ضاع رأسه وقد نقش على كتفيه طُغْرَاءُ الملك «تحتمس الثالث» وقد نُقِشَ عليه اسم «نحي» بلقب «ابن الملك» و«المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية».

ويتساءل «سيف زودوبرج»[٤٧] إذا كان نائب الملك «نحي»[٤٨] الذي كُشِفَ له عن آثار في «عنيبة»[٤٩] وكذلك الذي يوجد له تمثال في متحف القاهرة هو نفس «نحي» الذي جاء ذكره في نقوش «تومبوس» التي يرجع عهدها للسنة العشرين من حكم «تحتمس الثالث».

والواقع أنه عُثِرَ في أحد مباني «عنيبة» على عدة أجزاء من هذا المبنى منها أعتاب أبواب وصدغ باب كُتِبَ عليه النقش التالي: «الأمير الوراثي والحاكم وحامل الخاتم الملكي للوجه البحري والعظيم في بيت الفرعون للوجه القبلي والعظيم عند ملك الوجه البحري ومحبوب حور وسيد القصر والمتعالي مع خُلوٍّ من الكبرياء ابن الملك والمشرف على الأراضي الجنوبية «نحي» الذي يحيا ثانية». هذا فضلًا عن أنه يَحمل في هذه النقوش ألقابًا أخرى منها المشرف على المخازن إلخ.

أما التمثال الذي في متحف القاهرة لهذا النائب فيظهر أنه لم يُنْشَرْ قط حتى قام بنشره الأستاذ «نيوبري».[٥٠] وعلى الرغم من أن رأسه قد ضاع فإنه تمثال جميل من عهد الدولة الحديثة ويمثل «نحي» راكعًا على قاعدة مستطيلة ممسكًا أمامه صناجات ضخمة مُمَثَّلَةً في هيئة رأس «حتحور» وقد نُقِشَ في المحراب الذي فوق الصناجة لقب «تحتمس الثالث» وعلى مقدمة الصناجة نقش الإله الطيب رب الأرضين «منخبر رع» بن رع «تحتمس» حاكم طيبة محبوب الإلهة «ساتت» ربة بلاد النوبة مُعْطَى الحياة أبديًا. وعلى ظهر التمثال نَقْشٌ يذكر ألقاب «نحي» ووظائفه. وعلى قاعدة التمثال نقشان يحتوي كل منهما على صيغة قربان وتضرع وألقاب «نحي» ووظائفه المعتادة. وكل دلائل الأحوال تدل على أنه هو نفس «نحي» الذي تتحدث عنه.

(٥) ابن الملك «وسر ساتت»

الظاهر أن هذا النائب قد خلف مباشرة النائب السابق «نحي» إما في نهاية السنة الثانية والخمسين من حكم «تحتمس الثالث» أو في يوم تتويج «أمنحتب الثاني» ابن «تحتمس». وقد ذهب «ريزنر» إلى أن مدة ولاية «وسر ساتت» مكثت ثلاثًا وثلاثين سنة[٥١] (١٤٥٣–١٤٢٠ق.م.)، غير أن هذا التقرير يظهر مستحيلًا بوجه خاص إذا رفضنا معه أن مدة حكم «وسر ساتت» قد امتدت إلى ما بعد حكم «أمنحتب الثاني». وذلك لأن الرقم الذي وضعه «مانيتون» لحكم هذا الملك وهو خمس وعشرون سنة وعشرة أسهر يعتبر رقمًا عاليًا أكثر من اللازم، وذلك لأننا لا نعرف تاريخًا على الآثار لهذا الملك حتى الآن أكثر من السنة الخامسة. هذا إلى أن ما جاء على مسلة «اللتران» الموجودة الآن برُومَةَ يتنافى تمامًا مع الرأي القائل إن الملك حكم أكثر من سبع سنوات.[٥٢] وإذا سلمنا أن «وسر ساتت» — وهو المحتمل — قد استمر في مزاولة وظائفه في بلاد النوبة في عهد خلف «أمنحتب الثاني» وهو «تحتمس الرابع»، فإنه يمكننا أن نحدد زمن ولايته بحوالي ٢٣ سنة. وذلك لأن «تحتمس الرابع» لم يمكث على عرش الملك مدة طويلة، إذ تُقَدَّرُ بحوالي ثماني أو تسع سنين. هذا مع العلم بأن «ريزنر» قد اعترف بنفسه أن عمل «وسر ساتت» قد انتهى في عهد حياة «تحتمس الرابع»؛ وعلى ذلك فإن مدة ولاية هذا النائب على أكثر تقدير تكون قد مكثت سنتين في عهد «تحتمس الثالث» يُضاف إلى ذلك سبع سنوات في عهد «أمنحتب الثاني» وسبع سنوات أو ثمانٍ في عهد «تحتمس الرابع» فيكون المجموع ست عشرة أو سبع عشرة سنة فقط لكل مدة ولايته على وجه التقريب.

وقد ذكر لنا «ريزنر» ثلاثة آثار لهذا النائب في عهد كل من «أمنحتب الثاني» و«تحتمس الرابع» (أي في صخرة «أبريم» وجزيرة «سهيل» وتمثال بهين (وادي حلفا) المحفوظ بالمتحف البريطاني)،[٥٣] ولكن لدينا نقش آخر على صخر جزيرة «سهيل»:[٥٤] جاء فيه ابن الملك المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية «ساتت»، حيث يجب أن نصلح الاسم بإضافة «وسر» قبل «ساتت» فيصبح الاسم «وسر ساتت».

ومن جهة أخرى نشر الأثري «شاسينا» تمثالًا جنازيًّا باسم هذا الوالي[٥٥] وقد جاء على هذا التمثال النقش التالي: «ابن الملك والغلام (مملوك) والمشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية». ولقب «الغلام» (أي الذي تَرَبَّى في القصر) يظهر أنه يبرهن على أن نائب الملك «وسر ساتت» لم يكن ابن ملك على الرغم من أنه كان يُدْعَى ابن ملك، بل كان قد سُمِحَ له منذ نعومة أظفاره أن يتردد على القصر المخصص للأطفال الملكيين وأن يندمج في

حياتهم. ومع كل ذلك فإنا نجد أن «مورية» كان لا يزال يعتقد في أن «وسر ساتت» كان ابن ملك حقيقي وهو قول خاطئ.[٥٦]

(٦) ابن الملك «أمنحتب»

ليس لدينا عن هذا النائب إلا نقش واحد على صخور جزيرة «سهيل»،[٥٧] وقد ظن «جوتييه» أن «أمنحتب» هذا في بادئ الأمر هو نفس «حوري-أمنحتب» وقد قدم لنا «ريزنر»[٥٨] البرهان الرئيسي للتمييز بين هذا النائب «أمنحتب» وبين «حوي» الذي يُسَمَّى كذلك «أمنحتب»، وذلك لأن لقب «حامل المروحة على يمين الملك» يظهر بانتظام في ألقاب «نائب بلاد كوش» من أول ولاية النائب «مري موسى» في عهد «أمنحتب الثالث»، وإذا لم يكن هذا اللقب منقوشًا كتابة فإنه كان يُسْتَدَلُّ عليه بوجود المروحة في الصورة، والواقع أن ألقاب «أمنحتب» الذي نحن بصدده على الرغم من كثرتها في نقش «سهيل» وهو المصدر الوحيد كما قلنا عن هذا النائب حتى الآن، لا يوجد بينها لقب «حامل المروحة». ومن جهة أخرى فإن الشخصية الممثلة في الصورة لا تحمل المروحة بل تحمل علامة الصولجان «سخم» موضوعة على الكتف اليسرى للنائب، ومن ثَمَّ نعلم أن «أمنحتب» قد جاء قبل «مرى موسى». ولما كان الأخير قد ظهر في السنة الخامسة من حكم «أمنحتب الثالث» وجب علينا الاعتراف بأن النائب «أمنحتب» هو سلفه المباشر وأنه حكم في السنين الأولى من عهد «أمنحتب الثالث» بل من الجائز في السنين الأخيرة من عهد «تحتمس الرابع». ويقول «ريزنر» إن هيئته تختلف اختلافًا بينًا عن هيئة نواب الملك الاخرين الذين كانوا يحملون المروحة من أول ولاية «مري موسى».

وعلى ذلك فإذا كان الناشرون لنقش «سهيل» قد أصابوا بوضعهم في اليد اليسرى للنائب «أمنحتب» الصولجان «سخم» لا المروحة، فإنه من المحتمل جدًّا أن نضع هذه الشخصية بين «وسر ساتت» وبين «مري موسى» في سلسلة نواب كوش، وإنه يكون أول واحد من هؤلاء النواب الذين لُقِّبُوا عن قصد «ابن الملك صاحب كوش»، وهو اللقب الذي سَيُعْرَفُ به كل أخلافه من هذه السلسلة حتى آخر واحد منهم وهو نائب الملك «أوسركون عنخ» في عهد الأسرة الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين (؟). ولم نعثر على هذا اللقب حتى الآن إلا من أول عهد «مري موسى»، غير أن ظهوره ينبغي أن يرجع إلى نهاية عهد «تحتمس الرابع»، وإنه من الجائز كما اقترح «ريزنر» أن لقب «ابن الملك

صاحب كوش» كان قد أُعْطِيَ نائب الملك «أمنحتب» ليميزه من الوارث وقتئذٍ للعرش الذي كان يُسَمَّى «ابن الملك» ويُدْعَى كذلك «أمنحتب» وهو «أمنحتب الثالث» فيما بعد.

أما عن مدة نيابة «أمنحتب» هذا فقد حددها «ريزنر» بعشر سنين، وهذا على ما يظهر غير مؤكد. وذلك لأنه إذا كان «وسر ساتت» قد شغل محله آخر عند تولي «تحتمس الرابع» العرش، فإن «أمنحتب» كان قد خدم مدة ثماني سنين في عهد «تحتمس الرابع» وأربع سنين (في عهد «أمنحتب الثالث» في السنة الخامسة التي كان قد خلفه فيها «مري موسى») أي مدة اثنتي عشرة سنة. أما إذا كان من رجال عهد «أمنحتب الثالث» فإن مدة ولايته تكون قد مكثت أكثر من ذلك أربع سنين. ومن المحتمل جدًّا تحديد مدة ولاية «أمنحتب» ما بين هاتين المدتين أي بين أربع سنين واثنتي عشرة سنة.

وأخيرًا نجد أمامنا سؤالًا كما هي الحال مع النائب «وسر ساتت» وهو: هل ترك لنا في جزيرة «سهيل» ذكر اسمه مرة أو مرتين؟ حقًّا لم يذكر الأستاذ «ريزنر» إلا متنًا واحدًا. غير أنه لدينا متن آخر على الصخر،[٥٩] وفي هذا المتن نجد ألقاب هذا النائب كاملة وهي: «المشرف على مواشي «آمون» و«المشرف على أعمال البناء في مصر العليا ومصر السفلي»، و«ملاحظ إصطبل جلالته»، «ابن الملك صاحب كوش»، و«المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية» «وبطل الفرعون» و«الممدوح من الإله الطيب وكاتب الملك» «أمنحتب»».[٦٠]

(٧) ابن الملك «مري موسى»

كان «مري موسى» هو النائب العظيم الذي عاصر الفرعون «أمنحتب الثالث» وقد بدأ عهد ولايته في السنة الخامسة من عهد هذا الفرعون كما نشاهد ذلك على لوحة عُثِرَ عليها في «سمنة» وهي محفوظة الآن بالمتحف البريطاني وتبحث في إخماد ثورة قامت بها بلاد «أبهات» في بلاد النوبة.[٦١] وتاريخ هذه اللوحة قد اختفى، وليس من المؤكد أن الحقائق التي نتحدث عنها قد حدثت في السنة الخامسة[٦٢] أما عن مدة نيابة «مري موسي» فقد حددها الأستاذ «ريزنر» بأربعين سنة (١٤١٠–١٣٧٠ق.م.) وبذلك قد أمدها حتى السنة الثانية من حكم خلف «أمنحتب الثالث» أي «أخناتون» غير أننا لا نعرف شيئا البتة عن هذا الموضوع، والواقع أننا هنا في عالم الحدس والتخمين، فلا يمكن الجزم في هذا الأمر بأية حال من الأحوال.

ولكن المهم هنا في موضوع «مري موسى» هو ما يخص ألقابه فقد لُقِّبَ مرتين المشرف على البلاد الأجنبية في كل طولها (أي في كل امتدادها)[٦٣] غير أن هذا الطول لم يُعَيَّنْ ونحن نجهل إلى أي امتداد في الجنوب وصل الإيغال المصري وسلطان نائب الملك.

ونجده قد ضم إلى لقبه «نائب الملك صاحب كوش» لقب «حامل المروحة على يمين الملك» وسنجد أن هذا اللقب سيحمله كل من تولى نيابة بلاد السودان بعده وهذا اللقب نجده على أربعة آثار وهي:

(١) لوحة نقشت على صخرة جزيرة «تومبوس».[٦٤]
(٢) تابوت «مري موسى» المحفوظ بالمتحف البريطاني.[٦٥]
(٣) لوحة «أسوان» المحفوظة بمتحف القاهرة.[٦٦]
(٤) تمثال صغير بمتحف «فيينا».[٦٧]

ولدينا آثار جنازية للنائب «مري موسى» خلافًا للمخاريط الجنازية التي وُجِدَتْ في «قرنة مرعي» «بطيبة» الغربية وهي التي وُجِدَتْ بجوار قبره الذي كان معروفًا في القرن السابق، غير أنه لم يُعْثَرْ عليه ثانية. ونخص بالذكر من هذه الآثار المصادر التالية:[٦٨]

(١) لوحة في مجموعة المعهد الفرنسي بالقاهرة[٦٩] وقد جاء عليها: «ابن الملك صاحب كوش «مري موسى»».

(٢) لوحة بالمتحف البريطاني[٧٠] وقد جاء عليها «الكاتب الذي ينسب إلى معم (عنيبة) يناجي روح نائب الملك «مري موسى» ويُوَجِّهُ إلى «أوزير» دعاء ليعطي الأخير القربان الجنازية».

وقد عثر «ألكسندر فاري» على قطعتين من الحجر عليهما نقوش لابن الملك صاحب كوش «مري موسى» في الحجرة الثانية من مقبرة «حوي» رقم ٤٠ في «قرنة مرعي».

والأولى قطعة من لوحة مُثِّلَ عليها «مري موسى» يتعبد للإله «أوزير» كما يدل على ذلك النقش التالي الذي وُجِدَ فوق رأسه: «التعبد لأوزير والسجود أمام «وننفر» من «ابن الملك صاحب كوش» «مري موسى»».

والقطعة الثانية عليها عمود من النقش الغائر نُقِشَ عليها: «(المشرف) على بلاد الجنوب «مري موسى» يقول ...».

وعلى الرغم من أن هذين النقشين لا يقدِّمان لنا معلومات جديدة إلا أن مكان وجودهما له أهمية. وتدل شواهد الأحوال على أنهما كانا في مقبرة «مري موسى» التي

كانت معروفة كما قلنا في القرن السالف لأن تابوته قد استخرجه «هاريس»[٧١] من قبره ومن المحتمل أنه يوجد بجوار «حوي». وقد قدَّم «جوتييه» برهانًا قويًّا على وجوده في هذا المكان وأعني بذلك الكشف عن عدد عظيم من المخاريط الجنازية «لمري موسى» هذا في كل المساحة التي تحت مقبرة ابن الملك صاحب كوش «حوي».[٧٢]

هذا وقد عثر «باريز»[٧٣] على تابوت ثالث لهذا النائب في مقبرة «بقرنة مرعي» مما يدل دلالة واضحة على أنه قد دُفِنَ في هذه المقبرة، يضاف إلى ذلك أن خبيئة «الدير البحري» قد عُثِرَ فيها على آنية أحشاء له من المرمر، وهذا يدل على أن مقبرة هذا النائب قد نُهِبَتْ في عهد الفراعنة، وأن ما تبقي منها قد وُضِعَ في خبيئة «الدير البحري»[٧٤] وتقع هذه المقبرة في الجنوب من مقصورة نائب الملك «حوي» المشهور وهو أحد أخلاف «مري موسى» في هذه الوظيفة. وقد جمع الأستاذ «فاري» نقوش توابيت هذا النائب ونشرها[٧٥] ونستخلص منها الألقاب التالية:

(١) ابن الملك صاحب كوش.
(٢) حامل المروحة على يمين الفرعون.
(٣) المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية الجبلية.
(٤) المشرف على جبال الذهب لآمون.
(٥) المشرف على الحيوانات ذات القرون لآمون.
(٦) المشرف على أعمال آمون.

(٨) ابن الملك «تحتمس»

يرجع الفضل إلى الأستاذ «ريزنر» في معرفة شخصية ابن الملك صاحب كوش الْمُسَمَّى «تحتمس» وقد بقي دون أن يُدَوَّنَ في أية قائمة من قوائم أبناء الملوك صاحب كوش إلى أن كشف عن حقيقته «ريزنر»[٧٦] وقد ظن بعض علماء الآثار أنه كان ابن «تحتمس الرابع»[٧٧] وعندما قرأ «ريزنر» الطُّغْرَاءَ التي مع النقش وعرف أنها للفرعون «أمنحتب الرابع» أظهر بذلك أن «تحتمس» هذا كان يقوم بوظيفة نائب الملك في عهد الفرعون «أمنحتب الرابع» أو بعبارة أخرى في عهد «أخناتون».

والآثار التي تنسب «لتحتمس» هذا أربعة غير نقش في جزيرة «سهيل»، وهذه الآثار هي:

(١) نقش «أمنمأبت» على واجهة كهف «لتحتمس الثالث» في «الليسيه».
(٢) لوحة «أمنحتب الرابع» ولم تُحْفَظْ جيدًا وقد وُجِدَتْ في المعبد الواقع شمالي «بهين» (وادي حلفا).
(٣) نقش آخر ممزق على صخور جزيرة «سهيل».
(٤) تمثال صغير «لتحتمس» هذا وجده «ريزنر» في المعبد الكبير رقم ٥٠٠ الخاص بجبل «برقل».[٧٨]

هذه هي الآثار الخمسة التي جاء عليها اسم «تحتمس» هذا. ونلحظ من بينها أن الأثرين الأخيرين مُمَزَّقَانِ، وتقدم لنا قائمة تامة بألقاب «تحتمس».

وأهم هذه الآثار النقش الأوَّل وهو نقش مثلث كُتِبَ على وجهة كهف «تحتمس الثالث» في «الليسيه» (Ellesieh) دوَّنه شخص يُدْعَى «أمنمأبت» ابن «روتي» (؟) ويشير إلى ثلاث خطوات متتالية من مجال حياته بوصفه موظفًا تابعًا لابن الملك صاحب كوش، فكان في أول الأمر كاتب مراسلات ابن الملك «مري موسى» ثم كاتم سر ومشرفًا على الأعمال … في بيت ابن الملك «تحتمس» وأخيرًا نائب كوش لابن الملك «حوي». (أمنحتب).

والواقع أننا إذا أردنا أن نتتبع حرفيًّا تأليف هذا النقش فإن ابن الملك «مري موسى» كان يشغل مكانة وسطًا بين ابن الملك «تحتمس» ونائب الملك «حوي» أي إن «تحتمس» يجب أن يوضع في ترتيب نيابة «كوش» قبل «مري موسى» لا بين «مري موسى» و«حوي»، ولكنا قد شاهدنا أنه ليس هناك مكان خالٍ لابن ملك لكوش قبل «مري موسى» بل قد ظهر على العكس فراغ بين «مري موسى» نائب الملك في عهد «أمنحتب الثالث» و«حوي» الذي كان نائب الملك في عهد «توت عنخ آمون». والواقع أن وجود اسم «تحتمس» تحت طُغْرَاءِ «أخناتون» على نقش صخر جزيرة «سهيل» مضافًا إلى ذلك ضرورة سد الفراغ الذي بين ابن الملك «لأمنحتب الثالث» وابن الملك «لتوت عنخ آمون» يعطينا الحق تمامًا في أن نقبل الترتيب الذي وضعه «ريزنر» وبخاصة لأن ترتيب الوظائف التي تقلب فيها «أمنمأبت» تحت رياسة النائبين «مري موسى» و«تحتمس» لم يكن ظاهرًا كما أراد «ريزنر» أن يفهمه.

أما عن مدة نيابة «تحتمس» وتاريخها فلا نعرف عنهما شيئًا على وجه التأكيد، فمثله في ذلك كسابقه وقد حدد «ريزنر» تاريخ نيابته باثنتي عشرة سنة وجعله من

١٣٧٠–١٣٥٨ق.م. ومن ذلك نفهم أن «تحتمس» قد بقي في وظيفته إلى ما بعد الثورة الدينية التي حدثت في السنة السادسة من عهد «أخناتون» وهذا ما لا نعرفه قط، ومن جهة أخرى هل عاش تحتمس بعد عهد أخناتون؟ وهل كان يعمل في وظيفته في عهد «سمنخ كارع»؟ قد يجوز ذلك لأن قبر خلفه «حوي» يظهر لنا أن صاحبه كان قد تولى مهام وظيفته في عهد «توت عنخ آمون» الذي أعاد عبادة «آمون». وعلى ذلك فإنه يمكن القول بأن نيابة «تحتمس» قد استمرت في أثناء مدة حكم كل من «أخناتون» و«سمنخ كارع» أي أكثر مما قدَّرها «ريزنر».

(٩) ابن الملك «حوي»

نُصِّبَ «حوي» نائبًا للملك في بلاد كوش في عهد الفرعون «توت عنخ آمون» الخلف الثاني للفرعون «أخناتون» ولكن التاريخ الذي عُيِّنَ فيه ليس معروفًا لنا، ولم يكن «حوي» نائبًا في عهد الملك «آي» خلف «توت عنخ آمون»، ومن المحتمل جدًّا أن مدة نيابته لم تمكث أكثر من سبع سنين أي مدة حكم «توت عنخ آمون» القصيرة، وأهم أثر استقينا منه معلوماتنا عن هذا النائب هو قبره الذي عُثِرَ عليه في «قرنة مرعي» حيث دُفِنَ.[٧٩] وقد تحدثنا عن هذا القبر في غير هذا المكان.[٨٠] وفي هذا القبر نجد مصوَّرًا الاحتفال بتنصيب «حوي» في وظيفته النوبية الرفيعة على يد الملك «توت عنخ آمون»، ونعلم من النقوش أن حدود البلاد التي كان يديرها تمتد من «نخبيت» (الكاب الحالية) شمالًا حتى «نباتا» (إقليم جبل برقل) جنوبًا. وكان يُدْعَى «حوي» كذلك «أمنحتب» وهذا الاسم لم يرد على أي أثر آخر من آثار نائب الملك. ونجد في قبره الألقاب التالية: «ابن الملك صاحب كوش» و«المشرف على الأراضي الجنوبية» و«حامل المروحة على يمين الفرعون» و«الأمير الوراثي» و«الحاكم والكاهن مري نتر» و«رسول الملك لكل أرض» و«كاتب الملك» و«السمير الوحيد».

هذا وقد وُجِدَ له آثار عدة في جهات مختلفة منها قطعة من تمثال حقير من الحجر الرملي في معبد «أمنحتب الثالث» «بالكاب» وعليه اسمه[٨١] وكذلك وُجِدَ له في جزيرة «سهيل» نقش على الصخر،[٨٢] ويُلْحَظُ هنا أن اسم «توت عنخ آمون» قد مُحِيَ على ما يظهر في عهد «آي» أو في عهد «حور محب» وقد وضع «رعمسيس الثاني» اسمه مكان اسم «توت عنخ آمون». هذا وقد وُجِدَ اسمه كذلك في جزيرة «سهيل»[٨٣] وقد كتب «رعمسيس الثاني» اسمه على اسمه وأخيرًا نجد اسمه في كل من «بيجه» و«الليسيه».[٨٤]

ومن الجائز توحيد «حوي» المُسَمَّى «أمنحتب» هذا باسم «أمنحتب» المُسَمَّى «حوي» الذي نجده على لوحة «اللوفر» C. ٧٢. ومن جهة أخرى ليس هناك من شك في أن «حوي» نائب الملك ليس له أية علاقة بالموظف «حوي» الذي جاء ذكره في المقبرة رقم واحد في «تل العمارنة» ولا بالشخصيات التي جاء ذكرها في لوحات «تل العمارنة» وهم «خاي»، «خايا» أو «خييا».[٨٥]

(١٠) ابن الملك باسر (الأوَّل)

حاول الأستاذ «ريزنر» أن يثبت أن نائب كوش «باسر» لم يكن بينه وبين الملك «حور محب» علاقة مباشرة،[٨٦] ولكن على الرغم من عدم وجود هذا الدليل القاطع فإن من حقنا أن نجعل مدة ولاية «باسر» تمتد إلى ما بعد مدة حكم الملك «آي» القصيرة الأمد أي إلى حُكْمَيْ «حور محب» و«رعمسيس الأول» اللذين لم يحكما بدورهما إلا مدة وجيزة، بل من المحتمل كذلك أن مدة نيابته استمرت إلى السنين الأول من عهد «سيتي الأول» حيث نجد أن ابنه «أمنمأبت» قد خلفه في ولاية بلاد النوبة.

ولكن إذا كانت لوحة «جبل الشمس» الشمالية الواقعة في مركز «أده» في جنوبي «أبو سمبل» تبرهن على أن «باسر» كان نائب الملك في كوش في عهد الفرعون «آي»[٨٧] فإنه يظهر من المؤكد أن الطُّغْرَاءَ التي نقلها «شمبليون» للمرة الأولى في الكهف الصغير لنفس «باسر»، وهو الذي حفر على مسافة بعض أمتار جنوب لوحته[٨٨] هو طُغْرَاءُ التتويج للملك «حور محب» وليست بأية حال من الأحوال طُغْرَاءَ «رعمسيس الثاني»، وذلك أن شمبليون قد خلط بين الطغرائين اللتين وُحِّدَ عنصراهما الثانيان. والواقع أن هذا الخلط يمكن تفسيره إلى حد ما، وذلك لأن طُغْرَاءَيْ «حور محب» نادرتا الوجود في الإقليم النوبي إذا ما قُرِنَتَا بِطُغْرَاءَىْ «رعمسيس الثاني» الْمُنْتَشِرَتَيِ الوجود. وقد حقق «جوتييه» قراءة هذه الطُّغْرَاءَ في زيارة له إلى هذه الجهة.[٨٩] وقد اعترف بذلك «ريزنر» في حاشية له.[٩٠]

وقد كان «باسر» نائبًا على بلاد النوبة مدة أربع عشرة سنة على أقل تقدير تقع في عهد كل من الملك «آي» و«حور محب» و«رعمسيس الأول»، ومن المحتمل أنه حكم أكثر من هذه المدة، هذا إذا كان قد دخل الخدمة في عهد «توت عنخ آمون». وإذا كان ابنه «أمنمأبت». لم يخلفه في هذا العمل الهام إلا في السنين الأولى من حكم الفرعون «سيتي

الأول». وليست هناك أي ضرورة أو سبب مقبول إلى التمسك بأنه حكم مدة خمس وثلاثين سنة كما يقول «ريزنر» (أي من ١٣٥٠–١٣١٥ق.م.).

وقد وضع لنا الأستاذ «ريزنر» قائمة واضحة مُعني بها عن الآثار التي حفظت لنا ذكريات هذا الوالي وإن كانت على أية حالة قليلة بعض الشيء.[٩١]

وليس لدينا ما نقوله هنا عن الأثرين الأولين وهما اللوحة ونقش كهف «جبل الشمس» أكثر مما سبق. أما نقوش صخر «جزيرة سهيل» فقد وصفت «باسر» بأنه الأمير الوراثي والحاكم والعظيم على رأس الناس. ويلحظ هنا أن «مسبرو» قد وحد «باسر» هذا خطأً بآخر يُدْعَى بنفس الاسم، غير أنه عاش في عهد «رعمسيس الثاني».[٩٢] وقد مُثِّلَ «باسر» واقفًا وبيده اليسرى المروحة وهي رمز الشرف لحامل المروحة على يمين الفرعون، وهو اللقب الذي ذُكِرَ على كهف «جبل الشمس».

ووُجِدَ له كذلك نقش على صخر يقع على الطريق من «أسوان» إلى «الفيلة»، والواقع أنه أثر لولده نائب الملك في كوش الْمُسَمَّى «أمنمأبت» الذي أعلن فيه أنه ابن نائب الملك «باسر».

ولم يَرِدْ في المصادر التي ذكرها «ريزنر» اللوحة C.22 المحفوظة بمتحف «جيميه» بباريس باسم ابن الملك «باورسب» (؟) وفي رواية أخرى «باسر» وهذه اللوحة قد نشرها أولا «ڤيدمان»؛[٩٣] وقد نشرها ثانية الأستاذ «موريه»،[٩٤] ويظن جوتييه أن ما لدينا هو لوحة لنائب الملك في كوش في عهد كل من الملكين «آي» و«حورمحب»، وأنه قد خصص اسمه والعلامة الدالة على الأجنبي مشيرًا بذلك إلى احتمال أنه كان من أصل نوبي (؟). وقد خلط «ڤيدمان»[٩٥] «باسر» هذا والد «أمنمأبت» «بباسر» آخر صاحب مقبرة في جبانة «طيبة»[٩٦] وكان ضمن ألقابه عمدة «طيبة» في عهد «سيتي الأول» و«رعمسيس الثاني»، ولكنه لا يشترك بالتأكيد مع نائب الملك «باسر» الذي عاش في عهد كل من الملك «آي» و«حورمحب» إلا في الاسم.[٩٧]

ويُلَاحَظُ هنا أن نائب الملك «باسر» الأول قد وضعه «ڤيل» خطأ[٩٨] في قائمة وزراء الدولة الحديثة وذلك بسبب قراءة خاطئة نقلها «لبسيوس» من كهف «جبل الشمس» السابق، ولكن القراءة الصحيحة هي: «حامل المروحة على يمين الفرعون» بدلًا من قراءتها «وزير».

أما الألقاب التي كان يحملها «باسر» في النقوش فهي: «ابن الملك صاحب كوش والمشرف على أراضي «آمون» في «تاستي» والأمير الوراثي والحاكم، والأمير على رأس الناس والممدوح من سيده «آمون»».

(١١) ابن الملك «أمنمأبت»

تحدثنا عن هذا الوالي في مناسبات عدة في الأجزاء السابقة من مصر القديمة.[٩٩] وحدثنا الأثري «جوتييه» عن مدة نيابة «أمنمأبت».[١٠٠]

وقد جعل «ريزنر» مدة نيابة «أمنمأبت» في عهد كل من «سيتي الأول» و«رعمسيس الثاني» وقد قال إن مدة حكمه في بلاد النوبة هي حوالي خمس وعشرين سنة، ولكن هذه المدة تظهر طويلة بصورة غريبة جدًّا فإذا اعترفنا أنه خلف والده «باسر» منذ حكم «رعمسيس الأول» (وهذا ما نجهله كلية) الذي لم يحكم إلا مدة قليلة جدًّا لا تزيد عن سنتين فإنه كان يلزم «لأمنمأبت» ليشغل وظيفته مدة خمس وعشرين سنة بوصفه الحاكم الأعلى في الجنوب أن يكون حكم «سيتي الأول» قد استمر أكثر من عشرين سنة، والواقع أن «ريزنر» نفسه قد رفض في نهاية تعليقه على هذا الموضوع قبول مدة حكم طويلة مثل هذه للفرعون «سيتي الأول». غير أن البحوث الحديثة تميل إلى إثبات هذا الرأي، وذلك لأن «سيتي الأول» قد أشرك معه ابنه «رعمسيس الثاني» في الحكم أكثر من عشر سنوات. وقد بَحَثْتُ هذا الموضوع بالتفصيل في الجزء السادس من هذه الموسوعة[١٠١] وذلك على ضوء طرز النقش التي كان يستعملها «رعمسيس الثاني» في نقش معابده ومبانيه، والألقاب التي اتخذها لنفسه كذلك في أطوار طرز النقش الأربعة التي استعملها كما هو مُفَصَّلٌ في مكانه، إذ نجد أنه قد استعمل النقش الغائر في معابده بصورة شاملة. وسأضع هنا أما القارئ ما حدث في الطور الرابع من أطوار حياته من حيث النقش[١٠٢] مما يسهل على القارئ فهم تعاقب ولاية «إيوني» بعد «أمنمأبت» مباشرة وأنهما لم يحكما بلاد النوبة في وقت واحد:

> «نجد أن «رعمسيس» حفر نقوشًا جديدة من الطراز الغائر فقط واستعمل اللقب «وسر ماعت رع ستبن رع» ويجب أن نضع الطورين الثالث والرابع في فترة انفراده بالحكم ومن الجائز أنهما كانا يتداخلان تاريخيًّا».

ومن أهم الشواهد التي تبرهن لنا على صحة اشتراك «رعمسيس الثاني» مع «سيتي الأول» ما نجده محفورًا حفرًا غائرًا على جدران معبد «بيت الوالي» الواقع في منتصف الطريق بين الشلال الأول والشلال الثاني، وكله منحوت في الصخر فنشاهد منظر جزية بلاد النوبة يقدمها للفرعون طائفة من وجهاء المصريين ومن بينهم ولده الأكبر المسمى «آمون حرو نمف» الذي مات قبل إتمام نقش هذا المنظر، وكذلك «أمنمأبت» الذي كان

يحمل لقب نائب الملك في بلاد النوبة، وقد أشار الأستاذ «ريزنر» في دراسة نوَّاب الفرعون في بلاد النوبة إلى أن ابن الملك صاحب كوش «أمنمأبت» بن «باسر» شغل هذه الوظيفة نحو عشرين سنة قضى معظمها في خدمة «سيتي الأول»، وأنه قد مثل بلقبه نائب الملك في منظر «بيت الوالي» الذي يقدم فيه الجزية، وقد أخذ بعد ذلك «ريزنر» يقول: «إنه كان يوجد ابن ملك صاحب كوش يُدْعَى «إيوني» مُمَثَّلًا على جدران معبد «وادي مياه» أو «وادي عباد» وهو المعروف عند الأثريين بمعبد «الرديسية» ومعه نقوش ذُكِرَ فيها «سيتي الأول»، وأنه كان لا يزال على قيد الحياة، وأن «إيوني» هذا نفسه قد مُثِّلَ ثانية بوصفه ابن الملك صاحب كوش على لوحة منقوشة في الصخر تقع شمالي معبد «أبو سمبل» الصغير في عهد «رعمسيس الثاني»، ثم يقرر بعد ذلك الأستاذ «ريزنر» أنه لم يكن في مقدوره أن يجد بين نواب الملوك في كوش مثالًا واحدًا لنائبين حَكَمَا في وقت واحد في بلاد النوبة مدة أربعة القرون التي أمكنه خلالها بحث تاريخ هذه الوظيفة، وبذلك يقرر «ريزنر» أنه إذا كان «أمنمأبت» نائبًا للملك في بلاد كوش في عهد كل من «سيتي الأول» و«رعمسيس الثاني» فمن الواضح جدًّا أن يكون «إيوني» قد خلف «أمنمأبت» في مدة اشتراك الملك «سيتي الأول» مع ابنه في حكم البلاد.[١٠٣] ولما كان «أمنمأبت» وقد ظهر ممثلًا في النقش الذي في «بيت الوالي» (وهو الذي كان قد نحت مدة الطور الثاني عندما كان «رعمسيس» يستغمل لقب «وسر ماعت رع») فلا شك في أن هذا اللقب القصير كان من مميزات عهد اشتراك المِلكين في الحكم، وإذا كان «سيتي» على قيد الحياة عندما زين معبد «بيت الوالي» فإن الحملات الحربية التي شنَّها على سوريا ولوبيا وبلاد النوبة (وهي الْمُمَثَّلَةُ على جدرانه) قد حدثت في عهد اشتراك الوالد والابن في حكم البلاد، ولذلك يمكن العدول عن التفسير الذي ذكره «برستد» وهو الذي يقول فيه: «إن «رعمسيس الثاني» قد أقحم صورته في نقوش حروب «سيتي الأول» التي حفرها على جدران معبد «الكرنك» إذ الواقع أن «رعمسيس» قد أضاف صورته لاشتراكه فعلًا في بعض الحملات، ومن المحتمل أنه كان — كما جاء على لوحة «كوبان» — رئيس الجيش عندما كان طفلًا في العاشرة من عمره».

هذا وقد دل البحث على أن «رعمسيس الثاني» لم ينفرد بالحكم إلا في السنة العشرين من حكمه ومن جهة أخرى نعلم أن «سيتي الأول» قد حكم منفردًا نحو عشر سنين، ومن ثَمَّ نفهم أن تقدير مدة حكم «أمنمأبت» في السودان بنحو عشرين سنة ليس فيها مبالغة.

والآثار التي جمعها «ريزنر» خاصة بهذا النائب عددها تسعة[١٠٤] وكلها في المنطقة التي ما بين «أسوان» حتى الشلال الثاني تقريبًا وينحصر تاريخها في عهدَي «سيتي الأول» و«رعمسيس الثاني».

هذا ويوجد في متحف مدينة «بون» من أعمال ألمانيا على نهر الرين لوحة جنازية مشطورة شطرين[١٠٥] جاء فيها: «ابن الملك صاحب كوش ومدير البيت وعمدة المدينة والمشرف على بَيْتَيِ الفضة لرب الأرضين». والاسم قد وُجِدَ بعد ذلك مهشمًا، ولا نعلم لأي سبب نسب ناشر هذه اللوحة إلى «أمنمأبت» بن «باسر» من عهد «رعمسيس الثاني». وعلى أية حال فإن الألقاب التي على اللوحة لها أهمية عظيمة إذ نعم منها أن نائب كوش يمكن أن يكون ذا مكانة عظيمة قبل توليته نيابة بلاد كوش مثل «المشرف على مالية البلاد للفرعون» و«عمدة المدينة (طيبة)» و«المشرف على ضياع الملك (بيته)» وهذه الألقاب تبرهن لنا على أن الفرعون كان ينتخب حكام بلاد كوش دون تمييز من كل أصناف الموظفين النابهين.

على أن الألقاب التي وجدناها للنائب «أمنمأبت» وهي المستخلصة من نقوشه لم توجد بينها هذه الألقاب التي جاءت على لوحة مدينة «بون» وهاك ألقابه من آثاره التي ذكرها «ريزنر»:[١٠٦] «سائق العربة الأوَّل لجلالته» ابن الملك «أمنمأبت» ابن «ابن الملك» «باسر»، و«حامل المروحة على يمين الفرعون» و«حاكم البلاد الجنوبية».

(١٢) ابن الملك «إيوني»

لم يذكر لنا «ريزنر» عن آثار هذا النائب الذي خلف «أمنمأبت» إلا مصدرين وهما لوحة «وادي عباد» واللوحة التي في شمال معبد «أبو سمبل الصغير»[١٠٧] وقد أضيفت بعد ذلك ثلاثة آثار أخرى: أولها على واجهة معبد «أبو سمبل» الصغير حيث نشاهد «إيوني» على ما يظهر قد مُثِّلَ بوصفه هو الواضع لهذه الوثيقة، وكان على رأس قائمة من أولاد «رعمسيس الثاني» وكلهم قد نُعِتُوا بكلمة «صادق القول»[١٠٨] (أي إنهم قد ماتوا). أما الأثر الثاني فهو لوحة عُثِرَ عليها في المكان السابق وهي التي نقلها ونشرها أوَّلًا «شمبليون»[١٠٩] ثم كشف عنها «برستد»[١١٠] وجاء لقب «إيوني» عليها: ابن الملك صاحب كوش «إيوني» من أهالي «أهناسية المدينة».

وأخيرًا نشر «دارسي» لوحة عثر عليها في «العرابة المدفونة»[١١١] باسم فرد يدعى إيوني، ومن ألقاب هذا الرجل نعلم على أغلب الظن أنه هو نفس «إيوني» نائب بلاد

كوش الذي نحن بصدده الآن. وهاك الألقاب التي يحملها في هذه اللوحة: «المشرف على البلاد الأجنبية في الإقليم الأجنبي للجنوب وابن الملك في النوبة (تاستي)، ومدير الأعمال في طيبة وعظيم بلاد المزوي. ويلاحظ أن النقش الذي على الصخر القريب من معبد «وادي مياه»[١١٢] يلقب فيه «إيوني» كذلك عظيم «المزوي»، وفي الوقت نفسه كان يلقب ابن الملك في «كوش»، في حين أنه في لوحة «العرابة» التي يَدَّعِي «دارسي» أنها بعد نقوش «وادي مياه» ونقوش «أسوان» و«أبو سمبل» قد حَلَّ محل اللقب الأخير لقب ابن الملك في النوبة (تاستي).

ونجد أنه في هذه اللوحة لم يحمل اللقب العادي الذي كان يحمله نواب كوش وهو «ابن الملك صاحب بلاد كوش». وقد فُسِّرَتْ هذه الظاهرة بتفسيرات مختلفة منها أنه كان قد غضب عليه الملك، ومهما يكن من أمر فإن «إيوني» هو النائب الوحيد المعروف لنا الذي حاز لقب «ابن الملك في النوبة» حتى الآن، ولا يبعد أن هذا اللقب الجديد لا يخرج عن أنه مرادف للقب ابن الملك صاحب كوش. وعلى أية حال فإن لوحة «العرابة» تُعَدُّ من هذه الناحية من الأهمية بمكان.

وليس هناك من شك في «إيوني» قد خلف «أمنمأبت» في نيابة بلاد كوش وأنهما لم يحكما في وقت واحد.[١١٣]

(١٣) ابن الملك «حقا نخت»

عدَّد الأستاذ «ريزنر» الآثار التي جاء عليها اسم نائب الملك «حقا نخت» وهي سبعة وكلها في بلاد النوبة،[١١٤] وأهم هذه الآثار التمثال الذي وُجِدَ في مجموعة «فلبور»[١١٥] واللوحة المنحوتة في الصخر في جنوبي معبد «أبو سمبل» الكبير،[١١٦] يُضَافُ إلى ذلك أن الأستاذ «ريزنر» قد صَحَّحَ وكَمَّلَ الألقاب الْمُمَزَّقَةَ الخاصة بهذا النائب، كما وُجِدَتْ على نقش محفور في صخور الطريق ما بين «أسوان» و«الفيلة»، وفي هذه الألقاب نجد لقبًا هامًّا لهذا النائب وهو «رسول الملك (رعمسيس الثاني) في كل البلاد»، أما احتمال نسبة نقشين آخرين له من نقوش القائمة الخاصة بآثار هذا النائب كما ذكر «ريزنر» فإنه لا يرتكز على أساس مقنع ويحتمل أنهما لنائب آخر من عهد «رعمسيس الثاني».[١١٧]

وقد عُثِرَ حديثًا على عتب باب في «العمارة غرب» جاء عليه اسم «حقا نخت» من عهد «رعمسيس الثاني» وأن مُهْدِي هذا العتب هو «نائب رب الأرضين» «حاتياي». ويقول «فرمان» الذي قام بأعمال الحفر في «العمارة غرب» وكشفها على حسب طبقات

آثارها إنه من الجائز إذن أن الطبقة الثالثة يمكن نسبتها إلى عهد نيابة «حقا نخت» وأن «حاتياي» يحتمل أن يكون الحاكم المحلي للمنطقة. وتأريخ مدة نيابة «حقا نخت» بالضبط ليست معروفة، ولكن من المقرر أنه كان يقوم بأعمال وظيفته في السنين الأولى من حكم «رعمسيس الثاني»[١١٨] وتدل شواهد الأحوال على أن «العمارة غرب» كانت مقر الحاكم منذ عهد «سيتي الأوَّل» الذي يُقَالُ إنه هو المؤسس لها.[١١٩]

وأخيرًا إذا سلمنا أن نائب الملك المجهول الاسم على لوحة «كوبان»[١٢٠] هو «حقا نخت» كما اقترح ذلك «ريزنر»[١٢١] فإنه ينبغي علينا أن نعترف بأنه كان الخلف المباشر لنائب الملك «إيوني»، وأنه قد كان فعلًا يشغل هذه الوظيفة في السنة الثالثة من عهد «رعمسيس الثاني» عندما انفرد بالحكم. ويقرر له «جوتييه» مدة عشرين عامًا في نيابة بلاد كوش[١٢٢] مع كل تحفظ.

أما ألقابه كما نستخلصها من آثاره فهي «ابن الملك صاحب كوش، والمشرف على البلاد الجنوبية وحامل المروحة على يمين الملك، ورسول الملك لكل أرض، والأمير الوراثي والحاكم وحامل خاتم الملك وسار القلب وشاهد الصدق وفخر سيده ومن يذهب حينما يُرْسَلُ ومن فيه الرضا بسبب امتيازه».

(١٤) ابن الملك «باسر (الثاني)»

يدل ما لدينا من آثار لنائب الملك «باسر الثاني» الذي عاصر الملك «رعمسيس الثاني» على أنه لا توجد له أية نقوش في «أسوان» كما جاء ذكر ذلك في بعض المصادر.[١٢٣] والآثار التي تركها لنا أربعة على حسب ما جاء في مقال «ريزنر»[١٢٤] ثلاثة منها في «أبو سمبل» والرابع هو الأثر الذي تركته لنا أسرة «أمنمأبت» المحفوظ الآن في متحف «نابلي» وقد تحدثنا عنه طويلًا في الجزء السادس من هذا الْمُؤَلَّفِ.[١٢٥]

يُضاف إلى هذه القائمة تمثال راكع من الحجر الرملي محفوظ الآن بالمتحف البريطاني ويمثِّل نائب الملك هذا قابضًا على مائدة قربان مستديرة يعلوها رأس الكبش الذي يمثله الإله «آمون»[١٢٦] والصلوات التي عليه هي باسم ابن الملك صاحب كوش «باسر» ويبرهن ذكر اسم «آمون رع» في بيت «رعمسيس» بين الآلهة التي توجه لهم هذه الصلوات على أن المقصود هنا هو «باسر الثاني» المعاصر للفرعون «رعمسيس الثاني»، وهو الذي قد نقش طُغْرَاءَهُ على العمود الذي يستند عليه التمثال. والتمثال المذكور كان ضمن مجموعة «بلزوني–صولت» القديمة وعلى ذلك يكون قد عُثِرَ عليه ما بين عامي

١٨١٥ و١٨٢٠م في بلاد النوبة ويحتمل بجوار أحد المعابد العدة التي أقامها «رعمسيس الثاني» هناك.

ويجب أن نفهم هنا أن الوزير «باسر الثاني» ليس هو بعينه «باسر الثاني» نائب الملك في كوش وذلك لأن الأول هو ابن «نبنترو» في حين أن والد الآخر هو «منموس».[١٢٧]

ولا نعلم على وجه التأكيد الفترة التي كان نائبًا فيها في عهد «رعمسيس الثاني» الطويل، والمحتمل أنه كان في الجزء الأول من حكم هذا الفرعون وقبل السنة الثامنة والثلاثين التي وجدنا فيها أن «سثاو» كان يشغل هذه الوظيفة فعلًا، هذا ولا نعرف المدة التي قضاها نائبًا لكوش.

وقد وُجِدَ فضلًا عن ذلك لوحتان لنائب الملك «باسر الثاني» في «أبو سمبل».[١٢٨]

والألقاب التي كان يحملها هذا النائب هي: ابن الملك صاحب كوش، والمشرف على البلاد الأجنبية وكاتب الملك «باسر» بن «منموس».

(١٥) ابن الملك «سثاو»

وجدت لنائب الملك «سثاو» آثار عدة في مختلف بقاع بلاد النوبة منها تسع وثائق غير مُؤَرَّخَةٍ وعشرون مُؤَرَّخَةٌ بعهد «رعمسيس الثاني».[١٢٩] وهذه الوثائق المؤرخة تحتوى على معلومات مُرَتَّبَةٍ ترتيبًا تاريخيًا من الطراز الأول. والواقع أنه كان قد قام بمهام منصبه في العام الثامن والثلاثين من عهد «رعمسيس الثاني» كما يدل على ذلك اللوحة المزدوجة المنقوشة على الصخور الواقعة في جنوبِيِّ المعبد الكبير «بأبو سمبل».[١٣٠]

هذا ونجد من جهة أخرى أنه كان لا يزال يقوم بمهام منصبه في السنة الثالثة والستين من حكم هذا الفرعون[١٣١] أي في نهاية حكمه الذي وصل إلى سبعة وستين عامًا. ومما تطيب الإشارة إليه هنا أن الرقم ٦٣ الذي اقترحه «ويجول» غير مُؤَكَّدٍ كما لَمَّح لذلك «ريزنر»[١٣٢] أما السنة الرابعة والأربعون التي نقلها «جوتييه» عن اللوحة التاسعة من «وادي السبوع» فليس فيها شك.[١٣٣]

وفيما يخص نقش جزيرة «ساي» الذي أشار إليه «برستد»[١٣٤] فإنه يقرر أن «سثاو» يحمل فيه من بين ألقابه لقب «المشرف على بلاد الذهب لآمون» ويعلن أن هذا اللقب قد جاء مؤكِّدًا لنظريته التي تقول بوجود بلاد نوبية خاصة بذهب «آمون» منذ بداية الأسرة التاسعة عشرة. ويطيب لنا أن ندحض هذا التأكيد بأن نذكر أن أوَّل نائب لبلاد كوش حمل لقب المشرف على بلاد الذهب «لآمون» هو «مري موسى» الذي عاش في

عهد «أمنحتب الثالث» أي قبل عهد «رعمسيس الثاني» بنحو قرن من الزمان. وعلى أية حال فإن هذا اللقب كان معروفًا في نقوش «ستاو» قبل أن يعثر عليه «برستد» في المثال الذي جاء في نقوش جزيرة «ساي».

ونذكر هنا أن لوحة «أبو سمبل»[١٣٥] تنحصر أهميتها في أنها تبرهن لنا على أن نواب الملوك في كوش كان يمكنهم أن يجمعوا بين الوظائف الدينية ووظيفتهم الأصلية إذ كان النائب هو «المشرف على الكهنة» كذلك، والألقاب الدنيوية يظهر أنها ليست للنائب «ستاو» على وجه التأكيد على رأي «لبسيوس»[١٣٦] وإن كان «ريزنر» يرى أنها حقًّا له.

والتمثال الثاني الذي يُنْسَبُ إلى «ستاو» عُثِرَ عليه في «جرف حسين» وهو محفوظ الآن بمتحف «برلين»[١٣٧] وقد جاء عليه بعض ألقاب لم يذكرها الأستاذ «ريزنر» مثال ذلك: «المشرف على أملاك المدينة (طيبة) والمشرف على الممالك الأجنبية للذهب».

هذا وقد جاء ذكر «ستاو» على بعض آثار لم يأتِ ذكرها فيما أورده الأستاذ «ريزنر» من آثار لهذا النائب:[١٣٨]

- **أولًا:** يوجد بالمتحف البريطاني منظر بالحفر الغائر على الحجر الرملي[١٣٩] عُثِرَ عليه في «وادي حلفا» وقد مُثِّلَ فيه «ستاو» يتعبد للإلهة «رنوتت» وإلى الطُّغْرَاءِ الأولى «لرعمسيس الثاني»، و«رنوتت» هي إلهة الحصاد وتُمَثَّلُ غالبًا في صورة ثعبان.
- **ثانيًا:** نعلم أن «ستاو» لم يُصْلِحِ الكوة الجنوبية لباب الدخول في معبد «عمدا» بل من المحتمل كذلك على الرغم من أن اسمه لم يُذْكَرْ أنه هو الذي أنشأ الأنشودة التي يتعبد فيها «رعمسيس الثاني» للإله «رع حور أختي»، وهي التي نُقِشَتْ على العمود الأول من اليمين لقاعة العمد.[١٤٠]

وقد تحدث «لبسيوس»[١٤١] عن وجود لوحة كبيرة منحوتة في الصخر على مسافة بضع دقائق من معبد «وادي السبوع» غير أنها مُهَشَّمَةٌ جدًّا وقد جاء فيها ذكر اسم «ستاو».

وكذلك شاهد «لبسيوس» في عام ١٨٤٢م[١٤٢] نقشًا باسم ابن الملك صاحب كوش «ستاو».

هذا ويوجد غير التمثال الذي وُجِدَ في معبد «جرف حسين» الذي ذكرناه فيما سلف تمثال آخر في متحف «برلين» نُقِشَ عليه «ابن الملك صاحب كوش» وفي رواية أخرى «الابن الملكي» «ستاو» بدون لقب آخر وقد مثل قابضًا في يده على محراب صغير يحتوى على صورة «أوزير».[١٤٣]

وأخيرًا يوجد في متحف «كالفيه» (Calvet) في «أفينون» (Avignon) بفرنسا لوحة جميلة مستديرة من أعلى باسم: «ابن الملك صاحب كوش، والمشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية وحامل المروحة على يمين الملك والكاتب الملكي «سثاو» المرحوم. وقد قدَّمها له الكاهن الأول «لرعمسيس الثاني» «عت تن» وخادم ابن الملك «باواخرد».[١٤٤] وهذه اللوحة على ما يظهر من بلدة «باك» في بلاد النوبة وإلهها هو «حور» الذي كتب له دعاء. والظاهر أن هذه اللوحة كانت قُدِّمَتْ لكل من «رعمسيس الثاني» ونائبه في بلاد كوش «سثاو» بعد وفاتهما».

وخلاصة القول أن «سثاو» يُعَدُّ من أعظم النوَّاب الذين حكموا بلاد النوبة في عهد «رعمسيس الثاني» ومن أطولهم مدة إذ بقي في وظيفته على ما يظن أكثر من خمسة وعشرين عامًا، وكان يحمل الألقاب التالية كما نستخلص ذلك من نقوشه التي تربى عن خمسة وثلاثين وهاك معظمها: الأمير الوراثي والحاكم، وابن الملك صاحب كوش، والمشرف على البلاد الأجنبية للجنوب، وكاتب الملك والمشرف على أرض الذهب لآمون وعمدة المدينة (طيبة؟) والمشرف على أرض الذهب لرب الأرضين وحامل المروحة على يمين الفرعون والمشرف على الخزانة وقائد عيد آمون ومدير البيت العظيم لآمون والمشرف على أراضي الذهب؟ ورئيس الكهنة (…) ومدير القصر وغير ذلك من الألقاب التي ذكرناها من قبل.

(١٦) ابن الملك «مس-سوي»[١٤٥]

وُجِدَ للنائب «مس سوي» عدة آثار مُؤَرَّخَةٌ بعهد الملوك «مرنبتاح» و«أمنمس» ثم «سيتي الثاني» وكلها في بلاد النوبة نذكر منها ما وُجِدَ على الطريق بين «أسوان» و«الفيلة» وفي «بيت الوالي» و«عمدا» و«اكشه» الواقعة بين «سره» و«فرص» و«بيجة».[١٤٦] وقد أظهر «ريزنر»[١٤٧] استحالة وضع نيابة «مس سوي» بين نوَّاب الملك «رعمسيس الثاني» أو على الأقل وضعه قبل «سثاو» أي قبل السنين الأخيرة من حكم هذا الفرعون، ونحن نجهل تمامًا بقاء «سثاو» حيًّا بعد عام ٦٣ من عهد «رعمسيس الثاني» كما لا نعلم كذلك أنه كان لا يزال يشغل مهام وظيفته بعد تولية «مرنبتاح» بن «رعمسيس الثاني»، أو إذا كان قد حل محله «مس سوي» في عهد حياة «رعمسيس الثاني».

وقد قدر مدة حكمه «ريزنر» بست عشرة سنة (١٢٢٥–١٢٠٩ق.م.) أي إنه يظن أنه شغل وظيفته في عهد ثلاثة ملوك متتالين وهم «مرنبتاح» (ثماني سنين) و«أمنمس»

(سنة واحدة؟) و«سيتي الثاني» (ست سنوات) ولكن إذا اتضح فيما بعدُ أنه كان يقوم بمهام وظيفته يومًا في السنين الأخيرة من عهد «رعمسيس الثاني» فإن حكمه يمكن أن يكون قد بقي على أقل تقدير مدة عشرين سنة.

والمصادر الثمانية التي ذكرها «ريزنر» عن الآثار المنسوبة لهذا النائب تكاد تكون كل ما وُجِدَ له من آثار حتى الآن، وقد تحدث «جوتييه» ثانية[١٤٨] مشيرًا إلى بعض هفوات ارتكبها «ريزنر» لا تكاد تُذْكَرُ.

والألقاب التي كان يحملها «مس سوي» هي: «ابن الملك صاحب كوش والمشرف على الأراضي الجنوبية، وحامل المروحة على يمين الملك وكاتب الملك وحامل المروحة والصولجان على يمين الفرعون «مس سوي» المختار لأرض الجنوب».

(١٧) ابن الملك «سيتي»

تدل الآثار التي في متناولنا على أن نائب الملك «سيتي» الذي خلف «مس سوى» في حكم بلاد النوبة كانت مدته قصيرة، إذ بدأ حكمه في السنة الأولى من عهد الملك «سبتاح» وقد خلفه في السنة السادسة من حكم نفس الفرعون نائب الملك «حوري الأول». وقد جاء ذكر اسمه على خمسة آثار مُؤَرَّخَةٍ بالسنة الأولى والثالثة من عهد الملك «سبتاح». فقد ذُكِرَ على الجدار الجنوبي من معبد «أبو سمبل» في نقش رسول الملك المُسَمَّى «رخبحتوف» عندما أتي سيده ليثبت ابن الملك صاحب كوش «سيتي» في مكانه،[١٤٩] وكذلك وُجِدَ اسمه في نفس المعبد على الجدار الشمالي[١٥٠] ويحتمل أنه يُؤَرَّخُ بالسنة الأولى أيضًا، وفي هذا النقش نجده يحمل ألقابًا كثيرة هي: الأمير الوراثي والحاكم وابن الملك صاحب كوش، والمشرف على أراضي الذهب لآمون، وحامل المروحة على يمين الفرعون. والكاتب الملكي لخطابات الفرعون، والرئيس الأول في الإصطبل، وعينا ملك الوجه القبلي، وأذنا ملك الوجه البحري، والكاهن الأكبر لإله القمر «تحوت»، والمشرف على الخزانة، والمشرف على خطابات الفرعون في محكمة قصر «رعمسيس مري آمون» في البلاط.

وفي معبد «بهين» وُجِدَ نقش مُؤَرَّخٌ بالسنة الأولى من عهد هذا الفرعون في معبد الملكة «حتشبسوت» على العمود السادس، وهو متن كتبه «نفر حور» رسول الفرعون «عندما أتى بالمكافآت لموظفي بلاد النوبة «تاستي» وليحضر ابن الملك صاحب كوش في رحلته الأولى».[١٥١]

وكذلك نجد نقشًا مُؤَرَّخًا بالسنة الثالثة في جزيرة «سهيل»[١٥٢] جاء فيه بعض ألقاب «سيتي» هذا.

وأخيرًا وُجِدَ له نقش على صخور الطريق المؤدية من «أسوان» إلى «فيلة» جاء فيه غير الألقاب التي ذكرناها من قبل «مدير البيت العظيم»، وقد مثل في هذا النقش النائب «سيتي» وهو يتعبد أمام الملك الذي يقف خلفه مدير الخزانة «باي».[١٥٣]

(١٨) ابن الملك «حوري الأوَّل»

لم يوجد لنائب الملك «حوري الأول» حتى الآن إلا ثلاثة آثار جاء فيها اسمه وكلها من بلدة «بهين» (وادي حلفا). ويقول «ريزنر» إنه حكم مدة ثلاث وعشرين سنة (١٢٠٣–١١٨٠ق.م.)، وهذه المدة تقابل السنة السادسة من حكم الملك «سبتاح» مضافًا إلى ذلك حكم الملك «ستنخت» القصير وفترة غير معينة من عهد حكم الفرعون «رعمسيس الثالث» الذي حكم حوالي ٣٢ سنة. ومن جهة أخرى يظهر أن هذا التقدير في مجموعه لا يقرب من الحقيقة، ولكن الواقع أنه ليس لدينا نقطة نرتكز عليها فيما إذا كان «حوري الأول» قد انقطع عن عمله في عهد «رعمسيس الثالث» وفي أي سنة من حكمه تم ذلك؟ وكل ما نعلمه في هذا الموضوع هو ما أدلى به «فرمان»[١٥٤] عندما كان يتحدث عن نتائج حفائره في «العمارة غرب» إذ يقول في صدد الكلام عن نُوَّاب الفراعنة في هذا العهد: «وأخيرًا قد وصلنا إلى إلقاء ضوء جديد على الترتيب والعلاقات الأسرية الخاصة بنواب بلاد النوبة التابعين لعصر الرعامسة. وبالنسبة لنواب الملوك يمكن تلخيص النتائج الرئيسية كما يأتي:

(١) أن «حوري» بن «كاماع» الذي يُعَدُّ «حوري الأول» على حسب رأي «ريزنر»، كان يشغل هذه الوظيفة في عهد «ستنخت»، والمحتمل أنه قد خلفه.

(٢) «حوري الثاني» الذي ظهر على لوحتي السنة الخامسة[١٥٥] والسنة الحادية عشرة من حكم «رعمسيس الثالث»، ومما سبق نفهم أن «حوري» لم يكن بعد يشغل عمله في السنة الخامسة من عهد «رعمسيس الثالث» وعلى ذلك فلن تتجاوز مدة نيابته خمس عشرة سنة بل أقل من ذلك.

ويقول «ريزنر» إنه متأكد من أن نائب الملك «حوري» الذي خلف «سيتي» كان هو نفسه الذي يشغل وظيفة «رسول ملكي» وأنه قد ترك في معبد «حتشبسوت» في

«بهين» نقشًا مُؤَرَّخًا بالسنة الثالثة من عهد الملك «سبتاح»،[١٥٦] وكذلك نجد أن «فلندرز بتري»[١٥٧] لَقَّبَ «حوري» قائد ورسول الملك «سبتاح» في «وادي حلفا» في السنة الثالثة، ورقَّاه إلى رتبة أمير «كوش» في السنة السادسة. ونقش «بهين» المشار إليه هنا نقله نقلًا صحيحًا الأستاذ «ستيندورف» وعنه أخذ «برستد».[١٥٨] و«حوري» هذا هو ابن رجل يُدْعَى «كاماع» وقد كان ضمن رجال إدارة إصطبل الملك العظيم «سيتي مرنبتاح» الذي وَحَّدَهُ «ريزنر» بـ«سيتي الأول»، في حين أن المقصود هنا هو «سيتي الثاني» كما يدل على ذلك طُغْرَاؤُهُ، ومن المحتمل أن «حوري» هذا ابن «كاماع» الذي كان يشغل وظيفة الرسول الأول للملك «سبتاح» في السنة الثالثة من حكمه قد أصبح ما بين السنة الثالثة والسنة السادسة نائب بلاد كوش، وبذلك تكون مدة ولايته أقل مما قدرناه من قبل، غير أنه ليس لدينا أي برهان لتوحيد هاتين الشخصيتين».

وقبل أن نذكر ألقاب هذا النائب يجب أن نلفت النظر إلى نقش صخري على نفس معبد «بهين» لم يذكره «ريزنر» وقد ظهر فيه مع طُغْرَاءَيِ الملك «سبتاح» شخصية تحمل لقب «حامل المروحة على يمين الملك ورسول الملك في سوريا وكوش». واسم هذه الشخصية قد اختفى من النقش.[١٥٩] ويظن «مسبرو» أنه يمكننا أن نؤرخ هذا النقش بالسنة السادسة من عهد «سبتاح» مثل نقش «وباخو» ابن نائب الملك «حوري»، وإذا كان هذا الزعم صحيحًا فإن واضع هذا النقش ينبغي أن يكون ابن نائب الملك «وبخسنو».

وهذا الشخص لم يخلف والده «حوري» في وظيفة نائب الملك في كوش، بل الظاهر أنه كان له أخ أكبر على ما يظن يحمل نفس الاسم وهو «حوري الثاني»، وهو الذي خلف والده نائبًا للملك في كوش.

أما الألقاب التي كان يحملها «حوري الأول» فهي: «سائق العربة الأول لجلالته ورسول الملك لكل أرض، والذي يُجْلِسُ الرؤساءَ في أماكنهم والذي يُرْضِي سيده، «حوري» بن «كاماع» صادق القول وهو التابع لإصطبل «سيتي الأول» الخاص بالبلاط، وابن الملك صاحب كوش».

(١٩) ابن الملك «حوري الثاني»

ذكرنا من قبل أن «حوري الثاني» هو ابن «حوري الأول» وقد جاء اسمه مع الملك «رعمسيس الثالث» في لوحتين: الأولى مُؤَرَّخَةٌ بالسنة الخامسة، والثانية مؤرَخة بالسنة الحادية عشرة من حكم هذا الفرعون، وبذلك لم نعد في لبس من جهة تحديد عهد نيابة «حوري الثاني» وهو الذي وضع أمام عهده «ريزنر» علامة استفهام،[١٦٠] وتدل شواهد الأحوال على أنه قد استمر في حكم بلاد كوش حتى نهاية عهد «رعمسيس الثالث» على ما يظهر، والجزء الأول من عهد «رعمسيس الرابع».[١٦١] ومن المؤكد أنه لم يحكم حتى نهاية عهد «رعمسيس الرابع»، وذلك لأنه لدينا البرهان القاطع على أنه قد خلفه ابنه «باسر الثالث» الذي لم يذكره «ريزنر» في قائمة نواب كوش. وعلى ذلك فإن الأثر الوحيد الذي ذكره «ريزنر» مُؤَرَّخًا لهذا النائب هو النقش الذي يظهر فيه في معبد «حتشبسوت» ببلدة «بهين»[١٦٢] ممسكًا بيده مروحة وصولجانًا وكتب معه: «ابن الملك صاحب كوش «حوري» نجل ابن الملك «حوري»»، أما النقشان الآخران اللذان لم يُؤَرَّخَا فقد يجوز أنهما من عهد «رعمسيس الثالث» أو من عهد «رعمسيس الرابع» ولا يمكن تمييز اسم «حوري الثاني» فيهما على وجه التأكيد».

(٢٠) «باسر الثالث»

لم يذكر الأستاذ «ريزنر» في قائمة نواب «كوش» ابن الملك «باسر الثالث» ولكن قد جاء ذكره في نقش على صخر في «وادي حلفا» فقد نقل الأستاذ «سايس» هذا النقش عام ١٨٩٥م[١٦٣] وقد قال عنه «سايس» إنه ممحو جدًّا ولا يكاد يُقْرَأُ وهو يشمل صلاة للإله «حور» صاحب «بهين» لروح ... ابن الملك صاحب كوش «باسر» ابن ابن الملك صاحب كوش «حوري». وعصر هذا النقش قد وضح تمامًا بذكر طُغْرَاءَيِ الملك «رعمسيس الثالث».[١٦٤] وهذه الحقائق تتفق مع ما نعرف من قبل فقد كان «حوري الثاني» نائبًا في عهد «رعمسيس الثالث» ويحتمل كذلك في الجزء الأول من عهد «رعمسيس الرابع». وابنه «باسر الثالث» خلفه بطبيعة الحال في نيابة كوش في عهد هذا الفرعون الأخير، وعلى ذلك فمن المحتمل أن يكون «باسر» هذا (لا «حوري الثاني» كما يظن «ريزنر») هو والد نائب الملك «ونتاوات» المعاصر «لرعمسيس الخامس» غير أن ذلك الظن خاطئ من أساسه كما سنرى بعد.

وتدل شواهد الأحوال على أن نيابة «باسر» لم تكن طويلة.

(٢١) نائب الملك صاحب كوش «سا أزيس»

عثر الأستاذ «فرمان» على نقش يُفْهَمُ منه أن «سا أزيس» كان نائب الملك في بلاد كوش في عهد الملك «رعمسيس السادس» ولا نعلم عنه شيئًا أكثر من هذا.[١٦٥]

(٢٢) النائب «نحرحر»

والظاهر أنه قد خلف الأخير نائب آخر يُدعى «نحرحر» وقد عاش في عهد كل من «رعمسيس السابع» و«الثامن» وهو والد «ونوات» الذي يحتمل أنه هو «ونتاوات» الذي ذكره «ريزنر» وقد عاصر «رعمسيس التاسع».

(٢٣) النائب «ونتاوات» أو «ونوات»

ومما سبق نعلم أن «ونتاوات» لم يكن ابن «حوري الثاني» وأنه لم يخلفه في ولاية كوش بل جاء قبله «سا أزيس» و«نحرحر» والأخير هو والد «ونتاوات» وقد عاصر «ونتاوات» الفرعون «رعمسيس التاسع» على حسب ما ذكره «فرمان».[١٦٦]

والآن يتساءل الإنسان عن هذا النائب هل هو نفس الشخصية التي كانت تُلَقَّبُ «المشرف على إصطبلات جلالته»؟ وقد أجاب الأستاذ «ريزنر» بالإثبات ويشاركه في ذلك «جوتييه» وبخاصة إذا رجعنا إلى لوحة «سمنة» المحفوظة بالمتحف المصري وهي التي ذكرها «ليبلين» في قاموسه الخاص بأسماء الأعلام الهيروغليفية،[١٦٧] وكذلك إذا ترجمنا المتن كما يأتي: «ابن الملك صاحب كوش المشرف الأول على إصطبلات البلاط لدى جلالته «ونتاوات»».

وهذا النائب كان يقوم بأعباء وظائف أخرى منها وظيفة الكاهن الأكبر لآمون رعمسيس، والكاهن الأكبر «لآمون خنوم واست»، ولم نستطع أن نجد السبب الذي من أجله يقول «ريزنر» إنه قد مُنِحَ وظائفه الدينية بعد أن فقد وظيفة نائب كوش، وليس لدينا أية إشارة تُخَوِّلُ لنا حق القول بأنه كان قد أُبْعِدَ عن وظيفته العالية وهي نيابة بلاد كوش ومُنِحَ بدلًا منها وظائف كهانة. ومن ألقابه كذلك «المشرف على أرض الذهب لآمون رع ملك الآلهة الكاهن فاتح الباب (أي باب قدس الأقداس)، ورئيس بيت آمون في «خنوم واست» والآثار التي وُجِدَت لهذا النائب عددها خمسة وقد تحدث عنها «ريزنر»».[١٦٨]

(٢٤) ابن الملك «رعمسيس نخت»

يقول الأستاذ «فرمان»[١٦٩] إنه عثر على عارضة باب من الحجر عليها طُغْرَاءُ «رعمسيس السادس»، وصورة واسم «رعمسيس نخت» نائب كوش ثم عاد وقال ثانية عند الحديث عن نواب النوبة إن نائب كوش «رعمسيس نخت» يظهر على المدخل مع طُغْرَاءِ «رعمسيس السادس» ولكن من الممكن ألَّا يكون معاصرًا له، وذلك لأنه على ما يظهر قد وجد اسمه ثانية مع «رعمسيس الحادي عشر» (إلا إذا كان نائب ملك آخر يحمل نفس الاسم.

هذا ومن جهة أخرى نجد أن «ريزنر»[١٧٠] يقول إنه حكم حوالي عشرين سنة في عهد «رعمسيس التاسع» وأنه عثر له على نقش في معبد «حتشبسوت» على صخر من عهد الملك «سبتاح»[١٧١] ويحمل في هذا النقش الألقاب التالية: ابن الملك والمشرف على الأراضي (؟) وحامل المروحة على يمين الملك، وكاتب الملك. ثم يقول إنه لا يوجد برهان يربط هذا النائب «رعمسيس نخت» بأي موظف آخر بهذا الاسم عاش في الأسرة العشرين، وبخاصة بالكاهن الأكبر «رعمسيس نخت».

أما «جوتييه» فيقول إنه ليس لديه ما يضيفه على ما قاله «ريزنر» بالنسبة لهذا النائب الذي كان على أغلب الظن يقوم بأعباء وظيفته في عهد «رعمسيس التاسع» ومن بعده «رعمسيس العاشر». وعلى أية حال يجوز أن نتعرف عليه في «ابن الملك صاحب كوش» الذي لم يُذْكَرِ اسمه وهو الذي كان قد أحضر أمامه بعض الأفراد المتهَمين بالسرقة في المقابر الملكية «بطيبة» كما جاء في ورقة «ماير».[١٧٢]

ومما سبق يمكننا أن نستخلص النتيجة التالية وهي أن «رعمسيس نخت» هذا كان يعيش في عهد الملك «رعمسيس الحادي عشر» الذي مكث على العرش مدة طويلة كما دلت على ذلك البحوث الحديثة وكما أثبتنا ذلك في الجزء الثامن من هذه الموسوعة، وكما أكَّد لنا «فرمان» بوجود أثر عليه اسمه من عهد «رعمسيس الحادي عشر». ومن الجائز كذلك أنه عاش في عهد «رعمسيس العاشر» الذي لم يُعَمَّرْ طويلًا، أما قول «جوتييه» و«ريزنر» إن «رعمسيس نخت» عاش في عهد الملك «رعمسيس التاسع» فقول لا يرتكز على أي أساس أمام الكشوف الحديثة.

(٢٥) نائب الملك «بانحسي»

عاش نائب كوش «بانحسي» في عهد الفرعون «رعمسيس الحادي عشر»[١٧٣] وقد لعب دورًا هامًا في حرب التحرير أو عصر النهضة الذي تحدثنا عنه طويلًا في الجزء الثامن. ومعنى كلمة «بانحسي» هو «العبد» أو الأسود وتدل شواهد الأحوال على أنه كان من بلاد النوبة وأن الملك قد انتخبه ليقوم بهذه الوظيفة إرضاء لأهل بلاده الذين كانوا وقتها على وشك الانفصال من مصر.

وقد جاء اسمه على بعض أوراق البردي، وفي معبد «بهين».[١٧٤] ويحمل الألقاب التالية: «حامل المروحة على يمين الملك وكاتب الملك، وقائد الجيش والمشرف على مخزن الغلال ابن الملك صاحب كوش والمشرف على الأراضي الجنوبية والرئيس العظيم للخزانة والأمير الوراثي والحاكم ومدير بيت «آمون»».

(٢٦) نائب الملك «حريحور»

تحدثنا بإسهاب عن «حريحور» قبل توليته عرش الملك في مصر القديمة الجزء الثامن من ص ٦٠٢ إلخ.

(٢٧) نائب الملك «بيعنخي»

كذلك تحدثنا عنه بإسهاب في الجزء الثامن من هذه الموسوعة ص ٦٥٧.

(٢٨) نائب الملك «نسخنسو»

وهي زوج الفرعون «بينوزم الثاني»[١٧٥] ويلاحظ أنها المرأة الوحيدة التي حملت هذا اللقب في عهد الأسرة الحادية والعشرين.

ويجب أن نلفت النظر هنا إلى أن الانقلاب السياسي الذي حدث في أواخر الأسرة العشرين قد انتهى باعتناق سياسة أصبحت بمقتضاها الإدارات الهامة متجمعة في يد وارث العرش فنجد أن «حريحور» قد عيَّن ابنه «بيعنخي» الكاهن الأكبر «لآمون رع» والمشرف على الغلال ونائب كوش والقائد الأعلى للجيش، وقد كان هو نفسه يتولى هذه الوظائف في عهد «رعمسيس الحادي عشر»، وكانت كل شواهد الأحوال تدل على أنه كان

وارثه للعرش. وقد كان هذا هو الحل الوحيد المنطقي للمصاعب الداخلية التي سببتها دسائس طبقة الموظفين البيروقراطية وطبقة الكهنة الأغنياء في حكومة كانت ميولها مع الحكم الديني. أما المصائب التي حلت بالبلاد فترجع لأسباب أخرى. وقد كان هذا المبدأ سليمًا لدرجة أنه عندما استولى اللوبيون على «طيبة» استمروا في السير على نفس السياسة التي كانت قد أصبحت تقليدية أي تقليد أمراء من البيت المالك ليكونوا على رأس الإدارات الحكومية.

فبعد «بيعنخي» لم نجد واحدًا من الأمراء مثل الكهنة العظام «بينوزم الأول» و«ماساهرتا» و«منخبر رع» و«بينوزم الثاني» يحمل لقب «ابن الملك صاحب كوش». وحتى عندما استولى «إوبوت» الابن الأصغر للملك «شيشنق الأول» وظيفة الكاهن الأكبر «لآمون رع» والقائد الأعلى للجيش لم يحمل هذا اللقب المهمل كما لم يحمله أحد غيره من أسلافه. ولم يجدد هذا اللقب بصفة قاطعة على وجه التأكيد إلا مرة واحدة كما شاهدنا من قبل في حالة «نسخنسو» زوج الملك «بينوزم الثاني» وذلك لإشباع غرور هذه السيدة. والواقع أنها أُعْطِيَتْهُ بصفة فخرية لأنه لم يكن في مقدورها أن تناله بحق الوراثة. على أن عدم استعمال لقب «ابن الملك صاحب كوش» لا يُعَدُّ على أية حال برهانًا على أن وظائف نائب الملك قد انقطع استعمالها كما يظهر للإنسان لأول وهلة، إذ الواقع أنه تمشيًا مع السياسة المتبعة للإدارات الكبيرة كانت حكومة «كوش» لا بد أن تكون في يد أكبر أولاد حاكم «طيبة» وفي عهد اللوبيين كانت في يد واحد من الأمراء. ومن البدهي أن لقب «ابن الملك صاحب كوش» في نظر واحد من هؤلاء الذين كانوا فعلًا أولاد ملوك لا قيمة له تذكر بالنسبة للقب الموروث.

ولدينا نقطة أخرى قد يكون لها بعض الأثر في ترك «بينوزم الأول» لهذا اللقب وهي أن والده «بيعنخي» كان سياسيًّا تابعًا لملك «تانيس». وبعد ذلك كان ولدَا «بينوزم» وهما «ماساهرتا» و«منخبر رع» ابني ملكين بالولادة. وعلى ذلك فإن لقب «ابن الملك صاحب كوش» يمكن أن يكون قد أُسْقِطَ دون أي تغيير في العلاقات بين كوش ومصر وبدون أي انقطاع في الإدارة المصرية للأراضي الجنوبية.

والعلاقات التي بين كوش ومصر ما بين سنة ١١٠٠ إلى ٧٥٠ق.م. قليلة نادرة وكلها ذات صيغة غير مباشرة. فمثلًا نجد أن «بينوزم الأول» (أو الثاني) قد ترك نقشًا على الصخر في جزيرة «سهيل»،[١٧٦] والظاهر أنه قد نقشه هو عندما كان قائد الجيش الأعلى للجنوب والشمال، وكان قد أضاف لنفسه لقب الكاهن الأكبر فيما بعدُ. وقد سجل

«منخبر رع» لقبه الكاهن الأعظم ابن الملك «بينوزم» على صخرة في «بيجة».[177] وسجل «شيشنق الأول» اسمه في نقوش الكرنك حيث يحدثنا أنه ضرب «أيون — ستي»[178] أتباع «آمون»، وصانع (أرض) «تانحسي» و... جزية «أرض سوريا».[179] ونجد في عهد «شيشنق الثاني» في تواريخ الكهنة العظام[180] أن الذهب الجميل قد ذُكِرَ مرتين. وفي جبل «برقل» كان أحدث أثر مُؤَرَّخٍ وُجِدَ فيه من عهد الأسرة العشرين هو قطعة من تمثال صغير باسم «رعمسيس التاسع» وثاني أثر عثر عليه عند أهرام «نوري» هو قطعة من آنية من المرمر مكتوبة (١) ... القائد الأعلى «باشدن باست» صادق القول ابن رب الأرضين «شيشنق» «مري آمون ...» ويقول «ريزنر» إن هذا الأمير هو بلا نزاع نفس الأمير ابن «شيشنق» الذي كتب عنه «لجران»،[181] وقد وُجِدَ اسمه في نقش في الكرنك ومعه اسم الملك «بدوباست الأول». ويعلق على ذلك «لجران» بقوله إن «باشدن باست» يظهر أنه قد حكم في منطقة «طيبة» تحت سيادة «بدوباست». وقد كانت مكانته هذه هي التي جعلته كذلك، وبهذه الصفة أقام بوابة عظيمة من الحجر الرملي بعد أن وجدها آيلة للسقوط، ويظهر أنها كانت البوابة العاشرة.

ومن الواضح أن «بدوباست» كان ابن «شيشنق الثاني» أو «الثالث» الذي جعله «برستد» خلف «شيشنق الثاني»، ونستخلص من قطعة الأثر التي وُجِدَتْ في خرائب «نوري» أن حاكم إقليم «طيبة» كان يضم بلاد كوش إلى أملاكه ويظن «ريزنر» أن «باشدن باست» كان والد «كشتا» وهو الذي بوساطته ادَّعى كل من «كشتا» و«بيعنخي» ملك «طيبة» غير أن ذلك لا يرتكز على حقائق مكتوبة.

والواقع أن ما لدينا من آثار عن هذا الموضوع ضئيل، غير أنه توجد ظروف أخرى تجعل من المعقول استخلاص أن كوش قد بقيت خاضعة لمصر ومنها أن كوش كانت في هذه الفترة قد وصلت إلى درجة جعلتها مُمَصَّرَةً في خلال مدة النواب المصريين التي بلغت نحو أربعة قرون ونصف قرن تقريبًا. ويقال إن «رعمسيس التاسع» قد وُجِدَتْ له آثار في «نباتا» ولم يكن لدى الرعامسة صعوبة في القبض على زمام الأمور في كوش إذ كانت بلاد كوش من كل الوجوه جزءًا من مصر.

يُضَافُ إلى ذلك أن كوش كانت تظهر مُمَصَّرَةً كما يدل على ذلك الآثار التي كُشِفَ عنها في مقابر ملوك كوش أي في المدة التي من حوالي عام ٧٢٠ق.م. حتى عام ٥٠٠ ق.م.

وتدل حركة الاستقلال التي قامت بها بلاد كوش في عهد «كشتا» أنها لم تكن إلا جزءًا من حركة عامة بدأت تظهر في مصر كلها حوالي عام ٧٥٠ق.م. وذلك أن صغار

الحكام من اللوبيين في المقاطعات كانوا آخذين في أسباب الاستقلال وكان الجم الغفير منهم من أصل لوبي. وإذا لم يكن لدينا براهين أخرى فإنه قد يكون من الطبعي أن نستخلص أن «كشتا» كان أحد هؤلاء الحكام المحليين الذين هم من دم لوبي وكان من نصيبه حكم بلاد كوش، وقد دلت الآثار على أنه كان يوجد قبله زعيم آخر يحكم كوش كما سيأتي بعد، وخلافًا لما ذكرنا نلحظ أن المادة التاريخية الأصلية عن هذا العصر (١١٠٠–٧٥٠ق.م.) ضئيلة جدًّا، هذا إلى أن عدم وجود نقوش خاصة ببلاد كوش ليس بالأمر الغريب وبخاصة عندما نعلم أن البلاد كانت خاضعة مستكينة للحكم المصري.

وإذا استخلصنا مما سبق أن حكومة بلاد كوش بوصفها إقليمًا تابعًا لمصر كانت مستمرة خلال الأُسَرِ من الحادية والعشرين إلى الثالثة والعشرين فإن السياسة العامة لحكام «طيبة» — سواء أكانت على يد المصريين أم اللوبيين — تبرر الزعم القائل إن ممثل ملك مصر في كوش كان أحد الأمراء. وكانت الألقاب الرئيسية التي يحملها هؤلاء الأمراء هي الكاهن الأكبر «لآمون رع» والقائد الأول العظيم للجيش». وكان كل واحد من هؤلاء الأمراء بوصفه القائد الأعلى للجيش في قبضة يده زمام كل القوات في بلاد كوش، أما بوصفه الكاهن الأكبر لآمون رع فلا بد أنه كان له علاقة وثيقة بمعابد آمون حتى «نباتا»، غير أنه لم يوجد لقب خاص يشمل حكومة هذه الأرض، ومن الممكن بطبيعة الحال أن العمل الهام كان في ذلك الوقت هو جمع الضرائب التي كانت تحت سلطان إدارات «طيبة»، وأن البلاد كانت محكومة بحكام الإقطاع الذين كان معظمهم من المصريين, وإن الرسل وموظفي الخزانة كانوا يرسلون من وقت لآخر، وأن النظام كان محفوظًا بوساطة القائد الأعلى للجيش وضباطه.

وعلى أية حال فإن «بيعنخي» بن «حريحور» كان آخر رجل معروف لدينا يحمل لقب «ابن الملك صاحب كوش» وإن كان «جوتييه» يرى أن «أوسركون-عنخ» كان يحمل هذا اللقب بصورة قاطعة، وأنه يُنْسَبُ إلى الأسرة الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، أي في القرن التاسع أو القرن الثامن قبل الميلاد، وذلك من نقش حفر على الجزء الأسفل من تمثال محفوظ الآن في المعهد الفرنسي الأثري الشرقي بالقاهرة،[١٨٢] وقد جاء عليه «الشريف والأمير حامل الحصير» (؟) ابن الملك (ولا يوجد على التمثال عبارة صاحب كوش) المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية، والمشرف على ضيعة (آمون). ونلحظ أن الأستاذ «ريزنر» لم يذكر هذا العظيم في قائمة نواب الفراعنة لكوش بل ذكره في قائمة الأسماء التي فيها شك، وذلك لأنه لم تُذْكَرْ معه عبارة «صاحب كوش» صراحة. وعلى أية

حال فإن هذا العصر من تاريخ مصر وكوش غير معروف لنا بصورة واضحة، وعلى ذلك ينبغي علينا أن نكون على حذر في استخلاص نتائجنا، إذ من المحتمل جدًّا أن «أوسركون عنخ» كان يقوم بأعباء هذه الوظيفة فعلًا في عهد ملوك «بوبسطة» أي إنه كان نائبًا للملك على بلاد كوش، ولذلك يرى «جوتييه» أنه ليس هناك مانع من وضعه في قائمة نواب الفراعنة إلى أن يظهر برهان يدحض ذلك.

(٢٩) منطقة نفوذ نائب الملك

كانت منطقة الأراضي التي يسيطر عليها نفوذ نائب الملك تختلف باختلاف الأزمان بعض الشيء. وقد ذُكِرَ لنا بوضوح امتداد رقعة نفوذه في نقوش مقبرة «حوي» حيث جاء فيها صراحة: «لقد عهدت إليك بوظيفة نائب الملك في كوش من أول «نخن» حتى ما بعد «كاري» وسيكون تحت إدارتك من «نخن» إلى ما بعد «نسوت تاوي» (جبل برقل)». ويتفق مع ذلك على ما يظهر نقش «حورميني» تمامًا.[١٨٣] وهذا الأمير صاحب «نخن» كان موكلًا إليه جمع الضرائب في «واوات» فيقول: «لقد أمضيت سنين عدة أمير بلدة «نخن» وأحضرت جزيتها لرب الأرضين ولقد مُدحت على ذلك ولم يؤخذ عليَّ شيء. ووصلت إلى سن الشيخوخة في «واوات» لأني ملأت قلب سيدي ورحلت بجزية أرض «واوات» منحدرًا في النهر كل سنة إلى الملك، وقد ذهبت إلى هناك بوصفي رجلًا أمينًا، ولم أوصف بأني مذنب في أخذ فضلة (شيء فائض)».

ومما يُؤْسَفُ له أن اللوحة التي جاء عليها هذا النقش ليست مؤرخة ولكن من أسلوب كتابتها واسم صاحبها يمكن أن تؤرَّخ بأوائل الأسرة الثامنة عشرة. ويُسَلِّمُ «ريزنر» أن هذا الرجل لا بد أن يقع تأريخه ما بين عهد «أحمس الأول» والسنة السابعة من حكم «أمنحتب الأول» عندما كان «ثوري» يشغل وظيفة نائب الملك، ولكن ذلك حدث قبل أن يقوم نائب الملك بالعمل في وظيفته. وإذا كان «جوتييه» على حق في أن «ثوري» لم يكن أول من شغل وظيفة نائب الملك بل كان خلفًا «لأحمس» بن «تائيب» الذي لا نعرف عنه شيئًا فإن الأخير لم يشغل بأية حال وظيفة نائب ملك في عهد «أحمس الأول» بل يمكن أن يكون قد نصب في هذه الوظيفة في خلال السنين السبع الأولى من حكم «أمنحتب الأول» وعلى ذلك فإن نشاط «حورميني» في بلاد النوبة السفلى كان قبل ذلك، ولم يمتد حتى السنة السابعة من حكم «أمنحتب الأول». على أن ذكر «واوات» وحدها وإغفال ذكر «كوش» يتفق تمامًا مع العلاقات السياسية، لأنه إلى هذا العهد على ما يظهر

لم يكن قد فتح في بلاد النوبة إلا إلى منطقة الشلال الثاني، وإذا كان ينبغي علينا أن نسلم بأن منصب «حورميني» في بلاد النوبة السفلى كان بمثابة نوع من النيابة فإنه لا ينتج من ذلك بلا شك أن رقعة نفوذه كانت تمتد كما يقول «ريزنر»[١٨٤] وكذلك «إدوارد مير»[١٨٥] من أول الشلال الثاني حتى «نخن»، بل يظهر أنها كانت تمتد إلى أكثر من ذلك، إذ إن نفوذه حسب نص المتن كان يمتد إلى ما بعد بلاد النوبة وذلك لأنه وصف نشاطه في «نخن» ثم أعقب ذلك وصف نشاطه في بلاد النوبة السفلى على حدة.

وليس لدينا مصادر عن تحديد امتداد الرقعة التي كان يحكمها نائب كوش حتى عهد «توت عنخ آمون». فقبل حياة نائب كوش «حوي» كانت أقصى حدود المقاطعات المصرية الجنوبية متصلة بأراضي الحكومة النوبية.

ولدينا نقش مهشم في معبد «سمنة» لنائب الملك «نحي» الذي كان سلطانه يمتد إلى ما بعد «نخن» على ما يظهر، وإذا كانت الفجوات الناقصة التي ملأها الأستاذ «زيته» صحيحة في هذا النقش فإن ترجمته تكون كما يأتي:[١٨٦] «ولفتة أخرى طيبة من الملك نحوي هي: أن هذا الملك الطيب قد نصب محبوبه ابن ملك ومشرفًا على البلاد الجنوبية حتى نهاية الجنوب لهذه الأرض مبتدئًا من «نخن» ليحضر إتاوتها كل سنة»، غير أن المتن مهشم جدًّا لدرجة أن التصحيح الذي عمله «زيته» لا يمكن الأخذ به بصفة مؤكدة، هذا على الرغم من صعوبة إيجاد حل آخر. ومع ذلك فإنه لدينا بعض اعتراضات على الرأي القائل بأن رقعة النفوذ الإداري كانت تمتد فعلًا من أول الأمر حتى «نخن»، إذ نجد في مقبرة «رخ مي رع» نقشًا[١٨٧] يبين لنا أن العمد والموظفين الآخرين في الوجه القبلي من أول «إلفنتين» وحصن «بيجة» كانوا يوردون للوزير إتاواتهم لأنهم كانوا تابعين للإقليم الذي يسيطر عليه، ولكن «رخ مي رع» لم يكن وزيرًا للملك «تحتمس الثالث» قبل العام الثامن والعشرين من حكمه؛ والظاهر أن الإتاوة الخاصة بنقوش «نحي» كانت خاصة بالعهد الذي كان فيه سلطانه ممتدًا على بلاد النوبة عندما كان نائب الملك، وذلك على أكثر تقدير في العام الثالث والعشرين من حكم هذا الفرعون، وعلى ذلك فإن هذين المتنين كما أصلحهما «زيته» لا يتفقان معًا. والواقع أن هذا البرهان لا يدل إلا على أول امتداد جاء متأخرًا لسلطان نائب الملك، فقد كان المقصود منه أن تمتد سلطة ابن الملك صاحب كوش حتى «نخن»، كما أكد ذلك الأستاذ «كيس» لأجل أن تكون مناجم الذهب تحت إدارة نائب الملك،[١٨٨] وتدل شواهد الأحوال على أن هذه المناجم في عهد «تحتمس الأول» لم تكن تحت إدارة نائب الملك بل كانت تحت سلطان «باحيري»

الأمير كان مسيطِرًا على جزء من البلاد من أول الكاب حتى «إسنا» فكانت إدارته تمتد من «الكاب» حتى «إسنا» و«الجبلين».[١٨٩] وفضلًا عن ذلك كان يلقب هذا النائب المشرف على حقوق مصر العليا، ونجد في قبره منظرًا يتسلم فيه الذهب من رؤساء أهل الجبل وهو الذهب الذي كان يُسْتَخْرَجُ من الجهات الواقعة شرقي «إدفو».[١٩٠]

ولا نعلم إذا كان ابن الملك صاحب «نخبت»[١٩١] له نفس السلطان الذي كان للعظيم «باحيري» لأن النقوش التي في متناولنا لا تسمح لنا بالفصل في هذا الموضوع.

وكان أول ظهر لقب المشرف على أرض الذهب لآمون قبل عهد «تحتمس الرابع»، وقد حمله في عهد خلفه «أمنحتب الثالث» نائب الملك وهذا ما يؤكد قيامه بإدارة مناجم الذهب، وهو ما يتفق مع الرأي القائل بأنه ضم إلى نفوذه المناجم التي كانت شَرْقِيَّ «إدفو». هذا ولا نجد قبل عهد «أمنحتب الثالث» — بصرف النظر عن نقوش المقابر في «طيبة» ونقوش جنازية أخرى لا تمت بأي نشاط إلى هذه الوظيفة — أي أثر لنائب ملك شَمَالِيِّ «أسوان». ونجد فيما بعد في «وادي مياه» (الرديسية) نقشًا لنائب الملك «مري موسى» في عهد «أمنحتب الثالث» وكذلك لوحة نائب الملك «إيوني» في عهد «سيتي الأول» و«رعمسيس الثاني»؛ وفضلًا عن ذلك وُجِدَ في «الكاب» قطعة من تمثال لنائبي الملك «حوي» و«ستاو»[١٩٢] كما وُجِدَ للأخير نقش في «الكاب» أيضًا،[١٩٣] وكذلك قطعة عليها نقش لنائب ملك اسمه ضاع، ولكن لا يمكن مما جاء في نقوشه[١٩٤] (ابن الملك صاحب كوش) أن نضعه قبل «أمنحتب الثالث» لأن هذا اللقب لم يظهر قبل عهد هذا الفرعون.

وكل هذه المصادر تدل على أن منطقة نفوذ نائب الملك في عهد «أمنحتب الثالث» وكذلك في عهد الرعامسة كانت تمتد حتى «نخن»، غير أنه لا يمكن أن نعرف إلى أي زمن استمرت هذه الحالة على وجه التأكيد، ويتوقف ذلك قبل كل شيء على قراءة نقش النائب «نحي»، وإذا ألقينا ظهريًّا التصحيحات التي عملها الأستاذ «زيته» التي ذكرناها فيما سلف فإنه يكون من الْمُسَلَّمِ به أن دائرة نفوذ نائب الملك في الوقت الذي يقع بين حكم «تحتمس الثالث» و«توت عنخ آمون» ومن المحتمل منذ عهد «أمنحتب الثالث» كانت تمتد إلى ما بعد «نخن» وهذا ما يتفق تمام الاتفاق مع الكشوف الأخرى. ومن جهة ثانية نجد أن المناظر التي في مقبرتي «رخ مي رع» و«باحيري» صعبة التفسير، يضاف إلى ذلك ما حدث من أن سلطان نائب الملك لم يكن قبل عهد «أمنحتب الثالث» يمتد إلى ما بعد «نخن» حسب نقوش مدونة ومن المحتمل أن ذلك جاء عن طريق الصدفة.

ولقد كان نائب الملك بوصفه أعلى موظف هو المسئول قبل كل فرد عن توريد جزية إقليم النوبة، تلك الجزية التي كان يتوقف عليها عظمة الفرعون وسلطانه، إذ

كانت تعد أكبر مصدر هام لمصر. ولا نزاع في أن هذه الإتاوة كانت تتطلب إدارة فنية حازمة من النائب، ومع ذلك فإننا لم نجد من بين كل النواب الذين عينهم الفراعنة في هذا المنصب الخطير من كان صاحب قدرة خاصة في الإدارة، فقد وجدنا كثيرًا منهم كان يشغل قبل أن يتولى هذا المنصب وظيفة مدير الإصطبل الملكي أو سائقًا أول لعربة الفرعون أو فارسًا مثل «مري موسى» الذي شغل وظيفة نائب الملك في عهد الفرعون «أمنحتب الثالث». ومثل النائب «بانحسي» فيما بعد وهو الذي على ما يظن كان يدير شئون جيشه.[١٩٥]

وتدل شواهد الأحوال على أن نائب الملك كان يُنْتَخَبُ من دائرة المقربين لدى الفرعون، وذلك ليوثقوا العلاقة بين بلاد النوبة وبين بيت الملك، وكذلك ليكون الملك على ثقة من أن الموظفين النوبيين مخلصون. هذا ولم يكن لكل نائب ملك مجال حياة مرسوم، بل كان الملك يَنْتَخِبُ النائب على حسب قدرته ومعرفته للوظيفة التي كان ينتخب لشغلها. فمن الجائز كما يظهر أن كل موظف كبير يبرهن على أنه أقدر من غيره في جمع الضرائب كان ينتخب لشغل وظيفة نائب الملك العالية. وتدل ظواهر الأمور على أنه كان حرًّا في وظيفته وليس مسئولًا أمام أحد غير الملك، وإذ كانت جزية بلاد النوبة تورد إلى مصر نفسها أحيانًا بوساطة موظف آخر ويشرف عليها فإن ذلك كان لا يعني بأية حال من الأحوال أن نائب الملك كان تحت إدارة هذا الموظف أو أنه مسئول أمامه.

والواقع أن النائب كان مسئولًا أمام الفرعون عن إحضار الجزية شخصيًّا. وتدل النقوش على أن هذه الجزية كانت تقدم أمام الفرعون في أغلب الأحيان باحتفال كما يفهم ذلك من المناظر التي عُثِرَ عليها خاصة بذلك، فقد كانت الإتاوة تُكَدَّسُ أكوامًا أمام الفرعون الجالس على عرشه ويشاهد نائب الفرعون الذي أحضرها واقفًا على رأس الموظفين والأهالي الذين يحملون إتاوات أخرى،[١٩٦] وكانت الجزية بعد ذلك تُسَلَّمُ للموظفين المختصين في مصر بذلك مثل مدير الخزانة أو إلى موظف آخر من رجال القصر الملكي. ويلحظ بهذه المناسبة أن أمثال هؤلاء الموظفين كانوا بطبيعة الحال لا يَرْسُمُونَ في مقابرهم إلا الدور الذي يقومون به وهم في خدمة نائب الملك وحسب.

وكان يسيطر نائب الملك على طائفة كبيرة من الموظفين يستطيع بمعونتهم تأدية أعماله وواجباته وأهم واحد بين هؤلاء الموظفين هو قائد جيش الرماة لكوش، وهو الذي كان على رأس الجنود الذين في خدمة نائب الملك، هذا بالإضافة إلى وكيلين للنائب يقوم واحد منهما على إدارة بلاد «واوات» والآخر على إدارة بلاد كوش. وكان إقليم «واوات»

وقتئذٍ يمتد من «أسوان» حتى الشلال الثاني والإقليم الثاني يمتد من الشلال الثاني حتى الشلال الرابع تقريبًا. على أن التزامات كل موظف من هؤلاء بالنسبة للآخرين وتحديد نفوذه تمامًا يصعب معرفتها، إذ لم تكن علاقة الموظفين بعضهم ببعض في بلاد النوبة كما نجدها في البلاد المصرية.[١٩٧] ويمكن توضيح ذلك من منظر توريد جزية نوبية يوردها «حوي» نائب الفرعون «توت عنخ آمون»، فلم نجد مثلًا كاتب الذهب وحده بل وجد رئيس إصطبل، ولم يكن من المنتظر أن نجد الأخير في مثل هذا المنظر.[١٩٨] وفضلًا عن ثلاثة الموظفين الكبار الذين ذكرناهم هنا يوجد عدد عظيم من صغار الموظفين. وتدل شواهد الأحوال على أن الإدارة كانت في تكوينها كالإدارة المصرية نفسها في تلك الفترة. وقد جمع الأستاذ «ريزنر» قائمة بأسماء هؤلاء الموظفين وأضاف عليها «جوتييه» بعض أسماء كما ورد كذلك بعض أسماء في كتاب «عنيبة» الجزء الثاني الذي وضعه الأستاذ «ستيندورف». وعلى الرغم من أن هذه القوائم ليست كاملة فإنها تقدم لنا صورة عن نظام هذا الحكم المركب[١٩٩] ويعتقد الأستاذ «ريزنر» أن طائفة الموظفين الذين كان في أيديهم إدارة بلاد كوش كانوا في تكوينهم كأولئك الذين كانوا يقومون بالإدارة في الحكومة المصرية نفسها. والواقع أن الإنسان لا يرى لأول وهلة أي اعتراض على هذا الرأي وقد ذكرنا من بين هؤلاء الموظفين الوكيلَيْن للنائب ورئيس الرماة لكوش أو بعبارة أخرى المشرف على رماة كوش. وقد وضع «ريزنر» قائمة بأسماء ثلاثة عشر شخصًا عُرِفُوا بأنهم كانوا يحملون هذا اللقب ولم نجد واحدًا منهم قد رُقِّيَ إلى مرتبة نائب كوش، والواقع أن حامل هذا اللقب كان قائدًا للقوات الحربية التي كانت تحت تصرف نائب الملك لأجل حفظ النظام في كوش، ويجب أن نشير هنا إلى أن كل المشرفين على الرماة لم يكونوا حتمًا في خدمة بلاد كوش بل كان نفس اللقب على ما يظهر يوجد في مصر.[٢٠٠] والألقاب الأخرى هي:

(١) **الخادم (السامع للنداء):** ابن الملك صاحب كوش: أي الذي يسمع ليجيب نداءات أي أوامر ابن الملك صاحب كوش. وهذا اللقب يتصل بالألقاب العدة التي تنعت بالسامعين،[٢٠١] وليس هناك ما يدعو لجعله موحدًا كما يقول «ريزنر» باللقب «خادم سيد الأرضين (الفرعون)»؛ ومن المحتمل أن لقب «الخادم (السامع للنداء)» كان يُستعمل للأحياء كما كان يُستعمل للروح بعد الموت (؟).

(٢) **سائق عربة ابن الملك:** ورد هذا اللقب غير أن اسم حامله ليس معروفًا ولذلك فإنه من الصعب تحديد معنى عبارة «ابن الملك» هنا. هل هو صاحب كوش أو ابن الملك وحسب ولذلك فإن هذا اللقب قد وُضِعَ هنا بتحفظ شديد.

(٣) **المشرف على مُجَدِّفِي نائب الملك.**

(٤) **كاتب نائب الملك (كاتم السر):** وبمناسبة هذا اللقب يطيب لنا هنا أن نلحظ أنه بعد انقضاء عهد نواب الملك المصريين لكوش عندما نالت البلاد استقلالها التام تحت حكم الملوك الوطنيين في «نباتا» أوَّلًا ثم في «مروي» فيما بعدُ يظهر أنه كان قد حل محله لقب آخر وهو «رئيس الكتبة لملك كوش»[٢٠٢] أو مجرد لقب الكاتب الملكي لكوش.

(٥) **كاتب حساب الذهب لنائب الملك:** وقد كان مكلفًا بجمع وتسجيل كل كميات المعدن النفيس الذي كان ينبغي أن يُرْسَلَ إلى «طيبة» بصفة جزية على يد نائب الملك.

(٦) **كاتب جنود ابن الملك.**

(٧) **كاتب مخزن غلال ابن الملك.**

والواقع أن هذين اللقبين الأخيرين لم يُتْبَعَا بعبارة ابن الملك في النقوش الأصلية ولكن شواهد الأحوال تدل على أنهما كانا تابعين له.

(٨) **كاتب المراسلات لابن الملك «مري موسى»:** وهذا اللقب كان يحمله شخصان معاصران وهما «أمنمأبت»[٢٠٣] و«حوي» (وهو الذي بدوره أصبح فيما بعد نائب الملك)، وهو يعادل في الإدارة المصرية كاتب المراسلات للفرعون،[٢٠٤] وكان يحمله مثلًا «سيتي» قبل أن يصير نائب الملك لكوش.

(٩) **مندوب ابن الملك.**

(١٠) **المشرف على أعمال … للملك:** هذا اللقب الذي يحمله شخص يُدْعَى «أمنمأبت» وُجِدَ غير كامل.[٢٠٥]

(١١) **المشرف على الحيوان:** هذا اللقب قد ذُكِرَ في مقبرة «حوي»[٢٠٦] وحامله شخص ينبغي أن تكون مهمته مشابهة لكاتب حساب الذهب السالف الذكر، وذلك لأنه كان موكلًا بجمع كمية الحيوان اللازمة سنويًّا من أهالي كوش للفرعون وأن يسهر على توريدها فعلًا في الوقت المحدد للموظفين المصريين.

(١٢) **كاتب مائدة كوش:** وهذا اللقب يقابل في كوش المستقلة كاتب الملك لمائدة سيد الأرضين (الفرعون) في مصر. وهذا الموظف على ما يظهر كان مكلفًا بتوريد الأشياء اللازمة لمائدة الإله أو الملك أو نائب الملك أو حاكم الإقطاع.[٢٠٧]

(١٣) **المشرف على مدن كوش:** ومن المحتمل أن الموظف الذي كان يحمل هذا اللقب كان بمثابة مدير البلديات الكبيرة في كوش وكان متصلًا بالإدارة المركزية.

(١٤) **المشرف على كهنة كل الآلهة:** هذا اللقب ليس له حتمًا علاقة ببلاد كوش إذا كان مصدرنا الوحيد هو لوحة «وادي السبوع»، ولكن يظهر أنه توجد لوحة أخرى يدل ما جاء فيها على أن هذا اللقب خاص بنائب كوش.[٢٠٨]

(١٥) **كاتب القربان لكل الآلهة:** وهذا اللقب كسابقه من الألقاب الدينية.

(١٦) **كاتب المالية لرب الأرضين في «تاستي» (النوبة).**

(١٧) **الحاكم (الرئيسي).**

(١٨) **رئيس مركز.**

(١٩) **قائد الجبل:** هذا اللقب يدل على وظيفة من طراز حربي. وحال هذا اللقب كان موكلًا به حراسة الأمن في الأقاليم الصحراوية، وكذلك أن عليه أن يحمي المدن والحقول التي في الوادي من الغارات التي كانت تقوم بها قبائل البدو المُغِيرَةُ الذين يجولون في الصحاري المجاورة. وقد كانت تقام مَحَاطٌّ صغيرة في هذه الصحاري لردع هذه القبائل. وكان القائد مكلفًا الإشراف على واحدة أو أكثر من هذه المحاط، ونحن نعلم أن «ثوري» الذي كان ثاني من تَقَلَّدَ منصب نائب الملك كان يحمل لقب «قائد المكان الحربي» «بهين» وهي بلدة «وادي حلفا» الحاليَّة تقريبًا.

ونلحظ أنه من بين هذه الألقاب التي جمعها «ريزنر» عن إدارة بلاد كوش بعض الألقاب على ما يظن لا تمت بسبب لهذه الإدارة وفي آنٍ واحد نجد أن بعض الألقاب التي لها علاقة مباشرة بحكومة كوش تُرِكَتْ ولم يذكرها «ريزنر» منها:

(١) التابع لمعام (عنيبة) وهو لقب غامض (ويحتمل أنه يعني الملحق ببلدة «معام»).

(٢) المشرف على الخزانة المزدوجة لرب الأرضين في «معام».[٢٠٩]

(٣) وقد وُجِدَ في بلاد النوبة موظفون من طراز حربي يحملون لقب قواد؟ «تاستي» (النوبة).

(٤) وُجِدَ في بردية رقم ٨٥٣٢ بمتحف «برلين»[٢١٠] خطاب لرئيس الرماة المسمى «شدس خنسو» لفرد يحمل لقب «فلاح كوش» أي جندي من عساكر كوش وهو مجند مرتزق كوشي. وهذا اللقب يعني على حسب رأي «سبيجلبرج» فلاحًا بسيطًا يقوم بفلاحة الأرض في مسقط رأسه في وقت السلم ولا يمكن أن يُقْبَلَ جنديًّا إلا في ظروف خاصة أي عند قيام حرب أو ثورة في البلاد.

وعلى أية حال فإن البردية من عصر متأخر عندما كانت وظيفة نائب كوش لا وجود لها.

والواقع أن حالة هؤلاء الموظفين كانت هي نفس حالة الموظفين المصريين العادية في عهد الرعامسة. وكانت الأحوال في السودان بسبب ذلك معقدة حتى أنه عندما كان الفرعون يريد أمرًا معلومًا أرسل له رجلًا مجهزًا بسلطات خاصة منعًا من الاحتكاك بولاة الأمور هناك، وكان على الفرعون أن يزود رسوله بخطاب من عنده لنائب الملك ليتعاون مع رسوله في قضاء ما جاء لأجله. ولدينا مثال على ذلك وهو ما حدث في عهد الملك «رعمسيس التاسع» عندما أرسل خطابًا لنائب الملك «بانحسي» ليتعاون مع رسوله في المأمورية التي كُلِّفَ بها.[٢١١]

وكان معظم هؤلاء الموظفين الذين يعملون في بلاد النوبة من المصريين، ولكن كان بينهم نوبيون متمصِّرون، وذلك على الرغم من أنهم قد تَسَمَّوْا بأسماء مصرية، وكان لا يمكن التفرقة بينهم وبين المصريين الحقيقيين ولدينا أمير من «معام» (عنيبة) يُدْعَى «حقا-نفر».[٢١٢] ومع ذلك فإن موظفًا في «بهين» يُدْعَى «أمنمحات» يقول صراحة إنه ابن الأمير صاحب «تحخت رسو»[٢١٣] وأخوه هو كاتب الملك «تحوتحتب» في «سرة». وأرض «تحخت» قد ذُكِرَتْ في نقش، ومن المحتمل أنها تقع في هذه الجهة.[٢١٤] وهذا الاسم وُجِدَ مرة أخرى في لوحة في «إلفتنين».[٢١٥]

وبجانب نظام الوظائف هذا كان يقوم الأمراء النوبيون الذين يوجدون في بقاع مختلفة بتمثيل دورهم،[٢١٦] فمثلًا نجد في عهد الملك «توت عنخ آمون» كيف أن أمير «معام» (عنيبة) والأمراء الآخرين من «واوات» يظهرون على رأس أتباعهم في البلاط الفرعون عند تقديم الجزية، وكذلك في مقبرة «أي-مي-سبا» الذي عاش في عهد الفرعون «رعمسيس التاسع» نجد صورة مماثلة مما يدل بلا نزاع على أن مقبرة «أي-مي-سبا» مُغْتَصَبَةٌ، وأن مناظر هذا القبر لا بد أن تُنْسَبَ إلى عصر قبل الذي نُسِبَتْ إليه.[٢١٧] وكذلك نجد أن هؤلاء الأمراء يذكرون كثيرًا في النقوش في عهد «الرعامسة»، غير أن ذلك لا بد أن يُعَدَّ من باب التقليد،[٢١٨] وبخاصة في عهد «رعمسيس الثالث».[٢١٩] ولا نعرف عن الدور الذي كان يلعبه هؤلاء الأمراء النوبيون إلا القليل، وقد رأينا من قبل أن «تحتمس الأول» قسَّم بلاد النوبة خمسة أقسام ووضع على رأس كل قسم منها أميرًا نوبيًّا. ومن ثَمَّ نرى أن المصري كان يجري وراء الإبقاء على هذه العلاقة. فكان الأمير الذي يُظْهِرُ الولاء للفرعون يبقى على ما يظهر في وظيفته على شرط أن يقدم ما عليه من جزية، وكانوا

بطبيعة الحال تحت سلطان ابن الملك صاحب كوش ونائبيه فيراقبونهم مراقبة حازمة. وقد كل أمير منهم يسعى للحصول على استقلاله السياسي يصيبه القهر والكبت، ويناله الضيم والعسف. ومع ذلك فإن هؤلاء الأمراء كان لا يزال في أيديهم بعض نفوذ سياسي معلوم، وهم الذين كانوا يعدون القوة المغيرة التي تقوم بالثورات في بلاد النوبة وكان لهم أحيانًا اتصال بقبائل النوبة الأحرار.

وقد جاء في قائمة جزية «سوريا» في تواريخ «تحتمس الثالث»[٢٢٠] ما يأتي:

> وقد أحضر أولاد الأمير وإخوته ليكونوا في الحصن في مصر، وعندما كان يموت أمير من هؤلاء كان جلالته يجعل ابنه يأخذ مكانه». وفي عهد «رعمسيس الثالث» قيل إن اللوبيين قد سيقوا إلى مصر ووُضِعُوا في حصون وبذلك سمعوا لغة الناس (أي المصريين) من أتباع الملك وكان هذا سببًا في أن تختفي لغتهم وعلى ذلك نسوا لسانهم.[٢٢١] وعلى الرغم من أن المثال الأخير لا يعني أولاد الأمراء فإن المصدرين في جملتهما يبرهنان بوضوح على أن الغرض من نقل أولاد الأمراء هو أن يكونوا بمثابة رهينة في مصر وأن يُرَبَّوْا تربية مصرية ليكونوا تابعين للفرعون في بلادهم.

ونجد مثل هذا في بلاد النوبة إذ كثيرًا ما يذكر أن أولاد أمراء النوبيين قد سيقوا إلى مصر، مثال ذلك ما جاء في مقبرة «رخ-مي-رع» وغيرها[٢٢٢] فنجد بالضبط هناك نوبيين قد وضعوا في الحصون[٢٢٣] وكانوا كذلك ينشئون في البلاط كما يدل على ذلك لقب أمير من معام يُدْعَى «حقا-نفر» فقد نعت على نقش صخر في «توشكى» صانع أحذية الملك والغلام (أي المملوك)[٢٢٤] وهو موحد بالأمير صاحب معام الذي يحمل نفس الاسم، وهو الذي ظهر في مقبرة «حوي» في منظر توريد الجزية بوصفه نوبيًّا.[٢٢٥] وهؤلاء الغلمان (المماليك) كانوا يَنشَئون مع الأمراء، وكانوا يحملون هذا اللقب وهم كبار في السن، وحتى عندما يكون الواحد منهم متقلدًا أعلى وظيفة في الدولة فمثلًا كان يسمى «وسر ساتت» نائب الملك دائمًا باسم الغلام أو المملوك، والظاهر أنه كان نوبي المنبت ولكنه قد تولى عملًا من أعظم الأعمال في الدولة. وتدل تنشئة أولاد الأمراء في البلاط مع رؤسائهم في المستقبل على أن المصري لم يكن مسلكه في بلاد النوبة مسلك سياسة السلب والنهب بل كان يعيش معهم عيشة سلام ووئام. ولم يحاول المصري قط أن يُفْنِيَ النوبي ويقضي عليه، إذ لم نجد أبدًا أنه أبعد أسرة أمراء وطنيين، وقد كان ذلك من الأمور التي يسهل على المصري إتيانها.

هوامش

(١) راجع: Burhen; Northern Temple doorway of Amasis I, two Inscrip- tions, p. 88

(٢) راجع: American Journal of Sem. Lang. (1908), p. 108

(٣) راجع: Urk., IV p. 78

(٤) راجع: Urk., IV p. 79-81, Ibid p. 89-90.

(٥) راجع: West Silsileh, Cenotaph of the Vezier Weser; Griffith, in Proc. Soc, Bib, Arch., Vol XII p. 104.

(٦) راجع: J.E.A., Vol 6, p. 29 note 1.

(٧) راجع: Rec. Trav, 39, p. 182 f

(٨) راجع: L.D.V Text, P. 168.

(٩) راجع: Hierog. Texts From The British Mus, V, p. 98 Pl. 25.

(١٠) راجع: Weill, La Fin Du Moyen Empire Egyptiene p. 569.

(١١) راجع: A Guide to the Egyptian Gallariss, 1909 Sculptures, p. 182 No. 651.

(١٢) راجع: El Arabat, PI, XXXV, No, E 270 et p. 16, 36 et 43; Newberry, Scarabs p. 157 No, 35, et PI, XXVI No 35, Tui-Re.

(١٣) راجع: Rec, Trav., XIII, P. 202.

(١٤) راجع: L.D. III, 25 bis.

(١٥) Urk., IV, p. 39-41.

(١٦) راجع: Ibid.

(١٧) راجع: Urk., IV, p. 142.

(١٨) راجع: Sudan Notes and Records, I, p. 225.

(١٩) راجع: Br., A.R., I, § 61-62.

(٢٠) راجع: Sethe, Untersuch., I, p. 78

(٢١) راجع: Tha American Journal of Semetic Lang. and Lit. (1908), p. 105.

(٢٢) راجع: Save, Ibid, p. 175 note 8.

(٢٣) راجع: L. D., III, Pl. 55 a and Urk., IV, p. 193.

(٢٤) راجع: J.E.A., Vol, 6, p.3.

(٢٥) راجع: Urk., IV. p 985-6.

(٢٦) راجع: Hierog. Texts from Egypt. Stelae Br. Mus., Vol. V, p. 10 Pl. 35.

(٢٧) راجع: Rec. Trav., 39, p. 189 Note 1.

(٢٨) راجع: Br., A. R., Vol. V, P. 58.

(٢٩) راجع: Br. op. cit. Vol. II, § 213 and p. 86 note c.

(٣٠) راجع: A Guide, Br. Mus. 1909, sculpture, p 109, No 374.

(٣١) راجع: Lepsuis, PI, XXV, No 348.

(٣٢) راجع: Maspero, Proc. S.B.A., Vol. XIV, p. 178.

(٣٣) راجع: Save, Ibid, p. 175.

(٣٤) راجع: J.E.A., Vol, 6, p. 175.

(٣٥) راجع ما كتب عنه Save, Ibid, p. 208.

(٣٦) راجع: Save, Ibid, p. 18 a.

(٣٧) راجع: Reisner, Ibid, p.

(٣٨) راجع: Ibid.

(٣٩) راجع: The American Journ. Of Sem, Lang, and Lit. (1908), p. 47-48.

(٤٠) راجع: Rec, Trav. Ibid, p. 190.

(٤١) راجع: J.E.A., 6, p. 30-31.

(٤٢) راجع: L.D., III, 45 e; Sethe, Urk., IV, p. 810- 813.

(٤٣) راجع: Wiedmann, Gesch. der 18 dyn., p. 65 and Agypt, Gesch., p. 362, and note 17.

(٤٤) راجع: Br., A.R., II, p. 26 note i.

(٤٥) راجع: Petrie, Six Temples at Thebes, Pl, II no 1; Urk., IV, p. 983.

(٤٦) راجع: Budge, The Egyptian Sudan, I, p. 573.

(٤٧) راجع: Save, Agypten und Nubien, p. 175.

(٤٨) راجع: Reisner, 3.

(٤٩) راجع: Aniba, II, 34 f.

(٥٠) راجع: J.E.A., Vol. 19. p. 53 ff.

(٥١) راجع: Reisner, Ibid, p. 32.

(٥٢) راجع: L.R., II, 276 n. 3.

(٥٣) راجع: J.E.A., 6, p. 32.

(٥٤) راجع: Monuments divers, Mariette, Pl. 71, No. 25.

(٥٥) راجع: Bull. de L'Instit. Francais d'Arch., X, p. 161.

(٥٦) راجع: Rev, Egypt. Nouv. Serie., T, I, p. 23 note 5.

(٥٧) راجع: De Morgan,Cat des Mon., Vol. I, p. 92 note 108; and L.D., Text. IV. P. 125 n. 5 a.

(٥٨) راجع: J.E.A., 6, p. 132.

(٥٩) راجع: Mariette, Mouments divers, Pl, 70. No. II.

(٦٠) راجع: A.Z., 59.

(٦١) راجع: Reisner, op. cit., p. 33a.

(٦٢) راجع: Guide, Br. Mus., (1909), p. 234, No, 411. حيث قد ذكر تاريخ السنة الخامسة عن الثورة التي قامت هناك.

(٦٣) راجع: Petrie, A Season in Egypt, P lX N. 274; De Morgan, Cat des Mon. et Inscr, T I p. 27. No. 204; Reisner, op. cit., p. 33 e.

(٦٤) راجع: L.D., Texte V., p. 244.

(٦٥) راجع: L,R., Il. P, 338, No. 20.

(٦٦) راجع: Rec. Trav., XIV, p. 27.

(٦٧) راجع: Rec. Trav., XII, p. 1-2; Reisner, op. cit, p. 34 m.

(٦٨) راجع: Wiedmann, Actes du VI congres des, Orientalisten 1883 a Leyde, 4 e partie, p. 145; Bnll Inst. D'arch. Orientals de Cairo T. XVI, p. 167-169.

(٦٩) راجع: Gauthier, Bull. Inst, T. XII (1916) p. 134-135.

(٧٠) راجع: Br. Mus. Guide, (1909), Sculpture, p. 143 No. 504 (860).

(٧١) راجع: Gauthier, L.R,. II, p. 338, 10 Note, 1.

(٧٢) راجع: A.S., 33, p. 83.

(٧٣) راجع: A.S., XL, p. 567; XLV p. 1 ff.

(٧٤) راجع: A.S, 40, p. 567 ff.

(٧٥) راجع: A.S., 45, p. 1 ff.

(٧٦) راجع: Rèisner, J.E.A., Vol, 6, p. 33-34.

(٧٧) راجع: Petrte, Hist. of Egypt, II, p. 170.

(٧٨) راجع: J.E.A., Vol. 4, p. 216.

(٧٩) راجع: Davies, Tomb of Houi.

(٨٠) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص ١٦٨–١٦٩، ٤٤٠–٤٤٢.

(٨١) راجع: L.D. Text, IV, p. 42.

(٨٢) راجع: De Morgan, Cat des Mon., Vol. I, p. 84, No. 8

(٨٣) راجع: De Morgan, Cat. Op. Cit., p. 96 n. 153.

(٨٤) راجع: Reisner, Ibid, p. 35.

(٨٥) راجع: Rec. Trav., 36, p. 197.

(٨٦) راجع: J.E.A., Vol. 6, p. 36-38.

(٨٧) راجع: L.R., III, p. 376_et note 2; Reisner, op. cit., p. 36a.

(٨٨) راجع: Reisner, Ibid, p. 36 b.

(٨٩) راجع: Rec. Trav., T. 39, p. 199.

(٩٠) راجع: J. E.A., Vol 6, p. 37 note 1.

(٩١) راجع: Reisner, Ibid, p. 36-37.

(٩٢) راجع: Rec. Trav., 39, p. 199.

(٩٣) راجع: Proceedings S.B.A., Vol. XIV, p. 332.

(٩٤) راجع: Cat. De la Galerie Egypt. du Musee Guimet, p. 47-48, Pl, XX.

(٩٥) راجع: Aegyp. Gesch., p. 429.

(٩٦) راجع: Brugsch, Rec. de monum., T. II, Pl, 65 No. 6 and P. 75.

(٩٧) راجع: Arthur Weil, Die Veziere, p. 89 § 18.

(٩٨) راجع: Ibid, p. 87 No. 15.

(٩٩) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص ١٦٩ والجزء السادس ص ١٥٩ وص ٢٠٣.

(١٠٠) راجع: Rec. Trav., 39, p. 201.

(١٠١) راجع مصر القديمة الجزء السادس ص ١٩٨–٢١٣.

(١٠٢) راجع: مصر القديمة الجزء السادس ص ٢٠٣.

(١٠٣) راجع: J.E.A., 6, p. 39–40.

(١٠٤) راجع: Reisner, Ibid, p. 40–41.

(١٠٥) راجع: Weidmann and Portner, Aegyptische Grabsteine und Denksteine aus Verscheidenen Sammlungen (Band III, p. 21 No, 18 a and b) Pl. VII.

(١٠٦) راجع: Reisner, Ibid, p. 30–39.

(١٠٧) راجع: Reisner, Ibid, p. 39.

(١٠٨) راجع: Bull. de l'Instit. Fr. D'Arch. Orient. Du Caire, T. XVII p. 38.

(١٠٩) راجع: Monum. d'Egypte et de la Nubie, Pl, IV, No. 2.

(١١٠) راجع: The American Journal of Semitic Lang. (1906), p. 28, fig. 18 et p. 29. fig. 19.

(١١١) راجع: A.S., XX, p. 129, ff.

(١١٢) راجع: L.D., III, 138.

(١١٣) راجع: مصر القديمة الجزء الخامس ص ١٦٩–١٧٠.

(١١٤) راجع: Reisner, J. E.A., Vol, 6, p. 40–42.

(١١٥) راجع: A. S., III, (1902), p. 240–241.

(١١٦) راجع: L.D., III, p. 195; T. V, p. 165.

(١١٧) راجع: Reisner, Ibid, F and g.

(١١٨) راجع: J.E.A., Vol, 34, p. 9.

(١١٩) راجع: Ibid, p. 9.

(١٢٠) راجع: L.D., Texte Vol. V, P. 60.

(١٢١) راجع: J.E.A., Ibid, p. 45.

(١٢٢) راجع: Rec, Trav., 38, p. 208.

(١٢٣) راجع: Konigsbuch, Lepsius, no. 471, Pl. XXXV; Livre des Rois de Brugsch et Bouriant no. 494, p. 77.

(١٢٤) راجع: Reisner, Ibid, p. 41.

(١٢٥) راجع: مصر القديمة الجزء السادس ص ٥١٣ وراجع Brugsch, The-saurus, p. 593.

(١٢٦) راجع: Guide to the Egyptian Galleries (1909), P. 246 no. 604 = Ibid, Sculpture, P. 166-167.

(١٢٧) راجع: مصر القديمة الجزء السادس ص ٤٦٢.

(١٢٨) راجع: A.S., p. 49 ff.

(١٢٩) راجع: J.E.A., Vol. 6, p. 41-43.

(١٣٠) راجع: L.D., III, 195 b-c =Text V, p. 167, Breasted, the American Journal of Semetic Languages (1906), p. 26.

(١٣١) راجع: Weigall, Report on the Antiq. Of Lower, Nubia, p. 113, pl. LXIV. No 7.

(١٣٢) راجع: Reisner, Ibid, p. 42 e.

(١٣٣) راجع: A.S., XI, p. 84 Pl. IV.

(١٣٤) راجع: The American Journ. of Sem. Lang. (1908), p. 98- 100.

(١٣٥) راجع: Rec. Trav., Tom. 39, p. 210.

(١٣٦) راجع: L.D., Text V, p. 165.

(١٣٧) راجع: Roeder, Aegypt, Inschr, aus der Konig, Museen Zur Berlin, II, p. 78.

(١٣٨) راجع: Reisner, Ibid, p. 41-43.

(١٣٩) راجع: Brit, Mus. Guide, (1909) p. 246, No. 608, and Ibid, Sculp-ture, p. 168.

(١٤٠) راجع: Gauthier, La Temple s'Amada, p. 136.

(١٤١) راجع: L.D. Texte,m V, p. 89-90.

(١٤٢) راجع: Ibid, Texte, V, P. 391.

(١٤٣) راجع: Roeder, Aegypt. Insch., II, p. 56–57 No. 2287.

(١٤٤) راجع: Rec. trav., T. XXXXV (1912), p. 184–187 No. XX.

(١٤٥) راجع: مصر القديمة الجزء الخامس ص ١٧١.

(١٤٦) راجع: Reisner, Ibid, p. 47.

(١٤٧) راجع: Ibid, p. 45.

(١٤٨) راجع: Rec. Trav., 39, p. 214.

(١٤٩) راجع: Br., A.R., III, § 642.

(١٥٠) راجع: A.S., X, p. 132.

(١٥١) راجع: Randall–Maciver, Buhen, p. 25; and Bz., A. R., III, § 646

(١٥٢) راجع: Br., A. R., III, § 646

(١٥٣) راجع: Br., A. R., III, § 647; L. D., Texte, IV, p. 120

(١٥٤) راجع: J.E.A., Vol. 25, p. 143.

(١٥٥) راجع: Ibid, PI, XV, 2.

(١٥٦) راجع: Reisner, Ibid, 48a.

(١٥٧) راجع: Petrie, Hist., III, P. 133.

(١٥٨) راجع: A.R., Vol, III, § 645.

(١٥٩) راجع: Sayce, Rec. trav., T. XVII, p. 161 No, 3.

(١٦٠) راجع: Reisner, Ibid, p. 50.

(١٦١) راجع: Reisner, Ibid, p. 50 (a).

(١٦٢) راجع: Randall— Maciver, Buhen, p. 24. Pl. 11.

(١٦٣) راجع: Sayce, Rec. Trav., T. XVII, p. 163 No. 14.

(١٦٤) راجع: L.R., III, p. 182 & XVII, Note 2.

(١٦٥) راجع: J.E.A., Vol. 25. p. 143.

(١٦٦) راجع: J.E.A., Vol. 25. p. 143

(١٦٧) راجع: Lieblein, Dic, du noms Hierog, T.II, No. 2114.

(١٦٨) راجع: Reisner, Ibid, P. 50 f.

(١٦٩) راجع: J.E.A., 25, p. 140, 143.

(١٧٠) راجع: J.E.A., 6, p. 5.

(١٧١) راجع: Randall— Maciver, Buhen, p. 44.
(١٧٢) راجع: مصر القديمة الجزء الثامن ص ٤٣٨ إلخ.
(١٧٣) راجع: مصر القديمة الجزء الثامن ص ٥٥٠، ٥٨٥.
(١٧٤) راجع: Reisner, Ibid, p. 51.
(١٧٥) راجع: كذلك مصر القديمة الجزء الثامن ص ٧٧١ إلخ.
(١٧٦) راجع: De Morgan, Cat. Des Mon., Vol. I, p. 94, 139.
(١٧٧) راجع: L.R., III, p. 266.
(١٧٨) راجع: Br., A. R., Vol Iv, § 714–719.
(١٧٩) راجع: Ibid, § 724.
(١٨٠) راجع: Ibid, § 770.
(١٨١) راجع: A.S., XIV, P. 14 & 39.
(١٨٢) راجع: Bull–Inst, Fraincaise D'Areheol, Orisnt, T. XII, p. 138.
(١٨٣) راجع: Urk. IV, 76 f; Sethe, Ubersetzung, p. 4.
(١٨٤) راجع: J.E.A., Vol. 6, p. 78.
(١٨٥) راجع: Ed, Meyer, Alt. II, I, p. 8 (Anm. I).
(١٨٦) راجع: Urk., IV, 988.
(١٨٧) راجع: Urk., IV, 1120 ff.
(١٨٨) راجع: Kulturgesh, p. 340.
(١٨٩) راجع: A.Z., 64, 153 f.
(١٩٠) راجع: Urk., Iv, 125 f.
(١٩١) راجع: مصر القديمة الجزء التاسع ص ١٥٢.
(١٩٢) راجع: L.D., Texte, IV, P. 42.
(١٩٣) راجع: L.D., Texte, IV, P. 38.
(١٩٤) راجع: A.S. 37 p. 7; Chronique D'Egypte, 12, 138; Comp. Reisner, J.E.A., Vol. 6, p. 78.
(١٩٥) راجع: Save, p. 181 n. 4.
(١٩٦) راجع: مصر القديمة الجزء الخامس ص ١٦٨.
(١٩٧) راجع: Kees, Kulturgesch., 208 ff.

(١٩٨) راجع: Davies, the Tomb of Huy, Pl. 16 f.

(١٩٩) راجع: Reisner, Ibid, P. 86 f; Gauth, Rec. Trav., 39, 232 ff; Aniba II p. 248.

(٢٠٠) راجع: Rec Trav., 40, p. 232.

(٢٠١) راجع: Bull, Instit., T. XIII, p. 164-7.

(٢٠٢) راجع: في معبد «الدكة» Thesaurus, p. 1023 & 1030.

(٢٠٣) راجع: L.D. Texte. V, p. 115.

(٢٠٤) راجع: A,S., X, p. 132.

(٢٠٥) راجع: L.D., Texte, V, p. 115.

(٢٠٦) راجع: Thesaurus, p. 1137, 1140

(٢٠٧) راجع: Rec. Trav., T. 39, p. 234.

(٢٠٨) راجع: Gauth., Ibid, p. 234.

(٢٠٩) راجع: L.D., III, 231a.

(٢١٠) راجع: A.Z., III, p. 108-9.

(٢١١) راجع: Plyete-Rosse, Papryus de Turin Pl, 66 f.; Moller, Hierat. وكذلك راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٥٥١. Lesestucke, III, b, Br., A.R., IV, § 595 ff,

(٢١٢) راجع: Junker, Ermenne, p. 37.

(٢١٣) راجع: Buhen, p. 110 Comp. 109, 112.

(٢١٤) راجع: L.A.A.A., 8, Pl. XXIX, 4, & p. 100.

(٢١٥) راجع: Dic. Geog. II, 28.

(٢١٦) راجع: Junker Ermenne, p. 100.

(٢١٧) راجع: Porter & Moss, I, p. 94.

(٢١٨) راجع: في عهد «رعمسيس الثاني» مثلًا Wresz, Atlas, II, 180

(٢١٩) راجع: L.D., III, p. 209 a.

(٢٢٠) راجع: Urk., IV, 690.

(٢٢١) راجع: L.D.,,III, 218 c Comp. Grapow, Abb. Ak. Wiss, 1904 phil. hist Kl, Nr., 12, p. 49.

(٢٢٢) راجع: Wresz., I, 335-7; Urk., IV, 1102; Ibid Iv, 708 etc.

(٢٢٣) راجع: Bauinschrift., Amenophis, III, p. 28 f; Rec. Trav., 20, 43; Petrie, Six Temples Pl. I; A.Z., 36, 84; 37, 39 f.

(٢٢٤) راجع: Weigall, Report, p. 126.

(٢٢٥) راجع: Davies, The Tomb of Huy, p. 213 Pl, 27, Wrcsz., Atlas, I, 100; Reisner, J.E.A., 6, p. 87 & Aniba, II, p. 250 f.

الفصل السادس عشر

العلاقات بين مصر وكوش في عهد الدولة الحديثة

لا نزاع في أنه كان من نتائج ضم بلاد النوبة ثانية وتنظيمها من جديد على حسب الأنظمة المصرية من حيث الحكم والإدارة هجرة كثير من المصريين إلى الأقاليم النوبية. وذلك لأنه كان لا بد أن يكون الموظفون الأُوَلُ الذين عليهم أن يُدَرِّبُوا أهل تلك البلاد على طريقة الإدارة المصرية من المصريين المدرَّبين على النظم الإدارية في مصر. ويوضح صحة تفضيل الموظفين المدرَّبين على غيرهم في أن جمع الضرائب وكذلك المهام الإدارية الأخرى في بلاد النوبة السفلى قبل إنشاء وظيفة نائب الملك كانت قد أُسْنِدَتْ إلى أمير «الكاب» المُسَمَّى «حورميني» وهو الذي نقل بهذا السبب على ما يظهر إلى بلاد النوبة السفلى؛ ومما يلفت النظر كذلك أنه قد دُفِنَ على ما يظهر في موطنه الأصلي بمصر؛[1] وكان يوجد حتمًا بجانب موظفي الإدارة الذين كانوا في الوقت نفسه كهنة؛ عدد عظيم من الضباط والجنود اللازمين للحاميات؛ وكان معظم هؤلاء في بادئ الأمر من المصريين الذين يُرْسَلُونَ إلى بلاد النوبة وقد رفض الأستاذ «ينكر» بحق النظرية التي وضعها كل من «ريزنر» و«فرث» وهي القائلة إنه في عهد الهكسوس فعلًا؛ وكذلك بعد فتح البلاد ثانية قد حدثت غزوة من المصريين لبلاد النوبة السفلى فغمرتها بالمصريين؛ وكان من جرائها أن احْتُلَّتِ البلاد وقُضي على مجموعة C. وعندما أصبحت الإدارة تسير نحو التمصير أكثر فأكثر على مر الأيام، وأصبح الأمراء الوطنيون لا وجود لهم قد صار من غير الضروري نتيجة لذلك عمل أي تغيير في السكان، وغاية ما في الأمر أن عدد الجنود المصريين والموظفين والكهنة قد كَثُرَ، وهؤلاء هم الذين كانوا قد سكنوا البلاد وأقاموا فيها مستعمرات لأنفسهم كما دلت على ذلك الحفائر التي قام بها «ستيندورف» في «عنيبة»[2]

غير أن هذه المؤسسات على ما يظن كانت منحصرة في مراكز الإدارة الحكومية في حين أن القرى والمساكن الأخرى كان يقطنها النوبيون الأصليون.

هذا وقد أظهر كذلك الأستاذ «ستيندورف»[٣] ما أكده «ينكر» أنه على ما يظهر قد دُفِنَ كثير من النوبيين المتمصرين كذلك في جبانات الدولة الحديثة مع المصريين في «عنيبة» و«بهين» اللتين تعدان مركزين حكوميين والواقع أننا نعلم أن الأهالي النوبيين كانوا يعملون بوصفهم موظفين مصريين، ولكن لا تزال الدرجة التي وصلوا إليها في تمصُّرهم هذا مبهمة.

وقد رأينا من قبل أن تمصير النوبيين قد خطا خطوات واسعة في العهد المتوسط الثاني تقريبًا، وعلى ذلك فإن هذا النمو في التمصير الذي نراه في عهد الدولة الحديثة لم يكن إلا خطوة إلى الأمام في الطريق التي شُقَّتْ من قبل. وقد كان هذا التقدم في الثقافة المصرية الذي نتج عن ذوق الأهالي في العهد المتوسط الثاني دون التسليم بحدوث هجرة مصرية ظاهرًا مما يجعلنا نعتقد في عدم انتقال عدد عظيم من المستعمرين المصريين في عهد الدولة الحديثة إلى بلاد النوبة وبخاصة أنه كان لزامًا على الطبقة العليا من الموظفين الذين كان عددهم عظيمًا أن يسيروا بسرعة نحو التمصير، وأخيرًا نجد أن فكرة إعادة فتح أعمال تنجيم الذهب وقد جلبت جمًّا غفيرًا من المستعمرين، كان من الصعب ربطها مع أحوال العمل. والواقع أنه لدينا كل الأسباب للتسليم بأن استخراج الذهب من الصحراء الواقعة شرقي بلاد النوبة كان احتكارًا حكوميًّا، وعلى ذلك فإن استخراج الأهالي للذهب في هذه الجهة كان أمرًا محظورًا قطعًا. حقًّا تنقصنا المصادر الصريحة عن استخراج الحكومة للذهب في جبال «وادي العلاقي»؛ ولكن إذا كنا في شك من هذا فيجب علينا إذن أن نتطلب من باب أولى مصادر أكيدة لكل كيان نظام الحكومة المصرية لمعارضة ذلك. والظاهر أنه قيل عن أعمال مناجم الذهب الواقعة شرقي «إدفو» في نقوش «الرديسية» أن استخراج الذهب كان مصرحًا به للحكومة أو للمعابد.[٤]

وقد وُصِفَتْ لنا وعورة الوصول إلى البقعة التي فيها مناجم الذهب وما كان يلاقيه الناس الذين كانوا يُكَلَّفُونَ العمل في هذه المناجم في لوحة «كوبان» كما يأتي:[٥] «أما إقليم «أكيتا» فقد قال عنه ابن الملك صاحب كوش أمام جلالته: «إنه كان ينقصه الماء بهذه الكيفية فقد ماتوا (رواده) عطشًا فيه وكل ملك قبلك رغب في فتح بئر هناك لم يصب نجاحًا؛ وقد حاول ذلك الملك «من ماعت رع» (سيتي الأول) وأمر بحفر بئر عمقها عشرون ومئة ذراع ولكنها نبذت على الطريق، لأن الماء لم ينبع فيها»».

ومما له أهمية بالغة في هذه المناسبة صيغة اليمين التي تجدها في نقش «مس» الذي أقسم به الرجال فيقول الواحد: «إذا كذبت فَلْتُقْطَعْ أنفي وأذناي وأُنْفَى أنا إلى بلاد كوش»،[٦] وكانت النسوة تعقدن اليمين هكذا: «إذا كذبت فَلْيُلْقَ بها في مكان بين الخدم خلف البيت الذي كانت فيه ذات يوم سيدة».[٧] وهذه الموازنة تدل صراحة على أن المنفيين من البلاد كانوا يُرْسَلُونَ عبيدًا إلى بلاد النوبة ويُعَامَلُونَ معاملة المجرمين حيث يقومون بالأعمال الشاقة ويؤيد كره المصري أحيانًا لبلاد النوبة أن المصريين الذين كانوا يشغلون وظائف عالية حتى بعد تمصير بلاد النوبة تمصيرًا تامًّا كانوا لا يُدْفَنُونَ إلا في مصر، وعلى ذلك نجد أن كل نواب الملك في كوش قد دُفِنُوا في مصر على الرغم من أنهم كانوا حكام السودان، وحتى نجد قبر «حوري الثاني» كان في «بوبسطة» على الرغم من أن «حوري الأول» والده كان نائب ملك، أي إن «حوري الثاني» قد أمضى مدة طويلة من حياته في بلاد النوبة حتى كاد يصبح من أهلها، ومع ذلك دُفِنَ في مصر. ولدينا «أوستراكون» من عهد الرعامسة تحدثنا عن فرد يندب حظه لوجوده في بلاد كوش مما يؤكد رغبة كل مصري في الدفن في مصر. على أن ذلك لا يعني أن المصري كان يكره السودان بل الواقع أنه كان يحب أن يكون دائمًا في بلاده ويدفن فيها ولا يريد الاغتراب في أي بلدة.

وعلى أية حال فإن الظواهر الأثرية لا تقدم لنا فرقًا بين النوبي والمصري، وعلى ذلك فإنه ليس لدينا برهان مُحَسٌّ على قيام هجرة مصرية. ومن ثَمَّ لا نكون قد حِدْنَا عن جادة الصواب إذا قلنا إنه قد حدث انتقال مصريين إلى بلاد النوبة مثل الموظفين وغيرهم، وقد كان ذلك من الضرورات التي حتَّمتها الأحوال السياسية، وذلك مثل استيراد عدد عظيم من الأيدي العاملة الأجنبية إلى مصر مما يبرهن بوضوح على أنه كان في تلك البلاد الأجنبية ازدياد في عدد السكان.

وقد كان من الضروري لاحتلال بلاد كوش احتلالًا عسكريًّا أن تقام فيها الحصون والأماكن المحصنة التي كانت تلعب دورًا هامًّا. ففي بلاد النوبة السفلى أعيد استعمال حصون الدولة الوسطى، وقد كان من الضروري إعادة إصلاح كثير منها وإن كانت الجدران الخارجية في غالب الأحيان يمكن الإفادة منها، ونذكر من الحصون القديمة «إلفنتين» و«بيجه» اللذين جاء ذكرهما في مقبرة «رخ-مي-رع»[٨] وقد جاء في ورقة شكوى من عهد «رعمسيس الخامس» أن كاهنًا للإله «خنوم» في «إلفنتين» قد باع بدون حق عجل «أبيس» إلى رجل من المزوي في قلعة «بيجه»[٩] وكذلك جاء ذكر حصن

في نفس الورقة قد انْتَهَكَ حرمته نفس الكاهن، ويحتمل أنه حصن «إلفنتين» وكذلك حصن «أكور» إذا كان ما وجد فيه من فخار قد أُرِّخَ تأريخًا صحيحًا يرجع تاريخه إلى الدولة الحديثة، وفيما بعدُ نجد أن هذه الحصون قد أخذت تفقد أهميتها تمامًا ثم خطت خطوات سريعة نحو تهدئة الأحوال في البلاد حتى إن حصن «كوبان» قد قام بما كان يؤديه كل من الحصنين من حراسة. والظاهر أنه كانت قد أُسِّسَتْ مستعمرة كبيرة مكشوفة على الشاطئ الغربي الخصب غير المحصن قبالة «كوبان» في «الدكة»، وعلى أية حال ليس لدينا ما يدل عليها إلا الجبانة التي وُجِدَتْ هناك[١٠] والمعبد الموجود في هذه البقعة تاريخه متأخر جدًّا عن العصر الذي نحدد بصدده، غير أن تأسيسه قد يرجع إلى الدولة الحديثة.

وقد برهنت الحفائر التي قام بها «إمري-كروان» على أن حصن «كوبان» كان مستعملًا في عهد الدولة الحديثة. وعصر البناء الأول فيه (D) يحتمل أنه كان في عهد «سيتي الأول» وكذلك نجد أن «رعمسيس العاشر» قد أقام معبدًا هناك (F). وكذلك أنشئت هنا بالقرب من الحصن مباشرة في عهد الدولة الحديثة بعد تهدئة الأحوال في البلاد مدينة مفتوحة. وقد وُجِدَتْ نواة الحصن في مكانها وقد اسْتُعْمِلَتْ بمثابة خزانة،[١١] وكذلك نجد هذا التطور في «عنيبة» فنشاهد أولًا أن حصن الدولة الوسطى قد تطور بناؤه إلى مدينة كبيرة محصنة كما أقيمت كذلك مدينة أمامية خارج الحصون.[١٢]

وفي «فرص» نجد أن مباني الدولة الحديثة ليست ملاصقة لمباني الحصن القديم، فلم تكن كما يظن الأستاذ «جريفث» على فرع النيل بل بعيدًا عنه شرقًا عند فرع النيل الرئيسي، وقد أقام هنا «حتشبسوت» و«تحتمس الثالث» و«توت عنخ آمون» ويُحْتَمَلُ كذلك «رعمسيس الثاني» معابد، غير أن المؤسسة المثبتة التي أقيمت في عهد الدولة الحديثة في «فرص» قد وصل إلينا معلومات عنها من النقوش التي تركها لنا «حوي» في مقبرته التي يرجع تاريخها إلى عهد «توت عنخ آمون». والحصن الذي كان موقعه في الأصل معبد «توت عنخ آمون» ليس له وجود الآن.[١٣]

ولا نعرف عن تاريخ «سرة» شيئًا علي وجه التأكيد، ولكن المقابر والنقوش التي وُجِدَتْ هناك تدل علي أن هذا المكان كان معمورًا في عهد الدولة الحديثة.[١٤]

وتدل الحفائر التي قام بما «ماك أيفر» علي أن «بهين» كانت كذلك مدينة مزدهرة في عهد الدولة الحديثة، وهنا نجد كذلك أن موضع الحصن الذي من عهد الدولة الوسطي قد وُسِّعَ وكذلك ضوعفت أسواره،[١٥] ومن المحتمل أنه قد أقيم حصن جديد علي جزيرة.[١٦]

ومن جهة أخرى نجد أن حصون الشلال القديمة أصبحت منذ باكورة الدولة الحديثة لا قيمة لها حربيًّا، وذلك بعد تقدم «تحتمس الأول» في الفتح حتى «أرقو» على أقل تقدير، وعلى ذلك نجد أن حصن «شالفك» على ما يظهر لم يكن مُسْتَعْمَلًا إلا في عهد الدولة الوسطى.[١٧]

وكان يقام في بعض هذه الحصون مثل «ورنرتي» و«سمنة» و«قمة» في عهد الدولة الحديثة معابد لإقامة الشعائر الدينية بما يلزمها من الكهنة والخدم الذين كانوا يقيمون فيها، ومن المحتمل أن البيت الذي يقع في الجزء الجنوبي من جزيرة «ورنرتي» وهو الذي قد أقيم خارج التحصينات يُنْسَبُ إلى عهد الدولة الحديثة، ويلحظ أن «سمنة» كانت على ما يظهر دائمًا مستعملة حصنًا، على الرغم من أن جدرانها الخارجية لم تكبر أو أعيد بناؤها، في حين نجد أن حصن «قمة» على ما يظهر كان يسكنه موظفو المعبد الذي أقيم هناك لعبادة الإلهين «خنوم» و«سنوسرت الثالث»، وتدل ظواهر الأحوال على أنه لم يكن له فائدة حربية عظيمة.

والواقع أن الأعمال الحربية بعد نقل الحدود إلى الجنوب قد جعلت مستلزمات الدفاع تنتقل إلى حصون أخرى أقيمت في البلاد التي فُتِحَتْ جديدًا على ما يظن منذ «تحتمس الأول» وهذه الحصون لم تكن مهمتها الدفاع ضد أهالي الجنوب وحسب، وذلك لأن الأرض التي تقع بين «وادي حلفا» و«كرمة» كانت مُهَدَّدَةً بوجه خاص من الغرب من جهة واحة «سليمة» وعلى ذلك نجد أن معظم أماكن الحصون تقع هنا على الشاطئ الغربي.[١٨] ولم تكن وظيفة هذه الحصون قاصرة على الدفاع بل كانت على ما يظن مُعَدَّةً لتكون مكان هجوم على أهالي الصحراء الْمُغِيرِينَ أو لتهدئة قبائل البدو، وبذلك فقط كان يمكن تتبع العدو القضاء عليه في عقر داره، وفضلًا عن ذلك كانت هذه الحصون تُعْتَبَرُ عائقًا أمام قبائل البدو، ومانعة من أن يثبت العدو قدمه في أي مكان، حتى لا تقطع المواصلات بالجزء الجنوبي من بلاد كوش.

فنعرف من بين الأماكن المحصنة في هذه الرقعة خلافًا لجزيرة «ساي» حتى الآن «العمارة غرب»[١٩] و«سدنجا»[٢٠] و«سسبي»[٢١] و«صلب»[٢٢] ولم يكشف عن الحصن الأخير، وتحصيناته على ذلك ليست معروفة على وجه التأكيد. ونعلم أن هذا المكان كان محصنًا مما جاء من ذكر اسم الحصن الذي يُدْعَى «خع مماعت» في نقوش المعبد القائم هناك، وكذلك من بقايا الآثار التي عُثِرَ عليها في جبل «برقل».[٢٣]

ونستخلص أهمية «صلب» هذه من المنظر الذي نشاهده في مقبرة «حوي» وقد كان أمير «خع مماعت» أي حاكم «صلب» وكان ممثلًا واقفًا بجانب وكيل بلاد «واوات»

ووكيل بلاد «كوش» لاستقبال نائب الملك في «فرص»؛[٢٤] وكذلك كانت تعد «سدنجا» بموقعها الإستراتيجي من الأماكن الهامة وكانت تسمى حصن «تي».[٢٥]

وفي الجنوب على مسافة كبيرة تقع بلدة «كاوا» وهي التي على ما يُظَنُّ قد أسسها «أمنحتب الثالث» وهي المدينة المعروفة باسم «جمأتون»[٢٦] وقد قامت حفائر عظيمة هنا وظهرت نتائجها وسنتحدث عنها فيما بعد عند الكلام على الملك «تهرقا»؛ وأخيرًا تقع في نهاية الحدود الجنوبية عند جبل «برقل» المقدس مدينة «نباتا» المحصنة والمدينة نفسها بما فيها من حصون لم يُعْثَرْ عليها بعد، بل كل ما كُشِفَ عنه هو المعبد ويرجح أقدم ما كشف فيه إلى عهد «تحتمس الثالث» أو «الرابع»،[٢٧] ومع ذلك نعلم من النقوش أن «نباتا» كانت مدينة محصنة فقد صَلَبَ «أمنحتب الثاني» عدوًّا أسيويًّا على قمة جدران «نباتا»[٢٨] وكذلك نجد في صيغة الإهداء في لوحة جبل «برقل» التي من عهد «تحتمس الثالث» — التي عُمِلَتْ على حسب النموذج القديم — اسم الحصن وهو حصن «سما خاستيو» (موت الأراضي الأجنبية).[٢٩] ويمكن الإنسان معرفة أهميتها الإستراتيجية من الفقرة التالية (سطر ٣٩): «إن الخوف من جلالتي قد بلغ حتى الأراضي الجنوبية. ولم توجد أية طريق تعترضني وإنه (آمون) قد أخضع لي كل الأرض». وكانت «نباتا» سدًّا للدولة ضد الجنوب، ومن أجل ذلك قامت بالدور الذي كان يقوم به حصن «سمنة» في عهد الدولة الوسطى عندما كانت حدود مصر لا تتجاوز الشلال الثاني، يضاف إلى ذلك أن موقعها كان أكثر ملاءمة من موقع حصن «سمنة». ويوجد (فضلًا عما ذكرنا من أماكن محصنة) مدن ومعابد في بلاد النوبة فنجد مذكورًا على لوحة «سمنة» التي من عهد «أمنحتب الثالث» حصن «ثاراي» الذي لم يعرف موقعه بعد.[٣٠] وفي عهد «تحتمس الرابع» نعرف اسم قائد حصن في أرض «واوات» اسمه «نبي»؛[٣١] وكذلك في منشور «ثوري» الذي سنَّه «سيتي الأول» نجد قرارًا خاصًّا بالأسطول الذي أتى من بلاد كوش بالجزية لأجل معبد «العرابة» جاء فيه: «وفضلًا عن ذلك قرر جلالته سن قوانين لأسطول جزية بلاد كوش التابع لبيت «من ماعت رع» لمنع أي مشرف حصن يكون على حصن «سيتي مرنبتاح» الذي في «سخمت» (مكان غير معروف موقعه) أن يستولي على ذهب أو جلود أو أي نوع من جزية حصن إلخ». وأخيرًا ذكر لنا «رعمسيس الثالث» في معبده بمدينة «هابو» أنه بنى حصونًا في مصر وبلاد النوبة وآسيا.[٣٢] والواقع أن هذا الملك لم يترك لنا أي بناء معروف على وجه التأكيد في بلاد النوبة. وقد ذكر في ورقة «هاريس» الأولى[٣٣] أن «رعمسيس الثالث» قد أقام معبدًا لآمون في بلاد النوبة.

ومن ثَمَّ نرى أنه في حالات كثيرة نعرف المعابد التي أقيمت — كما هي الحالة في «نباتا» — في حين أن الأماكن التابعة لها هذه المعابد قد اختفت أو لم يكشف عنها بعد. ويمكن أن نحكم — حسب ما نشاهده في مصر — أن المعابد الكبيرة كانت في غالب الأحيان محاطة بجدران عظيمة (مثال ذلك معبد مدينة «هابو»)، ولم تكن هذه الجدران تقام لمجرد الزينة بل كانت تقام للمحافظة على كنوز المعبد وثروته من النهب والسلب وبخاصة في عهد التدهور الذي حدث فيه تعدي الأهلين وقيام ثورات من جانب العمال للحصول على حقوقهم بالقوة؛ ومثل هذه الحالة نشاهدها في عاصمة البلاد «طيبة».[٣٤] ولم تكن الحالة أحسن في أي مكان آخر في مصر في تلك الفترة. وإذا كانت الحالة قد بلغت إلى هذا الحد في مصر فإلى أي حد كانت قد وصلت في بلاد النوبة؟! إن معابد النوبة التي كانت تُقام في أماكن يسكنها أجانب وحيث كانت تشب من وقت لآخر الثورات كان يوجد هناك من الأسباب القوية ما يحمل على إقامة الأسوار المتينة حولها. وعلى ذلك كانت بلا شك مؤسسات المعابد التي لها أهمية اقتصادية إما أن تحاط بجدار خاص لحمايتها أو تقام في وسط مدينة محصنة، وينبغي أن نعد من هذا الطراز معبد «عمدا». حقًّا لم يبق إلا المعبد في هذه الجهة، ولكن يلحظ أن جوانبه الخارجية ليست مزينة[٣٥] فيظهر أنه قد بُنِيَتْ حولها حجرات للمؤن وهي التي من جهتها كانت محمية بسور خارجي. ومن المحتمل أنه كانت توجد حول المعبد بلدة تسمى «خرب نب» يحميها الإله «سنوسرت الثالث» الذي كان مُقَدَّسًا هناك،[٣٦] ويعزو «جوتييه» هذا الاسم إلى عهد الأسرة الثانية عشرة (وفي هذا بالتأكيد شك كبير). والبقعة التي حول «عمدا» كانت منذ أقدم العهود مركزًا آهلًا بالسكان كما تدل على ذلك المقابر العدة التي يرجع عهدها إلى عهد الأسر المبكرة حتى عهد الدولة الحديثة كما يدل على ذلك القرى النوبية في الريقة، والأخيرة يرجع تأريخ سكناها على الأقل إلى عهد «تحتمس الثالث». والظاهر أنها حُوِّلَتْ في عهد الدولة الحديثة إلى مزرعة مفتوحة.[٣٧] ومعبد «عمدا» الحالي قد بدئ بناؤه في عهد «تحتمس الثالث»، وتم بناؤه في عهد كل من «أمنحتب الثاني» و«تحتمس الرابع»، وقد بقي مستعملًا على أقل تقدير حتى عهد الرعامسة كما تدل على ذلك النقوش التي نُقِشَتْ فيه فيما بعد.

وكانت المعابد التي في هذه الأماكن المحصنة أي معابد المدن وغالبًا ما تكون مقامة بالقرب من أراضٍ خصبة ومراكز آهلة بالسكان، تلعب دورًا جديًّا بوصفها مركزًا للحياة الاقتصادية للإقليم، ويصعب أن نحكم إلى أي حد كان ينطبق ذلك على المعابد المنحوتة

في الصخر وبخاصة أنه في عهد «رعمسيس الثاني» قد أقيمت معابد من هذا الطراز (مثال ذلك معابد «بيت الوالي» و«جرف حسين» و«السبوع» و«الدر» وكذلك المعبدان اللذان في «أبو سمبل»). وفضلًا عن ذلك أقيم في عهد هذا الملك معبد صغير في «أكشة» ومن المحتمل في «فرص». ويعتبر النشاط المعماري الذي قام في عصره رمزًا لازدهار اقتصادي في ذلك العهد.[٣٨]

على أن ذلك يعد مناقضًا بصورة غريبة بالنسبة للعدد الصغير من المقابر التي وُجِدَتْ حتى الآن في هذه الجهة وهي المقابر التي قد أُرِّخَتْ على وجه التأكيد بعصر الرعامسة ومن أجل ذلك سلم الأثري «فرث»[٣٩] أن بلاد النوبة كادت في ذلك الوقت تكون غير مسكونة، وكانت الزراعة تكاد تكون معدومة لسبب عدم وجود سبل الري. وعلى ذلك فإن هذه المعابد قد أقيمت رمزًا لصلاح الفرعون وعظمته. ومن المحتمل أنها كانت تُعَدُّ بمثابة محاط للتجارة في الجزء الجنوبي من السودان[٤٠] ولكن هذا الرأي يحتاج إلى تصحيح كما سنري بعد.

وقد كان اختيار المكان لهذه المعابد الصخرية بطبيعة الحال على حسب المساحة المطلوبة ففي الغالب يكون المعبد في أصله امتدادًا لكوة يحفرها الإنسان في الصخر تكون بمثابة نواة صالحة لذلك (مثال ذلك معبد قصر «أبريم»). وعلى وجه عام كان المعبد يقع بجوار مدينة أو مكان آهل بالسكان. فقد ذكر لنا أحد النقوش في مقبرة «بننوت» في «عنيبة»[٤١] اسم مكان في معبد «الدر»،[٤٢] وعلى مسافة مئة متر من هذا المعبد تقع جبانة من عهد الدولة الحديثة، وتشمل كذلك مقبرة محفورة في الصخر من عهد الأسرة التاسعة عشرة.[٤٣] وفي «بيت الوالي» نجد مدينة وبجوارها معبد منحوت في الصخر من عصر واحد، ولكن لم تصلنا عن ذلك معلومات أكيدة، وبالقرب من معبد «بيت الوالي» نجد معبد «كلبشة» الذي يُحْتَمَلُ أنه قد أُسِّسَ في عهد «أمنحتب الثاني».[٤٤] ولكن من المحتمل جدًّا مع ذلك أن بلدة «ثالميس» الواقعة في هذه البقعة لا تمثل مؤسسة جديدة في زمن متأخر بل قد ترجع إلى عهد الدولة الحديثة، أما «جرف حسين» فيقع في مركز آهل بالسكان[٤٥] وهو يشمل كذلك «أبو سمبل»، فمن الجائز أن المكان المذكور هناك باسم «امن-هري-اب» وخصص بعلامة البلد، إما أن يكون من سلسلة الحصون القربية من هناك وإما أن يدل على وجود مدينة محصنة. وقد وُجِدَتْ جبانة هناك يظهر أن كهنة معبد الرعامسة قد أسسوها بالقرب منه.[٤٦] وكذلك في معبد «وادي السبوع» نجد مقابر من عهد الدولة الحديثة أمكن أن نؤرخ واحدة منها أو أكثر بعصر الرعامسة.[٤٧]

ومع ذلك فمن الصعب جدًّا أن نصل من عدد المقابر التي حفظت لنا بوجه الصدفة إلى النتائج النهائية عن طبقات السكان، إلا إذا فحص وادي النيل من «أسوان» حتى بعد «فرص» فحصًا أساسيًّا. ففي «فرص» حيث يوجد مكان من عهد الدولة الحديثة على وجه التأكيد، لم يعثر فيه إلا على عدد ضئيل جدًّا من المقابر خاص بالدولة الحديثة[٤٨] وفي الغالب يكون من الصعب جدًّا أن يصل الإنسان من البقايا التي على السطح العلوي من الأرض إلى المكان الذي توجد فيه المقابر[٤٩] ويستحق الحفر فيه. وفضلًا عن ذلك توجد جبانات عديدة من عهد الدولة الحديثة في بلاد النوبة، وهذه إما أن تكون منهوبة تمامًا أو فقيرة في محتوياتها التي يمكن أن تُؤَرَّخَ بها حتى إنه قد يصبح من المستحيل أن نعرف النسبة المئوية من القبور التي فيها من عهد الرعامسة على وجه التأكيد. وعلى أية حال نجد أن الجبانات المجاورة للمراكز الكبيرة وهي «كوبان» و«عنيبة» و«بهين» يصل تاريخها إلى عهد الرعامسة، وفضلًا عن ذلك نجد مقابر من هذا العهد في «الشلال» وفي معبد «دبود» وفي «بوجاع» و«جرف حسين» و«كشتمنة». وعلى مسافة كيلو متر ونصف من معبد «عمدا» وفي «توماس» وكذلك بين «مصمص» و«توشكى». فمثلًا تقع في «البقع» و«دبود» المقابر على حافة الجبل وهذه مغطاة برمل نقله الهواء. وكذلك توجد مساحات شاسعة أخرى وبخاصة المغطاة منها بالرمال في بلاد النوبة لم يَجْرِ فيها البحث تقريبًا، ففي «وادي السبوع» على ما يظهر عدد من المقابر أكثر مما كشفه «إمري-كروان» لم يُحْفَرْ بعد، وعلى ذلك فمن الجائز كذلك أنه توجد مقابر كثيرة من عهد الرعامسة في حافة الجبل وفي النصف الأعلى من خزان «أسوان» الذي غطته المياه لم يُكْشَفْ عنه حتى الآن. وتبرهن لنا المادة المحفوظة لدينا على أن بلاد النوبة السفلى لم تكن بأية حال من الأحوال أرضًا صحراوية كما سلم بذلك «فرث» من جانبه، في حين أنه خلافًا لذلك قد ذُكِرَتْ أماكن ومقاطعات خصبة في بلاد النوبة السفلى في نقش من «القرنة» من عهد «رعمسيس الثاني».[٥٠]

والدليل على أن الزراعة لم تنقطع في بلاد النوبة السفلى ما تُحَدِّثُنَا به النقوش هناك فقد عدَّد لنا «بننوت» في قبره الموجود في «عنيبة» أبعاد الأراضي التي أُوقِفَتْ هناك على عبادة تمثال الفرعون «رعمسيس السادس»[٥١] وهذا المتن يدل على وجود أرض مزروعة بالقرب من «عنيبة» وقد جاء ذكر «الدر» في هذه النقوش ولا بد أن الأرض المقصود هنا هي قطعة الأرض الواقعة في بقعة «عنيبة» والواقع أنه لا توجد هنا أرض زراعية خصبة مثمرة أخرى يمكن أن يكون دخلها مخصصًا لعبادة «رعمسيس السادس».

ولم يقتصر المتن على ذكر حقول بل كذلك ذكر حقول كتان ويحتمل كذلك حدائق.[٥٢] يضاف إلى ذلك نقشان من عهد «رعمسيس الثاني» وُجِدَا بين معبدي «أبو سمبل» وهما خاصان بوقف أرض لمعبد خاص «بفرص» في هذه الحالة،[٥٣] وبجانب ذلك ذُكِرَ حقلان واحد منهما خاص بالملك والثاني ملك أفراد من الشعب، وقد لاحظ هنا «جوتييه» أنه لدينا أراض زراعية خصبة في بلاد النوبة السفلى أكثر مما كان يظن. والواقع أنه في عهد «تحتمس الثالث» كانت الحبوب تُرْسَلُ من بلاد النوبة إلى مصر كما سنرى بعد.[٥٤] ومما يبرهن لنا على أن كل بلاد النوبة في عهد الرعامسة كانت بلادًا غنية نسبيًّا وأن الزراعة كانت تلعب دورًا هامًّا ما جاء في منشور «ثوري» حيث نجد فيه فقرة (سطر ٣٩) وهي: «إن مستخدمي المعابد التي في كوش قد حسبوا كما يأتي:[٥٥] فالرجال والسيدات وحراس الحقول والرسل ومُرَبُّو النحل وعمال الحقول وبُسْتَانِيُّو الكروم والبستاني والنواتي (؟) … ونجارو البلاد الأجنبية (؟) وعمال مناجم الذهب والمواني. وكذلك ذكر في قرار العقوبات: «إن خارق القانون يجب أن يصبح عاملًا في الحقل للمعبد وتصبح أسرته عبيدًا للمعبد».

ولدينا من العصر المتأخر رسالة لكاهن الإله «خنسو» في «طيبة» أُرْسِلَتْ لمزارعه النوبي، ومع حاملها معلومات عن حالة الأرض،[٥٦] وإذا كان هذا المزارع يسكن في مصر كانت هذه الرسالة دليلًا هامًّا على استعمال عمال أجانب في المزارع المصرية، أما إذا كان المزارع (وهذا هو الرأي الأكثر احتمالًا) ساكنًا في بلاد النوبة فإنه يكون لدينا برهان لا يقل أهمية على استمرار الأحوال كما كانت في عهد الرعامسة وذلك في وقت لم يبقَ لنا فيه أي قبر محفوظ، هذا بالإضافة إلى أن كل المصادر الأخرى عن بلاد النوبة قد لزمت الصمت التام عن هذا الموضوع».

آلهة بلاد النوبة

وقد تناول الأستاذ «كيس» الحديث عن الآلهة الذين كانوا يُعْبَدُونَ في معابد بلاد النوبة وذلك من منظر صغير، غير أنه غاية في الأهمية.[٥٧] وثالوث الآلهة المعروف الذي كان يُعْبَدُ في جهة الشلال الأول وهم «خنوم» و«ساتت» و«عنقت» — ويحتمل أن الآلهتين من أصل نوبي — يصادفنا في عهد الدولة الحديثة في مناظر الشلال الثاني في «بهين». فنجد أن «ساتت» و«عتقت» تقومان بدورهما الهام هنا باسم سَيِّدَتَيْ «إلفنتين» الجنوبية،[٥٨] وكذلك نجدهما بنفس اللقب في معبد «فرص»،[٥٩] ومما تطيب الإشارة إليه أن ثالوث

الشلال كان يُعْبَدُ في جبل «دوشة» حيث نجد صخورًا منحدرة تظهر في النيل،[٦٠] وكذلك نجد هذا الثالوث يظهر في معابد بلاد النوبة فنجد الإله «خنوم» في «جرف حسين» و«الدر» و«أبو سمبل» و«صلب»، غير أنه لا يظهر بوصفه الإله الرئيسي كما هي الحال في «قمة»[٦١] وكذلك كانت الآلهة الرئيسية في المعابد النوبية هي آلهة الدولة في مصر فكان «آمون رع» مثلًا في «نباتا» هو الإله الرئيسي وكذلك في «أبو سمبل» كان «آمون رع» يُسَمَّى سيد عرش الأرضين والذين يسكن الجبل المقدس في «نباتا» والإله العظيم سيد السماوات. ونجد الآلهة الذين كانوا يُسَمَّوْنَ باسم «حور» في «واوات» يلعبون دورًا هامًّا في بلاد النوبة السفلى. فقد كان الإله «ددون» منذ عصر الأهرام يظهر بمثابة سيد «تاستي»،[٦٢] وفي عهد الدولة الحديثة كان يُعَبَدُ بجوار «سنوسرت الثالث» بوصفه إله «سمنة» الرئيسي وهو بالنسبة لأقدم كتابة، وعلى الرغم من رسمه دائمًا في صورة إنسان برأس حيوان، كان إله صقر قديم، وعلى ذلك فمن الجائز أن كل الآلهة المختلفين الذين كانوا يُرْسَمُونَ في شكل صقور قد اشْتُقُّوا منه،[٦٣] ومن المحتمل أن ذلك قد حدث لتتساوى مكانته بالإله «حور». فالإله «تاستي»،[٦٤] وأهم هؤلاء الآلهة الْمُسَمَّيْنَ باسم «حور» هم «حور» سيد «بهين» و«حور» سيد «معام» و«حور» سيد «باكي»، ونجد أنهم خلافًا للأماكن الرئيسية التي كانوا يُعْبَدُونَ فيها وهي «بهين» و«معام» و«عنيبة» و«باكي» (كوبان) كانوا يُقَدَّسُونَ في كل معابد بلاد النوبة السفلي» بل نصادف عبادتهم كذلك في السودان.[٦٥] وفضلًا عن ذلك ظهر «حور» آخر يُدْعَى «حور» سيد «محا»[٦٦] وفي «أبو سمبل» وفي معبد «حور محب» المنحوت في الصخر في «أبا هودا» وفي النقوش الصخرية في «جبل الشمس» وكلاهما بجوار «أبو سمبل»[٦٧] وكذلك في معبد «وادي السبوع».[٦٨] وأهم معبد لعبادة الصقر يوجد في «أبو سمبل» حيث نشاهد لوحة خارج المعبد الكبير ذكر عليها أن معبده لملايين السنين في جبل «محا» قد حُفِرَ له.[٦٩] وفي معبد «أبو سمبل» الصغير تُقَدَّسُ الآلهة «حتحور» سيدة «أبشك». وقد أُهْدِيَ لها معبد منحوت في الصخر في «فرص» ومن أجل ذلك قد وَحَّدَ الأثري «جرفث» بلدة «فرص» ببلدة «أبشك» وهو بلا نزاع رَأْيٌ لا يُعْتَدُّ به.[٧٠] ومن جهة أخرى نجد أن الأثري «كيس» قال إن «أبشك» هو اسم «أبو سمبل».[٧١]

ومما يطيب ذكره هنا أن عبادة الحاكم أو الفرعون كانت تلعب دورًا عظيمًا، وكانت هذه العبادة مباشرة خلافًا لما كان في مصر إذ كانت عبادة الآلهة مرتبطة بالأحوال السياسية. فعندما قدَّس «تحتمس الثالث» الملك «سنوسرت الثالث» — وهو الملك الذي

عمل أكثر ما يمكن عمله لمصر — بوصفه الإله الخاص لبلاد النوبة دل ذلك على منهاج سياسي كما هي الحال غالبًا في بناء ديانة الدولة. ومن المحتمل أن هذا العمل لم يكن تجديدًا من جانب «تحتمس الثالث» بل كان إحياءً للماضي، وذلك لأنه قد وُجِدَتْ طوابع أختام في «ورنرتي» باسم «سنوسرت الثالث» من بعد عهد الأسرة الثانية عشرة، ومن أجل ذلك يعتقد «ريزنر» أن «تحتمس الثالث» لم يأتِ بجديد بل أحيا الماضي.[٧٢] وبهذه الوجهة يمكن أن نفسر بوضوح أن «سمنة» و«ورنرتي» كانتا من الأماكن الهامة لعبادة هذا الإله. وسنذكر هنا على سبيل المثال صيغة لوحة الحدود للملك «سنوسرت الثالث» حيث يقول هذا الملك: «… لقد أقمت صورة لي عند الحدود وهي التي عملتها أنا وجعلتها تُقَامُ وعلى ذلك ينبغي أن تخدمها أبديًّا وتحارب من أجلها». فهذه العبادة للمصري في بلاد النوبة كانت على صورة ما بمثابة عهد على أن يناصر دائمًا الحكومة الرئيسية كما كانت للسكان بمثابة تحذير وتهديد. وقد بقيت هذه العبادة ما بقيت الأوقاف الخاصة بها» ولكن عندما توطدت العلاقات بين البلدين أخذت عبادة هذا الملك تُنْسَى، فنجد صورة في «توشكى» تمثل رجلًا يظهر أنه نوبي مُمَثَّلٌ في هيئة صياد وهو يتعبد أمام الآلهة «رشب» و«حور» صاحب «معام» و«سنوسرت الثالث» ويقدم لهم قربانًا.

وخلافًا «لسمنة» نصادف «سنوسرت الثالث» بوصفه إلهًا في «عمدا» و«الليسيه» و«جبل الشمس» و«بهين» و«جبل دوشة».[٧٣]

وكذلك نجد «تحتمس الثالث» نفسه كان يُقَدَّسُ في بلاد النوبة كما كانت الحال في مصر.[٧٤] وقد ظهر في «سرة» بوصفه الآله العظيم القاطن في «تحخت».[٧٥]

وقد خطا «أمنحتب الثالث» خطوة إلى الأمام فقد أسس في «صلب» عبادة لصورته الحية على الأرض «نب ماعت رع»،[٧٦] وقد أقام لزوجته الْمُؤَلَّهَةِ معبدًا في «سدنجا».[٧٧] على أن عبادة «أمنحتب الثالث» لم تكن مقتصرة كلية على بلاد النوبة بل كان كذلك يُعْبَدُ في مصر وبخاصة في «طيبة». وقد أهدى معبدًا لصورته الحية في مصر.[٧٨] وفي حين نجد أن «أمنحتب الثالث» كان يُقَدَّسُ في مصر بلقبه «حاكم الحكام» بوصفه إلهًا نجده في معبد «صلب» يُلَقَّبُ «نب ماعت رع» سيد «تاستي» القاطن في حصن «خع مماعت» أي إنه كان قد اتخذ صبغة عالمية في عبادته، فلم يكن إلهًا محليًّا كالآلهة الأخرى بل كان أكثر من ذلك يُعَدُّ إلهًا حاميًا لكل بلاد النوبة. وقد ظهر في المدينة التي أسسها لنفسه لهذا الغرض أي «صلب»، ولا نعلم إذا كان الغرض الذي كان يرمي إليه هذا الملك بعمله هذا هو أن يُقَوِّي من سلطانه السياسي في بلاد النوبة أو كان الغرض حب الظهور الذي

كان يبحث وراءه «أمنحتب الثالث»، وذلك لأن عبادة الملوك لم تكن مقصورة عليه في بلاد النوبة، هذا ولم يَقْفُ أثرَ «أمنحتب الثالث» في هذا الاتجاه الكثيرون من أخلافه. فمن هؤلاء الذين قفوه «توت عنخ آمون» الذي على ما يظهر أَلَّهَ نفسه مدة حياته في «فرص».[٧٩] ومن الأشخاص الذين نشاهدهم في صور مقبرة «حوي» نائب هذا الفرعون في «فرص» «(سحتب نترو)» الكاهن الأول للملك «نب خبرورع» «توت عنخ آمون» القاطن في «فرص» الْمُسَمَّى «خعي»، وفضلًا عن ذلك نجد أن أخ «حوي» كان يعمل كاهنًا ثانيًا للملك «توت عنخ آمون» القاطن في قلعة «فرص»، هذا بالإضافة إلى كاهنين مطهرين «لتوت عنخ آمون» القاطن في «فرص»، وكذلك لقب «توت عنخ آمون» على قطعة حجر منقوشة من معبد «فرص» «نب خبرورع» القاطن في «فرص» (أي معبد «فرص») بن «رع» «توت عنخ آمون».[٨٠] وهذا النعت «القاطن في» لا يستعمل إلا مع الآلهة عندما تصف مكانًا. وهؤلاء الآلهة المشار إليهم هم الذين يُقَدَّسُونَ في معبد بجوار الإله الرئيسي، ولا يقع معبدهم الرئيسي في المكان المذكور».[٨١]

ومما يلفت النظر هنا في هذا الصدد أن الملك الوحيد الذي اعتنق ثانية عادة تأليه نفسه في الأزمان التي تلت هو «رعمسيس الثاني»[٨٢] فنجد أن هذا الفرعون لم يقتصر على أن يقيم لنفسه معابد عدة بل تعدَّى ذلك إلى اغتصاب آثار كثيرة من آثار أسلافه ونسبها لنفسه فنجد أنه قد ترك صُوَرَهُ في معابد «السبوع» و«جرف حسين» و«أبو سمبل» و«أكشة» كما عبد هو تمثال نفسه.

وهنا نجد أن الإله هو صورته (أي صورة رعمسيس) الحية على الأرض، وكما جاء في «أكشة» صورته الحية في بلاد النوبة؛[٨٣] وفي حين نجده في معبد «وادي السبوع» و«جرف حسين» يُسَمَّى: «رعمسيس الثاني» في معبد «آمون» وبذلك لم يكن الإله الرئيسي في المعبد فإنه في معبد «أكشة» كان هو الإله الرئيسي. وهذه العبادة لا تختلف عن العبادة في عهد «أمنحتب الثالث» بأية حال من الأحوال، فنجد هنا كما نجد في عهد «أمنحتب» أن الملك الْمُؤَلَّهَ قد مُثِّلَ كالإله «خنسو» فيكون واحدًا من الثالوث الطيبي — «آمون» و«موت» و«خنسو»[٨٤] — ولم يقتصر تأليه «رعمسيس الثاني» على بلاد النوبة بل نجده كذلك في مصر في المستعمرة الحربية «هربيط» حيث نجد الملك في صورة إله الحرب «منتو» ولا نجد هنا أي فرق خاص عما وجدناه عليه في بلاد النوبة، غير أن هذه الصورة من العبادة كانت أقوى بكثير في بلاد النوبة عما هي عليه في مصر، ولا غرابة في ذلك فإن بلاد النوبة كانت موطنًا خصبًا لهذا النوع من تقديس الحكام وتأليههم.

هوامش

(١) راجع: Urk., IV, 76.

(٢) راجع: Ermenne, p, 37 ff.

(٣) راجع: Aniba, II, p. 39.

(٤) راجع: L.D., III, 140 c. L. 2 f.

(٥) راجع: مصر القديمة الجزء السادس ص ٢٣٣.

(٦) راجع: Gardiner, The Inscription of Mes, Nr. 22 N. 28; Untersuchun-gen, IV, 3.

(٧) راجع: Gardiner. Ibid. p. 22.

(٨) راجع: Urk., IV, 1129, 1122.

(٩) راجع: مصر القديمة الجزء الثامن ص ١٤١ وكذلك راجع J.E.A., 10, p. 120.

(١٠) راجع: Firth, II, p. 141 f.

(١١) راجع: L.D., I, III; L.D., V, 59; Firth, III, 238.

(١٢) راجع: Aniba, II, p. 17 ff.

(١٣) راجع: L.A.A.A., 8, 83, ff; Davies P. pl. XIV f.

(١٤) راجع: L.A.A.A., 8, 97 ff.

(١٥) راجع: Buhen, p. 6. 119 ff.

(١٦) راجع: Buhen. P. 7.

(١٧) راجع: Bull-Bostom, M.F.A., 29, 70.

(١٨) راجع: Reisner, Kerma II, 545 f.

(١٩) راجع: J.E.A., Vol. 24, 154, ff; 25, 139 ff. 34, 1; comp. L. D., V. 235 f.

(٢٠) راجع: L.D., V. 228 ff; A.J.S.L., 1908, p. 96 f.

(٢١) راجع: J.E.A., 23, p. 145 ff; 24, 151 ff; comp. L.D., V, 243 f; A.J.S.L., (1908), 51 f.

(٢٢) راجع: L.D., V, 231 ff. A.T.S. 4, (1908), 83 f.

(٢٣) راجع: L.R., II, 314.

(٢٤) راجع: Davies, The Tomb of Huy, Pl, 14.

(٢٥) راجع: A.J.S.L., (1908), p. 98.
(٢٦) راجع: J.E.A., 22, p. 199 ff.
(٢٧) راجع: A. Z., 66, 76 ff.
(٢٨) راجع: Ibid, 156.
(٢٩) راجع: A.Z., 69, p. 26.
(٣٠) راجع: S.O.S., 159.
(٣١) راجع: J.E.A., 13, p. 203.
(٣٢) راجع: Chicago Oriental Instit., Medinet Habu III, Pl. 138 L 40.
(٣٣) راجع: ص ٨ سطر ٣ من مصر القديمة الجزء السابع.
(٣٤) راجع: مصر القديمة الجزء الثامن ص ٣٢٠ و Kees, Kulturgesch, p. 169.
(٣٥) راجع: Gauthier, Amada, 191
(٣٦) راجع: Gauthier, Ibid, XIX, XXVI & 154; L.D, III, p. 69.
(٣٧) راجع: Save, Ibid, p. 131.
(٣٨) راجع: Ed. Meyer, Gesch. Alt; II, 1, p. 495 f.
(٣٩) راجع: Firth III, 38, Comp. Aniba, I, 11.
(٤٠) راجع: Firth, II, p. 21.
(٤١) راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٢٧٤.
(٤٢) راجع: L.D., III, 229 c; Aniba II, Taf. 101. L, 1f; Br., A. R, IV, § 479.
(٤٣) راجع: Emery-Kirwan, Cemy, 184, p. 209.
(٤٤) راجع: Gauthier, La Temple de Kalabescheh, p. 218.
(٤٥) راجع: Firth, I, 79.
(٤٦) راجع: Emery-Kirwan. Cem., 217, p. 478.
(٤٧) راجع: Emery-Kirwan, Cem., 150 & 152, p. 70 f, 103 f, 521.
(٤٨) راجع: L.A.A.A., 8, 84.
(٤٩) راجع: Woolley, Digging up in the Past, Pelican Book, p. 27.
(٥٠) راجع: Piehl, Inscriptions Hierog., I, p. 145 A.
(٥١) راجع: مصر القديمة الجزء الثامن ص ٢٧٤.

(٥٢) راجع: Holscher, Libyer und Agypter, p. 21 f.

(٥٣) A.S., 36, p. 49 ff.

(٥٤) راجع: Ed. Meyer, Gesch. Alt., II, I, p. 530.

(٥٥) راجع: مصر القديمة الجزء السادس ص ٨٩.

(٥٦) راجع: A,Z, 53 p. 107 ff; rec. Trav., 39. p. 230.

(٥٧) راجع: Kees, Kulturgesch., p. 349 f.

(٥٨) راجع: Buhen, p. 41, 55, 61, 66, 71, 73; (Sates), 54, 67 (Anukis).

(٥٩) راجع: L.A.A.A., 8, 9 u.

(٦٠) راجع: L.D., Texte, V, p. 230.

(٦١) راجع: Gerf Husein, L,D., V, 56; L. D., III, 178 a; Blackmann, Derr, Pl. 8, 50 Abu Simbel, L. D. III, 183 b; Soleb, A,J.S.L.(1908), 95, Kummel p 134 note 4.

(٦٢) راجع: Hury Pl. 38.

(٦٣) راجع: Kees, Ibid., comp. Kultlegende und Urgesbhichichtel (nachr. Wiss Gottingen phil. hist. KI. 1930, Nr. 3) p. 351 f.

(٦٤) راجع: Urk., IV, p. 574.

(٦٥) راجع: Save, p, 202 note 3.

(٦٦) راجع: Abahuda, L. D., V, 177.

(٦٧) راجع: Weigall, Report, p. 142; J.E.A. 6, p. 36 f.

(٦٨) راجع: Gauthier, Ouadi Es. Sabua, p. 30.

(٦٩) راجع: Champ. Mon, I, X, 2.

(٧٠) راجع: L.A.A.A., 8, p. 88.

(٧١) راجع: Kees, Kultur., p. 350.

(٧٢) راجع: Sudan Notea and Records, 14, p. 10.

(٧٣) راجع: L,D., III, 47 a: Buben, p, 41.

(٧٤) راجع: Murray, Saqqara Mastaba, 1, Loab, Gnrab p. f PI, 15 f.

(٧٥) راجع: L.A.A.A., 8 P. 100.

(٧٦) راجع: LD., III, p. 85 a; comp. Ed. Meyer, Gesch. Alt., 2, II. 1, p. 429.

(٧٧) راجع: L.D. III, 82 e-h.

(٧٨) راجع: Varille, A,S., 34, 99, Chronique d'Egypte 10, 322 f.

(٧٩) راجع: L.A.A.A., 8, 93.

(٨٠) راجع: L.A.A.A., 8, Pl. 27.

(٨١) راجع: W.B., III, 138.

(٨٢) راجع: مصر القديمة الجزء السادس ص ٤٦٨.

(٨٣) راجع: Rec, Trav., 17, 193.

(٨٤) راجع: Ed. Meyer, Gesch., II, 1. 329; A.Z., 70. p. 47 ff.

الفصل السابع عشر

حالة بلاد النوبة الاقتصادية في عهد الدولة الحديثة

تنحصر المصادر التي يمكن الاعتماد عليها عن الحالة الاقتصادية بين بلاد النوبة ومصر فيما نجده مذكورًا من تعداد المحاصيل الجنوبية على الآثار الحكومية والنقوش العادية من جهة، وما نجده ممثلًا من جزية وبخاصة في مناظر المقابر الخاصة من جهة أخرى. ومما يؤسف له أن القوائم الرسمية لم تصل إلينا حتى الآن. والواقع أن النقوش التي نجدها على المباني الحكومية لا تقدم لنا صورة حقيقية عن قوائم الجزية الفعلية، إذ نجد مرتين في تواريخ «تحتمس الثالث» أن الجزية لم يُذْكَرْ عنها شيء هام، وعلى ذلك لا يمكننا إلا أن نعطي فكرة عامة عن الجزية. ويلحظ عادة أن المحاصيل المختلفة كانت تُدَوَّنُ دون ذكر عددها، هذا فضلًا عن أنها كانت تُرْسَمُ دون نقش مفسِّر لها، من أجل ذلك لم نستطع في كثير من الأحوال تحديد الغرض من ذكرها. والواقع أن المناظر الخاصة بتوريد الجزية كانت تسير على نهج واحد، وذلك أنه كانت تصور أمام الملك كومة أنيقة التنظيم من السلع، ويقف الموظف الخاص بتقديمها أمام الفرعون ليقدم حسابه ويرى خلف الجزية المكدسة أمراء البلاد الذين كانوا يُوردون هذه الجزية راكعين، وكان هؤلاء الأمراء يُمَيَّزُونَ عن رعاياهم الذين كانوا يرتدون قمصانا قصيرة حاملين على أكتافهم منتجات بلادهم بملابسهم الثمينة وزينتهم الفاخرة. وقد جادت الصدف بطريق الاستثناء أن كُتِبَ على أحد مناظر الجزية من عهد «أمنحتب الثاني»[1] في معبد قصر أبريم تعداد المحاصيل، وقد وردت الكميات في صور رجال محملين، وهذا ما يدل عليه منطق الصورة. وهذا الإحصاء لا يعد بحال من الأحوال إحصاء رسميًّا، والمتن الخاص بذلك تصعب قراءته في بعض نواحيه، هذا إلى أن الأرقام بسبب تهشم النقش لم يمكن التأكد منها، فنجد بعد ذكر اسم الملك ما يأتي: «لقد ظهر جلالته في «طيبة» على

العرش». وهذا يدل صراحة على أن توريد الجزية وهي التي ذُكِرَتْ في المتن بكلمة «إنو» قد جاءت من البلاد الجنوبية كما كان يحدث عادة في عاصمة الملك ويأتي بعد مديح رجال البلاط والجيش للملك القائمة التالية عن الجزية الموردة:

قائمة حاملي هذه الجزية

٢٠٠	من الرجال محملين بـ ...
١٥٠	من الرجال محملين بالذهب (؟).
٢٠٠	من الرجال محملين بمادة حماجت
٢٥٠	من الرجال محملين بسن الفيل (أو ٣٤٠.١٦٠.٧٠؟).
١٠٠٠	من الرجال محملين بالأبنوس
٢٠٠	من الرجال محملين بكل رائحة حلوة من أرض الجنوب.
٥٠	من الرجال محملين بخشب (؟) ... (أو ٣٤ رجل).
١٠	من الرجال محملين بفهود حية.
٢٠	من الرجال محملين بكلاب صيد
٤٠٠	من الرجال محملين بثيران من نوع «أوا» ونوع «ونچو».
٢٦٥٧ (؟) أو ٢٦٤٩ (؟)	مجموع الحاملين لهذه الجزية.

هذا ولدينا نقش آخر وهو نوع ثانٍ من القوائم الخاصة بمحاصيل الجنوب لم ينشر إلا ترجمته، وقد وُجِدَ مكتوبًا على صخرة في «تومبوس» وأُرِّخَ بالسنة العشرين من عهد الفرعون «تحتمس الثالث»، وقد دُوِّنَ فيه مقادير الجزية من الأشياء الثمينة المختلفة الأنواع من «كوش»، ويرجع الفضل في جمعها إلى مقدرة نائب الملك ومهارته. وهذا المتن المهشم نورده هنا على حسب نسخة الأستاذ «ريزنر»: «السنة العشرون الإله الطيب الذي يهزم المعتدي ... (وأعد البناء) وبيت والده، وبذلك أعطاه القوة (؟) ... منخبر رع ... (قربان يقدمه الملك قربانا لآمون سيد عرش الأرضين وتاسوع الآلهة في بلاد النوبة؛ وعلى ذلك أُعْطُوا الشجاعة واليقظة ... الحياة والسلطان والصحة والفطنة، وكذلك الحظوة عند الملك وكل شيء جميل وطاهر لروح ابن الملك، والمشرف على البلاد الأجنبية «انبني (؟)» ... ممتازًا لسيده والذي ... ويملأ بيت سيده (الملك) مع ... خنمت، وسن الفيل

والأبنوس وخشب «تيشبس» وجلود الفهود وخسيت، وبخور «المزوي» والأشياء الطريفة من كوش وهي التي يجلبها إلى قصر رب الأرضين، وهو الذي يدخل فيه ممدوحًا ويخرج محبوبًا ابن الملك «انبني (؟)»[٢] ونجد المحاصيل التي ذكرت هنا قد جاء ذكرها في إحصاء المحاصيل العجيبة التي كانت ترد من بلاد «بُنت» وكل الأعشاب الجميلة التي كانت تأتي من أرض الإله في معبد «حتشبسوت» بالدير البحري. فنجد هناك بعد ذكر المحاصيل العطرية خشب الأبنوس وسن الفيل النقي والذهب الأخضر من «عمو»، و«تيشبس» و«خسيت» و«إهمت» والعطور والكحل ونوعين من القردة وكلاب صيد وجلود فهود وأناسًا من أهل «بُنت»؛[٣] هذا ولدينا إحصاء قصير مشابه للسابق نقش على لوحة جنازية من عهد الأسرة التاسعة عشرة[٤] وهو: «وجعل النوبيين يأتون إليه بجزية من الذهب في ... وخشب الأبنوس وسن الفيل وخنمت ونشمت وجلد الفهد لأجل أن تصبح الآثار التي في معابد كل الآلهة أكثر عددًا».

وتقدم لنا كل هذه المتون بما جاء فيها من مقادير الحاصلات صورة ناقصة مبهمة عن الدور الذي كانت تقوم به بلاد النوبة في الحياة المصرية الاقتصادية. ولا يمكننا أن نذكر هنا على وجه التأكيد ازدياد الأهمية الاقتصادية وبخاصة إذا فهمنا أن الحالة السياسية كانت قد توطدت وظهر مفعول النظام الإداري الجديد بوضوح.

الذهب: وكان الذهب هو أهم محصول في بلاد النوبة كما كانت الحال من قبل في عهد الدولة الوسطى. ونجد للمرة الأولى الآن أنه قد حُدِّدَتْ مقادير معلومة في عهد الدولة الحديثة لكل عام كانت تُرْسَلُ سنويًّا لمصر جزية. فنجد في تواريخ «تحتمس الثالث» أن هذه المقادير كانت معروفة من بعد السنة الحادية والثلاثين من حكمه، وعلى الرغم من أن كثيرًا من متون هذه الإحصاءات قد وُجِدَ مُهَشَّمًا فإننا بوساطة ما بقي منها يمكننا أن نكوِّن صورة عن أهمية مناجم الذهب المختلفة. وتنتظم الضرائب النوبية من الذهب قسمين: الضرائب التي كانت تُجْبَى من «كوش» والضرائب التي كانت تُجْمَعُ من «واوات» وذلك على حسب تقسيم البلاد إداريًّا قسمين، فالكمية الكبرى كانت تُجْبَى من بلاد «واوات» وهو الإقليم الذي يقع بين الشلال الأول والثاني بما في ذلك طرقه الصحراوية التي تشمل على مناجم للذهب غنية في «وادي العلاقي» شرقي «كوبان» والإحصاء الذي بقي لدينا من مناجم «واوات» هو:

السنة الرابعة والثلاثون = ٢٥٥٤ دبنًا = ٢٣٢,٤ كيلو جراما.[٥]

السنة الثامنة والثلاثون = ٢٨٤٤ دبنًا = ٢٥٨,٨ كيلو جراما.[٦]

السنة والواحدة والأربعون=[٧] ٣١٤٤٫٣ دبنًا = ٢٨٦٫١ كيلو جراما.[٨]

السنة الثانية والأربعون = ٢٣٧٤٫١ دبنًا = ٢١٦ كيلو جراما.[٩]

والمحصول السنوي من بلاد «كوش» أقل بكثير من محصول بلاد «واوات» ويرجع السبب في ذلك إلى أن مناجم الذهب كان الوصول إليها صعبًا هناك، هذا إلى أن طرق النقل إلى مصر كانت أطول؛ ويلحظ أن كثيرًا من الذهب الذي كان يستخرج من الإقليم الواقع في الجنوب الشرقي من الشلال الثاني لم يكن يستخرجه المصري، بل كان يقوم بتعدينه الأهالي من النوبيين وكانوا يدفعونه جزية لمصر. والذهب الذي كان يدفع جزية لمصر على حسب ما جاء في تواريخ «تحتمس الثالث» من إدارة بلاد «كوش» هو:

السنة الثالثة والثلاثون: ١٥٥٫٢ دبنًا = ١٤٫١ كيلو جراما.[١٠]

السنة الرابعة والثلاثون: ٣٠٠ دبن = ٢٧٫٣ كيلو جراما.[١١]

السنة السابعة والثلاثون: ٧٠٫١ دبنًا = ٦٫٤ كيلو جراما.[١٢]

السنة الثامنة والثلاثون: ١٠٠ دبن = ٩٫١ كيلو جرامًا.[١٣]

السنة الواحدة والأربعون: ١٩٥٫٢ دبنًا = ١٧٫٨ كيلو جرامًا.[١٤]

ولدينا إحصاءات أخرى عن الجزية ذات أهمية من عهد «تحتمس الثالث» فنعلم أن الإله «آمون» معبود الدولة كان يحصل على مقدار ٦١٣٫٦٦ دبنًا من الذهب أي ما يعادل حوالي ٥٥٫٨ كيلو جرامًا في هيئة سبائك وحلقات هدية،[١٥] وقد أُهْدِيَ مرة أخرى ٣٦٦٩٢ دبنًا أي ما يساوي ٣٣٣٨٫٩٦ كيلو جرامًا،[١٦] وفي مرة ثالثة نجده يتسلم أكثر من ١٥٢١٠٤٫١٥ دبنا = ١٣٨٤١٫٥ كيلو جرامًا،[١٧] ويلاحظ أن كميات الذهب الثلاث لم تأتِ كلها من بلاد النوبة، وذلك لأن مناجم الذهب الواقعة شرقي «قفط» كانت كذلك تُسْتَغَلُّ، هذا فضلًا عن أنه كان يأتي من الحملات الآسيوية غنائم من الذهب ومعظمه كان في الأصل من مصر.[١٨]

ومن هذه المصادر المختلفة للذهب يظهر لنا أن الذهب النوبي كان يلعب الدور الأهم في مالية البلاد. ولكن مما يُؤْسَفُ له أنه ليس لدينا إحصاءات يمكننا بها أن نحدد أرقامها على وجه التأكيد، ومع ذلك فقد قُدِّرَ ذهب الجزية الذي كان يورد من رعايا الإله «آمون» في عهد «رعمسيس الثالث» من ذهب «قفط» بحوالي ٦١٫٣ دبنًا فقط في حين أن كمية الذهب التي كانت تورد من «كوش» (يعني كل بلاد النوبة) ٢٩٠٫٨١٢٥ دبنًا،[١٩] يضاف إلى ذلك ٢١٧٫٥ دبنًا من الذهب الجميل،[٢٠] ولم يُنْعَتْ بهذا الوصف بسبب البلاد التي أتى منها بل على ما يظن سُمِّيَ بالجميل لنقاوته.[٢١]

ونجد خلافًا لما جاء ذكره بوجه خاص في تواريخ «تحتمس الثالث» عن ذهب «واوات» و«كوش» أنه قد جاء في المتون المصرية ذكر بلاد أخرى يأتي منها الذهب. وعلى الرغم من أننا لا نعرف مواقع هذه البلاد بالضبط فإن كثيرًا منها يقع في الجنوب من منطقة «وادي العلاقي» و«أم بناردي». ونجد فيما يُسَمَّى قائمة ذهب «رعمسيس الثاني»[٢٢] المنقوشة في معبد «الأقصر» على الجدارين اللذين يؤلفان الزاوية الجنوبية لردهة «رعمسيس الثاني»، سلسلة من شخصيات تمثل الجبال والواحات التي أحضَروا منها الذهب لهذا الفرعون. ففي حين نجد محاصيل يحملها أناس تتألف من الأحجار الكريمة والفضة، نجد من جهة أخرى أن الذهب الذي كان يُحْضَرُ من الجنوب يفوقها قيمة. ويأتي بعد الذهب الذي كان يستخرج من مجاري المياه ذكر أماكن يستخرج منها الذهب بكميات كبيرة نخص بالذكر منها «نسوت تاوي» (أي جبل برقل)، وهذا الجبل يوجد فيه الذهب والأحجار الكريمة، وجبل «عمو» وجبال «كوش» وجبل «خاست» في تاستي (بلاد النوبة) وجبل «خنت-حن-نفر» ثم نقرأ بعد ذلك ثلاثة أسماء مهشمة في المتن: جبل «يابت خري حب»؟ والجبل المقدس (زووعب) وجبل «إدفو» وجبل «قفط»، وقد ذكر الجبل الأخير مرة أخرى بأنه يوجد فيه الأحجار الكريمة، وكذلك كان يجلب من أرض الآلهة، ثم يأتي بعد ذلك الواحات والأرض الشمالية، هذا ولم يأتِ لنا بجديد إحصاء آخر مماثل للسابق يرجع عهده إلى زمن «رعمسيس الثالث» من مدينة «هابو»[٢٣] فقد جاء فيه سبع حقائب معها التفسير التالي: «ذهب من كوش وذهب جميل مقداره ألف دبن وذهب جبل، وذهب من الماء مقداره ألف دبن، وذهب من صحراء «إدفو» وذهب من «أمبوس» (كوم أمبو) وذهب من «قفط». ويلاحظ أن هذه الأماكن ليست مرتبة ترتيبًا جغرافيًّا، ولا زلنا نتساءل إلى أي حد تمثل هذه المعلومات أماكن مختلفة يوجد فيها معدن الذهب. فالذهب الذي يُسْتَخْرَجُ من الماء هو نفس الذهب المائي في قائمة «الأقصر» الخاصة «رعمسيس الثاني». والذهب الذي ذُكِرَ في قائمة «الأقصر» بأنه أُحْضِرَ[٢٤] من جبل «برقل» نجد كذلك ما يؤكده في نقوش عهد «أمنحتب الثالث»، إذ نعلم أنه قد أحضر ذهبًا في حملته الأولى من «كاراي» إلى مصر، وكذلك ذهب «عمو» قد جاء ذكره في وثائق أخرى،[٢٥] وكذلك ذكر الذهب الأخضر فإنه من بلاد «عمو» في حملة «بُنت» التي أرسلتها «حتشبسوت» إلى هذه البلاد، ويشير إلى أنها بلاد في أقصى الجنوب، ويحتمل أنها خارجة عن دائرة إدارة بلاد النوبة. ويأتي من إقليم بلاد النوبة من جهة أخرى الذهب الذي أحضره أميرًا بلاد ميو و«إرم» للملكة «حتشبسوت»،[٢٦] وفضلًا عن

ذلك الذهب الذي أتى من «ميو». وملامح أهل «الميو» تدل على تقاطيع زنجية. وذُكِرَتْ في تواريخ «تحتمس الثالث» «إرم» ضمن دائرة الإدارة الكوشية.[٢٧] أما الجبل الطاهر (زو–وعب) الذي جاء ذكره في قائمة «رعمسيس الثاني» فيجب أن نبحث عن مكانه في جهة الشمال لا في جبل «برقل» الذي ذُكِرَ من قبل. وقد جاء كذلك ذكر «الجبل الطاهر» في «أبو سمبل» وقد وضع في مصور «تورين»[٢٨] الذي ذكر فيه أماكن مناجم الذهب في جهة الحمامات، ومن ثَمَّ نفهم أن المصري كان يستغل هذا الإقليم الواسع الذي يمتد من «الحمامات» في الشمال حتى السودان في الجنوب. والواقع أن تقدير كميات الذهب بحسابنا الحديث لا يقدم لنا نسبة أكيدة. وذلك لأننا لا نعرف حتى الآن القيمة الشرائية للذهب في هذا العهد على وجه التأكيد. وعلى أية حال يجب أن يكون محصول الذهب من هذه البلاد فوق المعتاد، وأنه وضَع مصر في مكانة ممتازة من حيث التجارة في العالم القديم. وكان الذهب يُجْلَبُ إلى مصر غفلًا أو مصنوعًا في حلقات أو قضبان ولم نجد صناعة محلية للذهب في مصر إلا في النصف الأول من عهد الأسرة الثامنة عشرة.

وما نجده من الذهب مذكورًا في عهد «تحتمس الثالث» هدايا مقدسة مثل موائد القربان والمواعين والقلائد وحلي «وزا» وعقود «منيت» (الخاصة بالإلهة «حتحور») المصنوعة من السام وهي التي كان يتسلمها جلالة الملك من الأراضي الجنوبية جزية سنوية ليست محاصيل تجارية وإنما تشير إلى ذهب الجزية الذي كانت تُصْنَعُ منه هذه الأشياء.[٢٩]

وكانت بلاد النوبة على وجه عام تورد في هذا العهد المواد الغفل وبخاصة تلك التي كانت ترسم بداهة في المناظر حيث كانت توضع محاصيل الشمال والجنوب الواحدة مقابلة للأخرى في الصورة، ففي مقبرة «امنموسى»[٣٠] مثلًا صور أهل الشمال يحضرون الأواني الفنية ومواد التجارة الأخرى، في حين كان أهل الجنوب يحضرون حلقات من الذهب وحقائب وخشب أبنوس إلخ، ونجد كذلك في مقبرة «رخ مي رع» أن الصناعة اليدوية النوبية قد مُثِّلَتْ فيما يقدم من جزية في صور بعض أوان خاصة بالمئونة هذا إلى قاعدة إناء. ونجد للمرة الأولى في «عهد تل العمارنة» تمثيل محاصيل من صنع الأيدي تتألف منها الجزية النوبية فمن ذلك نشاهد زهريات فاخرة.[٣١] وكراسي[٣٢] ودروعًا وأقواسًا.[٣٣]

وأثمن ما سبق الصورة التي وجدت في مقبرة «حوي» إذ نجد ضمن مواد الجزية كنانات وأقواسًا، ونجد فيما يُقَدَّمُ للملك سهامًا ودروعًا منه اثنتان مُوَشَّاتَانِ بصور

بارزة وكراسي ذات ظهور ومن غير ظهور وأَسِرَّةً ومساند رأس وعربة بعمود في صورة تمثال عبد ومحفة ومائدة زينة لها قاعدة ومسند قدم، ومروحة من ريش النعام. ويقول الأستاذ «ينكر»[٣٤] في هذا الصدد: «والآن بعد نتائج الحفائر التي أجريت في «كرمة» نجد أن الحضارة هناك كانت متأثرة في كثير من الأشياء بالحضارة المصرية، ولكن المدنية هناك كانت في لبها سودانية أصيلة، ومن ثَمَّ أصبح في مقدورنا أن نفهم بصورة أحسن بقية الثقافة النوبية. وتضع أمامنا الجزية التي صُوِّرَتْ في مقبرة «حوي» فكرة التبادل، وما كانت عليه اليد العاملة النوبية من مهارة في ذلك العهد. أما فكرة أن النوبيين لم يكونوا إلا مورِّدين للمواد الغفل، وأن الصناع المصريين هم الذين كانوا يصنعون الكراسي والمساند وغيرها فقد أصبحت فكرة لا قيمة لها بعد الكشف عن ثقافة «كرمة» وما وجد فيها من صناعات غاية في الإتقان».

وهذا الرأي الذي أدلى به «ينكر» يمكن قبوله وبخاصة بعد أن وجدنا أن المحاصيل قد صُنِعَتْ بأيدي صناع نوبيين؛ هذا إلى الأشياء التي عُثِرَ عليها في مقابر نوبية من عهد الدولة الحديثة وبخاصة التي من صنع أهالي النوبة أنفسهم، ولكن من جهة أخرى نجد حسب نتائج الحفائر التي عُمِلَتْ في مصر، وكذلك على حسب النقوش والمناظر أن هذه المحاصيل لم تُصَدَّرْ بمقادير كبيرة. ولا بد أن نبرز هنا أن الصناعة المحلية في «كرمة» كانت متأثرة بالصناعات المصرية وأنه بعد تدهور التجارة حدث رد فعل قوي، فقد أخذت المحاصيل المصرية التي من صنع «كرمة» مثل التطعيم بالعظم والميكا[٣٥] في الاختفاء شيئًا فشيئًا ولم توجد في مقابر النوبة التي من العصور المتأخرة بوجه عام. وحتى صناعة أواني الفخار (بكت) الخاصة بثقافة «كرمة» دلت صناعتها على أنها انحطت من حيث الإتقان والدقة.

وكانت الأشياء المصرية في بلاد النوبة السفلى في العهد المتوسط الثاني تقليدًا كبيرًا للأشياء المصرية التي تُعَدُّ الطراز المحبب. ولا شك في أن إعادة فتح بلاد النوبة على يد مصريين قد رفع من شأن دقة الصناعة اليدوية في النوبة وبخاصة عندما نعلم أن هؤلاء قد تعلموا بدون شك دقة الصناعة اليدوية عن مصريين، ومن المحتمل أن ذلك التأثر قد حدث بعد مد حدود النفوذ المصري حتى الشلال الرابع، غير أنه كان أقوى في بلاد النوبة السفلى. ومما تطيب ملاحظته في هذه المناسبة ما وجدناه في المنظر الذي في مقبرة «حوي» أمام وفوق الأمراء والناس الذين من «واوات» من أشياء فنية مصورة في حين كانت الأشياء التي تقدمها بلاد كوش لا تشمل إلا المواد الغفل. والواقع أن «واوات» فضلًا

عن ذلك هي أقرب جزء من بلاد النوبة إلى مصر حيث كان يسكن كبار الحكام الذين يميل ذوقهم الرفيع إلى المنتجات الدقيقة، ولذلك كانوا يَسْعَوْنَ في تحسين الصناعات المحلية عند السكان ومما يطيب ذكره هنا كذلك أن الصناعات اليدوية للمنتجات النوبية قد ظهرت للمرة الأولى في المناظر التي من عهد «تل العمارنة» مما يدل على أن نوعها وذوقها كانا من طراز مصري؛ وأن المصري قد صدَّرها إلى وطنه، غير أن هذه المحاصيل النوبية لم يكن لها قط أية أهمية على ما يظهر للمصري هذا إلى أنها كانت تظهر من وقت لآخر في المناظر التي تصور[٣٦] الجزية؛ ولذلك نجد في رسالة من عهد الرعامسة مفصلة عن الجزية أنه لم يذكر غير تجهيز الذين أُرْسِلُوا إلا الأواني الذهبية فقط،[٣٧] ولكن من جهة أخرى نعلم أنه بدون شك قد مثلت أشياء كثيرة مصنوعة من مواد غفل نوبية. وفضلًا عن الأشياء المصنوعة من الذهب التي ذكرناها فيما سبق من عهده «تحتمس الثالث» جاء ذكر عربة كبيرة من خشب السنط من بلاد كوش مشغولة بالذهب[٣٨] من عهد «حتشبسوت»، ويلفت النظر ما جاء في لوحة «جبل برقل» التي أقامها «تحتمس الثالث» إذ ذكر فيها توريد أشياء من خشب كوش. وقد عمل نجارتها جنود كوشيون عديدون هناك. وكذلك كان يورد في عهد الرعامسة من بلاد النوبة بوجه خاص مواد غفل فقد جاء في خطاب لنائب الملك «بانحسي» ما يأتي:[٣٩]

> وينبغي عليك أن توجه عنايتك لهذه المحفة الخاصة بهذه الآلهة؛ ويجب أن تعتني بها وتضعها في سفينة ويجب أن تعمل على أن يحضرها أمامه إلى المكان الذي فيه الفرعون وينبغي أن تحضر له حجر «حرست» وحجر «خنمت» إلى المكان الذي فيه الفرعون لأجل أن يزاول العمل فيها عمال المصنع.

ومن ثَمَّ نفهم أن الأعمال الخشنة كانت تُعْمَلُ في بلاد النوبة في حين كانت الأعمال الدقيقة تُنْجَزُ في مصر.

هذا ونشاهد في المناظر بجانب السلات والأواني المملوءة بالذهب بوصفها جزية بلاد النوبة بعض المواد المعدنية والنباتية الملونة بالألوان الحمراء والخضراء والزرقاء في هيئة كتل، ولكن غالبًا ما ينقصنا المتن المفسِّر لهذه الأشياء، ومع ذلك قد لا تساعدنا المتون المفسرة لأن معنى الكلمات غالبًا ما يكون غامضًا فلا يحدد لنا معنى.

فالمادة الحمراء في مقبرة «رخ مي رع» تدعى «حما چت»[٤٠] وقد ظهرت كذلك هذه الكلمة في قائمة جزية «لأمنحتب الثاني» وكذلك لدينا بعض سلات فيها كتل حمراء في

مناظر مقبرة «حوي» وكتب عليها كلمة «خنمت»؛ هذا وتذكر هذه المادة في النقوش بأنها حاصلات من بلاد النوبة وذلك في أحوال ليست بالقليلة.[٤١] ومن المحتمل أنها تدل على حجر الكرنلين؛ غير أن المصري القديم كان لديه أحجار حمراء أخرى مثل العقيق والهمتيت والأمتست واليشب، وهذه الأنواع يمكن أن تدل على أن مثل هذه الكتل المصورة في هذه السلات وكذلك مادة «ديدي» التي وجدناها في إحدى رسائل عهد الرعامسة بمثابة مادة من مواد الجزية كانت ملونة باللون الأحمر ومن الجائز أنها مادة معدنية أو همتيت.[٤٢]

ومن المواد الخضراء لدينا حجر الأمزون أي الفلدسبار الأخضر،[٤٣] واليشب الأخضر والفيروز الأخضر والتوتية وحجر الزيتون. ومن جهة أخرى نجد في مقبرة «رخ مي رع» اسم «شسمت» بجانب اسم مفكت على آنية فيها كتل خضراء، وكلمة «مفكت» الأخضر تعني الفيروز، وكان ضمن المحاصيل النوبية في الدولة الوسطى، وكذلك مادة «نشمت» وهي فلدسبار أبيض أزرق معروف لدينا بأنه مادة زرقاء[٤٤] نوبية الأصل. وقد جاء في النقوش ذكر عدة أنواع من الأحجار النوبية، ففي ورقة «هاريس» الكبرى ذكر الحجر «تمحي» بأنه يوجد في «واوات»[٤٥] وقد جاء ذكره بجانب اللازورد الحقيقي والفيروز (مفكات). هذا وقد ورد في الخطاب السالف الذكر الخاص بالجزية أسماء مواد غير مفهومة منها حجر حمق (كرنالين؟) والبللور الصخري (إرقبس).[٤٦] هذا وقد جاء ذكر حجر «ستي» و«قمي». وحجر «ستي» قد جاء ذكره كذلك في نصوص مقبرة «رخ مي رع» وفي مقبرة «بومرع» بمثابة كونهما محتويات أوانٍ،[٤٧] ومن الجائز أن هذه الأحجار كانت تستعمل ألوانًا معدنية؛[٤٨] ونعرف من جهة أخرى أن «نحميت» هو القطران أو الصمغ وكان يُسْتَعْمَلُ لونًا أيضًا.[٤٩] ونجد في الخطاب الذي أرسله الفرعون «رعمسيس الحادي عشر» إلى نائب كوش وهو الخاص بصنع محفة، خلافًا لما جاء فيه من ذكر حجر «خنمت» اسم زهرة «كاتا» وأزهار زرقاء، وهذه على حسب سياق المعنى العام للكلام لا بد أن تكون من أسماء الأصباغ.

هذا ويتصل بأسماء المحاصيل النباتية التي جاء ذكرها في ورقة «إيرس» بمثابة محاصيل بلاد «المزوي» كلمة «خسايت» وهي التي ذُكِرَتْ كذلك ضمن حاصلات الجنوب. ويأتي ذكرها غالبًا مع الزيوت والعطور[٥٠] ونجدها كذلك مذكورة في نقوش «تومبوس» التي من عهد «تحتمس الثالث» بجانب عطور بلاد المزوي، ونجد هذه المادة مخصصة بمخصص الخشب كذلك في نقوش حملة «حتشبسوت» إلى بلاد «بُنت»[٥١] ولا نعلم على

وجه التأكيد إذا كانت مادة «خسايت» موحدة مع مادة «شبسي» التي جاء ذكرها في رسالة الرعامسة الخاصة بالضرائب،[٥٢] وكذلك مع مادة «شسيت» التي تأتي من كوش على الرغم من بعض الاختلاف في كتابة كل منها، ومع ذلك فهذا ليس من المستحيل لما نلحظه في كتابة الاسم بأشكال عدة.[٥٣]

وقد جاء ذكر العطور النوبية (البخور) منذ عهد ظهور نقوش الأهرام أي منذ الأسرة الخامسة فنجد فضلًا عن التعبير «بخور المزوي» التعبير: «كل رائحة جميلة من بلاد الجنوب»، وقد ورد ذلك في قائمة جزية «أمنحتب الثاني» وكذلك نجد نقش مهشم جدًّا عند الشلال الأول التعبير التالي: «كل رائحة حلوة من … الأراضي الأجنبية»، ومن المحتمل أن المقصود هنا في الجزء المهشم هي أرض المزوي، ولكن من الممكن أن تكون أرض «بُنت» التي كانت تُعَدُّ المصدر الأصلي للروائح العطرية، غير أن ذلك ليس مؤكدًا،[٥٤] وعلى أية حال ينبغي أن يكون كثير من السلات والأوعية التي نجدها مُمَثَّلَةً في مناظر الجزية النوبية هي التي كانت تُوَرَّدُ بمثابة مادة العطور، وذلك لأن المصري كان يستولي على هذا المحصول الثمين من بلاد النوبة.

وكان كل من خشب الأبنوس وسن الفيل الذي يُوَرَّدُ لمصر من بلاد النوبة منذ الدولة القديمة يتدفق على مصر في عهد الدولة الحديثة بكثرة، فنجد ذكر هاتين المادتين يرد في النقوش جنبًا لجنب وذلك لأنهما كانتا تُسْتَعْمَلَانِ في التطعيم وفي صناعة الخشب معًا، وكان الجزء الأعظم منهما يأتي من نفس الإقليم ويورد إلى مصر، يضاف إلى ذلك أن سن الفيل كان يورد من بلاد آسيا، هذا إلى أن المصري كان يستعمل سن فرس البحر بدلًا من العاج؛ وعلى أية حال فإن معظم كميات سن الفيل التي كانت تُسْتَعْمَلُ في مصر كان يُؤْتَى بها من السودان. هذا ولا نعرف إلى أي حد كان يوجد سن الفيل والأبنوس في الشمال، وعلى ذلك لا يمكننا أن نحكم إذا كانت هذه المنتجات تأتي عن طريق تجاري غير مباشر من أقاليم تقع جنوب الحدود المصرية أو كانت تأتى مباشرة من إقليم بلاد النوبة. وهاتان المادتان كانتا تُجْلَبَانِ في صورة ساذجة. فكان العاج يُجْلَبُ أسنانًا وخشب الأبنوس يُجْلَبُ كتلًا وهذا ما لاحظه الرحالة «بورخرت» في القرن المنصرم في «شندي».

وفي تواريخ حروب «تحتمس الثالث» نرى أن العاج والأبنوس كانا يُوَرَّدَانِ بوجه عام بصفتهما جزية فقط من «كوش»، وذلك على عكس «واوات»، ولكن يحتمل ذلك في السنة الواحدة والأربعين وكذلك على حسب رأي «زيته» في السنة الثانية والأربعين قد ذكر كل من هذين المحصولين ضمن محاصيل بلاد النوبة السفلى، وخلافًا لذلك نجد

أنهما يذكران بوجه عام بمناسبة الأقطار التي أتيا منها في الأصل مثل بلاد النوبة السفلى وبلاد الجنوب، وكذلك بلاد «أثرو» في «كوش» التي جاء ذكرها مرة واحدة.[٥٥]

ولم يكن خشب الأبنوس هو المادة الوحيدة التي كانت ترسل من الجنوب بل كانت ترسل ذلك مواد غفل أخرى، وبخاصة خشب السفن المعد للتركيب، وأوفى متن لدينا يحدثنا عن ذلك لوحة «برقل» التي أقامها «تحتمس الثالث» في «نباتا» حيث يقول:[٥٦]

> كان يتجر هناك (في «واوات») لبيت الملك له الحياة والسلطان والصحة كل سنة سفن «خمنتي» (نوع من السفن) وسفن نقل بعدد كبير أكثر من حاميات رجال البحر، هذا فضلًا عن الضرائب التي كان يحضرها النوبي، وهي التي تحتوى على عاج وأبنوس، وكان يجلب إلى محفات من «كوش» مع كتل من خشب الدوم، وأشياء من الخشب لا حصر لها من خشب السنط من أرض الجنوب، وكان يقطعها جنودي في «كوش» وكانوا كثيرين هناك ... وكثيرًا من سفن النقل من خشب الدوم، وهي التي استعملها جلالتي كثيرًا.

ومن الجائز كذلك أن ما نجده مذكورًا في قوائم الجزية في تواريخ «تحتمس الثالث» من السفن المحملة بالمحاصيل من السودان كل سنة كان يُصْنَعُ هناك ويُقَدَّمُ بوصفه جزية. ونجد مثل ذلك في مناظر مقبرة «حوي» حيث نشاهد أسطولًا من سفن النقل، وكذلك كانت الحال في رسالة الضرائب[٥٧] حيث يقول المتن:

> وعندما يصل إليك كتابي ينبغي عليك أن تنظم الجزية بالتفصيل بما في ذلك ثيران (أوا) والماشية الصغيرة (جا) والماشية (ونچو) والغزلان والماعز وطير (إبيس) والنعام وسفنها الواسعة وسفن النقل وسفن «كا-ار» على أن تكون على استعداد مع نواتيها، وأن تكون الحاميات على أهبة الرحيل». وقد جاء ذكر مثل هذا الأسطول في منشور «نوري».[٥٨] وليس من المؤكد لدينا أنه كانت تُبْنَى كل عام سفن جديدة لنقل الجزية ثم تُسْتَعْمَلُ في مصر بعد ذلك لأغراض أخرى، ولكن لدينا مثال مؤكد عن ذلك في لوحة «جبل برقل»، فقد كان في عهد الدولة الحديثة يُفَضَّلُ صناعة سفن كاملة بدلًا من توريد خشب لصنعها في مصر، ويشبه ذلك بالضبط ما كان يُوَرَّدُ من أشياء أخرى من الخشب وبخاصة الأنواع الثمينة من الخشب مثل الأبنوس.

هذا ولدينا نوع آخر من الواردات من الجنوب نجده مذكورًا في جزية النوبة وأعني بذلك ريش النعام وبيضه. والنعامة كانت توجد كذلك في الصحراء الشرقية وغربي مصر ولم ينقطع مورد هذه المادة إلا في القرن الأخير. وقد وُجِدَتْ مروحة في مقبرة «توت عنخ آمون» مثل على مقبضها منظر صيد قام به الملك في «عين شمس».[٥٩] هذا ونجد أن «منخبر رع سنب» الكاهن الأكبر لآمون وحامل خاتم الوجه البحري يتسلم ذهبًا من صحراء «قفط» وذهبًا من بلاد كوش بمثابة جزية سنوية، وكان يتسلم في نفس المناسبة من المشرف على الصيد الذي يقف بجوار رئيس شرطة المزوي لمنطقة «قفط» والمشرف على أرض الذهب في «قفط» ريش نعام وبيض نعام ولا بد أن مصدرهما بطبيعة الحال كان صحراء «قفط».

ولكن يظهر أن وُجِدَ من هذه المادة في الجهات المجاورة لمصر لم يكن كافيًا لسد حاجة البلاد المصرية. ولذلك كان يُجْلَبُ محصول ريش النعام من الخارج بكثرة، وذلك لأن ريش النعام كان يُسْتَعْمَلُ حلية في لباس الرأس وفي صنع المراوح، وكان يستعمل عند قبائل الجنوب بكثرة، وكذلك كان يستعمله اللوبيون على الأقل حلية في ملابس الرأس عند الأمراء. أما في مصر فكان الطلب عليه كثيرًا لعمل المراوح.

ومن جهة أخرى كان بيض النعام يُسْتَعْمَلُ لصنع الخرز منذ أقدم العهود[٦٠] حتى الأسرة الثامنة عشرة بكثرة، ولكن يلحظ أنه قد اختفى في الأسرة الثامنة عشرة ثم أخذ يظهر شيئًا فشيئًا في عهد الأسرة التاسعة عشرة وبقي مستعملًا بعد ذلك حتى الأسرة الثانية والعشرين. ونلحظ اختفاء خرز بيض النعام بانقطاع توريد بيض النعام في تلك الفترة. ووُجِدَ في مقبرة «بالعرابة» تُؤَرَّخُ بعصر ما بين الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة آنية مصنوعة من بيض النعام لها فوهة من الحجر مركبة عليها، غير أن مثل هذه الأواني لا يوجد مثيلها في آثار الأسرة الثامنة عشرة. وقد عثر في مقابر الثقافة الميسينية التي من هذا العهد أي الأسرة الثامنة عشرة على قطع زينة مشغولة مركبة على معدن ومزينة بقطع قشر بيض النعام. وهذا البيض كان لا يأتي إلا من أفريقيا. وهكذا نستنبط أن الرابطة التي كانت تربط مصر بالإقليم المسيني الكريتي في ذلك العهد كانت قائمة على أساس حسن، وعلى ذلك فلا شك في أن هذا البيض قد ورد من مصر. ولم يكن قشر بيض النعام يحتل أية مكانة ملحوظة في مصر من جهة، ومن جهة أخرى نجد أنه كان يمثل سلعة هامة في تجارة الأراضي الشمالية، وعلى ذلك يمكن قبول الرأي القائل إن الجزء الأعظم من واردات بيض النعام كان يأتي من الجنوب لأجل أن يصدر

ثانية إلى الشمال. وليس من شك في أن البيض في مصر كان طعامًا محببًا، ولكن في هذه الحالة كان قشر البيض له استعمال واسع النطاق، وفي الواقع كان يُعَدُّ بوجه عام من مواد التصدير الهامة.[٦١]

ومن المواد التي لا تخلو منها السلع التي كانت تُقَدَّمُ جزية للفرعون الفهود وجلودها. وكانت جلود هذا الحيوان تُوَرَّدُ إلى مصر منذ الدولة القديمة. ويُلْحَظُ أنه عندما تكون جزية «كوش» منفصلة عن جزية «واوات» في المناظر، كما يشاهد ذلك في جزية تواريخ «تحتمس الثالث»، نجد أن هذه الجلود تكون ظاهرة في جزية «كوش» وحدها. أما الجهات التي تأتي منها هذه الأشياء كبلاد «نميو» و«أرم» و«ميو» فإنها بلا شك كانت تابعة لإدارة بلاد «كوش».[٦٢] هذا ولا بأس من الأخذ بالرأي القائل إن توريد هذه الأشياء له ارتباط باتساع الاستعمار وبالنشاط الزراعي وتربية الحيوان في بلاد النوبة السفلى على الرغم من كل ما يحيط ذلك من شكوك.

والواقع أن جلد الفهد في الدولة الحديثة كما كان من قبل يُسْتَعْمَلُ بوصفه نوعًا من الملبس لدى الكهنة للزينة.[٦٣] ومن المعلوم أن الجلد لا يمكن حفظه بحالة جيدة في المقابر وكان لا يستعمله إلا الرجال بخاصة في أحوال فردية، ولذلك كان يُسْتَعْمَلُ بدلًا منه جلد الماعز أحيانًا.[٦٤] هذا وكان الفهد الحي يُسْتَعْمَلُ أحيانًا للفرجة وأحيانًا يُدَرَّبُ على الصيد والقنص.[٦٥]

وكان كذلك من واردات السودان الزرافات، والقردة من جهات الجنوب ويلحظ أن القردة المستوردة كانت مختلفة الألوان منها ما هو رمادي بوجه أحمر وأحيانًا كانت تورد نسانيس ذات شعر كثيف، وقد وُجِدَتْ مُمَثَّلَةً في مناظر الأعياد[٦٦] ومناظر أخرى منزلية، وهذا الاستعمال قد صادفناه في عهد الدولة القديمة.[٦٧] أما توريد الزرافات الحية فلم يحدث إلا في عهد الدولة الحديثة، في حين أننا نشاهد قبل ذلك أن ذيل الزرافة كان من المحاصيل التي تُوَرَّدُ إلى مصر من الجنوب. وكان هذا الحيوان في عهد الدولة الحديثة يُعَدُّ ضمن الجزية التي تأتي من كوش عندما كانت محاصيلها منفصلة عن محاصيل «واوات» كما نشاهد ذلك في مقبرة «حوي».[٦٨] وقد شوهد للمرة الأولى رسم الزرافة في نقوش طريق «وناس» من عهد الدولة القديمة. وكانت كلاب الصيد التي تُسْتَعْمَلُ في مصر تُوْرَّدُ جزية من بلاد النوبة، فنشاهد في منظر في معبد قصر «أبريم» عشرين رجلًا يقودون كلابًا ضمن قائمة الجزية. وكذلك تصادفنا الكلاب في المناظر الخاصة بقوائم الجزية. ومما يدل على حب المصري الشديد الذي يكنه لهذا الحيوان أنه كان يحنطه ويدفنه بجواره.[٦٩]

الماشية: ومن الأمور الاقتصادية الهامة توريد الماشية لمصر بوصفها غنائم حرب،[٧٠] ولكن على وجه عام كانت تأتي إلى مصر ضمن الجزية[٧١] ونخص بالذكر الثيران وكذلك الغزال الْمُسَمَّنُ أو المعلوف.[٧٢] والواقع أن المناظر التي نجدها على الآثار لا تقدم لنا إلا نماذج من المحاصيل المختلفة، فلا ننتظر منها أن تعبر عن مقدار الجزية، ويدل على ذلك إحصاء الجزية الذي عثرنا عليه مدونًا. فنجد مثلًا أن الإحصاء الذي وُجِدَ في نقوش قصر «أبريم» يذكر لنا أربع مئة رجل معهم ماشية من نوع الثيران الذي يُدْعَى «أوا» وماشية «ونچو» وتقدم لنا الإحصاء التالي:

كـوش

السنة ٣١ / ٣٠ ثيران «أوا» و«ونچو» = ٢٣٠,١١٣ المجموع = ٣٤٣[٧٣]
السنة ٣٣ ثيران «أوا» و«ونچو» = ٣٠٥,١١٤ المجموع = ٤١٩[٧٤]
السنة ٣٤ ثيران «أوا» و«ونچو» = ١٧٠,١٠٥ المجموع = ٢٧٥[٧٥]
السنة ٣٥ و٣٦ غير موجودتين والسنة ٣٧ ضاعت أرقامها.
السنة ٣٨ الثيران «أوا» و«ونچو» = ١٨٥,١١١ المجموع = ٣٠٦[٧٦]
السنة ٣٩ ثيران «أوا» ... والسنة الأربعون لم تُذْكَرْ والسنة الواحد والأربعون ثيران «أوا» ... والسنة الثانية والأربعون مُهَشَّمَةٌ.

واوات

السنة ٣٢ / ٣١ ثيران «أوا» و«ونچو» ٦١,٣١ المجموع = ٩٢[٧٧]
السنة ٣٣ ثيران «أوا» و«ونچو» ٦٠,٤٤ المجموع = ١٠٤[٧٨]
السنة ٣٤ ضاعت أعدادها والسنتان ٣٥ و٣٦ هُشِّمَتَا
السنة ٣٧ ثيران «أوا» و«ونچو» ... المجموع = ٩٤[٧٩]
السنة ٣٨ ثيران «أوا» و«ونچو» ٧٧ ...[٨٠]
السنة ٣٩ ثيران «أوا» و«ونچو» ٥٤,٣٥ المجموع = ٨٩[٨١]
السنة ٤٠ لم تذكر.
السنة ٤١ ثيران «أوا» و«نچو» ٧٩,٣٥ المجموع = ١١٤[٨٢]
السنة ٤٢ (مهشمة)

وأول ما يُلْحَظُ هنا أن الإحصاء في «كوش» كان أكثر منه بوجه عام في «واوات» ونجد في الحالتين اللتين حُفِظَتْ لنا فيهما الجزية السنوية أن العدد الذي ورد من «كوش» كان أكبر بكثير من «واوات» (في السنة ٣٢/٣١: ٣٤٣ يقابله ٩٢ وفي السنة ٣٣: ٤١٩ مقابل ١٠٤ وفي سنة ٣٨: ٣٠٦ مقابل ٧٧).

ولا نستطيع أن نرجع ذلك إلى نشاط في تربية الماشية حدث في كوش أو إلى سبب آخر؛ ومع ذلك فإن في هذا الإقليم الشاسع لا بد أن يكون معدل عدد الحيوان فيه على ما يظهر عظيمًا من حيث النسبة المئوية. وعلى أية حال فإن نقطة الارتكاز في هذه المحاصيل كانت تقع في الجزء الجنوبي من الإقليم السوداني.

هذا ولا يمكن أن نضع هنا موازنة لهذه الأعداد، والمعلومات التي ذكرها لنا أمير مقاطعة «الكاب» المسمى «رنني» هي ضريبة الماشية التي كان مُلْزَمًا بدفعها فيقول إنه ورَّد ١٢٢ من البقر و١٠٠ من الضأن و١٢٠٠ من الماعز و١٥٠٠ من الخنازير. وإنه لمن الصعب أن تكون هذه الأعداد هي التي تمثل المجموع الكلي بل هي في الواقع تمثل نسبة مئوية من الجزية أي جزية مقاطعة «الكاب»؛[٨٣] ومن ثَمَّ نفهم أن جزية بلاد النوبة بالنسبة لذلك ضئيلة، ويرجع ذلك بلا شك إلى صعوبة طرق النقل، هذا إذا أريد نقل كل الضريبة إلى مصر. ولا علم لنا إذا كان ذلك هو الواقع، وبخاصة عندما نشاهد في المناظر التي في مقبرة «حوي» أن الثيران كانت تنقل في سفن خاصة إلى مصر؛ فلا بد أن جزءًا كبيرًا من هذه الجزية كان يبقى في بلاد النوبة نفسها لاستعمال الدولة، وكان موظفو الحكومة يستولون عليها كما كان بعضها يُقَدَّمُ للمعابد هناك قربانًا منذورة. أما الماشية التي كانت تبقى بعد ذلك — ولا بد أنها كانت من نوع جيد مثالي يستحق التربية للإنتاج — فكانت على ما يظهر ترسل إلى الفرعون، وغالبًا ما كانت تُزَيَّنُ هذه الحيوانات لأجل الاستعراض فكانت قرونها تُزَيَّنُ بأيدٍ ويُرْسَمُ في وسطها رأس زنجي وأحيانًا كان يُرْسَمُ شكل إقليم بأكمله بين قرنيه.

الحبوب: كانت مصر معروفة في كل الأزمان القديمة بأنها مخزن غلال لبلاد البحر الأبيض المتوسط ففي عهد «مرنبتاح» مثلًا أرسلت حبوبًا لبلاد «خيتا»[٨٤] لتخفيف وطأة القحط الذي حدث فيها، لم يكن إذن من المنتظر أن يرسل إليها غلال من وقت لآخر من بلاد السودان. ومع ذلك فقد حدث ذلك في عهد «تحتمس الثالث» فنجد في تاريخ هذا الفرعون حالة واحدة ضمن كل القوائم السنوية للجزية أن القمح كان يأتي من «واوات» منذ السنة الثامنة والثلاثين من حكمه، وكذلك من بلاد كوش، ولكن من جهة

أخرى لا نعرف شيئًا عن ذلك الموضوع خلافًا لما ذُكِرَ في تواريخ «تحتمس الثالث» على وجه التقريب. ويشاهد في منظر من مقبرة «خعمحات»[٨٥] في نقوش محصول الدخل من بلاد كوش حتى حدود بلاد النهرين أن «خعمحات» يتلو على «أمنحتب الثالث» مقدار المحصول،[٨٦] وكذلك نشاهد في مقبرة «سن أعح» الذي عاش في عهد «حتشبسوت» أن الجزية التي مُثِّلَتْ من كوش هي على حسب قول الأستاذ «زيته»[٨٧] كان معظمها مواد غذائية، ولكن في قوائم الجزية وفي المناظر لا توجد الحنطة بوصفها جزية نوبية. هذا ونستخلص مما ذُكِرَ في معبد «سمنة» عن شعير الوجه القبلي وشعير بلاد «واوات» الذي كان يُقَدَّمُ للإله «خنوم» أنه في الإقليم النوبي كانت أنواع الحبوب منظمة كما كانت الحال في مصر.

أسرى الحروب: لم تكن الحروب في الأزمان القديمة مجرد غزو بلاد العدو ونهبها بل كان الغازي يستولي في الغالب على أسرى الحرب ليكونوا عبيدًا له. من أجل ذلك كان يُجْلَبُ إلى مصر من كل حرب تنشب في الجنوب عدد عظيم أو ضئيل من الأسرى على حسب الأحوال، وكانوا يُسْتَعْمَلُونَ في مرافق الحياة الاقتصادية باضطراد. وقد ذكر لنا «أحمس» بن «إبانا» في وصفه للحروب في بلاد النوبة استيلاءه على أسرى[٨٨] وهذا ما نجده في كل الحروب النوبية تقريبًا. وقد ذكرت لنا حروب «تحتمس الثالث» أن هؤلاء العبيد كان يُؤتى بهم من الجنوب لا بوصفهم أسرى حرب بل بوصفهم جزءًا من الجزية، وقد ذكر لنا في جهات متفرقة في النقوش عدد هؤلاء العبيد، فذكر لنا «أحمس» بن «إبانا» الذي كان يعد موظفًا صغيرًا نسبيًّا تسعة عبيد وعشر إماء، وكذلك ذكر لنا في تواريخ «تحتمس الثالث» بمثابة جزية ما يأتي:

كــوش

السنة	المجموع
٣٢/٣١	٦*
٣٣	١٣٤†
٣٤	٦٤‡
٣٥ و٣٦	مهشمة أعدادهما
٣٧	١٠§
٣٨	٣٦‖
٣٩	١٠١¶
٤٠	٢١#
٤٢	مهشمة
	٣٧٢

* راجع Urk. IV, p. 695.
† راجع Urk. IV, p.702.
‡ راجع: Urk. IV, p. 708.
§ راجع: Urk. IV, p. 715.
‖ راجع: Urk. IV, p. 720.
¶ راجع: Urk. IV, p. 725.
راجع: Urk. IV, p. 728.

واوات

السنة	المجموع
٣٢/٣١	٥ *
٣٣	٢٠†
٣٤	١٠‡
٣٥ و٣٦	مهشمة
٣٧	٣٤§
٣٨	١٦‖
٣٩	مهشمة
٤١	صفر¶
٤٢	مهشمة
	٨٥

* راجع Urk. IV, p.696.
† راجع Urk. IV, p. 703.
‡ راجع: Urk. IV, p. 709 ..
§ راجع: Urk. IV, p. 716 ..
‖ راجع: Urk, IV, p. 721 ..
¶ راجع: Urk., IV, p. 728.

ومن الجائز أنه بعد مراعاة الأماكن المهشمة والأعداد الناقصة أن يرتفع عدد العبيد إلى حوالي ١٢٥٠ عبدًا في مدة إحدى عشرة سنة. وإذا قرنًّا هذا العدد بما كان يُؤْتَى به من عبيد من بلاد سوريا أسرى حرب فإن هذه الفرق النوبية لم تكن كثيرة نسبيًّا. فقد ذكر في تواريخ «تحتمس الثالث» ما مجموعه أكثر من ٦٤٣٠ أسيرًا من سوريا، هذا بغض النظر عن الأعداد المهشمة والناقصة.

وفي الإحدى عشرة سنة الأخيرة التي نعرف جزيتها من بلاد النوبة يلحظ أن مقدار ما يُجْبَى من سوريا في تلك المدة يزيد بمقدار ٢٩٩٠ في نفس المدة، ومما يُؤْسَفُ له أنه في

إحصاء مماثل خاص بأوقاف لآمون في آسيا وبلاد النوبة قد ذُكِرَ فيه عدد الأسرى الذين أُتِيَ بهم من سوريا فقط وهو ١٥٨٨ أسيرًا. ولم يصل إلينا ما أُتِيَ به من بلاد النوبة.

ومما تطيب الإشارة إليه في هذه المناسبة التعابير التي كان يوجهها «آمون» للملك فاستمع إليها: «إني قدمت لك نوبيين بعشرات الآلاف والآلاف والآسيويين بمئات الآلاف من الأسرى» وهذا النطق الإلهي في الواقع يُعَدُّ غاية في الأهمية إذ جاء فيه عدد النوبيين أقل من الذي ذُكِرَ لآسيا، ومن ثَمَّ نفهم أن نقطة الارتكاز الهامة في السياسة الخارجية في عهد «تحتمس الثالث» كانت في الشمال أي في آسيا.

ومن جهة أخرى نجد أن عدد العبيد الأسرى في «كوش» كان أكبر منه في «واوات» والسبب في ذلك طبعي، وذلك أن «كوش» تؤلف الإقليم الأكبر من بلاد النوبة، ومن جهة أخرى نجد كما دُوِّنَ في أمر في خطاب خاص بالضرائب التي ينبغي أن يرسلها أهل «أرم» و«ترك». وأهل «ترك» هم من قبيلة ممتازة من قبائل الجنوب.[٨٩] ومما يُؤْسَفُ له أن تفاصيل الخطاب غامضة. هذا وتقدم لنا لوحة «سمنة» الخاصة بعهد «تحتمس الثالث» قائمة من الغنائم التي غنمت في «أبهت» وتنحصر أهميتها فيما تذكره من أعداد ومن تقسيم الأسرى أنواعًا مختلفة.

قائمة بالغنائم التي غنمها جلالته في «أبهت»

نيوبيون أحياء	١٥٠
مجي (مزاوي)	١١٠
نوبيات	٢٥٠
خادمات من النوبيين	٥٥
أطفالهم	١٧٥
المجموع	٧٤٠
أيديهم*	٣١٢
المجموع	١٠٥٢

* راجع: كان المحارب يقطع يد الجندي الذي قتله ويقدمها دليلًا على أنه قهر عدوًّا وبقدر عدد الأيدي يكون مقدار ما قهره من أعداء.

ويُلَاحَظُ في هذه القائمة التي تبحث في حصر غنائم الحرب أنها لا تقدم لنا صورة عن مقدار ما كان يُوَرَّدُ من فرق العبيد سنويًّا، ومع ذلك فإن قوائم الجزية الخاصة بتواريخ «تحتمس الثالث»، وكذلك التي تتبع المناظر تدل على نفس الأنواع من العبيد الأسرى، فيذكر أولًا في كل حالة عبيد وإماء، ويلحظ في الصور الخاصة بالجزية النوبية النساء مع أطفالهن بجانب الرجال الذين يحملون مختلف محاصيل الجنوب، وكانت الإماء اللائي يُوَرَّدْنَ يُسْتَعْمَلْنَ بطبيعة الحال في بعض الأشغال وبخاصة في الغزل والنسيج. وخلافًا لذلك كُنَّ يعملن في المؤسسات العمالية للعبيد.

وغالبًا ما كان يوجد بين هؤلاء الأطفال الأسرى أولاد الأمراء الذين كانوا يُجْلَبُونَ إلى مصر بصفة رهائن وينشئون فيها تنشئة خاصة. ولكن من جهة أخرى نفهم أن كل تجار الرقيق يجلبونهم صغار السن ويبيعونهم وكانوا في هذا السن المبكرة يسهل تعليمهم لأغراض معينة وبطرق معينة، ومن ثَمَّ يكون خروجهم على السيد الجديد قليل الاحتمال.[٩٠]

وتذكر لنا حوليات الملوك كذلك ذكورًا نوبيين كانوا يعملون «تابعين» ويمكن تفسير كلمة «تابعين» بوساطة متن من عهد «رعمسيس الثالث» حيث يقول:

> إن أهل الجنوب قد أُحْضِرُوا إلى مصر وهناك كانوا يُسْتَعْمَلُونَ في حمل الدروع وسَوْقِ العربات وأتباعًا وحاملي مراوح في رِكاب الفرعون،[٩١] والظاهر أن هؤلاء الصبية كانوا فتيانًا ويتمتعون بقسط وافر من القوة والجمال كالمماليك في العهد الإسلامي في مصر، وقد اختيروا لهذا السبب». والعدد القليل الذي جاء ذكره في تواريخ «تحتمس الثالث» لا بد أنه كان خيرة العبيد أو الأسرى الذين كانوا يُرْسَلُونَ إلى مصر، أما غير هؤلاء النخبة فكانوا يُسْتَعْمَلُونَ في الأقاليم. وعلى أية حال تعوزنا المعلومات الدالة على أن هؤلاء العبيد الذين أُرْسِلُوا إلى مصر غير أسرى الحرب كانوا من بلاد النوبة.

ويذكر لنا منشور «نوري» عبيدًا كان يملكها معبد «العرابة» في بلاد النوبة[٩٢] وكذلك ذكرت مؤسسات الأسرى التي كانت في مصر بأنها لم تكن قاصرة على هذا الإقليم من رقعة الدولة، وذلك لأنه ذكر لنا في نقشر ضرب اثنين من اللوبيين من الأسرى في «أبو سمبل»، وهذا النقش قيل فيه عن «رعمسيس الثاني» ما يأتي:

«وهو الذي أحضر أهل بلاد النوبة نحو الشمال وأحضر الآسيويين بلاد النوبة ونقل البدو نحو الغرب وجعل التحنو (اللوبيين) يسكنون في الجبال وملأ الحصون التي بناها بالغنائم التي استولى عليها بسيفه الجبار».[٩٣]

وكان الفرعون يختار من هؤلاء العبيد الذين استولى عليهم من بلاد النوبة فرقة تُرْسَلُ إلى مصر، وعلى الرغم من ذلك فإنه ليس ببعيد أنه كانت توجد تجارة رقيق مزدهرة وكان النوبيون أنفسهم لهم عبيد يدفعون منهم جزية للفرعون، كما كانت الأشياء الأخرى تُرْسَلُ إلى مصر. وهؤلاء العبيد كان يتألف منهم أحط طبقة في مجتمع تلك البلاد. وعلى ذلك فإنه في حين كنا نرى الأمراء يُضْطَرُّونَ إلى توريد أبنائهم، فإنه كان من الجائز إرسال عبيد إلى مصر من بين النوبيين الأحرار.

وتدل شواهد الأحوال على أن استخدام النوبي ومكانته الاجتماعية في مصر كانتا واحدة. ومما هو جدير بالإشارة هنا أولًا الأهمية الاقتصادية التي كان يمثلها العامل الوطني الذي لم يكن حرًّا في مصر في عهد الدولة الحديثة حيث نجد أنه حتى المالك الصغير والراعي كانا يشتغلان مع العبيد الذين كانوا يُجْلَبُونَ من الجنوب.

وتقدم لنا واردات أفريقيا الكثيرة المختلفة والنشاط العظيم الذي وجدناه في بلاد النوبة صورة صحيحة عن الأهمية الاقتصادية الخارقة لحد المألوف التي كانت للمستعمرات المصرية في جنوب الوادي. حقًّا إن الكشوف المستقبلية قد توسع دائرة هذه الصورة في بعض نواحيها، ولكن ما لدينا من معلومات الآن ينبغي أن يضع أمامنا المواد الْمُوَرَّدَةَ من هذه الجهات بدون أي نقص، فنعلم أن المصري أصبح يستغل ثروة السودان على حسب نظامها الجديد الذي عمل في عهد الدولة الحديثة فصار يسيطر على تلك البلاد حتى الشلال الرابع على قاعدة الاستيلاء على المواد الغفل اللازمة له والضرورية لتجارته مع الأقاليم الثقافية الشمالية.

وعلى ذلك نرى أن المصري بضمه هذه البلاد الجنوبية أصبح في يده يسيطر به على احتكار التجارة التي كانت هامة للبلاد الشمالية، يضاف إلى ذلك المبادلات التجارية المصرية بالمحاصيل الثمينة مثل الذهب والمحاصيل الخاصة بأفريقيا مثل سن الفيل وخشب الأبنوس ومنتجات النعام، أي ريشها وبيضها، ومن ثَمَّ أصبحت لمصر مكانة ممتازة في شرقي البحر الأبيض المتوسط، لا بفضل محاصيلها الخاصة وحسب، بل كذلك بالدور الفاصل الذي كانت تقوم به موارد الثروة الغنية التي كانت تستولي عليها من بلاد النوبة.

هوامش

(١) راجع: Save, Agypten und Nubien p. 206 Note 2; and p. 175 note 8.
(٢) راجع: Save, Ibid, p. 207-208.
(٣) راجع: Urk., Iv, 329.
(٤) راجع: Kairo, W.b., Nr. 375 (أي نقل هذا المصدر عن بطاقات قاموس برلين).
(٥) راجع: Urk., IV, 709.
(٦) راجع: Urk., Iv, 721.
(٧) يلحظ هنا أن الكسر الذي يأتي بعد الدين يساوي قدت فهو هنا ثلاث قدات، والدبن يحتوي على عشرة قدات. ووزن الدبن يساوي حوالي ٩١ جرامًا أو ما يساوي أكثر من ١٤٠٠ حبة.
(٨) راجع: Urk., IV, 728.
(٩) راجع: Urk., IV, 734.
(١٠) راجع: Urk., IV, 702.
(١١) راجع: Urk., IV, 708.
(١٢) راجع: Urk., IV, 715.
(١٣) راجع: Urk., IV, 720.
(١٤) راجع: Urk., IV, 727.
(١٥) راجع: Urk., IV, p 630.
(١٦) راجع: Urk., IV,p 626.
(١٧) راجع: Urk., IV,p 630.
(١٨) راجع: Urk., IV, 666, 686m (100 dbn), 699 (45 dbn 9/10 kdt), 705, 706 (55 b dbn).
(١٩) راجع: Erichsen pap. Harris, I, 12 a 6 ff.
(٢٠) راجع: ما جاء في وصف الذهب وأسمائه في Budge, The Egyptian Sudan, II, p. 336.
(٢١) راجع: Chassinat, Bull Inst. Fr. I, 78 ff.
(٢٢) راجع: Daressy, Rec. Trav., 16, 51; 23, p. 68 f.

(٢٣) راجع: Lepsuis, Die Metalle (abh. Konigl, Ak. Wiss. Berlin, 1871) p. 35.

(٢٤) راجع: Budge, The Egyptian Sudan, II, p. 336.

(٢٥) راجع: Gauth, Dic. Geog. I, 143.

(٢٦) راجع: Urk, IV, 333; Naville, The Temple of Dier el Bahari, III, P1, 76.

(٢٧) راجع: Urk. IV, p. 708.

(٢٨) راجع: مصر القديمة الجزء السادس ص ٩٩.

(٢٩) راجع: Sethe, Urk. IV, p. 871.

(٣٠) راجع: Wresz., Atlas I, 285, J.E.A., 26, Pl, 23 f.

(٣١) راجع: El Amarna; II, 38; III 35; comp Wresz., Atlas I, 224; II, 167; Davies The Tomb of Kenamun Pl. 14. Tomb of Hury.

(٣٢) راجع: El Amarna Ibid.

(٣٣) راجع: El Amarna II, 38.

(٣٤) راجع: Junker, Ermenne, p. 57.

(٣٥) راجع: Junker, Studies Presented to Griffith, p. 297 ff.

(٣٦) في «بيت الوالي» نشاهد دروعًا وأقواس وكراسي ومرواح، راجع: Wresz, Atlas, II, 167 f.

(٣٧) راجع: Gardiner, Late Eg. Misce. P. 119 L 5,, 11.

(٣٨) راجع: Urk, IV, p. 457.

(٣٩) راجع: مصر القديمة الجزء الثامن ص ٥٥١.

(٤٠) راجع: Urk., IV, p. 1099.

(٤١) راجع: Tombos, Inschrift Thutmosis III (Save, p. 208); Kairo Wb. Nr. 375; Gardiner Late Eg. Mesc, P. 119; Moller, Hierat. Lese. III b. 1.

(٤٢) راجع: Dawson, The Substance called Didi (Jouual of Royal Asiatic Society luly 1927 p. 497 ff ومصر القديمة الجزء الثاني ص ١٧٥.

(٤٣) راجع: مصر القديمة الجزء الثاني ص ١٧٤.

(٤٤) راجع: Kairo, Wb. Nr, 375; Wb. II, 339.

(٤٥) راجع: مصر القديمة الجزء السابع ص ٤٥٧ (ص ٦٢ بسطر ١٤ من ورقة هاريس).

(٤٦) راجع: Wb., I, 116.

(٤٧) راجع: Wresz., Atlas, I, 148; Davies, Tomb of Puymre at Thebes Pl. 43.

(٤٨) راجع: Rec. Trav., 39, p. 24.

(٤٩) راجع: Wb, V, 39; A.Z., 23, 67; Urk. IV, 329, 346.

(٥٠) راجع: Wb., III, p. 400.

(٥١) راجع: Urk., IV, P. 329.

(٥٢) راجع: Rec. Trav., 22, 104 f.

(٥٣) راجع: Wb., III, lbid, p. 244,332.

(٥٤) راجع: De Morgan, Cat, I, p. 126.

(٥٥) راجع: Urk., Iv, p. 947, 950.

(٥٦) راجع: مصر القديمة الجزء الرابع ص ٤٠٦ إلخ.

(٥٧) راجع: Gardiner, Late Eg. Misc., p. 118 and Translation in Tomb of Huy, p. 28.

(٥٨) راجع مصر القديمة الجزء السادس ص ٨٨.

(٥٩) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص ٤٥٢.

(٦٠) راجع: Balabish, p. 22.

(٦١) راجع ما كتبه إيفانس عن هذا الموضوع Evans, the Palace of Minos, II, p. 765.

(٦٢) راجع: Urk. IV.p. 949 f.

(٦٣) راجع: kees, Kulturgesch., p. 71 f.

(٦٤) راجع: Lucas, Anc, Mat. p, 38.

(٦٥) راجع: Kees, Ibid, p. 56, 124.

(٦٦) راجع: Wresz, Atlas, I, 123, 389; The Egyptian Expedition, Metrop. Museum 1928/9 p. 43; Boussac, La Singe dans l’Egypte Anc. (La Science au XX Siecle 3 anneé, p. 116–119.

(٦٧) راجع: Davies, Shiekh Said Pl. 4; Die Mastaba des Gemnikai I, Pl. 23.

(٦٨) راجع: Davies, The Tomb of Huy, p, 213, note 4.

(٦٩) راجع: Davies, The Tomb of Siptah, p. 17 a Chronique d'Égypte 14, p. 79.

(٧٠) راجع: Urk. IV, p. 7.

(٧١) راجع: Urk., IV, p. 695 ff; Ibid, p. 743, 1099; Wresz Atlas I, 337; 148, 160.247; II, 168.

(٧٢) راجع: Kees,, Kulturgesch., p. 21.

(٧٣) راجع: Urk. IV, P. 695.

(٧٤) راجع: Urk. IV, P 702.

(٧٥) راجع: Urk. IV, P 708.

(٧٦) راجع: Urk. IV, 720.

(٧٧) راجع: Urk. IV, 696.

(٧٨) راجع: Urk. IV, 703.

(٧٩) راجع: Urk. IV, 716.

(٨٠) راجع: Urk. IV, 721.

(٨١) راجع: Urk. IV, 625.

(٨٢) راجع: Urk. IV, 728.

(٨٣) راجع: Kees, Kulturgesch., p. 24 note 6.

(٨٤) راجع مصر القديمة الجزء ٦ ص٢ و Ed. Mayer, Gesch; Alt. 2 II, 1, p. 158.

(٨٥) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص ١٢٨.

(٨٦) راجع: L.D. III, 77 C.

(٨٧) راجع: Urk, IV, 512.

(٨٨) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ١٤٣.

(٨٩) راجع: Gardiner, Late Eg. Misc., p. 119.

(٩٠) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص٥١٠.

(٩١) راجع: L.D. III, 218 e; Comp., Rec. Trav., 27, p. 35; and p. 231.

(٩٢) راجع: مصر القديمة الجزء السادس ص ٦٢.

(٩٣) راجع: Wresz., Atlas, II, p. 182.

الفصل الثامن عشر

اختلاط النوبيين بالمصريين في عهد الدولة الحديثة

كان النوبي منذ أقدم العهود ينزح إلى البلاد المصرية ويعمل فيها كادحًا بطرق مختلفة، غير أن هذا النزوح كان محدودًا لدرجة عظيمة فلم يكن النوبي يرغب في أن يُدْفَنَ في مصر كما كان المصري يرهب أن يُوَارَى جثمانه في أي بلد أجنبي. وقد ظلت الحال كذلك حتى عهد الدولة الحديثة عندما أصبحت بلاد السودان تكاد تكون جزءًا لا يتجزأ من مصر، وقد حدث أنه في أوائل عهد الدولة الحديثة عندما ما أرادت مصر أن تسترد سلطانها في بلاد النوبة أن أخذ الفراعنة يسوقون أسرى الحرب الأجانب والعبيد إلى مصر ويستغلون الرجال منهم في زرع الأرض وغسل الذهب، أما النساء فكن يعملن غازلات أو ناسجات، هذا وكان هؤلاء العبيد من جهة أخرى يُسْتَعْمَلُونَ في مناجم الذهب، فمن ذلك نعلم أن أفرادًا كانوا يؤجرون عبيدهم لهذا الغرض.[1] وكانت الحكومة تفيد من ذلك بجمع ضريبة السماح بإيجار هؤلاء العبيد.

ونشاهد الاستغلال الخاص للعبيد النوبيين بصورة ظاهرة في تخديمهم في البيوت كما كانت الحال في عهد الدولة القديمة، وكما هي الحال في مصر الحديثة، إذ نشاهد معظم خدم البيوتات الكبيرة من النوبيين. ولدينا من هذا العهد قصيدة غزل تتحدث عن خادم المحبوبة التي كانت من أصل نوبي فاستمع لما جاء فيها بالنسبة لهذه النوبية[2] فيقول المحب: آه لو كنت الجارية تابعتها! حقًّا كنت أرى لون كل جسمها. هذا وكان «لمريت رع» وهي زوج رجل عظيم في عهد الملك «آي» خادمتان نوبيتان[3] على أن ظهور النوبي في ركاب سيده في خلال نزهته في عربته وغير ذلك من الخدمات لدليل على أن هذه كانت عادة منتشرة بين الملوك كما كانت بين علية القوم؛[4] وكان النوبي يُسْتَخْدَمُ

بوصفه خادمًا خاصًّا رشيقًا لحمل المروحة لسيده.[٥] ونجد في أحد المصادر نوبيًّا كان يشتغل بحارًا في مصر.[٦] ولكن كان أكثر خدمة النوبي في الجندية والشرطة؛ وظهر استخدامه في هذه الأعمال منذ الدولة القديمة، وقد ذكرنا من قبل ما قام به في حرب تحرير مصر من نير استعباد الهكسوس. وكان النوبي بوجه عام يُسْتَعْمَلُ في فرقة الرماة كما كان يُسْتَعْمَلُ جنديًّا يحمل الدرع ويسوق العربة كما يدلنا على ذلك نقش من عهد الرعامسة،[٧] وقد كان لتغلب الأزياء التي كانت تتأثر بالفن صفة بارزة في تغيير ملابس النوبي في العصور المختلفة. ففي عهد «حتشبسوت» نجد نقشًا تفسيريًّا على صورة ت مثل نقل مسلة فيه العبارة التالية: «شبان (جنود) من «خنت-حن-نفر» بجانب جنود من المصريين»، ونشاهد جميع من في هذه الصورة يلبسون ملابس مصرية وهم مسلحون بالفئوس أو البلطة وبعصا رماية. وليس هناك فرق بين المصري والنوبي فلم نجد الفرق الذي كان يميز به عادة النوبي وهو تسليحه بعصا الرماية.[٨] وهذا النوع من السلاح نجد مسلحًا به جنديًّا نوبيًّا في مقبرة «ثنني» كاتب المجندين حيث نجده يرتدي قميصًا مصريًّا ومع ذلك فإنه كان يلبس فضلًا عن ذلك الريشة التي تميز النوبي في لباس رأسه، يضاف إلى ذلك أننا نجد جنود رئيس الشرطة «محو» في «تل العمارنة» من عهد «أخناتون» يلبسون قمصانًا مصرية ويختلطون بالمصريين،[٩] ونجد أمثال هؤلاء كذلك في رجال الشرطة التابعين لرئيس الشرطة «نب آمن».[١٠] هذا ونعلم أن الجنود الأسيويين واللوبيين والنوبيين الذين يعملون حرسًا للفرعون نفسه كانت ملابسهم خاصة بهم. وعلى ذلك نجد أن النوبي لا يختلف كثيرًا عن المصريين الآخرين بل كان يلبس أحيانًا ملابس مصرية خالصة. وقد ظل يلبس قميصًا طويلًا له هدابة من الأمام كما كانت الحال في العهد الإهناسي.

ومن مميزات ملابسه كذلك الوشاح الذي كان يَتَّشِحُ به على كتفه والقرط الكبير الذي كان يتحلى به وريشة النعامة التي كانت يضعها في شعره المجعد. وقد صُوِّرَ في «تل العمارنة» نوبي يلبس قميصًا من الجلد. وهذا اللباس نشاهده ثانية في عهد «توت عنخ آمون»[١١] كما نشاهده في عهد الرعامسة.[١٢] ويشمل رجال الشرطة في مصر عددًا كبيرًا من أهالي الجنوب وقد سُمُّوا «المزوي» على الرغم من وجود مصريين بينهم وهؤلاء الجنود نجدهم في أمهات المدن مثل «منف» و«قفط» و«طيبة». ولم يكن عملهم قاصرًا على حفظ النظام والأمن بل كان لهم كذلك نشاط في جمع الرديف والضرائب.[١٣] وقد وجدنا في نقوش رئيس شرطة «طيبة الغربية» أنه فضلًا عن عمله كان مكلفًا بجمع

أموال ضياع الملك.[١٤] وغالبًا ما يكون رئيس الشرطة من جنود الفرعون القدامى مثل «نب آمن» السابق الذكر، ولكن رئيس الشرطة، كان له مجال آخر معروف؛ فقد كان أولًا من خدم الملك المقربين ويسير أمام خيله ويخدمها، وبعد أن يظهر إخلاصه في هذا العمل كان يُرَقَّى شرطيًّا في طيبة الغربية وفيما بعد يصبح رئيس شرطة. وبالنظر لأن هذا المجال كان يرقى في مدارجه غالبًا رجل نوبي الطراز فإنه قد يكون من المحتمل هنا أن يكون هذا النظام خاصًّا بالجنوبيين (راجع ما كتب عن رجال المزوي فيما سبق).

ونصادف نوبيين في مصر مُقَسَّمِينَ طوائف عُرِفُوا بأنهم حرس للملك.[١٥] ففي عهد «أمنحتب الثاني» نجد رجلًا يُدْعَى «نخت» يحمل لقب المشرف على النوبيين «لثور كوش» والأخير هو بالتأكيد في هذه الحالة اسم طائفة نوبية صحيحة. وقد لقب نفسه فضلًا عن ذلك حامل العلم لهذه الفرقة نفسها ولقب المشرف على النوبيين، هذا وقد جاء ذكره في منشور «نوري» وهو وحامل المروحة هناك في درجة واحدة. أما فرقة المزوي في تل العمارنة فهي على الرغم من كل الظواهر ليست من أصل نوبي في حين أننا نشاهد في فرقة مصورة في مقبرة «حور محب» بعض السود.[١٦] وحامل علم هذه الفرقة مصري الجنس، ومن المُسَّلَمِ به بوجه خاص أن مقدم هؤلاء الجنود بصفة عامة ليس نوبي الأصل.

وكذلك قد اندمجت في الجيش المصري فرق نوبية فنجد في خطابات «تل العمارنة» أن حكام آسيا من أتباع الفرعون المخلصين كانوا يرجونه في أن يرسل إليهم فرقة من جنود «كاش وملوخا» والمقصود هنا بلا نزاع فرقة جنود من أهل كوش.[١٧] ومما يسترعي النظر هنا أنه في حين نجد أن قوم «ملوخا» قد ذُكِرُوا هنا بوجه خاص مع جنود آخرين من مصر وأنهم لم يظهروا قط بوصفهم أعداء بل أتباع الفرعون فلا بد أن تكون الحال كذلك مع «كاش»، ولكن من جهة أخرى قد جاء ذكر كلمة «كاش» لتدل على الكاشيين (Kossaer)[١٨] ولذلك تجب الحيطة على الرغم من أنه ليس بمستحيل أن الجنود النوبيين قد استغلوا الفوضى للقيام بثورة، هذا إذا سلمنا مع الأستاذ «ينكر» بأن النوبيين كانوا فعلًا موجودين في الأرض الآسيوية وقتئذٍ، غير أن ذلك فيه شك كبير.[١٩] ولكن الرجاء الذي نجده في خطابات «تل العمارنة» من جانب أتباع الملك ليرسل إليهم رجال حامية من جنود «ملوخا» ليحموهم على حسب العادة التي كان يسير عليها أجداده من قبل وهي إرسال نجدات إلى آسيا، يُعَدُّ دليلًا قاطعًا على أن هؤلاء الجنود كانوا يُسْتَعْمَلُونَ في هذه الجهات من قبل، هذا وقد ظهر هؤلاء الجنود النوبيون كذلك في عهد الأسرة الثامنة عشرة في جزيرة «كريت» فنجدهم مُمَثَّلِينَ على جدران قصر «كنوسوس».[٢٠]

وكذلك ظهر في عهد الرعامسة نوبيون في الجيش المصري بين الجنود الأجانب، وإن كان عدد اللوبيين يفوق عددهم دائمًا في الجيش المصري. فلدينا بردية من عهد الرعامسة[٢١] تذكر جيشًا مُؤَلَّفًا من ١٩٠٠ مصري و٥٢٠ من الشردانيين و١٦٠٠ من الكهك و١٠٠ من المشوش و٨٨٠ من النوبيين. وكذلك تدلنا المناظر الباقية على وجود هؤلاء الجنود النوبيين.[٢٢] وأخيرًا نشاهد فرقًا نوبية في عصر الاضطرابات التي حدثت في عهد نهاية الأسرة العشرين تحت إمرة نائب الملك «بانحسي».[٢٣]

وتدل شواهد الأحوال على أن المصريين كانوا ينظرون إلى هؤلاء النوبيين نظرة الأكثرية القوية إلى الأقلية الضعيفة، فنشاهد في المناظر التي تمثل العدو المقهور أن الملك كان يقود النوبيين أمام الإله ليذبحهم. ولا نزاع في أن التقاليد القديمة كانت تلعب دورًا في مثل هذه المناظر، وعلى ذلك لا نعلم على وجه التأكيد إذا كان هذا الاحتفال بإحضار الأسرى أمام الإله في عهد الدولة الحديثة كان واقعيًّا أم مجرد تقليد والرأي الأخير هو الأرجح.[٢٤]

وكذلك مما يدل على امتهان النوبيين الدورُ الذي كان يلعبه النوبي في احتفال «شعيرة جرتكنو» وكذلك قطع رأس حيوان الضحية مما وجدناه ممثلًا في منظر هام في مقبرة «منتوحر خبشفس»[٢٥] مما يدل على هذا الاتجاه. فعلى اليمين نشاهد في هذا المنظر رجلين يحملان جرارة (يظهر أنها «جرارة تكنو») واثنين آخرين يلقيان بآلة خاصة في حفرة، والكتابة المفسرة لهذا المنظر هي: «الجر إلى الإعدام» وعلى اليسار من هذا المنظر نشاهد نُوبِيَّيْنِ مضطجعَيْن على جنبَيْهما مزملين إلا أيديهما فإنها كانت طليقة، ويتبع ذلك منظران آخران متشابهان معهما رجلان يحمل كل واحد علامة خاصة وأحدهما نوبي يتدلى من رقبته خيط فيه حلقتان ولا نعلم إذا كان ذلك المنظر تذكاريًّا أو يمثل تضحية فعلية. وعلى أية حال فإن المنظر يشهد على طريقة معاملة بعض الطغاة للنوبي، وهذا يكفي لإظهار أن المصري القديم كان يعتبر أحيانًا النوبي كالحيوان يُقَدَّمُ ضحية عند إقامة الشعائر الجنازية. ومن هذا القبيل لدينا أمثلة عدة مصورة تدل على وضاعة النوبي في عين المصري، ولم يكن هذا قاصرًا على المناظر الأثرية الكبيرة بل كذلك نجده في الأشياء الصغيرة الفنية،[٢٦] وفضلًا عن ذلك ما كان ينظم من مبارزة بين المصريين والأجانب المختلفين التي لم يكن القصد منها فقط التسلية والرياضة بل كانت تقام على وجه خاص لأجل أن نظهر عظمة المصري وحقارة الأجنبي.[٢٧] وهذا الاحتقار والامتهان نجدهما في متن من متون عصر الرعامسة حيث يقول المدرس لتلميذ قذر ما يأتي: إنك

مثل متكلم أجنبي (تتعلثم في الكلام) نوبي عندما يأتي بالجزية.[٢٨] وكذلك لدينا وثيقة من عهد الأسرة العشرين تكشف لنا عن موقف مماثل للنوبي من حيث امتهان مركزه. وذلك أن رجلًا تزوج من اثنتين[٢٩] وأراد أن يعمل مع زوجته الثانية تسوية قانونية طيبة وقد استفسر أولاده الذين من زوجته الأولى فيما إذا كان له أي حق في ادِّعاء هذه الملكية المعينة، وقد أجابهم الوزير الذي كان يحقق القضية على سؤالهم قائلًا: إن متاعه هو ملكه وله الحق أن يتصرف فيه كما يشاء، وحتى إذا لم تكن زوجته، بل كانت مجرد سورية أو نوبية يحبها وأعطاها متاعه فهل ينبغي أن يتعارض ذلك مع ما فعله؟

ولو صح أن النوبي يحتل مكانة حقيرة وأنه يُنْظَرُ إليه بغير عين الرضا فإن ذلك لا يعني أنه كان يُهْضَمُ حقه في إرث أو وصية. والواقع أن مكانه العبيد الاجتماعية في مصر قد وضحت لنا من وثائق أخرى. على أنه لا بد أن نفهم أن العبيد لم يكونوا يُسْتَعْمَلُونَ في أحط الأعمال، بل على العكس نجد أن «توت عنخ آمون» كان يستعمل عبيدًا وإماء في أعمال راقية كمغنين ومغنيات وراقصين وراقصات، وكذلك كانوا يُوَظَّفُونَ كهنة مُطَهَّرِينَ، ومن ثَمَّ نرى أنهم كانوا بلا شك يَتَوَلَّوْنَ وظائف اجتماعية لا بأس[٣٠] بها كالمصري.

هذا ولا نجد عائقًا قانونيًّا يحول دون تحرير الخادمات الإماء في البيوت، ولدينا متن من عهد «رعمسيس الحادي عشر» يحدثنا عن تبني أَمَةٍ مُحَرَّرَةٍ،[٣١] وقد جاء ذلك في وثيقة عن المرأة الْمُتَبَنَّاةِ بوصفها وارثة لزوجها الذي تبناها في مدة حياته ليحفظ ثروته. والوصية غريبة في بابها وقد شرحناها شرحًا مُسْهَبًا في الجزء الثامن، ونجد ما للعبيد من حقوقه اجتماعية وقضائية في المتن الذي أشرنا إليه سابقا الخاص بموضوع الزوجة الثانية وما أشير فيه من حقوق العبيد.

ولا يتسرب للذهن أن هذه الحقوق كانت قد ظهرت متأخرة فقط في عهد الرعامسة بل الواقع أنها كانت موجودة من قبل ولا أدل على ذلك من أن أمة نوبية تُدْعَى «مراقا شاتي» قد ظهرت بوصفها شاهدة في عقد إيجار من عهد الأسرة الثامنة عشرة.[٣٢]

هذا ولدينا مثال آخر عن نوبية في مكانة أرقى وقبرها في «القرنة» ومن المؤكد أنه يرجع إلى عهد الأسرة السابعة عشرة[٣٣] وهذا القبر نسبيًّا كان غنيًّا من حيث ما أُودِعَ فيه من أثاث جنازي، وتدل محتوياته على اتصاله بثقافة «كرمة» اتصالًا واضحًا بخاصة. فنجد فيه مثلًا الأواني الموضوعة في شباك وهذه من مميزات مقابر «كرمة»[٣٤] هذا إلى المخدات ذات القاعدة الطويلة فإنها كانت من الطُّرُزِ السائدة في مقابر كرمة بصورة

عظيمة، وهذه قد وُجِدَتْ كذلك في مصر،[٣٥] وكذلك يشير وجود حجر المسن في هذه المقبرة وهو الذي يوجد في بلاد النوبة بكثرة[٣٦] إلى هذا الاتجاه، وعلى ذلك يميل الإنسان إلى التسليم بأن هذا القبر هو لامرأة من الجنوب كانت إما حرة مع أسرتها، أو كانت قد جاءت إلى مصر بوصفها أَمَةً ثم أصبحت زوجة أو حظية لأحد عظماء البلاد المصرية، وقد جهز لها زوجها قبرًا ودَفْنَةً حسنة على حسب الطريقة النوبية. ومما سبق يتضح أن المصري كان يشتد أحيانًا في معاملة النوبي ولكنه في معظم الأحيان كان يعامله معاملة الند للند.

الجنود النوبيون:

وتدل الأحوال على أن معظم الجنود النوبيين كانوا أحرارًا وكذلك الجنود النوبيون الذين وُجِدُوا مدفونين في المقابر القعبية أو المستديرة في مصر فكانوا أحرارًا كذلك في هذا العهد. وعلى ذلك فإن جنود المزوي الذين ساعدوا في حرب التحرير كان موقفهم مشابهًا لهؤلاء، وكذلك يخيل إلى أن الجنود النوبيين الذين كانوا في آسيا وكذلك الذين كانوا في «كريت» قد جاءوا إلى هذه الجهات أحرارًا،[٣٧] وأخيرًا نعلم من نقوش عصر الرعامسة المتأخر أن الجنود النوبيين كان لهم عبيد[٣٨] وهذا ما يتفق مع الجنود الأحرار وحدهم.

ويظهر من كل الأمثلة السابقة أن النوبي في مصر وكذلك في إقليم السودان نفسه كانت لديه الفرصة ليرقى إلى مراتب عالية في الدولة المصرية.

ومن المفهوم أنه لم يكن من المنتظر وجود مجاميع أثرية لها طابع سوداني كالتي وُجِدَتْ في قبر «القرنة» السابق وبخاصة بعد الخطوات الواسعة التي خطتها البلاد نحو التمصير، وعلى ذلك فإن السواد الأعظم من هؤلاء النوبيين قد أصبحوا مجهولين لدينا.

ومع ذلك فإنه لدينا حالات يحتمل أن نُسَلِّمَ فيها بأننا أمام أفراد نوبيين يشغلون وظائف عالية. فمثلًا مقبرة «ماي-حر-بري» التي يرجع تاريخها إلى عهد الملكة «حتشبسوت» وقد تحدث لنا عنها «ريزنر» فقال إنه لاحظ في الجثة أن عظمتي الصدغين كانتا ناتئتين غير أنه لم يفحص الجسم فحصًا علميًّا، وفي حين نجد أن «ريزنر» يقول عن صاحب الجثة إنه نوبي قد اختلط دمه بالدم الزنجي تمامًا فإن «دارسي» يصف الجثة كما يأتي:[٣٩] إن هيئة الجثة تذكرنا كثيرًا بصور التحامسة. وينبغي على ما يظهر أن يكون أصل صاحبها من الوجه القبلي من الإقليم الذين بين «إدفو» و«أسوان» حيث نجد أن اختلاط المصريين بالنوبيين ينتج عنه هذا الطراز من الناس الملون باللون الغامق

دون أن يكون من أصل زنجي ويلحظ أن شعر هذا الرجل قد ظهر بمظهر شعر الزنجي بعض الشيء غير أنه شعر مستعار، ولذلك فإنه لا يقدم لنا شيئًا جوهريًّا عن أصله. ومع ذلك فإن صورته كما صُوِّرَتْ على البردي الجنازي تدل على أنه من أصل أجنبي. والصورة التي نشرت له لا نعرف منها شيئًا كثيرًا، وقد وصفها لنا «دارسي» كما يأتي: «إن الْمُتَوَفَّى الملقب بالغلام «ماي حر بري» طرازه زنجي وجلده أسمر جدًّا وشعره مجعد». ولا يدل بلباسه المصري على أي شيء بالنسبة للسلالة البشرية التي ينتمي إليها.

ويُضاف إلى المميزات السلالية لهذا الرجل ميزة أثرية وأعني بذلك التشابه العظيم الذين تجده بين الأشياء المصنوعة من الجلد التي وُجِدَتْ في قبره بالأشياء التي وُجِدَتْ في كرمة، فالملابس المصنوعة من الجلد التي مثل عليها نماذج غاية في دقة الفن نجد مثيلاتها في «كرمة» وإن كانت في تفاصيلها أبسط. فقد وُجِدَ طوق كلب له مثيله في الصنعة في «كرمة»،[٤٠] يُضَافُ إلى ذلك نموذج حزام منظوم بالخرز فقد وُجِدَ نظيره في مجموعة ثقافة C.[٤١]

وكل هذه الأشياء توحي بالتسليم أن «ماي-حر-بري» كان نوبيًّا، وكذلك لا تتعارض ألقابه مع هذا الرأي فنجده قد لُقِّبَ في مقبرته: الغلامَ حامل المروحة على يمين رب الأرضين صاحب الحظوة عند الإله الطيب والتابع الذي يقفو خطوات ملك الوجه القبلي في البلاد الجنوبية والشمالية.[٤٢] وعلى حسب ذلك يمكننا تأليف مجال حياته الحكومية فيما يلي. فنحن نعلم أن أولاد الأمراء النوبيين كانوا بوصفهم غلمانًا ينشئون مع أمراء البيت المالك وأولاد عظماء القوم في بلاط الفرعون كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وقد كان من المحتم عليه بعد تنشئته كذلك أن يكون من خُدَّامِ الفرعون الشخصيين في بادئ مجال حياته الحكومية ثم يرتقي إلى درجة أعلى فيلقب حامل المروحة على يمين الفرعون، وهذا اللقب الذي وُضِعَ هنا للمرة الأولى على رأي «ريزنر» كان لقب وظيفة ذات قيمة بسبب اتصالها الوثيق بالفرعون، هذا وقد صار هذا اللقب بمثابة لقب فخري لموظفي القصر في عهد «أمنحتب الثاني» وذلك عندما أصبحت صيغة اللقب ثابتة وهي: «حامل المروحة على يمين الملك». وفي عهد «أمنحتب الثالث» كان هذا اللقب يُمْنَحُ لنائب الملك صاحب كوش، ومن ثَمَّ أصبح لقب شرف تقليديًّا يحمله حامل هذه الوظيفة الأخيرة، وكذلك كانت نفس الحالة مع لقب «التابع للملك في سفراته في الجنوب والشمال» و«تابع سيد الأرضين». وبهذه المكانة التي بلغها «ماي-حر-بري» بحظوة الفرعون له أقام مقبرته الغنية بمحتوياتها في «وادي الملوك» وهذه ميزة نادرة في هذا العهد ومنها نفهم أنه

كان لا بد يشغل حقًّا وظائف عليا كثيرة لم يمكن استخلاصها تمامًا مما بقي لنا من محتويات قبره.

هذا ولدينا أمثلة يحوم حول صحتها بعض الشك[٤٣] عن نوبيين كانوا يشغلون وظائف عالية. فمن المحتمل مثلًا أن كاتب المجندين «ثنني» كان من هذا الصنف[٤٤] وهو الذي عاش في عهد «تحتمس الثالث» وختم حياته الحكومية في عهد الفرعون «تحتمس الرابع». و«ثنني» هذا على حسب رأي الأستاذ «زيته» قد مُثِّلَ في قبره في صورة رجل يشبه البشاريين الحاليين، ومن الجائز كذلك أن أخاه صاحب المقبرة رقم ٧٨ بطيبة الغربية وهو الذي كان يحمل لقب المشرف على المزوي (مجا) وصُوِّرَ متحليًا بقرط كبير كان كذلك من أصل أجنبي أي نوبي، ومن المحتمل أن كلًّا من «ثننى» وأخيه كان مصريًّا ويقود جنودًا أجنبية ويلبس ملابس كملابسهم أيضًا.

هذا وقد ذهب «جوتييه» مما وجده على لوحة في متحف «جيميه» (Stela Nr. C. 12) في نقش ابن الملك «باسر» (النوبي؟) إلى أن نائب الملك «باسر» الذي عاش في عهد كل من «آي» و«حور محب» كان نوبيًّا.[٤٥] غير أن هذا النقش الذي يشك في قراءته لا يمكن الاعتماد عليه في الأخذ بهذا الرأي.

وقد ظهر في عهد الرعامسة مدير بيت للملكة يدعى «نختمين» وهو نوبي الأصل وقبره الذي في «بقع» قد نشره الأثري هرمان وقد تحدث عن أصل هذا الرجل كما يأتي:[٤٦]

> كان «نختمين» الذي تقلد هذه الوظيفة مرتبطًا بوساطتها ببلاد «طيبة». ويمكن تفسير دفنه في بلاد النوبة بأنها كانت مسقط رأسه وقد يدل على ذلك تعبير في صيغة الدفن إذ جاء فيها: «إنك في قبرك الذي أقمته في بلدتك بأمر السيد». غير أن ذلك ليس له أهمية فاصلة لأن هذا تعبير كلامي وعام نجده في أحوال كثيرة ولكن الدفن في بلاد النوبة بدلًا من مصر، وبخاصة في حالة موظف صاحب وظيفة عالية مثل نائب الملك في كوش، يعد من الأمور المدهشة الغريبة، ومما يلفت النظر في هذه الحالة أن لدينا هنا رجلًا صاحب لقب عالٍ يدفن في «بقع» ولم يدفن في إحدى المدن الهامة في السودان مثل «عنيبة» أو «بهين» ومن أجل ذلك فإننا لا نخطئ إذا سلمنا أن «نختمين» كان على ما يظهر نوبيًّا من أهالي بقع نفسها.

هذا ويمكن لنفس الأسباب أن نعتبر نائب الملك «بانحسي» الذي عاش في عهد «رعمسيس الحادي عشر» من أصل نوبي لأن قبره وُجِدَ في «عنيبة»[٤٧] في حين أن كل أسلافه على قدر ما نعلم قد دُفِنُوا في مصر. ومن جهة أخرى فإن اسمه «بانحسي» الذي يعني النوبي لا يقدم برهانًا مؤكدًا لأن هذا الاسم كان يتسمى به كثير من المصريين[٤٨] وعلى أية حال فإنه كان يتقلد وظائف الدولة العالية واحد من رجال الأقاليم التابعة للدولة في عهد الرعامسة المتدهور. هذا فضلًا عن أنه يصادفنا سائقون لعربة الملك قد وصلوا إلى أعلى الرتب الهامة في وظائف الحكومة منذ عهد «مرنبتاح» من عصر الأسرة التاسعة عشرة.

وهؤلاء هم من أهالي الأقاليم التابعة للدولة من كل صنف، وكذلك كان منهم بالفعل من كان نوبي الأصل، وعلى الرغم من أن النوبيين في مصر لم يكونوا على قدم المساواة مع المصريين وعلى الرغم من أن المصري كان ينظر إلى النوبي نظرة الأعلى إلى الأدنى فإن مجال النوبي قد هَيَّأَ له فرصًا واسعة أمكنه بها أن يتصل بالملك مباشرة ويصل إلى أعلى مراتب الدولة وبخاصة أنه لم يقم أمامه أي عائق قانوني. ولا يمكننا القول بصفة قاطعة إذا كان النوبيون قد وصلوا إلى هذه المراتب بطريق الاستثناء أو إذا كان هذا أمرًا كثير الحدوث وبخاصة في العهد المتأخر من تاريخ البلاد. والأرجح أن النوبي كان يتولى هذه الوظائف في حالات كثيرة وبخاصة بعد أن أصبح متمصرًا تمامًا ولا فرق بينه وبين المصري نفسه في كل الأحوال.

هوامش

(١) راجع: A.Z., 43, 17; P.S.B.A., 30, 272 ff; comp. Kees, Kulturgesch. P.48.

(٢) راجع: Muller, Die Liebespoesie der Alten Agyp, (Lps. 1899), 43; Bull, Inst, Fr. 14, 243 A.S., 17, p. 109.

(٣) راجع: Davies, The Tomb of Neferhotep, p. 26, PI. 15.

(٤) راجع: Davie, Ibid, p. 23 Pl. 18 Pap. A nstasi IV, 3,5 f; Gardiner, Late Eg. Misc. p. 37.

(٥) راجع: Pap. Anastasi, IV, 16, 55; Gardiner, Ibid, p. 52; A. Z., 14, 75; L.D. III, 218 c; Davies, The Tomb of Kenamon PI, 20 f, P. 32; Wresz Atlas, II, 14.

(٦) راجع: Mem. Miss. Fr., 5, 551.

(٧) راجع: L.D. III, 218.C.

(٨) راجع: Naville, The Temple of Deir el Bahari VI, 155.

(٩) راجع: El Amarna, IV Pl. 19 ff.

(١٠) راجع: Davies, The Tomb of Two Officials of Thutmosis IV. PI. 27.

(١١) راجع: Bissing. [Bruckmann Denkmaler Taf. 84.

(١٢) راجع: Wresz., Atlas, II. 128, 135, 185.

(١٣) راجع: Kees, Kulturgesch., p. 47.

(١٤) راجع: Thompson (Gardiner), Theban Ostraca, p.16 g. ff.

(١٥) راجع: Helek, Der Einfluss der Militarfuehrer. p. 57 f.

(١٦) راجع: The Brooklyn Mus, Quarterly, Vol. 19 (1932) Nr. 4. comp. p. 150.

(١٧) راجع: Ed. Meyer, Gesch, Alt. 2 Il, I p. 137; Junker, Tell el Yahudiye Vasen, 123, J.E.A., Vol. 6 p. 89; 7, p. 80 ff; Weber in Knudtzon, Die El Amama-Tafeln. p. 1100 f; 1154 f.

(١٨) جاء ذكر قوم «كوشو» في متون اللعنة التي نشرها «بوزنر» خاصة بعهد الدولة الوسطى مرتين وهم قوم أسيويون. راجع Posner, Princes et pays etc, p. 88.

(١٩) راجع: Save, Ibid, p. 234.

(٢٠) راجع: Evans, The Palace of Minos II, p. 756 f.

(٢١) راجع: Pap. Anastasi I, 17, 4. ff; (Gardiner, Eg. Hieratie Texte, I, 58 وكذلك راجع الأدب المصري القديم الجزء الأول ص ٣٨٨.

(٢٢) راجع: Wresz, Atlas, II, 128, 135, 185.

(٢٣) راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٥٣٧ و٦٠٥.

(٢٤) راجع: Bissing Bruckmann, Denkmaler, Text Zu. Taf. 33 Wresz. Atlas II, 184 a: Sphins 3, p. 129 ff.

(٢٥) راجع: Mem. Miss., Fr., 5, fig. 7

(٢٦) راجع: Holscher, Medinet Habu, PI. 19 (Morgenland 24), Wresz, Atlas II, 3; Carter, The Tomb of Tut Ankh Amon I, P1 70; A.S. 4, 41; and Pl. 6; J.E.A. 4, 22, PI. 20, 2; (Ancient Egypt 1921), p. 13 and Pl. 1.

(٢٧) راجع: Wilson, J.E.A., 17, 211 ff.

(٢٨) راجع: Gardiner, Late Eg. Misc, p. 85, PSBA, 37, p. 121.

(٢٩) راجع مصر القديمة الجزء الثامنة من ص ٥٧٧ إلخ.

(٣٠) راجع: Kees, Kulturgesch, p. 260 and Helck, Der Einfluss etc, p. 9. amm. I.

(٣١) راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٥٨٤ والمتن الخاص بذلك J.E.A. Vol, 26, p. 33 ff.

(٣٢) راجع: A. Z., 43, 27 Pap. A, 12.

(٣٣) راجع: Petrie, Qurneh p, 6 ff and Pl. 22 ff comp. Junker Toscke, p. 56, 59 Anm 3, 77; Kerma II, 232.

(٣٤) راجع: Kerma II, P. 301 ff.

(٣٥) راجع: Kerma II, 232 and 236 ff and Carnarvon-Carter, Five years Explorations at Thebes Pl. 68, 69; Sedment I, pl. XV 18 etc.

(٣٦) راجع: Junker, Toacke. p 77.

(٣٧) راجع: Save, P. 234.

(٣٨) راجع: Kees, Herihor, p. 8.

(٣٩) راجع: Daressy. Fouilles de la Valleé des Rois 1898-1899 = Cat Gen, Mus (1902) p. 60.

(٤٠) راجع: Kerma, II, 19.

(٤١) راجع: Aniba, I, p. 45.

(٤٢) راجع: Daressy, Ibid, p. 54.

(٤٣) والظاهر أن الرأي السائد كان عدم استخدام صغار النوبيين في الوظائف الكبيرة بل كانوا بقدر المستطاع يُبْعَدُونَ من مثل هذه الوظائف ولا أدل على ذلك من الخطاب الذي أرسله «أمنحتب الثاني» إلى ابن الملك حاكم كوش المسمى «وسرساتت»

يحذره فيه من إسناد وظائف كبيرة إلى صغار النوبيين إلا عند الضرورة. راجع: .J.N.E.S., XIV, I, p. 25

(٤٤) راجع: مصر القديمة الجزء الرابع ص ٣٩٧.

(٤٥) راجع: .Rec. Trav., 39, 700

(٤٦) راجع: .Mitt, D. Inst., 6, 23

(٤٧) راجع: .Aniba, II, p. 241

(٤٨) راجع: .J.E.A., Vol, 14. p. 68 Note 2

الفصل التاسع عشر

علاقات بلاد النوبة بسياسة مصر الداخلية

لا شك في أن المنازعات السياسية الداخلية في مصر في عهد الدولة الحديثة كانت قائمة على قدم وساق منذ قام الخلاف على تولية الملك بعد «تحتمس الأول» وبخاصة أنه قد حدث في تلك الفترة أن الوارثة الشرعية لعرش البلاد كانت «حتشبسوت» ابنته، وقد كان لها على ما يظهر حزب يشايعها في البلاد وآخر يناهضها، غير أن الوثائق التاريخية لم تدلنا قط على أن أهل السودان كانوا يشايعون حزبًا دون آخر، كما لم نجد في مصر أن حزبًا كان يتطلع إلى بلاد السودان بما فيها من خيرات وما تحوي من قوة حربية ليضمها إلى جانبه. والواقع أن ظاهرة الأحزاب في السودان لم تبرز في تلك الفترة كما وجدناها في الإمبراطورية الرومانية في عهدها المتأخر في الأقاليم التي كانت تحت سيطرتها، فقد كان هناك حزب القيصر والحزب المعادي للقيصر. وتدل شواهد الأحوال على أن هذا الاتجاه قد ظهر في مصر في عهد الرعامسة المتأخر عندما وجدنا أن نائب الفرعون كان شبه حر وأنه كان ينحاز بقوته إلى الحزب الذي يميل إليه.[1]

والواقع أنه في عهد الأسرة الثامنة عشرة لم تكن توجد لدينا وثائق تبرهن على النظرية القائلة إن بلاد النوبة قد لعبت دورًا هامًّا بوصفها عاملًا قويًّا في سياسة البلاد الداخلية، وعلى ذلك فإن نظرية الأستاذ «زيته» التي منها نفهم أن «حتشبسوت» قد طلبت المساعدة للوصول إلى مطامعها السياسية في عهد زوجها «تحتمس الثاني» من أمراء بلاد النوبة يجب غض النظر عنها.[2] ومن جهة أخرى يجوز أن رحلة «حور محب» في بلاد النوبة قبل توليته عرش الملك كان لها علاقة بالسياسة الداخلية، فمن الجائز أن الشجار الغامض الذي قام بين «حور محب» الذي كان القائد الأعلى للجيش والوصي على العرش في عهد «توت عنخ آمون» وبين مناهضة «آي» الذي كان مسيطرًا على السلطة في «طيبة»، قد جعل الأول يفكر في رحلة إلى بلاد النوبة ليضم إلى جانبه كبار موظفي

الدولة حتى إذا جاء الوقت المناسب ضرب ضربته وقفز إلى عرش الملك. ومن ثَمَّ نجد أن «حور محب» عندما تولى عرش الملك قد عمل على توطيد مكانة البلاد السياسية من جديد وقضى على كل المفاسد التي كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها، وكانت رحلته إلى بلاد النوبة بعد توليته العرش لنفس الغرض، كما نقرأ ذلك في منشور إصلاحه العظيم. وقد كان من أهم ما تصبو إليه نفسه أكثر من أي ملك آخر أن تكون الأحوال في بلاد النوبة هادئة وأن يكون الموظفون هناك على ولاء للجالس على العرش، وعلى ذلك لا يكون هناك مجال للحزب المعارض ليكون له قدم راسخة، ومن ثَمَّ لا يكون في بلاد النوبة أية حروب تطعنه من الخلف وتعوق سير الإصلاح الذي كان يقوم به في مصر.

أما ثاني عهد نجد فيه شجارًا سياسيًّا داخليًّا عظيمًا في مصر فقد كان في نهاية الأسرة التاسعة عشرة، إذ كان قد خلف الفرعون «مرنبتاح» سلسلة من الملوك الذين اغتصبوا عرش البلاد وهؤلاء لا يزال لدينا بعض الشك في ترتيب توليهم الملك،[٣] وعلى أية حال ظهرت بلاد النوبة في هذا العهد بوصفها عاملًا قويًّا في سياسة البلاد الداخلية وما حيك فيها من دسائس. فنجد أن الملك «رعمسيس سبتاح» قد قام برحلة إلى بلاد النوبة في السنة الأولى من حكمه لينصب نائب الملك «سيتي» في وظيفته «نائب كوش».[٤] ولا نعلم إلى أي حد سار هذا الملك في رحلته في بلاد النوبة، غير أن شواهد الأحوال تدل على أنه لم يذهب إلى أكثر من «بهين». هذا وقد أرسل الملك في نفس السنة رسوله «نفر حور» بالهدايا[٥] وهاك النقش:

> «السنة الأولى من حكم الإله الطيب «رعمسيس سبتاح» مُعْطَى الحياة. الثناء لحضرتك ياحور سيد «بهين» ليته يمنح الحياة والسعادة والصحة، والقدرة على الخدمة والحظوة والحب روح رسول الملك في كل الأراضي الأجنبية، وكاهن إله القمر (تحوت) الكاتب (المسمى) «نفر حور» بن «نفر حور» كاتب سجلات الفرعون (له الحياة والفلاح والصحة) عندما حضر بمكافآت لموظفي النوبة وليقود ابن الملك صاحب «كوش» في رحلته الأولى». هذا ولدينا نقش من السنة الثالثة من حكم هذا الفرعون يشير إلى ضرائب «كوش»[٦] تركه هناك رئيس الرماة وهو من الأهمية بمكان وهاك النقش «حامل المروحة على يمين الملك، وكاتب الفرعون والمشرف على المالية، وكاتب ديوان الملك لرسائل الفرعون ومدير القصر في «برآمون» «بياي» لقد أتى ليتسلم جزية أرض «كوش»». وهذا القائد كان له أهمية عظيمة كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل.

ونفهم من مضمون النقش السالف الذكر أن الملك قد أرسل رجلًا ممن يثق بهم ليحمل له الضرائب من كوش التي كان يوردها في العادة نائب الملك لعاصمة الملك. ويرجع السبب في ذلك أن الملك كان في ذلك الوقت المضطرب لا يتسلم الضرائب بصورة منتظمة، ولذلك أرسل أحد خدامه المخلصين وهو رجل حربي ليحمل له الجزية خوفًا من أن يضع بعضُ الذين لم يكونوا على ولاء له العراقيلَ في سبيل إحضارها. ولا نزاع في أن النقشين الأخيرين الخاصين بإحضار الضرائب بوساطة مبعوثين من الملك يكشفان عن حالة عدم الاستقرار في بلاد النوبة.

وإذا سلمنا مع الأثري «إمري» أنه كان يوجد ملك ثالث باسم «سيتي» قد اعتلى العرش بعد «مرنبتاح سبتاح» فإنه من المحتمل أن يكون موحدًا «بسيتي» الذي كان نائبًا على كوش، وهو الذي خلف «رعمسيس سبتاح» على العرش.[٧] والواقع أن الترتيب الذي اقترحه «إمري» يحمل بدون شك كثيرًا من المتناقضات في المادة التي لدينا، وذلك بوجود ملك يُدْعَى «سيتي» قبل «سبتاح»[٨] وآخر بنفس الاسم بعده. ومع ذلك يبقى وجه الغرابة في أن ملكين باسم «سيتي» لم يفصل حكمهما إلا بمدة قليلة، وأن نائب الملك «حوري» الذي خلف «سيتي» في ولاية كوش كان فعلًا في السنة السادسة من حكم الملك «مرنبتاح سبتاح» يشغل هذه الوظيفة وعلى ذلك يكون «سيتي» قد ترك وظيفته بوصفه نائبًا للملك في زمن معلوم قبل اعتلاء العرش. وعلى الرغم من أن الموضوع لا يزال في حاجة إلى إيضاح فإنه مع ذلك من الممكن أن يكون هناك فعلًا نائب ملك من بلاد النوبة قد اعتلى العرش وهذا ما يتفق مع الأهمية السياسية المتزايدة لبلاد النوبة، وهذا ما شاهدناه في العهد السابق المباشر، ومن جهة أخرى يجوز أن من قال عنه «إمري» إنه «سيتي الثالث» يمكن أن يكون موحدًا «بسيتي الثاني» الذي يرجح أنه قد عاد إلى الملك ثانية بعد ترك الملك للفرعون «رعمسيس سبتاح» مدة ثم أبعده ثانية، وبعد ذلك تزوج من أرملة مرنبتاح سبتاح «توسرت» في مدة توليه عرش الملك للمرة الثانية.

وعلى حسب كل ذلك لم يكن من الأمور المفاجئة أن تقوم مؤامرة على «رعمسيس الثالث» وأن الحزب المعارض للفرعون قد وجد سندًا في بلاد النوبة للوصول إلى غرضه، وقد شرحنا ظروف هذه المؤامرة شرحًا مستفيضًا في الجزء السابع من تاريخ مصر القديمة.[٩] والدور الذي لعبته بلاد النوبة هو أن قائد الرماة في بلاد النوبة كان له أخت في حريم «رعمسيس الثالث» وكانت في جانب المتآمرين على الملك وفي المحاكمة التي أمر بها «رعمسيس الرابع» بعد موت والده وهي التي تصف لنا المتآمرين نجد أن قائد الرماة

الْمُسَمَّى «بين مواست» (ومعنى الاسم «الخبيث في طيبة»)، (ولا نعلم إذا كان هذا القائد هو نفس القائد المسمى «باكنآمون» المعروف في بهين أم لا)، ويلاحظ هنا أن الاسم الأول لهذا القائد لم يكن إلا اسمًا مستعارًا نودي به لسوء فعلته. والظاهر أن أخت هذا القائد كان بينها وبين رئيس مكتب «باكنآمون» صلة فأرسلت معه خطابًا لأخيها تحضه فيه على الثورة وبث العصيان في بلاد النوبة على الملك. وقد لَبَّى الأخ هذا النداء ولكنه قُبِضَ عليه وقُدِّمَ للمحاكمة ووُجِدَ مذنبًا، ولا نزاع في أن انضمام قائد الجيش النوبي للمؤامرة معناه خروج كل بلاد النوبة على حاكم البلاد الشرعي، وقد كان خطر ذلك أعظم بكثير مما لو كان المتآمرون متصلين بقائد الجنود في مصر، وذلك لأنه لا يمكن أن تقوم حركة دون أن يَكشف أمرها، وهذا على عكس ما كان يحدث بعيدًا في إقليم بلاد النوبة حيث يمكن الإنسان أن يراقب كل الأخبار الذاهبة إلى مصر، وعلى ذلك فإن من الممكن نشر أي مشروع من وراء ظهر الحكومة بكل هدوء وسكينة دون علم بما يجري في بلاد كوش.

ولم يكن نائب بلاد كوش من جهة أخرى ضمن المتهمين، ونحن نعلم أن نائب الملك الذي كان في عهد «رعمسيس الثالث» هو «حوري الثاني» وقد ظل يشغل هذه الوظيفة في عهد «رعمسيس الرابع». وهذا يدل على أن هذا النائب قد ظل مواليًا للحاكم الشرعي وأن المتآمرين لم يصيبوا نجاحًا كبيرًا، ولا أدل على ذلك من أن «رعمسيس الرابع» قد أفلح في تنصيب نفسه ملكًا على البلاد.

وفي عهد آخر ملك في الأسرة العشرين تمزقت مصر شيعًا، وقد تحدثنا عن ذلك بإسهاب في الجزء الثامن.[١٠]

وخلاصة القول في ذلك أنه قامت ثورة ما بين السنة الثانية عشرة والخامسة عشرة من عهد «رعمسيس الحادي عشر» في مصر وتولى في خلالها «أمنحتب» رياسة كهنة «آمون» في مدينة «طيبة» وقد اشترك فيها الأجانب واللوبيون بخاصة وقد كان نائب الملك «بانحسي» على اتصال وثيق مع الوجه القبلي، وتدل شواهد الأحوال على أنه حارب أسرة اللوبيين التي كانت وقتئذٍ في دور التكوين، وقد وقعت الحرب في جهة «كينوبوليس–هارتاري» التي تقع على مقبرة من «هيراكليوبوليس» (إهناسية المدنية) وكان «بانحسي» نائب الملك في كوش والقائد الأعلى للجيش هو المعيد حقًّا للنظام في «طيبة» على أنه بعد انتهاء هذه الثورة لم يعد «أمنحتب» إلى وظيفته، إذ الظاهر أنه كان قد مات عندما رجع الأمن إلى نصابه، ولكن الذي تَوَلَّى مكانه وخلفه فيها «حريحور». والظاهر أن الملك قد أفاد من هذه الثورة إذ أبعد رئيس الكهنة صاحب السلطان العظيم

وبذلك تغلب نائب الملك لكوش وشيعته عليه، أما «حريحور» فقد كان بمثابة أحد الضباط التابعين لنائب الملك «بانحسي» يقود جيش الوجه القبلي فكان في وظيفته هذه يلعب نفس الدور الذي كان يلعبه يومًا ما «رعمسيس الأول» قبل تولي الحكم تحت قيادة «حور محب». والواقع الذي لا مراء فيه أن «حريحور» لم يكن يشغل وظيفة كاهن أكبر في عهد هذا الملك بل إنه ارتفع إلى هذه الوظيفة السامية في ظل حماية الجنود النوبيين التابعين لنائب الملك «بانحسي». وقد ظل نائب الملك في وظيفته هذه بعد نهاية هذه الحروب وعاد إلى بلاد النوبة مقر عمله. وبعد العام السابع عشر من عهد الملك «رعمسيس الحادي عشر» حل «حريحور» محل «بانحسي» في وظيفة نائب الملك في كوش وفي الوقت نفسه قبض على مقاليد وظيفة الوزير في «طيبة» وبذلك أصبح بمثابة الحاكم الحقيقي للوجه القبلي وبلاد النوبة. وقد أصبح «حريحور» بوصفة الكاهن الأكبر «لآمون» المسيطر على كل ثروة معابد الإله «آمون» كما كان بوصفه وزيرًا يسيطر على كل إدارة الوجه القبلي، ومن جهة أخرى فإنه بوصفه نائب الملك في كوش كان في مقدوره أن يحمي نفسه من أي ثورة تقوم عليه بمساعدة الجنود النوبيين. ومما يلفت النظر أنه أبقى في يده وظيفة نائب الملك ونزل لفرد آخر يُدْعَى «نب ماعت رع نخت» عن وظيفة وزير بعد السنة التاسعة عشرة من حكم «رعمسيس الحادي عشر». وعندما تولى «حريحور» عرش الملك أي بعد وفاة الفرعون «رعمسيس الحادي عشر» نزل عن وظائفه لابنه «بيعنخي» أو بعبارة أخرى ورَّثها إياه.[١١]

وبعد نهاية الدولة الحديثة كانت الأحوال السياسية في الجنوب في ظلمة حالكة وكذلك نجد نفس الغموض في عصر ما قبل ظهور الأسرة الكوشية التي برزت على مسرح التاريخ في الربع الأول من القرن الثامن قبل الميلاد. ولكن عندما زحف «بيعنخي» الذي يعد أول حاكم عظيم من الجنوب واستولى على مصر التي كانت قوتها السياسية والثقافية قد انحطت فإنه قد جعل من نفسه بطل مصر الحقيقي الذي عمل على نشر معتقداتها الحقيقية، وبذلك كان ينفذ خطة رسمها لنفسه وهي نفس الخطة التي سارت فيها نهضة عصر الرعامسة المتأخر حيث نجد بلاد النوبة الممصرة قد ظهرت في سياسة مصر الداخلية بوصفها عاملًا قويًّا بارزًا.

ومنذ تولت الأسرة الكوشية (أو الأثيوبية) زمام الأمور في مصر دخلت مصر في طور جديد من أطوار حياتها السياسية إذا اختفى فراعنتها وراء الستار فترة من الزمن برز خلالها سلالة ملوك كوش ولعبوا دورًا في إنعاش بلادهم وتوحيد القطرين الشقيقين تحت لواء واحد يحمله ملوك «نباتا» في الجنوب.

هوامش

(١) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٥٤١.

(٢) راجع مصر القديمة الجزء الرابع ص ٢٩٥.

(٣) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص٢٠٣–٢٠٦.

(٤) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٢٤٩.

(٥) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٢٥٠ وكذلك L.D., III, 202 b.

(٦) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٥٥١ Randall Maciver, Buhen, p. 25 Pl. II.

(٧) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٢٠٤ عن الآراء المختلفة في ترتيب ملوك أواخر الأسرة التاسعة عشرة.

(٨) راجع ما كتبه السير ألن جاردنر عن قبر الملكة توسرت J.E.A., Vol. 40 p. 40 ff.

(٩) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٥٤٠.

(١٠) راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٥٢٣–٥٣٣ و٦٠٢–٦١٨.

(١١) راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٦٦.

الفصل العشرون

الفتح السوداني لمصر

نظرة عامة في تاريخ الكشوف الأثرية عن أصل ملوك الأسرة الخامسة والعشرين

تحدَّثنا فيما سبق عن الأطوار التي مرت على العلاقات بين مصر وبلاد النوبة منذ أقدم العهود حتى دخل أهل السودان فاتحين مصر في القرن الثامن قبل الميلاد. وكان كل ما نعرفه عن الأسرة الفاتحة بعض أسماء ملوكها دون أن نعرف شيئًا عن أصلهم أو موقع ملكهم في بلاد كوش، وقد بقيت الحال كذلك إلى أن قامت الحفائر العلمية في بداية هذا القرن على يد الأثري العظيم الأستاذ «ريزنر» فأماط اللثام عن بعض مُعَمَّيَاتِ هذا الموضوع وقد قَفَاهُ بعض العلماء في البحث والتنقيب فأضافوا بعض معلومات جديدة هامة عن أصل ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية.

وقد كان أول عمل وصل إليه الأستاذ «ريزنر» هو الكشف عن ست جبانات ملكية تقع كلها في محيطين عظيمين وهما محيط مدينة «نباتا» ومحيط مدينة «مروي» وتقعان على النيل، الأولى أقيمت أسفل الشلال الرابع والثانية في أعلى الشلال الخامس وينسب لكل منهما ثلاث جبانات ويمكن تحديدها بالنسبة للأخيرة.

وكانت مدينة «نباتا» القديمة عاصمة بلاد كوش في خلال عهد ثقافتها العتيقة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمعبد «آمون» العظيم الذي يقع عند سفح حافة صخرة بارزة من جبل «برقل» تعرف «بالجبل المقدس» في المتون المصرية القديمة «زووعب»[1] ويقع هذا الجبل بالقرب من بلدة «كريمة» القريبة من الشلال الرابع. على أن تحديد الموقع الإداري لبلدة «نباتا» لم يعرف حتى الآن على وجه التأكيد، غير أنه لدينا براهين تشير

إلي أنه كان يقع في ربوع مدينة «مروي» أو بالقرب منها (ويجب ألا نخلط هنا بين مدينة «مروي» هذه وسميتها الواقعة علي مسافة أربعة أميال في انحدار النيل أسفل جبل «برقل» وتقع علي الشاطئ الشرقي للنهر وتُدْعَى الآن «مروي الجديدة»).

والجبانات الملكية الثلاث الواقعة في منطقة «نباتا»[2] وهي:

(١) جبانة «الكورو» وتقع على مسافة ميل غربي النيل، وعلى مسافة عشرة أميال شمالي جبل «برقل».

(٢) وجبانة «نوري» وتقع على مسافة ميل جنوب النيل وعلى مسافة ستة أميال جنوبي جبل «برقل».

(٣) و«برقل» حيث توجد مجموعتان صغيرتان من الأهرام وتقع بالقرب من جبل «برقل» في الجنوب والغرب.

وكانت مدينة «مروي القديمة» تعد المركز الإداري لبلاد كوش في عهد ثقافتنا المتأخر وتُسَمَّى الثقافة المروية وهي تقع على الشاطئ الشرقي للنيل على خط عرض ١٥ ً٥٥ َ١٦° شمالًا وخط طول ٣٠ ً٤٢ َ٣٣° شرقًا وعلى مسافة ٢١٣ كيلو مترا بالسكة الحديد شمال الخرطوم، وتشغل الآن قرية البجراوية جزءًا من المدينة القديمة. وأهم أثر فيها الآن معبد «آمون».[3] هذا وقد قامت بعثة جامعة «هارفرد» بحفر ثلاث جبانات في «مروي» وتقع كلها شرقي المدينة.

وأهم هذه الجبانات الواقعة في محيط «نباتا» هي جبانة «الكورو» التي كشف فيها عن أهرام أربعة ملوك من فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين، وقد كان لهذا الكشف دَوِيٌّ عظيم في الأوساط الأثرية، إذ لم يكن من الْمُتَوَقَّعِ أن يُعْثَرَ على قبور ملوك هذه الأسرة في تلك المنطقة وبخاصة بعد أن كشف «ريزنر» في عام ١٩١٧ عن مقبرة الملك «تهرقا» في جبانة «نوري» الواقعة على المشارف الجنوبية لمدينة «نباتا».

وهذه الأهرام الأربعة للملوك الآتين: «بيعنخي» و«شبكا» و«شبتاكا» ثم «تانوتآمون». وبهذا الكشف الجديد أصبح معروفًا لدينا مقابر أربعة من الملوك الذين حكموا مصر وكوش. وهؤلاء هم المعروفون بملوك الأسرة الخامسة والعشرين، هذا إلى الكشف عن قبر جدهم العظيم «كشتا» فاتح مصر. وكان المفروض قبل هذا الكشف أن كلًّا من الملكين «شبكا» و«شبتاكا» قد عاش في مصر ودُفِنَ فيها، ولكن قد أصبح من الواضح الآن أن موطن الأسرة الخامسة والعشرين القوية السلطان هو بلدة «الكورو» التي كانت

تُعَدُّ مقرهم الرئيسي. والواقع أنه في هذا المكان وطدت الأسرة أركان حكمها في كوش قبل عهد «بيعنخي» بأجيال، ومن هذه البلدة النائية أخذ ملوكها يفتحون ويحكمون مملكتهم العظيمة التي امتدت شهرتها إلى أنحاء العالم القديم المتمدين فقد كان يقوم من «الكورو» السعاة رجال البريد حاملين الرسائل باسم ملك كوش إلى عواصم غربي آسيا، والواقع أنه عُثِرَ في السجلات الملكية في «نينوه» عاصمة «آشور» على طابع خاتم من الطين باسم الملك «شبكا» منذ عدة سنين؛ ومن المحتمل أن هذا الطابع كان جزءًا من رسالة الملك «شبكا» إلى عاهل «آشور» «سرجون الثاني»، كما أنه يحتمل أن الرسالة كانت ردًّا على خطاب قد أُحْضِرَ إلى «نباتا»، ومن الجائز أنه لا يزال مدفونًا حتى الآن في إحدى المباني الخربة من زمن العاصمة القديمة، وتنتظر معول الحفار لإماطة اللثام عنها. ومن الغريب أنه قبل الكشف عن هذه المقابر الملكية في «الكورو» كان علماء الآثار يقولون بوجود أربعة ملوك باسم «بيعنخي» أو أكثر كما قالوا بوجود ملكين باسم «كشتا» وكلهم حكموا مصر. وهذا القول الذي لم يكن يرتكز على أساس أثري قد وُضِعَ له حَدٌّ بعد الكشف عن مقابر «الكورو»؛ فقد دلت الآثار على أنه لم يوجد إلا ملك واحد باسم «كشتا» وآخر باسم «بيعنخي» على أغلب الظن. هذا وقد أضافت لنا الكشوف بعض التقدم بإماطة اللثام عن تاريخ العصر الذي يقع بين آخر نائب ملك لمصر في كوش وحكم الملك «كشتا».

والخطوة الرئيسية في الموضوع الذي نتحدث عنه هي الكشف عن الأصل اللوبي لأول أسرة كوشية ملكية. ولما كانت النتائج التي وصلنا إليها قد اسْتُنْبِطَتْ من الآثار التي كشفت عنها أعمال الحفر في هذه الجهة فإنه من الضروريات الهامة أن نفسر سلسلة الحقائق التي أسفرت عنها الحفائر.

الجبانة الملكية في «الكورو»:

في الواقع أن جبانة «الكورو» هي أقدم الجبانات الكوشية الملكية كما أنها أقلها حفظًا من جهة المباني التي تعلو قبورها وذلك لأن أحجارها قد نُهِبَتْ بصورة بشعة واتُّخِذَتْ مادة لإقامة المباني الحديثة للسكان المجاورين لهذه الجبانة لدرجة أنهم في كثير من الأحيان لم يتركوا بعض الأحجار لتدل على المباني العلوية للقبر، هذا إلى أنه لم تترك حجرة دفن واحدة سليمة، ومع ذلك فإن الأهمية التاريخية لهذه الجبانة عظيمة جدًّا وما بقي فيها من مواد أثرية كان عظيمًا. والواقع أن حفائر «الكورو» قد وضعت الأساس لفهم تطور

مباني القبر الملكي النباتي، هذا بالإضافة إلى الأشياء المصنوعة التي وُضِعَتْ مع الْمُتَوَفَّى فإنها قد سهلت موضوع التاريخ في الجبانات الأخرى التي من العصر الكوشي.

وإن أهم ما يلفت النظر في جبانة «الكورو» أنها تقدم لنا العناصر الهامة التي نجد مثلها في جبانة «نوري»، وأعنى بذلك أن المقابر فيها كانت من الطراز الهرمي الذي له طريق ذات سلم، واتجاه المبني كان نحو الغرب (على الشاطئ الأيسر للنيل)، ثم فصل مقابر الملكات عن مقابر الملوك. وعلى الرغم من هذا التوافق فإنه توجد فروق عظيمة بين الجبانتين. فالجبانة التي في «نوري» كان قد أسسها الملك «تهرقا» ويقع قبره الهرمي الشكل في أجمل موقع فيها، إذ يقع على أعلى جزء من الهضبة التي فهيا الجبانة وهي على شكل حدوة في الجهة الشرقية. أما مقابر الملوك الذين خلفوه على عرش كوش فقد أقيمت على طول قمة الهضبة حتى نهاية الجزء الغربي منها حيث أقيم قبر الملك «نستاسن» من أواخر ملوك هذه الأسرة في أخفض وأردأ مكان بالنسبة للمقابر الأخرى.

أما الملكات فقد دُفِنَّ على كل من جانبي هرم «تهرقا» وخلفه. أما في «الكورو» فإننا نجد على أية حالة أن الرقعة الرئيسية التي أقيمت عليها مقابر الملوك الأربعة تقع على هضبة من الحجر الرملي بين واديين في حين أن المساحات التي تقع في الشمال والجنوب من هذين الواديين قد أقيم عليها مقابر الملكات. ويُلَاحَظُ أنه في «نوري» كان الموقع الرئيسي يحتله هرم الملك «تهرقا» مؤسس الجبانة، ولكن في «الكورو» نلحظ أن الموقع الرئيسي أو بعبارة أخرى موقع قبر المؤسس للجبانة كان يحتله قبر خاص على هيئة تل. وبعد ذلك نجد الخمسة عشر موقعًا التي تلي هذا القبر قد شغلت بسلسلة مقابر كان حجمها يزداد على التوالي كما كانت مبانيها تمتاز بجمالها وإتقانها على التوالي أيضًا. ثم يلي ذلك المقابر الملكية الأربع وقد أقيمت في أحقر أربعة مواضع في الجبانة، ولا غرابة في ذلك إذ كانت آخر مقابر في جبانة استعملت باستمرار منذ بضعة أجيال قبل موت «بيعنخي» ولذلك لم يبقَ منها غير مشغول إلا الأماكن الحقيرة.

وتقع رقعة الجبانة الرئيسية في «الكورو» بين واديين وتأخذ في الارتفاع شيئًا فشيئًا نحو الصحراء حتى يبلغ علوها حوالي ثمانين ومئتي متر. وفي النهاية الشرقية من هذه الجبانة جبل صغير أقيم في قمته قبر على هيئة تل مستدير مُؤَلَّفٌ من أحجار صغيرة خشنة وحجرة دفن مغطاة ببناء على شكل تل وهي عبارة عن بئر مستطيلة مساحتها ثلاثة أمتار وعشرون سنتيمترًا وعرضها متر وسبعون سنتيمترًا وعمقها متران وخمسون سنتيمترًا ويتجه هذا القبر من الشمال إلى الجنوب وله سُلَّمٌ على الجانب الغربي وحجرة

الدفن في الجهة الشرقية في قعر البئر. وهذه الحجرة قد سُدَّتْ بإقامة جدار خشن البناء من اللبنات وقد رُمِزَ لهذه المقبرة «بالكورو» رقم واحد.

وبالقياس للمقبرة رقم ٢ في «الكورو» نعلم أن الْمُتَوَفَّى كان مضطجعا على جانبه الأيمن بركبتيه المطويتين بعض الشيء ورأسه نحو الشمال ووجهه متجه نحو الغرب. وتوجد حول هذا القبر في منخفض من سفح الجبل ثلاثة مدافن متشابهة. وأسفل من ذلك من جهة الغرب أقيم قبر آخر على هيئة تل كذلك، غير أن منظره الخارجي أحسن من المقابر السابقة وهو الذي رمز له «بالكورو» رقم ١٩. وهذا القبر يشبه المقابر التي في المستوى الأعلى منه في كل أسسه، ولكنه يمتاز بأنه قد كُسِيَ بأحجار رملية محكمة البناء أقيمت حول التل المؤلَّف من أحجار صغيرة وقد زيد فيه بعض إضافات تخص بالذكر منها مزارًا أو مقصورة في الجهة الغربية وسورًا من الحجر الرملي على هيئة حدوة الحصان وهذه تعد ظاهرة جديدة في هذه المقابر. هذا وقد أقيم على صخرة خارجة من الهضبة في الجنوب من «الكورو» رقم ١٩ مقبرة أخرى مكسوَّة بالأحجار (وهي «الكورو» رقم ٦) على غرار المقبرة رقم ١٩، (والمقبرة رقم ٦ هي للملكة «أرتي» ابنة «بيعنخي» كما سنرى بعد).

هذا وقد أقيم أمام المقبرة رقم ١٩ صف من المصاطب عددها ثمان وتخترق الهضبة من الوادي الجنوبي إلى الوادي الشمالي وتحمل على حسب ترقيم الأستاذ «ريزنر» الأرقام التالية: ١٤، ١٣، ١١، ١٠، ٩، ٢٣، ٨، ٧. ويوجد أمام المسافة التي بين المقبرتين ٨، ٧ مصطبة تاسعة وهي التي تحمل رقم «الكورو» ٢٠ وهي صغيرة جدًّا، وبدهي أنها تابعة «للكورو» رقم ٨. وأقدم هذه المصاطب هما «الكورو» رقمي ١٤ و١٣ وقد أُقِيمَتَا في الجنوب والشمال من مدخل السور الذي على شكل الحدوة الخاص «بالكورو» رقم ١٩. وذلك بطرية أدت إلى ترك مكان خالٍ للدخول من جهة الغرب. وكان الجدار الْمُسَوَّرُ للمقبرة رقم ١٣ قد أقيم مرتكزًا على الجدار الْمُسَوَّرِ للمقبرة رقم ١٩ على هيئة تل وعلى ذلك أصبح من الواضح أن كلًّا من المصطبتين ١٤، ١٣ أحدث عهدًا من المصطبة رقم ١٩ بل بُنِيَتَا عندما كانت القربان التي كانت تُقَدَّمُ لصاحب المقبرة رقم ١٩ لا تزال قائمة.

ولدينا برهان آخر عن الصلة الوثيقة التي بين هاتين المصطبتين والمقابر التلية الشكل التي أقدم منها وهو أن المقبرة رقم ١٤ يظهر أنها قد وُضِعَ تصميمها على أن تكون مقبرة تلية ثم حُوِّلَتْ فيما بعد إلى مصطبة ويمكن رؤية التل المؤلف من أحجار صغيرة في داخل مبنى المصطبة. وإذا استثنينا هذا نجد أن كل المصاطب حتى «الكورو»

رقم ٩ كانت من طراز واحد وأن حُفَرَ الدفن كانت بالضبط مثل حفر دفن المقابر التَّلِّيَّةِ وبنفس اتجاهها. أما المبنى الذي كان مقامًا فوق حجرة الدفن فهو عبارة عن قطعة مربعة جوانبها عمودية ويبلغ ارتفاعها حوالي متر وعشرين سنتيمترًا أو أكثر، غير أن شكل قمة المبنى لم يمكن التأكد من هيئته. ويوجد في الجهة الغربية مقصورة أو مزار مبني، وحول الكل سور مستطيل قمته مستديرة. هذا ونجد من حيث الوضع أن المصطبتين التاليتين للمقبرة التاسعة وهما ٢٣، ٢٠ على الرغم من أنهما مثل المصاطب القديمة في كل صفاتها إلا أن لكل منهما حفرة دفن بسيطة تتجه من الشمال إلى الجنوب. والمصاطب الأخيرة كانت بداهة هي ٨ و٧ و٢٠ بهذا الترتيب. ويلاحظ أن المصطبتين الكبيرتين ٨،[٤] ٧ مشابهتان في تصميمهما لمصاطب الدولة القديمة المصرية ولهما حفرة دفن مفتوحة مثل المقبرتين رقم ٢٣، ٢١ غير أنهما تختلفان في نقطتين: أُولاهما: كانت المصطبة مبنية من أحجار صغيرة والمقصورة والجدار المسور شُيِّدَا من جديد بأحجار ضخمة حسب الطراز الذي بني به قبر الملك «شبتاكا» وثانيتهما: كانت حجرة الدفن تتجه من الشرق إلى الغرب وهو الاتجاه الذي نجده في مقابر ملوك كوش من هذا العهد وما بعده.

والمقابر التي تأتي بعد هذه من حيث الطراز ومن حيث الزمن مقابر الملكات التي من عهد الفرعون «بيعنخي» وقد أُرِّخَتْ بنقوش وآثار مادية وُجِدَتْ فيها. ويُلْحَظُ أنها ليست في نفس الرقعة الرئيسية التي أُقِيمَتْ فيها المقابر التي تحدثنا عنها، بل وجدنا واحدة منها في الرقعة الشمالية وهي المقبرة رقم ٢٢ كما وجدنا خمسًا في الرقعة الجنوبية (من رقم ٥١ إلى ٥٥) ويلفت النظر أن البناء العلوي الذي فوق هذه المقابر الست قد هُدم تمامًا، غير أن أماكن الدفن كانت أماكن الدفن في المقبرتين ٨، ٧ وقد ذكرنا هذه المقابر هنا لأن حفر الدفن كانت مسقفة بقبوة خارجة وعلى ذلك يمكن أن نستنبط أن حفر الدفن المفتوحة (وهي ٢٣، ٢٢، ٨، ٧) كانت مسقفة بنفس الطريقة.

هذا ونجد في الرقعة الرئيسية أن المقبرة التي تلي المصاطب هي مقبرة الملك «بيعنخي» وتقع على مسافة حوالي عشرة أمتار، أمام صف المصاطب في الجزء الأسفل الذي بين المقبرتين العاشرة والحادية عشرة وهي من نفس طراز المقابر التي لها حفرة وسقفها مُقَبَّبٌ خارج؛ غير أنه قد ظهر فيها نقطة جديدة حَتَّمَتْهَا الزيادة الكبيرة التي أضيفت في حجم المقبرة وعمقها، فقد بلغت مساحة حجرة الدفن ٥,٥٠ متر × ٣,٥ أمتار × 5,5 أمتار عمقًا في حين أن أكبر الحفر السابقة وهي «الكورو» رقم ٨ قد بلغت

مساحتها ٣٫٥٠ × ٢٫٥ × ٣ من الأمتار عمقًا، هذا وكانت الخارجة مؤلفة من أحجار أكبر حجمًا رُصَّتْ رصًّا متقنًا. أما في حالة حجرات الدفن في المقابر القديمة فكان لا بد أن الخارجة أُقِيمَتْ بعد الدفن؛ وذلك لأن حجرة الدفن لم يكن لها مدخل. ويلفت النظر في مقبرة «بيعنخي» أن عمق حجرة الدفن وحجم الأحجار التي بُنِيَتْ بها الخارجة قد جعلت المومية والقربان في خطر، ولكن لتقليل هذا الخطر عُمِلَ سلم خشن صغير قطع في الصخر من جهة الغرب يؤدي إلى النهاية الغربية من حفرة الدفن بوساطة باب مقطوع في الصخر. ومن ثَمَّ نفهم أنه لأسباب عملية محضة قد حُوِّلَتْ حجرة الدفن البسيطة إلى حجرة دفن لها سلم.

وكان قبر «بيعنخي» هو الأول من سلسلة طويلة من المقابر الملكية ذات السلالم التي أُقِيمَتْ في بلاد كوش.[٥]

ومما يُؤْسَفُ له أنه لا يمكننا الجزم مما تبقى إذا كان البناء العلوي الذي أقيم على حجرة الدفن قد اتخذ شكل مصطبة أو هرم مثل المقابر الملكية التي بُنِيَتْ بعد هذا القبر، وعلى أية حال فإن البناء العلوي المربع كان فوق السقف ذي الخارجة مباشرة في حين أن المزار الملاصق له في الجهة الغربية لا بد أن يكون قد بُنِيَ بعد الدفن على الردم الذي ملأ السلم وبذلك كان أساس المزار ضعيفًا جدًّا ولا بد أنه قد هبط بعد أول مطر غزير فسبب تداعيًا جزئيًّا في الجدران.

أما مقبرة الملك «شبكا» (KU. 15) فكانت مُقَامَةً على مسافة عشرين مترًا جنوب مقبرة «بيعنخي» وأمام المصطبة رقم ١٤ التي لم يُعْثَرْ على اسم صاحبها وهي في الواقع أقل المصاطب أهمية في هذا الصف ويحتمل أنها أقدمها.

وتدل مباني مقبرة الملك «شبكا» على تقدم محس عن مباني مقبرة «بيعنخي» ولكن تصميمها الأساسي واحد فنجد أن حجرة الدفن في مقبرة «شبكا» لم تظل بعد حفرة في صورة حجرة بل أصبحت حجرة منحوتة في الصخر الصلب ولها سقف مقطوع كذلك في الصخر مُقَبَّبٌ على غرار سقف «بيعنخي». هذا إلى أن السُّلَّمَ صار أجمل صنعًا بدرجة كبيرة وأكثر عمقًا وينزل حتى باب حجرة الدفن؛ وكذلك نجد أن نقطة الضعف في تأسيس المزار على الردم قد تُلُوفِيَتْ بطريقة كان لها أثر في تطور القبر الملكي في كوش في المستقبل؛ فلم يُتْرَكِ السلم مكشوفًا في كل امتداده حتى باب حجرة الدفن، بل نجد أن الدرجات الست الأخيرة كانت مقطوعة فيما يشبه النفق بحفرها في الصخر ولم يكن له عارضنا باب عند المدخل وقد أقيم على هذا النفق المزار وبذلك أصبح يرتكز على صخرة. أما البناء المربع الذي كان يقام على حجرة الدفن فقد اتخذ شكلًا هرميًّا يغطيها كلها.

أما المكان الذي يقع في شمالي مقبرة «بيعنخي» وهو الذي يقابل في موقعه هرم «شبكا» فكان موضعه مباشرة أمام المصطبة التي تُعَدُّ أحدث وأهم مصاطب الصف. ولا نعلم إذا كان الملك «شبتاكا» صاحب هذا القبر قد انتخب مكانه خلف المقبرة رقم ٨ (ويحتمل أنه قبر الملك «كشتا») احترامًا لهذه المصاطب أو بسبب رداءة نوع الحجر في هذا المكان، ويدل إعادة بناء المقبرة رقم ٨ على يد بنائي مقبرة «شبتاكا» على أنها كانت ذات أهمية عظيمة في نفس هذا الملك. ويدل بناء قبر «شبتاكا» على تقدُّم جديد في فن العمارة إذ نجد السلم ينتهي عند بداية الممر الذي حُوِّلَ إلى دهليز له سقف أفقي وسطح منبسط. وعند القمة ينزل السلم من الجنوب بمقدار تسع درجات قبل أن يتحول إلى الشرق بزاوية مستقيمة، وقد عمل ذلك لتلافي التعدي على الجانب الشرقي من سور المقبرة رقم ٨، هذا ويلفت النظر بصورة بارزة أن حجرة الدفن كان سقفها مقببًا وخارجًا عن سقف حجرة دفن «بيعنخي» ولكنها كانت أكبر مساحة إذ تبلغ مساحتها ٨ أمتار في أكثر من خمسة أمتار وما يقرب من ستة أمتار في العمق. ويظهر أن سبب هذا التغير كشف تشقق في أم الصخر مما جعل قطع سقفه مهددًا بالخطر.

ويأتي بعد ذلك في الترتيب التاريخي هرم «نوري الأول» وهو قبر «تهرقا» خلف «شبتاكا». و«تهرقا» هذا هو أحد أبناء «بيعنخي» كما سنرى بعد من أميرة تدعى«آبار» والظاهر أنها كانت ابنة الملك «كشتا»، ولا نعلم السبب الذي دعا «تهرقا» هذا إلى إقامة مقبرته في «نوري»، ومن الجائز أن السبب يرجع إلى خليط من الغرور الإنساني والأحقاد الأسرية، وقد يكون في ذلك مثله كمثل «زد فرع» أحد ملوك الأسرة الرابعة عندما بَنَى هرمه في «أبو رواش» بدلًا من من منطقة أهرام الجيزة،[٦] ولكن من الواضح من جهة أخرى أنه لم تكن في «الكورو» مساحة كافية في جبانة الملوك لإقامة هرمه الضخم نسبيًّا، إذ يبلغ ارتفاعه حوالي اثنين وخمسين مترًا مربعًا، وهذا الهرم الذي يدل على زهو صاحبه يحوي عددًا من الحجرات والدهاليز التي أحكم نظامها تحت الأرض مما جعل منظره لأول وهلة يختلف عن المقابر الملكية التي سبقته، ولكن عند فحصه بدقة ظهر أن تصميمه الأصلي لا يختلف كثيرًا عن مقبرة «شبتاكا» سلفه. فنجد هنا السلم أمام حجرة الدفن المربعة التي قُسِّمَتْ ثلاثة ممرات بعمد مقطوعة في الصخر، ولكن الدهليز الأفقي الذي على هيئة نفق قد حُوِّلَ إلى حجرة استقبال صغيرة لها عارضتا باب معشقتان، يضاف إلى ذلك أن مقبرتي الملكتين اللتين في «نوري» وهما اللتان لا بد قد أقيمتا في عهد «نهرقا» ويحملان رقمي ٣٥، ٣٦ تُدْعَى أولاهما «آبار» والثانية «أتخباسكن» وتحتوى

كل منهما على حجرتين بسيطتين، والميزة الخاصة لهذا القبر الذي يحوي حجرتين وسلمًا هو وجود ثلاث أو أربع درجات تؤدي من حجرة الاستقبال إلى حجرة الدفن.

وقد خلف «تهرقا» في الحكم الملك «تانوتآمون» بن الملك «شبتاكا»[٧] وقد عاد هذا العاهل إلى «الكورو» حيث أقام قبره هناك. ففي جبانتها المزدحمة انتخب موقعًا يرتكز على الجانب الجنوبي لهرم جده «شبكا» وقد أفلح في بناء هرم صغير له حشره بين هرم جده «شبكا» وبين الوادي الجنوبي. والواقع أنه كانت توجد مساحة تتسع لمثل هذا الهرم الصغير بين مقبرة «بيعنخي» وهرم «شبكا» ولكن الظاهر أنه لم يكن من المستحب لديه إقامة مباني المصاطب القديمة الهامة أي أمام المقبرتين رقمي ١١، ١٣ واسما صاحبيهما مجهولان.[٨]

ويلاحظ أن مقبرة «تهرقا» تعد صورة مطابقة للتصميم الأصلي الذي نشاهد أنه قد نُفِّذَ في أقدم مقبرتين لملكتين في «نوري» وتتألف كل منهما من سلم وحجرة استقبال صغيرة وثلاث درجات وحجرة دفن كبيرة مستطيلة الشكل. ونجد قبل عهد «تانوتآمون» مقبرتين من هذا الطراز أقيمتا للملكتين «خنسا» و«تابيري» كما يبرهن على ذلك التماثيل المجيبة التي وُجِدَتْ لهما في الساحة الشمالية في «الكورو». والملكة الأولى وهي «خنسا» بنت «كشتا» وزوج «بيعنخي» وأخته والثانية وهي «تابيري» زوج «بيعنخي» وأخته أيضًا. وقد أصبح هذا الطراز من الهرم الذي يحتوي على حجرتين وسلم من هذا العهد هو الطراز التقليدي لأهرام الملكات. وقد اسْتُعْمِلَ هذا الطراز فيما بعد بوصفه أقل نوع لدفن الملوك الذين كانوا يُدْفَنُونَ لأي سبب دفنًا متواضعًا.

وقد أقام «اتلانرسا» خلف «تانوتآمون» في «نوري» (نوري ٢٠) مقبرة من هذا الطراز الذي يشمل حجرتين ولكن يلحظ أن حجرة الاستقبال وحجرة الدفن كانتا على مستوى واحد. والتغير الوحيد الذي نلحظه في مقبرته كان بلا شك سببه الفقر، ولكنه قد قلد في مقابر الملكات بعد موته.

وتولى الملك بعد «اتلانرسا» الملك «سنكامنسكن» (نوري ٣) وكان ملكًا ثريًّا قويًّا ومن عظماء الملوك الذين أقاموا مباني كبيرة في معابد جبل «برقل». وكان حبه للترف ظاهرًا في كل نواحي قبره، وإذا استثنينا الملك «بيعنخي» فإنه يعد الملك الوحيد الذي وجدنا في قبره تماثيل مجيبة من الحجر عملها لنفسه وهو كذلك الملك الوحيد بلا استثناء الذي استعمل الصِّلَّ الملكي في تماثيله المجيبة. وهرمه يعد أكبر هرم أقيم بين أهرام الملوك الذين سبقوه عدا هرم «تهرقا» الذي يبلغ حجمه حوالي ثمانية وعشرين مترًا

مربعًا وقد قلده كل عظماء الملوك ممن خلفوه إلى أن قلل الملك «أمانياستبارقا» الحجم التقليدي للهرم وجعله حوالي ستة وعشرين مترًا وستين سنتيمترًا ولم يكن من المدهش إذن أنه أدخل أول توسيع في التصميم القديم الذي كان يحتوي على حجرتين تحت الأرض. فقد خالف «تهرقا» الذي كبر ووسع حجرة الدفن باستعمال العمد، وقد أضاف «سنكامنسكن» حجرة ثالثة بين حجرة الاستقبال وحجرة الدفن، وهذه الحجرة كانت واسعة أكثر من اللازم بالنسبة لطولها وتقع على طول محور القبر.

وقد كانت هي وحجرة الدفن نفسها تظهران في تصميمها مشابهتين لمزار القربان الذي كان يعمل في المقابر المصرية المنحوتة في الصخر. وقد استعملت الجدران لينقش عليها المتون الجنازية التي تُسَمَّى الاعترافات بعدم ارتكاب ذنوب وهي جزء من كتاب الموتى، وتشمل الفصل الخامس والعشرين منه.[٩] ويلاحظ أنه ليكون مبنى الهرم فوق حجرة الدفن تمامًا قد أقيم الهرم إلى الشرق قليلًا وبذلك تركت مسافة بين وجهة المزار والنهاية الشرقية للسلم. وهذا الطراز من الهرم الذي كان يتألف من ثلاث حجرات وسُلَّمٍ قد اتخذه الملوك خلفوا «سنكا منسكن» نموذجًا لإقامة مقابرهم وبذلك أصبح تقليدًا للملوك الذين حكموا مدة طويلة.

وقد ظل هذا الطراز من الهرم مستعملًا مع بعض تغييرات طفيفة حتى القرن الأول قبل الميلاد وهو الطراز الذي وجدناه فيما بعد في بلدة «مروي».

ومن ثَمَّ يمكن تتبع التطورات الطبيعية للهرم الذي يتألف من ثلاث حجرات وسُلَّمٍ وذلك من أول المقبرة التَّلِّيَّةِ الشكل القديمة في «الكورو» وهي التي تطورت إلى مقبرة تلية الشكل مكسوَّة بالحجر ثم إلى المصطبة القديمة المعروفة في عهد الدولة القديمة. وبعد ذلك تطورات الأخيرة إلى مقبرة بها حفرة للدفن ثم تحولت هذه المصطبة إلى مقبرة ذات حفرة وسلم وهي التي ابتدعها «بيعنخي» ثم تطورت الأخيرة إلى هرم أقامه «شبكا» له حجرة واحدة وسلم، وقد حذا حذوه «شبتاكا» ثم إلى هرم له حجرتان وسلم ابتدعه «تهرقا» وقفا أثره كل من «تانوتآمون» و«اتلانرسا» وأخيرًا قبر «سبنكا منسكن» وهو القبر الهرمي الأول الذي أصبح طرازه تقليدًا متبعًا. هذا ونجد أن التغير في اتجاه القبر من شمال — جنوب إلى شرق — غرب الذي حدث في المصاطب التي لها آبار للدفن كان سببه على ما يُظَنُّ تأثيرًا مصريًّا. أما التغيرات الأخرى فيرجع أصلها إلى حب الزهو المتزايد الذي سببته القوة المتزايدة وقد اتخذت لاعتبارات تكاد تكون كلها عملية وإذا تدبرنا العرض الذي لخصناه من أعمال الحفر التي قامت في المناطق الأثرية في السودان

وبخاصة في «الكورو» و«نوري» وجبل «برقل» هذا بالإضافة إلى الآثار التي كشفت عنها أعمال الحفر سواء أكانت منقوشة أم غير منقوشة اتضح أن «الكورو» كانت جبانة أسرية أسسها الرجل الذي دُفِنَ في المقبرة رقم ١ «بالكورو» وهي التي على قمة الجبل[١٠] وأن الملوك «بيعنخي» و«شبكا» و«شبتاكا» و«تانوتآمون» كانوا آخر ملوك من هذه الأسرة دُفِنُوا في هذه الجبانة، ومن ثَمَّ يحق لنا أن نسمي القبور الستة عشر التي عُثِرَ عليها في هذه الجهة مقابر أجداد «بيعنخي». ولكن مما يؤسف له جد الأسف أنه لم يُعْثَرْ على جثة ملك واحد من هؤلاء الملوك في أثناء أعمال الحفر التي عملت في مقابرهم، هذا إذا استثنينا أجزاء من جمجمة الملك «شبتاكا»[١١] وسنتحدث عنها فيما بعد، ومع ذلك فإنه من الممكن أن نحدد على وجه التأكيد اسم أحد الأجداد وأصل سلالة الأسرة وما كانت عليه ملوكها من قوة، والحالة التي تقلبت فيها مصائرهم.

ويجب أن نشير هنا أولا إلى أنه لم توجد أية مدافن معاصرة للمقابر التلية الشكل أو المصاطب بين مقابر الملكات في المساحة الشمالية أو الجنوبية أو في داخل محور طوله خمسة أميال. والظاهر أن هذا الفصل بين مقابر الإناث ومقابر الذكور يرجع إلى عهد الملك «بيعنخي». وقد عُثِرَ على عظام آدمية يُحْتَمَلُ أنها لأنثى في إحدى المصاطب،[١٢] ولكن يحتمل مع ذلك أنها من مقبرة أخرى ويحتمل أنها المقبرة رقم عشرة.[١٣] ويجب أن نستنبط أن مقابر الأجداد كانت تشمل نساء ورجالًا على السواء. وعلى ذلك نجد أن الست عشرة مقبرة تمثل أقل من ستة عشر جيلًا، ومن الممكن أن نقسم مجموعة هذه المقابر على أسس أثرية ستة أجيال، والجيل الأخير منها تمثله المصاطب رقم ٨ و٧ و٢٠، هذا ويلحظ أن المقبرة رقم ٨ هي أهم المجموعة وأقدمها (ويحتمل أنها للملك «كشتا» كما ذكرنا من قبل).[١٤] وعلى هذا الزعم يكون سلف «بيعنخي» من ملوك كوش هو الملك «كشتا» والد «بيعنخي» وعلى ذلك فمن الجائز أن المقبرة رقم ٨ هي للملك «كشتا» والمقبرة رقم ٧ هي لزوجته الأولى «بباتما» والدة الملكة «بكاستر» ومن المحتمل أنها والدة «بيعنخي» نفسه وأخيه «شبكا».

وإذا فرضنا ستة أجيال للأجداد (والجيل يقدر بثلاثين عامًا) فإن مجموع عمرهم يكون حوالي ثمانين ومئة سنة، وإذا فرضنا خمسة أجيال فقط وهو أقل تقدير فإن المدة تكون خمسين ومئة سنة. وإذا أخذنا عام ٧٤٠ق.م. بداية لحكم «بيعنخي» فإن هذين يقدمان لنا تاريخًا بين ٩٢٠ و٨٩٠ ق.م. لشاب الرجل الذي دفن في مقبرة «الكورو» رقم واحد. وهذا التاريخ يقع في دائرة حكم «شيشنق الأول» و«أوسركون

الأول» و«تاكيلوت الأول» وهؤلاء هم باكورة ملوك اللوبيين في مصر وهذا وهو التاريخ الذي وضعه «ريزنر»[١٥] لجبانة «الكورو». ولكن من جهة أخرى نجد «دوس دنهام» يبتدع تأريخًا آخر، يختلف بعض الشيء عن التأريخ الذي اقترحه «ريزنر»[١٦] حيث يقول إن العصر الرئيسي الذي اسْتُعْمِلَتْ فيه جبانة «الكورو» يشمل اثني عشر جيلًا تمثل السبعة الأخيرة منها مقابر أعضاء الأسرة المالكة من أول الملك «كشتا» حتى الملك «اتلانرسا». والظاهر أنه قبل عصر الجيل الذي عاش فيه «كشتا» قد عاش خمسة أجيال من أجداده لهم مقابر. وإذا فرضنا أن كل جيل يقدر بعشرين سنة فإنه من الممكن وضع أقدم هذه المقابر الخاصة بأجداد «كشتا» (أي المقبرة رقم واحد) حوالي عام ٨٦٠ق.م.

وقد نسب إلى هذه الأجيال الخمسة (على أساس التطورات التي حدثت في الدفن ومباني القبر) ثلاث عشرة مقبرة. ولم نعثر في أثناء الحفر على أي اسم من أسماء أصحاب هذه المقابر الخاصة بهؤلاء الأجداد.

ولكن عندما نبتدئ في تأريخ ملوك «نباتا» تصبح الأحوال أحسن إذ يمكن معرفة أسماء أصحاب المقابر بما وجد فيها من نقوش، وهاك قائمة مرتبة ترتيبًا تاريخيًّا وتشمل الاثني عشر جيلًا للأجداد والعصر الملكي النباتي في «الكورو» مع التأريخ المقدر لكل جيل، وكذلك الأسماء وصلة النسب عندما توجد:

الجيل	التأريخ	رقم المقبرة	صلة النسب
(١)	حوالي ٨٦٠–٨٤٠ق.م.	المقبرة رقم ١، ٤، ٥ التلية الشكل	لم توجد أسماء أصحابها
(٢)	٨٤٠–٨٢٠ق.م.	المقبرة رقم ٦، ١٩	
(٣)	٨٢٠–٨٠٠ق.م.	المقبرة رقم ١٣، ١٤	
(٤)	٨٠٠–٧٨٠ق.م.	المقبرة رقم ٢، ٩، ١٠، ١١	لم تعرف أسماء أصحابها
(٥)	٧٨٠–٧٦٠ق.م.	المقبرة رقم ٢١، ٢٣	

الجيل	التأريخ	رقم المقبرة	صلة النسب
(٦)	٧٦٠–٧٥١ق.م.	المقبرة رقم ٨	ويحتمل أنها للملك «كشتا»
(٧)	٧٥١–٧١٦ق.م.	المقبرة رقم ١٧	صاحبها الملك «بيعنخي» ابن الملك «كشتا».
		المقبرة رقم ٧	يحتمل أنها للملكة «بباتما» زوج الملك «كشتا» وأخته.
		المقبرة رقم ٢٠	لم يعرف اسم صاحبها.
		المقبرة رقم ٢٢	لم يعرف اسم صاحبها.
		المقبرة رقم ٥٣	صاحبتها الملكة «تابيري» زوج «بيعنخي» وبنت «ألارا».
		المقبرة رقم ٥٤	يحتمل أنها للملكة «بكساتر» زوج «بيعنخي» وبنت «كشتا».
		المقبرة رقم ٥٥	يحتمل أنها لملكة.
		المقبرة رقم ٢٢١–٢٢٤	لخيل «بيعنخي»
(٨)	٧١٦–٧٠١ ق.م	المقبرة رقم ١٥	صاحبها الملك «شبكا» بن «كشتا» وأخو «بيعنخي»
		المقبرة رقم ٦٢	لملكة.
		المقبرة رقم ٧١	يحتمل أنها لملكة
		المقبرة رقم ٢٠١–٢٠٨	خيل «شبكا»
(٩)	٧٠١–٦٩٠ ق.م	المقبرة رقم ١٨	صاحبها الملك «شبتاكا» بن «بيعنخي»
		المقبرة رقم ٧٢	يحتمل أنها لملكة
		المقبرة رقم ٢٠٩–٢١٦	خيل «شبتاكا».
(١٠)	٦٩٠–٦٦٤ ق.م	المقبرة رقم ١	الملك «تهرقا» دفن في «نوري» وهو ابن «بيعنخي».
		المقبرة رقم ٣	«بالكورو» للملكة «تابارا» أي ابنة الملك «بيعنخي» وزوجة «تهرقا».

الجيل	التأريخ	رقم المقبرة	صلة النسب
		المقبرة رقم ٤	للملكة «خنسا» ابنة الملك «كشتا» وزوج الملك «بيعنخى».
(١١)	٦٦٤–٦٥٣ ق.م	المقبرة رقم ١٦	«بالكورو» للملك «تانوتآمون» ابن «شبتاكا».
		المقبرة رقم ٥	للملكة «قالهاتا» زوج «شبتاكا» وأم «تانوتآمون».
		المقبرة رقم ٦	يحتمل أنها للملكة «أرتي» ويحتمل أنها موحدة باسم «بيعنخي أرني» ابنة بيعنخي وزوج «شبتاكا» وإذا كان هذا التوحيد صحيحًا فإنها تكون قد تزوجت من «تانوتآمون» بمثابة زوجة ثانية.
		المقبرة رقم ٢١٧–٢٢٠	خيل الملك «تانوتآمون»
(١٢)	٦٥٣–٦٤٣ق.م.	المقبرة رقم ٢٠	الملك «اتلانرسا» دفن في «نوري» وهو ابن «تهرقا».
(٢٤)		المقبرة رقم واحد	«بالكورو» وهي لملك لم يعرف وهو من عصر «نباتا» المتأخر.
		المقبرة رقم ٢	«بالكورو» وهي لملكة لم يحقق اسمها بعد وتعاصر المقبرة رقم واحد بالكورو.

أما الحقائق الأثرية الأخرى عن هذه الجبانة فهي كما يأتي:

(١) يلحظ أن المقابر التلية الشكل رقم ١، ٥، ٢، ١٩ كانت تحتوي على صوان وحجر الخلدكون مستعملة رءوس سهام من طرز لوبية معروفة.[١٧]

(٢) يضاف إلى ذلك أن المدافن التلية كانت تحتوي على كمية وفيرة من الذهب، فعلى الرغم من النهب المريع وُجِدَ في مقبرة «الكورو» رقم واحد حبات من الذهب يعادل وزنها ثمانية وثلاثين جنيهًا إنجليزيًا قد سقطت من اللصوص، وكان يوجد كذلك ذهب كثير

في مقبرتين من المقابر الأخرى يشمل تمثالًا من الذهب الصلب طوله ثلاثة سنتميترات وقطعة من الذهب منقوشة من أحد وجهيها بمتن سحري باللغة المصرية القديمة.

(٣) يلحظ أن الأشياء التي وُجِدَتْ في المقابر التلية وفي المصاطب تشمل قطعًا من أواني المرمر اللطيف وأواني الفخار المطلي المزخرفة من صنع مصري.

(٤) وُجِدَ في إحدى مقابر الملكات من أزواج «بيعنخي» لوحة باسم الملكة «تابيري» وقد سُمِّيَتْ في هذه اللوحة «الزوجة الملكية العظيمة الممتازة لجلالته «بيعنخي» مُعْطَى الحياة ابنة «ألارا» وابنة «كاسقا» والزعيمة العظيمة للتمحو (اللوبيون الجنوبيون)».

(٥) وقد علمنا فيما سبق[١٨] أنه في خلال القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد كانت هناك حركة هجرة من القبائل اللوبية إلى وادي النيل وقد استوطنوا هناك بوصفهم جنودًا مرتزِقة حتى قويت شوكتهم في عهد ملوك الأسرتين العشرين والحادية والعشرين وكوَّنوا لأنفسهم ممتلكات في الدلتا ومصر الوسطى وأسسوا عددًا من الأسر المحلية التي كانت تابعة اسمًا لملك مصر.

وقد كان المؤسس الأول هو «يويو واوا» الذي اتخذ «إهناسية المدينة» مقرًّا له كما فصَّلنا القول في ذلك من قبل،[١٩] وقد قوي سلطانهم في البلاد إلى أن أسس واحد منهم وهو «شيشنق الأول» الأسرة الثانية والعشرين، وقد ظل اللوبيون يحكمون البلاد المصرية حوالي قرنين من الزمان، ولكن في نهاية هذه المدة أخذ حكمهم في التدهور وانقسمت البلاد مقاطعات أو ولايات صغيرة مستقلة كما كان يحدث ذلك إثر أي انحطاط داخلي، وقد انتهز هذه الفرصة الملك «كشتا» الكوشي وغزا مصر العليا وأخذ بزمام الأمور في «طيبة» وضمن لابنته «أمنردس» الأولى وراثة وظيفة المتعبدة الإلهية التي كانت تشغلها وقتئذٍ «شبنوبت» الأولى ابنة الملك «أوسركون الثالث»، وهذه الوظيفة كانت موجودة من قبل ولكننا نجد الآن أن حاملتها حُذِفَتْ بطبيعة الحال ويقال إن هذا التغير قد قام به «أوسركون الثالث» صاحب السلطان في البلاد عندما تولى عرش الملك فلم يسمح لأحد من أولاده أو غيرهم أن يتولى مركز رياسة كهنة آمون وهو مركز كما هو معلوم غاية في الأهمية وكان في يد صاحبه سلطة ضخمة في طيبة وما جاورها مما كان يؤدِّي في غالب الأحيان إلى إضعاف سلطة الفرعون بدرجة عظيمة، وفي نهاية الأمر انتزع الملك منه، ومن أجل ذلك ألغى «أورسكون الثالث» وظيفة الكاهن الأكبر لآمون على ما يظهر وأحل محلها وظيفة «المتعبدة الإلهية» التي تولت شئونها سلسلة من هؤلاء النسوة بوصفهم كاهنات عظيمات، وأولى من تولين شئون هذه الوظيفة ابنة «أوسركون الثالث» المسماة

«شبنوبت» وهي التي أجبرها الملك «كشتا» الكوشي عندما دخل «طيبة» واستولى عليها على أن تتبنى ابنته «أمنردس». وكان غرضه من ذلك أن يجعل السلطة الدينية تنتقل من الأسرة المالكة إلى أسرته كما سنشرح ذلك فيما بعد في فصل خاص، غير أن شواهد الأحوال تدل على أن وظيفة الكاهن الأول لم تُلْغَ في عهد الحكم الكوشي، أي في عهد الأسرة الخامسة والعشرين كما سنرى بعد، بل بقيت، ولكن كانت أهميتها ضئيلة وسلطان حاملها يكاد يكون منعدمًا بجانب «المتعبدة الإلهية».

وبعد «كشتا» تولى ابنه «بيعنخي» الملك واستولى على الوجه البحري ومصر الوسطى، ومن ثَمَّ انتقل ملك مصر إلى أسرة كوش الحاكمة وأصبحت تحكم كل مصر والسودان. ومن الحقائق التي سردناها هنا يمكن بناء تاريخ الأسرة التي دُفِنَ أفرادها في جبانة «الكورو» ففي حين كان اللوبيون الشماليون يدخلون مصر السفلي كان اللوبيون الجنوبيون أي التمحو يزحفون على وادي النيل في كوش آتين بلا شك من طريق الواحات القديمة التي استعملها في خلال السنين القلائل الأخيرة العرب الذين كانوا يهاجمون مديرية دنقلة.

ومن المحتمل أنه في عهد «شيشنق الأول»، أو بعده بقليل جاء الزعيم اللوبي الذي دُفِنَ في المقبرة التلية الشكل رقم واحد في جبانة «الكورو» وهي التي تحدثنا عنها فيما سبق، وهناك وضع رِحَالَهُ وأسس لنفسه ضيعة في بلدة «الكورو» القريبة من «نباتا». ويدل ما بقي من محتويات قبره على أنه كان صاحب ثروة ضخمة وذلك كما قلنا لأن قبره كان يحوي ذهبًا وسلعًا كثيرة من مصر. والواقع أن الثروة الرئيسية لبلاد كوش الفقيرة في الأراضي الزراعية والمراعي نسبيًّا، تنحصر في منتجات مناجم الذهب التي كانت تزخر بها بلاد النوبة السفلى وما تحصل عليه من طرق التجارة بين مصر والجنوب عامة. والمرجح أن هذا الزعيم الذي كان لا بد صاحب كلمة هو وأسرته في «الكورو» قد استولى في الحال على كل السلطة التي كانت في يدي نائب كوش المصري وأصبح كسائر الزعماء اللوبيين في وادي النيل وقتئذٍ تابعًا اسميًّا لملك مصر اللوبي الأصل، وإذا لم تكن الحال كذلك في عهد هذا الزعيم فإن نيابة كوش لا بد قد انتقلت إلى الجيل الثالث من أسرته. ويدل التطور الذي وجدناه في مقابر هذه الأسرة على أن أعظم نموٍّ في سلطانها قد حدث في الأجيال الثلاثة الأولى من تاريخها، وبعد ذلك لم نلحظ هذا التقدم إلا في الجيل السادس، وذلك لأننا لم نجد تقدمًا محسًّا في تطور المصاطب من أول الجيل الثالث حتى الخامس. والظاهر أن هذه الأسرة كانت قد حصلت على السيطرة في بلاد كوش ثم تمهلت

بعد ذلك قبل الزحف على مصر فقد وجدنا في مقصورة المقبرة رقم ٩ حجرًا فرديًّا مثل عليه جزء من منظر من النهاية الشرقية للجدار الجنوبي. وهذا الجزء من المنظر حفظ لنا الجزء الأعلى من الوجه والرأس لرجل يلبس خوذة حرب، وهذا الوجه في سيماه ليس مصريًّا والخوذة التي كان يلبسها من المعدن بدهيًّا ولها ثقب في قمة الجبهة وشريط يتدلى من الخلف وجزء بارز في القمة يحتمل أنه كان لحمل الريشة.

ومهما يكن اللقب الذي كان يحمله هؤلاء الزعماء أصحاب هذا المصاطب في «الكورو» فإنه من المحتمل أن هذه الخوذة كانت تؤلِّف جزءًا من مميزات مركزهم بوصفهم حكام «كوش» أو بعبارة أخرى كانت رمزًا من الرموز التي يمتازون بها عن غيرهم.

ولا نزاع في أن «كشتا» (صاحب المقبرة رقم ٨ «بالكورو») هو الذي قد بدأ الزحف على مصر. ولا شك في أنه كان في أعين الجيل التالي له يُعَدُّ رجل الأسرة العظيم فقد كان يحمل لقب «ملك». وعثر في «إلفنتين» على نقش يحمل فيه لقب الملك وهو «وسرماعت رع» وقد مكن سيادته في مصر حتى «طيبة» حيث جعل ابنة «أوسركون الثالث» التي كانت «المتعبدة الإلهية» في «طيبة» أو بعبارة أخرى الحاكمة المطلقة في «طيبة» تتبنى ابنته «أمنردس» لتكون خلفًا لها في ملك «طيبة» غير أنه ليس من الواضح لدينا الآن إذا كان «كشتا» قد كسب لنفسه ملك مصر العليا بحدِّ السيف أو بالمعاهدة والتزاوج مع الأسرة الحاكمة، ولا غرابة في ذلك لأن تاريخ الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين على الرغم مِمَّا بذلناه من بحث وتنقيب لا يزال يحيطه الغموض بعض الشيء، وإنه من الواضح تمامًا أن الزمن الذي سُلِّمَ به لحكم هاتين الأسرتين النوبيتين هو عادة أطول مما يجب أن يكون.

ولا نزاع في أن «كشتا» كان معاصرًا «لأوسركون الثالث» و«تاكيلوت الثالث» اللذَيْنِ حكما معًا[٢٠] ولكن في «نباتا» لم نجد إلا اسمًا واحدًا له اتصال بالأسرة الثالثة والعشرين وهو القائد «باشدت باست» بن «شيشنق الرابع» (ابن «بامي») وكان «باشدت باست» هذا معاصرًا للملك «باديباست الأول» سلف «أوسركون الثالث». ومن ثَمَّ كان من الجيل الذي كان قبل «كشتا». وقد عثر على قطعة من إناء من المرمر نقش عليها اسمه في «نوري» وقد أحدث وجودها في هذه البلدة بعض الظن بأنه كان متصلًا بصلة الزواج بالأسرة اللوبية التي في «الكورو»، وعلى ذلك فمن الجائز كما يقول «ريزنر» أن ادعاء الكوشيين لعرش «طيبة» كان مبنيًّا على هذا الزعم أو ما يماثله. والواقع أن هذا مجرد فرض.

ومهما تكن الأحوال التي أدت إلى تولي «كشتا» ملك الوجه القبلي فإن ابنه «بيعنخي» قد استولى على الوجه البحري ومصر الوسطي بحدِّ السيف وأن وراثة ملك أسرة الزعيم اللوبي «يويوواوا» اللوبي قد انتقلت إلى الأسرة اللوبية المنحدرة من الزعيم اللوبي الذي أقام قرية على تل «الكورو» وقد أصبح جبانة يُدْفَنُ فيها عظماء أفراد الأسرة المالكة.

وبلاد كوش التي كانت منذ زمن بعيد متمصرة تمامًا أصبحت الإقليم المسيطر على وصارت «نباتا» عاصمة ملوك كوش ومصر.

وقد ذكر «مانيتون» نقلًا عن «أفريكانوس» و«يوزيب» أن ملوك الأسرة الخامسة والعشرين المصرية أو الكوشية هم «شبكا» و«شبتاكا» و«تهرقا» وقد أضاف المؤرخون المحدثون إلى هؤلاء الملوك «تانوتآمون» بوصفه ابن «شبكا»، ولكن لم يأتِ ذكر «بيعنخي» أو «كشتا». والواقع أن المعلومات عن هذين الملكين كانت ضئيلة لدرجة أن بعض الكتاب اعتقدوا بوجود ملكين باسم «كشتا» وكذلك اعتقدوا بوجود أربعة ملوك باسم «بيعنخي» ويقول البعض إنه يظهر من المؤكد وجود ملكين باسم «بيعنخي» وذلك لوجود اسمي تتويج لاسم «بيعنخي» وهما «بيعنخي» و«سرماعت رع» و«بيعنخي سنفر رع». وقد ظل هذا الاعتقاد سائدًا إلى أن قام «ريزنر» بأعمال الحفر في «الكورو» وكان من نتائجها الجزم بأن كل المقابر الملكية الكوشية قد كُشِفَ عنها ووُجِدَ أن سلسلة طرز المقابر والتماثيل المجيبة والأشياء الأخرى مستمرة ومتتابعة في نموها وتطورها دون أي فاصل، ومن ثَمَّ ثبت أنه ليس هناك أي مكان لوجود أية مقبرة ملكية أخرى بين «كشتا» وسلسلة مقابر الملوك المتصلة في توليها عرش الملك في كوش، وهذا الفاصل قد بدأ في «نوري» بإقامة مقبرة الملك «سنكمانسكين» وإذن لا يمكن في مثل هذه الأحوال وجود اسم ملك آخر يُدْعَى «بيعنخي» ومن ثَمَّ تكون النتيجة المحتومة هي أن «بيعنخي» كان يحمل لَقَبَيْ تتويج على الرغم من أن ملوك مصر في العادة لا يحملون إلا لقب تتويج واحد.

وهذه النتيجة يعضدها حقيقتان واحدة منهما معروفة منذ زمن طويل والأخرى كُشِفَ عنها حديثًا في «الكورو» ففي بلدة «أتريب» (بنها الحالية) عثر على قطعة حجر عليها اسم التتويج للملك «شبكا» وهو «نفر كارع». وقد وُجِدَ أن هذا اللقب متبادل مع اسم آخر وهو «واح-اب-رع» كما وجد كذلك منقوشًا على قلادة في مقبرة جواد في جبانة «الكورو». وفي هذه الجبانة عثر على مقابر جياد كثيرة وفيها اسم التتويج للملك «شبتاكا» وهو «دد كارع» متبادلًا مع اسم «من خبر رع». ففي الحالة الأخيرة نجد أنه يكاد يكون من المستحيل عدم استنباط أن لقني «زد كارع» و«من خبر رع» هما اسما

تتويج للملك «شبتاكا» ومن ثَمَّ يظهر أنه كان لكل من ثلاثة الملوك اسمان للتتويج، ومن المحتمل أن أحد هذين الاسمين كان خاصًّا بعرش مصر والثاني كان خاصًّا بعرش بلاد كوش، ومن الجائز أنه قد حدث ذلك جهلًا من «بيعنخي» بالصيغة الرسمية للألقاب المصرية، فقد كان كل من «كشتا» و«بيعنخي» مرتبطًا بآراء أسرته الإقليمية التي أتى منها. وكان «تهرقا» هو أول ملك عاش مدة تُذْكَرُ في البلاد المصرية، إذ إنه في الواقع كان أول من أتيحت له فرصة الظهور وإظهار الأبهة والعظمة في مصر بما كان لدى أسرته من ممتلكات غنية شاسعة. ولا غرابة إذن إذا وجدنا أن «كشتا» لم يترك لنفسه إلا سجلًّا واحدًا باسم تتويجه وهو «ماعت رع» وأن «بيعنخي» قد استعمل اسمي تتويج مختلفين وفي آنٍ واحد نجده يكتب اسمه الحوري أحيانًا «سحتب تايف» وأحيانًا يكتبه «كاتاويف» ومرة أخرى «كانخت خعمو أست»، وكذلك دوَّنه مرة «حتبنوتف» ولا عجب في ذلك فقد كان فخورًا متكبرًا بفتوحه كما يدل على ذلك نقوش لوحته العظيمة كما سنرى بعد، ولذلك فإنه كان قادرًا على تحدي خرق التقاليد حتى لو كان يلفت نظره الكاتب للخطأ الذي يرتكبه في هذه الناحية، ولا نظن أنه كان يوجد كاتب مصري عنده من الشجاعة ما يجعله ينوه لملك مثل «بيعنخي» عن غلطة كهذه.[٢١]

وذكر «مانيتون» أن «بوكوريس» (بكنرف) هو الملك الوحيد الذي تتألف منه الأسرة الرابعة والعشرين ثم أضاف أن «بوكوريس» هذا قد أُخِذَ أسيرًا وأُحْرِقَ حيًّا على يد الملك «شبكا»، ولكن المؤرخين الأحداث يميلون إلى ضم ملك آخر اسمه «تفنخت» إلى الأسرة الرابعة والعشرين وهو الذي هزمه «بيعنخي» وكذلك يضمون إليهما ملوكًا آخرين ممن وضعهم «مانيتون» في الأسرة السادسة والعشرين.

ومن المتفق عليه الآن أن الأسرة السادسة والعشرين المانيتونية إن هي إلا الاستمرار لملوك الأسرة الرابعة والعشرين، وأن الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية كانت معاصرة للأسرة الرابعة والعشرين. وإذا اتخذنا الاحتلال الكوشي أساسًا لحكم البلاد فإن الأسرة الرابعة والعشرين لم يكن لها في الواقع وجود. والواقع أن كلًّا من «كشتا» و«بيعنخي» قد تولى حكم مصر مباشرة من الأسرة الثالثة والعشرين والثانية والعشرين المنحلتين أو بعبارة أخرى تولت زمام الحكم في البلاد أسرة لوبية أخرى وقد كان أخلاف كل من «كشتا» و«بيعنخي» هم الحكام الحقيقيون الْمُعْتَرَفُ بهم في البلاد المصرية إلى أن هزم «آشوربانيبال» ملك «آشور» ملك مصر «تانوتآمون»، وبعد فترة حكم فيها الآشوريون البلاد قام «بسمتيك» أول مؤسس للأسرة السادسة والعشرين وطرد الأشوريين من بلاد مصر وطفر بها من جديد طفرة عظيمة كانت الأخيرة.

وهاك ملوك الأسرة الخامسة والعشرين على حسب نتائج الكشوف الحديثة وصلة نسب بعضهم ببعض حتى يمكن القارئ تتبع الحوادث عند التكلم عن كل منهم على حدة:

(١) «**آلارا**» يحتمل أن «آلارا» هو الزعيم أو الملك (؟) جد الأسرة الكوشية ولم يُعْرَفْ قبره حتى الآن ومن المحتمل أنه الأخ الأكبر للملك «كشتا» وقد جاء ذكر «آلارا» هذا في عدة مصادر[٢٢] وزوجة هذا الزعيم وأخته هي «كاسقا» وقبرها غير معروف وكانت تُدْعَى ملكة وهي أخت الملك «كشتا» و«بباتما» وأم «تابيري» وتبنت «آبار».[٢٣]

(٢) «**كشتا**» هذا الملك لم يعرف قبره وقد ذهب «ريزنر» إلى أنه هو القبر رقم ٨ في جبانة «الكورو» ويحتمل أنه أخو «آلارا» السالف الذكر، و«كشتا» هو والد الملك «بيعنخي» وكذلك والد الملك «شبكا». وقد نقش اسم الملك «كشتا» هذا على قطعة من الخزف المطلي عُثِرَ عليهما في «الكورو».[٢٤] وقد تزوج «كشتا» من «بباتما» التي تبنت «بكساتر» ولم يعرف قبرها للآن، ويظن «ريزنر» أنه القبر رقم ٧ في جبانة «الكورو» وقد وجد اسم كشتا على التمثال رقم ٤٢١٩٨، وكذلك نقش على مصراع باب بالعرابة.[٢٥]

(٣) **الملك** «**بيعنخي**» دفن هذا الفرعون في «الكورو» وقبره يحمل رقم ١٧ وهو ابن الملك «كشتا» والأخ الأكبر للملك «شبكا» وقد وُجِدَ اسمه على عدة آثار.[٢٦] ويقول «جوتييه» إنه يوجد عدة ملوك يحملون هذا الاسم في حين أن «ريزنر» يقول إنه لا يوجد إلا «بيعنخي» واحد وقد أوضحنا الأسباب التي أدت إلى هذا الزعم.

أزواج «بيعنخي»: تزوج «بيعنخي» من عدة نساء وهن:

(١) «**تابيري**»: هي ابنة «آلارا» و«كاسقا»[٢٧] وقد دُفِنَتْ مع زوجها في «الكورو» في القبر رقم ٥٣.

(٢) «**بكساتر**»: زوجه الثانية وقبرها مجهول غير أن «ريزنر» يقول إنه القبر رقم ٥٤ «بالكورو» وهي بنت الملك «كشتا» وقد تبنت «بباتما» وهي زوج «بيعنخي» وأخته.

(٣) «**أبار**»: زوج «بيعنخي» وأخته وابنة «كشتا» وهي التي أنجبت له «تهرقا» الذي تولى ملك مصر فيما بعدُ ويقترح «ريزنر» أنها دُفِنَتْ في «نوري» بالقبر رقم ٣٥[٢٨] وتحمل الألقاب: الأم الملكية والأخت الملكية.

(٤) «**خنسا**»: زوج «بيعنخي» وأخته وابنة الملك «كشتا» وقبرها في «الكورو» رقم ٤ وقد دُفِنَتْ في عهد الملك «تهرقا».

(٥) «**نفرو ككشتا**»: وُجِدَ اسم هذه الملكة بوصفها زوج الفرعون «بيعنخي» على تمثال مجيب [52a] وقد دُفِنَتْ في القبر رقم ٥٢ «بالكورو» ويلحظ أنه لم يذكر لها أية صلة نسب بالفرعون زوجها.

أولاد «بيعنخي»: أنجب «بيعنخي» عدة أولاد ذكور وإناث من هؤلاء الزوجات، أما أولاده الذكور فهم: «شبتاكا» و«تهرقا» وقد أصبح كل منهما فيما بعد ملكًا على البلاد ثم «خاليبوت» وقد وُجِدَ اسمه على لوحة عُثِرَ عليها في «برقل» رقم ٢٩[٧٠] وقبره لم يُعْرَفْ بعد. أما أولاده الإناث فهُنَّ:

(١) «**أرتي**»: وقبرها غير معروف ويذهب «ريزنر» إلى أنها دُفِنَتْ في «الكورو» بالمقبرة رقم ٦، وقد تزوجت من أخيها «شبتاكا» رابع ملوك هذه الأسرة[٣٠] ويحتمل أنها هي نفس المرأة التي تحمل اسم «بيعنخي-أرتي» التي جاء ذكرها في لوحة الحكم كما سنذكر ذلك بعد.

(٢) «**قالهاتا**»: وقبرها في «الكورو» رقم ٥ وقد تزوجت من أخيها «شبتاكا» ومن المحتمل أنها أم الملك «تانوتآمون» الذي أصبح ملكًا فيما بعد.

(٣) «**تكاهاتاماني**»: جاء ذكر هذه الأميرة على جدران حجرة دفنها وعلى تمثال مجيب .[63b]

(٤) «**ناپاراي** (Naparaye)»: وهي ملكة دُفِنَتْ في «الكورو» بالمقبرة رقم ٣ وهي ابنة «بيعنخي» وزوج «تهرقا» وأخته.[٣١]

(٥) «**تابكنآمون**»: وهي ابنة «بيعنخي» ويحتمل أنها زوجة «تهرقا» وقبرها غير معروف.[٣٢]

(٤) **الملك «شبكا»** دُفِنَ هذا الملك في «الكورو» بالمقبرة رقم ١٥ وهو ابن الملك «كشتا» والأخ الأصغر للملك «بيعنخي». وقد وُجِدَ اسمه على قطعة من الجرانيت الرمادي من مائدة قربان.[٣٣]

أولاده:

(١) **الأمير «حورمأخت»**: ولم يُعْرَفْ قبره وهو ابنه الأكبر وقد وجد اسمه على تمثال بمتحف القاهرة.[٣٤]

(٢) **الأميرة «استنخبت»**: ابنة «شبكا» وُجِدَ اسمها على تمثال مجيب.[٣٥]

(٥) **الملك «شبتاكا»** دُفِنَ هذا الملك في «الكورو» في هرمه رقم ١٨ وهو ابن «بيعنخي». وُجِدَ اسمه على تمثال مجيب.[٣٦] ووجد له لقب آخر وهو «منخبرع» مع لقب «زدكارع» في النقوش التي وُجِدَتْ في مقابر خيله «بالكورو»[٣٧] وقد تزوج من أختيه «أرتي» و«قالهاتا».

أولاده الذكور: وابنه «تانوتآمون» الذي أصبح ملكًا فيما بعد وهو ابن الملكة «قالهاتا» وابنته «بيعنخي-أرتي» وقد تزوجت على ما يُظَنُّ من أخيها «تانوتآمون» ولم يُعْرَفْ قبرها، وقد جاء ذكرها على لوحة الحلم.[٣٨] ومن الجائز أن الاسم رقم ١٦ أو ٥٨ هما لفرد واحد، أي إن «أرتي» و«بيعنخي-أرتي» واحد، وإذا كان ذلك هو الواقع فإن «أرتي» تكون زوج «شبتاكا» وأخته وقد تزوجت بعد مماته من ابن أخيها «تانوتآمون».

(٦) **الملك «تهرقا»** دُفِنَ هذا الملك في «نوري» بالقبر رقم (١) وهو ابن «بيعنخي» وأمه هي «أبار». وُجِدَ اسمه على تمثال مجيب وكذلك على أواني الأحشاء المحفوظة الآن بمتحف «بوستون» كما وُجِدَ اسمه على تمثال من الجرانيت من معبد «جبل برقل» رقم ٥٠٠ وهو موجود الآن بمتحف «مروي»[٣٩] وقد نقش عليه ألقابه الملكية واسمه.[٤٠]

(٧) **الملك «تانوتآمون»** دُفِنَ هذا الملك في جبانة «الكورو» رقم[٤١] ١٦ وهو ابن الملك «شبتاكا» وأمه «قالهاتا» ووُجِدَ اسمه على تمثال مجيب [76a]، وعلى إناء أحشاء[٤٢] في «الكورو» كما وُجِدَ له تمثالان من الجرانيت في معبد جبل «برقل» رقم ٥٠٠ وهما الآن بمتحف «بوستون» ومتحف «مروي» رقم ٥٣١٧[٤٣] وله لوحة قربان في متحف «بوستون» [76a] وبعض قطع من معبد «صم».[٤٤] وقد كتب في معبد «صم» اسما «نبتي» و«حور الذهبي» ويحتمل أنهما للملك «تانوتآمون».

هوامش

(١) راجع: Gauth., Dic. Geogr., Tom. 6. p. 115.

(٢) راجع: Griffith, Excavations at Sanam in Liverpool Annal of Archeology and Anthropology, IX (1922) p. 77–124, X. (1923) p. 71–171.

(٣) راجع: John Garstang., Meroe, The City of the Ethiopean (Oxford, 1911); and Liverpool Annals of Archeology III (1910) P. 57–70;; IV p. 45–71; V (1912) p. 73.83; VI (1913) p. 1–21 VII (1914) p. 1–24.

(٤) يحتمل أنه قبر الملك «كشتا».

(٥) راجع: El Kurru, I, p. 17.

(٦) راجع مصر القديمة الجزء الأول ص ٢٩٥ إلخ. وقد دلَّت الكشوف الأثرية الحديثة على أن حكم هذا الملك قد جاوز الحادية عشرة كما يشاهد ذلك من الكتابات بالمداد الأحمر التي وجدت على الأحجار التي تغطي المركب الشمسية المكشوفة حديثًا. ومع ذلك فإن هذا التاريخ مشكوك فيه.

(٧) راجع: El Kurru, 16 fig. 212 Pl, XVII A.

(٨) راجع: El Kurru. 11, Fig. 17 a. Pl. XIV B. p. 49; Ibid 13, Fig 18 a Pl. XVA, p. 51.

(٩) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص ٢٢٣–٢٥٠.

(١٠) راجع: El Kurru I, p 12.

(١١) راجع: El Kurru I, p 67.

(١٢) راجع: El Kurru, p 49.

(١٣) راجع: El Kurru, p 48.

(١٤) راجع: El Kurru, p. 46.

(١٥) راجع: Sudan Notes and Records Vol. II, p. 245- 6.

(١٦) راجع: Dows Dunham, The Royal Cemeteries of Kush, El Kurru p. 2 ff.

(١٧) راجع: Oric Bates, The Eastera Libgans, p. 145–146.

(١٨) راجع مصر القديمة الجزء التاسع ص ٧٥ إلخ.

(١٩) راجع مصر القديمة الجزء التاسع ص ١٠٦ إلخ.

(٢٠) راجع مصر القديمة الجزء التاسع ص ٤٠٤.

(٢١) وهذا التغير في أسماء بيعنخي هو الذي جعل بعض الأثريين لا يزال مصممًا على وجود أكثر من بيعنخي واحد وسنترك ذلك للكشوف التي تأتي بعد.

(٢٢) راجع: Tabiry Stela in Khartoum No. 1901 [5a]; Kawa Stela IV, L.17 [a b]. Kawa Stela VI, L. 22 [55, c] Kawa Inscr. IX, L. 54 [5 d].

(٢٣) راجع: El Kurru, I, 19–3–537 [34a]; L.R. IV, 5 ff.

(٢٤) راجع: L. R, IV, 8, [53a].

(٢٥) راجع: Ibid 10 [53 b].

(٢٦) راجع: L. R, IV passim.

(٢٧) راجع: Stela from El Kurru 53 in Khartoum No 1901 [72].

(٢٨) راجع: Kawa Stela V [11a] Temple 300 = L.D. V., p. 37.

(٢٩) راجع: A.Z., 70, p. 35 [350].

(٣٠) راجع: Cairo Stat., 49157, A.S.25, p.29.

(٣١) راجع: Alapaster Gffering Stone 19-3-588 Khartoum No. 1911 [48a].

(٣٢) راجع: Cairo Statue 49157 from Karnak (A.S.24, p. 25 ff [71]).

(٣٣) راجع: Alter ex Chapal 19.2-673 [68a] Shawabti [78 b] Gold Band ex Mummy 19-3-223 Insrcibed Ivory 19-3-231 [68d];L R. IV, 13i [68e].

(٣٤) راجع: Cairo., 42207 [27]; A.S; XXV p. 26, and Ibid, 30.

(٣٥) راجع: El Amrah and Abydos, 97 Pls. 37 [26].

(٣٦) راجع: L.R. IV, p.29.

(٣٧) راجع: M.F.A. Boston, Photoen p. 33.

(٣٨) راجع: Urk. III, p. 59; and A.S. 25, 25, ff.

(٣٩) راجع: Merowe Museum, No. Il. Khartoum No 1841 [74C].

(٤٠) راجع: L.R. IV. p. 31 ff.

(٤١) راجع: El Kurru, No. 16, p. 60.

(٤٢) راجع: (19,3324).

(٤٣) راجع: Khartoum, Nr. 1846 [76c].

(٤٤) راجع: Ann, Arch. and Anthrop. p. 9 Pl. 26, 13.

الفصل الحادي والعشرون

نظرة عامة عن الحالة الدولية في هذا العهد

هذه لمحة عاجلة عن أصل ملوك الأسرة الخامسة والعشرين من الوجهة الأثرية وسنحاول هنا بعد ذلك أن نذكر ما نعرفه عن ملوك هذه الأسرة وعلاقتهم بمصر وما جاورها من الأمم بقدر ما تسمح به الآثار معتمدين في ذلك على المصادر الأصلية، ولكن قبل أن نتناول تاريخ هؤلاء الملوك بالبحث والاستقصاء يجب أن نلقي نظرة عامة عن أحوال الشرق في هذه الفترة وعلاقة مصر به وما آلت إليه أرض الكنانة في نهاية عهد اللوبيين في مصر وقيام دولة لوبية أخرى من الجنوب لاحتلالها فنقول:

امتدت رقعة الدولة المصرية في عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في آسيا وأفريقيا حتى وصلت إلى أعالي دجلة والفرات شمالًا وحتى الشلال الرابع جنوبًا، ولكن لم تلبث أن طرأ عليها الوهن واستولى عليها الضعف وانتابها الانحلال حتى انكمشت في عقر دارها ولم يبق لها من أملاكها الشاسعة خارج حدودها إلا سيطرة اسمية على بلاد كوش. والواقع أن سكان أقاليم إمبراطوريتها في غرب آسيا لم تُسْتَعْمَرْ قَطُّ استعمارًا حقيقيًّا بالمصريين ولم تتأثر تأثرًا فعليًّا بالثقافة المصرية. والواقع أن الضعف الحربي الذي بدا على مصر في عهد الاضطرابات الداخلية التي ميَّزت عصر «أخناتون» ونهاية الأسرة الثامنة عشرة قد مهد السبيل إلى قيام دولة قوية أخرى في آسيا وبخاصة دولة «خيتا» التي كان لها كتابة هيروغليفية خاصة تحدثنا عنها عند الكلام على مملكة «خيتا»، وقد حاول «رعمسيس الثاني» بشق الأنفس القضاء على هذه الدولة الفتية فلم يلفح واضطر في آخر الأمر لعقد محالفة صداقة[1] ولكن في ذلك الوقت كانت دولة فتية أخرى قد أخذت تظهر في الأفق وبدأت

قوتها تزداد وخطرها يعظم حتى أصبحت تُعَدُّ في طليعة الدول العظام، تلك هي دولة «آشور» التي كانت في بادئ أمرها دولة صغيرة ثم مستعمرة بابلية. وكانت «آشور» في بداية العصر الذي نحن بصدده لا تزال منهمكة في حروبها مع مملكة «بابل» وبلاد «خيتا» والبلاد الواقعة على حدودها. وهذه الحروب التي كانت قائمة على حدود آشور الشمالية والشرقية من جهة وضعف مصر ووهنها الحربي من جهة أخرى قد أخلت سبيل بلاد فلسطين وسوريا مدة من تدخل الدول العظمى التي كانت تتطلع إليها، ومن ثَمَّ نشأت تلك المملكة الصغيرة التي كان لها مكانة ممتازة في تاريخ العالم المسيحي بما تركه أهلها من سجلات، وأعني بذلك بلاد «يهوذا» و«إسرائيل». ففي تلك البقعة ظهر «داود» و«سليمان» ملك «أورشليم» و«عمري» و«آخاب» ملك «السامرة» و«حيرام» ملك «صور» و«ابن هداد» صاحب «دمشق» وكل هؤلاء كانوا يقفون في الطليعة بوصفهم رجالًا عظماء في الأشعار التي كتبها لنا كهنة العبرانيين ويرجع الفضل في استقلالهم إلى انشغال الدول المجاورة وبخاصة بلاد «مسوبوتاميا» ومصر بحروبها وإصلاح شئونها المرتبكة وقتئذٍ.

غير أن معظم هذه الممالك الصغيرة كان مصيرها إلى الزوال على أيدي الأشوريين عندما بدءوا يشنون حروبهم لنشر سلطان بلادهم على كل بقاع العالم المتمدين في تلك الحقبة من الزمن، هذا إلى أن البقية الباقية منها قضى عليها كل من «كلديا» و«بابل» وهما الدولتان اللتان وَرِثَتَا إمبراطورية «آشور»، وفي الوقت نفسه كانت هذه الدويلات الصغيرة تعيش بوصفها وحدات سياسية ذات ثقافات متقاربة جدًّا. والواقع أن أهل «دمشق» و«فينيقيا» والإسرائيليين كانوا كلهم من أعضاء سلالة واحدة وهي السلالة السامية. وتدل تواريخهم على أنهم لم يتطبعوا بالطابع المصري بعمق، ولكن من جهة أخرى نجد أن بلاد كوش كانت وقتئذٍ جزءًا لا ينفصل عن مصر من حيث الثقافة والإدارة، بل والدين نفسه، وكان يفصلها عن التأثير الآسيوي أرض الكنانة نفسها. وقد بقيت بلاد كوش لمصر لأنها كانت جزءًا من مملكة النيل العظيمة وليست ببلد أجنبي عنها قط طوال عصور التاريخ تقريبًا.

وقد قلنا في غير هذا المكان[٢] إن «حريحور» أول ملوك الأسرة الواحدة والعشرين كان الكاهن الأكبر «لآمون» والقائد الأعلى للجيش ونائب الملك في «كوش» في عهد الملك

«رعمسيس الحادي عشر» آخر ملوك الرعامسة، وقد وصل بعد جمع السلطة الحربية والإدارية في يده إلى تولي عرش ملك مصر، وقد استطاع أن يوطد سلطانه في البلاد بطريقة سهلة وذلك بجعل الوظائف العالية التي كان يسيطر بها أصحابها على موارد البلاد الرئيسية في يد ابنه «بيعنخي»[٣] وقد أصبحت هذه السياسة تقليدية عند أمراء «طيبة» والواقع أنه قد أوجد في مصر حكمًا مشتركًا سهَّل توارث العرش، غير أن هذا الإجراء جاء متأخرًا جدًّا لينجي كل مملكة «طيبة» إذ قد ظهرت في ذلك الوقت أسرة ملكية في «تانيس» قبضت على زمام الأمور في كل البلاد بصفة شرعية، غير أنه من وقت لآخر كانت وظيفة الكاهن الأكبر يتولاها أمير «طيبة» وقد تحدثنا في الجزء الثامن عن تفاصيل وراثة العرش والتزاوج بين أسرة «طيبة» وأسرة «تانيس» وهي لا تَهُمُّ المطلع على تاريخ مصر بصفة عامة، كما أنها لا تهم قط الباحث في تاريخ كوش. ولكن من جهة أخرى نجد أنها من حيث التطورات الاجتماعية والدينية يشارك فيها السوداني المتمصر المصري كل المشاركة. وتمتاز الحياة القومية في كل من مصر وكوش بأنها مركبة تمامًا ومعقدة إلى حد بعيد فنجد ظاهرًا أن الأحفال البراقة التي كانت تقام في البلاد الملكي لا تزال تمثل حول شخص الملك المقدس، وكانت المعابد الفاخرة والقصور الشامخة التي أقيمت في الماضي في عهد نضارة الإمبراطورية وعزتها مزدحمة بالكهنة والموظفين المهيمنين والمتطلعين للوصول إلى المراتب العليا والثراء الوفير، كل ذلك كان يؤلِّف جزءًا من نظام معقد كان لا بد من بقائه مَهْمَا كانت الأحوال لأنه كان تقليدًا عتيقًا لا يمكن التخلي عنه. وقد سجل لنا التاريخ الحادث تلو الحادث في كل من المعبد وديوان الحكومة عن نظم عتيقة يرجع استمرارها لا لأنها تقدم بوجه خاص خدمات عامة للمجتمع، بل للمنفعة الشخصية المشتركة التي تربط جماعة كبيرة من الناس المتعلمين الأذكياء بعضهم ببعض وذلك محافظة على بقاء كيانهم. وفي هذه الحالة نجد أن المنفعة الشخصية تتطلب مقدارًا محدودًا من المقدرة على حفظ النظام في جمع الضرائب وفي المحافظة على قدسية الملك والآلهة، وهكذا كانت الحال في مصر تلك السنين، غير أن العدالة في هذه الفترة كانت مجرد سياسة كما كانت الإدارة لا تخرج عن كونها تمثيلًا ممسوخًا لحكومة صالحة بالمعنى الذي نفهمه في عصرنا، تكتب قوانينها على الورق، وتُتْلَى ألفاظها ولكن لا يُعْمَلُ بها.

وقد ظهر الحكم الفاسد الذي وضعه جماعة من الموظفين المصريين في كل ناحية من نواحي الإدارات الحكومية، فنجد صغار الموظفين في تلك الفترة يسرقون حظائر الدجاج

وبرك السمك التابعة للمعبد، كما نجد عمال الجبانة ينهبون بطرق منظمة سافرة مقابر الملوك والملكات التي كانت تزخر بالحلي والأثاث الفاخر في «طيبة» نسها على مرأى من الحراس، بل بالاشتراك معهم، وبعلم كبير الكهنة نفسه، وإنا لفي شك من وجود أي نوع من أنواع الحيل والمكر والخداع والتدليس والسرقة والفساد والرشوة والظلم لم يكن شائعًا يرتكبه كبار الموظفين والكهنة على السواء، ونحن نعلم من المحاولة التي قام بها «حور محب» لتطهير نظام الإدارة القديم الفاسد أنه حتى في هذا الوقت لم يكن في البلاد مستوى عالٍ من الأخلاق فعلًا، ولكن في ذلك الوقت الذي نحن بصدده كان المبدأ الوحيد الشائع في طول البلاد وعرضها هو أن المصلحة العامة ليست إلا الدخل الخاص لكل فرد.

على أن أعمال السوء كانت بطبيعة الحال تعد جريمة يُحَاكَمُ عليها على حسب ما جاءت به الكتابات الدينية التقليدية غير أنها كانت حبرًا على ورق. مثال ذلك ما جاء في الفصل الخامس والعشرين بعد المئة من كتاب الموتى وهو سرد الآثام التي كان الْمُتَوَفَّى ينفي عن نفسه ارتكابها عندما يقف بين يدي إلهه لِيُحَاسَبَ على أعماله في الحياة الدنيا. والواقع أن عدم الاكتراث بنفس هذه المبادئ الدينية التي اعترف بها أتباعها كان باديًا للعيان؛ يضاف إلى ذلك أن ما كانت تنطوي عليه نفس المصري وقتئذٍ من احتقار ماجن لقوة الإله كان باديًا في كل أعماله وأفعاله ولا أدل على ذلك من أن المصري كان ينهب قبر مليكه الذي يعده إلهًا بل أبشع من ذلك أنه كان يسرق متاع المعبد وحلي الإله، وهذا التضاد الصارخ قد يُفَسَّرُ بأحد أمرين، إما بالجحود والكفر والإلحاد، وهذا ليس ببعيد في مثل هذه الأوقات التي ساد فيها الفقر والجوع، وإما بالاعتقاد الشائع في هذا الوقت في قوة الأعمال الاحتفالية وما كان ينطق به المشعوذون من كلمات لتضليل الآلهة للحصول على غفران لكل جريمة يمكن ارتكابها كصكوك الغفران التي حاربها «مارتين لوثر». والواقع أن نفي الْمُتَوَفَّى أمام الإله يوم الحساب ارتكاب الآثام التي ذُكِرَتْ في الفصل الخامس والعشرين بعد المئة من كتاب الموتى كان يُعَدُّ قطعة من السحر أحكمت كلماتها وكان الغرض منها فرض محاكمة صالحة للمُتَوَفَّى، فكان هذا الفصل في الحق تعويذة سحرية يمكن للمحق وللظالم على السواء الحصول عليها؛ وكان كل فرد لديه نسخة من هذه الآثام التي دُوِّنَتْ بصيغة النفي يمكنه أن يعرف بها أسماء الآلهة القائمين على حساب الْمُتَوَفَّى يوم القيامة، ومن الواضح أنه منذ عهد متون الأهرام كان قوة مفعول معرفة الاسم من مبادئ السحر المصري وكان الرجل القوي هو الذي يعرف كل أسماء

الآلهة، ولا أدل على ذلك من قصة «أزيس» والإله «رع» عندما سيطرت عليه بمعرفة اسمه الخفي.[٤]

وعلى ذلك فإن هذا العصر هو الذي كانت فيه المتون السحرية تجلب السعادة في الحياة الآخرة وقد بلغت هذه المتون أعظم تطور وانتشار. وهي نفس المتون التي يضمها ما سُمِّيَ حديثًا كتاب «الموتى» وترجع نواته إلى عهود سحيقة في القدم، وقد دُوِّنَتْ هذه المتون في أوراق بردية خاصة كانت تُدْفَنُ مع المتوفى، كما نقش بعض أجزاء منها على جدران المقابر وعلى توابيت الموتى وعلى جعارين القلب وعلى التماثيل المجيبة[٥] وعلى أوانٍ منوعة وتعاويذ عدة مختلفة أشكالها. وكان جعران القلب يوزن في كفة وريشة العدالة في كفة أخرى بدلًا من القلب الأصلي. أما التماثيل المجيبة فكانت تعمل من أجل العمل اليومي الذي كان يؤديه الْمُتَوَفَّ في حقول عالم الآخرة للإله. وعلى أية حال نلحظ أن هذه الأشياء كان يُحْصَلُ عليها بالدرس المضني الذي كان يقوم به الكاهن الكاتب أو كانت تُشْتَرَى من هؤلاء الكتاب الذين خصصوا أنفسهم لهذه الحرفة وأمثال هؤلاء أيامنا هم أفراد تلك الفئة الذين يكتبون الأحجبة والتعاويذ ويبيعونها للعامة وحتى للخاصة لقضاء حاجاتهم لتكون حرزًا لهم من الشرور والمصائب. هذا وكان السحر الذي في يد الرجل الْمُعْدَمِ في أغلب الأحيان بطبيعة الحال من نوع رخيص ناقص وعلى ذلك كانت النتيجة التي يحصل عليها من هذه التعاويذ الناقصة في عالم الآخرة ليعيش هناك مخلدًا كانت من نوع رخيص نسبيًّا فقد وجدنا أن بعض موميات فقراء القوم ذات منظر مفزع للغاية إذ كانت عظامها مختلطة ببعض عظام أفراد آخرين، والمدهش أن ما نقص من بعضها كمل ببعض خرق لتأخذ شكل مومية ومعها نقوش وكتابات لم تُرَاعَ فيها أي عناية أو دقة، ولكن سواء أكان الرجل غنيًّا أم فقيرًا فإن قوة الكلمات السحرية والشعائر التي كانت تُقَامُ هي التي كان يُعْتَمَدُ عليها لأجل البقاء في الحياة الآخرة. ومن ثَمَّ نفهم مقدار ما كان للمتون السحرية من أثر في نفوس القوم، كذلك نفهم لماذا وُضِعَتْ مع المتوفى أحيانًا إضمامات من البردي غاية في الروعة والجمال والتنسيق الفني البديع الذي يصور لنا الحياة في عالم الآخرة التي كانت تعد في الواقع صورة من عالم الدنيا في أبهج مناظرها.

أما عن الحياة اليومية العادية فنجد أن الفكرة التي كانت تسيطر على الخلق الشخصي ساذجة كذلك في بابها، والمادة التي لدينا عن هذا الموضوع ليست غزيرة كالتي وجدناها في الأفكار والآراء الخاصة بعالم الآخرة والأبدية. ومع ذلك لدينا بعض متون

قليلة تكشف لنا القناع عن معتقدات الطبقة المتوسطة وطبقة العمال الفقيرة الحال[6] وهي نفس ما نشاهده في أيامنا هذه في مصر الحديثة تنطوي على أفكار بدائية أساسها الاعتقاد في الموجودات الخارقة لحدِّ المألوف، وعلى أية حال كان من البدهي لأي عقل بشري مهما ضؤل أن يفهم أن الأعمال الشريرة كان لا يُعَاقَبُ عليها في هذه الدنيا، وكان إغضاب مخلوق خارق للعادة يُعَدُّ عملًا خطيرًا، ولكن مثل هذه الآثام التي كان معظمها خاصًّا بالشعائر الدينية مثل لمس محراب بأيدٍ نجسة كان من الصعب تجنُّب ارتكابها وإذا حدثت كان على المذنب أو الفرد الذي وقع ضحية غضبِ الإله عليه أن يقدم قربانًا أو ما شابه ذلك تكفيرًا عن السيئة التي ارتكبها.

وإذا حوَّلنا نظرنا إلى المعتقدات اللاهوتية عند الطبقة العليا من الكتاب وجدنا تفسيرًا لأصل الخليقة والعلاقات التي بين الإله والعالم السفلي وكلها تشبه من وجوه كثيرة معتقدات كهنة «بابل» وقد وصل إلينا بعضها في «التوراة» في «سفر التكوين» وهذه المعتقدات تحتاج إلى شرح عميق، كما نجد ذلك في الشروح التي وضعها علماء اللاهوت عند العبرانيين والمسيحيين والمسلمين في العصور المختلفة. ولكن بالموازنة نجد أن معرفة فقهاء المصريين كانت أغنى في تفاصيلها، ولكن أسس معتقداتهم بالنسبة للحياة والموت كانت معتقدات عامة الشعب، ولم تكن الآلهة كما يتصورهم المصريون يختلفون عن الناس كثيرًا، ولدينا قصة نُقِشَتْ على جدران مقبرة كل من الملك «سيتي الأول» و«رعمسيس الثالث»[7] وعنوانها «هلاك الإنسانية» وملخصها أن الإله «رع العظيم» قد صار مُسِنًّا وأخذ بنو الإنسان يتراخَوْن في احترامه وبدءوا يلعنون اسمه فجمع مجلسًا من الآلهة وأمرهم بالحضور في هدوء خوف أن يسمعهم الناس، وقد نصح الآلهة «رع» أن يرسل «حتحور» لتُهلك بني البشر ففزع الناس وهربوا إلى الصحراء فتعبتهم «حتحور» وعملت فيهم التذبيح مدة يوم فأحدثت بذلك ضحايا لا تُعَدُّ، حتى إن شفقة «رع» استيقظت من هول هذا الذبح، على أنه لم يكن في مقدوره إعادة كلمة القوة التي كان يتميز بها، وعلى ذلك دبر حيلة على «حنحور» وذلك أنه حصل على كمية وفيرة من الجعة ولوَّنها بعصير نبات أحمر لتظهر بلون الدم وصنع منها بركة في المكان الذي تخرج إليه «حتحور» في اليوم التالي لذبح الناس، ولكن «حتحور» قد جُذِبَتْ بالبركة التي كان لونها كلون الدم ووقفت تعجب بجمال وجهها في مرآة سطح البركة وشربت منها حتى ثملت لدرجة أنها نسيت غرضها الأصلي وبهذه الحيلة مُنِعَ الفناء الكلي لبني البشر على يد الإله العظيم الذي نطق بكلمة القوة ثم ندم على الأمر الذي أصدره.

ولا غرابة إذن مع تداول مثل هذه الأفكار والمعتقدات أن نجد أهمية كبرى لأوامر الآلهة التي كانت تُعْطَى بطريق الوحي وتُؤَدَّى بوساطة إشارات ظاهرة يصدرها الإله في المعابد الكبيرة وهي الإشارات التي كان يقوم باختراعها وتأديتها الكهنة مستعمِلين تمثال الإله من وراء حجاب. ومن الأمثلة الصارخة في هذا الصدد ما حُكِيَ عن الكاهن «منخبر رع» وهو الذي أصبح ملكًا على مصر فيما بعد،[٨] وما أوحى به الإله له فقد قضى على الثورة وأعاد النظام إلى نصابه بوساطة الوحي.

هذه كانت حالة مصر في بداية العصر الذي نحن بصدده وكل هذه المعتقدات والعادات كانت منتشرة في كل البلاد حتى نهاية حدود بلاد كوش «فآمون رع» صاحب «الكرنك» كان هو نفس «آمون رع» صاحب «برقل» وما كان يأتيه الكهنة في «طيبة» من فعال وأعمال كان يأتيه إخوانهم الكهنة في «نباتا» عاصمة ملك كوش.

والحادث العظيم السياسي هو استيلاء اللوبيين على عرش مصر حوالي سنة ٩٤٥ق.م. فكانت الجنود المرتزِقة الأجانب يعملون في الجيش المصري منذ عهد «رعمسيس الثاني» وجنود المزوي وغيرهم من رجال القبائل النوبية كانوا يعملون في جيش الفرعون وحرسه منذ عهد الدولة القديمة.[٩] وفي عهد الأسرتين العشرين والحادية والعشرين أصبحت الحكومة المصرية تعتمد بوجه خاص على الجنود اللوبيين، وعلى الرغم من أن كلًّا من «مرنبتاح» و«رعمسيس الثالث» قد صدَّ اللوبيين عند محاولتهم غزو مصر واستيطانها فإن هؤلاء القوم قد نجحوا في التسرب شيئًا فشيئًا إلى الوجه البحري بأعداد كثيرة من أسرهم وقد استوطنوا هناك وتمصروا بسرعة، وحوالي بداية الأسرة الحادية والعشرين أصبح «ماوستا» بن «يويو واوا» كاهن الإله «حرسفيس (حرشف)» رب «أهناسية المدينة» وأسس له ملكًا هناك ويعتقد «ريزنر» أن هذا الكاهن هو جد ملوك الأسرة الأولى الكوشية. وقد ظل نسله يتولون وظيفة كاهن الإله «حرسفيس» مدة أربعة أجيال في «أهناسية المدينة» وبعد ذلك أصبح «نمروت» الذي يمثل الجيل السادس لهذه الأسرة يُلَقَّبُ «الرئيس الأعلى العظيم» ثم استولى بعده ابنه «شيشنق» على عرش مصر وأصبح يُدْعَى «شيشنق الأول» فرعون مصر، وتدل شواهد الأحوال على الرغم من غموض تاريخ هذه الأسرة في بادئ أمرها كما أوضحنا ذلك من قبل[١٠] على أنها استولت على مقاليد الأمور في مقاطعة «أهناسية المدينة» وأن «نمروت» قد أمدَّ سلطانه على كل الدلتا ومهد الطريق «لشيشنق» لاعتلاء عرش الملك دون أية معارضة تذكر فكان مثل هذه الأسرة في ذلك كمثل المماليك حينما استولوا على مصر من ملوك الدولة الأيوبية دون

حرب أو قتال وقد كان «شيشنق» يقود بطبيعة الحال قوة عظيمة من قبيلته الشجعان وغيرهم من الجنود الذين كانوا تحت إمرته.

والواقع أن اللوبيين الذين تَمَصَّرُوا قد أَدْخَلُوا حيوية جديدة في مختلف الشئون المصرية في داخل البلاد وخارجها، ويقال إن «شيشنق الأول» الذي جاء ذكره في «التوراة»[١١] قد عقد معاهدة مع «سليمان». وأنه خرب «أورشليم» في السنة الخامسة من حكم «رحبعام» بن «سليمان». ونقوشه في الكرنك تبرهن على أنه قام بحملة مظفرة في فلسطين وقد عثر بعث جامعة «هرفارد» في فلسطين في ساحة قصر «أخاب» في «السامرة» على إناء مُهَشَّمٍ من المرمر عليه اسم «أوسركون الثاني» وهو أحد أخلاف «شيشنق الأول»[١٢] ومن المحتمل أن هذا الإناء كان هدية مصرية إلى ملك «يهوذا» ومن ثَمَّ نعلم أن العلاقات بين اللوبيين و«أخاب» كانت على ما يظهر علاقة ودٍّ ومصافاة، غير أننا لم نجد ما يشير إلى مناهض لمصر في ذلك الوقت.

والظاهر أن الشئون الداخلية في مصر لم تتأثر كثيرًا بالسيادة اللوبية، وقد تحدثنا بإسهاب عن ذلك في الجزء التاسع من هذا المؤلَّف ولذلك فليس من الضروري هنا أن نتحدث عن توالي الملك في أيدي ملوك هذه الأسرة.

وخلاصة القول إن «شيشنق الأول» زوَّج ابنه «أوسركون الأول» ولي عهده من ابنة «بسوسنس» آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين وجعل ابنه الأصغر الكاهن الأكبر لآمون. ومن المحتمل أنه كان وقتئذٍ يقوم بعمل نائب كوش ومن المحتمل كذلك أن أخلافه الذين خلفوه في وظيفة الكاهن الأكبر «لآمون» كانوا كذلك يقومون بأعمال وظيفة نائب كوش، غير أننا لا نكاد نعرف شيئًا هامًّا عن بلاد كوش وأحوالها في هذه الفترة اللهم إلا ما جاء عن ذكر الجزية وبعض مناوشات دُوِّنَتْ في نقوش ملؤها المفاخرة والزهو تركها لنا الفراعنة في تلك الفترة. ويمكن القول إننا لا نكون قد تورطنا في أخطاء إذا قلنا إن بلاد كوش كانت تُؤَلِّفُ جزءًا من النظام المصري في ذلك الوقت وأنها كانت تشاطرها أحوالها على الرغم من أن ما لدينا من وثائق لا يتحدث عن ذلك صراحة. وحوالي عام ٧٥٠ق.م. أي بعد تولي «شيشنق الأول» ملك مصر بمئتي سنة أو بعد مُضِيِّ حوالي ثلاث مئة سنة عن آخر إشارة هامة عن بلاد كوش في النقوش المصرية ظهرت هذه البلاد مرة أخرى في السجلات المصرية، لا بوصفها إقليمًا تابعًا لمصر، بل بوصفها مركزًا لملكة مستقلة كانت مدينة «طيبة» تعد آخر حدودها الشمالية. ومما يُؤْسَفُ له أن البحوث التاريخية لم تصل حتى الآن إلى إماطة اللثام عن أصل هذه المملكة على

وجه التأكيد. وعلى أية حال نلحظ الحيوية الأولى التي وجدناها في الأسرة اللوبية التي أسسها «شيشنق» قد أخذت تضعف وانقسمت البلاد على بعضها وأصبح كل أمير لوبي يحكم حكمًا مستقلًّا في الجزء الذي كان يسيطر عليه هو وجيشه من البلاد ولا يربطه بالفرعون إلا دفع الضرائب وسيادة اسمية، وهؤلاء الحكام قد سَمَّوْا أنفسهم في نهاية الأمر ملوكًا وقد استقل بعضهم فعلًا عن الفرعون.

ولا بد أنه في مثل هذه الأحوال قد حدث أحد أمرين، فإما أن يكون اللوبيون الذين كانوا في جبل «برقل» قد انتهزوا هذه الفرصة وانقضوا على مصر بجيش عظيم على رأسه «كشتا» واستولى على «طيبة» واتخذها عاصمة لملكه، أو يجوز أن الأمير اللوبي الذيكان تحت إمرته جيش كوش قد جعل نفسه بحالة ما مستقلًّا عن مصر في هذه الأصقاع. ويظن «ريزنر» أن هذا الرجل هو القائد الأعلى ابن الملك «شيشنق الثالث» وقد عُثِرَ له في «نوري» على نقش باسمه «باشدت باست»، والظاهر أنه لم يحمل قط لقب الملك ولكن الرجل الذي حمل لقب ملك مصر كان غيره، إذ دلت الكشوف الحديثة على أن رأس أسرة كوش كان يُدْعَى «ألارا». وعلى أية حال لا يزال موضوع الفاتح الأول لمصر من الجنوب من الموضوعات الغامضة لأننا وجدنا «كشتا» على عرش «طيبة» دون أي إشارة لقيامه بأية حروب أو ما يشير إلى أية حروب في عهده قط. والغريب المدهش في أمر هذا الملك أننا لم نعثر على أثر منفردًا كما سنرى بعد إلا نادرًا جدًّا.

هوامش

(١) راجع مصر القديمة الجزء السادس ص ٢٨٥ إلخ.
(٢) راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٦٠٢.
(٣) راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٦٥٧.
(٤) راجع كتاب الأدب المصري القديم الجزء الأول ص ١١٢.
(٥) الفصل السادس بوجه خاص كان يكتب على التماثيل المجيبة.
(٦) راجع: كتاب الأدب المصري القديم الجزء الثاني ص ١٤٢ إلخ.
(٧) راجع: كتاب الأدب المصري القديم الجزء الأول ص ٧١.
(٨) راجع مصر القديمة الجزء الثامن ص ٧٢٥.
(٩) راجع مصر القديمة الجزء الثاني ص ٤٧٩ إلخ.
(١٠) راجع مصر القديمة الجزء التاسع ص ٨٢.

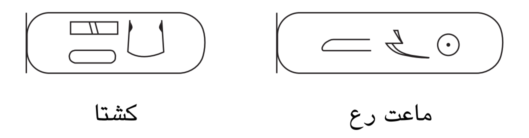
(١١) راجع مصر القديمة الجزء التاسع ص ١١٤.

(١٢) راجع مصر القديمة الجزء التاسع ص ٢٣١.

الفصل الثاني والعشرون

ملوك الأسرة الخامسة والعشرين

الأسرة الكوشية



كشتا ماعت رع

ذكرنا من قبل في مواضع عدة أنه من المحتمل جدًّا أن يكون الملك «كشتا» قد دُفِنَ في المقبرة رقم ٨ التي عُثِرَ عليها في جبانة بلدة «الكورو» التي كانت تُعَدُّ الجبانة الملكية لملوك كوش. وهذه المقبرة هي عبارة عن مصطبة ضخمة وتبلغ مساحتها ١٢× ٩٫٧٥ مترًا ولها سور مُقَامٌ من الحجر الرملي الذي لا يزال بعضه محفوظًا حتى الآن ومزارها (أو مقصورتها) مبنيٌّ كذلك بالحجر الرملي، وقد وُجِدَتْ حجرة الدفن منهوبة ولم يبقَ من أثاثها إلا قطعة من آنية من المرمر وأخرى من الخزف الأزرق المطلي وثالثة من الخزف أيضًا من تعويذة «منات» (وهو عقد كانت تلبسه مغنيات الإلهة «حتحور»)[١] وله مفعول سحري ومدلول ديني معلوم.

ومن المحتمل أن «ألارا» الزعيم وهو الملك الأول لهذه الأسرة هو أخو «كشتا» الأكبر، وقد جاء ذكر «ألارا» هذا على لوحة «تابيري» الموجودة الآن بمتحف «الخرطوم» وعلى

ثلاث لوحات عُثِرَ عليها في «كاوا» من عهد الملك «تهرقا» (وهي رقم ٤ و٦ و٩) وعلى لوحة «نستاسن».[٢] والملك «كشتا» هو والد كل من الملكين «بيعنخي» و«شبكا» وقد وُجِدَ اسمه على قطعة خزف مطلي في «الكورو» بالقبر رقم واحد.[٣]

ومن المحتمل أن «كشتا» هذا هو الذي أقام معبد «برقل» رقم ٨٠٠ ب (B 800)، وهذا المعبد قد أُعِيدَ بناؤه في عهد الملك «امتالقا» في العهد المروي[٤] ويقول الدكتور «ريزنر» بعد فحص المباني في هذا المعبد: والظاهر من الفحص السابق أن المعبد (B 800 first) قد أقيم قبل عهد الملك «تهرقا»[٥] وأن المبنى الأساسي الذي تجمع حوله المعبد الكبير كان قد أقيم في عهد قبل «بيعنخي» واستخلص أن الذي أقام الحجرات الأصلية (B 803–807) هو الملك «كشتا» سلف «بيعنخي» المباشر.

ويلحظ أنه قبل الكشف على جبانات أسرة كوش لم يكن يعرف إلا القيل عن هذا الملك، وحتى هذا القليل كان فيه خلط، فمن ذلك أن «جوتييه»[٦] يقول إن هذا الملك على ما يظهر كان مشتركًا مع «بيعنخي» في ملك مصر ومن الجائز أنه بعد موت الأخير كان يحكم بلاد النوبة. وهذه النقطة مشكوك في صحتها لأنه حتى الآن لم يُعْثَرْ على أي أثر للملك «كشتا» في بلاد النوبة، هذا على أن الرأي الذي أدلى به فيما بعد الأثري بليت[٧] وهو أن «كشتا» حكم في بلاد النوبة فقط رأي خاطئ. ويستمر «جوتييه» قائلًا: إنه من المحتمل أن «كشتا» هو ابن «بيعنخي» ولكننا لا نعلم شيئًا عن هذه الصلة. أما «برستد» فقد عكس الموضوع وعدَّ «كشتا» والد «بيعنخي» وهو رأي خاطئ في الحقيقة لأنه نتج من خلط في اسمي ملكين يحمل كل منهما اسم «بيعنخي». ومن مثل هذه الأقوال نعرف كيف كانت الأفكار متبلبلة غير مستقرة عن حقيقة ترتيب ملوك كوش وصلة بعضهم ببعض، والواقع أن رأي «برستد» كذلك رأي خاطئ، ولم يكن يوجد إلا ملك واحد باسم «بيعنخي» يحمل اسمي تتويج في آنٍ واحد كما ذكرنا من قبل. ويعتقد الأستاذ «سايس» أن اسم «كشتا» معناه الكوشي (أيِ نسبة لبلاد كوش).[٨]

ومما يلفت النظر هنا أن الآثار التي ذُكِرَ عليها اسم «كشتا» بمفرده نادرة جدًّا، في غالب الأحيان نجده مذكورًا مع أولاده وبخاصة مع ابنته «أمنردس» في معبد «أوزير» بالكرنك وهي التي حفظت لنا اسمه، وتدل الأحوال حتى الآن على أن «كشتا» هذا لم يقم بدور هام في التاريخ المصري إلا تولية ابنته في منصب متعبدة إلهية بعد وفاة «شبنوبت» ابنة «أوسركون الثالث» كما سنرى بعد، أما من حيث الأعمال الحربية أو غيرها فلم نعثر له على شيء في «طيبة» ولا في غيرها قط.

وأهم الآثار التي وُجِدَ عليها اسمه هي:[٩]

قطعة[١٠] من لوحة مستديرٌ أعلاها مصنوعة من الجرانيت عثر عليها «مسبرو» في «إلفنتين» بالقرب من بوابة «الإسكندر» المصنوعة من الجرانيت، واللوحة على ما يظهر كانت صغيرة ونجد على الجزء الأعلى الباقي منها قرص الشمس المجنَّح يتدلى منه الصل الملكي على اليسار وله جناح واحد، وعلى اليمين نجد صورة العين السليمة، وفي أسفل هذا المنظر كان يوجد في الأصل على اليمين إلهان «خنوم-رع» رب «الشلال» ولكن لم يبق من صورته إلا جزء صغير، والإلهة «ساتت» سيدة «إلفنتين». ولم يبق من صورتها شيء قط، ويقدم لها الملك على ما يظهر مذبحًا عليه نار، ولم يبق من صورة الملك إلا الرأس الذي يرتدي (تقية) محلاة بِصِلٍّ ملكي واحد، وقد صَوَّرَ المثَّال الملك بأنف أفطس وذقن غائرة وشفتين غليظتين بارزتين، وبالاختصار نلحظ في صورته أنه قد مُثِّلَ في هيئة شبه زنجي وهو يشبه كثيرًا صورة «تهرقا» الذي نشاهد وجهه في الرأس المصنوع من الجرانيت الأسود المحفوظ الآن بالمتحف المصري كما سنرى بعد.

ويقول «مسبرو» إنه لم يعثر على لقب «كشتا»: «مام رع» الذي نقش على هذه اللوحة في نقوش أخرى غيرها، ولكن يحتمل أن يكون هذا اللقب قد كُتِبَ بإهمال وأن المقصود هو «ماعت رع». هذا ولما لم يكن لدينا دليل على وجود ملك آخر يُدْعَى «كشتا» فإن هذا الملك الذي على لوحتنا هذه هو «كشتا» الذي محيت طُغْرَاءَاتُهُ كثيرًا على الآثار، وإذا استثنينا ما جاء على هذه اللوحة وما جاء على قطعة الخزف المطلي نجد أن اسمه لم يُذْكَرْ بمفرده بل مع أحد أولاده وبخاصة ابنته «أمنردس» الزوجة الإلهية أو المتعبدة الإلهية.

أسرة (كشتا)

تدل شواهد الأحوال على أن زوجة «كشتا» التي تُدْعَى «بياتما» قد دُفِنَتْ معه في نفس جبانة «الكورو» في المقبرة رقم ٧، غير أن البراهين القاطعة على ذلك تعوزنا[١١] وهي في الوقت نفسه أخته وقد تَبَنَّتْ «بكساتر» ابنة «كشتا».

وقد أنجب «كشتا» وزوجه ولدين هما «بيعنخي» و«شبكا» وقد صار كل منهما فيما بعد ملكًا على مصر والسودان.

أما بناته فهنَّ

(١) «آبار»: وقد تزوجت من أخيها «بيعنخي» وأنجبت له «تهرقا».[١٢]

(٢) «خنسا»: وقد دُفِنَتْ في «الكورو» بالمقبرة رقم ٤ وقد تزوجت من أخيها «بيعنخي» ودفنها «تهرقا» وعُثِرَ لهذه الملكة على مائدة قربان من الجرانيت في سلم قبرها وهي محفوظة الآن بمتحف «بوستون» وكذلك وُجِدَ لها مائدة قربان في حجرة الدفن كما وُجِدَ لها عدة أوانٍ من المرمر وكلها منقوش عليها طُغْرَاءَاتٌ مزدوجة وألقاب مختلفة، هذا بالإضافة إلى ثور من حجر ستياتيت محفوظ في «متحف بوستون» وطست من الفضة أيضًا.[١٣]

(٣) الملكة «بكساتر»: تزوجت من أخيها الملك «بيعنخي» ولم يُحَقَّقْ موضع قبرها حتى الآن ويذهب «ريزنر» إلى أنه القبر رقم ٥٤ في الجبانة «الكورو» وقد تبنتها الملكة «بياتما».

(٤) المتعبدة الإلهية «أمنردس»: وتُسَمَّى في التاريخ «أمنردس الأولى» ابنة «كشتا» واسمها مصري صريح ويمكن البرهنة على ذلك من مصادر مختلفة بصفة قاطعة. والمتون التي تثبت ذلك قد جمعها «جوتييه» في كتاب الملوك.[١٤] وعند استيلاء «كشتا» على عرش ملك مصر أجبر المتعبدة الإلهية «شبنوبت» ابنة «أوسركون الثالث» على أن تتبنى ابنته «أمنردس» لتخلفها بعد موتها في هذا المنصب العظيم الذي كان يعادل منصب الكاهن الأكبر الذي اختفى مؤقتًا منذ أن تولت «شبنوبت» هذا المنصب في عهد والدها «أوسركون الثالث» والبراهين الدالة على أن «شبنوبت» قد تَبَنَّتْهَا هي و«شبنوبت الثانية» وكذلك البراهين الدالة على التبنيات التي أتت بعد ذلك هي التي نشرها «لجران» ومحصها «أرمان».[١٥] ويعد الأستاذ «أرمان» أول من برهن على أن كل الصلات الزوجية المزعومة بالنسبة لهؤلاء الأميرات اللاتي ذُكِرْنَ في لوحة التبني يجب أن تُلْغَى ولا يُلْتَفَتُ إليها قط لأنها خاطئة كما سنرى بعد. وعلى ذلك فإن «شبنوبت الأولى» ابنة «أوسركون الثالث» و«تنتسا» على الرغم من أنها ذكرت بأنها أم «أمنردس» فإنها في الواقع لم تكن أمها الحقيقية ولم تكن قط يومًا من الأيام زوج الملك «كشتا» كما ادَّعى ذلك «جوتييه»[١٦] وقد قرر ذلك من قبل الأثري «لجران» عندما نشر لوحة التبني. وقد بقي هذا الزعم الخاطئ قائمًا يُؤْخَذُ به حتى عهد قريب.[١٧] ومما يدحض هذا الرأي بدهيًّا أنه لا «شبنوبت الأولى» ولا أية واحدة من أخلافها

اللائي تبنين كاهنات لآمون كُنَّ يحملن لقب الزوجة الملكية أو الأم الملكية، وذلك بدلًا من لقب زوج الإله أو الابنة الإلهية، كما كان يحدث أحيانًا، أو لقب المتعبدة الإلهية وهو اللقب الذي كانت تحمله دائمًا. غير أن ذلك لا ينطبق على المتعبدات الإلهيات اللائي سبقتهن، ولدينا استثناء ظاهر في المتعبدة الإلهية التي تُدْعَى «ماعت كارع مو تمحب» ابنة «بسوسنس» التي كان لها طفل فعلًا وقد كان مثلها كمثل المتعبدات الإلهيات لم تحمل لقب «زوج الملك»، والواقع أنها لم تتزوج ولكن «جوتييه» يذكر[١٨] أنها كانت الزوجة الملكية للفرعون «بينوزم الأول» ويرجع السبب في هذا الخطأ إلى أن لقبها «دعية الملكة» قد تُرْجِمَ خطأ بلقب «الملكة العظيمة» والواقع أن الملكة زوج «بينوزم الأول» هي «حنت تاوى» التي كانت تحمل لقب الأم التي تَبَنَّتِ المتعبدة الإلهية «لآمون». ومما يلفت النظر هنا أنه على الرغم من أنها كانت تُلَقَّبُ المتعبدة الإلهية فإن أمها التي تبنتها لم تكن كذلك، وقد يرجع السبب في هذا إلى أن اللقب والفكرة كانا جديدين.

ونعلم من جهة أخرى أن «ماعت كارع مو تمحب» قد ماتت مع طفلها الذي وضعته ولم يُعْرَفِ اسمه وكان موتها بعد الوضع مباشرة، وقد دُفِنَ الاثنان في تابوت واحد،[١٩] وإذا كان قد حُرِّمَ حقيقة على المتعبدات الإلهيات الاختلاط الجنسي أو بعبارة أخرى الزواج فإن السبب في الموت العاجل الذي أصاب هذه الأم وطفلها يظهر بدهيًّا ولا يحتاج إلى تفسير أو بعبارة أخرى أنها انتحرت بعد الوضع.

هذا ونعلم أن أم «أمنردس الأول» وزوج «كشتا» الوحيدة هي «بياتما» وقد جاء ذكر اسمها على تمثال مُهَشَّمٍ «لأمنردس الأول» كما ذكرنا من قبل. وقد ذكر عليه الكلمات التالية: «زوج الإله وابنة الملك «كشتا» المبرأ والمتعبدة الإلهية «أمنردس» المبرأة وأمها المتعبدة الإلهية «شبنوبت» المبرأة وقد وضعتها زوج الملك «بياتما» المبرأة.[٢٠] وفي هذا المتن نجد أن كلمة «أمها» يجب أن تشير فقط إلى صلة التبني وحسب في حين أن كلمة «وضعتها» تشير إلى الأم الحقيقية».

وقد وجدت «لأمنردس» آثار كثيرة نذكر منها ما يأتي:

(١) وجد اسمها مع اسم والدها «كشتا» على نقش دوِّن على صخرة في جهة الشلال الأول جنوبي «أسوان».[٢١]

(٢) ووجد لها لوحة في مدينة «هابو» عليها اسمها واسم والدها «كشتا» واللوحة محفوظة بالمتحف المصري الآن[٢٢] وهي مستديرة من أعلى ومصنوعة من الحجر الرملي

وارتفاعها ٥١ سنتيمترًا وعرضها ٣,٨٥ سنتيمترات ورُسِمَ على الجزء الأعلى منها قرص الشمس وفي أسفل اللوحة من الجهة اليمني كُتِبَ: «المتعبدة الإلهية «شبنوبت»»، وقد مُثِّلَتْ واقفة تحرك صناجتين أمام ثلاثة آلهة وتلبس ثوبًا فضفاضًا شفيفًا وترتدي شعرًا مستعارًا مُحَلًّى بِصِلٍّ ملكي وشريط مُتَدَلٍّ. وقد وُضِعَ على تاج بِصِلٍّ قرنان طويلان يحيطان بقرص الشمس الموضوع أمام ريشتين عاليتين. والآلهة هم «آمون رع» حارس «طيبة» ومُثِّلَ ماشيًا ومعه النقش التالي: «كلام معطي الحياة والفلاح». وكذلك نجد نفس النقش أمام الإلهة «موت عين رع» ثم الإله «خنسو»؛ وفي أسفل نجد النقش التالي: «آمون رع» صانع الحياة وحارس «طيبة» الذي يُعْطِي كل الحياة والفلاح للمتعبدة الإلهية «أمنردس» ابنة الملك «كشتا». أُهْدِيَتْ بوساطة مغنية حريم «آمون» (المسماة) «نب تهيت محيت» ابنة الرئيس العظيم للوبيين الْمُسَمَّى «عنخ حور» وأمه «تاتنحب».

ويقول «لجران» إنه على الرغم من قصر هذا المتن فإنه يحتوي على بعض نقاط هامة يجب التنويه عنها:

تدل شواهد الأحوال على أنه كانت توجد قاعدة مُتَّبَعَةٌ في المراسيم المصرية لا استثناء فيها إلا النذر اليسير جدًّا وهي أن الملك الحاكم كان دائمًا يُرْسَمُ في المناظر أولًا أمام الإله في الأحفال الرسمية وتأتي خلفه عادة الملكة ثم الأتباع، وليس لدينا شواذ عن هذه القاعدة إذا استثنينا الملكة «حتشبسوت» في أن نجد الملكة زوج الملك تحتل هذه المكانة الأولى أمام الإله أو الآلهة بدلًا من الملك. وحتى عندما يكون الملك غائبًا كما هي الحال في اللوحة التي نتحدث عنها كان يجب أن تحتل الملكة هذه المكانة في الصورة بدلًا من «شبنوبت» كما تقتضيه المراسيم. والواقع أن الملك «كشتا» قد ذكر في هذا المتن، ومع ذلك لم نجده ممثلًا في اللوحة قيل «شبنوبت» ولا خلفها. هذا ونجد كذلك صورة الملك «أوسركون الثالث» بن «أزيس» في معبد «أوزير» حاكم الأبدية موضوعة خلف صورة ابنته «شبنوبت»، ونعلم كذلك من لوحة الأميرة «عنخنس نفرت اب رع» أن لقب المتعبدة الإلهية كان أعلى درجة من لقب الكاهن الأكبر «لآمون». وعلى أية حال فإن المثال الذي ذكرناه هنا الدال على تقدم المتعبدة الإلهية على الملك في مراسيم معبد «أوزير حاكم الأبدية» وكذلك المثال الذي نحن بصدده في لوحتنا يكفيان للبرهنة على أن هذه المتعبدة الإلهية أو على الأقل «شبنوبت» كانت تحتل مكانة أكبر من وظيفة الملك نفسه في «طيبة»،

ومن الجائز أن يُعْتَرَض على ذلك بأن «كشتا» كان قد تُوُفِّيَ وأنها كانت وصية عندما كُتِبَتْ هذه اللوحة، ولكن هذا الاعتراض باطل لأنه كان له وارث وهو ابنه «بيعنخي» وكان يحمل لقب الملك، على أن ذلك لا يمنع من القول إنه في معبد «أوزير حاكم الأبدية» الموجود «بالكرنك» يشاهد «أوسركون الثالث» الحي واقفًا وراء ابنته «شبنوبت» التي كانت تحمل لقب الزوجة الملكية «لآمون» أي إنها كانت واقفة أمام شخصية تحمل ألقاب ملك مصر؛ ومن ثَمَّ نستنبط أن لقب الزوجة الإلهية «لآمون» وكذلك لقب المتعبدة الإلهية ولقب «يد الإله» كانت ألقابًا تجعل للمرأة التي تحملها الأفضلية على الفرعون نفسه.

وهذه الميزة تصبح ظاهرة لمن يدرس الحقائق والأعمال الخاصة بالأميرة «شبنوبت الأولى»، إذ تدل الأحوال على أنها كانت الرئيسة الْمُعَتَرَفَ بها من حيث السلطة الدينية أو الروحية في «طيبة» وذلك على غرار سلطة البابا الفعلية فقد كان ينحني أمام سلطانها الفراعنة وقتئذٍ وكانت سياستهم أن يعينوا إحدى بناتهم لتسلم هذه السلطة العظيمة. ولكن كان انتظار تولي مثل هذه الوظيفة قد يدوم وقتًا طويلًا وأحيانًا كان الانتظار بدون جدوى، وذلك أن «عنخنس نفرت أب رع» مثلًا قد انتظرت موت «نيتوكريس»[٢٣] مدة إحدى عشرة سنة وأن «أمنردس» الثانية ابنة «تهرقا» قد حُرِمَتْ تولى هذه الوظيفة على يد نفس «نيتوكريس» هذه.[٢٤]

وعلى أية حال فإن سلطان هؤلاء الزوجات الآلهيات «لآمون» كان روحيًّا أكثر من أي شيء وذلك لأننا نَرَاهُنَّ دائمًا مصحوبات بمدير بيت عظيم. وتدل النقوش على أنه كان في يد هذا المدير العظيم للبيت زمام الأمور في كل إقليم «طيبة» بمفرده باسم المتعبدة الإلهية وباسم الفرعون الذي كان يحكم في زمنه وهو الذي نشاهد غالبًا طُغْرَاءَهُ على المباني كما نشاهد طُغْرَاءَ الزوجة الإلهية الحاكمة كذلك معه.

وأظن أن «سترابون»[٢٥] قد حدَّد لنا كل ذلك عندما أخبرنا أن «أراتوتسين» يتحدث عن جزيرة أخرى تقع في أعلى «مروي» وأنها ستُحْتَلُّ بنسل هؤلاء المصريين الهاربين وهم الفارون من جيش «بسميتك» الذين يسميهم الأهالي «سمبريت» ولذلك قيل عنهم الأجانب وهم السكان الذين كانت السلطة الملكية عندهم في يد امرأة كانت تعترف هي نفسها بسلطان ملك مروي.

ولا نشك في أن هذا القول لا يبعد عن الحقيقة على الأقل بعد الهجرة إلى بلاد كوش (أثيوبيا) وذلك أن الملكة أو بعبارة أدق زوج «آمون» الإلهية كانت تعترف بسلطان ملك كوش العظيم الذي منحها إقليمًا من الأرض، وعلى ذلك فهي بصورة ما تابعة له

ومضيقته، ولكن لا نظن أنها كانت كذلك في «طيبة حيث نجد كما قلنا من قبل أن «شبنوبت» الزوجة الإلهية كان لها الأسبقية على الملك «أوسركون» الذي كان فيما سبق الكاهن الأول «لآمون» أي إنه كان أقل درجة من درجتها».

ويلحظ أن «شبنويت» التي نشاهدها في منظر اللوحة التي نحن بصددها ترتدي في معبد «أوزير حاكم الأبدية» بالكرنك نفس الملابس التي ترتديها في اللوحة التي تتحدث عنها؛ فهي تتحلى بالصل الملكي ويحتمل أن سبب ذلك لا يرجع إلى أنها أميرة ملكية وابنة «أوسركون الثالث» وابنة الملكة «كاراثيت» ولكن بوصفها زوج الإله «آمون». وعلى أية حال فإن هذه النقطة من المراسيم الفرعونية[٢٦] ستبقى غير واضحة دائمًا، وذلك لأن «شبنوبت» والزوجات الإلهيات اللائي خلفنها كُنَّ من دمٍ ملكي، وفضلًا عن ذلك كُنَّ يتسمين بالزوجات الإلهيات اللائي كُنَّ يشغلن الوظيفة فعلًا. وهذه الأسباب قد أعطتهنَّ الحق فعلًا في التحلي بالصل الملكي مفضلات ذلك على النسر الذي كانت تتحلي به الملكات.

ووجد لأمنردس حديثًا تمثال من الجرانيت الرمادي[٢٧] طوله متر عُثِرَ عليه مُلْقًى على وجهه مستعملًا أسكفه وقد مُثِّلَتْ عليه الملكة «أمنردس» واقفة على قاعدة مرتديه ثوبًا يُفَصِّلُ أعضاء جسمها وبيدها اليمنى منديل وفي اليسرى درة وترتدي على رأسها التاج الذي تلبسه عادة الزوجات الإلهيات ويتألف من ساق عليه قرص الشمس بين قرنين مستندين على ريشتين ولها شعر مستعار مُزَيَّنٌ بنقاب وتتحلى بأسورة وعقود حول رقبتها والتمثال يستند على لوحة نُقِشَ عليها ما يأتي: «الأميرة صاحبة الحظوة العظيمة والمديح الْمُسْتَفَاضِ وربة الرشاقة والحلاوة والحب سيدة كل ما يحيط به «آمون» وسيدة التاج ذي الريشتين وجميلة اليدين بصناجتيها عندما تهدي الأب «آمون رع» والتي تنشد المدائح وتحضر الإله إلى مكانه، وتتحد مع الحكم الإلهي، بنت «آمون» محبوبته التي يلذ بها قلبه، كل شيء يعمل لها بقدر ما يحبها أي ابنة الملك (…) المبرأة واليد الإلهية «أمنردس» المبرأة عملته (أي هذا الأثر) ابنتها التي صنعته لأجلها الزوجة الإلهية «شبنوبت» لأجل أن تجعل اسمها ثابتًا في بيت «آمون» سرمديًّا». ونرى من هذا النقش أنه قد أُهْدِيَ، للأميرة «أمنردس» بعد موتها من ابنتها «شبنوبت» التمثال الذي نحن بصدده، وقد كشف فعلًا لهؤلاء الزوجات الإلهيات عن عدة تماثيل معظمها كبير الحجم. وتمثال «أمنردس» الذي نحن بصدده الآن تمثال جميل المنظر صناعته متقنة جدًّا وليس في النقوش ما يدل على أن صاحبته كانت في «الكرنك» في الأصل أو في «الأقصر» وإن كان ذكر «بيت آمون» يشير إلى أنه كان في معبد «الكرنك»، كما يدل على ذلك الآثار الحديثة التي كشف عنها الأثري ربيشون».

هذا ونجد في «الكرنك» المباني التالية جاء عليها ذكرها:

(١) مقصورة في الشمال الشرقي لقاعة الأعياد التي أقامها «تحتمس الثالث».
(٢) مقصورة في معبد الإله «منتو» وقد وجد فيها تمثال جميل مصنوع من المرمر[٢٨] ومجموعة تماثيل مُثِّلَتْ فيها مع الإله «آمون».[٢٩] هذا إلى آثار أخرى جاء عليها اسمها.[٣٠]

هوامش

(١) راجع: Porter and Moss, Vol. 8, p. 196; El Kurru, pp. 46–47.

(٢) راجع: Nastasen Stela (Berlin 2268) Urkunden III, 137 ff.

(٣) راجع: J.E.A. Vol. XXXV, PI. XV [34 a.b]; El Kurru I, 19–3–537 [34 a]; L.R. IV, p. 5 ff. [34 b.].

(٤) راجع: J.E.A. Vol. VI p. 347–259; Porter and Moss 8 b. 212 ff.

(٥) لم توجد في المعبد ودائع أساس.

(٦) راجع: L.R. IV. P. 5.

(٧) راجع: A.Z., XIV, p. 50.

(٨) راجع: Sayce Moroe (1911) p. 3.

(٩) راجع: Revue D'Egyptologie Tom. 8 p. 215 ff. حيث نجد قائمة بأسماء الآثار التي وُجِدَ عليها اسم هذا الفرعون.

(١٠) راجع: A.S.,X. p. 9–10.

(١١) راجع: El Kurru, No. 7, p. 44.

(١٢) Kawa sttela V, Barkal Temple 300; L.D. V, Pl, 7c; J.E.A. Vol. XXXV, p. 141.

(١٣) راجع: El Kurru, 4, p. 30; J.E.A. Vol XXXV, p. 144.

(١٤) راجع: L.R., IV p. 5, 6, 7.

(١٥) راجع: A.Z., 35, p. 28–29.

(١٦) راجع: L.R., IV, p, 8.

(١٧) راجع: Frank Knight. Nile and Jordan (1921) p. 290; Sir Armand Ruffer Proc. Royal Soc. Med, (1920) p. 12.

(١٨) راجع: L.R. III, p. 282.

(١٩) راجع: Elliot Smith, Royal Mummies, No, 610, 88-89; Momies Royales, p. 77.

(٢٠) راجع: A.S., 10, p 111.

(٢١) راجع: Petrie, a Season in Egypt, p. 12 Pl. IX and No 263; De Morgan, Cat. de Mon. and Inscr. De I'Egypte Ant. Tom. I. 38 Nr. 164.

(٢٢) راجع: Legrain, A.S., Tom. IX, p. 277.

(٢٣) راجع: A.S., V, p. 84 ff.

(٢٤) راجع: A.Z., XXXV, p. 18.

(٢٥) راجع: Strabon, XVII, 1.

(٢٦) أي تقديم الزوجة الإلهية في المراسيم على الملك.

(٢٧) راجع: A.S., LI, p. 456.

(٢٨) راجع: Cairo Museum, 565.

(٢٩) راجع: Cairo Museum 42199; Porter and Moss, p. 69, 5 and 97.

(٣٠) راجع: Revue D'Egyptologie, Tom. 8, p. 215 ff.

الفصل الثالث والعشرون

العلاقة بين السياسية والدين في الدولة في أثناء تلك الفترة

مقدِّمة: ذكرنا من قبل أن المتعبدة الإلهية أو كاهنة الإله آمون العظمى كانت صاحبة سلطان روحي قبل كل شيء وأن الإدارة الدنيوية لكل أمورها في إقليم طيبة كانت في يد المدير العظيم للبيت، وهذه الوظيفة كان لها مكانة هامة في البلاط الفرعوني منذ الأسرة الثامنة عشرة، فكان صاحبها يسيطر على كل أملاك الفرعون الخاصة، بل أحيانًا كانت تتعدى سلطته ذلك فيطغى على سلطات كبار موظفي الدولة[١] وهو في الواقع يشبه ما كان موجودًا في مصر في عهد الطغيان حديثًا. فكثيرًا ما كان مدير الخاصة الملكية أو رئيس الديوان الملكي يتدخل في كثير من أمور الدولة. وقد عُثِرَ على مجاميع من التماثيل لبعض هؤلاء المديرين العظام لأملاك الْمُتَعَبِّدَاتِ الإلهيات وما جاء على هذه التماثيل من نقوش يقدم لنا صورة واضحة عمَّا كان لهم من نفوذ وسلطان، ومن جهة أخرى تكشف لنا تماثيلهم عن صفحة جديدة في نهضة الفن التي بدأت في هذا العهد وكان غرضها الرجوع إلى القديم وبخاصة العهد الذي ازدهر فيه الفن المصري.

الزوجة الإلهية أو المتعبِّدة الإلهية أو يد الإله:

ولكن قبل أن نتحدث هنا عن المديرين العظام للبيت في تلك الفترة، ينبغي علينا أن نذكر كلمة عن الزوجة الإلهية «لآمون» في هذا العهد الذي نحن بصدده خلافًا لما ذكرناه من قبل عنها.[٢]

والواقع أنه كُتِبَ كثيرًا عن الأميرات اللائي كُنَّ يحملن لقب زوجات الإله وطبيعة وظيفتهنَّ وقد أصبحت الآن معروفة. وعلى أية حال فإنه على الرغم من أن الكشوف

الحديثة التي قام بها «ريزنر» في «نباتا» و«مروي» قد وضعت ترتيب ملوك كوش على أساس شبه متين كما رأينا من قبل، وبذلك أزالت عدة فروض خاطئة عن شخصية هؤلاء الملوك، فإنه لا تزال تذكر بعض أخطاء قديمة في هذا الصدد في الكتب الحديثة وعلى ذلك يمكن أن تدلي بالموجز الآتي عن هؤلاء الزوجات الإلهيات.

كانت «شبنوبت الأولى» ابنة «أوسركون الثالث» في وقت الفتح الكوشي لمصر تشغل وظيفة الزوجة الإلهية «لآمون طيبة»، ولكن لا بد من الملاحظة هنا أن «أوسركون الثالث» هذا كان له ابنتان تُدْعَى كل منهما باسم «شبنوبت». ولكن إحداهما أصبحت الزوجة الإلهية؛ ومن ثَمَّ حدث ارتباك لا فائدة منه عندما كانت تُدْعَى الأخرى «شبنوبت الثانية» كما حدث كثيرًا. ومن ثَمَّ اعْتُقِدَ أن «شبنوبت الأولى» سبقتها في الوظيفة وهذا خطأ.

والزعم السائد هو أن «بيعنخي» قد أجبر «شبنوبت» على أن تتبنى «أمنردس» ابنة «كشتا» والده وأن تكون خليفتها في هذه الوظيفة، وقد وقعت هذه الحادثة في عهد فتح «بيعنخي» للبلاد المصرية حوالي عام ٧٢٠ق.م. وقد عزا بعض الأثريين هذا التبني الإجباري للملك «كشتا» نفسه لا للملك «بيعنخي»[٣] وآخر من اتبع الرأي الأخير هو «دوس دنهام»[٤] وعلى أية حال لا يوجد دليل مادي يُعَزِّزُ أحد الرأيين. والمتن الوحيد الذي يشير إلى تاريخ التبني هو المتن الذي عُثِرَ عليه في «وادي جاسوس» وهو الذي جاء فيه أن السنة التاسعة عشرة من عهد «شبنوبت» تقابل السنة الثالثة عشرة من عهد تبنيها للزوجة الإلهية «أمنردس».[٥] ومن ذلك نعلم أن «شبنوبت الأولى» كانت تشغل وظيفة الزوجة الإلهية مدة ست سنوات قبل تَبَنِّي «أمنردس» وأن الأميرتين قد حَكَمَتَا على أقل تقدير نحو ثلاث عشرة سنة معًا.

هذا ونعلم من آثار «أمنردس» الكثيرة أنها كانت ابنة الملك «كشتا» وأخت الملك «شبكا»، وكذلك أخت الملك «بيعنخي».[٦] ولم يصل إلينا تاريخ تَوَلِّي «أمنردس» وظيفتها، كما لم يصل إلينا تاريخ نهاية حكمها، أي إن مدة توليها الملك بعد «شبنوبت الأولى» ليست معروفة لدينا. هذا ولا نعرف كذلك حتى الآن السنة التي تبنت فيها «شبنوبت الثانية» ابنة أخيها «بيعنخي» وكل ما يمكن الإدلاء به هو أن جزءًا من حكمها يتفق مع جزء من حكم «شبكا» إذ نجد في نقوش «وادي الحمامات» السنة الثانية عشرة من حكم «شبكا» وقد وُجِدَتْ طُغْرَاؤُهَا مع طُغْرَائِهِ،[٧] والظاهر أنها ماتت إما في عهد الملك «تهرقا» أو قبله وقد وُجِدَتْ «شبنوبت الثانية» مُمَثَّلَةً مع «تهرقا» في معبد «أوزير» بالكرنك بوصفها لا تزال على قيد الحياة، في حين أن «أمنردس» مُثِّلَتْ بوصفها في عالم الآخرة.[٨]

وتعد في العادة أخت هذا الفرعون وبنت «بيعنخي»، وكانت «شبنوبت الثانية» تشغل وظيفتها في عهدي الملكين «تهرقا» و«تانون آمون» والجزء الأول من عهد «بسماتيك الأول» حتى السنة التاسعة من حكم هذا الفرعون الأخير (٦٥٤ق.م.).[٩] وقد ماتت قبل السنة السادسة والعشرين من حكم «بسمتيك». ويمكن استنباط ذلك من نقوش مدير البيت العظيم «إبا» (Iba) إذ نجد على تمثاله المحفوظ بالمتحف المصري[١٠] سرد الوظائف التي كان يشغلها في عهد «نيتوكريس»، وكذلك يتحدث عن ترقيته إلى وظيفة مدير البيت العظيم في السنة السادسة والعشرين من عهد الملك «بسمتيك الأول». وواضح من المتن ومن نقوش قبره في «طيبة»[١١] أن الزوجة الإلهية التي كان هو المدير العظيم لبيتها هي «نيتو كريس» أو بعبارة أخرى كانت «شبنوبت» قد ماتت وقتئذٍ.

وقد تبنت «نيتو كريس» ابنةَ «بسميتك الأول» في السنة السادسة والعشرين من حكمه. أما «أمنردس الثانية» التي لا نعرف عنها شيئًا يُذْكَرُ فهي ابنة «تهرقا» وقد تبنتها أولًا «شبنوبت الثانية» ثم خُلِعَتْ ونُصِّبَ مكانها «نيتوكريس» وهي لا تعنينا هنا لأنها لم تَتَوَلَّ هذه الوظيفة قَطُّ.

وقد امتدَّ حكم «نيتو كريس» طوال حكم «بسمتيك الأول» وحكم الملك «نكاو» ثم «بسمتيك الثاني». وقد تبنَّت «عنخنس نفرت أب رع» ابنة «بسماتيك الثاني» في السنة الأولى من حكم هذا الفرعون حوالي ٥٩٣ق.م. وماتت في السنة الرابعة من حكم الملك «أبريز» ٥٨٤[١٢]ق.م. وقد شغلت «عنخنس نفرت أب رع» هذه الوظيفة مدة تعادل مدة سابقتها وهي آخر من ظهر مع «بسمتيك الثالث» في الرسوم في سنة الفتح الفارسي ٥٢٥ق.م. في معبد «أوزير» بالكرنك.[١٣]

وقد حكمت هذه الزوجات الإلهيات الأربع اللائي عِشْنَ في العهدين الكوشي والصاوي ما يقرب من مئتي سنة، وقد تولى في عهد هؤلاء الزوجات الإلهيات أو المتعبدات الإلهيات وظيفة المدير العظيم للبيت سبعة رجال كانوا يقومون بإدارة شئون ملكهنَّ، وقد حكم في نفس المدة أحد عشر ملكًا على عرش مصر بالتوالي. وأول هؤلاء المديرين العظام لبيت الزوجة الإلهية هو: «حاروا».

مدير البيت العظيم حاروا:

جاء ذكر هذا المدير العظيم على ثمانية التماثيل التي عُثِرَ عليها له بأنه كان يدير بيت الزوجة الإلهية، كما ذُكِرَ عليها ألقابه الأخرى، غير أنه لم يذكر اسم الملك الذي كان عائشًا في عهده[١٤] ومن المحتمل أنه في عهد توليه منصب المدير العظيم لبيت الزوجة الإلهية «أمنردس» قد شاهد حفل تبنيها للزوجة الإلهية «شبنوبت الثانية» وبما أنه لم يذكر لنا هذا الحادث فمن المحتمل أنه لم يكن يشغل وظيفته هذه بعدُ، وأن «أخآمون رو» كان قد حل محله في إدارة بيت المتعبِّدة الإلهية وسنتحدث عنه فيما بعد.

وتعد تماثيل حاروا مدير البيت العظيم للمتعبدة الإلهية «أمنردس» من الأهمية بمكان من وجوه عدة وبخاصة من الوجهة الفنية إذ نجد أن بعضها يعبر تعبيرًا صادقًا غير عادي في الفن المصري. والواقع أن الأسلوب الذي ابتدعه الفنان في نحتها يُعَدُّ فريدًا في بابه فهو يدل على أن المَثَّالَ الذي نحتها كان من مدرسة تميل إلى تمثيل الأشياء على حقيقتها دون مراعاة إخراج صورة جميلة أو عمل تحسين فيها مهما كانت قبيحة في الأصل كما سنرى هنا التماثيل الأربعة التي أخرجها لنا هذا الفنان المجهول الاسم. وتدل شواهد الأحوال على أن الاختلافات الدقيقة التي نتجت من فحص هذه التماثيل لم تكن عن تقصير من الْمُفْتَنِّ، بل لأن هذه التماثيل قد نُقِلَتْ صورها في أزمان متفاوتة العهد، أي في فترات مختلفة من مجال حياة هذا الرجل العظيم. والواقع أننا لا نرى في تماثيله صورة كلاسيكية مثالية رُوعِي فيها أن تكون جميلة بل نجد صورًا حقيقية لم يَسْعَ في إبرازها المثال وراء الجمال بل وراء الحقيقة بعينها، إذ نجد أنه قد مثله بخدين متدليين وفم مكشر عن أنياب وبطن ذي تجاعيد مكدسة بالشحم وصدر ذي ثديين عظيمين لا فرق بينهما وبين ثديي المرأة. ويذكرنا رأسه الكبير وصدره الضخم بتمثال يقرب تاريخه من تاريخ التماثيل التي نحن بصددها وهذا التمثال هو لفرد يُدْعَى «أريجاديجانن» الذي عُثِرَ عليه في خبيئة الكرنك (Nr. 38218)[١٥] وهو من الجرانيت الأسود وقد مُثِّلَ برأس أصلع وبطن ضخم وثديين ضخمين كثديي المرأة، وهو يشبه المرأة في صورته حتى إنه كان من المتعذر معرفة إن كان ذكرًا أو أنثى لولا ما ذكر معه من ألقاب تدل على أن التمثال لرجل، فقد كان يلقب الأمير الوراثي وقريب الملك ومحبوبه «أريجاديجانن» وهذا العظيم يظهر أنه كان ذا صلة بملوك كوش في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، وعلى الرغم من أنه وُجِدَ مع تماثيل «حاروا» في مكان واحد فإن الأثري «مسبرو» لم يقرنه به، ولكن الواقع أن كل من «حاروا» و«اريجاديجانن» يعد من عهد واحد ومعاصرين لما

بينهما من تشابه من جهة الفن، هذا فضلًا عن أنه يوجد تشابه في الجسم وعلى ذلك فهما من أصل سوداني واحد. ولا بد أن الفتح الكوشي لمصر قد جلب معه إلى «طيبة» — وهذا أمر طبعي — عددًا عظيمًا من مواطني الحكام الجدد ولذلك نرجح أن كلًّا منهما من أصل سوداني. ويلفت النظر أن اسم «حاروا» لا يوجد كثيرًا في أسماء الأعلام المصرية، ومع ذلك يمكننا أن نذكر أربعة أشخاص بهذا الاسم عاشوا في نفس الوقت الذي عاش فيه «حاروا».[١٦]

وقبر «حاروا» هذا معروف تمامًا في «طيبة» غير أنه مهشم، وقد عثر «لجران» على بعض تماثيل في خبيئة الكرنك لم تنشر ومجموعة التماثيل التي وُجِدَتْ له حتى الآن سبعة وقد نشرها الأستاذ «جن» (Gunn) وعلق عليها كل من الأستاذ «كوبر» والأثري «ريدر». وسنحاول هنا أن نصف هذه التماثيل بصورة موجزة ونترجم نقوشها ثم نقدم لمحة عن أهميتها وبخاصة أنها من عصر غامض لا يعرف القارئ العادي بوجه عام عنه إلا القليل وإن كانت الكشوف الحديثة قد أظهرت كثيرًا مما يلقي الضوء على هذا العهد.[١٧]

(١) التمثال الأول: محفوظ بالمتحف المصري وهو يمثل «حاروا» قاعدًا وهو مصنوع من الحجر الأخضر الصخري المتحول وارتفاعه ٤٥ سنتيمترًا ورأسه مكسور وهو يمثل «حاروا» بجسم ضخم كما هي الحال في تماثيله الأخرى. وقد حاول المثال أن يجعل مُحَيَّاهُ صورة ناطقة طبق الأصل. ويلحظ أن الأنف قد كُسِرَ أما الشفتان فمُدَلَّاتَانِ ومن المحتمل أن ذلك يرجع إلى فقدان الأسنان، ويسود على طابع الهدوء وملامح الشفقة مما يتفق مع صفاته التي ذُكِرَتْ في المتن الذي نُقِشَ على التمثال.

المتن: نجد على جانبي صدر التمثال صورة للإله «أوزير» ومعها الكلمات التالية: «المدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية». هذا ونُقِشَ على الجزء الأعلى من الذراع: يد الإله المرحومة «أمنردس». ونُقِشَ على الكتاب الذي يحمله ما يأتي: يا «أوزير» الأمير الوراثي والحاكم وحامل خاتم ملك الوجه البحري والسمير الوحيد المحبوب، والمدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية وقريب الملك الحقيقي المحبوب المبرأ «حاروا» قربان يقدمه الملك ليمنحك في كل أماكنك وفي كل مراتبك والتمتع بنفس الحياة بعد الموت ولتصير روحًا ويصير قلبك شابًّا مغمورًا بالطعام ولتتمتع بالنبيذ ولتأخذ من اللحوم كل ما ترغب ولتصير منعمًا في السماء وقويًّا على الأرض ولتعبد «رع» بين المبجلين لديه وليكون لك فمك ولسانك اللذان يرشدانك والرياح الأربعة لأنفك ولتأخذ الأشكال (التي تروق في عينك) ولتكون عائشًا بالسحر مع «أنوبيس» ومع «أوزير» ومع «الجبانة الغربية».

ونقش على ظهر التمثال متن مُهَشَّمٌ تبقى منه ما يأتي: «... آلاف ... آلاف من النسيج والعطور ... (الأشياء) التي ينشرح بها الإله لأجل روح الأمير الوراثي والحاكم «حاروا»».

ونُقِشَ على أسفل العمود الذي يرتكز عليه التمثال ما يأتي: «الأمير الوراثي والحاكم وحامل خاتم ملك الوجه البحري والسمير الوحيد المحبوب والصديق الحميم المحبوب من سيده ومن فضله الملك على أقرانه، ومن يشق الطريق والمنعم عليه وعظيم العظماء وأشرف الشرفاء والموظف على رأس الموظفين ومن يصغي الملك لكلامه في اليوم الذي يُقَادُ إليه فيه المديرون، ومدير القصر المبرأ «حاروا»».

(٢) التمثال الثاني: يوجد في المتحف المصري وهو بدون رأس وقد مُثِّلَ قاعدًا وهو مصنوع من الجرانيت الرمادي وارتفاعه ٤٤ سنتيمترًا وعثر عليه في خبيئة الكرنك[١٨] وهاك المتون التي نُقِشَتْ عليه:

المتن المنقوش على البردية المطوية أمام «حاروا»: الأمير الوراثي والحاكم وحامل خاتم ملك الوجه البحري والسمير الوحيد المحبوب والمدير العظيم لبيت زوج الإله المبرأ «حاروا» يقول: إن من سيمد يده إلى (؟) بقربان يقدمه الملك، وإن من يدعو لروحي بسبب شفقة قلبي سيكون أسن بلده، وأكثر الناس تبجيلًا في مقاطعته وذلك لأني رب المحبة وإنسان حبه عظيم، ورجل أخلاق وموهوب بالرقة وصائد صيد عظيم من الطيور البرية والسمك، ورجل ميسور جدًّا يطعم فقراء مقاطعته. وقد قضيت الشيخوخة ... فمي وإني لم أخلص المجرم. وإني في حظوة كبيرة عند الملك، ومكانتي بارزة في بيت سيدتي. وإني لم أغتب أحدًا آخر ولم أضر فاعل خير، وقد علمني قلبي أن أكون لطيفًا وقادني إلى الفضيلة وقد تكلمت الصدق وعملت الحق، وإني أعلم يوم الوصول (أي يعلم يوم الوصول إلى عالم الآخرة حيث يُحَاسَبُ هناك). وإني لم أفعل شيئًا مُسِيئًا وليس لي ذنب أمام الآلهة وعندما يكون الإنسان قد عمل (طيبًا) فإن الناس تعمل له (طيبًا) ومن ... ما هو قديم فهو باقٍ (؟) المبجل عند رب السماء المبرأ «حاروا».

النقوش التي على السطح العلوي للقاعدة: المكرم عند «يد الإله» المبرأة «أمنردس» وحظيها الحقيقي الذي اختارته، والذي يعمل ما تريده يوميًّا، والذي يشق طريقه إليها، وبذلك فإنه مبجل، والذي يفعل له ما هو حق دون معارضة حضرتها، وبذلك تصبح سعيدة بما ترغب فيه؛ وإنه رفيق حقيقي لفك من قيد وإخراج من قد غمر في حضرة سيدته، وإنه واحد يتكلم طيبًا ويبلغ حقًّا وإن لذته الرئيسية أن يجعل

مدن «آمون» ممكنة. وإنه مبجل عند رب السماء، المبرأ «حاروا» سيد الاحترام ابن المبرأ القاضي «بديموت».

ونقش حول القاعدة: قربان يقدمه الملك للإلهة «موت» ربة السماء وعين رع التي في وجهه. ليقدم مئونة جنازية لروح قريب الملك «حاروا» المبجل حقًّا ابن المبرأ القاضي «بديموت» سيد التبجيل من أَنْجَبَتْهُ ربة البيت المبرأة «نست ورثت»، قربان يقدمه الملك للإله «خنسو» الواحد العظيم الخارج من المحيط الأزلي لأجل أن يمنح النسيم العليل من ريح الشمال الذي يخرج منه لأن «حاروا» والمبجل حقًّا … إلخ.

(٣) التمثال الثالث: محفوظ بالمتحف المصري.[١٩] وهذا التمثال بدون رأس وقد مثل «حاروا» قاعدًا وهو مصنوع من الجرانيت الأسود وارتفاعه ٦٣ سنتيمترًا عُثِرَ عليه في خبيئة الكرنك وقد نُقِشَ على كتفه الأيمن طُغْرَاءُ غير أنها مُحِيَتْ، وعلى كتفه الأيسر نقش طُغْرَاءُ «أمنردس».

النقش الذي على البردية المطوية: المبجل عند «آمون» رب تيجان الأرضين والأمير الوراثي والحاكم وحامل خاتم ملك الوجه البحري والسمير الوحيد والمدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية والمسيطر على كل وظائفها المقدسة … المبرأ «حاروا» يقول «أنتم يأيها الكهنة والكهنة آباء الآلهة والكهنة الْمُرَتِّلُونَ والكهنة المؤقتون لمعبد «آمون» وكل الذين يدخلون في معبد «آمون» ليقيموا شعائر صالحة إن إلهكم الفاخر سيعيش لكم وسيثبتكم لنفسه (؟) على حسب ما تقولون، قربانًا يقدمه الملك من خبز وجعة وثيران وأوز وكل شيء طيب طاهر مما يعيش منه الإله لأجل … «حاروا» ولروحه، إن حبي حلو في قلوبكم، ومديحي معكم فقدِّموا قربانًا لي لأني المحبوب من سيده والحظي عند الإله، وإني شريف تمامًا مجهز بمدائحه، وإنسان محبوب من مدينته وممدوح في مقاطعته رحيم بالعظيم (؟) … وإنسان يتكلم جميلًا ويقرر كل حسن … طيب. وإن نفس فمك مفيد للصامت. وهو ليس بالشيء الذي يصير به الإنسان متعبًا وأن من يحيي ذكرى المبرأ «حاروا» فإنه يكون مؤديًا ما يحبه «آمون» رب السماء».

النقش الذي على ظهر التمثال: «قربان يقدمه الملك لآمون رب الأرضين الذي يخترق السماء كل يوم باستمرار ليقدم خبزًا وجعة وثيرانًا وأوزًا وكل شيء طيب وطاهر مما يخرج يوميًّا على مائدته في عيد الشهر وعيد نصف الشهر وكل يوم عيد سرمديًّا لروح من هو في حظوة «آمون» رب السماء وقريب الملك الحقيقي ومحبوب سيدة والممدوح من سيدته والذي يفعل ما يحبونه يوميًّا المدير العظيم لبيت يد الإله «حاروا» بن المبرأ «نست ورثت»».

(٤) التمثال الرابع:[٢٠] لم يبق من هذا التمثال إلا جذعه وهو مصنوع من الجرانيت الأسود وارتفاعه ٥٣ سنتيمترًا عُثِرَ عليه في «طيبة» وعلى الرغم من تهشيم الاسم فإن كل الدلائل توحي بأنه للمدير العظيم للبيت «حاروا». وقد نُقِشَ على قميصه من أسفل: «المقرب عند الملك والأمير الوراثي والحاكم وقريب الملك الحقيقي ومحبوبه والذي يعمل ما … يرغب فيه». ونقش على الظهر: «… الإله العظيم رب «العرابة» ليته يمنحه مئونة جنازية من خبز وجعة وثيران وكتان ونسيج وعطور وكل الأشياء الطيبة مما يعيش منه الإله … رب الأرض المقدسة، ليته يمنح دفنًا جميلًا في الجبانة الغربية الطيبة العظيمة بمثابة رجل مبجل».

(٥) التمثال الخامس:[٢١] يبلغ ارتفاع هذا التمثال حوالي ٠٫١٧٥ مترًا وهو مصنوع من الجرانيت الأخضر أو الديوريت ولا يُعْرَفُ المصدر الذي أتى منه، ويشاهد فيه أن «حاروا» يرتدي ثوبًا بكمين قصيرين وهو يجلس بصورة غير عادية ظهره متجه نحو لوحة منقوشة ممسكًا بصورتي إلهتين وهما «حتحور» و«تفنوت» ومن المحتمل أن «أمنردس» قد مُثِّلَتْ في صورتي هاتين الإلهتين، وبخاصة عندما نعلم أن اسمها قد نُقِشَ بين صورتين هاتين الإلهتين هذا إلى أن كلًّا منهما يلبس الصِلَّ الملكي. ويدل منظر التمثال الجانبي على أن صاحبه رخو سمين، غير أن ثوبًا يغطي جسمه حتى الرقبة، وبذلك غطى طيات الشحم التي نشاهدها في تماثيله التي في متحف القاهرة، ووجه هذا التمثال أعرض من وجه التمثال رقم واحد[٢٢] ولكن نشاهد فيه طول الرأس وفرطحته غير مألوفين.

النقوش: نقش على الصدر بين صورتي الإلهتين ما يأتي: «يد الإله المبرأة «أمنردس»». ونقش على الجانب الأيمن من القاعدة: «عمله الحظي «حاروا» لأجل الخادم (يقصد نفسه) الذي ليس ببعيد من سيده».

وعلى الجانب الأيسر من القاعدة نُقِشَ: عمله الحظيُّ «حاروا» ابن «بديموت». ونُقِشَ على اللوحة التي خلف التمثال ما يأتي: «يا يد الإله يا «أمنردس» المبرأة إن أختك «إزيس» تأتي إليك فرحة بحبك وإنها تشاهد وإنها تصد (؟) قدميك وإنها تحميك من الغرق وإنها تمنحك الهواء لأنفك حتى تعيشي وإنها تفتح حنجرتك، وإنك لن تموتي أبدًا يأيتها المتعبدة الإلهية يا «أمنردس» ابنة الملك «كشتا» المبرأ».

(٦) التمثال السادس: يوجد هذا التمثال بمتحف اللوفر[٢٣] وهو مصنوع من الديوريت وارتفاعه ستون سنتيمترًا عُثِرَ عليه في «طيبة» وهو من التماثيل التي على

هيئة حزمة ويظهر عليه علامات الترهل ووجهه من طراز أوجه تماثيل العصر الصاوي التقليدية ومتون هذا التمثال بينها وبين متون التمثال السابع أوجه شبه كبيرة.

(٧) التمثال السابع: محفوظ الآن بمتحف «برلين»[٢٤] وهو من الجرانيت الأسود ويبلغ ارتفاعه ٠٫٤٨٧ مترًا ومن طراز التماثيل الشائعة في هذا العهد أي مُثِّلَ في صورة رجل قاعدًا القرفصاء وملفوفًا في ملابسه ولا يظهر من جسمه إلا الرأس.

النقوش: وهاك ما جاء على التمثال السادس من نقوش فعلى الكتف الأيمن: «زوج الإله ويد الإله «أمنردس» المبرأة والنقش المقابل لذلك على التمثال السابع» يد الإله «أمنردس» المبرأة.

ونقش على الجزء الأمامي من التمثال السادس ما يأتي: «الأمير الوراثي والحاكم، قريب الملك والصديق الحميم لسيدته خارج أرضها، وحافظ تاج متعبدة الإله وكاهن «أنوبيس» المحنِّط لزوج الإله وكاهن يد الإله المرحومة «أمنردس» في بيت زوجها والمشرف على بيت الروح لكهنة الروح وكاهن «أوزير» مُعْطَى الحياة، والذي يدخل أولًا ويخرج آخرًا، ومن تتحدث إليه سيدته عندما تكون وحدها، ورئيس الخدم (سنرم عش) للمتعبدة الإلهية «حاروا» المبرأ يقول: «إن كل من يدخل ليعمل قرابين وليؤدي خدمة كاهن الشهر، فإن الإله الفاخر سيعيش لك وإنك ستكون طاهرًا له على حسب ما ستقول قربان، يقدمه الملك، ألف من الخبز والجعة والفطائر والثيران بعد أن يكون الإله قد أخذ كفايته لقريب الملك «حاروا» ولروحه لأني شريف طيب مُحَلًّى بمدائحه، وإنسان تعرف الأرضان فضائله، وإني لست قاسيًا، فإني مَنْجَى الغريق ومرقاة لمن في الهاوية والمبجل «حاروا» المرحوم».

النقش الذي على الجانب الأيمن من التمثال السادس: «من يبجله الملك والمدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية المحبوب حقًّا وقريب الملك والمشرف على خدام المتعبدة الإلهية لآمون «حاروا» المرحوم يقول: «أنتم يأيها الكهنة والكهنة آباء الآلهة والكهنة المرتلون إن كل واحد منكم سيمر بهذا التمثال — ذلك الروح الذي في «طيبة» (؟) والإله الفاخر الذي يشرف على حريمه سيعيش من أجلكم على حسب ما تقولون: ألفًا من الخبز وألفًا من الجعة وألفًا من الفطائر وكل الأشياء الطيبة لأجل روح المبجل المرحوم «حاروا» لأنني شريف وينبغي على الإنسان أن يعمل له شيئًا، وإني قويُّ القلب حتى نهاية الحياة، وإني إنسان محبوب من مدينته وممدوح من مقاطعته ورحيم القلب لمدنه. ولقد عملت ما تحبه الناس وكل ما تمدحه الآلهة. وإني إنسان مبجَّل حقًّا، لا عيب فيه،

يُعطي الجوعان خبزًا والعريان لباسًا، ويقضي على الألم ويزيل المصيبة، ويدفن المبجلين ويساعد المسن ويقضي حزن المعوز ... ولقد عملت هذه الأشياء عالمًا بوزنها، ليست المكافأة عليها تكون عند الآخرين هي البقاء في فم الناس دون أن تفنى أبديًّا والذكرى الحسنة بعد مرور السنين وأن يكون نفسي في أفواهكم مفيدًا للصامت (أي الْمُتَوَفَّى) ولا يكلف شيئًا من متاعكم».

وعلى الجهة اليسرى: «الأمير الوراثي والحاكم المبجل عند سيدته وصاحب الحظوة عند سيدته حلو الفم حسن الكلام للكبير والصغير والذي يقدِّم النصيحة للخجل عندما يكون حظه سيئًا، والذي يقوم شاهده ليتكلم (؟) رحيم اليد مطعمًا كل الناس، ومرضيًا من لا شيء عنده بما ينقصه، قريب الملك ورئيس خدم المتعبدة الإلهية «حاروا» ابن الكاتب «بديموت» يقول: إني أتحدث إليكم يا من تأتون في المستقبل بوصفكم مخلوقات جدد في ملايين السنين. إن سيدتي قد جعلتني عظيمًا عندما كنت صبيًّا صغيرًا وقد رفعت مكانتي عندما كنت طفلًا وقد أرسلني الملك في بعوث وأنا شاب. وحور سيد الأرضين ميَّزَنِي، وكل بعث أرسلني فيه جلالته أنجزته تمامًا، ولم أقل كذبًا قط عنها، وإني لم أسرق أحدًا وإني لم أرتكب ذنبًا وإني لم أذم أحدًا أمامهم وقد ذهبت إلى الحضرة لفك المغلول ولأخلص الرجل الفاضل وأعطيتُ مَنْ لا شيء عنده أشياء وأغنيت اليتيم في مدينتي لتبقى روحي بسبب رحمة قلبي».

النقوش التي على ظهر التمثال: قربان يقدمه الملك «لآمون رع» وللآلهة «موت» ربة السماء وللإله «خنسو نفر حتب» ليقدموا قربانًا جنازيًا وكل أشياء طيبة وطاهرة مما يعيش عليها الإله في الأعياد الشهرية ونصف الشهرية وكل عيد لروح المبجل عند آلهة «طيبة» وصاحب الحظوات، ومن حبه منتشر ومن نعماؤه سببت حبه، ومن أعطى المحتاج طعامًا وفارغ اليد مئونة، والمحروم ملاذ، رئيس خدم المتعبدة الإلهية المبرأ «حاروا».

نقوش التمثال السابع: لا تختلف نصوص هذا التمثال كثيرًا عن نقوش التمثال السادس وهاك ترجمته:

على الكتف اليمني: الكاهنة يد الإله «أمنردس» المبرأة.

على الكتف اليسري: الكاهنة يد الإله رب الأرضين «أمنردس» المبرأة.

على الجزء الأمامي: الأمير الوراثي والحاكم حامل خاتم الوجه البحري قريب الملك الحقيقي ومحبوبه وحافظ تاج الزوجة الإلهية، ومن هو عند قدمي الملك في الحريم الملكي

وكاهن «أنوبيس» المحنط التابع لزوج الإله «أمنردس» المبرأ وكاهن بيت روحها والمشرف على خدم بيت الروح وكاهن «أوزير» مُعْطَى الحياة والمدير العظيم للبيت «حاروا» ابن الكاهن «بديموت» المبرأ يقول: «أنتم يأيها الكهنة والكهنة أباء الآلهة والكهنة المطهرون والكهنة المرتِّلون وكل الذين يدخلون معبد «آمون» صاحب «الكرنك» ليقيموا الشعائر الصالحة لعمل القربان وللقيام بخدمة الكهانة الشهرية، إن الإله الفاخر سيعيش من أجلكم وإنكم ستكونون مطهرين له، وإنه سيجعلكم ثابتين في حظوته طالما تقولون قربانًا يقدمه الملك: ألف من الخبز والجعة والفطائر والثيران وأواني المرمر والملابس والبخور والعطور وكل شيء جميل طاهر، وستقولون ذلك بعد أن يكون الإله قد أخذ كفايته منها، لأجل قريب الملك «حاروا» ولأجل روحه لأني شريف طيب مُزَيَّنٌ بالمدائح، وإنسان تعرف الأرضان فضائله وإني لست قاسيًا بل إني عائمة نجاة للغريق وسلم لمن في الدوامة وإنسان يتكلم في صالح المصاب وينقذ اليائس ويساعد المظلوم بكلماته الممتازة عند الملك «حاروا»».

النقوش التي على الجانب الأيمن: المبجل عند الملك والمدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية والكاهن المحنط «لأنوبيس» التابع لزوج الإله وقريب الملك الحقيقي ومحبوبه ورئيس عمال الجبانة للمتعبدة الإلهية «لآمون» «حاروا» يقول: يأيها الكهنة والكهنة آباء الإله والكاهن المطهر والكهنة المؤقتون لكل معبد «آمون» إن كل واحد سيمر بهذا التمثال. فإن ذلك الروح الذي في «طيبة» وذلك الإله الفاخر الذي يشرف على حريمه سيعيش من أجلكم طالما تقولون ألفًا من الخبز والجعة والفطائر وكل الأشياء الطيبة لأجل روح المبجل عند يد الإله قريب الملك «حاروا» المبرأ: صاحب الشرف! لأني شريف ويعمل له الإنسان أشياء وإني رجل فاضل جدًّا وكامل في حياته، وإني محبوب مدينته وممدوح مقاطعته وشفيق على مدنه، ولقد عملت ما يحبه الناس وما تمدحه الآلهة، وكنت إنسانًا مبجلًا لا عيب فيه وأعطيت الجائع خبزًا والعريان كساء، وإني إنسان يقضي على الألم ويزيل المصائب، ويدفن المبجلين وينجد المسن ويكشف الضر عن البائس، وظل للطفل ومساعد للأرمل، ويمنح الوظيفة لمن في مهده. ولقد فعلت هذه الأشياء عالمًا بأهميتها (أي وزنت أهميتها) والمكافأة عليها من رب الأشياء وهو البقاء في فم الناس دون نسيان أبدًا وذكرى حسنة في السنين المقبلة. إن نفس أفواهكم مفيد للصامت (الْمُتَوَفَّى) ولا يكلف شيئًا من أملاككم (؟؟) دع الخبز لسيدة القرابين[٢٥] والطعام لإلههم وتنعيم الروح وهو مجرد ذكر اسمه. وأنه المبجل عند سيده المبرأ «حاروا» لم يرتح من العمل في المعبد والذي ... المعبد ... الذي يجني. وأن روح الرجل تذكر لأعماله الطيبة في المعبد.

على الجانب الأيسر من التمثال: الأمير الوراثي والحاكم المبجل عند سيده والمحظوظ عند سيدته حلو الفهم شهي الكلام، شفيق على الكبار والصغار، ومن يقدم النصيحة للخجل عندما يكون حظه سيئًا، ومن شهاده يقفون ليتكلموا (؟) رحيم اليد، وممِّون كل الناس، ومن يرضى من لا شيء بما يحتاج إليه، تشريفاتي يد الإله وقريب الملك «حاروا» يقول: «إني أتحدث إليكم يا من ستأتون في المستقبل مخلوقات مستحدثة في ملايين السنين. إن سيدتي قد جعلتني عظيمًا وأنا لم أزل ولدًا صغيرًا، ورفعت مكانتي وأنا لا أزال طفلا وأرسلني الملوك في بعوث وأنا شاب. وكنت مميزًا في القصر وكل بعث أرسلني فيه جلالته نفذته تمامًا ولم أخبر كذبًا عنه. ولا يوجد إنسان سرقته ولم أرتكب خطيئة، ولم أغتب واحدًا أمامهما وذهبت في الحضرة لأفك مَنْ في الأغلال وأخلص الرجل الفاضل. وقد أُعْطِيتُ أشياء لمن لا شيء عنده بسبب إنعامي ولأجل أن تبقى روحي لشفقة قلبي: «حاروا»».

النقش الذي على ظهر التمثال: قربان يقدمه الملك للإله «منتو» رب «طيبة» ليمنح طعامًا جنازيًّا من الخبز والجعة والفطير والثيران والدجاج وأواني المرمر والنسيج والبخور والزيوت. وكل الأشياء الطيبة التي يعيش منها الإله والتي تقدمها السماء وتخرجها الأرض ويأتي بها النيل من مائدة رب الأبدية في أعياد الشهر ونصف الشهر وعيد «تحوت» وفي كل عيد وكل يوم لروح من هو مبجل عند «منتو» رب «طيبة» قريب الملك الحقيقي ومحبوبه «حاروا».

التمثال الثامن:[٢٦] يبلغ ارتفاعه أربعين سنتيمترًا وهو مصنوع من حجر الشيست الأخضر والتمثال ملفوف في عباءة وقاعد القرفصاء ويشبه في شكله التمثال السادس الذي تحدثنا عنه فيما سبق.

النقوش: نُقِشَ على مقدمة التمثال المتن التالي: «يأيها المشرف العظيم على ... والأمير الوراثي والحاكم وحامل خاتم ملك الوجه البحري السمير الوحيد المحبوب وحارس تاج يد الإله وقريب الملك «حاروا» اقلب نفسك على جانب الأيسر، وضع نفسك على جانب الأيمن، فإن الإله «جب» (إله الأرض) قد فتح لك عينيك، وإن الإله «أنوبيس» قد مد ركبتيك لك، وإن قلبك الذي من أمك فُتِحَ لك، وهُيِّئَ قلبك الخاص بجسمك، وإن روحك يذهب إلى السماء وجسمك في الأرض، وإنك تدخل على الإله دون أن تطرد، وإنك تخرج دون أن تبعد، وإن «حور» قد تعرف على والده فيك وإنه قد عدل بين الآلهة، والإله «سيا» يذكر عند الإله «شو» (؟) وفضائلك تعظمك، ليت لجسمك خبزًا ولحنجرتك ماء،

ولأنفك هواءً نقيًّا. أنت يا من يبجله «آمون» رب السماء والمتعبدة الإلهية «أمنردس»، والذي يعمل ما ترغب فيه سيدته حتى يشق طريقه إلى سيدته، والشفيق حقًّا ومن لا عيب فيه «حاروا» صاحب التبجيل».

ونقش على الجانب الأيمن: المبجل عند إله مدينته والممدوح لدى سيدته المبرأ «حاروا» والمقرب يقول «إني أتكلم إليكم أنتم يا أحياء كلكم وكل من سيأتي بعد إلى الوجود. إني أحذركم بشدة. تذكروا روحي عندما تمر السنون فإني صديق حقيقي لفك المغلول وفم المحتاج بسبب استقامته عندما يكون سيئ الحظ (؟) وإني طعام المحروم ومئونة المحتاج وإني إنسان طيب للذين ينعمون باستذكاره، وإنسان مجيئه مرغوب فيه بالنسبة لكل عمل مستحب. ولقد خلصت المغرق، وإني نيل عالٍ غلته طيبة تملأ الأرض، وإني قمح فاخر لمدينتي وقد حميت المسن وأعطيت الأرمل المنح؛ ومددت يدي لمن حزنه عميق، وإن من يذكر روحى سيذكر في المستقبل ومن لا يذكرها سيموت، بوساطة المقرب حقًّا المبرأ «حاروا» صاحب الشرف الذي أنجبته ربة البيت «نست ورثت»».

ما نقش على الجانب الأيسر: «الأمير الوراثي والحاكم ... المبجل لدى «آمون» رب السماء «حاروا» يقول: «أنتم يا كل الناس (؟) الذين يدخلون والذين يخرجون مارِّين بي كل يوم أعطوني حياة من هواء نطقكم (؟) أعطوني أشياءكم كما ساعدتكم بأشياء ... بالسعادة ... أنا ... هذا المكان، وعلى ذلك فإن هؤلاء الذين فيها سيتسلمون السرور، والكهنة صلوا للإله من أجلي: والكهنة المرتلون احتفلوا بطيبتي وكل رجل من بينهم يقود (؟) ... الكهنة المؤقتون للمعابد يقتسمون أشياء (؟) والمسنون في عيد في صحبة الشباب ... شهد، وكل فم مفعم بالاحتفال بروح، سخي اليد ورحيم القلب، وإني أطعمت الجائع وكسوت العريان، وأسكت الضحك في حضرة كل متظلم، وإني سبقت بشكاياته، وأزلت مصيبة المظلوم، وإن مكافأة الطيبة ليس مضرًّا لأنها ستفيدك في السنين المقبلة». (أن أي المكافأة على الشيء الطيب لا يضر بل سيشفع فيما بعد)».

النقوش التي على ظهر التمثال: (الأسطر الأربعة الأولى قد فُقِدَتْ): (قربان يقدمه الملك؟ ...) ألف من ... ألف من البخور والعطور وألف من كل شيء طيب وطاهر مما يعيش منه الإله ... وستقول طبقًا لذلك إني أريك ... بعد أن يكون الإله قد أخذ كفايته منه، لأجل روح من هو مبجل عند إله هذه المدينة المبرأ «حاروا» صاحب الشرف، وذلك لأني حقًّا رجل مبجل خالٍ من الشر سخي اليد ... وإن البقاء في الذكرى لأفيد للروح أكثر من القربان (أي القربان الذي تقدم لها) والمكافأة مني هو ما سأفعله لكم. وإن من لا يقول ... وإنه مبجل عند «آمون» رب السماء: «حاروا» الذي وضعته «نست ورثت».

هذا وقد وجد للمدير العظيم للبيت «حاروا» بعض تماثيل مجيبة في «المدمود» بعيدًا عن قبره وقد كتب عليها الفصل السادس من كتاب الموتى كالمعتاد.[٢٧]

تعليق: هذه هي متون تماثيل «حاروا» ومنها يمكن أن نستخلص شيئًا عن حياته وأخلاقه. وعلى أية حال تظهر أمامنا عدة نقط صغيرة يمكن أن نذكرها عنه وعن عصره، فالوظائف التي شغلها «حاروا» معظمها وظائف إدارية وليس من بينها وظائف دينية إلا وظيفتا الكاهن المحنط لزوج الإله وكاهن الإله «أوزير» ويظهر أن «حاروا» لم يشغل وظيفة ما من وظائف كهنة «آمون»، ومن الجائز جدًّا أن وظائف الكهانة كانت في عشيرة أو طبقة خاصة كما ذكر ذلك «هردوت» عن هذا العصر،[٢٨] ولذلك لم يكن في مقدور «حاروا» على الرغم من مركزه ونفوذه الإداري أن يكون له نصيب فيها. وتدل النقوش أن والد «حاروا» كان مجرد كاتب لأن لقبه الآخر الذي كان يحمله وهو لقب «قاضٍ» ليس إلا لقب شرف وحسب وبخاصة عندما كان ينعت به والد رجل من كبار موظفي الدولة، وهو يكاد يقابل في عهدنا فلان بن الشيخ فلان أو ابن المحترم فلان.

وتدل العلاقة الوثيقة التي تربط «حاروا» بشئون المتعبدة الإلهية وكذلك شغله وظيفة المشرف على الحريم هذا إلى عدم وجود ولد له يخلد اسمه، ومن الجائز أنه كان خصيًّا، وإن لم يكن لدينا سبب يقطع بصحة ذلك، لأن المصريين القدامى لم يكونوا على ما يظهر يستعلمون الخصيان في منازلهم على الرغم من أن بعض الكتاب كان يعتقد أن عزيز مصر الذي اشترى يوسف كان خصيًّا كما ذكر الكاتب «توماس مان» في روايته المشهورة (Joseph the Provider) وكذلك قد أشير إلى ذلك في القرآن من طرف خفي عندما قال العزيز لزوجه: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

ولم تكن وظائف «حاروا» بالنسبة للملكة والحريم توجب على الإنسان أن يكون أعزب، فنجد مثلًا أن «شبشنق» الذي كان يحمل لقب المدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية كان ابن رجل يُدْعَى «بدينيت» الذي كان بدوره يحمل نفس الوظيفة،[٢٩] وفضلًا عن ذلك كان «وسرحات» الذي عاش في عهد الفرعون «أمنحتب الثالث» يحمل لقب المشرف على الحريم الملكي وكان له زوجة تُدْعَى «مايا».[٣٠] والواقع أن عدم ذكر والد «حاروا» لا يعني أي شيء قط، وإن ذلك قد يكون أمرًا شاذًّا وليس بالقاعدة في الحالة التي نحن بصددها. أما موضوع وجود لحية له أو انعدامها في تماثيله في هذا العهد فكان يتوقف على ذوق الحفار ومزاجه. وأخيرًا فإن ما في تماثيل «حاروا» من خصائص جسمية غريبة قد ترجع في أغلب الظن إلى تقدمه في السن لا لأي سبب آخر، وبخاصة إذا راعينا سجلاته الطويلة.

وقبر «حاروا» في طيبة الغربية (رقم ٣٧) وهو من أكبر المقابر في هذه الجهة، وقد كُشِفَ عن جزء منه، وجدرانُه غاية في الجمال غير أنها أصبحت في حالة يُرْثَى لها من الخراب وتحتاج إلى درس طويل ليتمكن الإنسان من استخلاص شيء من نقوشه وبعضها على ما يظهر يُشْبِهُ التي على تماثيله.

هوامش

(١) راجع مصر القديمة الجزء الخامس ص ٥٢١.

(٢) راجع مصر القديمة الجزء السابع ص ٦٢٧.

(٣) راجع: A.S., VII, p. 48; Hall, Cambridge Anc. Hist., III. p. 268.

(٤) راجع: A.J.A.L.(1646) p. 385.

(٥) راجع: Schweinfurth and Erman, Alte. Baureste und Hieroglyphis-che Insch. im Wadi Gasus (Abhandlungen Berlin Akad [1885]; II.

(٦) راجع: J.E.A. Vol. 35, p. 147.

(٧) راجع: L.D., V, I; Mariette, Karnak, Pl. 450.

(٨) راجع: Legrain, Rec. Trav. XXIV, p. 202–10; A.S. IV, (1904) p, 181–182.

(٩) راجع: Adoption Stela of Nitocris, A. Z. XXXV, p. 16 ff.

(١٠) راجع: Journal D'Entree No 36158; A.S., V p. 94 ff.

(١١) راجع: Thebes Nr. 36.

(١٢) راجع: A.S., V, p. 84 ff.

(١٣) راجع: A.S., VI, p. 131.

(١٤) راجع: Gunn and Engeback, The Statues of Harwa B.I.F.A.O. XXX (1931) 791–815 and Ibid, XXXV, p. 143.

(١٥) Melanges Maspero, A Sudanese of the Saite Period, p. 373.

(١٦) راجع: B.I.O.F.A., XXXV, p. 145.

(١٧) Caire, Journal D'Entree Nr. 3786.

(١٨) راجع: Journal D'Entree No. 63711.

(١٩) Journal D'Entree Nr. 36930.

(٢٠) راجع: .Cairo Cat, Gen, No. 902

(٢١) راجع: .British Mus, Stat, Nr. 32555

(٢٢) راجع: .Cairo Mus. No 37386

(٢٣) .Louvre Nr. A. 84

(٢٤) .Berlin Nr. 8163

(٢٥) هذه الجملة صعبة الترجمة لحد بعيد في الأصل.

(٢٦) راجع: .British Musenm Stat. No 5506

(٢٧) راجع: .B.I.F.A.O. Tom. XXXIV. P. 129

(٢٨) راجع مصر القديمة الجزء التاسع ص ٤٨٢ إلخ.

(٢٩) راجع: .A.S., VI, p. 131

(٣٠) راجع: .A.S., IV, p. 178

الفصل الرابع والعشرون

المدير العظيم للبيت أخأمون رو وغيره من المديرين العظام لبيت المتعبدة الإلهية في هذا العهد

عثر لهذا العظيم على سبعة تماثيل نُقِشَ على اثنين منها اسم «أمنردس» مع اسم «شبنوبت الثانية» التي كانت تحكم «طيبة» وقته، وبالإضافة لذلك نجد أن «أخأمون رو» قد ذكر على الأقل معه اسم ملك من الملوك الذين عاصرهم وهو «تانوتآمون»، يُضَافُ إلى ذلك بعض آثار لها علاقة به نخص بالذكر منها بعض قطع عُثِرَ عليها في الكرنك وقبره وتمثال أحد أجداده المُسَمَّى «باكنبتاح» وسنتحدث عنها بعد التحدث على تماثيله، هذا ونعرف من المديرين العظام لبيت المتعبدة الإلهية الذين عاصروا «نيتو كريس» ثلاثة وهم «إبا» و«پابس» و«بادي حورنسو» وقد أصبح «إبا» المدير العظيم في السنة السادسة والعشرين من حكم «بسمتيك» وفي هذا الوقت كانت «شبنوبت» قد ماتت، غير أننا لا نعرف إذا كان تنصيبه يتفق مع تولي «نيتو كريس» الحكم أم لا، ومن المحتمل أن «نيتو كريس» كانت في الحكم فعلًا منذ بضع سنين، وفي هذه الحالة يكون لها مدير عظيم آخر لبيتها.

أما مدير البيت العظيم «پابس» فعلى أغلب الظن كان خلف «إبا» لأنه يكرر في قبره الوظائف التي شغلها في عهد كل من «نيتو كريس» و«بسمتيك» في حين أن «شبنوبت» لم تظهر في نقوش إلا في حالات النسب بوصفها أم «نيتو كريس» الْمُتَوَفَّاةِ، ولكن «إبا» من جهة أخرى كان في خدمة «شبنوبت الثانية» قبل أن يكون موظفًا في بلاد «نيتو كريس» لأنه يذكر لنا أنه كان ممن شاهدوا أسرار يد الإله «شبنوبت» كما كان صاحب حظوة عند المتعبدة الإلهية «شبنوبت» المبرأة.[1] وسنتحدث عن هؤلاء المديرين كل في مكانه.

«باديحورنسو»: كان «باديحورنسو» ثالث ثلاثة المديرين العظام للبيت في عهد «نيتو كريس»[٢] ولدينا كذلك من عهد المتعبدة الإلهية «عنخنس نفر أب رع» مديران عظيمان لبيتها وهما «بادي نبت» ثم «شيشنق» وكان الأول والد الثاني. وعهد خدمة «شيشنق» طويل، ولدينا له وثائق يعتمد عليها تدل على أنه قد تسلم مهام وظيفته في عهد الملك «أبريز»[٣] وظل يمارس عمله حتى عهد الملك «بسمتيك الثالث»[٤] فنجد في لوحة التبني للمتعبدة «عنخنس نفرت إب رع» أنه قد مثل عليها هذه المتعبدة والملك «أبريز» و«شيشنق»[٥] وكذلك نجد في منظر «بالكرنك» هذه المتعبدة الإلهية و«شيشنق» مُمَثَّلِينَ،[٦] أما والد «بادنيت» فلا نعلم عنه إلا القليل وقبره في «طيبة» (Thebes No 197) وقد نسب هذا القبر كل من الأستاذ «جاردنر» والأثري «ويجول» إلى عهد «بسمتيك الثاني»[٧] وهذا التاريخ خاطئ في رأي «جرفث» إذ ينسب القبر إلى عهد «أحمس الثاني»،[٨] هذا وقد أخطأ نفس «جرفث» في قوله إنه لا توجد آثار من عهد المتعبدة الإلهية «عنخنس نفر أب رع» قبل عهد «أماسيس» (أحمس الثاني) إذ قد نسي أهم أثر في عهدها وأعني بذلك لوحة التبني.[٩] ومنها نعلم أن هذه الأميرة قد أصبحت زوج الإله في السنة الرابعة من عهد «أبريز» وأنه في عهد هذا الملك أصبح «شيشنق» المدير العظيم لبيتها، وعلى ذلك كانت المدة التي شغل فيها والده وظيفة المدير العظيم للبيت قصيرة، ومن ذلك نفهم أن التأريخ الذي وضعه «حرفث» لمقبرة «بادي نبت» غير مقبول، هذا ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن التأريخ الذي وضعه كل من «جاردنر» و«ويجول» لذلك أي عهد «بسمتيك» غير صحيح بالنسبة للمدير العظيم للبيت «شيشنق».

وعلى أية حال نعرف مواقع خمس مقابر من ثمان المقابر الخاصة بالمديرين العظام لبيت المتعبدات الإلهيات والقبر لم يُكْشَفْ عنه بعد هو قبر «بادي-حور-نسو».

وتدل شواهد الأحوال على أن قبر «أخآمون رو» — وقد عُرِفَ حديثًا — مُخَرَّبٌ، غير أنا ما لدينا من تماثيل له محفوظة تحمل نقوشًا هامة تمكننا من أن نستعرض هنا حياته بشيء من التفصيل، والواقع أن نقوشه تقدم لنا معلومات غاية في الأهمية مما يضيف لنا معلومات كثيرة تنقصنا عن العهد الكوشي.

وسنحاول فيما يلي وصف تماثيله السبعة وقرنها بتماثيل «حاروا» من حيث الشكل والمتون:

(١) وجد «لآخأمون رو» تمثال في مدينة «هابو» في أثناء البعثة التي قام بها «هلشر» [١٠] وهو يمثله قاعدًا القرفصاء في صورة لفة وهو مصنوع من الجرانيت الرمادي وارتفاعه ثلاثون سنتيمترًا وهشم جزء كبير من جسمه.

وعلى الرغم من ذلك نشاهد فيه الخصائص التي تميز التماثيل التي صُنِعَتْ في هيئة لفة (بقجة) في هذا العصر وما قبله بقليل وهي التي نشاهدها بوضوح على هيئة مكعب قد أُغْفِلَ فيه نحت كل جزء من أجزاء الجسم فنجد مثلًا أن الرقبة في التمثال لا وجود لها وتركز ذقنه مباشرة على جسمه المكعب وظهر التمثال وجانباه قد مُثِّلَتْ على صورة مربعات منحنية انحناءً بسيطًا جدًّا. وقد مثل جزء من اليد اليمنى يكفي للدلالة على أن اليدين قد مُثِّلَتَا بصورة حقيقية جدًّا في حين أن الذراعين لم يُمَثَّلَا قط.

(٢) والتمثال الثاني محفوظ بمتحف «شيكاغو» بأمريكا الشمالية[١١] وهذا التمثال كسابقه على هيئة لفة وهو صغير الحجم ويبلغ ارتفاعه ثمانية وعشرين سنتيمترًا وجسمه مهشم كالسابق وهو يشبهه في كثير من الوجوه وبخاصة في الشعر المستعار والأذنين، ونقش عليه كذلك طُغْرَاءُ «أمنردس» و«شبنوبت» كما في التمثال السابق أما الوجه فقد أُصْلِحَ بعد تهشيمه.

(٣) التمثال الثالث: موجود «بمتحف اللوفر».[١٢] وقد مُثِّلَ في صورة ولفة أو بقجة كذلك وصنع من الجرانيت الأسود المعرق ويبلغ ارتفاعه ٤٥ سنتيمترًا. عُثِرَ عليه في «طيبة» وأسلوب صناعته يختلف كثيرًا عن تمثال «شيكاغو» إذ نلحظ فيه الرأس مرفوعًا وبذلك أصبح كل من الرقبة والذقن ظاهرًا من الشكل المكعب الذي صُوِّرَ فيه الجسم. هذا وتبرز الذراعان والقدمان من الكعب أيضًا، هذا إلى تفاصيل في شكل الظهر والجانبين، والشعر المستعار مُخَطَّطٌ ومسبل خلف الأذنين والوجه عريض تبدو عليه السمنة.

(٤) التمثال الرابع: موجود بمتحف «اللوفر»[١٣] وقد مُثِّلَ واقفًا وهو مصنوع من الجرانيت الأسود وارتفاعه ستة وأربعون سنتيمترًا وشعره المستعار ناعم مرسل ويرتدي ثوبًا طويلًا ونقش على صدره العريان متن وكذلك على العمود الخلفي الذي يرتكز عليه التمثال وعلى ثلاثة من جوانبه نقوش.

(٥) والتمثال الخامس:[١٤] محفوظ بالمتحف المصري وهو مصنوع من الجرانيت الرمادي وارتفاعه خمسون سنتيمترًا عُثِرَ عليه في خبيئة «الكرنك» ويشبه وصفه تمثال

«حاروا» الذي تحدثنا عنه فيما سبق[١٥] وقد مُثِّلَ جالسًا القرفصاء في صورة غير منظمة حيث نجد الساق اليمني قد مُثِّلَتْ محاذية الأرض في حين أن الساق اليسري قد مُثِّلَتْ واقفة. ويُلْحَظُ أن «آخآمون رو» كان أصلع مثل «حاروا» ويلبس قميصًا قصيرًا يغطي ركبتيه ومغطى بالنقوش ودُوِّنَ على ذراعه اليسري طُغْرَاءُ المتعبدة الإلهية «شبنوبت» وعلى ذراعه اليسرى طُغْرَاءُ الملك «تانوتآمون».[١٦]

(٦) التمثال السادس:[١٧] موجود بالمتحف المصري وهو مُمَثَّلٌ في هيئة لفة وقد صنع من الجرانيت الرمادي وعثر عليه في خبيئة «الكرنك»، وارتفاعه واحد وخمسون سنتيمترًا وهو يشبه تمثال «اللوفر» السالف الذكر.[١٨]

(٧) التمثال السابع: محفوظ كذلك بالمتحف المصري[١٩] وهو ممثل كذلك على هيئة لفة مكعبة ومصنوع من الجرانيت الرمادي وارتفاعه خمسون سنتيمترًا عُثِرَ عليه في خبيئة «الكرنك» ونُقِشَ على واجهته خمسة أسطر كما نُقِشَ على ظهره متنان.

ومجموعة التماثيل السبع التي تتألف منها تماثيل «آخآمون رو» تشبه مجموعة تماثيل «حاروا» وتماثيل «آخآمون رو» تشبه كثيرًا تماثيل «بتأمونوفيس» صاحب المقبرة الضخمة رقم ٣٨ في مقابر «طيبة» والمعتقد أن حياة «بتآمونوفيس» هذا تقع في السنين الأخيرة من عهد الأسرة الخامسة والعشرين والجزء المبكر من الأسرة السادسة والعشرين.[٢٠] وقرن تماثيل هؤلاء الشخصيات الثلاث يفصح لنا عن معلومات هامة عن فن هذا العصر، ويمكن القول هنا إن كلًّا منهم قد استعمل في صنع تماثيله الأوضاع الثلاثة التي كانت شائعة في هذا العهد على وجه عام وهي نحت التمثال على هيئة لفة أو على كاتب جالس القرفصاء بقميص قصير وبدون شعر مستعار، وأخيرًا رسم التمثال واقفً بشعره المستعار التقليدي وثوبه الطويل. ويلحظ أن كلًّا من «حاروا» و«آخآمون رو» قد مُثِّلَ في وضع الكاتب العادي بدلًا من الوضع الجالس القرفصاء غير المنظم الذي كان شائعًا في تلك الفترة.

ونجد فضلًا عن الروابط الفنية في أسلوب الصناعة التي نجدها بين تماثيل «حاروا» و«آخآمون رو» روابط أخرى من جهة استعارة المتون وتشابهها فنجد مثلًا في التمثال رقم واحد أن المتن الذي نُقِشَ على الجزء الأمامي منه هو صورة مطابقة تمامًا للنقوش التي دُوِّنَتْ على الجزء الأمامي من تمثال «برلين» رقم ٧، على أن هذا المتن هو الوحيد الذي وُجِدَ في نقوش كل من هذين المديرين العظيمين لبيت المتعبدة الإلهية، وكذلك نجد

أن المتن الذي على الجانب الأيمن لتمثال «آخآمون رو» رقم واحد هو نفس النقش الذي على الجانب الأيسر لتمثال «حاروا» رقم ٧ وكذلك على التمثال رقم ٦.

وهاك ترجمة النقوش التي دُوِّنَتْ على تماثيل «آخآمون رو»:

(١) التمثال رقم (١)

على الكتف اليمنى: يد الإله «أمنردس».

على الكتف اليسرى: المتعبدة الإلهية «شبنوبت».

على الجزء الأمامي: (مُهَشَّمٌ ونُقِلَ من تمثال «حاروا») يقول: يأيها الكهنة والكهنة آباء الآلهة، والكهنة المطهرون وكل الذين يذهبون إلى معبد «آمون» بالكرنك ليقوموا بالشعائر الدينية وليقدموا قربانًا وليقوموا بالخدمة الشهرية إن الإله الفاخر سيجعلكم تبقون في حظوته طالما تقولون: «قربانًا يقدمه الملك: ألف من الخبز والجعة والفطائر والثيران والدجاج وأواني المرمر والملابس والبخور والعطور وكل شيء طيب طاهر — ستقولون ذلك — بعد أن يكون الإله قد أخذ منه كفايته. لأجل سمير الملك «آخآمون رو» ولأجل روحه لأني شريف مُجَهَّزٌ بكراماته وإنسان نعرف الأرضان فضائله وملجأ للنفس وعوامة نجاة للغرق وسلم لمن في الهاوية».

على الجانب الأيمن: (مهشم ونُقِلَ بعضه عن تمثال «حاروا»): «(١) سمير الملك الحقيقي. (٢) … يقول إني أتحدث إليكم أنتم الذين ستأتون في المستقبل بمثابة مخلوقات جديدة في ملايين السنين، إن سيدتي قد جعلتني عظيمًا عندما كنت ولدًا صغيرًا ورفعت من درجتي عندما كنت لا أزال طفلًا، وأرسلني الملك في بعوث وأنا شاب وميَّزني «حور» رب القصر وكل بعث أرسلني فيه أنجزته تمامًا».

على الجانب الأيسر: النقوش هنا ليست مُوَحَّدَةً مع نقوش «حاروا» ومُهَشَّمَةٌ، وعلى أية حال لا تزال توجد بعض صيغ مشهورة وهي: «(١) … ليته يمنح المشاركة في القربان الذي يوضع على مائدة السيد. (٣) … اتباع (٤) … الأرواح المنعمة (٥) … الأمير الوراثي والحاكم وحامل خاتم الوجه البحري والسمير الوحيد. (٦) … والذي يدخل أولًا ويخرج آخرًا (٧) والموظف الذي على رأس الناس، ورئيس خدم الجبانة (٨) للمتعبدة الإلهية. والتعظيم في وظائفه والكبير في درجته …».

وعلى ظهر التمثال: «قربان يقدمه الملك «لآمون رع» المشرف على حريمه وعلى الآلهة الذين يسكنون في … (٢) ألف من الخبز والجعة والفطائر والثيران والدجاج

وأواني المرمر والملابس والبخور والعطور وكل شيء جميل طاهر مما يعيش منه الإله ... (٣) رئيس خدام الجبانة لزوج الإله «آخآمون رو» بن ...».

(٢) التمثال الثاني

على الكتف اليمنى: يد الإله «أمنردس».

على الكتف اليسرى: المتعبدة الإلهية «شبنوبت» العائشة.

على الجزء الأمامي من التمثال: (فُقِدَ الجزء الأول والأخير من النقوش ولم يبق إلا أجزاء ومن خمسة أسطر): (١) ... ثيران ودجاج وأوانٍ من المرمر وملابس ... (٢) ... حاكم ... (٣) ... لسيده (٤) ... المدير العظيم لبيت زوج الإله. (٥) ... وضعته السيدة ...».

ونُقِشَ على ظهر التمثال: (١) إله المدينة للأمير الوراثي والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري ... (٢) الصديق المخلص الذي يحبه المدير العظيم لبيت زوج الإله ...(٣) وقد وضع خلفه وأمامه».

(٣) التمثال الثالث

نُقِشَ فِي الجزء الْمُقَدَّمِ من التمثال: «من في حظوة يد الإله «أمنردس» المرحومة والتشريفاتي وسمير الملك «أخآمون رو» ذو الشرف يقول: يأيها الأحياء الذين على الأرض والكهنة المطهرون العظام والكهنة خدام الإله وكل إنسان يمر عليَّ، إنكم ستبقون على الأرض وسَتُعْطُونَ وظائفكم أولادكم إذا قلتم: قربانًا يقدمه الملك، ألفًا من الخبز والجعة والثيران والأوز وكل شيء جميل طاهر حلو مما يعيش عليه الإله لروح التشريفاتي زوج الإله «شبنوبت» العائشة «أخآمون رو»، وإن نفس الحياة مفيد للروح المنعمة ولن يصبح الإنسان متعبًا به والإنسان شفيق القلب يكون الإله شفيقًا عليه، وإن الذي يفعل الخير يُفْعَلُ له الخير والعمل الصالح أثر باقٍ».

على ظهر التمثال: قربان يقدمه الملك «لآمون رع» رب «الكرنك» لأجل أن يمنح ألفًا من الخبز والجعة والثيران والدجاج وأواني المرمر والملابس والبخور والعطور وألفًا من كل شيء طيب طاهر لروح المبجل وصاحب الملك وتشريفاتي زوج الإله «آخآمون رو» المبرأ الذي أنجبته «مرسي خنسو»المرحومة».

(٤) التمثال الرابع

النقش الذي على قميصه: «من في حظوة «خنسو» في «طيبة نفرحتب» المدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية وصديق الملك «آخآمون رو».

النقش الذي على عمود ظهر التمثال من اليمين: «قربان يقدمه الملك «لآمون» رب السماء ليتك تمنح المشاركة في القربان اليومي على مائدتك للمدير العظيم لبيت المتعبد الإلهية وليت الشمس تضيء على وجهه «آخآمون رو» المبرأ».

على العمود من الجهة اليسرى: «قربان يقدمه الملك «لمنتو» رب «طيبة» ليتك تمنح شم رائحة المر لمدير القصر للمتعبدة الإلهية «أخنآمون رو» المبرأ بن كاهن «آمون» في «الكرنك» «بانب إري» المبرأ».

على ظهر العمود: «قربان يقدمه الملك للإله «خنسو» في «طيبة نفرحتب» لأجل أن يعمل له كل قربان المأكولات اللازمة في كل عيد أي لأجل روح مدير القصر للمتعبدة الإلهية «أخآمون رو».

«قربان يقدمه الملك للإله «خنسو وتنحي» (لقب للإله «خنسو») لأجل أن يُمْنَحَ الخروج من القبر ورؤية الشمس عند الفجر للأمير الوراثي والحاكم والمدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية «أخآمون رو».

«قربان يقدمه الملك «لخنسو با-أر-سخر نفر» (منجز مشروعه الطيب = لقب للإله «خنسو»)[٢١] ليخترق السماء في سلام: سمير الملك «أخآمون رو» بن كاهن «آمون» «بالكرنك» «بانب إري»».

(٥) التمثال الخامس[٢٢]

إن أهم ما يلفت النظر في متون هذا التمثال هو وضع اسم الزوجة الإلهية «شبنوبت» واسم الملك «تانوتآمون» جنبًا لجنب على الجزء الأعلى من ذراعي التمثال. والنقوش التي على قميص التمثال تعدد لنا ألقاب «أخآمون رو» وترجو من الأحياء أن يقرءوا صيغة القربان عند المرور على قبره وهذا الرجاء مُوَجَّهٌ لطبقات الكهنة المختلفين الذين يقومون بأحفال القربان في معبد «آمون». كما جاء على تمثال «حاروا» والتماثيل الأخرى «لأخآمون رو» نفسه. أما المتنان اللذان على عمود التمثال فتكررت ألقابه فيهما وقد أضيف للألقاب التي ذُكِرَتْ على مقدمة التمثال لقب السمير الحقيقي للملك، كما أضيف اسم والده «بانب إري» على مقدمة التمثال وظهره.

(٦) التمثال السادس[٢٣]

تحتوى متون هذا التمثال على اسم «آخآمون رو» وألقابه ومناقبه المعروفة وكذكل على اسم والده ووظيفته.

هاك النقوش التي عليه

نُقِشَ على مقدمته أربعة أسطر جاء فيها: الْمُقَرَّبُ من آمون سيد السماء، الشريف والأمير وحامل خاتم الملك والسمير الوحيد والعزيز، ورئيس خدم المتعبدة الإلهية «أخآمون رو» المرحوم ابن كاهن آمون في الكرنك «بكيري».

ونقش على العمود الذي خلف التمثال ما يأتي: المقرب لدى الملك، الشريف والأمير الذي يعمل ما يحبه سيده خلال كل يوم والمدير العظيم للبيت للمتعبدة الإلهية «أخآمون رو» المرحوم ابن كاهن آمون في الكرنك «بكيري».

(٧) التمثال السابع[٢٤]

نقش على مقدمة هذا التمثال صلوات «لآمون رع» ليمنح القربات التي تخرج على مائدة الإله في أيام الأعياد للمدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية والمدير لكل الوظائف المقدسة ورئيس خدام الجبانة للمتعبدة الإلهية المُسَمَّى «أخآمون رو» المبرأ. وقائمة الألقاب التي على ظهر التمثال تنتهي باسم والده وليس فيها من جديد.

هذا ولم نجد لقب «المدير لكل الوظائف المقدسة» الذي كان يحمله «أخآمون رو» على هذا التمثال في تماثيله الأخرى، وهذا اللقب كان يحمله كذلك «حاروا» سابقة على تمثاله رقم ٣.

وهاك ترجمة النقوش التي على هذا التمثال:

على مقدمة التمثال نُقِشَ خمسة أسطر جاء فيها: قربان لآمون رع سيد تيجان الأرضين، ليته يعطي كل ما يخرج على مائدة القربان الخاصة بسيد الأبدية في عيد الشهر وعيد نصف الشهر وعيد «واج» وعيد «تحوت» وفي كل عيد لكل يوم للمدير العظيم للبيت للمتعبدة الإلهية، والمدير لكل وظيفة إلهية، ورئيس خدم المتعبدة الإلهية «أخآمون رو».

ونقش على العمود الذي خلف التمثال سطران جاء فيهما: «الْمُقَرَّبُ من آمون سيد السماء، الشريف والأمير والسمير الوحيد، والعزيز، والمدير العظيم للبيت للمتعبدة الإلهية والمعروف لدى الملك «أخآمون رو» ابن كاهن آمون «بكيري»».

(٨) حوض من الجرانيت[٢٥]

كتب اسم «أخآمون رو» كذلك على حوض من الجرانيت الوردي محفوظ بمتحف القاهرة، عثر عليه في عام ١٨٩٧م. في مدينة «هابو». وقد زُيِّنَتْ إحدى واجهتيه الكبيرتين بطُغْرَاءَيْنِ كبيرتين تعلوهما علامة السماء، وكذلك زينت واجهتاه الضيقتان بمناظر ونقوش محفورة حفرًا غائرًا، هذا إلى أن الجزء الأعلى حَوَالَيْ هذا الحوض قد حُلِّيَ بالنقوش.

والطُّغْرَاءُ التي على اليمين باسم «أوزير» رب الحياة والذي يشرف على الغرب، والطُّغْرَاءُ التي على اليسار لأوز الذي يسكن في «بات چمى» (أي مدينة هابو). ويوجد أمام كل طُغْرَاءَ من الطُّغْرَاءَيْنِ مائدة قربان خفيفة وإناءين للطهور يندفع منهما ماء يتلقاه في كفيه شخص راكع.

وقد نُقِشَ فوق الشخص الذي على اليمين العبارة التالية: «مدير البيت العظيم للمتعبدة الإلهية «أخآمون رو» ابن كاهن آمون في الكرنك «بكيري»».

وفوق الشخص الذي على اليسار: «الشريف، الأمير والسمير الوحيد والمدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية، والمعروفة حقيقته لدى الملك، حبيبها «أخآمون رو».

وكُتِبَ على الجهة الصغيرة من اليمين من جهة واجهة الحوض الكبيرة ما يأتي: «عبادة سيدته، الكاهن العظيم للمتعبدة الإلهية، المعروفة للملك حقيقة «أخآمون رو» (ابن) كاهن آمون «بكيري»».

وعلى اليمين نُقِشَ: المتعبدة الإلهية أو الزوجة الإلهية سيدة الأرضين «شبنوبت» المحبوبة من الآلهة الذين في الجبانة.

وعلى الجهة اليسري من الوجه الكبير نقش مُهَشَّمٌ يشبه السابق، ثم يأتي بعد التهشيم: «المتعبدة الإلهية سيدة الأرضين «أمنردس» محبوبة «أوزير» الذي يشرف على الغرب سيد العرابة».

وحول الحوض نقش مُهَشَّمٌ جاء فيه ذكر المتوفى وألقابه ويدل النقش على أنه تقليد لمتون الأهرام ومتون توابيت الدولة الوسطى مما يشير إلى بداية عصر النهضة التي ازدهرت في خلال الأسرة السادسة والعشرين.

(٩) قطع حجر مستعملة ثانية في أسس الردهة الأمامية لمعبد الكرنك

ووُجِدَ اسم هذا المدير العظيم كذلك على قطع حجر مستعملة ثانية في أسس الردهة الأمامية لمعبد الكرنك «لآمون رع-منتو» بالكرنك الشمالي، وهذه الأحجار كانت في الأصل من مقصورة منذور للإله «أوزير بادد عنخ» (أوزير سيد الأبدية) من المتعبدة الإلهية «شبنوبت الثانية» و«أمنردس الصغيرة» (ابنة تهرقا) وعلى هذه القطع تُقْرَأُ ألقاب «أخآمون رو» واسم والده «بكيري».[٢٦]

(١٠) مقبرة «آخآمون رو»

ظلت مقبرة هذا المدير العظيم مجهولة إلى أن تعرَّف عليها الأثريان «باجيه» و«لكلان» في جبانة العساسيف وتقع مباشرة في الشمال الشرقي من مقبرة «حاروا» السالف الذكر (رقم ٣٧)، وقد وُجِدَ بين النقوش التي في هذه المقبرة اسم صاحبها وألقابه،[٢٧] ومن بينها لقب «مدير كل وظيفة إلهية للمتعبدة الإلهية» و«مدير القصر للمتعبدة الإلهية».

(١١) تمثال جد «آخآمون رو» الْمُسَمَّى «باكنبتاح»[٢٨]

وقد عُثِرَ عليه في خبيئة الكرنك وطوله ٠٫٣٦ مترًا وهو من الجرانيت الرمادي المبرقش ونقوشه مَمْحُوَّةٌ بعض الشيء.

وقد مُثِّلَ «باكنبتاح» جد «أخآمون رو» قاعدًا على كرسي ظهره منخفض جدًّا. وقد مُثِّلَ في الصورة الشعائرية التي يُمَثَّلُ بها «أوزير» وهي الهيئة التي مُثِّلَ بها كثير من تماثيل هذا العصر ونخص بالذكر منها تمثال «منتومحات» المحفوظ بمتحف برلين، وكل هذه التماثيل من طراز الدولة الوسطى كما أشار بذلك الأثري «أقري».

والنقوش التي على هذا التمثال هي: (على مقدمة القميص): قربان لآمون رع رب عرشي الأرضين ليمنح قربانًا من خبز وجعة وحيوانات وطيور لروح كاهن آمون، رئيس كتبة الحريم». وعلى قدمي التمثال من الجهة اليمنى جاء: «إنه والده كاهن آمون

في الكرنك، رئيس كتبة الحريم، كاهن «ماعت» ابنة «رع» (المسمى) «بكيري» وهو الذي عمله له (أي التمثال) لأجل أن يحيى اسمه في المدينة».

وعلى الجهة اليسرى: «إنه ابنه البكر من ظهره، الذي يحبه صاحب كل متاعه، كاهن «آمون» ورئيس كتبة الحريم، كاهن ماعت ابنة رع، «بكيري» والذي أعجب السيدة «أرب باساتت أرو» لقد عمله لأجل أن يحيى اسمه».

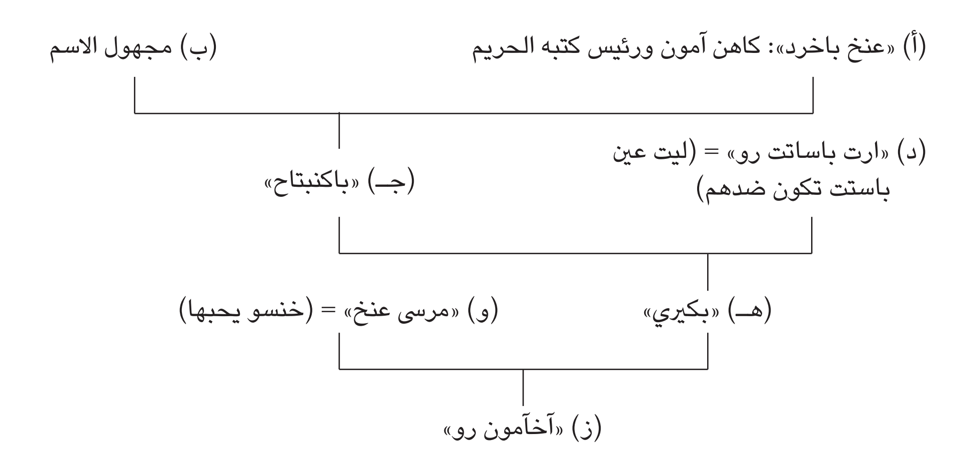
وعلى عمود ظهر التمثال جاء: يا إله المدينة المحلي لكاهن آمون رع، رئيس كتبة الحريم، وكاهن ماعت ابنة رع، «باكنبتاح» المرحوم ابن كاهن آمون، رئيس كتبة الحريم «عنخ باخرد» ليته يوضع خلفه في حين أن روحه تكون أمامه، إنه تابع لمدينة «عين شمس».

ونُقِشَ حول قاعدة التمثال ما يأتي من جهة اليسار: «قربان يُقَدَّمُ لمنتو سيد «طيبة»، ليته يعطى كل شيء كاملٍ ونقيٍّ وممتعٍ، وأن تكون له قربات كل يوم وأن يخرج عند سماع الصوت (أي الْمُتَوَفَّى) عندما ينادي لروح كاهن آمون «باكنبتاح» المرحوم».

وعلى الجهة اليمنى: «قربان يُقَدَّمُ لآمون سيد عروش الأرضين، ليته يعمل حتى يتسلم الخبز «سنو» في القاعة العظمى للإله «جب» في حضرة أرباب عين شمس لأجل روح كاهن آمون رئيس كتبة الحريم، وكاهن ماعت ابنة رع، «باكنبتاح» المرحوم».

وتدل شواهد الأحوال على أن «بكيري» الذي ذُكِرَ على تمثال «باكنبتاح» هو والد «أخآمون رو» الذي ذكر على آثار هذا الأخير، وعلى ذلك فإن قراءة هذا الاسم «يانب أري» كما جاء في بعض البحوث خاطئة.[٢٩] ويمكن الآن وضع سلسلة نسب «أخآمون رو» كما يأتي:

والظاهر أنه لا يمكن أن يُنْسَبَ «بكيري» إلى أصل كوشي وذلك لأن أجداده من حيث الأسماء مصريون، وعلى حسب هذه القائمة يمكن أن نجعل «عنخ باخرد» معاصرًا لأسرة «شيشنق» الطيبية. ولا بد أنه كان قد عاش في بداية عهد المتعبدة الإلهية «شبنوبت» الأولى، وكان هو نفسه، وكذلك أخلافه، يُعَدُّونَ من بين الطيبين[٣٠] القدامى الذين كانوا يناصرون الفاتحين الكوشيين. وقد كان في مقدورهم أن يتوارثوا من الأب للابن لقبي كاهن «آمون» ورئيس كتبة الحريم لمدة ثلاثة أجيال، وفي الجيل الأخير صار أحد أفراد هذه الأسرة أعظم موظف في خدمة المتعبدة الإلهية الكوشية. والواقع أن «أخآمون رو» (وليت عين آمون تكون ضدهم) يقدم لنا باسمه شاهدًا على تعبده للإله الطيبي، وهو يحمل سلسلة من الألقاب الحقيقية وألقاب الشرف ونعوت المدح التي تبرزه بأنه من



أعظم الشخصيات في عهد الأسرة الخامسة والعشرين بوصفه خلف «حاروا» السالف الذكر. وألقابه: الشريف والحاكم، ومدير خزانة الملك، والسمير الوحيد، والمحبوب وكذلك المعروف للملك حقًّا ومحبوبه، التي نجدها مكررة كلها أو بعضها على تماثيله هي من الألقاب والنعوت التي يرجع عهدها إلى الدولة القديمة. ولما كانت هذه الألقاب والنعوت مستعملة في نقوش «حاروا» فلا بد أنها كانت تقليدية في الألقاب الساوية.

واللقب الرئيسي والمميز «لآخآمون رو» هو المدير العظيم للمتعبدة الإلهية أو زوج الإله. هذا ويدل لقبه «المدير العظيم للمتعبدة الإلهية لأملاك «آمون» على أن هذه الأميرة أي المتعبدة الإلهية كان لها ارتباط بإدارة أملاك هذا الإله. وهذه الوظيفة الهامة يظهر أنها كانت تشمل وظيفة «رئيس خدم المتعبدة الإلهية» وهي وظيفة كان يحملها كذلك «حاروا». أما لقب «تشريفاتي الزوجة الإلهية» وهو لقب على ما يظهر ثانوي بالنسبة له فلم يوجد إلا على تمثال واحد وربما كان قد صنعه في أول حياته، ومع ذلك فإننا نجده على غرار سلفه «حاروا» قد لُقِّبَ «رئيس التشريفاتية»».

وفضلًا عن ذلك نجد أن «أخآمون رو» حمل نعوتًا يظهر أنها شرح لألقاب لا ألقابًا بالمعنى الحقيقي، مثال ذلك أنه كان يُلَقَّبُ «مدير كل الوظائف الإلهية للمتعبدة الإلهية» وهذا اللقب كان يحمله سلفه «حاروا». وهذا اللقب يوجد أيضًا في مقابر بعض

الشخصيات الطيبية مع بعض التغيير فكان مثلًا يحمله «منتو محات» و«أبا» وكذلك كان يلقب «أخآمون رو» مدير قصر المتعبدة الإلهية.

ولا بد أن نلفت النظر هنا إلى ما ذكره «أخآمون رو» من وصفه لنفسه من التقرب للآلهة، فقد كان مقربًا من آلهة طيبة وبخاصة آمون صاحب الكرنك ومن الإله «خنسو» في طيبة، وكذلك كان مُقَرَّبًا من الملك، وأخيرًا من يد الإله «أمنردس» المرحومة. وكان بوصفه وزيرًا للمتعبدة الإلهية «شبنوبت» يُظْهِرُ بطبيعة الحال ولاءه لذكرى أم سيدته وهي التي كانت، كما تدل شواهد الأحوال، مشتركة معها في الحكم سابقًا.

وكما تؤكد الوثائق السالفة نعرف أن «أخآمون رو» كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالملك «تانوتآمون» كما نعرف أنه واحد من المعاصرين للجزء الثاني من عهد حكم المتعبدة الإلهية «شبنوبت» ابنة الملك «بيعنخي». هذا ونجد على بعض التماثيل أن «أمنردس» المتوفاة «شبنوبت» العائشة مذكورتان معا (٢ و٣) وإذا كنا نجد أن «أخآمون رو» قد اكتفى بذكر «شبنوبت» على بعض آثاره الأخرى (مثل التمثال رقم واحد والحوض) دون أن يحدد إذا كانت على قيد الحياة أو ميتة فإن ذلك يرجع إلى أننا وجدنا اسمه على المبنى الذي في الكرنك الشمالي، ويفهم من النقوش الذي وُجِدَ فيه أنه كان مصاحبًا «شبنوبت» التي كانت مشتركة معها وقتئذٍ «أمنردس» بنت الملك «تهرقا».

وهكذا نجد أنه في حين كان «حاروا» المدير العظيم للبيت لأمنردس الأولى ابنة «كشتا» و«شبنوبت» ابنة الملك «بيعنخي» فإن «أخآمون رو» كان بدوره المدير العظيم للأخيرة التي كانت تشاركها «أمنردس الثانية» ابنة «تهرقا»؛ ونحن نعلم من جهة أخرى أن «حاروا» قد عاش بعد وفاة «أمنردس الأولى» وذلك لأنه كان كاهنًا لأمنردس الْمُتَوَفَّاةِ في بيت روحها ورئيس كهنة الروح، وبهذه الصفة اعتنى بالمقصورة الجنازية الخاصة بهذه الأميرة في مدينة هابو، وذلك بعد أن سهر على تجهيز دفنها بوصفه الكاهن المحنِّط لأنوبيس للزوجة الإلهية.

ونفهم على أية حال أن الوظائف التي كان يحملها «أخآمون رو» قد وصل إليها بعد «أمنردس الأولى».

والواقع أن مجموع هذه الدلائل توحي إلينا بأن نضع زمن ذروة مجد «أخآمون رو» حوالي عام ٦٦٣ق.م. وفي هذا العهد كان مشتركًا في بناء السياسة الثقافية والجنازية للمتعبدات الإلهيات في كل من الكرنك ومدينة هابو، ومن ثَمَّ نراه قائمًا بوظائفه كما نشاهد ذلك على جدران مقصورة «أوزير بادد عنخ» وهو على ما يظهر كان ضمن

كهنتها كما كانت الحالة مع سلفه «حاروا»، وذلك مع الفارق أن «أخآمون رو» في الحالة الراهنة بالنسبة للوثائق التي في متناولنا على الأقل لم يكن يتمتع بأي لقب جنازي. وكل ما نعلمه أنه كان يُعْرَفُ بأنه المقرب من «أمنردس الأولى». وإذا كان الحوض الذي يُنْسَبُ إليه يبرهن على نشاطه الجنازي في مدينة «هابو» فإنه على الرغم من ذلك يجوز لنا أن نظن أنه لم يكن لديه الميزة بأن يبقى في وظيفته حتى موت «شبنوبت».

على أن قبره الذي أُهْمِلَ أو بعبارة أصح الذي لم يكن قد تم عند وفاته يمكن — بما فيه من دلائل نقص — أن يضيء لنا السبيل عن نهاية مجال حياته. فقد يجوز أنه في آخر حياته قد غضب عليه!! ولا يمكننا بما لدينا من معلومات حتى الآن أن نحدد بالضبط التاريخ أو الأحوال التي تسلم فيها خلفه وظيفته، هذا إذا فرضنا أنه كان هناك فرد بعينه قد خلعه وهو لا يزال على قيد الحياة. ويجب ألا يغرب عن بالنا أنه في وقت الانتقال الذي يقع بين غزوة الأشوريين التي قاموا بها على «تانوتآمون» الكوشي حوالي عام ٦٦٣ق.م. وبين استيلاء «بسمتيك» الساوي على إمارة طيبة حوالي عام ٦٥٦ق.م. كانت السلطة في صعيد مصر لا تزال باقية في يد «منتومحات» الكاهن الرابع لآمون وأمير المدينة. وقد يكون من الممكن أنه في عام ٦٥٦ق.م. قد تراجع «أخآمون رو» مع «تانوتآمون» بوصفه أحد موظفيه إلى بلاد كوش. أو لم يكن قد سار بحماس كافٍ في ركاب «منتومحات» الذي انضم إلى الأسرة الجديدة وصار من مناصريها.

ومما لا جدال فيه أنه عندما حضر «سماتو تفنخت» مبعوث الملك «بسمتيك الأول» لينصب المتعبدة الإلهية الجديدة «نيتوكريس» متعبدة إلهية، وعندما قام «منتومحات» وزوده بالتبرعات لتعيين هذه الزوجة الإلهية الجديدة، لم تدل شواهد الأحوال على وجود مدير بيت عظيم في طيبة. وعلى أية حال فإن المصادر الحالية التي في متناولنا يظهر أنها تكشف عن أخلاف «لأخآمون رو» من بين الأشراف الطيبيين.

تعليق على محتويات نقوش هذه التماثيل وأشكالها:

إن أهمية نقوش تماثيل «أخآمون رو» لا تبرز قيمتها الحقيقية وأهميتها إلا عندما تُقْرَنُ بنقوش حياة كبار رجال هذا العصر الذين من هذا الصنف.

وننتظر بطبيعة الحال أن تكون نقوش تراجم رجال العصر المتأخر قد وُضِعَتْ على طراز مقرر من قبل، ولكن ما هي هذه الطرز السابقة؟ ولأجل أن نصل إلى ذلك يجب علينا أن نفحص الجمل الرئيسية التي جاءت في المتون التي ترجمناها هنا.

فأول ما يلاحظ هنا الجمل التي يوجهها الْمُتَوَفَّى سواء أكان «حاروا» أم «أخآمون رو» ملتجئًا إلى الأحياء لتقديم القربان والصلوات له ولروحه وبخاصة للكهنة خدام الإله والكهنة آباء الإله والكهنة المطهرين والكهنة المرتلين وكل الذين يذهبون إلى معبد «آمون» في الكرنك لتأدية الشعائر الصالحة ولتقديم قربان والقيام بأداء خدمة الكاهن الشهرية. وهذه الصورة من التضرع والالتجاء — أي مخاطبة موظفي المعبد — قد تطورت في عهد الدولة الحديثة عندما أصبح من المعتاد عند كبار الموظفين أن يضعوا تماثيلهم ولوحاتهم في المعابد حتى يمكن بذلك اشتراكهم في الأحفال.

والواقع أن عادة وضع التماثيل الخاصة بكبار الموظفين ورجال الدين في المعبد قد بدأت بوصفها ميزة يمنحها الملك خادمًا أمينًا يريد أن يكافئه ويظهر حبه له أمام الآلهة. والظاهر أن أقدم متن مُدَوَّنٌ من هذا النوع يسير إلى ذلك وهو المرسوم الملكي الذي أصدره الفرعون لحماية تماثيل الوزير «إدو».[٣١] وتدل نقوش الدولة الوسطى على أن حكام المقاطعات العظام كانوا يقومون بمثل هذا العمل لأنفسهم[٣٢] وكذلك نجد على قطع من تمثال من عصر الفترة الأخيرة من عهد الدولة الوسطى أنهم يتحدثون عن ذلك ويعدونه ميزة منحهم إياها سيدهم.[٣٣] وكان حق الملك لا يزال بارزًا في ذلك في باكورة الأسرة الثامنة عشرة[٣٤] ولكن بعد ذلك سارت هذه العادة دون الإشارة إلى الإرادة الملكية.

وقبل ذلك العهد كان أمثال هذا التضرع يُنْقَشُ على جدران المقابر واللوحات التذكارية وكان في استطاعة المار بها رؤيتها وقراءتها وكان التضرع على الرغم من أنه كان موجهًا في غالب الأحيان لطبقات معينة من الناس مثل الكتبة والكهنة فإنه كان في الأصل موجهًا لكل الناس الذين يعيشون على الأرض عامة. ويلاحظ أنه في عهد الدولة الحديثة وعهد الدولة البوبسطية من بعدها كان المُتَوَفَّى يوجه خطابه بالتفصيل لطوائف الكهنة الذين يتألف منهم موظفو المعبد، وهذا النوع من التضرع هو الذي نجده في نقوش تماثيل كل من «حاروا» و«أخآمون رو». وعلى أية حال نلحظ أن التفصيل في توجيه الخطاب للكهنة وبخاصة الإشارة إلى واجباتهم المنوعة يظهر أنه كان من الأشياء المستجدة في هذا العصر المتأخر وبخاصة العبارة التالية: «لتأدية الشعائر الصالحة ولعمل القربان والإقامة خدمة الكاهن الشهرية»، وهذه الأمور يظهر أنها تجديد حدث في العصر المتأخر، وبالاختصار نجد أن التضرع للأحياء الذي كان يُنادي به كل من «حاروا» و«أخآمون رو» هو من طراز وضع أساسه في الدولة الحديثة ثم تطور بعدها.

هذا ونجد في نقوش «أخنآمون رو» صلوات للإله «آمون رع» رب «الكرنك» ولآلهة «طيبة» الآخرين ليمنحوا المُتَوَفَّى نصيبًا من قربات المعبد التي تقدم لهم والصيغة التي

كانت موضوعة لذلك هي في الواقع صيغة قديمة تطورت في عهد الدولة الحديثة والقصد منها أنها تذكرنا بالغرض الذي من أجله وُضِعَ تمثال الكاهن أو الموظف العظيم في المعبد. هذا ونجد «لأخآمون رو» ملتمسات أخرى فيطلب مثلًا شم عبير المر، وكذلك يطلب أن يرى الشمس عند الفجر، وأن يخترق السماء في سلام، وهذه رغبات تقليدية قد سبقت عصر الدولة الحديثة، أما الصلاة للإله المحلي للمدينة فكان الغرض منها طلب حمايته للآهلين منذ الدولة الحديثة كما كانت منتشرة جدًّا في العصور المتأخرة.

ومن ثَمَّ نفهم أن صلوات «أخآمون رو» كانت تحتوى جزئيًّا على عناصر شائعة في كل العصور ومنها جزء صيغ في عهد الدولة الحديثة ثم استعمل بكثرة في العهد المتأخر.

العبارات التي يمدح بها الموظف نفسه ونعوته:

من الأمور التي امتاز بها الموظف المصري في كل عصور تاريخه تأليفه جملًا خاصة تنطوي كل ألفاظها على عقود مدح وثناء على نفسه وما قام به من أعمال عظيمة سواء أكانت أعمالًا مادية أم خلقية، فنجد هنا مثلًا أن «أخآمون رو» يقول «إني شريف (سعح) طيب مُحَلًّى بمدائحه ومراتب شرفه»، ويلفت النظر هنا أن الكلمة الدالة على لفظة «الشريف» لها معنى مزدوج فقد تعني أحد أشراف البلاط أو تعني «روحًا منعمة» وهذان المعنيان تجدهما في عهد الدولة الوسطى ولكنهما يوجدان أكثر في عهد الدولة الحديثة ثم تطورتا أكثر في العهد المتأخر.

وقد يشير هذا اللفظ للحياة الدنيا أو للحياة الآخرة. ولدينا كذلك التعبيرات: «الذي يدخل أولًا ويخرج آخرًا» و«الموظف الذي على رأس قومه»، و«العظيم في وظائفه» و«الكبير في مرتبته» فنجد كلًّا من هذه العبارات الثلاث في المتون والتراجم الخاصة بالدولة الوسطى وكلها قد استُعْمِلَتْ في الدولة الحديثة والعصر المتأخر.

ولدينا تعابير أخرى مثل «ملجأ اليائس» و«عوامة الغريق» و«سلم من في الهاوية». وهذه التعابير نجدها في نقوش كل من «حاروا» و«أخآمون رو» ويلحظ أنها استعارات غير عادية تسترعي الأنظار حتى إنها تكاد تكون خاصة بهذا العصر إذ لم يسبق لها مثيل في العصور السالفة غير أنها تنم عما كان عليه أهل هذا العهد من بؤس وشقاء.

هذا وقد نقل «أخآمون رو» بعض تعابير تقليدية عن الدولة الوسطى مثال ذلك: «إن سيدتي قد جعلتني عظيمًا عندما كنت ولدًا صغيرًا ورفعت درجتي عندما كنت

فطيمًا» وهذه عبارات تقليدية نجد أمثالها في نقوش الكاتب الملكي «خنومحتب» في نقوش «بني حسن» وفي نقوش «تف إبي» «بأسيوط».[٣٥]

ومن التعابير التي نُقِلَتْ إلى العهد الذي نحن بصدده أن «حور سيد القصر ميزني» وهذه العبارة لها نظائر في الدولة الوسطى[٣٦] والمقصود بكلمة «حور» هنا الملك.

وكذلك نجد التعبير «وكل بعث أرسلني فيه جلالته قد نفذته تمامًا». وقد كان من أحب الأمور عند الموظفين العظام أن يُوصَفُوا بأنهم قد نفذوا كل بعث أرسلهم فيه الملك.[٣٧]

وهذا قليل من كثير من الملحوظات التي يمكن الإدلاء بها عن محتويات هذه المتون والتماثيل التي نُقِشَتْ عليها، غير أن كل هذا لا يغير من النتيجة التي نستخلصها من درس الجمل الرئيسية التي وردت في هذه النقوش إذ الواقع أن متون «أخآمون رو» تحتوي على مادة تقليدية من التي كانت تُسْتَعْمَلُ في عهد الدولة الوسطى والدولة الحديثة ونجد كثيرًا منها قد أخذ شكله النهائي في عهد الدولة الحديثة؛ ومن ثَمَّ نفهم أن وظيفة الدولة الحديثة كانت مزدوجة فقد حملت للقرون التالية مادة أخذتها عن الدولة الوسطى وكذلك نقلت صيغًا من صنعها، وقد كان نشاط كتاب العصور المتأخرة ينحصر كثيرًا في الاختيار من هذه المواد واستعمالها بطريقة منظمة ملائمة. هذا مع إضافة بعض العبارات الجديدة أو صيغ مبتدعة أُلِّفَتْ من القديم والحديث معًا.

غير أن ما تكشفت لنا عنه متون «أخآمون رو» يمكن معرفة أصولها عند قرنها بأية مجموعة من المجاميع التي يمكن قرنها بها من النقوش الهيروغليفية المتأخرة. والواقع أن هذه المتون في حقيقتها — إذا استثنينا بعض مقتبسات من متون الأهرام وبعض مصطلحات قديمة أخرى — لا تخرج عن كونها تقليدًا للغة الدولة الوسطى والدولة الحديثة وقد ظهر ذلك منذ الأسرة الحادية والعشرين حتى السادسة والعشرين وبعبارة أخرى نجد أنه عندما كانت تستعمل متون الأهرام في هذا العصر كانت تنقل حرفيًّا دون أي تغيير يذكر؛ ولكن نجد من جهة أخرى أن كلًّا من متون الدولتين الوسطى والحديثة كانت تقتبس مع بعض تعديل ثم تستعمل في كتابات القوم. ومما تجدر ملاحظته أن المصادر اللغوية من الدولة الحديثة هي في الواقع مأخوذة عن تعابير الدولة الوسطى بعد تحوير فيها وبخاصة في تراجم عظماء الرجال الذين نُقِشَتْ على تماثيلهم وفي مقابرهم في كل من العهد اللوبي والعهد الكوشي ثم في العهد الساوي. وقد كانت اللغة الفصحى مستعملة دائمًا ولم تشب باللغة المتأخرة، وذلك أنه بعد القرون التي سادها الاضطراب

في عهد تمزق الدولة كانت المواضيع الإنشائية والأدبية سائرة سيرها الطبيعي كالعادة آخذة في النمو دون توقف ولم يكن ذلك قاصرًا على اللغة العامية التي كانت ذات نضارة وقوة لا توجد في النقوش الهيروغليفية التقليدية بل كذلك في اللغة الرسمية.

حقًّا إن هذه اللغة الرسمية كانت قد أصبحت مُصْطَنَعَةً إلى أقصى حد، إذ كان ينقصها التجديد والسهولة عند معالجتها للمواضيع كما كنا نجد ذلك عند معالجة الكتاب للغة الدولة الحديثة والاقتباس منها، فنجد أن التعابير قد زاد حصرها وتكرارها بل كذلك زاد الميل إلى نقلها حرفيًّا من المتون السابقة لعصرها. غير أن منشآت الكتاب على وجه عام كانت حكيمة ومناسبة فلم تكن مجرد نقل عبارات قديمة بل على العكس نلحظ فيها حسن الاختيار الذي كان يؤدي إلى غرض خاص.

ومن المفهوم أنه منذ زمن بعيد كانت المدنية الساوية أو عصر النهضة غير مقصود منه الرجوع إلى الدولة القديمة ومدنيتها، غير أن هذا الفهم غالبًا ما غطت عليه الميول البارزة الدالة على الرجوع للقديم في عهد الأسرة الخامسة والعشرين كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ثم أصبح ذلك الميل أكثر وضوحًا وانتشارًا في عهد الأسرة السادسة والعشرين ولكن نريد أن نوضح هنا دون الدخول في مناقشة المقتبسات القديمة في العهد الساوي وهي ظاهرة يجب أن تُفْحَصَ تمامًا وتُعْطَى عناية أكثر مما أُعْطِيَتْ من قبل، ففي تراجم حياة رجال هذا العصر تكاد تكون العلاقات والتأثيرات التي يُقَالُ إنها صُبِغَتْ بها عن الدولة القديمة، لا تُذْكَرُ في حين نجد أن اعتماد كتاب العهد الساوي على أساليب مدنية عهدي الدولة الوسطى والحديثة كان عظيمًا، وأنه كان تيارًا لم ينقطع مَعِينُهُ دون الرجوع إلى الزمن العتيق وتقليده تقليدًا أعمى كما ظن البعض حتى زمن قريب جدًّا.

وسنتناول الكلام إن شاء الله عن فن النحت في عهد الأسرة الخامسة والعشرين وما بعدها في الجزء التالي من تاريخ العهد الكوشي الذي يبتدئ بالملك «بيعنخي».

هوامش

(١) راجع: Seheil, La Tombe D’Aba.

(٢) راجع: Daressy, Stat. de Divinités Nr. 38372, Rec.des Cones Fu-neraires Mem. Miss Fr. Arch. Tom, VIII N. 218.

(٣) «حعع إب رع» و«أح أب رع» راجع L.R. III, p. 104.

(٤) راجع: A.S., V, p. 84.

(٥) راجع: L.D. III, p. 274.

(٦) راجع: A.S., VI, p. 131.

(٧) راجع Gardiner and Weigall, Topographical Catalogue.

(٨) راجع: J.E.A, Vol.III p.196.

(٩) راجع: A.S., V. p. 84.

(١٠) راجع: Holscher, Oriental Instit, Nr, 14284 Pl, IX (Chicago).

(١١) راجع: Chicago Natural History Museum Nr, 31717 PI. X.

(١٢) راجع: Louvre A. 85.

(١٣) راجع: Louvre, E., 13106.

(١٤) راجع: Caire Journal D'Entree, Nr. 37346-Cachette Karnak No. 471.

(١٥) راجع: Y. 37386.

(١٦) راجع: A.S. VII, 190; Rec. Trav. XXVII, p. 80.

(١٧) راجع: Caire Journal D'Entree, Nr. 39321.

(١٨) راجع: Louvre A. 85.

(١٩) راجع: Caire Journal D'Entree No. 37872.

(٢٠) راجع: A.S. Tom. XXXVII p. 219 and Anthes, A.Z. LXXIII, p. 25; A.Z. LXXIV, p.2.

(٢١) راجع عن هذا اللقب B.I.F.A.O., XXXIV, p. 75.

(٢٢) راجع: Caire. J. 37346.

(٢٣) راجع: Caire, No., 37321.

(٢٤) راجع: Caire, JE., Nr. 37872.

(٢٥) راجع: Caire J.E., 31885.

(٢٦) راجع: J.N.E.S., Vol. XIII, July, 1945, p. 159 ff.

(٢٧) راجع: Ibid, p. 161.

(٢٨) راجع: Ibid, p. 162. J.E. de Caire, 37866.

(٢٩) راجع: J.N.E.S., Ibid, p. 165.

(٣٠) راجع: S.Sauneron et J. Yoyotte, B.I.F.A.O.L., (1952), p. 201 Note 4-6.

(٣١) راجع: Ur kw 1, 304-306, First Intermediate Period.

(٣٢) راجع: Griffith, Suit PI. VI, 273 and PI VII, 290 (Hepdjefy), New-berry Beni Hassan I, PI. XXV, 83-84 Urk. VII,; 29,13 Khnumhotep II.

(٣٣) راجع: Marlette, Karnak PI VIL f.p.q.r.s,, of Maspero, Etudes de Mythologie, 1,53-81.

(٣٤) راجع: Urk. IV, 45-46.

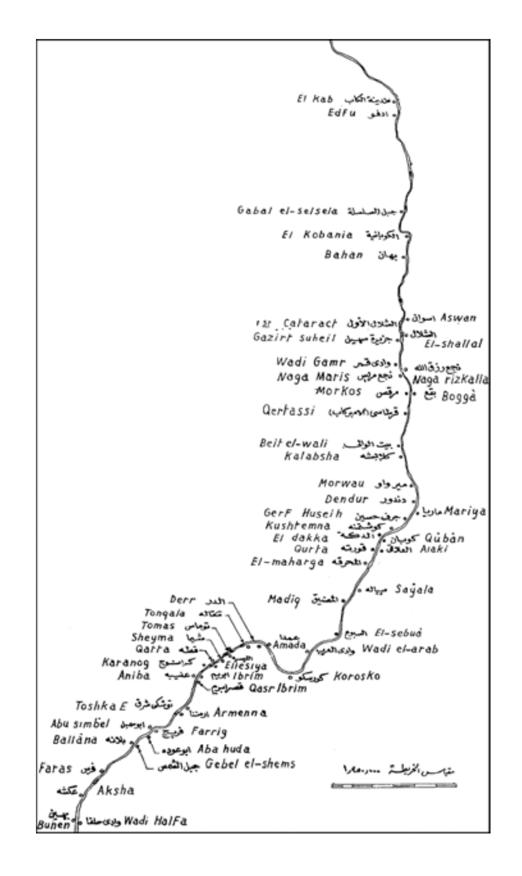
(٣٥) راجع: Newberry, Beni Hassan, I, PI. XLI, e (Tomb 13); Griffith, Siut PI. XI, 13; Br., A.R., I, p. 395 note.

(٣٦) راجع: Hierog. Insc, Berlin I, 146 No. 8808; Urk. VII, 62 Siut.

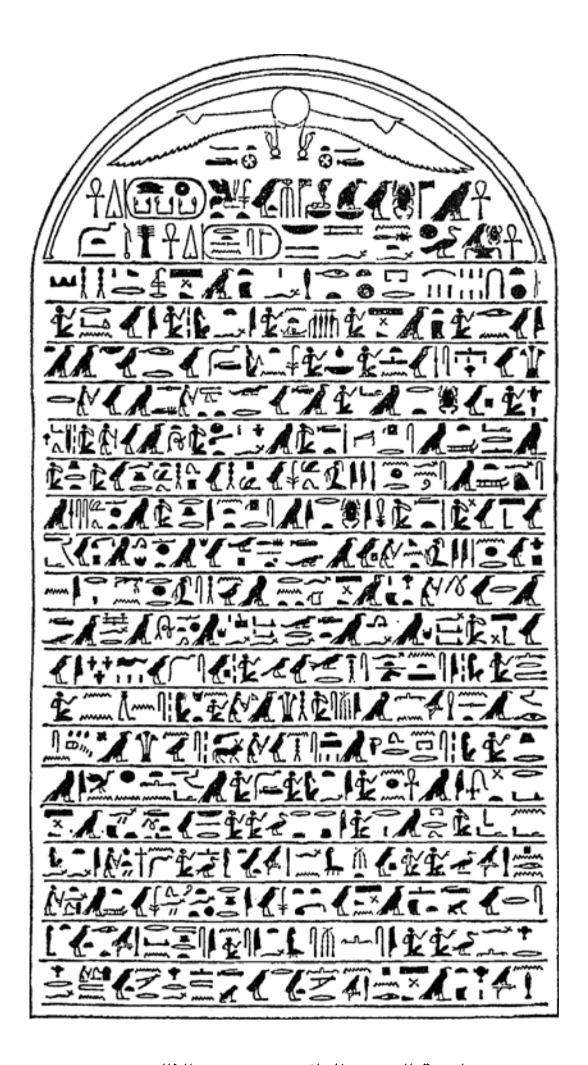
(٣٧) راجع: Urk., I, 134.

الفصل الخامس والعشرون

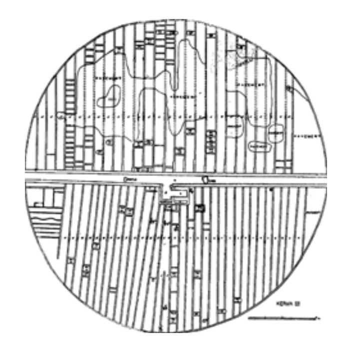
الأشكال الإيضاحية والخرائط



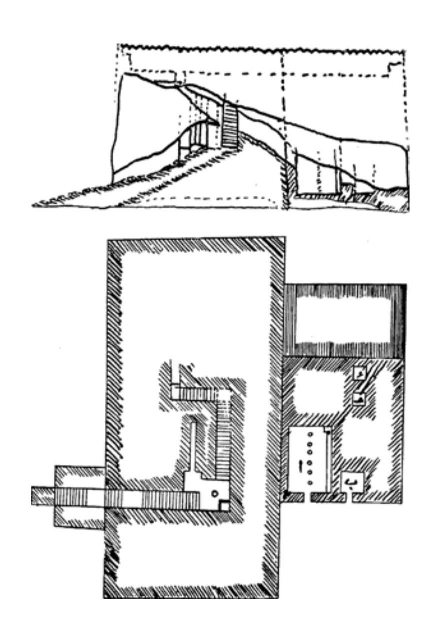
خريطة بلاد النوبة السفلى.



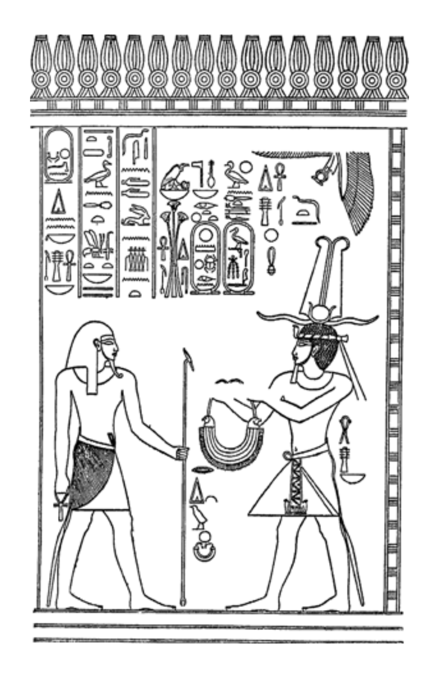
لوحة الحدود للملك «سنوسرت الثالث».



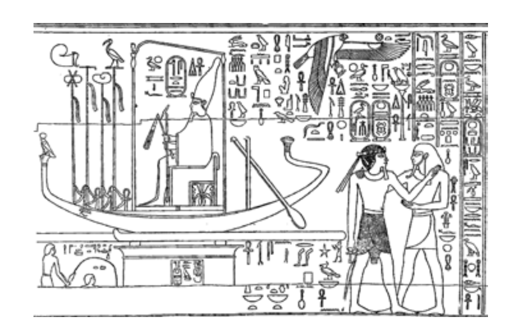
مقبرة كرمة رقم (٣).



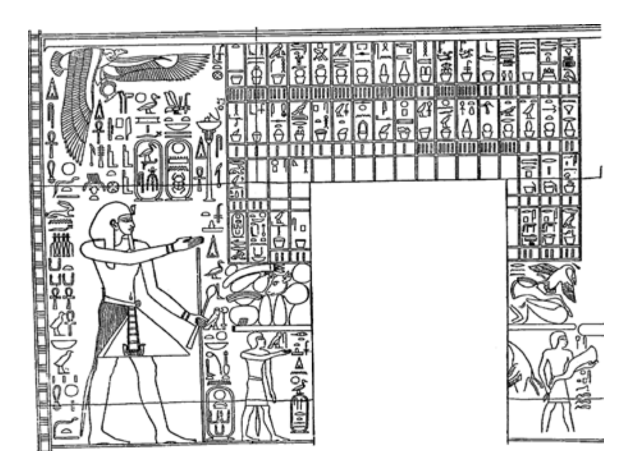
مستودع كرمة.



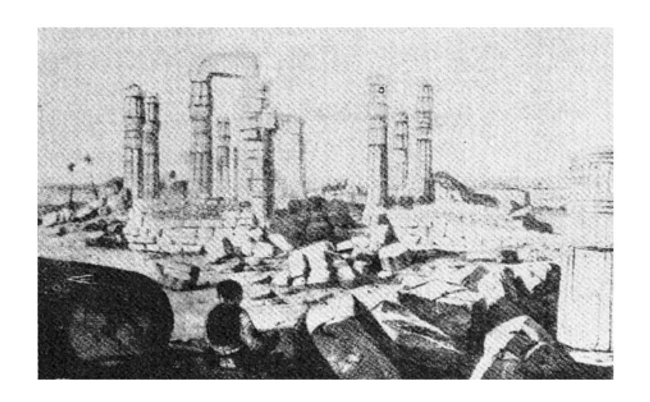
الإله ددون يقدم قلادة للملك تحتمس الثالث.



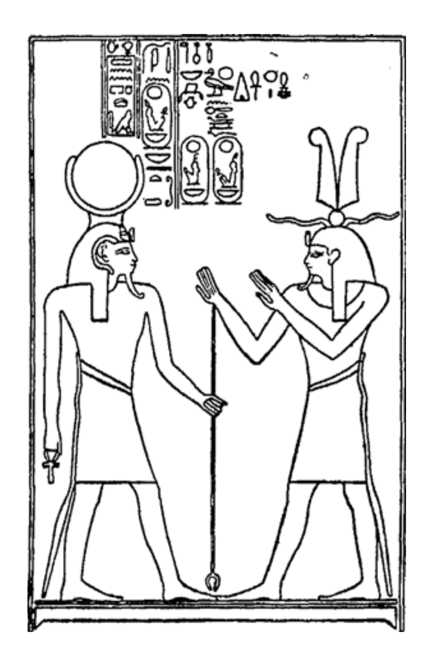
سنوسرت الثالث مؤلهًا في مركب الشمس.



تحتمس الثالث يتعبد للإله سنوسرت الثالث.



منظر معبد أمنحتب الثالث في صلب.



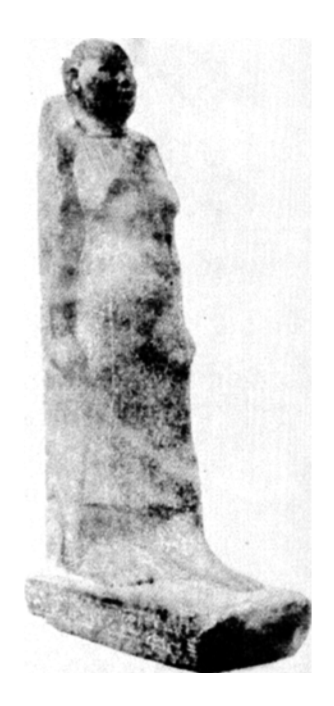
أمنحتب الثالث يتعبد لتمثاله في صورة الإله خونسو في معبد «صلب».



كروكي لمدافن ملوك الأسرة الخامسة والعشرين في جبانة الكورو.



تمثال حاروا (رقم ١).



تمثال أريجاديجانن.



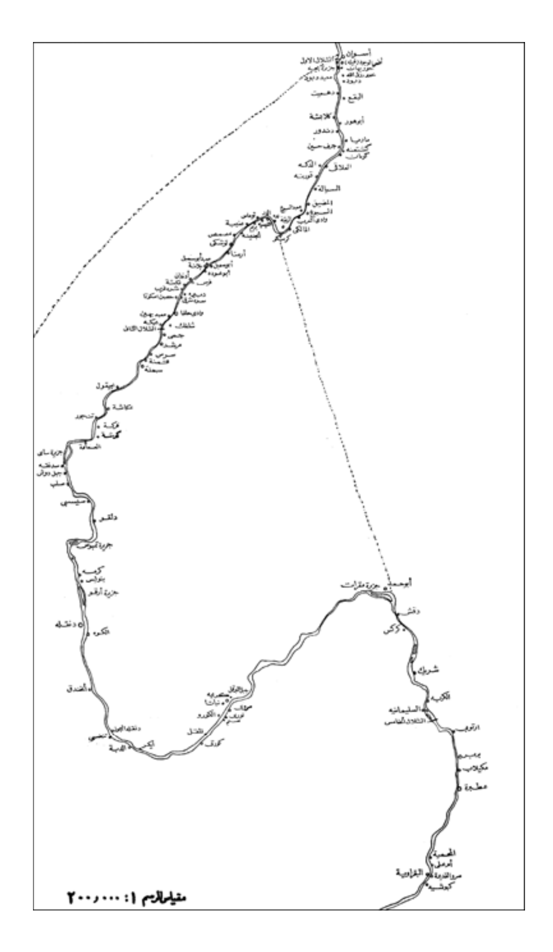
التمثال الخامس لمدير البيت العظيم «حاروا».



تمثال أخآمون (رقم ٣).



تمثال باكنبتاح.



خريطة بلاد «كوش».

الفصل السادس والعشرون

المصادر الأفرنجية

(١) مختصر أسماء الدوريات الأفرنجية

- **A.J.S.L.:** The American Journal of Semitic Languages and Literatures, Chicago and New York.
- **Ancient Egypt,** London.
- **A.S.:** Annales du Service des Antiquites de l'Egypte, Caire.
- **A.S.N. Bull.:** Survey Depàrtment, Archaeological Survey of Nubia, Cairo.
- **A.Z.:** Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Leipzig.
- **Bull. Baston M.F.A.:** Bulletin of the Museum of Fine Arts, Boston.
- **Bull. Inst. Fr.:** Bulletin de l'Institut Français d'Archeologie Orientale Caire.
- **Chronique d'Egypte,** Brüssel.
- **The Egyptian Expedition Metropolitan Museum:** The Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, New York.
- **J.E.A.:** Journal of Egyptian Archaeology, London.
- **Journal Asiatique.**
- **Kemi,** Revue de Philologie et d'Archaeologie, Egyptienne et Coptes. Paris.

- **L.A.A.A.:** Annals of Archaeology and Anthropology issued by the Institute of Archeology, University of Liverpool, Liverpool.
- **Mélanges Maspero,** i.e. Mem Inst. Fr.
- **Mem. Inst. Fr.:** Mémoires publiés par les Membres de l'Instituts Française d'Archeologie Orientale, Caire.
- **Mem. Miss Fr.:** Mémoires publies par les Membres de la Mission Française du Caire, (Ministre de l'Instruction Publique et des Beux Arts).
- **Mitt. D. Inst.:** Mitteilungen des Deutschen Instituts für Ägyptischs Altertumskunde in Kairo, Berlin.
- **O.L.Z.:** Orientalische Literaturzeitung Monatsschrift für die Wis-senschaft von ganzen Orient, Leipzig.
- **P.S.B.A.:** Proceedings of the Society of Biblical Archaeology, London.
- **Rec. Trav.:** Recueil des Travaux Relatifs à la Philologie et à l'Archeologie Egyptiennes et Assyriennes, Paris.
- **Rev. de l'Egypte Anc.:** Revue de l'Egypte Ancienne, Paris.
- **Revue d'Egyptologie,** Paris.
- **Revue Egyptologique,** Paris.
- **Sphinx,** Revue Critique Embrassant le Domaine Entier de l'Egyptologie Upsala.
- **Sudan Notes and Records,** Khartoum.
- **Z.D.M.G.:** Zeitschrift der Deutschen Morgenladischen Gesellschaft, Leipzig.

(٢) المراجع الأفرنجية

- **Albright, W. F.,** The Archaeology of Palestine and the Bible.
- **Albright, W. F.,** The Excavation of Tell Beit Mirsim, 1 A: The Bronze Age Pottery of the Fourth Campaign, Yale University, 1933.
- **Anthes, R.,** Die Felseninschriften von Hantnub, Leipzig, 1928.
- **Avedief, V.,** The Origin and Development of Trade and Cultural Relations of Ancient Egypt with Neighbouring Countries (Papers presented by the Soviet Delegation at the 23rd International Congress of Orientalism, 1954).
- **Bates, O.,** The Eastern Libyans, London, 1914.
- **Baumgartel, Elise J.,** The Culture of Prehistoric Egypt, Oxford, 1927.
- **Blackman, A. M.,** The Temple of Derr, Cairo, 1913.
- **Blankenhorn, M.,** Aegypten, Heidelberg, 1921.
- **Borchardt, L.,** Altägyptische Festungen an der Zweiten Nilchnelle, Leipzig, 1923.
- **Boreux, C.,** Etudes de Nautique Egyptienne. L'art de la Navigation en Egypte jusqu'a la fin de l'Ancien Empire, (Memo, Inst. Fr. 50).
- **Breasted, J. H.,** Ancient Records of Egypt. Historical Documents from the Earliest Times to the Persian Conquest, I–IV, Chicago, 1906; V, Chicago, 1909.
- **British Museum,** A Guide to the Egyptian Galleries, Sculptures, etc. 1909.
- **British Museum:** Hieroglyphic Texts from Egyptian Stelae, I–VII vols., 1911.
- **Brugsch, H. K.,** Thesaurus Inscriptionum Aegyptiacarum. Altaegyptische Inschriften gesammelt verglichen, ubertragen, erklart

und Autographiert von H. Brugsch A bteilung I–VI Leipzig, 1883 ff.

- **Brunner–Traut,** E, Der Tanz im Alten Agyten, 1938.
- **Brunton, G.,** Mostagedda and the Tasian Cultures (British Museum Exploration to Middle Egypt 1st. and 2nd years 1928, 1929), London, 1931.
- **Brunton, G.,** Qau and Badari III, London 1930.
- **Brunton C., and Caton–Thompson, G.,** The Badarian Civilisation and Predynastic Remains near Badari, 1928.
- **Budge, E. A. W.,** The Egyptian Sudan, Its History and Monuments in 2 vols., London 1907.
- **Burckhardt. J. L.,** Travels in Nubia, London, 1819.
- **Carnarvon, G.E.S.M.A. and Carter, H.,** Five Explorations at Thebes, **A record** of work done 1907–1911, London, 1912.
- **Carter, H. and Mace, A.E.,** The Tomb of Tut Ankh Amun discovered by the late Earl of Carnarvon and Howard Carter 4, London, 1930.
- **Carter, H. and Newberry, P.E.,** The Tomb of Thutmosis IV, Westminster, 1904.
- **Davies, N. De G.,** The Rock Tombs of Sheikh Said, London, 1901.
- **Davies, N. De G.,** The Tomb of Huy, Viceroy of Nubia in the Reign of Tut Ankh Amun, London, 1926.
- **Davies, N. De G.,** Tomb of Ken–Amun at Thebes, 2 vols., New York, 1930.
- **Davies, N. De G.,** Tomb of Neferhoteb at Thebes, 2 vols. New York, 1933.
- **Davies, N. De G.,** The tombs of two Officials of Thutmosis the fourth, London, 1923.

- **Davies, N. De G.,** The Rock Tombs of El Amarna, I–IV, London, 1903–1908.
- **Davis Th. M. and Maspero, G. u. a.,** The Tomb of Siptah, the Monkey Tomb and the Gold Tomb, London, 1908.
- **Drioton, E., and Vandier, G.,** L'Egypte, Paris, 1938.
- **Dunbar, G. H. Sarra,** The Rock Pictures of Lower Nubia.
- **Dunham, Dows,** The Royal Cemeteries of Kush, El Kurru, Cambridge, 1950.
- **Emery, W. B., and Kirwan, L.R.,** The Excavations and Survey between Wadi Es Sebua and Adindan, 1929–1931, Cairo, 1935.
- **Engberg, S. M.,** The Hyksos reconsidered, Chicago, 1939.
- **Erichsen, W.,** Papyrus Harris I, Brüssel, 1933.
- **Ermann, A.,** Aegypten und Aegyptischen Leben im Altertum Neu bearb, von H. Ranke., Tubingen, 1923.
- **Evans A.,** The Palace of Minos at Knossos, I–II, Vols., London, 1921 ff.
- **Firth, C. M.,** The Archaeological Survey of Nubia Report for 1908–1915, Cairo, 1915. Report for 1909–1910, Cairo, 1915. Report for 1910–1911; Cairo, 1927.
- **Firth, C. M. and Quibell, J. E.,** The Step Pyramid, Cairo, 1936.
- **Fritzler, K.,** Steinbrüche und Bergwerke im Ptolemäischen und Römischen Agypten, Ein Beitrag zur Antikeu Wirtschaftsgeschichte Diss., Leipzig, 1910.
- **Gardiner, A. H.,** Egyptian Grammar, Oxford, 1927.
- **Gardiner, A. H.,** Ancient Egyptian Onomastica, Oxford, 1947.
- **Gardiner, A. H.,** The Inscription of Mess, Leipzig, 1905.
- **Gardiner, A. H.,** Late Egyptian Miscellanies, Cairo, 1914.
- **Gardiner, A. H.,** The Admonitions of an Egyptian Sage from a Hieratic, Papyrus in Lieden, Leipzig, 1909.

- **Garstang, G.,** Moroe, The City of the Ethiopean, Oxford, 1911.
- **Garstang, G.,** La Livres des Rois d'Egypte, d'Egypte, I–III Vols.
- **Garstang, G.,** Precis de L'Histoire de l'Egypte, Caire, 1932.
- **Garstang, G.,** La Temple d'Amada, Caire, 1926–1926.
- **Garstang, G.,** La Temple de Kalabchah, Caire, 1911–1927.
- **Garstang, G.,** Dictionnaire des Nom Geographiques contenus dans les Textes Hieroglyphiques. Caire, 1925.
- **Griffith F. Ll.,** The Oxford Excavations in Nubia.
- **Helck, H. W.,** Der Einfluss der Militarfuhrer in der 18 Agypischen Dynastie, Leipzig, 1939.
- **Hieratische Papyrus aus den Koniglichen Museen zu Berlin,** Leipzig, 1911.
- **Hölscher, W.,** Libyer und Ägypter, Gluckstadt–Hambirg, Ney York, 1937.
- **Jaquier, G.,** Le Monument Funéraire de Pepi II, Caire 1939.
- **Junker, H.,** Der Nubische Ursprung der Sogenannten Tell el Jahudiye Vasen, Wien 1921.
- **Junker, H.,** Das Erste Auftreten der Neger in der Geschichte, Wien, 1925.
- **Junker, H.,** Bericht über von der Akademie der Wissenschaften in Wien auf gemeisame Kosten mit Dr. Wilhelm Pelizaeus Unter-nomonenen, Grabungen auf dem Friedgof des Alten Reiches bei den Pyramiden von Giza, Wien, Leipzig, 1934.
- **Junker, H.,** Bericht über die Grabungen der Akademie der Wis-senschaften in Wein auf den Friedhofen von Ermenne (Nubien) im Winter 1911–1912, Wien, 1925.
- **Junker, H.,** Ditto Ditto von Kubanieh Nord im Winter 1910–1911, Wien 1919.

- **Junker, H.,** Ditto Ditto Ditto von El Kubaineh Süd im Winter 1910–1911, Wien 1919.
- **Junker, H.,** Ditto Ditto von Toschke (Nubien) im Winter 1911–1912, Wien, Leipzig, 1926.
- **Junker, H.,** Giza, Vorbericht, 1913, Wien, 1927.
- **Junker, H.,** The first Appearance of the Negroes in History.
- **Junker, H., and Delaporte, L.,** Die Völker des Antiken Orients. Die Agypter, von H. Junker, Freiburg, 1933.
- **Kees, H.,** Totenglauben und Jenseitsvorstellungen der Alten Ägypter, Grundlagen und Entiwicklung bis zum Ende des Mittleren Reiches, Leipzig, 1926.
- **Kees, H.,** Beiträge zur Altägyptischen Provinzialverwaltung und der Geschichte des Feudalismus, 1932.
- **Kees, H.,** Herihor un die Aufrichtung des Thebanischen Gottesstaates Gottingen, 1936.
- **Kees, H.,** Kultlegende und Urgeschichte Grundsätzliche Bemerkungen zum Horusmythus von Edfu, 1930.
- **Kees, H.,** Beiträge zur Geschichte des Vezirats im Alten Reich. Die Chronologie der Vezire unter König Phiops II, Gottingen, 1940.
- **Knight, F.,** Nile and Jordan, 1921.
- **Kortenbeutel, H.,** Der Ägyptische Süd–und Osthandel in der Politik der Ptolemäer und Romischen Kaiser, Berlin, 1931.
- **Lange, H. O. and Schäfer, H.,** Grab–und Denksteine des Mittleren Reichs., Berlin 1902–1925.
- **Lepsius, C. R.,** Denkmaler aus Aegyten und Aethiopien, Berlin, 1894.
- **Lieblein,** Dictionnaire des Noms Hieroglyphiques en Ordre Genealogique et Alphabitique, Christiania, 1871.

- **Loat, L.,** Groub, London, 1905.
- **Lucas, A.,** Ancient Egyptian Materials and Industries 2nd rev. Ed. London. 1934.
- **Macadam, M. F. Laming,** The temple of Kaw, I–II Vols., London, 1949.
- **Maciver, D. R. and Woolley, C. L.,** Buhen, 2 vols., Philadelphia, 1911.
- **Maciver, D. R. and Woolley, C. L.,** Areika, Oxford, 1909.
- **Macmichael, H. A.,** A History of the Arabs in the Sudan, 2 Vols., Cambridge, 1922.
- **Mariette,** Catalogue General des Monuments d'Abydos Decoverts pendant les Fouilles de cette Ville, I–II, Paris, 1880.
- **Mariette,** Monuments Divers Recueilles en Egypte et en Nubie. Paris, 1889.
- **Maspero,** Melanges d'Archeologie Egyptien.
- **Meyer, Ed.,** Geschichte des Altertums. Stuttgart, Berlin, 1921.
- **Möller, G.,** Hieratische Lesestucke für den Akademischen Gebrauch. I–II, Leipzig, 1910.
- **Montet,** Byblos et L'Egypte.
- **Montet,** Les Reliques de L'Art Syrien.
- **Moret, A.,** L'Egypte Pharaonique, Paris, 1932.
- **De Morgan, J.,** Catalogue de Monuments et Inscriptions de L'Egypte Antique, 1er sér. Haute Egypte, Wien, 1894.
- **Muller, M. W.,** Die Felsengräben du Fürsten von Elphantine, 1940.
- **Muller, M. W.,** Die Liebespoesie der Alten Ägypter, Leipzig 1899.
- **Murray, M. H.,** Saqqara Mastabas, London, 1905.
- **Naville, E.,** The XIth Dynasty Temple at Dier El-Bahari, I–III Vols. London, 1907, 1910, 1913.

- **Naville, E.,** Bubastic (1887–1889), London, 1891.
- **Newberry, P.E.,** The Set Rebellion of the IInd Dynasty, 1922.
- **Newberry, P.E.,** Egyptian Antiquities, Scarabs, London, 1906.
- **Otto, H.,** Studien zur Keramik der Mittleren Bronzezeit in Palastine, 1938.
- **Peet, T.E., and Loat, W. S. L.,** The Cemeteries of Abydos, I–III Vols.
- **Pendlebury,** J. D. S. Aegyptiaca, a Catalogue of Egyptian Objects in the Aegean Area, Cambridge, 1930.
- **Petrie, W. M. Fl.,** Prehistoric Egypt, London 1920.
- **Petrie, W. M. Fl.,** Six Temples at Thebes, 1896, London, 1897.
- **Petrie, W. M. Fl.,** Diospolis Parva, the Cemeteries of Abadiyeh and Hu 1898–99 London, 1901.
- **Petrie, W. M. Fl.,** Gizeh and Rifeh, London, 1907.
- **Petrie, W. M. Fl.,** A Season in Egypt, 1887, London, 1888.
- **Petrie, W. M. Fl.,** A History of Egypt, London, 1894.
- **Petrie, W. M. Fl.,** Royal Tombs of the 1st Dynasty, London, 1900.
- **Petrie, W. M. Fl.,** Royal Tombs of the Earliest Dynasties, London, 1901.
- **Petrie, W. M. Fl.,** Qurnah, London, 1909.
- **Petri. W. M. Fe., and Duncan, J. G.,** Hyksos and Israelite Cities, London, 1906.
- **Piehl, K.,** Inscriptions Hieroglyphique recueillies en Europe et en Egypte, Stockholm, 1884.
- **Pirenne, J.,** Histoire des Institutions et du Droit privé de l'Ancienne Egypte, Brussel, 1932–1935.
- **Plyte, W., and Rossi, F.,** Papyrus de Turin, Leiden, 1869–76.
- **Porter and Moss,** Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Inscriptions, Texts, Reliefs, and Paintings, I–IV Vols., Oxford, 1921–1937.

- **Posner G.,** Princes et Pays d'Asie et de Nubie, Brussel, 1940.
- **Quibell, J. E. and Green, F. W.,** Hierakonpolis, London, 1902.
- **Reisner, G. A,** Excavations at Kerma, I–III, IV–V, U.S.A., 1923.
- **Reisner, G. A,** The Archaological Survey of Nubia, Report for 1927, 1908 Cairo, 1910.
- **Roeder, G.,** Der Felsentempel von Bet El-Wali, Cairo, 1938.
- **Roeder, G.,** Debod bis Bab-Kalabsche, I–II, Caire, 1911.
- **Roeder, G.,** Der Tempel von Dakke, I–III Cairo, 1930.
- **Rowe, A.,** Catalogue of Egyptian Scarabs in the Palestine Arch. Museum.
- **Save-Soderbergh, Torgny,** Egypten und Nubien, 1941.
- **Schafer, H.,** Urkenden der Alten Athiopenkonige, Leipzig, 1905.
- **Schafer, H.,** Kriegerauswanderungen unter Psammatik und Sölderaufstand unter Apries. Leipzig, 1904.
- **Sjoqvist, E.,** Problems of the Late Cypriote Bronze Age, Stockholm, 1940.
- **Seligman C. G.,** Egypt and Negro Africa, London, 1934.
- **Sethe, K.,** Die Tronwirren unter den Nachtoflogun Konigs Thut-mosis I, ihr Verlauft und ihre Bedeutung., Leipzig, 1896.
- **Sethe, K.,** Die Achtung Feindlicher Fursten Volker und Dinge auf Altägyptischen Tongefassscherben des Mittleren Reiches, Berlin, 1926.
- **Sethe, K.,** Die Altägyptischen Pyramidentexte, nach den Papierab-drüchen und Photographique des Berliner Museums, Leipzig, 1908 ff.
- **Sethe, K.,** Die Bau-und Denkmaleteine per alten Ägypter und ihre Namen 1933.
- **Sethe, K.,** Urgeschichte und alteste Religion der Ägypten, Leipzig, 1930.

- **Sethe, K.,** Aegyptische Lesestücke zum Gebrauch im Akademischen Unterricht Texte des Mittleren Reiches, Leipzig, 1929.
- **Sethe, K.,** Urkunden des alten Reichs, Leipzig, 1932 ff.
- **Steindorff, G.,** Aniba, Vorlaufiger Bericht uber die Ergebnisse der in den Jahren 1912–1914 und 1930–1931 I–II Vols. 1935, 1937.
- **Stock,** Studien zur Geschichte und Archeologie der 13 bis 17 Dynastie Agypten, 1942.
- **Wainwright, G. A.,** Balabish, London, 1920.
- **Weigall, A. E. P.,** A Report on the Antiquities of Lower Nubia, Oxford, 1907.
- **Weill, R.,** Les Décrets Royaux de l'Ancien Empire Egyptien, Paris, 1912.
- **Weill, R.,** La Fin du Moyen Empire Egyptiene., Paris, 1918.
- **Wiedmann, A.,** Aegyptische Geschichte, Goth. 1884.
- **Wiedmann, A.,** and **Portner,** Aegyptische Grabsteine, und Denksteine aus verscheidenen Sammlungen.
- **Wilkinson, J. G.,** Manners and Customs of the Ancient Egyptians, 3 Vols. London 1837.
- **Williams, C. R.,** Gold and Silver Jewelry and Related Objects, New York, 1923.
- **Winlock H. E.,** The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York, 1947.
- **Wolf, W.,** Die Kultische Rolle des Zwerges in Alten Ägypten (Anthropos 33).
- **Wreszinski, W.,** Atlas zur Altaegytischen Kulturgeschichte, 2 Bande, Leipzig, 1914.